سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٥٥٧)

خائنة الأعين

من خلال مصنفات التفسير

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٣هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

١-"إيجاز البيان عن معاني القرآن ، ج ٢ ، ص : ٧٢٦

الكاظمون أصحاب القلوب «١».

٢٨ يصبكم بعض الذي يعدكم : هذا باب من النظر يذهب فيه إلى إلزام الحجة بأيسر الأمر ، وليس فيه نفي الكل. قال الشاعر - وهو النابغة «٢» - :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون من المستعجل الزلل

فكان مؤمن آل فرعون - وهو حزبيل «٣» - ، وكان لفرعون بمنزلة ولي العهد قال : أقل ما يكون في صدقه : أن يصيبكم بعض الذي يعدكم ، وفي بعض ذلك هلاككم.

١٩ **خائنة الأعين** : هو مسارقة النظر «٤» ، أو النظر إلى ما نهي عنه «٥» ، أي : يعلم الأعين الخائنة.

٤٦ يعرضون : تجلد «٦» جلودهم في النار غدوة وعشيا بهذه المقادير من ساعات الدنيا.

قال الحسن «٧» : وجميع أهل النار تعرض أرواحهم على النار غير

---

(١) معاني القرآن للزجاج : ٤/ ٣٦٩ ، وإعراب القرآن للنحاس : ٤/ ٢٩ ، والتبيان للعكبري : ٢/ ١١١٧.

(٢) كذا في الأصل ولم يرد اسمه في نسخة (ك) ، والصحيح أنه القطامي والبيت في ديوانه : ٢ من قصيدة طويلة ، وبعده :

و الناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

(٣) نقله الماوردي في تفسيره : ٣/ ٤٨٥ عن الكلبي ، وعزاه البغوي في تفسيره : ٤/ ٩٦ إلى ابن عباس رضي الله عنهما وأكثر العلماء.

وقيل في اسمه : «شمعان» بالشين المعجمة ، قال السهيلي في التعريف والإعلام : ١٥١ :

«و هو أصح ما قيل فيه».

وانظر الاختلاف فيه في زاد المسير : ٧/ ٢١٧ ، وتفسير القرطبي : ١٥/ ٣٠٦.

(٤) نقله الماوردي في تفسيره : ٣/ ٤٨٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وذكره البغوي في تفسيره : ٤/ ٩٥ دون عزو.

(٥) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : ٢٤/ ٥٤ عن مجاهد ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : ٧/ ٢٨٢ وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد أيضا.

(٦) في «ج» : تجدد.

(٧) لم أقف على تخريج هذا الأثر.". (١)

---

(١) إيجازالبيان عن معاني القرآن ٢/٧٢٦

٢-"(٦٢) - قال رجل من المنافقين عن رؤساء المنافقين ، الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فنزل فيهم ما نزل من القرآن : (إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإذا كان ما يقوله محمد حقا ، لهم شر من الحمير) . فسمعه رجل مسلم فقال : إن محمدا لا يقول إلا حقا ، ولأنت شر من الحمار) . ثم ذهب المسلم إلى رسول الله يحدثه بما جرى . فأرسل النبي إلى المنافق وسأله ، وقال ما حملك على ما قلت؟ فأخذ المنافق يحلف بالله إنه ما قال ذلك . وقال الرجل المسلم : اللهم صدق الصادق ، وكذب الكاذب . فأنزل الله هذه الآية الكريمة .

فهؤلاء المنافقون يحلفون لكم على أنهم ما قالوا ما نقل عنهم مما يورث أذى النبي ليرضوكم ، فلا تخبروا النبي ، مع أن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين ، لأن الله لا يخفى عليه شيء ، ويعلم **خائنة الأعين** . وما تخفي الصدور .". (١)

٣-"﴿ خائنة ﴾

(١٩) - وهو تعالى يعلم كل شيء حتى إنه ليعلم العين الخائنة التي تنظر خلسة إلى ما لا يحل لها . ويعلم خبايا الصدور من الضمائر والسرائر ، وما توسوس به النفس .

خائنة الأعين - النظرة الخائنة إلى ما لا يحل .". (٢)

٤-"سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ من خير وشر فهو تعالى فوق عرشه بائن من خلقه ويعلم سر عباده وجهرهم ويعلم أعمالهم وما يكتسبون بجوارحهم يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، لذا وجبت الرغبة فيما عنده من خير، والرهبة مما لديه من عذاب، ويحصل ذلك لهم بالإنابة إليه وعبادته والتوكل عليه.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١- وجوب حمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله.

٢- لا يصح حمد أحد بدون ما يوجد لديه من صفات الكمال ما يحمد عليه.

٣- التعجب من حال من يسوون المخلوقات بالخالق عز وجل في العبادة.

٤- التعجب من حال من يرى عجائب صنع الله ومظاهر قدرته ثم ينكر البعث والحياة الآخرة.

٥- صفة العلم لله تعالى وأنه تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يعلم السر وأخفى.

وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين(٤) فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون(٥) ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا

---

(١) أيسر التفاسير لأسعد حومد ص/١٢٩٨

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد ص/٤٠٣١

الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين(٦)". [(١)]

٥-"معنى الآيات:

سبق أن ذكرنا أنه لقبح وفساد الزنى وسوء أثره على النفس والحياة البشرية وضع الشارع عدة أسباب واقية من الوقوع فيه ومنها الأمر بغض البصر للرجال والنساء فقوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا١ فن أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ أي مر يا رسولنا المؤمنين بأن يغضوا من٢ أبصارهم أي بأن يخفضوا أجفانهم على أعينهم حتى لا ينظروا إلى الأجنبيات عنهم من النساء ويحفظوا فروجهم عن النظر إليها فلا يكشفوها لأحد إلا ما كان من الزوج لزوجه فلا حرج وعدم النظر أولى وأطيب، وقوله: ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي أطهر لنفوسهم من نوافل العبادات، وقوله: ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ فليراقبوه تعالى في ذلك المأمور به من غض البصر وحفظ الفرج إنه يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

وقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن٣﴾ إذ شأنهن شأن الرجال في كل ما أمر به الرجال من غض البصر وحفظ الفرج وقوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ أي مرهن بغض البصر وحفظ الفرج وعدم إظهار الزينة ﴿إلا ما ظهر منها﴾ مما لا يمكنها ستره وإخفاؤه كالكفين عند تناول شيء أو إعطائه أو العينين تنظر بهما وإن كان في اليد خاتم وحناء وفي العينين كحل وكالثياب الظاهرة من خمار على الرأس وعباءة تستر الجسم فهذا معفو عنه إذ لا يمكنها ستره.

وقوله تعالى: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ كانت المرأة تضع خمارها على رأسها مسبلا على كتفيها فأمرت أن تضرب به على فتحات درعها حتى تستر العنق والصدر سترا كاملا وقوله: ﴿ولا يبدين زينتهن٤﴾ أعاد اللفظ ليرتب عليه ما بعده من المحارم الذي يباح للمؤمنة أن تبدي زينتها إليهم وهم الزوج، والأب والجد وان علا وأب الزوج وإن علا وابنها لان سفل وأبناء الزوج وإن نزلوا، والأخ لأب أو الشقيق أو لأم وأبناؤه وأن نزلوا، وابن الأخ

---

١ غض البصر واحترام النساء بعدم النظر إليهن معروف في الجاهلية وهذا عنترة بن شداد يقول:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي

حتى يواري جارتي مأواها؟

لم يذكر الله تعالى ما يغض البصر من أجله للعلم به وهو: وجود النساء الأجنبيات، وكذا ما يحفظ منه الفرج، وهو: النظر إليه والزنى واللواط.

٢ ﴿من﴾ جائز أن تكون زائدة في يغضوا أبصارهم، وجائز أن تكون للتبعيض لجواز النظر إلى المحارم.

٣ ورد في الأمر بغض البصر في السنة قوله صلى الله عليه وسلم "إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وقال لعلي رضي الله عنه "لا تتبع النظرة النظرة فإنما

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري ٣٦/٢

لك الأولى وليست لك الثانية".

٤ قال ابن عطية: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية: أن المرأة مأمورة بأن لا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر لحكم ضرورة حركة فيما لابد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك فيما ظهر على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه.". (١)

٦-"هداية الآيات

من هداية الآيات:

١- عدم جدوى الاعتذار يوم القيامة هذا فيما لو أذن للعبد أن يعتذر فلا ينفعه اعتذار.

٢- تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد.

٣- بيان إفضال الله على العباد إذ يريهم آياته لهدايتهم ويرزقهم وهم يكفرون به.

٤- وجوب إخلاص الدعاء وسائر العبادات لله وحد ولو كره ذلك المشركون.

٥- تقرير النبوة، وبيان الحكمة فيها وهي إنذار الناس من عذاب يوم القيامة حيث الناس بارزون لله لا يخفى على الله منهم شيء فيحاسبهم بعلمه وعدله فلا ينقضي نهار إلا وقد استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار اللهم أعذنا من نار جهنم.

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع(١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور(١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير(٢٠)

شرح الكلمات:

يوم الآزفة : أي يوم القيامة.

إذ القلوب لدى الحناجر: أي من شدة الخوف تكون القلوب قد ارتفعت حتى وصلت عند الحناجر.

كاظمين : أي لقلوبهم يريدون ردها فلم يقدروا.

ما لظالمين من حميم : أي ليس للمشركين من محب قريبا كان أو بعيدا.

يعلم **خائنة الأعين**: أي الله تعالى يعلم العين إذا سرقت النظر إلى محرم.

والله يقضي بالحق : أي لكمال قدرته وعلمه يحكم بالحق.

والذين يدعون من دونه: أي والذين يدعوهم مشركو قريش من أصنام لا يقضون بشيء عدلا كان أو جورا لأنهم أصنام لا تسمع ولا تبصر.". (٢)

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري ٥٦٦/٣

(٢) أيسر التفاسير للجزائري ٥٢٢/٤

٧-"معنى الآيات:

بعد بيان الموقف الصعب في عرصات القيامة في الآيات السابقة قال تعالى لرسوله ﴿وأنذرهم﴾ يا رسولنا أي خوف قومك ﴿يوم الآزفة﴾(١) وهي يوم القيامة القريبة والتي قد قربت فعلا وكل ما هو آت قريب أنذرهم قربها حتى لا يوافوها بالشرك والمعاصي فيخسروا خسرانا مبينا، أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب(٢) من شدة الخوف ترتفع إلى الحناجر(٣) وهم يكظمونها فلا هي تخرج فيموتوا ولا هي تعود إلى أماكنها فيستريحوا.

﴿ما للظالمين﴾ وهم أهل الشرك والمعاصي ﴿من حميم﴾ قريب أو حبيب يدفع عنهم العذاب ﴿ولا شفيع﴾ يشفع لهم وتقبل شفاعته ويطاع فيها لا ذا ولا ذاك يا لفظاعة الحال وقوله تعالى: ﴿يعلم **خائنة الأعين**(٤)﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه وواسع اطلاعه أنه يعلم **خائنة الأعين** وهي العين تسترق النظر إلى المحارم، ويعلم ﴿وما تخفي الصدور(٥)﴾ أي وما تكتمه صدور العباد وما تضمره من خير وشر، ولذا فسوف يكون الحساب دقيقا ومن نوقش الحساب عذب. ﴿والله يقضي بالحق﴾ أي يحكم بالعدل، ﴿والذين يدعون من(٦) دونه﴾ أي والذين يعبدهم المشركون من أصنام وأوثان ﴿لا يقضون بشيء(٧)﴾ لأنهم لا يسمعون ولا يبصرون.

وقوله ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ السميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم فلذا إذا حكم يحكم بالحق ويقدر على إنفاذ الحكم فيجزي السيئة بالسيئة والحسنة بعشر أمثالها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١- بيان هول يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه.

١- يقال أزف فلان يأزف أزفا قال النابغة:

أزف الترحل غير أن ركابنا

لما تزل برحالنا وكأن قد

٢- القلوب: جمع قلب وهو البضعة الصنوبرية الشكل التي تتحرك دائما ما دام الجسم حيا تدفع الدم إلى الشرايين التي بها حياة الجسم.

٣- الحناجر جمع حنجرة بفتح الحاء والجيم وهي الحلقوم.

٤- أي الله جل جلاله يعلم الأعين الخائنة قال ابن عباس رضي الله عنهما هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها.

٥- قال ابن عباس وما تخفي الصدور أي هل يزني بها من سرق النظر إليها لو خلا بها أو لا.

٦- قرأ نافع تدعون بالتاء وقرأ حفص بالياء يدعون.

٧- من جملتي والله يقضي بالحق وجملة والذين يدعون من دونه قبلها تألف قصر القضاء على الله تعالى قصر قلب أي دون

الأصنام. كما أفيد القصر من ضم الجملتين في قوله الشاعر:

تسيل على حد الظبات نفوسا

وليست على غير الظبات تسيل". [1]

٨-"٢- انعدام الحميم والشفيع للظالمين يوم القيامة.

٣- بيان سعة علم الله تعالى حتى إنه يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

٤- قضاء الله عدل وحكمه نافذ وذلك لكمال علمه وقدرته.

أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق(٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب(٢٢)

شرح الكلمات:

أو لم يسيروا في الأرض : أي أغفل كفار قريش ولم يسيروا في الأرض.

فينظروا : أي بأعينهم.

كيف كان عاقبة الذين من قبلهم : إنها كانت دمارا وخسارا ووبالا عليهم.

كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض : ولم يغن ذلك عنهم من الله شيئا.

فأخذهم الله بذنوبهم : أي عاقبهم بذنوبهم فدمرهم وأهلكهم.

وما كان لهم من الله من واق : أي ولم يوجد لهم من عقاب الله من واق يقيهم منه.

ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات : أي بالحجج والبراهين والأدلة والمعجزات.

فكفروا : أي بتلك الحجج والآيات.

فأخذهم الله : أي لما كفروا أخذهم بكفرهم.

إنه قوي شديد العقاب : هذا تعليل لأخذه إياهم". [2]

٩-"٨٧٢- من هدي القرآن للتي هي أقوم: ذكر أوصاف هائلة في يوم القيامة تصطك منها المسامع وتشيب من هولها الولدان، يوم يعظم فيه الخوف تصل القلوب فيه إلى الحناجر من الروع والفزع والكرب والدهشة، وهم كاظمون لأنفاسهم وآلامهم ومخاوفهم، والكظم يكربهم ويثقل صدورهم، قال الله جل وعلا: ﴿ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ ، وقال الله تعالى: ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ ، وقال جل وعلا: ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا * السماء منفطر به كان وعده مفعولا ﴾ ، وقال:

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري ٥٢٣/٤

(٢) أيسر التفاسير للجزائري ٥٢٤/٤

﴿ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ﴾ ، وقال: ﴿ فإذا نقر في الناقور * فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ .
٨٧٣- من هدي القرآن للتي هي أقوم: ذكر الأدلة والبراهين على شمول علم الله بالدقيق والجليل والتنبيه على مقام المراقبة، فيكون على حذر من المعاصي، وللاجتهاد فيما يرضي الله، قال الله تعالى: ﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴾ ، وقال: ﴿ وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ ، وقال: ﴿ أن الله بكل شيء عليم ﴾ ، وقال: ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .
٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦- من هدي القرآن للتي هي أقوم: الحث على السير في الأرض؛ للاعتبار، والتذكير، والانزجار عن المعاصي.
ثانيا: بيان السبب في أخذ الله الأمم المتقدمة، وذلك لكفرهم وتكذيبهم للرسل.". (١)

١٠-"قال الله تعالى: ﴿ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين * إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ ، وقال: ﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴾ .
١١٥٣، ١١٥٤- من هدي القرآن للتي هي أقوم: التنبيه على قدرة الله العظيمة وحكمته وعلمه المحيط بكل شيء.
ثانيا: الحث على النظر في آيات الله الأفقية، السماء والأرض، والتأمل في إتقانهما وإحكامهما لا ترى فيهما عيبا ولا فروجا ولا خللا.
والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسل الله من البعث و الحساب والجزاء على الأعمال.". (٢)

١١-"يقول الحق جل جلاله : ﴿قل للمؤمنين﴾ ، ويندرج فيهم المستأذنون بعد دخولهم البيوت اندراجا أوليا ، أي : قل لهم : ﴿يغضوا من أبصارهم﴾ ، و " من " : للتبعيض ، والمراد : غض البصر عما يحرم ، والاقتصار على ما يحل. ووجه المرأة وكفاها ليس بعورة ، إلا خوف الفتنة ، فيحل للرجل الصالح أن يرى وجه الأجنبية بغير شهوة. وفي الموطأ : هل تأكل المرأة مع غير ذي محرم ، أو مع غلامها ؟ قال مالك : لا بأس بذلك ، على وجه ما يعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال ، وقد تأكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يؤاكله. هـ. وقال ابن القطان : فيه إباحة إبداء المرأة وجهها ويديها للأجنبي ، إذ لا يتصور الأكل إلا هكذا ، وقد أبقاه الباجي على ظاهره ، وقال عياض : ليس بواجب أت تستر المرأة وجهها ، وإنما ذلك استحباب أو سنة لها ، وعلى الرجل غض بصره. ثم قال في الإكمال : ولا خلاف أن فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم. هـ.
﴿و﴾ قل لهم أيضا : ﴿يحفظوا فروجهم﴾ ، إلا على أزواجهم ، أو ما ملكت إيمانهم ، وتقييد الغض بمن التبعيضية ، دون

---
(١) الأنوار الساطعات لآيات جامعات ٢٠٤/٣
(٢) الأنوار الساطعات لآيات جامعات ٢٦٤/٣

حفظ الفروج ؛ لما في النظر من السعة ، فيجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفيها وقدميها ، وإلى رأس المحارم والصدور والساقين والعضدين. قاله النسفي. قلت : ومذهب مالك : حرمة نظر الساقين والعضدين من المحرم ، فإن تعذر التحرز منه ، كشغل البنات في الدار ، باديات الأرجل ، فليتمسك بقول الحنفي ، إن لم يقدر على غض بصره. قاله شيخنا الجنوي.

﴾

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٦٧

ذلك أزكى لهم﴾ أي : أطهر لهم من دنس الإثم أو الريبة ، ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ ، وفيه ترغيب وترهيب ، يعني : أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم ، فكيف يجيلون أبصارهم ، وهو يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ؟ ! فعليهم ، إذا عرفوا ذلك ، أن يكونوا منه على حذر.

". (١)

١٢-"﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ أي : النظرة الخائنة ، كاستراق النظر إلى ما لا يحل. قيل : فيه تقديم وتأخير ، أي : الأعين الخائنة ، وقيل : مصدر ، كالعافية ، أي : خيانة الأعين. قال ابن عباس رضي الله عنه : هو الرجل يكون جالسا مع القوم ، فتمر المرأة ، فيسارقهم النظر إليها. هـ. وقال ابن عطية : متصل بقوله : ﴿سريع الحساب﴾ ، فيحاسب على خيانة الأعين ، وقالت فرقة : متصل بقوله : ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ ، وهذا حسن ، يقويه تناسب المعنيين ، ويبعده بعد الآية من الآية ، وكثرة الحائل. والحاصل : أنه متصل بما تقدم من ذكر الله ووصفه ، واعترض في أثناء ذلك بوصف القيامة لما استطرد إليه من قوله : ﴿لينذر يوم التلاق﴾ الآية. قاله المحشي. ﴿و﴾ يعلم ﴿ما تخفي الصدور﴾ أي : ما تكنه من خيانة وأمانة. وقيل : هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة ، ثم يتفكر بقلبه في جمالها ، ولا يعلم بنظرته وفكرته من حضره ، والله يعلم ذلك كله.



جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٩٨

". (٢)

١٣-"والله يقضي بالحق﴾ أي : ومن هذه صفاته لا يقضي إلا بالعدل ، فيجازي كلا بما يستحقه ؛ إذ لا يخفى عليه خفي ولا جلي ، ﴿والذين يدعون﴾ ؛ يعبدونهم ﴿من دونه﴾ من الآلهة ﴿لا يقضون بشيء﴾ ، وهذا تهكم بهم ؛ لأن الجماد الذي لا يعقل لا يقال فيه : يقضي ولا يقضي ، وقرأ نافع بالخطاب ؛ أو : على إضمار " قل " ، ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ ؛ تقرير لقوله : ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ ووعيد لهم ؛ لأنه يسمع ما يقولون ، ويبصر ما يعملون ، وأنه يعاقبهم عليه ، وتعريض بما يدعون من دون الله ، بأنها لا تسمع ولا تبصر. الإشارة : قال القشيري : قيامة

(١) البحر المديد. موافق للمطبوع ٥/١٠٥

(٢) البحر المديد. موافق للمطبوع ٦/٤٥٢

الكل مؤجلة ، وقيامة المحبين معجلة ، في كل نفس من العتاب والعذاب ، والبعاد والاقتراب ، ما لم يكن في حساب ، وشهادة الأعضاء بالدمع تشهد ، وخفقان القلب ينطق ، والنحول يخبر ، واللون يفضح ، والعبد يستر ، ولكن البلاء يظهر ، قال :

يا من تغير صورتي لما بدا

لجميع ما ظنوا بنا تحقيق

وقوله تعالى : ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ ، هو في حق من فاته التأهب والترقي في هذه الدار ، فتحسر حين يعاين مقامات الرجال ، وليس له شفيع يرقيه ، ولا حميم يصافيه. وقوله تعالى : ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ هو في حق العارفين : النظر إلى السوى بعين الاستحسان. قال القشيري : **خائنة الأعين** هي من المحبين استحسانهم شيئا . أي : من السوى . وأنشدوا :

٢٩٩

يا قرة العين : سل عيني هل اكتحلت

بمنظر حسن مذ غبت عن عيني ؟

وأنشد أيضا :

وعيني إذا استحسنت غيركم

أمرت الدمع بتأديبها

قلت : ومثله قول الشاعر :

وناظر في سوى معناك حق له

يقتص من جفنه بالدمع وهو دم>> والسمع إن حال فيه ما يحدثه

سوى حديثك ، أمسى وقره الصمم

". (١)

١٤-"ثم قال : ومن **خائنة الأعين** : أن تأخذهم السنة والسنات في أوقات المناجاة ، وفي قصص داود عليه السلام : "كذب من ادعى محبتي ، فإذا جنه الليل نام عني ، ومن خائنة أعين العارفين : أن يكون لهم خير ، أي : استحسان يقع لقلوبهم مما تقع عليه أعينهم ، ينظرون ولكن لا يبصرون . أي : ينظرون إلى المستحسنات ، ولكن لا يقفون معها . ومن خائنة أعين الموحدين . أي : السائرين للتوحيد . أن يخرج منها قطرة دمع ، تأسفا على مخلوق يفوت من الدنيا والآخرة ، ومن **خائنة الأعين** : النظر إلى غير المحبوب بأي وجه كان ، ففي الخبر : " حبك الشيء يعمي ويصم " أي : يغيبك عن غيره ، فلا ترى إلا محاسن الحبيب ، وجماله في مظاهر تجلياته ، وإليه يشير قول ابن الفارض رضي الله عنه :

---

(١) البحر المديد . موافق للمطبوع ٦/٤٥٣

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٩٨
عيني لغير جمالكم لا تنظر
وسواكم في خاطري لا يخطر
وقوله تعالى : ﴿والله يقضي بالحق﴾ قال القشيري : يقضي للأجانب بالبعاد ، ولأهل الوداد بالوصال ، ويقضي يوم القدوم بعدل عمال الصدود. هـ. أي : يعدل في أهل الصدود عن حضرته ، فيجازيهم بنعيم الأشباح فقط. ثم قال : وإذا ذبح الموت غدا بين الجنة والنار على صورة كبش أملح ، فلا غرو أن يذبح الفراق على رأس سكة الأحباب ، في صورة شخص ، ويصلب على جذوع الغيرة ، لينظر إليه أهل الحضرة. هـ.
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢٩٨
قلت : ﴿هم أشد﴾ : ضمير فصل ، وحقه أن يقع بين معرفتين ، إلا أن (أشد) لما ضارع المعرفة في كونه لا يدخله الألف واللام أجرى مجراها.
٣٠٠
". (١)

١٥-"بخيل إلا سيذهب ويترك ماله، والمتصرف في ذلك كله هو الله،فهو يرث السماوات والأرض، أي يستمر ملكه عليهما بعد زوال البشر كلهم المنتفعين ببعض ذلك، وهو يملك ما في ضمنها تبعا لهما، وهو عليم بما يعمل الناس من بخل وصدقة، فالآية موعظة ووعيد ووعد لأن المقصود لازم قوله: ﴿خبير﴾ .
﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق[١٨١] ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ [١٨٢].
استئناف جملة ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ لمناسبة ذكر البخل لأنهم قالوه في معرض دفع الترغيب في الصدقات، والذين قالوا ذلم هم اليهود، كما هو صريح آخر الآية في قوله: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ ، وقائل ذلك: قيل هو حيي بن أخطب اليهودي، حبر اليهود، لما سمع قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقال حيي: إنما يستقرض الفقير الغني، وقيل: قاله فنحاص بن عازوراء لأبي بكر الصديق بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل أبا بكر إلى يهود يدعوهم، فأتى بيت المدراس فوجد جماعة منهم قد اجتمعوا على فنحاص حبرهم، فدعاهم أبو بكر، فقال فنحاص: ما بنا إلى الله من حاجة، وإنه إلينا لفقير ولم كان غنيا لما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، فغضب أبو بكر ولطم فنحاص وهم بقتله، فنزلت الآية. وشاع قولهما في اليهود.
وقوله: ﴿لقد سمع الله﴾ تهديد، وهو يؤذن بأن هذا القول جراءة عظيمة، وإن كان القصد منها التعريض ببطلان كلام القرآن، لأنهم أتوا بهاته العبارة بدون محاشاة، ولأن الاستخفاف بالرسول وقرآنه إثم عظيم وكفر على كفر، ولذلك قال تعالى:

(١) البحر المديد . موافق للمطبوع ٦/٤٥٤

﴿لقد سمع﴾ المستعمل في لازم معناه، وهو التهديد على كلام فاحش، إذ قد علم أهل الأديان أن الله يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، فليس المقصود إعلامهم بأن الله علم ذلك لازمه وهو مقتضى قوله: ﴿سنكتب ما قالوا﴾ . والمراد بالكتابة إما كتابته في صحائف آثامهم إذ لا يخطر ببال أحد أن يكتب في صحائف الحسنات، وهذا بعيد، لأن وجود علامة الاستقبال يؤذن بأن الكتابة أمر يحصل فيما بعد. فالظاهر أنه أريد من الكتابة عدم الصفح عنه ولا العفو بل سيثبت لهم ويجاوزون عنه فتكون الكتابة كناية عن المحاسبة. فعلى الأول يكون وعيدا وعلى الثاني يكون تهديدا.". (١)

١٦-"يجوز أن يقال:هو دين الله، ولا يجوز أن يقال:قاله الله.

وقوله: ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ انتقال من ذكر نقضهم لعهد الله إلى خيسهم بعهدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم.وفعل ﴿لا تزال﴾ يدل على استمرار، لأن المضارع للدلالة على استمرار الفعل لأنه في قوة أن يقال:يدوم اطلاعك.فالاطلاع مجاز مشهور في العلم بالأمر، والاطلاع هنا كناية عن المطلع عليه، أي لا يزالون يخونون فتطلع على خيانتهم.

والاطلاع افتعال من طلع.والطلوع:الصعود.وصيغة الافتعال فيه لمجرد المبالغة، إذ ليس فعله متعديا حتى يصاغ له مطاوع، فاطلع بمنزلة تطلع، أي تكلف الطلوع لقصد الإشراف.

والمعنى:ولا تزال تكشف وتشاهد خائنة منهم.

والخائنة:الخيانة فهو مصدر على وزن الفاعلة، كالعاقبة، والطاغية.ومنه ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ [غافر:١٩] وأصل الخيانة:عدم الوفاء بالعهد، ولعل أصلها إظهار خلاف الباطن.وقيل:﴿خائنة﴾ صفة لمحذوف، أي فرقة خائنة.

واستثنى قليلا منهم جبلوا على الوفاء، وقد نقض يهود المدينة عهدهم مع رسول الله والمسلمين فظاهروا المشركين في وقعة الأحزاب، قال تعالى: ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم﴾ [الأحزاب:٢٦]وأمره بالعفو عنهم والصفح حمل على مكارم الأخلاق، وذلك فيما يرجع إلى سوء معاملتهم للنبي صلى الله عليه وسلم.وليس المقام مقام ذكر المناواة القومية أو الدينية، فلا يعارض هذا قوله في براءة ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ [التوبة:٢٩] لأن تلك أحكام التصرفات العامة، فلا حاجة إلى القول بأن هذه الآية نسخت بآية براءة.

[١٤] ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾.

ذكر بعد ميثاق اليهود ميثاق النصارى.وجاءت الجملة على شبه اشتغال العامل عن المعمول بضميره حيث قدم متعلق ﴿أخذنا ميثاقهم﴾ وفيه اسم ظاهر، وجيء بضميره مع العامل للنكتة الداعية للاشتغال من تقرير المتعلق وتثبيته في الذهن

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٧/٣

إذ يتعلق الحكم باسمه". [1]

١٧-"وجملة: ﴿هل يراكم من أحد﴾ بيان لجملة ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ لأن النظر تفاهموا به فيما هو سر بينهم؛ فلما كان النظر نظر تفاهم صح بيان جملته بما يدل على الاستفهام التعجيبي، ففي هذا النظم إيجاز حذف بديع دلت عليه القرينة. والتقدير: وإذا ما أنزلت سورة فيها فضيحة أمرهم نظر بعضهم إلى بعض **بخائنة الأعين** مستفهمين متعجبين من اطلاع النبي صلى الله عليه وسلم على أسرارهم، أي هل يراكم من أحد إذا خلوتم ودبرتم أموركم، لأنهم بكفرهم لا يعتقدون أن الله أطلع نبيه - عليه الصلاة والسلام - على دخيلة أمرهم.

وزيادة جملة: ﴿ثم انصرفوا﴾ لإفادة أنهم لم يكتسبوا من نزول السورة التي أطلعت المؤمنين على أسرارهم عبرة ولا قربا من الإيمان، بل كان قصارى أمرهم التعجب والشك في أن يكون قد اطلع عليهم من يبوح بأسرارهم ثم انصرفوا كأن لم تكن عبرة. وهذا من جملة الفتن التي تحل بهم ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

وجملة: ﴿صرف الله قلوبهم﴾ مستأنفة استئنافيا بيانيا، لأن ما أفاده قوله: ﴿ثم انصرفوا﴾ من عدم انتفاعهم بما في تلك السورة من الإخبار بالمغيبات الدال على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم يثير سؤال من يسأل عن سبب عدم انتفاعهم بذلك واهتدائهم، فيجاب بأن الله صرف قلوبهم عن الفهم بأمر تكويني فحرموا الانتفاع بأبلغ واعظ. وكان ذلك عقابا لهم بسبب أنهم ﴿قوم لا يفقهون﴾ ، أي لا يفهمون الدلائل، بمعنى لا يتطلبون الهدى بالتدبر فيفهموا.

وجعل جماعة من المفسرين قوله: ﴿صرف الله قلوبهم﴾ دعاء عليهم، ولا داعي إليه لأن دعاء الله على مخلوقاته تكوين كما تقدم، ولأنه يأباه تسبيبه بقوله: ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ .

وقد أعرض المفسرون عن تفسير هذه الآية تفسيرا يبين استفادة معانيها من نظم الكلام فأتوا بكلام يخاله الناظر إكراها لها على المعنى المراد وتقديرات لا ينثلج لها الفؤاد.

[١٢٨، ١٢٩] ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ .

كانت هذه السورة سورة شدة وغلظة على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من". [2]

١٨-"فضمير ﴿هم﴾ عائد إلى ﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ بمراعاة هذا العنوان لا بذواتهم.

واعلم أن هذا الاستمرار متفاوت الامتداد فمنه أشده وهو الذي يمتد بصاحبه إلى الموت، ومنه دون ذلك. وكل ذلك على حسب تزيين الكفر في نفوسهم تزيينا خالصا أو مشوبا بشيء من التأمل في مفاسده، وتلك مراتب لا يحيط بها إلا الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور.

[٥] ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ٦٣/٥

(٢) التحرير والتنوير ٣٣٦/١٠

م الإشارة زيادة تمييزهم فضحا لسوء حالهم مع ما ينبه إليه اسم الإشارة في مثل هذا المقام من أن استحقاقهم ما يخبر به عنهم ناشئ عما تقدم اسم الإشارة كما في ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ في [سورة البقرة: ٥].

وعزز ما نبه عليه باسم الإشارة فأعقب باسم الموصول وصلته لما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الخبر.

وجيء بلام الاختصاص للإشارة إلى أنهم في حالتهم هذه قد هيىء لهم سوء العذاب. والظاهر أن المراد به عذاب الدنيا وهو عذاب السيف وخزي الغلب يوم بدر وما بعده بقرينة عطف ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ .

ففي الآية إشارة إلى جزاءين: جزاء في الدنيا معدود لهم يستحقونه بكفرهم فهم ما داموا كافرين متهيئون للوقوع في ذلك العذاب إن جاء إبانه وهم على الكفر.

وجزاء في الآخرة ينال من صار إلى الآخرة وهو كافر وهذا المصير يسمى بالموافاة عند الأشعري.

ولكون نوال العذاب الأول إياهم قابلا للتقصي منه بالإيمان قبيل حلوله بهم جيء في جانبه بلام الاختصاص المفيدة كونها مهيأ تهيئة، أما أصالة جزاء الآخرة إياهم فلا مندوحة لهم عنه إن جاؤوا يوم القيامة بكفرهم.

فالضمائر في قوله ﴿لهم﴾ وقوله ﴿وهم في الآخرة هم﴾ عائدة إلى ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ [النمل: ٤] بمراعاة ذلك العنوان الذي أفادته الصلة فلا دلالة في الضمير على أشخاص معينين ولكن على موصوفين بمضمون الصلة فمن تنقشع عنه الضلالة ويثوب". (١)

١٩-"أنفسهم، وقد تنازل له دحية الكلبي عن صفية بنت حيي بعد أن صارت له في سهمه من مغانم خيبر، وقد عرض سعد بن الربيع على عبد الرحمان بن عوف أن يتنازل عن إحدى زوجتيه يختارها للمؤاخاة التي آخى النبيء صلى الله عليه وسلم بينهما.

وأما إشارة النبيء عليه الصلاة والسلام على زيد بإمساك زوجه مع علمه بأنها ستصير زوجة له فهو أداء لواجب أمانة الاستنصاح والاستشارة وقد يشير المرء بالشيء يعلمه مصلحة وهو يوقن أن إشارته لا تمتثل. والتخليط بين الحالتين تخليط بين التصرف المستند لما تقتضيه ظواهر الأحوال وبين ما في علم الله في الباطن وأشبه مقام به مقام موسى مع الخضر في القضايا الثلاث. وليس هذا من **خائنة الأعين**، كما توهمه من لا يحسن، لأن **خائنة الأعين** المذمومة ما كانت من الخيانة والكيد.

وليس هو أيضا من الكذب لأن قول النبيء عليه الصلاة والسلام لزيد ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ لا يناقض رغبته في تزوجها وإنما يناقضه لو قال: إني أحب أن تمسك زوجك، إذ لا يخفى أن الاستشارة طلب النظر فيما هو صلاح للمستشير لا ما هو صلاح للمستشار. ومن حق المستشار أعلام المستشير بما هو صلاح له في نظر المشير، وإن كان صلاح المشير في خلافه فضلا على كون ما في هذه القصة إنما تخالف بين النصيحة وبين ما علمه الناصح من أن نصحه

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٢/١٩

لا يؤثر.

فإن قلت: فما معنى ما روي في الصحيح عن عائشة أنها قالت: لو كان رسول الله كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك﴾ الآية.

قلت: أرادت أن رغبة النبيء صلى الله عليه وسلم في تزوج زينب أو إعلام الله إياه بذلك كان سرا في نفسه لم يطلع عليه أحدا إذ لم يؤمر بتبليغه إلى أحد، وعلى ذلك السر انبنى ما صدر منه لزيد في قوله: ﴿أمسك عليك زوجك﴾ . فما طلقها زيد ورام تزوجها علم ان المنافقين سيرجفون بالسوء، فلما أمره الله بذكر ذلك للأمة وتبليغ خبره بلغه ولم يكتمه مع انه ليس في كتمه تعطيل شرع ولا نقص مصلحة فلو كان كاتما لكتم هذه الآية التي هي حكاية سر في نفسه وبينه وبين ربه تعالى، ولكنه لما كان وحيا بلغه لأنه مأمور بتبليغ كل ما أنزل إليه.

واعلم أن للحقائق نصابها، وللتصرفات موانعها وأسبابها، وأن الناس قد تمتلكهم العوائد، فتحول بينهم وبين إدراك الفوائد، فإذا تفشت أحوال في عاداتهم استحسنوها ولو". (١)

٢٠-"التعليل لوقوع الجزاء في ذلك اليوم ولانتفاء الظلم عن ذلك الجزاء. وتأخيرها عن تينك الجملتين مشير إلى أنها علة لهما، فحرف التوكيد واقع موقع فاء السببية كما هو شأن ﴿إن﴾ إذا جاءت في غير مقام رد الإنكار، فسرعة الحساب تقتضي سرعة الحكام. وسرعة الحكم تقتضي تملؤ الحاكم من العلم بالحق، ومن تقدير جزاء كل عامل على عمله دون تردد ولا بحث لأن الحاكم علام الغيوب، فكان قوله ﴿سريع الحساب﴾ علة لجميع ما تقدمه في هذا الغرض. والمعنى: أن الله محاسبهم حسابا سريعا لأنه سريع الحساب.

والحساب مصدر حاسب غيره إذا حسب له ما هو مطلوب بإعداده وفائدة ذلك تختلف فتارة يكون الحساب لقصد استحضار أشياء كيلا يضيع منها شيء، وتارة يكون لقصد توقيف من يتعين توقيفه عليها، وتارة يكون لقصد مجازاة كل شيء منها بعدله، وهذا الأخير هو المراد هنا ولأجله سمي يوم الجزاء يوم الحساب، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿إن حسابهم إلا على ربي ﴾ [الشعراء: ١١٣]. والباء في قوله: ﴿بما كسبت﴾ للسببية أي تجزى بسبب ما كسبت، أي جزاء مناسبا لما كسبت، أي عملت.

وفي الآية إيماء إلى أن تأخير القضاء بالحق بعد تبينه للقاضي بدون عذر ضرب من مضروب الجور لأن الحق إن كان حق العباد فتأخير الحكم لصاحب الحق إبقاء لحقه بيد غيره، ففيه تعطيل انتفاعه بحقه برهة من الزمان وذلك ظلم، ولعل صاحب الحق في حاجة إلى التعجيل حقه لنفع معطل أو لدفع ضر جاثم، ولعله أن يهلك في مدة تأخير حقه فلا ينتفع به، أو لعل الشيء المحكوم به يتلف بعارض أو قصد فلا يصل إليه صاحبه بعد. وان كان الحق حق الله كان تأخير القضاء فيه إقرار للمنكر. في "صحيح البخاري" : "أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل أبا موسى على اليمن ثم أتبعه معاذ بن جبل فلما قدم معاذ على أبي موسى ألقى إليه أبو موسى وسادة وقال له: أنزل، وإذا رجل موثق عند أبي موسى، قال معاذ: ما

(١) التحرير والتنوير ٢٦٦/٢١

هذا؟قال: كان يهوديا فأسلم ثم تهود. قال معاذ: لا أجلس حتى يقتل، قضاء الله ورسوله، ثلاث مرات، فأمر به أبو موسى فقتل".

[١٨] ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾

الأظهر أن يكون قوله: ﴿وأنذرهم﴾ وما بعده معترضا بين جملة ﴿إن الله سريع الحساب﴾ [غافر: ١٧] وجملة ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ [غافر: ١٩]على الوجهين الآتيين في موقع جملة ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ ، فالواو اعتراضيه، والمناسبة أن ذكر الحساب به يقتضي". (١)

٢١-"ليشفعوا لهم عند الله فلا يلفون صديقا ولا شفيعا. والحميم: المحب المشفق.

والتعريف في ﴿الظالمين﴾ للاستغراق ليعم كل ظالم، أي مشرك فيشمل الظالمين المنذرين، ومن مضى من أمثالهم فيكون بمنزلة التذييل ولذلك فليس ذكر الظالمين من الإظهار في مقام الإضمار.

ووصف ﴿شفيع﴾ بجملة ﴿يطاع﴾ وصف كاشف إذ ليس أن المراد لهم شفعاء لا تطاع شفاعتهم لظهور قلة جدوى ذلك ولكن لما كان شأن من يتعرض للشفاعة أن يثق بطاعة المشفوع عنده له.

وأتبع ﴿شفيع﴾ بوصف ﴿يطاع﴾ لتلازمهما عرفا فهو من إيراد نفي الصفة اللازمة للموصوف. والمقصود: نفي الموصوف بضرب من الكناية التمليحية كقول ابن أحمر:

ولا ترى الضب بها ينجحر ١

أي لا ضب فيها فينجر، وذلك يفيد مفاد التأكيد.

والمعنى: إن الشفيع إذا لم يطع فليس بشفيع. والله لا يجترىء أحد على الشفاعة عنده إلا إذا أذن له فلا يشفع عنده إلا من يطاع.

[١٩] ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾

يجوز أن تكون جملة ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ خبرا عن مبتدأ محذوف هو ضمير عائد إلى أسم الجلالة من قوله: ﴿إن الله سريع الحساب﴾ [غافر: ١٧]على نحو ما قرر قبله في قوله: ﴿رفيع الدرجات﴾ [غافر: ١٥]. ومجموع الظاهر والمقدر استئناف للمبالغة في الإنذار لأنهم إذا ذكروا بأن الله يعلم الخفايا كان إنذار بالغا يقتضي الحذر من كل اعتقاد أو عمل نهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عنه، فبعد أن أيأسهم من أن يتوهموا أنهم يستطيعون إخفاء شيء من نواياهم أو أدنى حركات أعمالهم على ربهم.

ويجوز أن تكون خبرا ثانيا عن اسم. ويجوز أن تكون خبرا ثانيا عن اسم ﴿إن﴾ في قوله: ﴿إن الله سريع الحساب﴾ [غافر: ١٧]، وما بينهما اعتراض كما مر على كلا التقديرين.

-

(١) التحرير والتنوير ١٧١/٢٤

١ أوله: لا تفزع الأرنب أهوالها
يصف مفازة قاحلة لا ضب فيها ولا أرنب.". (١)

٢٢-"و ﴿خائنة الأعين﴾ مصدر مضاف إلى فاعله فالخائنة مصدر على وزن اسم الفاعل مثل العافية للمعافاة، والعاقبة، والكاذبة في قوله تعالى: ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ [الواقعة: ٢]ويجوز إبقاء ﴿خائنة﴾ على ظاهر اسم الفاعل فيكون صفة لموصف محذوف دل عليه ﴿الأعين﴾ ، أي يعلم نظرة الأعين الخائنة.
وحقيقة الخيانة: عمل من أؤتمن على شيء بضد ما أؤتمن لأجله بدون علم صاحب الأمانة، ومن ذلك نقض العهد بدون إعلان بنبذه. ومعنى ﴿خائنة الأعين﴾ خيانة النظر، أي مسارقة النظر لشيء بحضرة من لا يحب النظر إليه. فإضافة ﴿خائنة﴾ إلى ﴿الأعين﴾ من إضافة الشيء إلى آلته كقولهم: ضرب السيف.
والمراد بـ ﴿خائنة الأعين﴾ النظرة المقصودة منها إشعار المنظور إليه بما يسوء غيرها الحاضر استهزاء به أو إغراء به. وإطلاق الخائنة بمعنى الخيانة على هذه النظرة استعارة مكنية، شبه الجليس بالحليف في أنه لما جلس إليك أو جلست إليه فكأنه عاهدك على السلامة، ألا ترى أن المجلسة يتقدمها السلام وهو في الأصل إنباء بالمسالمة فإذا نظرت إلى آخر غيركما نظرا خفيا لإشارة إلى ما لا يرضي الجليس من استهزاء أو إغراء فكأنك نقضت العهد المدخول عليه بينكما، فإطلاق الخيانة على ذلك تفظيع له، ويتفاوت قرب التشبيه بمقدار تفاوت ما وقعت النظرة لأجله في الإساءة وآثار المضرة. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مايكون لنبي أن تكون له خائنة الأعين" ، أي لا تصدر منه.
و ﴿ وما تخفي الصدور﴾ النوايا والعزائم التي يضمرها صاحبها في نفسه، فأطلق الصدر على ما يكن الأعضاء الرئيسية على حسب اصطلاح أصحاب اللغة.
[٢٠] ﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾كان مقتضى الظاهر أن يؤتى بجملة ﴿يقضي بالحق﴾ معطوفة بالواو على جملة ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ [غافر: ١٩]فيقال: ويقضي بالحق ولكن عدل عن ذلك لما في الاسم العلم لله تعالى من الإشعار بما يقتضيه المسمى به من صفات الكمال التي منها العدل في القضاء، ونظيره في الإظهار في مقام الإضمار قوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ [الرعد: ٤١]. وليحصل من تقديم المسند إليه على المسند الفعلي تقوي المعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا". (٢)

٢٣-"ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾ [الأنفال: ٣٦]أعيد الموصول ولم يؤت بضميره ﴿الذين كفروا﴾ ليفيد تقديم الاسم على الفعل تقوي الحكم.

---
(١) التحرير والتنوير ١٧٣/٢٤
(٢) التحرير والتنوير ١٧٤/٢٤

والجملة من تمام الغرض الذي سيقت إليه جملة ﴿يعلم خائنة الأعين ﴾ [غافر: ١٩]كما تقدم، وكلتاهما ناظرة إلى قوله: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ [غافر: ١٨]أي أن ذلك من القضاء بالحق.

وأما جملة ﴿والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ فناظرة إلى جملة ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ [غافر: ١٨]فبعد أن نفي عن أصنامهم الشفاعة، نفي عنها القضاء بشيء ما بالحق أو بالباطل وذلك إظهار لعجزها.

ولا تحسبن جملة ﴿والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ مسوقة ضميمة إلى جملة ﴿والله يقضي بالحق﴾ ليفيد مجموع الجملتين قصر القضاء بالحق على الله تعالى قصر قلب، أي دون الأصنام، كما أفيد القصر من ضم الجملتين في قول السموأل أو عبد الملك الحارثي:

تسيل على حد الظبات نفوسنا ... وليست على غير الظبات تسيل

لأن المنفى عن آلهتهم أعم من المثبت لله تعالى، وليس مثل ذلك مما يضاد صيغة القصر لكفى في إفادته تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بحمله على إرادة الاختصاص في قوله: ﴿والله يقضي بالحق﴾ . فالمراد من قوله: ﴿والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ التذكير بعجز الذين يدعونهم وأنهم غير أهل للإلهية وهذه طريقة في إثبات صفة لموصوف ثم تعقيب ذلك بإظهار نقيضه فيما يعد مساويا له كما في قول أمية بن أبي الصلت:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فصار فيما بعد أبوالا

وإلا لما كان لعطف قوله: لا قعبان من لبن، مناسبة.

والدعاء يجوز أن يكون بمعنى النداء وأن يكون بمعنى العبادة كما تقدم آنفا.

وجملة ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ مقررة لجمل ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ إلى قوله: ﴿لا يقضون بشيء﴾ [غافر: ١٩،٢٠]. فتوسط ضمير الفصل مفيد للقصر وهو تعريض بأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر فكيف ينسبون إليها الإلهية، واثبات المبالغة في السمع والبصر لله تعالى يقرر معنى ﴿يقضي بالحق﴾ لأن العالم بكل شيء تتعلق حكمته بإرادة الباطل ولا تخطيء أحكامه بالعثار في الباطل، وتأكيد الجملة بحرف". [(١)]

٢٤-"أي من كلام الأنبياء قبل الإسلام.

[٥٧،٥٨] ﴿ أزفت الآزفة [٥٧] ليس لها من دون الله كاشفة﴾ .

تتنزل هذه الجملة من التي قبلها منزلة البيان للإنذار الذي تضمنه قوله ﴿هذا نذير﴾ [النجم: ٥٦].

فالمعنى: هذا نذير بآزفة قربت، وفي ذكر فعل القرب فائدة أخرى زائدة على البيان وهي أن المنذر به دنا وقته، فإن: أزفت معناه: قرب وحقيقته القرب المكان، واستعير لقرب الزمان لكثرة ما يعاملون الزمان معاملة المكان.

والتنبيه على قرب المنذر به من كمال الإنذار للبدار بتجنب الوقوع فيما ينذر به.

وجيء لفعل ﴿أزفت﴾ بفاعل من مادة الفعل للتهويل على السامع لتذهب النفس كل مذهب ممكن في تعيين هذه المحادثة

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/١٧٥

التي أزفت، ومعلوم أنها من الأمور المكروهة لورود ذكرها عقب ذكر الإنذار.

وتأنيث ﴿الآزفة﴾ بتأويل الوقعة، أو الحادثة كما يقال: نزلت به نازلة، أو وقعت الواقعة، وغشيته غاشية، والعرب يستعملون التأنيث دلالة على المبالغة في النوع، ولعلهم راعوا أن الأنثى مصدر كثرة النوع.

والتعريف في ﴿الآزفة﴾ تعريف الجنس، ومنه زيادة تهويل بتمييز هذا الجنس من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبر في المخلص منه نظير التعريف في ﴿الحمد لله﴾ [الفاتحة: ٢] ، وقولهم: أرسلها العراك.

والكلام يحتمل آزفة في الدنيا من جنس ما أهلك به عاد وثمود وقوم نوح فهي استئصالهم يوم بدر، ويحتمل آزفة وهي القيامة. وعلى التقديرين فالقرب مراد به التحقق وعدم الانقلاب منها كقوله تعالى ﴿اقتربت الساعة﴾ [القمر:١] وقوله: ﴿إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا﴾ [المعارج:٦،٧].

وجملة ﴿ليس لها من دون الله ﴾الآزفة﴿ مستأنفة بيانية أو صفة ل ﴿الآزفة﴾ و ﴿كاشفة﴾ يجوز أن يكون مصدر بوزن فاعلة كالعافية، **وخائنة الأعين** وليس لوقعتها كاذبة. والمعنى ليس لها كشف.

ويجوز أن يكون اسم فاعل قرن بهاء التأنيث للمبالغة مثل راوية، وباقعةو وداهية،". (١)

٢٥-" ٤ درجات عبادة في الجنة وفي الدنيا يلقى الروح يعني الوحي من أمره يحتمل أن يريد الأمر الذي هو واحد الأمور أو الأمر بالخبر فعلى الأول تكون من للتبعيض أو لابتداء الغاية وعلى الثاني تكون لابتداء الغاية أو بمعنى الباء يوم التلاق يعني يوم القيامة وسمى بذلك لأن الخلائق يلتقون فيه وقيل لأنه يلتقي فيه أهل السموات والأرض وقيل لأنه يلتقي الخلق مع ربهم والفاعل في ينذر ضمير يعود على من يشاء أو على الروح أو على الله لمن الملك اليوم هذا من كلام الله تعالى تقريرا للخلق يوم القيامة فيجيبونه ويقولون لله الواحد القهار وقيل بل هو الذي يجيب نفسه لأن الخلق يسكتون هيبة له وقيل إن القائل لمن الملك اليوم ملك يوم الآزفة يعني القيامة ومعناه القريبة إذ القلوب لدى الحناجر معناه أن القلوب قد صعدت من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر فيحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجاز عبربه عن شدة الخوف والحناجر جمع حنجرة وهي الحلق كاظمين أي محزونين حزنا شديدا كقوله فهو كظيم وقيل معناه يكظمون حزنهم أي يطمعون أن يخفوه والحال تغلبهم وانتصابه على الحال من أصحاب القلوب لأن معناه قلوب الناس أو من المفعول في أنذرهم أو من القلوب وجمعها جمع المذكر لما وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ما للظالمين من حميم أي صديق مشفق (ولا شفيع يطاع) يحتمل أن يكون نفي الشفاعة وطاعة الشفيع أو نفي طاعة الشفيع خاصة كقولك ما جاءني رجل صالح فنفيت الصلاح وإن كان قد جاءك رجل غير صالح والأول أحسن لأن الكفار ليس لهم من يشفع فيهم يعلم **خائنة الأعين** أي استراق النظر والخائنة مصدر بمعنى الخيانة أو وصف للنظرة وهذا الكلام متصل بما تقدم من ذكر الله واعتراض في أثناء ذلك بوصف القيامة لما استطرد اليه من قوله لينذر يوم التلاق وسلطان مبين حجة ظاهرةوهي المعجزات

(١) التحرير والتنوير ٢٧/١٥٦

قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه هذا القتل غير القتل". [1]

٢٦-"تعليق على آية فادعوا الله مخلصين له الدين و لو كره الكافرون (١٤)

و في الآية [١٤] تكرار للأوامر الربانية التي تكررت في السورة السابقة بعبادة الله وحده و إخلاص الدين له مع زيادة ذات مغزى و هي حث النبي صلى الله عليه و سلم و المؤمنين على ذلك و لو أغاظ الكفار و كرهوه. حيث قد يفيد هذا أن الأوامر الربانية الأولى قد أغاظت الكفار و جعلتهم ييأسون من تراجع النبي صلى الله عليه و سلم عن موقفه تجاه شركهم و تقاليدهم. و حيث قد يكون قرينة أخرى على صحة ترتيب نزول هذه السورة بعد السورة السابقة.
و لقد أورد ابن كثير في سياق هذه الآية حديثا رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير أنه كان يقول دبر كل صلاة حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك و له الحمد و هو على كل شي ء قدير لا حول و لا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، و لا نعبد إلا إياه، له النعمة و له الفضل و له الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين و لو كره الكافرون. و كان يقول: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يهلل بهذه الكلمات دبر كل صلاة. حيث ينطوي في الحديث صورة من صور التعليم النبوي المستلهم من الآيات القرآنية بسبيل إعلان الإخلاص له وحده.
التفسير الحديث، ج ٤، ص: ٣٦١
[سورة غافر (٤٠): الآيات ١٨ الى ٢٠]
و أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** و ما تخفي الصدور (١٩) و الله يقضي بالحق و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشي ء إن الله هو السميع البصير (٢٠)
. (١) الآزفة: القريبة أو التي تسوق الناس و تزفهم بالسرعة. و هي كناية عن الساعة أو يوم القيامة.
(".[2]

٢٧-"٢) إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين: الكظم بمعنى الكتم و الإمساك.
و معنى الجملة إذ القلوب ترتفع من شدة الاضطراب إلى الحناجر فتكتم حلوق أصحابها و أنفاسهم فلا تستطيع خروجا و لا تستطيع العودة إلى أماكنها. و هي بسبيل تصوير حالة الهلع الشديد التي تعتري الكفار.
(٣) حميم: صديق مشفق.
(٤) **خائنة الأعين**: ما ينطوي في نظرات الأعين من مقاصد يريد أصحابها إخفاءها فتخونهم هذه النظرات.
و هذه الآيات احتوت كذلك إنذارا و تنديدا بأسلوب آخر. فهي تأمر النبي صلى الله عليه و سلم بإنذار الكفار بيوم القيامة القريب الذي يزف الناس فيه زفا و يساقون سوقا و بما سوف تكون حالتهم فيه من الهلع و الرعب بحيث يشتد

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى ٤٨٠/٢
(٢) التفسير الحديث ص/٢٥٦٥

اضطرابهم حتى ترتفع قلوبهم إلى حناجرهم و تكاد أن تسد عليهم مجرى النفس و لا يجد الظالمون صديقا مشفقا و لا شفيعا مستجابا مطاعا. و قد أشارت إلى سعة إحاطة الله بأعمال الناس و نواياهم فهو يعلم كل حركة من حركاتهم خفيها و ظاهرها حتى ما يدق على المشاهدين مما تنطوي عليه لحظات العيون و تخفيه الصدور من النوايا المريبة.

فهو السميع لكل شي ء النافذ بصره إلى كل شي ء. و هو الذي سيقضي بين الناس بالحق وفق أعمالهم، أما الشركاء الذين يدعوهم المشركون مع الله فليس لهم أي قدرة على شي ء أو القضاء في أي شي ء أو النفوذ إلى أي شي ء. التفسير الحديث، ج ٤، ص: ٣٦٢

و واضح أن هذه الآيات هي أيضا استمرار للآيات السابقة و أنها استهدفت فيما استهدفته إثارة الخوف و الرعب و اليأس في قلوب المشركين و حملهم على الارعواء.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٢١ الى ٢٢]". [(١)]

٢٨-"و قوله تعالى : « أولئك هم الصادقون » .. هو الوصف الذي يستحقه الذين آمنوا بالله ورسوله ولم يرتابوا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وهو أنهم مؤمنون حقا .. قد صدق فعلهم قولهم ..

التفسير القرآني للقرآن ، ج ١٣ ، ص : ٤٥٩

قوله تعالى :

«قل أ تعلمون الله بدينكم و الله يعلم ما في السماوات و ما في الأرض و الله بكل شي ء عليم » ..

هو إنكار على هؤلاء الأعراب ، الذين ادعوا تلك الدعوى ، بأنهم مؤمنون ، وهم فى حقيقة أمرهم غير مؤمنين ، إذ أنهم أسلموا ، ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم بعد ..

فلمن يقولون هذا القول؟

أ يقولونه لله؟ وكيف يتفق قولهم هذا مع الإيمان بالله؟ إن الإيمان بالله حقا ، يقضى على المؤمن ألا يقول غير الحق .. لأن الله سبحانه وتعالى يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور ، وإنه لن يكذب على الله إلا من استخف بجلال الله وعظمة الله ، وعلم الله ، جهلا منه بما لله سبحانه من كمال مطلق. « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم و لا خمسة إلا هو سادسهم و لا أدنى من ذلك و لا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شي ء عليم » (٧ : المجادلة) قوله تعالى :

«يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » ." [(٢)]

٢٩-"أن الله يولج الليل في النهار ... » وكأنه تعقيب عليه .. وذلك أن الذي ينظر متأملا في نظام الوجود ، وفي قدرة الله الممسكة به ، لا بد أن يؤديه هذا النظر المتأمل ، إلى إدراك هذه الحقيقة ، وهو أن الله عليم بكل ما نعمل ، فلا

---

(١) التفسير الحديث ص/٢٥٦٦

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٥١/١

تخفى عليه خافية من أعمالنا ، دقيقها وعظيمها ، خيرها وشرها .. إنه علم العليم الخبير ، الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور ..

قوله تعالى :

«ذلك بأن الله هو الحق و أن ما يدعون من دونه الباطل و أن الله هو العلي الكبير » .

الإشارة هنا ، إلى ما عرضته الآيات من مظاهر قدرة لله ، وسعة علمه ..

والجار والمجرور في قوله تعالى : « بأن الله هو الحق » متعلق بمحذوف ، يدل عليه السياق وتقديره : يقضى ، أو يقطع. ونحو هذا .. أي أن ذلك الذي يراه الراءون في هذا الوجود من آيات القدرة ، ومظاهر العلم ـ يقضى ، ويقطع بأن الله هو الحق ، أي الإله الحق ، الذي يتفرد بالألوهة ، من غير شريك ، كما يقضى بأن تلك الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله ، هى الباطل كله ، لا شى ء من حق فيه أبدا .. وذلك من شأنه أن يقضى ويقطع بأن الله هو « العلى » ، المنفرد بالعلو والسلطان ، « الكبير » الذي له الكبرياء وحده ، وأن مادونه دون ضئيل ، لا وزن له ، ولا قدر!.

قوله تعالى :

«أ لم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

التفسير القرآني للقرآن ، ج ١١ ، ص : ٥٩١". [١]

٣٠-"للرجال نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون و للنساء نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا (٧) و إذا حضر القسمة أولوا القربى و اليتامى و المساكين فارزقوهم منه و قولوا لهم قولا معروفا (٨)

التفسير : هنا يجى ء ذكر الميراث ، وأحكامه ، بعد ذكر اليتامى ، وما لهم على الأوصياء ـ الذين هم من أقارب المورث غالبا ـ من حقوق ..

فاليتم لا يكون إلا بعد موت الوالدين ، وخاصة الأب ، وكذلك الميراث ، لا تقوم أحكامه إلا بعد موت المورث.

وفى قوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان و الأقربون .. الآية) حكم عام مجمل للميراث ، وستجى ء الآيات بعد ذلك بأحكامه مفصلة مخصصة.

وقوله تعالى : « و إذا حضر القسمة أولوا القربى و اليتامى و المساكين فارزقوهم منه و قولوا لهم قولا معروفا » هو تدبير حكيم ، من لدن عليم خبير ، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور ..

فهذا مال ساقه القدر ـ على غير انتظار ـ لجماعة من قرابة المتوفى ،

التفسير القرآني للقرآن ، ج ٢ ، ص : ٧٠٥

و هاهم أولاء يقتسمون هذا الميراث فيما بينهم ، ويذهب كل واحد منهم بنصيبه منه ..!

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٣٢/١

هذا جانب من الصورة التي تبدو للعين بعد موت المورث ، وعند تقسيم تركته ، وهو الجانب البارز الواضح منها ..". [١]

٣١-"و فى وصف الله بالعزة والعلم ، إشارة إلى بسطة سلطانه على الوجود ، وتمكنه من كل موجود ، مع إحاطة علمه بكل شى ء ، فيعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور.

وفى الجمع بين العزة والعلم هنا ، والجمع بين العزة والحكمة فى سورة الزمر ـ مراعاة للمقام هنا ، وهناك ..

ففى سورة « الزمر » ناسبت الحكمة دعوة النبي إلى التمسك بهذا الكتاب الحكيم ، والاهتداء بهديه ، وعبادة الله على ضوئه ..

وهنا ، ناسب العلم دعوة الناس إلى التوبة ، والإقبال على الله بنية خالصة ..

لأن الله يعلم ما تكن السرائر ، وما تخفى الصدور ..

قوله تعالى :

«غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير » هو عرض لبعض صفات الله سبحانه وتعالى ، إلى ما عرض فى الآية السابقة .. فمن صفاته سبحانه أنه « غافر الذنب » يغفر للمذنبين ، الذين يدرءون بالحسنة ، ذنوبهم ، كما يقول سبحانه : « إن الحسنات يذهبن السيئات » (١١٤ : هود)

التفسير القرآني للقرآن ، ج ١٢ ، ص : ١٢٠٥

و من صفاته سبحانه ، أنه « قابل التوب » أي يقبل التائبين ، ويتجاوز لهم عما كان منهم ..

ومن صفاته سبحانه : أنه « شديد العقاب » .. أي أن عذابه للعاصين ، والضالين ، شديد ، يلقى منه المعذبون الوبال والنكال ..

فمع سعة رحمة الله ، ومع سوابغ فضله وإحسانه ، فإن عقابه شديد راصد ..

فالرحمة والفضل والإحسان للمحسنين ، والعذاب والنكال للضالين المكذبين ..

وبهذا يعتدل ميزان العدل بين الناس .. فلا يسوى بين الأخيار والأشرار ، بل ينزل كل من هؤلاء وهؤلاء منزله : « أم نجعل الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض؟ أم نجعل المتقين كالفجار » (٢٨ : ص) ومن صفاته سبحانه ، أنه « ذو الطول » أي البأس والعزة والغلبة ، فلا يفوته ـ سبحانه ـ مطلوب ، ولا يدفع بأسه دافع.". [٢]

٣٢-"و قوله تعالى : « فالحكم لله العلي الكبير » إشارة إلى أن الحكم المسلط عليهم الآن ، هو حكم الله ، العلى الكبير ، الذي لا يشاركه أحد فى علوه ، ومقامه ، وسلطانه .. فإذا كان لآلهتهم التي أضافوها إلى الله ، وأشركوها معه ـ إذا كان لهذه الآلهة شى ء مع الله ، فليطلبوا إليها هذا الذي يطلبون اليوم من الله .. وإنه لضلال فى منطقهم أن يشركوا آلهتهم مع الله فى الدنيا ، ثم لا يشركوهم معه فى الآخرة ، لينفذوهم من النار التي يساقون إليها ..

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢/١٩٨

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٢/٢٠٦

التفسير القرآني للقرآن ، ج ١٢ ، ص : ١٢١٣

الآيات : (١٣ ـ ٢٠) [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ٢٠]

هو الذي يريكم آياته و ينزل لكم من السماء رزقا و ما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين و لو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شي ء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)

و أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور (١٩) و الله يقضي بالحق و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشي ء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

التفسير :

قوله تعالى :

«هو الذي يريكم آياته و ينزل لكم من السماء رزقا و ما يتذكر إلا من ينيب » ..". [١]

٣٣-"إذ » ، ظرف .. بدل من يوم الآزفة .. والحناجر : جمع حنجرة ، وهى الغلصمة فى أعلى الزور ، والكاظم : المأخوذ من كظمه ، أي منمخنقه .. يقال كظم القربة أي ربط فمها ، ومنه كظم الغيظ : أي حبسه فى الصدر.

والمعنى : وأنذر الناس ـ أيها النبي ـ وحذرهم يوم القيامة وقد أزف ، وهو يوم عظيم ، تختنق فيه الأنفاس ، وتضيق الصدور ، وتجف القلوب وتضطرب ، حتى لتبلغ القلوب الحناجر فى خفقها واضطرابها ..

وقوله « كاظمين » حال من أصحاب القلوب.

وقوله تعالى : « ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع » .. أي ليس للظالمين فى هذا اليوم العظيم ، من صاحب أو صديق يعين ، أو من شفيع تقبل شفاعته فيهم ..

قوله تعالى :

«يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور .. و الله يقضي بالحق و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشي ء .. إن الله هو السميع البصير » .

خائنة الأعين : أي نظرة العين تكون عن خلسة ، لا يراها الناس ، ولا يعلم بها المنظور إليه.

وقوله تعالى : « يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور » هو تعليل لما فى الآية السابقة من وعيد للظالمين الذين أنذروا بيوم القيامة ، وما فيه من أهوال ، وأن الذي سيحاسبهم هناك هو الله سبحانه ، الذي يعلم ما يبدون وما يكتمون ، لا تخفى عليهم منهم خافية ، ولا يرد عنهم بأسه أحد ، ولا تقبل فيهم عنده شفاعة من أحد ..

وقوله تعالى : « و الله يقضي بالحق » أي أنه سبحانه ـ مع بأسه ، وسلطانه

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢/٢١٤

التفسير القرآني للقرآن ، ج ١٢ ، ص : ١٢١٨
لم يظلمهم ، بل وفاهم جزاء أعمالهم ، ولم يظلموا مثقال ذرة ، لأن الذي قضى بهذا الحكم فيهم ، هو الله ، والله لا يقضى إلا بالحق ..
قوله تعالى :
«و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشي ء » أي أن هؤلاء الذين يعبدهم المشركون من دون الله ، لا يقضون بشى ء ، أي لا يحكمون بحق أو باطل ..". (١)

٣٤-"و لكن أين يذهب هؤلاء الذين أخفوا مكرهم السي ء عن الناس؟ إنهم إن استخفوا من الناس فلن يستخفوا من الله ، الذي لا يخفى عليه شى ء فى الأرض ولا فى السماء .. فهو ـ سبحانه ـ « يعلم **خائنة الأعين** و ما تخفي الصدور .. »
وهو سبحانه : « معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول »
! إنهم فى سكرة يعمهون .. يحسبون أنهم ـ وقد استخفوا عن الناس ـ قد غاب أمرهم عن الله ، وأنهم وقد أفلتوا من يد الناس ـ لن تمسك بهم يد الله! وكلا ، فإن عين الله لا تغفل ، وإن ما بيتوه من سوء قد سجله الله عليهم ، وسيأخذهم به .. « و كان الله بما يعملون محيطا »
.
وقوله تعالى : « ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا » هو استدعاء لأولئك الذين يتولون الظالمين ، ويمكنون لهم من إمضاء مكرهم السي ء ، وتغطية ما ينكشف عنه ، وذلك بالدفاع عنهم ، وتبرير أعمالهم المنكرة ، والتماس التأويلات الكاذبة لها ..
التفسير القرآني للقرآن ، ج ٣ ، ص : ٨٩٢
فهؤلاء الذين يقومون وراء الظالمين هم شركاء لهم فى هذا الجرم .. وهم مدعوون معهم إلى ساحة المحاكمة والقصاص بين يدى أحكم الحاكمين! وفى هذا الموقف تخرس ألسنة هؤلاء الأولياء المدافعين عن الظلم والظالمين .. ويتعرى أولئك الظالمون من كل قوة تدفع عنهم سوء ما عملوا.
الآيات : (١١٠ ـ ١١٢) [سورة النساء (٤) : الآيات ١١٠ الى ١١٢]". (٢)

٣٥-"الذي ينهى عبدا عن الصلاة ، ويحول بينه وبينها؟ ثم أ رأيت لو أنه كان فى موقف آخر غير هذا الموقف ، فكان قائما على طريق الهدى ، مؤمنا بربه ، مواليا له ، آمرا بالبر والتقوى بدلا من نهيه عن البر والتقوى؟ فاى حاليه كان خيرا له وأهدى سبيلا؟ أحال الضلال ، والعمى ، والصد عن سبيل الله ، أم حال الاستقامة والهدى والدعوة إلى الله؟

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢/٢١٨
(٢) التفسير القرآني للقرآن ٢/٣٨٧

وشتان بين الظلام والنور ، والشر والخير ، والكفر والإيمان! وقوله تعالى :

«أ رأيت إن كذب و تولى أ لم يعلم بأن الله يرى » .

أي ثم ماذا ترى من حال هذا الضال ، وقد أبى أن يكون على الهدى أو يأمر بالتقوى ، بل كذب بآيات الله ، وتولى معرضا عمن دعاه إلى الله ، ورفع لعينيه مصابيح الهدى؟ فأى إنسان هذا؟ وبأى نظر ينظر ، وبأى عقل يفكر ويميز بين الخير والشر؟ « أ لم يعلم بأن الله يرى » ؟ أسفه نفسه حتى أنكر أن لهذا الوجود إلها قائما عليه ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور؟ ألا يخاف بأس الله؟ ألا يخشى عقابه؟

و قوله تعالى :

«كلا .. لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة » .

هو رد على هذا السؤال فى قوله تعالى : « أ لم يعلم بأن الله يرى » . وكلا ، إنه لا يعلم بأن الله مطلع على كل شى ء ، ولو كان يعلم هذا علما مستيقنا لخاف ربه وخشى بأسه ، ولكن ضلاله أعمى قلبه ، وأظلم بصيرته ، فلم يرى جلال الله ، ولم يشهد عظمته ، ولم يخش بأسه! وقوله تعالى : « لئن لم ينته لنسفعا بالناصية » هو وعيد وتهديد لهذا الضال

التفسير القرآني للقرآن ، ج ١٦ ، ص : ١٦٣٠". [١]

٣٦-"و يتناجون أو يتحدثون به فيما بينهم من المطاعن في الدين ، وأنه أعلم بضمائرهم ، فإنهم إن قالوا : ليتصدقن بشيء من أموالهم ، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم ، وأنه علام الغيوب ، يعلم كل غيب وشهادة ، وكل سر ونجوى ، ويعلم ما ظهر وما بطن ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يعلم الله كل ذلك وما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه ، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به ، وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه ؟ ! والفرق بين السر والنجوى والغيب : أن السر : ما ينطوي عليه صدورهم ، والنجوى : ما يتحدث به الناس فيما بينهم. والغيب : ما كان غائبا عن الخلق.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الأحكام التالية :

١- المعاهدة مع الله توجب الوفاء بالعهد ، وهل من شرط المعاهدة التلفظ بها باللسان أو لا حاجة إلى التلفظ ، وإنما تكفي النية في القلب ؟ خلاف بين العلماء ، قال المالكية : العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المرء ، ولا يفتقر إلى غيره فيه ، فإنه يلزمه منه ما يلتزمه بقصده ، وإن لم يتلفظ به. سئل مالك : إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه ، فقال : يلزمه كما يكون مؤمنا بقلبه ، وكافرا بقلبه. وروي عنه غير ذلك كما سيأتي.

وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا يلزم أحدا حكم إلا بعد أن يلفظ به ، وذلك يشمل النذور والأيمان والطلاق ونحوها. ودليلهم

---

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٠١/٣

ما رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تعمل أو تتكلم به »

قال ابن عبد البر : هذا هو الأشهر عن مالك ، وقال القرطبي : وهذا هو الأصح في النظر وطريق الأثر

لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة : « إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به أو تعمل به » .". [١]

٣٧-"و سبب الأمر بغض البصر هو سد الذرائع إلى الفساد ، ومنع الوصول إلى الإثم والذنب ، فإن النظر بريد الزنى ، وقال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب ، ولذلك جمع الله في الآية بين الأمر بحفظ الفروج ، والأمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى المحظور الأصلي وهو الزنى ، فقال :

ويحفظوا فروجهم أي من ارتكاب الفاحشة كالزنى واللواط ومن نظر أحد إليها ، كما

روى أحمد وأصحاب السنن : « احفظ عورتك إلا من زوجتك ، أو ما ملكت يمينك » .

وقال تعالى مبينا حكمة الأمر بالحكمين :

ذلك أزكى لهم أي إن غض البصر وحفظ الفرج خير وأطهر لقلوبهم ، وأنقى لدينهم ، كما قيل : من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته ، أو في قلبه. و

روى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ، ثم يغض بصره ، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها »

و

روى الطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه » .

وأزكى الذي هو أفعل التفضيل للمبالغة في أن

ج ١٨ ، ص : ٢١٥

غض البصر وحفظ الفرج يطهران النفوس من دنس الرذائل. والمفاضلة على سبيل الفرض والتقدير ، أو باعتبار ظنهم أن في النظر نفعا.

إن الله خبير بما يصنعون أي إن الله عليم علما تاما بكل ما يصدر عنهم من أفعال ، لا تخفى عليه خافية ، وهذا تهديد ووعيد ، كما قال تعالى : يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩] فهو يعلم استراق النظر وسائر الحواس ، والخبرة : العلم القوي الذي يصل إلى بواطن الأشياء.

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٣٢٧/١٠

أخرج البخاري في صحيحة تعليقا ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ". [1]

٣٨-"٣- ذكر ابن العربي والقرطبي « ١ » بمناسبة هذه الخصوصية ما خص الله تعالى به

---

(١) أحكام القرآن : ٣/ ١٥٤٩- ١٥٥٣ ، تفسير القرطبي : ١٤/ ٢١١- ٢١٣

ج ٢٢ ، ص : ٧٢

رسوله من أحكام في الشريعة لم يشاركه فيها أحد ، سواء في مجال الفرض أو التحريم أو الإباحة ، ففرضت عليه أشياء لم تفرض على غيره ، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم ، وأبيحت له أشياء لم تبح لهم.

فأما ما اختص به من الفرائض فهو تسعة :

الأول- التهجد بالليل ، لقوله تعالى : يا أيها المزمل ، قم الليل إلا قليلا [المزمل ٧٣/ ١] ، والصحيح أنه كان واجبا عليه ثم نسخ بقوله تعالى :

ومن الليل فتهجد به نافلة لك [الإسراء ١٧/ ٧٩].

الثاني- الضحى. الثالث- الأضحى. الرابع- الوتر. الخامس- السواك.

السادس- قضاء دين من مات معسرا. السابع- مشاورة ذوي الأحلام في غير الشرائع. الثامن- تخيير النساء. التاسع- إذا عمل عملا أثبته.

وأما ما اختص به مما حرم عليه فهو عشرة :

الأول- تحريم الزكاة عليه وعلى آله. الثاني- صدقة التطوع عليه ، وفي آله اختلاف. الثالث- **خائنة الأعين** : وهو أن يظهر خلاف ما يضمر ، أو ينخدع عما يجب. الرابع- حرم الله عليه إذا لبس لأمته (درعه) أن يخلعها عنه أو يحكم الله بينه وبين محاربه. الخامس- الأكل متكئا. السادس- أكل الأطعمة كريهة الرائحة. السابع- التبدل بأزواجه. الثامن- نكاح امرأة تكره صحبته.

التاسع- نكاح الحرة الكتابية. العاشر- نكاح الأمة.

وحرم الله عليه أشياء لم يحرمها على غيره تنزيها له وتطهيرا ، فحرم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه ، تأكيدا لحجته وبيانا لمعجزته ، قال الله تعالى :

وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك [العنكبوت ٢٩/ ٤٨].". [2]

٣٩-"و لما علم الله المؤمنين أدب الدخول إلى البيوت وصون الأذن والعين من النظر المحرم ، أكده بما يحملهم على محافظته ، فقال :

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٢١٧/١٨

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٧٧/٢٢

٤- وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أي ما صح وما ينبغي لكم أن تكونوا سببا في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو تفعلوا فعلا يضايقه ويكرهه ، كالمكث في منزله والاشتغال بالحديث ، فكل ما منعتم عنه مؤذ ، فامتنعوا عنه ، فإنه صلى الله عليه وسلم حريص على ما فيه إسعادكم وخيركم في الدنيا والآخرة ، ومن أشد أنواع الأذى ومما هو حرام عليكم أن تتزوجوا أبدا بنسائه بعد مفارقتهن بموت أو طلاق ، تعظيما له ، ولأنهن أمهات المؤمنين ، ولأنه ذنب عظيم كما قال تعالى :

إن ذلكم كان عند الله عظيما أي إن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ونكاح أزواجه من بعده ذنب عظيم وإثم كبير. وفي هذا تعظيم الأمر ، وتشديد فيه وتوعد عليه ، ثم أكد ذلك بالبعد عن الإيذاء في الباطن والظاهر فقال :

إن تبدوا شيئا أو تخفوه ، فإن الله كان بكل شيء عليما أي إن تظهروا شيئا من الأذى أو تكتموه ، فإن الله عليم علما تاما دقيقا به ، يعلم ما تكنه ضمائركم ، وتنطوي عليه سرائركم ، ولا تخفى عليه خافية : يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩] وهو مجاز كل إنسان بحسب ذلك العلم.

ثم استثنى الله تعالى من حكم حجاب أزواج النبي على الأجانب المحارم ونساء المؤمنين والأرقاء ، فقال : ". [١]

٤٠-"

ج ٢٤ ، ص : ٩٦

في ساعة واحدة.

جاء في الخبر : « و لا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار » .

والخلاصة : ذكر الله تعالى ست صفات ليوم القيامة : وهي كونه يوم التلاق ، وكون الخلق بارزين ظاهرين فيه ، ولا يخفى على الله منهم شيء ، ويظهر فيه الملك التام لله الواحد القهار ، وتجزى فيه كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، ولا ظلم في الحساب الذي هو سريع الإجراء والتنفيذ وتحقيق المطلوب.

أوصاف أخرى هائلة رهيبة ليوم القيامة [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٢]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢(١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)

الإعراب :

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع إذ بدل من يوم الآزفة الذي

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٩٥/٢٢

هو مفعول به ل أنذرهم لا ظرف ، لأن الإنذار لا يكون يوم الآزفة. والقلوب مبتدأ ، ولدى الحناجر خبر. وكاظمين ج ٢٤ ، ص : ٩٧". (١)

٤١-"يعلم الله **خائنة الأعين** أي النظرة الخائنة ، كالنظرة الثانية إلى الحرام ، واستراق النظر إليه ، فالمراد الأعين الخائنة : وهي التي تختلس النظر إلى المحرم وتسارقه وما تخفي الصدور القلوب ، أي ما تكتمه الضمائر. والجملة خبر خامس للقلوب ، للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء.

ج ٢٤ ، ص : ٩٨

و الله يقضي بالحق لأنه المالك الحاكم على الإطلاق ، فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه والذين يدعون يعبدون ، أي كفار مكة من دونه أي الأصنام لا يقضون بشيء فكيف يكونون شركاء لله ؟ وهذا تهكم بهم ، لأن الجماد لا يقال فيه : إنه يقضي أو لا يقضي إن الله هو السميع البصير السميع لأقوالهم البصير بأفعالهم ، وهذا تعليل وتقرير لعلمه **بخائنة الأعين** وقضائه بالحق ، ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون ، وتعريض بحال ما يدعونه من دونه.

عاقبة الذين كانوا من قبلهم مآل حال الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود كانوا هم أشد منهم قوة قدرة وتمكنا وآثارا في الأرض من قلاع ومصانع وقصور ومدائن حصينة فأخذهم الله أهلكهم واق حافظ يدفع عنهم السوء أو العذاب.

بالبينات بالمعجزات الظاهرات والأحكام الواضحة إنه قوي متمكن مما يريده غاية التمكن شديد العقاب ليس هناك عقاب أشد منه.

المناسبة :

بعد بيان كون الأنبياء ينذرون الناس يوم التلاق ، أتى بأوصاف هائلة رهيبة أخرى ليوم القيامة ، لتخويف الكفار بعذاب الآخرة ، ثم خوفهم بعذاب الدنيا المماثل لإهلاك الأمم السابقة الذين كذبوا الرسل.

التفسير والبيان : ". (٢)

٤٢-"يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور أي إن الله يعلم النظرة الخائنة التي ينظرها العبد إلى المحرم ، ويعلم ما تسره الضمائر من أمور خيرة أو شريرة ، حتى حديث النفس أو خواطر النفس. وهذا يعني أن علم الله تام محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم ، فيستحيوا من الله حق الحياء ، ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة ، وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر ، أي مضمرات القلوب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غض بصره عنها ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غض ، وقد اطلع

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٩٣/٢٤

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٩٥/٢٤

الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها « ١ » .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وابن المنذر.

ج ٢٤ ، ص : ١٠٠

و الله يقضي بالحق أي والله يحكم بالحكم العادل ، فيجازي بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة ، ويجازي كل أحد بما يستحقه من خير أو شر.

والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ، إن الله هو السميع البصير أي والذين يعبدونه من الأصنام من غير الله ، لا يتمكنون من القضاء بشيء ، أي فلا يحكمون بشيء ، ولا يملكون شيئا ، لأنهم لا يعلمون شيئا ، ولا يقدرون على شيء ، فالذي تجب عبادته هو القادر على كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء ، فإن الله سميع لأقوال خلقه ، بصير بأفعالهم ، فيجازيهم عليه يوم القيامة.". (١)

٤٣-"و الله بما تعملون عليم ودليل على إحاطة علم الله بالأشياء لأن من ملك شيئا وخلقه ، فلا بد من أن يعلمه ، كقوله تعالى : ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير [الملك ٦٧/ ١٤] ، وكذلك من ملك شيئا فله حسابه على أفعاله وما يخفيه صدره ، ومنها كتمان الشهادة ، وصاحب السلطة المطلقة في شيء وهو الحساب ، له الإرادة المطلقة في العفو عمن شاء ممن أخطأ ، وعقاب من شاء ، وذلك كله مقترن بالقدرة المطلقة على كل شي ء.

وللآية أمثال كثيرة في القرآن الكريم نحو : قل : إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم ما في السماوات وما في الأرض ، والله على كل شيء قدير [آل عمران ٣/ ٢٩] ونحو : فإنه يعلم السر وأخفى [طه ٢٠/ ٧] يعلم **خائنة الأعين** ، وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩].

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى في هذه الآية أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن ، وأنه المطلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر والسرائر والضمائر وإن دقت وخفيت ، وأنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم ، كما قال ابن كثير فلله ما في السموات وما في الأرض ملكا وخلقا وتصريفا وعلما ، وهو العليم بكل شيء ، فإن تظهروا ما في قلوبكم من السوء والعزم عليه ، أو تكتموه عن الناس وتخفوه ، فالله يحاسبكم عليه ويجازكم به ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.". (٢)

٤٤-"و قال الحنفية : يحلف بالله لا غير ، فإن اتهمه القاضي ، غلظ عليه اليمين ، فيحلفه « بالله الذي لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، الرحمن الرحيم الذي يعلم من السر ما يعلم من العلانية ، الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٢٤/٩٧

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٣/١٣٣

الصدور » .

وزاد الشافعية : التغليظ بالمصحف. وقال أحمد : لا يكره ذلك.

٨- قدر المال الذي يحلف به : قال مالك : لا تكون اليمين في أقل من ثلاثة دراهم ، قياسا على حد القطع في السرقة.

وقال الشافعي : لا تكون اليمين في ذلك في أقل من عشرين دينارا قياسا على الزكاة ، وكذلك عند منبر كل مسجد.

٩- الأصل قبول أخبار الشهود وتصديقهم دون يمين لقول الله تعالى :

ولا يضار كاتب ولا شهيد وشرط في تحليف الشاهدين الارتياب في خبرهما ، فإذا لم يكن الشاهدان عدلين وارتاب الحاكم بقولهما حلفهما ، بدليل قوله تعالى :

إن ارتبتم ومتى لم يقع ريب فلا يمين. وأصبح تحليف الشهود السمة العامة في المحاكم الحالية. وسبب الريبة في الآية : هو الاحتياط لقبول شهادة الكافر بدلا عن شهادة المسلم للضرورة. وقد حلف ابن عباس المرأة التي شهدت بالرضاع.

١٠- تجيز الآية شهادة المدعين لأنفسهم واستحقاقهم بمجرد أيمانهم : وهذا مخالف للمقرر في الشريعة : أن البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر. وهو محض العدل ، وقد أجاب الجمهور بأن حكم الآية هذا منسوخ.

وأما جواب القائلين بأن الآية محكمة غير منسوخة : فهو قبول يمين المدعي بسبب العثور على خيانة المدعى عليه واستحقاقه الإثم ، وهذا موافق للأصول حيث يتقوى جانب المدعي بالشاهد ، أو بنكول خصمه عن اليمين ، أو قوة جانبه باللوث (القرينة على القتل) ، أو قوة جانبه بشهادة العرف في تداعي

ج ٧ ، ص : ١٠٦

الزوجين ، ومنها العثور على الخيانة ، فإن اليمين تكون بجانب أقوى المتداعيين شبهة.". (١)

٤٥-"و جاء في الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك.

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت : من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد ، فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : قل : لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله [النمل ٢٧/ ٦٥].

وفي معناها أيضا قوله تعالى : عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول [الجن ٧٢/ ٢٦- ٢٧].

ويعلم سبحانه حديث النفس ، ويعلم السر وأخفى ، فقال : وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون. وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين [النمل ٢٧/ ٧٤- ٧٥] وقال : يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩].

ج ٧ ، ص : ٢٢٩

و جملة لا يعلمها إلا هو توكيد للجملة السابقة.

ثم فصل تعالى ما أجمل ، وعدد بعض نواحي العلم التي يحيط بها فقال :

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ١٠٨/٧

ويعلم ما في البر والبحر .. أي يعلم الأشياء المشاهدة لكم ، كما يعلم المغيبات ، فيعلم كل ما هو كائن في البر والبحر ، فعلمه محيط بجميع الموجودات بريها وبحريها ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.
ويعلم سقوط أي ورقة من أوراق الشجر في أي مكان وزمان ، في البر والبحر ، ويعلم الحركات حتى من الجمادات ، وبالأولى الحيوانات ، ولا سيما المكلفون منهم من الجن والإنس ، ويعلم الأحوال المتعلقة بالذوات إذ سقوط الورق حال من الأحوال.". (١)

٤٦-"و التوفيق أو الجمع بين قوله : فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين وبين قوله : فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان [الرحمن ٥٥/ ٣٩] وقوله : ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون [القصص ٢٨/ ٧٨] : هو أن ليوم القيامة مواقف وأحوالا متعددة ، فقد يكون السؤال والجواب في بعضها دون بعض ، وقد يكون السؤال لأجل الاسترشاد والاستفادة ، وقد يكون لأجل التوبيخ والإهانة.
وقال الرازي : إن القوم لا يسألون عن الأعمال لأن الكتب مشتملة عليها ، ولكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال ، وعن الصوارف التي صرفتهم عنها « ١ » ، أي الموانع التي حالت بينهم وبين التزام الأحكام الشرعية.
فلنخبرن عن علم ومعرفة وإحاطة تامة الرسل وأقوامهم بكل ما حدث منهم ، فلا يغيب عنا شيء قليل أو كثير ، وإن كان مثقال ذرة من خردل في صخرة أو في السموات أو في الأرض. قال ابن عباس في آية : فلنقصن عليهم بعلم : يوضع الكتاب يوم القيامة ، فيتكلم بما كان يعملون.
وما كنا غائبين عنهم في وقت أو حال ، بل كنا معهم نسمع قولهم ، ونبصر فعلهم ، ونعلم ما يسرون وما يعلنون ، ونخبر العباد يوم القيامة بمنا قالوا وبما عملوا من قليل وكثير ، وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم **بخائنة الأعين** وما تخفي الصدور ، كما قال : وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات

---

(١) تفسير الرازي : ١٤/ ٢٣ [.....]
ج ٨ ، ص : ١٤٥
الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين [الأنعام ٦/ ٥٩] فقوله : وما كنا غائبين يعني كنا شاهدين لأعمالهم.". (٢)

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ٢٣٧/٧
(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ١٤٥/٨

٤٧-"﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) ﴾

يعلم الله سبحانه ما تختلسه العيون من نظرات، وما يضمره الإنسان في نفسه من خير أو شر.". [١]

٤٨-"ج ١ ، ص : ٤٢٦

فعلى الحكام أن يبحثوا في القضية ، ويدققوا النظر في شكلها وموضوعها ، ولا تغرنهم بلاغة الخصم ولحنه في القول ، ولا تأخذهم العاطفة الدينية أو الجنسية فيميلوا لبنى جنسهم أو دينهم ، ولعل السر فيما دار في خلد النبي صلى الله عليه وسلم أن طعمة المسلم يغلب عليه الصدق ، وذاك اليهودي يغلب عليه الكذب والخداع.

والثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحكم في هذه القضية قبل نزول القرآن ولم يعمل بغير ما يعتقد لكنه أحسن الظن في المسلم ، فبين له علام الغيوب حقيقة الأمر.

واستغفر - يا محمد - الله مما يعرض لك من شئون البشر وميلك إلى من هو ألحن بحجة أو إلى من هو مسلم لإسلامه فهذا وإن لم يكن ذنبا إلا أنه في صورة الذنب. إن الله كان غفورا لذنوب عباده ، ستارا رحيما بهم.

ولا تجادل - يا محمد - عن الذين يخونون أنفسهم بتعديهم على حقوق الغير ، إن الله لا يحب بل يبغض من كان كثير الخيانة دائبا على ارتكاب الإثم ، واجتراح السيئة!! والخيانة مطلقا تقتضي عدم المحبة من الله لصاحبها ، ولكن الوصف المبالغ فيه في الآية لبيان ما كان عليه من طعمة وأقاربه ، هؤلاء وأمثالهم الذين يأخذون المال خفية يستخفون من الناس ، ويستترون منهم حياء وخوفا ، ويا للعجب العجاب!! يستخفون من الله عالم الغيب والشهادة الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور ، وبالضرورة يعلمهم ويشاهدهم وقت أن يدبروا ليلا ما لا يرضى الله ورسوله ، تبرئة لأنفسهم ولصاحبهم ولرمي غيرهم بالجريمة وهم يعلمون أنه برىء ، وما ذاك إلا لضعف دينهم ولصدأ قلوبهم ، وكان الله بما يعملون محيطا وحافظا لهم ، فكيف ينجون من عقابه ؟

أيها الأقارب لطعمة : ها أنتم أولاء جادلتم عن صاحبكم ومن وقف معه تبرئة له ، زورا وبهتانا ، جادلتم في الدنيا ، فمن يجادل عنهم يوم القيامة ؟ يوم تكشف السرائر ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ؟ بل من يكون عليهم وكيلا ومدافعا عنهم ؟ لا أحد إلا أعمالهم تنطق عليهم ، فلينظر كل إلى عمله.

ومن يعمل سوءا يتعدى جرمه إلى غيره أو يظلم نفسه بفعل معصية خاصة ، ثم هو يرجع إلى الله ويتوب نادما على فعله فإنه يجد الله غفورا رحيما يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، لأنه كتب على نفسه الرحمة ، فلا تيأسوا من رحمته ، ومن يفعل". [٢]

٤٩-"ج ١ ، ص : ٩١١

الجزية! انطلقا حتى تفرغا ثم عودا ، ولم يعطهما شيئا ، ثم أقبلا على النبي صلى الله عليه وسلم بصدقة السلمى الذي أعطاهما

---

(١) التفسير الميسر ٣١٢/٨

(٢) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع ٤٢٦/١

من خيار ماله ، فلما رآهما النبي مقبلين قال : « يا ويح ثعلبة » ثم دعا للسلمى بالبركة ، فنزلت الآية الكريمة وحينما بلغت ثعلبة عاد إلى رسول الله ومعه الصدقة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله منعني أن أقبل منك »
وهكذا لحق النبي بالرفيق الأعلى ولم يقبلها منه ونهج الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان هذه السيرة ومات ثعلبة في خلافة عثمان.

المعنى :

وبعض المنافقين عاهد الله ورسوله لئن أعطاه الله مالا كثيرا ليصدقن ، ويعطى كل ذي حق حقه. وليكونن من عباد الله الصالحين ، فلما آتاه الله مالا وأغناه من فضله ، بخل بالمال وشح بالخير ، وأمسك فلم يتصدق بشيء ، وبدل أن يصلح نفسه وأمته بالإنفاق كما عاهد الله وأقسم على ذلك ، أعرض عن ذلك وتولى وهو معرض بكل قواه إعراضا راسخا ثابتا ، وهذا طبع في المنافقين لازم لهم راسخ فيهم.

فأعقبهم ذلك البخل وهذا الإعراض نفاقا من النوع العالي الدائم إلى يوم القيامة ، ولا غرابة فكل معصية وإن صغرت تحجب شيئا من نور الإيمان حتى إذا كثرت المعاصي حجبت جميع النور فأصبح القلب في ظلمات الفساد والعصيان والنفاق غارقا.

كل هذا بسبب ما أخلفوا الله وعده ، كما في قصة ثعلبة وأضرابه من المنافقين ، وبما كانوا يكذبون ... فآية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان « ١ » . صدق رسول الله.

ألم يعلم هؤلاء أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور ؟ !! فالله يعلم كل هذا ، ولكن المنافقين لا يعلمون ..

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٨٣ ، ٨٤ في الإيمان باب علامات المنافق ومسلم ٥٩ في الإيمان.". [١]

٥٠-"ج ٢ ، ص : ٦٦٧

ويخفف من حدتها ، ويوجهها إلى الوجهة العليا إلا الخوف من الله ، وتلاوة القرآن ومدارسة الحديث ، ومجالسة العلماء ، والانضمام إلى الجمعيات الدينية حتى يشغل فراغه ويصرف وقته في النافع ، وإن أساس الوقوع في المعصية هو الشباب والفراغ والمال فإذا أمكننا صرف الشباب إلى الوجهة النافعة ، وشغل وقتهم وفراغهم بالهوايات الصالحة النافعة كالرياضة البدنية وغيرها توصلنا بهذا إلى التقليل من وقوع الجرائم الجنسية. والنبي صلى الله عليه وسلم قد عالج هذا الموضوع بقوله « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة - أى :
النكاح - فليتزوج وإلا فعليه بالصوم فإنه له وجاء »
ولا شك أن في الصوم جنة ، ورياضة روحية ، وإضعافا للقوة الجسمية.

---

(١) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع ٩١١/١

يا جماعة المسلمين : لو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا وكيف يسير الإنسان على الصراط المستقيم ، وهو بين قائد ضال ودافع أضل ؟ ولكن الله يزكى من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب ، والله سميع عليم ، ويعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور ، وهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.

أليس في هذا خير لنا وهداية ؟ نسأله التوفيق والسداد.

ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أى : لا يحلف أصحاب الغنى والجاه أن يؤتوا أولى القربى والمساكين مما أعطاهم الله من خيره جزاء ما اشتركوا في إثم الإفك ، وهذا نهى لأبى بكر حتى لا يمنع مسطحا من النفقة التي كان يجريها ، وهكذا كل مسلم.

وليعفوا عن السيئات ، وليصفحوا عن العصاة والمذنبين ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ وهذا تمثيل أى كما تحبون أن يغفر الله لكم ، فاغفروا أنتم لمن دونكم

« من لا يرحم لا يرحم »

والله سبحانه كثير المغفرة والرحمة فاقتدوا به واعملوا بما أمر فهو خير لكم.

نهاية القصة [سورة النور (٢٤) : الآيات ٢٣ الى ٢٦]

إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم (٢٣) يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (٢٤) يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين (٢٥) الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم (٢٦)". (١)

٥١-"ج ٢ ، ص : ٦٧٤

وبعد الزنى ، فالإذن قبل الدخول ، والحجاب وعدم النظر ومنع الاختلاط مما يباعد بلا شك بين الشخص وبين الخطر.

المعنى :

قل يا محمد ، وكذا كل رئيس للمؤمنين أو إمام لهم ، قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويكفوها عن النظر إلى الأجنبيات غير المحارم ، ويحفظوا فروجهم من كل منكر كالنظر واللمس والزنى ، وانظر إلى قوله - تعالى - وقد قدم تحريم النظر على حفظ الفروج التي هي المقصود الأساسى من الكلام ليعلم الناس جميعا ما للنظر من خطر وأثر ، وأنه رسول الشهوة : وبريد الزنى ، وبذرة الفسق والفجور.

وخص المؤمنين بالذكر لأنهم الممتثلون المنتفعون بهذا. ذلك أزكى لهم وأطهر ، وأبعد عن الشك وأنفى للريبة ، وأبقى للنفس طاهرة زكية بعيدة عن الخطر. واعلموا أيها الناس أن الله خبير بما تصنعون ، فراقبوا الله واتقوا عذابه ، واعلموا أنه يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون.

---

(١) التفسير الواضح . موافقا للمطبوع ٢/٦٦٧

وكل أمر في القرآن للمؤمنين فهو كذلك للمؤمنات ، ولكنه أعيد الحكم هنا مع المؤمنات لأن النساء في أشد الحاجة إلى ذلك ، على أن الحكم من أخطر الأحكام التي تقتضي التفصيل والبيان.

وقل : أيها القائد والمربي والمشرف على المؤمنات وتربيتهن والإرعاء عليهن سواء كنت حاكما أو زوجا أو معلما قل لهن يغضضن من أبصارهن ، ويمنعن بعض أبصارهن عن النظر أما النظر جملة فمنعه شاق وعسير ، ولقد صدق رسول الله حيث يقول : « لك الأولى وعليك الثانية » أى لك النظرة الأولى دون الثانية ، فالمنهى عنه النظر الذي يتجاوز الحد المعروف شرعا.

وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين مواضع الزينة منهن ، وإنما نهى القرآن عن الزينة والمراد مواضعها للمبالغة في المنع ، إلا ما جرت به العادة بكشفه لاقتضاء الضرورة ذلك كالوجه والكفين ، لأنه لا غنى عن كشفهما.

وقد كانت العادة المتفشية في الجاهلية أن تكشف المرأة عن نحرها وصدرها وللأسف". [١]

٥٢-"ج ٣ ، ص : ٢٩٥

للحساب ، ويخوفهم يوما يبرزون فيه أمام الحق - تبارك وتعالى - ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة [الأنعام ٩٤] بروزا أمام الله لا حول لهم ولا قوة ولا ساتر ولا وقاية من عذابه لا يخفى على الله منهم شيء.

يا حسرتا على القوم الكافرين!! يقول الله - تعالى - بعد فناء الخلق أجمعين ، أى : بعد النفخة الأولى : لمن الملك اليوم ؟ فيجيب الله : لله الواحد القهار ، فالسائل والمجيب هو الله ، أو هو على لسان ملك ، أو حال الخلائق ناطقة بذلك.

اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب فهو لا يشغله حساب عن حساب.

تخويف الكفار وترويعهم [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٢]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشي ء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)". [٢]

٥٣-"ج ٣ ، ص : ٢٩٦

المفردات :

الآزفة المراد : يوم القيامة سميت بذلك لقربها إذ كل ما هو آت قريب ، ويقال : أزف الرحيل يأزف أزفا : إذا قرب كاظمين

(١) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع ٦٧٤/٢

(٢) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع ٢٩٥/٣

: ممتلئين غما الحناجر : جمع حنجرة وهي الحلقوم حميم : قريب نافع **خائنة الأعين** :

المراد الأعين الخائنة وهي التي تختلس النظر إلى المحرم وتسارقه واق : حافظ يدفع عنهم السوء.

وهذا وصف آخر لأهوال يوم القيامة حتى يرتا ع الكفار وتمتلئ قلوبهم روعة ورهبة.

المعنى :

وأنذر الناس وخاصة الذين يجادلون في آيات الله بالباطل ، أنذرهم يوم القيامة اقتربت الساعة وانشق القمر « ١ » ، والقيامة وإن بعد زمانها إلا أنها آتية لا شك فيها ، وكل آت قريب أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة « ٢ » إذ « ٣ » القلوب لدى الحناجر كاظمين ، والمراد تخويفهم وترويعهم من ذلك اليوم وقت أن تكون القلوب لدى الحناجر ، وهذه العبارة كناية عن شدة الخوف والوجل إلى درجة أن تخلع القلوب من أماكنها حتى تصل إلى الحلقوم فلو لا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون « ٤ » حالة كون أصحاب القلوب كاظمين ، أى : مكروبين وساكتين مع امتلائهم غما وحزنا.

ومن هنا فهمنا أن الكفار يوم القيامة يخافون خوفا شديدا يجعل قلوبهم لدى حلقومهم وأنهم من شدة الهم والخوف ساكتون فلا يستطيعون الكلام ، ليس للظالمين - وهم أو لهم - حميم يدافع عنهم من صديق أو قريب ، وليس لهم شفيع يشفع لهم ويجادل عنهم ، وكانوا يعبدون الأصنام على أنها شفعاء عند الله.

---

(١) - سورة القمر آية ١.

(٢) - سورة النجم الآيتان ٥٧ ، ٥٨.

(٣) - (إذ) بدل من (يوم الآزفة) و(لدى الحناجر) خبر ، و(كاظمين) حال من القلوب ، على معنى قلوبهم.

(٤) - سورة الواقعة الآيتان ٨٣ ، ٨٤.". [1]

٥٤-"ج ٣ ، ص : ٢٩٧

وهذا الذي يحاسبهم يوم القيامة يعلم الأعين الخائنة التي تسرق النظر إلى المحرم وتختلسه اختلاسا حتى لا يشعر بها أحد من الجالسين ، ويعلم ما تخفيه الصدور من الرغبات والحاجات والنوايا ، والإنسان يصدر عنه عمل نفسي قلبي أو عمل بالجوارح ، فإذا كان الله يعلم أدق شيء عن جوارح الإنسان وهو النظر خلسة فمن باب أولى أن يعلم اليد التي تبطش والرجل التي تسير واللسان الذي يتكلم ، ويعلم كذلك خطرات القلوب وما تخفيه الصدور وهو يعلم السر وأخفى ، ويا ويلنا إذا كان يحاسبنا وهو من يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور!! والله يقضى بالحق ، لا ظلم اليوم ، فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتى بها الله وكفى به خير الحاسبين.

والذين يدعونهم من دونه لا يقضون بشيء ، وكيف يقضون ، وهم لا يعلمون شيئا ، إن الله هو السميع لكل قول ، والعليم بكل فعل ، وسيجازى على ذلك كله.

---

(١) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع ٣/٢٩٦

نرى أن القرآن ملأ قلوبهم خوفا ورعبا من ذلك اليوم لو كانوا يعقلون ، فذرك أنه قريب ، وأن القلوب تنخلع فيه لهول ما ترى ، وأن المجرمين لا يستطيعون الكلام مع امتلاء قلوبهم غيظا ، وليس لهم صديق ولا حميم ولا شفيع يطاع ، والحاكم يومئذ عالم بكل شيء لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وهو يقضى بالحق فلا محاباة عنده ، وهؤلاء الأصنام لا تنفع عنده بشيء ، وهو وحده السميع البصير.

ولما بالغ الحق – تبارك وتعالى – في تخويفهم من يوم القيامة أردفه بإنذارهم وتخويفهم في الدنيا ، وبيان ما عمله الله مع من كفر وعذب الرسل السابقين لعلهم يتعظون فقال ما معناه :

أغفلوا ولم يسيروا « ١ » في الأرض التي هي حولهم وفي طريقهم فينظروا نظرة اعتبار وموعظة ما حل بالأمم السابقة لما كذبت رسلهم كعاد وثمود وغيرهما ، وهؤلاء السابقون كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا ، وقد مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وقد أثاروا الأرض وزرعوها ، وأصبحت لهم مدن وحضارة ، وزراعة وصناعة ولكنهم

---

(١) الاستفهام إنكارى ، و(كيف) خبر مقدم لكان ، و(عاقبة) اسمها ، والجملة من كان واسمها وخبرها في محل نصب على المفعول لينظروا ، وقوله تعالى : (كانوا هم أشد منهم قوة) جواب (كيف).". [1]

٥٥-"ج ٣ ، ص : ٥١٠

ولا يغتب بعضكم بعضا ولقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ » قالوا. الله ورسوله أعلم ، قال : « هي ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت لو كان في أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » .

والغيبة تباح عند رفع الظلم ، والشهادة في الخصومات ، والاستشارات العامة ، وكالتشنيع على المتجاهر بالمعصية ، وما أروع هذا التمثيل حيث يقول الله : أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا وحقا من ولغ في العرض فكأنه أكل اللحم من أخيه وهو ميت لا يقدر على رده ، وكذلك المغتاب في غيبة أخيه ينهش من عرضه وهو لا يستطيع رده ، فهذا أسلوب غاية في التنفير من الغيبة ، ثم أتبع ذلك بقوله :

فكرهتموه فقد صور المغتاب بصورة من يحب شيئا ، حقه أن يكون في غاية الكراهية وهو أكل لحم الأخ ، وزاده أن صوره بصورة الميت ، وحقه أن يكون منه أنفر ، وخلاصة المعنى : إن يفعل ذلك أحد فقد كرهتموه واتقوا الله الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور وتوبوا إليه إنه هو التواب الرحيم ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم.

« وبعد » : فالغيبة عادة مرذولة ، وصفة مستهجنة ، كثيرا ما أودت بالصلات ، وأثارت الأحقاد ، وشتتت من جمع ، وفرقت من شمل ، وهي مع هذا عذابها شديد وعقابها أليم ، وهي بالفساق أولى فاتقوا الله واجتنبوها

« وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » صدق رسول الله.

---

(١) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع ٣/٢٩٧

ما مضى كانت إرشادات إسلامية يوجهها الله إلى المؤمنين ليبين لهم أن مقتضى الإيمان ألا يحصل هذا منكم كما عرفنا سابقا. وهنا قال : « يا أيها الناس » لأن هذا الداء الذي هو التفاخر والتباهي بالأنساب والأحساب داء قديم عام في جميع الأمم ، فهو يعرض للناس من حيث كونهم ناسا فهو في طبيعة الإنسان ، ولقد عالج الله هذا الداء علاجا حاسما حكيما ، فإنك تفضل هذا على ذاك إذا كان من معدن وهو من آخر ، أو هذا من صنع فلان ، وذاك من صنع فلان ، فإذا كانت المادة واحدة والصانع واحدا ففيم إذن الاختلاف والتفاضل ؟ !". [1]

٥٦-"ج ٣ ، ص : ٦١٠

هو الأول فليس قبله شيء ، إذ هو السابق على جميع الموجودات لأنه مصدرها ، وهو الآخر لأنه الباقي بعد فناء خلقه ، وهو الظاهر وجوده لكثرة الدلائل المادية والمعنوية عليه ، وهو الباطن فلا تعرف العقول ذاته على حقيقتها ، ولا تدركها الأوهام وهو بكل شيء عليم ،

روى في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر! »

. هو الذي خلق السموات والأرض « ١ » في ستة أيام ، الله أعلم بمقدارها ، وهو القادر على خلقها في لحظة إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون « ٢ » لكنه ذكر هذه المدة ليعلم العباد التأني والتثبت في الأمور ، وليعلمهم أن خلق السموات والأرض أكبر من خلقهم ، وليس هو بالهين لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس « ٣ » .

ثم استوى على عرشه ، واستقام أمره ، واستقر على حسب ما يريده مما لا يعلم ذلك إلا هو ، وهذا هو رأى السلف ، وأما الخلف فيؤولون قائلين : استوى على عرشه بعد تكوين خلقه بمعنى أنه يدبر الأمر ويفصل الآيات ، يعلم ما يلج في الأرض ويدخل فيها من نبات وبذور ، وإنسان ومعادن وكنوز ، وما يخرج منها من زروع وثمار ، ومياه وجثث وغيرها ، وهو يعلم ما ينزل من السماء من مطر أو شهب أو ملك أو آيات ، وما يعرج فيها ويصعد إليها من عمل أو ملك أو غيره ، وهو معكم بعلمه وقدرته أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير.

له ملك السموات والأرض ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ، وإلى الله وحده ترجع الأمور ، يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل ، بمعنى أنه يدخل هذا في زمن ذاك ، وبالعكس ، ونحن في مصر نرى الليل في الشتاء طويلا بينما يكون النهار في الصيف قصيرا ، وفي الصيف يكون العكس ، وفي الربيعين يتساوى الليل والنهار ، سبحانه من قادر حكيم! وهو العليم بذات الصدور ومكنوناتها التي لا تفارقها يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور « ٤ » سبحانه وتعالى عما يشركون ؟

---

(١) - الظاهر والله أعلم أن هذه الجمل بيان وتفسير لتمام ملكه ولذا فصلت عن سابقتها.

---

(١) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع ٣/٥١٠

(٢) – سورة يس آية ٨٢.

(٣) – سورة غافر آية ١٩.

(٤) – سورة غافر آية ٥٧.". [1]

٥٧–"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١٠ ، ص : ١١٩

نظيف من الخنا ، مجتمع لا تمنع فيه الشهوات الحلال وإنما تمنع منه الشهوات الحرام ، مجتمع لا تختلس فيه العيون النظرات السيئة ولا تتطلع فيه الأبصار إلى ما لا يحل لها التطلع إليه ، فالله – تعالى – يقول : إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا « ١ » ويقول : يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور « ٢ ».

وقد وردت أحاديث متعددة في الأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ، العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطا ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه.

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة – أى البغتة من غير قصد – فقال : « اصرف بصرك » « ٣ ».

٢ – أنه لا يحل للمرأة أن تبدى زينتها لأجانب ، إلا ما ظهر منها ، لأن الله – تعالى – يقول : ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها.

قال الإمام القرطبي ما ملخصه : « أمر الله – تعالى – النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين ، إلا ما استثناه من الناظرين في باقى الآية ، حذارا من الافتتان ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة ، واختلف الناس في قدر ذلك.

فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب .. وقال سعيد بن جبير والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب .. وقال ابن عباس وقتادة : ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب ..

ونحو هذا ، فمباح أن تبديه لكل من ظهر عليها من الناس.

وقال ابن عطية : ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية ، بأن المرأة مأمورة بأن لا تبدى ، وأن لا تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء فيما يظهر ، بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه ، أو إصلاح شأن ونحو ذلك ، « فما ظهر » على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه.

قلت : أى القرطبي – : وهذا قول حسن ، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما ، عادة وعبادة ، صح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما.

---

(١) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع ٣/٦١١

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.

(٢) سورة غافر الآية ١٩.

(٣) راجع كتاب « رياض الصالحين » ص ٥٨٦ للإمام النووي. [.....]".[1]

٥٨-"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١٢ ، ص : ٢٦٨

و المقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله ، كما قال - تعالى - ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون « ١ ».

ثم بين - سبحانه - أن تذللهم هذا لن يجديهم ، وأن ما هم فيه من عذاب سببه إعراضهم عن دعوة الحق في الدنيا ، فقال : ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلي الكبير.

أى : ذلكم الذي نزل بكم من عذاب سببه ، أنكم كنتم في الدنيا إذا عبد الله - تعالى - وحده ، وطلب منكم ذلك كفرتم به - عز وجل - ، وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها آمنتم ، ومادام هذا حالكم في الدنيا ، فاخسئوا في النار ولا تؤملوا في الخروج منها ، بحال من الأحوال ، فالحكم لله وحده دون غيره ، وهو سبحانه الذي حكم عليكم بما حكم ..

وهو - سبحانه - العلي أى : المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته أو صفاته الكبير أى : العظيم الذي هو أعظم وأكبر من أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد.

وجمع - سبحانه - لذاته بين هذين الوصفين للدلالة على كبريائه وعظمته.

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على فضله ورحمته بعباده ، وعلى وحدانيته وكمال قدرته ، وعلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وعلى أن كل نفس ستجازى في هذا اليوم بما كسبت بدون ظلم أو محاباة ، لأن القضاء فيه لله الواحد القهار. فقال - تعالى - :

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ٢٢]

هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ١١٩/١٠

العقاب (٢٢)

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٢٢.". [(١)]

٥٩-"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١٢ ، ص : ٢٧٥

و الشفيع : من الشفع ، بمعنى الانضمام ، يقال شفع فلان لفلان إذا انضم إليه ليدافع عنه.

أى : ليس للظالمين في هذا اليوم قريب أو محب يعطف عليهم ، ولا شفيع يطيعهم في الشفاعة لهم ، لأنهم في هذا اليوم يكونون محل غضب الجميع ونقمتهم ، بسبب ظلمهم وإصرارهم على كفرهم.

فالآية الكريمة نفت عنهم الصديق الذي يهتم بأمرهم ، والشفيع الذي يشفع لهم ، والإنسان الذي تكون له أية كلمة تسمع في شأنهم.

ثم أكد - سبحانه - شمول علمه لكل شيء فقال : يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

والمراد **بخائنة الأعين** : النظرة الخائنة التي يتسلل بها المتسلل ليطلع على ما حرم الله الاطلاع عليه.

والجملة خبر لمبتدأ محذوف. والإضافة في قوله **خائنة الأعين** على معنى من ، وخائنة : نعت لمصدر محذوف.

أى : هو - سبحانه - يعلم النظرة الخائنة من الأعين ، وهي التي يوجهها صاحبها في تسلل وخفية إلى محارم الله - تعالى - كما يعلم - سبحانه - الأشياء التي يخفيها الناس في صدورهم ، وسيجازيهم على ذلك في هذا اليوم بما يستحقون.

قال القرطبي : ولما جيء بعبد الله بن أبي سرح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما اطمأن أهل مكة ، وطلب له الأمان عثمان بن عفان ، صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ، ثم قال :

« نعم ».

فلما انصرف قال صلى الله عليه وسلم لمن حوله : « ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه ».

فقال رجل من الأنصار : فهلا اومأت إلي يا رسول الله؟ فقال : « إن النبي لا تكون له خائنة أعين » « ١ ».

ثم بين - سبحانه - أن القضاء الحق في هذا اليوم مرده إليه وحده فقال : والله يقضي بالحق ....

أى : والله - تعالى - يقضى بين عباده قضاء ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل.

و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء .. أى : والآلهة الذين يعبدهم الكفار من

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٠٣.". [(٢)]

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ١٢/٢٦٨

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ١٢/٢٧٥

٦٠-"ولو صح أن زيدا علم مودة النبي " تزوج زينب فطلقها زيد لذلك دون أمر من النبي _عليه الصلاة والسلام_ ولا التماس لما كان عجبا؛ فإنهم كانوا يؤثرون النبي " على أنفسهم، وقد تنازل له دحية الكلبي عن صفية بنت حيي بعد أن صارت له في سهمه من مغانم خيبر، وقد عرض سعد بن الربيع على عبدالرحمن ابن عوف أن يتنازل له عن إحدى زوجتيه يختارها؛ للمؤاخاة التي آخى النبي" بينهما.

وأما إشارة النبي _عليه الصلاة والسلام_ على زيد بإمساك زوجه مع علمه بأنها ستصير زوجة له فهو أداء لواجب أمانة الاستنصاح والاستشارة؛ وقد يشير المرء بالشيء يعلمه مصلحة وهو يوقن أن إشارته لا تمتثل.

والتخليط بين الحالين تخليط بين التصرف المستند لما تقتضيه ظواهر الأحوال وبين ما في علم الله في الباطن، وأشبه مقام به مقام موسى مع الخضر في القضايا الثلاث.

وليس هذا من خائنة الأعين _كما توهمه من لا يحسن_ لأن خائنة الأعين المذمومة ما كانت من الخيانة والكيد.

وليس هو _أيضا_ من الكذب لأن قول النبي _عليه الصلاة والسلام_ لزيد: [أمسك عليك زوجك واتق الله] لا يناقض رغبته في تزوجها، وإنما يناقضه لو قال: إني أحب أن تمسك زوجك، إذ لا يخفى أن الاستشارة طلب النظر فيما هو صلاح للمستشير لا ما هو صلاح للمستشار.

ومن حق المستشار إعلام المستشير بما هو صلاح له في نظر المشير، وإن كان صلاح المشير في خلافه فضلا على كون ما في هذه القصة إنما تخالف بين النصيحة وبين ما علمه الناصح من أن نصحه لا يؤثر.

فإن قلت: فما معنى ما روي في الصحيح عن عائشة أنها قالت: لو كان رسول الله كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية: [وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك] الآية.". (١)

٦١-" إلى أماكنها من أجوافهم

وفي قوله كاظمين قال : باكين

الآيات ١٩ - ٢٠ أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور قال : الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها وإذا غفلوا لحظ إليها وإذا نظروا غض بصره عنها وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى عورتها

وأخرج أبو نعيم في الحلية وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله يعلم خائنة الأعين قال : نظرت إليها لتريد الخيانة أم لا ؟ وما تخفي الصدور قال : إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا ؟ ألا أخبركم والله يقضي بالحق قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة رضي الله عنه يعلم خائنة الأعين قال : يعلم همزه واضمامه بعينيه فيما لا يحب الله تعالى

---

(١) التقريب لتفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ص/١١٠

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه يعلم **خائنة الأعين** قال : نظر العين إلى ما نهي عنه

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء رضي الله عنه يعلم **خائنة الأعين** قال : كان الرجل يدخل على القوم في البيت وفي البيت امرأة فيرفع رأسه فيلحظ إليها ثم ينكس

وأخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد رضي الله عنه قال : لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه و سلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال : " أقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح

فأختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم الناس إلى البيعة جاء به ". (١)

٦٢-" فقال : يا رسول الله بايع عبد الله

فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى يبايعه ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك ؟ ! قال : أنه لا ينبغي لنبي أن يكون له **خائنة الأعين** "

وأخرج الخطيب في تاريخه والحكيم الترمذي عن أم معبد رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " اللهم طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء ولساني من الكذب وعيني من الخيانة فإنك تعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور "

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله والله يقضي بالحق قال : قادر على أن يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقدرون على أن يقضوا بالحق

من آية ٢١ - ٢٢ أخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه وما كان لهم من الله من واق قال : من واق يقيهم ولا ينفعهم

من آية ٢٣ - ٢٧ ". (٢)

٦٣-"لم ينج لما رأى من شدة الحساب.

الآية ١٨.

أخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ قال : الساعة ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ قال : وقعت في حناجرهم من المخافة فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها.

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ قال : يوم القيامة.

---

(١) الدر المنثور ٢٨٢/٧

(٢) الدر المنثور ٢٨٣/٧

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ قال : إذا عاين أهل النار النار حتى تبلغ حناجرهم فلا تخرج فيموتون ولا ترجع
إلى أماكنها من أجوافهم ، وفي قوله ﴿كاظمين﴾ قال : باكين.
الآيات ١٩ – ٢٠.
أخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ قال : الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها وإذا غفلوا لحظ إليها وإذا نظروا غض بصره عنها وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى". [1]

٦٤–"عورتها.
وأخرج أبو نعيم في الحلية ، وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال : نظرت إليها لتريد الخيانة أم لا ﴿وما تخفي الصدور﴾ قال : إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا ألا أخبركم ﴿والله يقضي بالحق﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة.
وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة رضي الله عنه ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال : يعلم همزه واضمامه بعينيه فيما لا يحب الله تعالى.
وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال : نظر العين إلى ما نهي عنه.
وأخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء رضي الله عنه ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال : كان الرجل يدخل على القوم في البيت وفي البيت امرأة فيرفع رأسه فيلحظ". [2]

٦٥–"إليها ثم ينكس.
وأخرج أبو داود والنسائي ، وابن مردويه عن سعد رضي الله عنه قال : لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال : أقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، فأختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة جاء به فقال : يا رسول الله بايع عبد الله ، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى يبايعه ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك قال : أنه لا ينبغي لنبي أن يكون له **خائنة الأعين**.
وأخرج الخطيب في تاريخه والحكيم الترمذي عن أم معبد رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٣١/١٣
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٣٢/١٣

: اللهم طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء ولساني من الكذب وعيني من الخيانة فإنك تعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿والله يقضي بالحق﴾ قال : قادر على أن يقضي بالحق !". [(١)]

٦٦-"عن ابن عباس في قوله: ﴿ذي الطول﴾ قال: ذي السعة والغنى١.

[٢٣٧٨] ومن طريق عكرمة قال: ذي المن٢.

[٢٣٧٩] ومن طريق قتادة قال: ذي النعماء٣.

قوله تعال: ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ الآية: ١٩

[٢٣٨٠] وعند ابن أبي حاتم من طريق ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال: هو الرجل ينظر إلى المرأة الحسناء تمر به أو يدخل بيتا هي فيه، فإذا فطن له غض بصره، وقد علم الله تعالى أنه يود لو اطلع على فرجها وإن قدر عليها لو زنى بها٤.

-

١ فتح الباري ٨/٥٥٥.

أخرجه ابن جرير ٤١/٢٤ حدثني علي، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن علي، به مثله. وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/٢٧١ ونسبه ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات.

٢ فتح الباري ٨/٥٥٥.

علقه عنه ابن كثير ٧/١١٨. وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/٢٧٢ ونسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر فقط.

٣ فتح الباري ٨/٥٥٥.

أخرجه ابن جرير ٤١/٢٤ حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة - بلفظ "ذي النعم". وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/٢٧١ ونسبه إلى عبد بن حميد فقط.

٤ فتح الباري ١١/٩.

ذكره ابن كثير في تفسيره ٧/١٢٧ تعليقا عن ابن عباس، ونسبه إلى ابن أبي حاتم. وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/٢٨٢ ونسبه إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقد أخرج سعيد بن منصور في سننه كتاب التفسير،ل١٧٠/أ حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن منصور، عن ابن عباس، نحوه. ولفظه "قال في قوله: ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيرى أنه يغض بصره عنها،

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٣٣/١٣

فإذا غفلوا لحظ إليها، وإذا نظروا غض بصره عنها، وقد اطلع الله عز وجل من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها"." [(١)]

٦٧-"[٢٣٨١] ومن طريق مجاهد وقتادة نحوه١.

قوله تعالى: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ الآية: ٣٤

[٢٣٨٢] ونقل عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ قال: هو رسول الجن٢.

قوله تعالى: ﴿أدعوكم إلى النجاة﴾ الآية: ٤١

[٢٣٨٣] وصل الفريابي من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿إلى النجاة﴾ قال: إلى الإيمان٣.

قوله تعالى: ﴿ليس له دعوة في الدنيا﴾ الآية: ٤٣

[٢٣٨٤] وصل الفريابي أيضا عن مجاهد ﴿ليس له دعوة﴾ يعني الأوثان٤.

—

١ فتح الباري ٩/١١.

ذكر السيوطي في الدر المنثور ٢٨٢/٧ عن مجاهد ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال: نظر العين إلى ما نهي عنه. وقد عزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

والأثر أخرجه ابن جرير ٥٤/٢٣ من طرق عن ابن نجيح، عنه، به.

وأما عن قتادة فقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ٢٨٢/٧ عنه ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال: يعلم همزه وإضمامه بعينه فيما لا يحب الله تعالى. وقد عزاه لعبد بن حميد وأبي الشيخ في العظمة.

والأثر أخرجه ابن جرير ٥٤/٢٣ من طريق يزيد، قال: ثنا سعيد، عنه، به.

٢ فتح الباري ٣٤٥/٦. لم أقف على من ذكره غير ابن حجر.

٣ فتح الباري ٥٥٥/٨.

أخرجه الفريابي كما في تغليق التعليق ٢٩٩/٤ ثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عنه، مثله.

٤ فتح الباري ٥٥٥/٨. أخرجه الفريابي كما في تغليق التعليق ٢٩٩/٤ ثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عنه، مثله."." [(٢)]

٦٨-"يقولون لي: لو فعلت كذا لكان خيرا!! أنا لو كنت عالما بما يصير إليه الأمر لفعلته من أول. فرب السماوات والأرض وحده لا يجري عليه: لو فعلت كذا لكان أحسن؛ لأنه عالم بعواقب الأمور، وما تصير إليه، وعالم بما كان وما يكون، فلا يضع أمرا إلا في موضعه، ومحال عن أن ينكشف الغيب عن أن ذلك الأمر على خلاف الصواب؛ لأنه عالم بعاقبة الأمر، وما يؤول إليه، كما بيناه مرارا.

والعليم: صيغة مبالغة؛ لأن علم الله (جل وعلا) محيط بكل شيء، يعلم خطرات القلوب، **وخائنة الأعين** وما تخفي الصدور،

---

(١) الروايات التفسيرية في فتح الباري ١٠٢١/٢

(٢) الروايات التفسيرية في فتح الباري ١٠٢٢/٢

حتى قدمنا أنه من إحاطة علمه: يعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد، هو عالم أن لو وجد كيف يكون؛ لشدة إحاطة علمه بالموجودات والمعدومات. وقد بيناه في هذه السورة الكريمة؛ لأن أهل النار لما عاينوا النار ورأوا الحقيقة وندموا تمنوا أن يردوا إلى دار الدنيا مرة أخرى ليصدقوا الرسل، وردهم ذلك الذي تمنوه: الله عالم أنه لا يكون، وقد صرح بأن ذلك الرد – الذي هو عالم أنه لا يكون – صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ [الأنعام: آية ٢٧] هذا الرد الذي تمنوه هو عالم أنه لن يكون، ثم صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، حيث قال بعده: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبدا؛ لما سبق في علم الله من تثبيطهم عنها، والله ثبطهم عنها بإرادته لحكمة: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ وخروجهم إلى". (١)

٦٩-"ونهى النبي عن (لو)، وبين أنها تفتح باب الشيطان، وقال الشاعر (١):

ألام على (لو) ولو كنت عالما ... بأذناب (لو) لم تفتني أوائله

فالله وحده هو الذي لا يجري عليه: (ليتني لم أفعل) أو: (لو فعلت كذا لكان كذا) لأنه عالم بعواقب الأمور، وما تؤول إليه، فحكمته لا اختلال فيها. بخلاف المخلوقين، فقد يفعل الإنسان بوصف يظنه حكمة لجهله بما تنكشف عنه الغيوب؛ ولذا كان الحكيم الحكمة التامة هو وحده جل وعلا: ﴿إن ربك حكيم عليم (٨٣)﴾ قوله: ﴿عليم (٨٣)﴾ صيغة مبالغة؛ لأنه (جل وعلا) يحيط علمه بكل شيء.

واعلموا أيها الإخوان أن وصف ربنا لنفسه بأنه عليم هو من أكبر المواعظ وأعظم الزواجر، فعلينا أن نتبعه، وهو واعظ أكبر، وزاجر أعظم، لا تكاد تخلو ورقة من المصحف منه، كأنه يقول: ﴿عليم (١٢٨)﴾ اعلموا يا عبادي أني حكيم في تشريعي، وأني ما أمرتكم إلا بما فيه الخير لكم، وما نهيتكم إلا عما فيه الشر لكم، وأنني تقتضي حكمتي أن أعذب من عصاني، وأدخل الجنة من أطاعني، واعلموا أني عليم لا يفوتني شيء مما تفعلون وما تقولون، وما تحدثون به أنفسكم ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩)﴾ [غافر: الآية ١٩]. وقد قال جل وعلا: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦)﴾ [ق: الآية ١٦].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.". (٢)

٧٠-"في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾ _ ثم بين الحكمة فقال: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ [هود: الآية ٧] وقال في أول الكهف: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملا (٧)﴾

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٤٤٩/١

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٢٥٣/٢

[الكهف: الآية ٧] ثم قال في الملك: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ [الملك: الآية ٢] فعرفنا أنا خلقنا لنبتلى في إحسان العمل، ومن عرف أنه خلق ليختبر في شيء تاقت نفسه إلى أن يعرف النجاح في ذلك الشيء ما هو طريقه؟ فجاء جبريل يبين هذه النقطة العظيمة للصحابة، لما جاء في صورة الأعرابي، في حديث جبريل المشهور فقال: «يا محمد- صلوات الله وسلامه عليه- أخبرني عن الإحسان؟» المهم الذي خلقوا من أجل الاختبار فيه. فالنبي – صلى الله عليه وسلم – بين له أن الإحسان لا يقع إلا بملاحظة هذا الزاجر الأكبر والواعظ الأعظم. ففال له: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (١).

فعلينا جميعا أن نعرف ربنا في القرآن من أن الله عليم خبير، يعلم **خائنة الأعين**: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ [ق: الآية ١٦]. فهذا أكبر زاجر وأعظم واعظ، فعلى المرء إذا هم بشيء أن يراقب خالق السموات والأرض، ويعلم أنه حاضر يرى: ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين (٧)﴾ [الأعر اف: الآية ٧] ليحاسب.

﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون (١٢٩) يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين (١٣٠) ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون (١٣١)

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.". (١)

٧١-"مطلع على ما يسره خلقه، ومع هذا فإنهم لا حياء عندهم ولا ماء في وجوههم، لا يستحون ممن خلقهم (جل وعلا) وهو معهم أينما كانوا، مراقب على خطرات قلوبهم وجميع أعمالهم. فعلى العاقل أن ينتبه لهذه الآيات، ويعلم أن ربه حكيم عليم، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور. ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد (١٦)﴾ [ق: الآية ١٦] فيعلم أن ربه ناظر إليه مطلع عليه، فلا يفعل أمام ربه إلا ما يرضي ربه (جل وعلا)، أما أن يبارز ربه بالمعاصي بوجه لا حياء فيه ولا ماء فهذا مما لا ينبغي؛ ولذا يقول (جل وعلا) بعد كل أمر ونهي: ﴿عليم حكيم﴾ ﴿خبير بما تعملون﴾ ﴿بصير بما تعملون﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي بمعناها.

﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير (٧٢)﴾ [الأنفال: الآية ٧٢].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير حمزة وحده: ﴿ما لكم من ولايتهم﴾ بفتح الواو، وقرأه من السبعة حمزة وحده: ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء﴾ بكسر الواو (١). والتحقيق أن الولاية والولاية معنيان صحيحان، ولغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان، فما يذكر عن الأصمعي من أنه يقول: «إن قراءة حمزة خطأ». هو الذي أخطأ فيه (٢)، أما قراءة حمزة فهي

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٢/٢٥٥

قراءة صحيحة، ولغة معروفة فصيحة،

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٤.
(٢) انظر: الدر المصون (٥/ ٦٤٠).". [1]

٧٢-"الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية ، ج ٢ ، ص : ٢٥٩

و عكوس أسمائه من عالم أمره بمقتضى حبه الذاتي على من يشاء من عباده أى أى على استعدادات مظاهره المستظلين تحت ظلال أسمائه وصفاته الممدودة المنبسطة عليهم وبعد القائه ومده إياهم قد كلفهم بما كلفهم من الأوامر والنواهي المصححة للعبودية اللازمة للالوهية والربوبية وانما كلفهم بما كلفهم لينذر يوم التلاق أى ليخوفهم ويحذرهم عن خجالة زمان الوصول والرجوع إلى ربهم في النشأة الاخرى والطامة الكبرى التي ترد فيها الأمانات إلى أهلها على وجهها إذ هو

يوم هم بارزون خارجون عن أجداث اجسادهم منخلعون عن خلعة تعيناتهم راجعون إلى الله جميعا بأرواحهم محشورون عنده معروضون عليه بحيث لا يخفى على الله المحيط بهم منهم شي ء لا من أعيانهم وذواتهم ولا من أعمالهم وأحوالهم ونياتهم وبعد ما قد برزوا لله ورجعوا نحوه صائرين اليه فانين فيه قيل حينئذ من قبل الحق بعد فناء الكل فيه إظهارا لكمال قدرته واستقلاله في حوله وقوته وسطوة سلطنته وبسطته حسب وحدته لمن الملك أى ملك الوجود والتحقق والثبوت فأجيب أيضا من قبله بعد ما تحقق ان اليوم لا موجود فيه سواه ولا شي ء غيره حتى يجيب لله الواحد الأحد من كل الوجوه القهار المعدم المحياء لنقوش السوى والأغيار وعكوس عموم الاظلال والأمثال عن دفتر الوجود ومشهد الشهود وبعد ما قد استقر واستوى سبحانه على الملك المطلق بالأصالة والاستحقاق وعلى عروش عموم ما قد كان ويكون في أزل الآزال وابد الآباد أشار إلى سرائر ما ظهر منه من الأوامر والنواهي في النشأة الأولى فقال

اليوم أى يوم الجزاء والنشأة الاخرى تجزى كل نفس بما كسبت أى طبق ما كسبت واقترفت في النشأة الأولى التي هي نشأة التكليف والاختبار بلا ازدياد عليه ولا تنقيص عنه إذ لا ظلم اليوم أى يوم الجزاء لأنه انما وضع لتظهر فيه العدالة الإلهية والقسط الحقيقي بل تجزى فيه كل من النفوس حسب ما صدر عنها خيرا وشرا نفعا وضرا إن الله المطلع على عموم ما ظهر وبطن من احوال عباده سريع الحساب عليهم بلا فترة وتلبس إذ لا يشغله شأن عن شأن ولا يطرأ عليه سهو ونسيان

و بالجملة أنذرهم وحذرهم يا أكمل الرسل يعنى عموم المكلفين يوم الآزفة أى القرب والمشارفة على العذاب الأبدي حين احضروا على شفير جهنم للطرح فيها إذ القلوب أى قلوب أولئك المحضرين ترتفع وتعلو حينئذ لدى الحناجر يعنى تلتصق يومئذ قلوبهم بحلاقيمهم من شدة هولهم واضطرابهم وقد كانوا حينئذ كاظمين مملوين من الكآبة والحزن المفرط وانواع الغموم والخذلان وبالجملة ما للظالمين المفسدين المسرفين حينئذ من حميم قريب قرين يدركهم ويتولى أمرهم ويسعى في استخلاصهم ولا شفيع لهم يطاع أى يسمع شفاعته لأجلهم ويقبل منه مع انه سبحانه

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير ٢٠١/٥

يعلم منهم بعلمه الحضوري **خائنة الأعين** أى خيانتهم التي يتغامزون بعيونهم نحو محارم الله بلا خيانة صدرت عنهم ظاهرا فكيف بما أتوا بها جهرا وعلانية وبالجملة يعلم سبحانه منهم عموم ما تخفي الصدور أى صدورهم من ميل الشهوات المحرمة بلا مباشرة الآلات

و بالجملة الله المطلع بظواهرهم وضمائرهم يقضي ويحكم بهم ويجازى عليهم بمقتضى علمه وخبرته من أعمالهم وأحوالهم بالحق على الوجه الأعدل الاقسط بلا حيف وميل إظهارا لكمال عدالته والذين يدعون من دونه سبحانه من الأصنام والأوثان لا يقضون ولا يحكمون لا لهم ولا عليهم يعنى آلهتهم بشي ء من نفع وضر وخير وشر إذ هي جمادات هلكى لا شعور لها إن الله القادر المقتدر". [1]

٧٣-"١. خلق الدين (فليغيرن خلق الله) ٢. التخرص والكذب (خلق الأولين) (يخلقون افكا)، (ألا اختلاق) ٣. التصوير (تخلق من)، (لا يخلقون) (وهم يخلقون) ٤. الانطاق (خلقكم أول) ٥. الجعل (ماخلق لكم) ٦. البعث (أشد خلقا)، (يخلق مثلهم) ٧. الخلق في الدنيا (خلق السماوات) (خلقنا الانسان).

﴿خ ل ل﴾

١. الخليل المصافي (ابراهيم خليلا) ٢. الصداقة (ولا خلة) (ولا خلال) ٣. منه وبينه (من خلاله) (خلالهما نهرا).

﴿خ و ف﴾

١. القتل (أو الخوف)، (من الخوف) ٢. القتال (ذهب الخوف) ٣. العلم (فمن خاف)، (وان خفتم) (خافت من) (يخافون ان).

٤. العذاب (لاخوف) (لا تخافوا)، (خوفا) أي من عذابه.

٥. التيقظ (على تخوف).

﴿خ و ن﴾

١. الذنب في الاسلام (تختانون) (لا تخونوا الله)، (**خائنة الأعين**) ٢. النكوص بالأمانة (للخائنين) ٣. نقض العهد (قوم خيانة) (خائنة منهم) ٤. الخلاف في الدين (فخانتاهما) (خيانتك)، (خانوا الله) (خوانا أثيما) ٥. الزنا (كيد الخائنين).

﴿خ ي ر﴾

١. المال (ترك خيرا) (أنفقتم من خير) (تفعلوا من خير) (حب الخير) (فيهم خيرا) ٢. الايمان (خيرا لأسمعهم) (قلوبكم خيرا) (الله خيرا) ٣. الاسلام (من خير من ربكم) (مناع للخير) ٤. الأفضلية (خير الراحمين) (خير الحاكمين) (أم أنا خير) ٥. العافية (يمسسك بخير) ٦. الأجر (فيها خير) ٧. الطعام (خير فقير) ٨. الظفر والغنيمة (ينالوا خيرا). [2]

---

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية ٢/٢٥٩

(٢) فصل الدال

﴿د ب ب﴾

١. الأرضة (دابة الأرض) ٢. أمير المؤمنين علي بن أبي طالب معه عصا موسى وخاتم سليمان يسم المؤمن والكار (دابة من الأرض) ٣. الدواب ما خلا الناس والانعام (والدواب والانعام) ٤. ما يدب على وجه الأرض (من دابة) (كل دابة) ٥. كل مرزوق في السماء والأرض (مامن دابة).

﴿د ب ر﴾". [1]

٧٤-"" صفحة رقم ٢٧١ "

أي : قرب ، ونظيرها هذه الآية قوله تعالى :) أزفت الآزفة (أي قربت القيامة .

) إذ القلوب لدى الحناجر (من الخوف قد زالت وشخصت من صدورهم ، فتعلقت بحلوقهم فلا هي تعود إلى أماكنها ولا هي تخرج من أفواههم فيموتوا فليسوا سواء نظيره قوله :) وأفئدتهم هواء ( ) كاظمين (مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا ، والكاظم الممسك للشيء على مافيه ، ومنه كظم قربته إذا شد رأسها ، فهم قد أطبقوا أفواههم على مافي قلوبهم من شدة الخوف ، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حين يضيق به .

يقول العرب للبئر الضيقة وللسقاية المملوّة : ماء كظامة وكاظمة ، ومنه الحديث : كيف بكم (إذا) بعجت مكة كظائم

.

قال الشاعر :

يخرجن من كاظمة العصن الغرب

يحملن عباس بن عبد المطلب

ونصب كاظمين على الحال والقطع .

) ما للظالمين من حميم (قريب وصديق ، ومنه قيل للأقرباء والخاصة حامة) ولا شفيع يطاع (فيشفع فيهم

غافر : (١٩) يعلم خائنة الأعين . . . . .

) يعلم خائنة الأعين (.

وقال المؤرخ : فيه تقديم وتأخير مجازه أي الأعين الخائنة قال ابن عباس : هو الرجل يكون جالسا مع القوم ، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها .

وقال مجاهد : هي نظر الأعين إلى ما نهى الله تعالى عنه .

قتادة : هي همزة بعينه وإغماضه فيما لايحب الله تعالى ولايرضاه .

) وما تخفي الصدور (

غافر : (٢٠) والله يقضي بالحق . . . . .

---

(١) القاموس الوجيز لمعاني كلمات القرآن الكريم ص/١٧

) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه (يعني الأوثان) لا يقضون بشيء (لأنها لاتعلم شيء ولا تقدر على شي .
وقرأ أهل المدينة وأيوب : تدعون بالتاء ، ومثله روى هشام عن أهل الشام والباقون : بالياء .
) إن الله هو السميع البصير (
غافر : (٢١) أولم يسيروا في . . . . .
) أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة (.". [١]

٧٥-"" " صفحة رقم ٣٢ " "
وعن الثاني : بأن لفظ " الظالمين " صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم ، أقصى ما في الباب أن هذه الآية وردت لذم الكافر ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وعن الثالث أن قوله : (ما للظالمين من حميم (يفيد أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع يطاع .
وأجيبوا عن الأول بأن القوم كانوا يقولون في الأصنام : إنها شفعاؤهم عند الله ، وكانوا يقولون : إنها تشفع لهم عند الله من غير حاجة إلى إذن فلهذا السبب رد ا لله تعالى عليهم ذلك بقوله : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ([البقرة : ٢٥٥] فهذا يدل على أن القوم اعتقدوا أنه يجب على الله تعالى إجابة تلك الأصنام في الشفاعة وهذا نوع طاعة فالله تعالى نفى تلك الطاعة بقوله : (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) . وعن الثاني بأن قالوا : الأصل في حرف التعريف أن ينصرف إلى المعهود السابق فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق انصرف إليه ، وقد حصل في هذه الآية معهود سابق وهم الكفار الذين يجادلون في آيات الله فوجب أن ينصرف إليهم . وعن الثالث بأن قالوا قوله : (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (يحتمل عموم السلب ، ويحتمل سلب العموم ، أما الأول : فعلى تقدير أن يكون المعنى أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ، ولا شفيع . وأما الثاني : فعلى تقدير أن يكون مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع ، ولا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع ، ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى : (إن الذين كفروا سوآء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ([البقرة : ٦] وقوله : (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ([يونس : ٩٦] فإن حملناه على أن كل واحد منهم محكوم عليه بأنه لايؤمن لزم وقوع الخلف في كلام الله تعالى ؛ لأن كثيرا ممن كفر قد آمن بعد ذلك ، أما لو حملناه على أن مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أو لم يؤمن صدق وتخلص عن الخلف ، فلا جرم حلمنا هذه الآية على سلب العموم لا على عموم السلب وحينئذ يسقط استدلال المعتزلة بهذه الآية .
قوله " يعلم " فيه أربعة أوجه :
أظهرها : أنه خبر آخر عن " هو " في قوله) هو الذي يريكم آياته ([غافر : ١٣] ، قال الزمخشري : فإن قلت : بم

(١) الكشف والبيان . موافق للمطبوع ٢٧١/٨

اتصل قوله) يعلم **خائنة الأعين** (قلت : هو خبر من أخبار". [1]

٧٦-"" " صفحة رقم ٣٣ " "

" هو " في قوله) هو الذي يريكم آياته ([غافر : ١٣] مثل " يلقي الروحط " ولكن " يلقي الروح " قد علل بقوله " لينذر " ثم استطرد لذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله " ولا شفيع يطاع " فبعد لذلك عن أخواته .

الثاني : أنه متصل بقوله " وأنذرهم " لما أمر بإنذاره يوم الآزمة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا شفيع له ، ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا إذ المعنى أنه تعالى عالم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات والأرض ، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب شديدا جدا وعلى هذا فهذه الجملة لا محل لها لأنها في قوة التعليل للأمر بالإنذار .

الثالث : أنها متصلة بقوله : " سريع الحساب " .

الرابع : أنها متصلة بقوله : (لا يخفى على لله ([غافر : ١٦] وعلى هذين الوجهين فيحتمل أن تكون جارية مجرى العلة ، وأن تكون في محل نصب على الحال .

و " **خائنة الأعين** " فيه وجهان :

أحدهما : أنها مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة (والعافية) أي يعلم خيانة الأعين أي استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب .

والثاني : أنها صفة على بابها وهو من باب إضافة الصفة للموصوف والأصل الأعين الخائنة كقوله :

٤٣٣٠ . . . .

وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

وقد رده الزمخشري وقال : لا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين لأن قوله : (وما تخفى لصدور (لا يساعد عليه يعنهي أنه لا يناسب أن يقابل المعنى إلا بالمعنى .". [2]

٧٧-"" " صفحة رقم ٣٤ " "

وفيه نظر ؛ إذ لقائل أن يقول لا نسلم أن " ما " في قوله) وما تخفي الصدور (مصدرية حتى يلزم ما ذكره ، بل يجوز أن يكون بمعنى الذي وهو عبارة عن نفس ذلك الشيء المخفي فيكون قد قابل الاسم غير المصدر بمثله ، والمراد بقوله : (وما تخفي الصدور (أي تضمر القلوب .

واعلم أن الأفعال قسمان : أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب ، وأما أفعال الجوارح فأخفاها **خائنة الأعين** والله بهات فكيف الحال في سائر الأعمال ، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله) وما تخفى لصدور (فدل هذا على كونه عالما

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ٣٢/١٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ٣٣/١٧

بجميع أفعالهم . قوله) والله يقضي ب الحق (وهذا أيضا يوجب عظم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى .

قوله : " والذين يدعون " ، قرأ نافع وهشام تدعون بالخطاب للمشركين والباقون بالغيبة ، إخبارا عنهم بذلك .

واعلم أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام فبين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة ، فقال : (الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء (ثم قال : (إن الله هو السميع البصير (أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ، ولا يسمع ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم ، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله .

(س / ٢ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (

ولما بالغ في تخويفهم بأحوال أهل الآخرة أردفه بيان تخويفهم بأحوال أهل الدنيا فقال) أولم يسيروا فى لأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم (والمعنى أن العال من اعتبر بغيره ، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار ، وأقوى آثارا في الأرض أي حصونهم وقصورهم وعساكرهمخ ، فملا كذبوا رسلهم أهلكهم الله عاجلا حتى إن هؤلاء الجاحدين من الكفار شاهدوا تلك الآثار". (١)

٧٨-"حكم الله تعالى لأرباب الربا برؤوس الأموال عند الواجدين للمال ثم حكم في ذي العسرة بالنظرة إلى حالة اليسر

قال المهدوي وقال بعض العلماء هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية من بيع من أعسر بدين وحكى مكي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر به في صدر الإسلام

قال القاضي أبو محمد فإن ثبت فعل النبي صلى الله عليه وسلم فهو نسخ وإلا فليس بنسخ والعسرة ضيق الحال من جهة عدم المال ومنه جيش العسرة والنظرة التأخير والميسرة مصدر بمعنى اليسر وارتفع " ذو عسرة " ب "كان " التامة التي هي بمعنى وجد وحدث

هذا قول سيبويه وأبي علي وغيرهما ومن هنا يظهر أن الأصل الغنى ووفور الذمة وأن العدم طارىء حادث يلزم أن يثبت

وقال بعض الكوفيين حكاه الطبري بل هي "كان " الناقصة والخبر محذوف تقديره " وإن كان " من غرمائكم " ذو عسرة " وارتفع قوله " فنظرة " على خبر ابتداء مقدر تقديره فالواجب نظرة أو فالحكم نظرة

قال الطبري وفي مصحف أبي بن كعب " وإن كان ذو عسرة " على معنى وإن كان المطلوب وقرأ الأعمش وإن كان معسرا فنظرة

قال أبو عمرو الداني عن أحمد بن موسى وكذلك في مصحف أبي بن كعب قال مكي والنقاش وعلى هذا يختص لفظ الآية

(١) اللباب في علوم الكتاب ٣٤/١٧

بأهل الربا وعلى من قرأ " وإن كان ذو عسرة " بالواو فهي عامة في جميع من عليه دين

قال القاضي أبو محمد وهذا غير لازم وحكى المهدوي أن في مصحف عثمان فإن كان بالفاء " ذو عسرة " بالواو وقراءة الجماعة نظرة بكسر الظاء وقرأ مجاهد وأبو

رجاء والحسن فنظرة بسكون الظاء وكذلك قرأ الضحاك وهي على تسكين الظاء من نظرة وهي لغة تميمية وهم الذين يقولون كرم زيد بمعنى كرم ويقولون كبد في كبد وكتف في كتف وقرأ عطاء بن أبي رابح فناظرة على وزن فاعلة وقال الزجاج هي من أسماء المصادر كقوله تعالى " ليس لوقعتها كاذبة " الواقعة ٢ وكقوله تعالى " تظن أن يفعل بها فاقرة " القيامة ٢٥ **وكخائنة الأعين** وغيره وقرأ نافع

٣٧٧

وحده ميسرة بضم السين وقرأ باقي السبعة وجمهور الناس ميسرة بفتح السين على وزن مفعلة وهذه القراءة أكثر في كلام العرب لأن مفعلة بضم العين قليل

قال أبو علي قد قالوا مسربة ومشربة ولكن مفعلة بفتح العين أكثر في كلامهم وقرأ عطاء بن أبي رياح أيضا ومجاهد فناظره إلى ميسره على الأمر في ناظره وجعلا الهاء ضمير الغريم وضما السين من ميسره وكسرا الراء وجعلا الهاء ضمير الغريم فأما ناظره ففاعله من التأخير كما تقول سامحه وأما ميسر فشاذ قال سيبويه ليس في الكلام مفعل قال أبو علي يريد في الآحاد فأما في الجمع فقد جاء قول عدي بن زيد

(أبلغ النعمان عني مألكا

أنه قد طال حبسي وانتظار) " الرمل "

وقول جميل

(بثين الزمي لا إن لا إن لزمته

". (١)

٧٩-"الذكر وفي العبودية وأما على قراءة من قرأ عبدنا فقال مكي وغيره دخلوا في الذكر ولم يدخلوا في العبودية إلا من غير هذه الآية وفي هذا نظر

وتأول قوم من المتأولين من هذه الآية أن الذبيح " إسحاق " من حيث ذكره الله بعقب ذكر أيوب أنبياء

٥٠٩

امتحنهم بمحن كما امتحن أيوب ولم يذكر إسماعيل لأنه ممن لم يمتحن وهذا ضعيف كله وقرأ الجمهور أولي الأيدي وقرأ الحسن والثقفي والأعمش وابن مسعود أولي الأيد بحذف الياء فأما أولو فهو جمع ذو وأما القراءة الأولى ف الأيدي فيها عبارة عن القوة في طاعة الله قاله ابن عباس ومجاهد وقالت فرقة بل هي عبارة عن القوة في طاعة الله قاله ابن عباس

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع ٣٧٤/١

ومجاهد وقالت فرقة بل هي عبارة عن إحسانهم في الدين وتقديمهم عند الله تعالى أعمال صدق فهي كالأيادي وقالت فرقة بل معناه أولي الأيد والنعم التي أسداها الله إليهم من النبوءة والمكانة وقال قوم المعنى أيدي الجوارح والمراد الأيدي المتصرفة في الخير والأبصار الثاقبة فيه لا كالتي هي منهملة في جل الناس وأما من قرأ الأيد دون ياء فيحتمل أن يكون معناها معنى القراءة بالياء وحذفت تخفيفا ومن حيث كانت الألف واللام تعاقب التنوين وجب أن تحذف معها كما تحذف مع التنوين وقالت فرقة معنى الأيدي القوة والمراد طاعة الله تعالى

وقوله تعالى " والأبصار " عبارة عن البصائر أي يبصرون الحقائق وينظرون بنور الله تعالى وبنحو هذا فسر الجميع

وقرأ نافع وحده إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار على إضافة خالصة إلى " ذكرى " وهي قراءة أبي جعفر والأعرج وشيبة وقرأ الباقون والناس بخالصة ذكر الدار على تنوين خالصة وقرأ الأعمش بخالصتهم ذكر الدار وهي قراءة طلحة

وقوله " بخالصة " يحتمل أن يكون خالصة اسم فاعل كأنه عبر بها عن مزية أو رتبة فأما من أضافها إلى ذكرى ف " ذكرى " مخفوض بالإضافة ومن نون خالصة ف " ذكرى " بدل من خالصة ويحتمل قوله " بخالصة " أن يكون خالصة مصدرا كالعاقبة **وخائنة الأعين** وغير ذلك ف " ذكرى " على هذا ما أن يكون في موضع نصب بالمصدر على تقدير " إنا أخلصناهم " بأن أخلصنا لهم ذكرى الدار ويكون خالصة مصدرا من أخلص على حذف الزوائد وإما أن يكون " ذكرى " في موضع رفع بالمصدر على تقدير " إنا

". (١)

٨٠-"أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالإنذار للعالم والتحذير من يوم القيامة وأهواله وهو الذي أراد ب " يوم الآزفة " قاله مجاهد وقتادة وابن زيد ومعنى " الآزفة " القريبة من أزف الشيء إذا قرب و " الآزفة " في الآية صفة لمحذوف قد علم واستقر في النفوس هوله فعبر عنه بالقرب تخويفا والتقدير يوم الساعة الآزفة أو الطامة الآزفة ونحو هذا فكما لو قال وأنذرهم الساعة لعلم هولها بما استقر في النفوس من أمرها فكذلك علم هنا إذا جاء بصفتها التي تقتضي حلولها واقترابها

وقوله " إذ القلوب لدى الحناجر " معناه عند الحناجر أي قد صعدت من شدة الهول والجزع وهذا أمر يحتمل أن يكون حقيقة يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم وتبقى حياتهم بخلاف الدنيا التي لا تبقى فيها لأحد مع تنقل قلبه حياة ويحتمل أن يكون تجوزا عبر عما يجده الإنسان من الجزع وصعود نفسه وتضايق حنجرته بصعود القلب وهذا كما تقول العرب كادت نفسي أن تخرج وهذا المعنى يجده المفرط الجزع كالذي يقرب للقتل ونحو

وقوله "كاظمين " حال مما أبدل منه قوله " إذ القلوب لدى الحناجر " أو مما تنضاف إليه القلوب لأن المراد إذ قلوب الناس لدى حناجرهم وهذا كقوله تعالى " تشخص فيه الأبصار مهطعين إلى الداع " [القمر : ٨] أراد تشخص فيه أبصارهم والكاظم الذي يرد غيظه وجزعه في صدره فمعنى الآية أنهم يطمعون برد ما يجدونه في الحناجر والحال تغالبهم ثم أخبرهم تعالى أن الظالمين ظلم الكفر في تلك الحال ليس لهم حميم أي قريب يحتم لهم ويتعصب ولا لهم شفيع يطاع فيهم وإن هم

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع ٤/٥٧٩

بعضهم بالشفاعة لبعض فهي شفاعة لا تقبل وقد روي أن بعض الكفرة يقولون لإبليس يوم القيامة اشفع لنا فيقوم ليشفع فتبدو منه أنتن ريح يؤذي بها أهل المحشر ثم ينحصر ويكع ويخزى و " يطاع " في موضع الصفة ل " شفيع " لأن التقدير ولا شفيع يطاع وموضع " يطاع " يحتمل أن

يكون خفضا حملا على اللفظ ويحتمل أن يكون رفعا عطفا على الموضع قبل دخول " من "

قال القاضي أبو محمد وهذه الآية كلها عندي اعتراض في الكلام بليغ

وقوله " يعلم **خائنة الأعين** " متصل بقوله " سريع الحساب " [غافر : ١٧] لأن سرعة حسابه تعالى

٥٥٣

". (١)

٨١-"للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكرة ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون وقالت فرقة " يعلم " متصل بقوله " لا يخفى على الله منهم شيء " [غافر : ١٦] وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين ويضعفه بعد الآية وكثرة الحائل والخائنة مصدر كالخيانة ويحتمل في الآية أن يكون " خائنة " اسم فاعل كما تقول ناظرة الأعين إذا خانت في نظرها وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات فمن ذلك كسر الجفون والغمز بالعين أو النظرة التي تفهم معنى أو يريد بها صاحبها معنى ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءه عبد الله بن أبي سرح ليسلم بعد ردته بشفاعة عثمان فتلكأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بايعه ثم قال عليه السلام لأصحابه هلا قام إليه رجل حين تلكأت عليه فضرب عنقه فقالوا يا رسول الله ألا أومأت إلينا فقال عليه السلام ما ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين** وفي بعض الكتب المنزلة من قول الله عز وجل أنا مرصاد الهمم أنا العالم بمجال الفكر وكسر الجفون وقال مجاهد " **خائنة الأعين** " مسارقة النظر إلى ما لا يجوز ثم قوى تعالى هذه الأخبار بأنه يعلم ما تخفي الصدور مما لم يظهر على عين ولا غيرها ومثل المفسرون في هذه الآية بنظر رجل إلى امرأة هي حرمة لغيره فقالوا " **خائنة الأعين** " هي النظرة الثانية " وما تخفي الصدور " أي عند النظرة الأولى التي لا يمكن المرء دفعها وهذا المثال جزء من " **خائنة الأعين** "

ثم قدح في جهة الأصنام فأعلم أنه لا رب غيره " يقضي بالحق " أي يجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثل وينصف المظلوم من الظالم إلى غير ذلك من أقضية الحق والعدل والأصنام لا تقضي بشيء ولا تنفذ أمرا و " يدعون " معناه يعبدون

وقرأ جمهور القراء يدعون بالياء على ذكر الغائب وقرأ نافع بخلاف عنه وأبو جعفر وشيبة تدعون بالتاء على معنى قل لهم يا محمد والذين تدعون أنتم

ثم ذكر تعالى لنفسه صفتين بين عرو الأوثان

عنهما وهي في جهة الله تعالى عبارة عن الإدراك على إطلاقه ثم أحال كفار قريش وهم أصحاب الضمير في " يسيروا " على الاعتبار بالأمم القديمة التي كذبت أنبياءها فأهلكها الله تعالى

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع ٤/٦١٩

وقوله " فينظروا " يحتمل أن يجعل في موضع نصب جواب الاستفهام ويحتمل أن يكون مجزوما عطفا على " يسيروا " و " كيف " في قوله "كيف كان عاقبة " خبر "كان " مقدم وفي "كيف " ضمير وهذا مع أن تكون "كان " الناقصة وأما إن جعلت تامة بمعنى حدث ووقع ف "كيف " ظرف ملغى لا ضمير فيه

وقرأ ابن عامر وحده أشد منكم بالكاف وكذلك هي في مصاحف الشام وذلك على الخروج من غيبة إلى الخطاب وقرأ الباقون أشد منهم وكذلك هي في سائر المصاحف وذلك أوفق لتناسب ذكر الغيب

". (١)

٨٢-"و " أهوى " معناه طرحها من هواء عال إلى أسفل هذا ما روي من ان جبريل عليه السلام اقتلعها بجناحه حتى بلغ بها قرب السماء ثم حولها قلبها فهبط الجميع واتبعوا حجارة وهي التي غشاها الله تعالى

وقوله " فبأي آلاء ربك تتمارى " مخاطبة للإنسان الكافر كانه قيل له هذا هو الله الذي له هذه الأفاعيل وهو خالقك المنعم عليك بكل النعم ففي أيها تشك

و " تتمارى " معناه تتشكك

وقرأ يعقوب (ربك تمارى) بتاء واحدة مشددة

وقال أبو مالك الغفاري إن قوله " ألا تزر " النجم ٣٨ إلى قوله " تتمارى " هو في صحف إبراهيم وموسى

وقوله " هذا نذير " يحتمل ان يشير الى محمد صلى الله عليه وسلم وهذا قول قتادة وأبي جعفر ومحمد بن كعب القرظي ويحتمل ان يشير الى القرآن وهو تأويل قوم وقال أبو مالك الإشارة بهذا النذير الى ما سلف من الأخبار عن الأمم

و " نذير " يحتمل ان يكون بناء اسم فاعل

ويحتمل أن يكون مصدرا ونذر جمع نذير

وقال " الأولى " بمعنى انه في الرتبة والمنزلة والأوصاف من تلك المتقدمة والأشبه ان تكون الاشارة إلى محمد

وقوله " أزفت " معناه قربت القريبة

و " الآزفة " عبارة عن القيامة بإجماع من المفسرين

٢١٠

وأزف معناه قرب جدا قال كعب بن زهير

(بان الشباب وأمسى الشيب قد ازفا

ولا أرى لشباب ذاهب خلفا) " البسيط "

وقوله "كاشفة " يحتمل ان يكون صفة لمؤنث التقدير حالة "كاشفة " او منه "كاشفة "

قال الرماني او جماعة ويحتمل ان يكون مصدرا كالعاقبة و " خائنة الأعين " غافر ١٩

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع ٤/ ٦٢٠

ويحتمل ان يكون بمعنى كاشف والهاء للمبالغة كما قال " فهل ترى لهم من باقية " الحاقة ٨ واما معنى " كاشفة " فقال الطبري والزجاج هو من كشف السر أي ليس من دون الله من يكشف وقتها ويعلمه

وقال الزهراوي عن منذر بن سعيد هو من كشف الضر ودفعه أي ليس من يكشف خطبها وهولها

وقرا طلحة " ليس لها " مما تدعون " من دون الله كاشفة " وهي على الظالمين سوءات الغاشية وهذا الحديث هو القرآن

وقوله " أفمن " توقيف وتوبيخ

وفي حرف ابي وابن مسعود (تعجبون) (تضحكون) بغير واو العطف وفي قوله عز وجل " ولا تبكون " حض على البكاء عند سماع القرآن

وروى سعد بن أبي وقاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن هذا القرآن أنزل بخوف فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا) ذكره الثعلبي والسامد اللاعب اللاهي وبهذا فسر ابن عباس وغيره من المفسرين

وقال الشاعر هذيلة بنت بكر

(قيل قم فانظر اليهم

ثم دع عنك السمود) " مجزوء الكامل "

وسمد بلغة حمير غنى وهو معنى كله قريب من بعض وأسند الطبري عن أبي خالد الوالي قال خرج علينا علي ونحن قيام ننتظر الصلاة فقال ما لي اراكم سامدين

". (١)

٨٣-"٢٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الواقعة

وهي مكية بإجماع ممن يعتد بقوله من المفسرين

وقيل إن فيها آيات مدنية او مما نزل في السفر وهذا كله غير ثابت

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (من داوم على سورة الواقعة لم يفتقر أبدا)

ودعا عثمان بن مسعود إلى عطائه فأبى ان يأخذ

فقيل له خذ للعليا فقال إنهم يقرؤون سورة الواقعة سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول (من قرآها لم يفتقر أبدا)

قال القاضي أبو محمد فيها ذكر القيامة وحظوظ النفس في الآخرة وفهم ذلك غنى لا فقر معه ومن فهمه شغل بالاستعداد

قوله عز وجل

سورة الواقعة ١ - ١٢

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع ١٩١/٥

" الواقعة " اسم من أسماء القيامة ك " الصاعقة " البقرة ٥٥ النساء ١٥٣ و " الأزفة " غافر ١٨ النجم٥٧ و " الطامة " النازعات ٣٤ قاله ابن عباس وهذه كلها اسماء تقتضي تعظيمها وتشنيع امرها

وقال الضحاك " الواقعة " الصيحة وهي النفخة في الصور

وقال بعض المفسرين " الواقعة " صخرة بيت المقدس تقع عند القيامة فهذه كلها معان لأجل القيامة

و "كاذبة " يحتمل ان يكون مصدرا كالعاقبة والعافية **وخائنة الأعين**

فالمعنى ليس لها تكذيب ولا رد مثنوية وهذا قول قتادة والحسن يحتمل ان يكون صفة لمقدر كانه قال " ليس لوقعتها " حال "كاذبة " ويحتمل الكلام على هذا معنيين أحدهما "كاذبة " أي مكذوب فيما أخبر به عنها فسماها "كاذبة " بهذا كما تقول هذه قصة كاذبة أي مكذوب فيها والثاني حالة كاذبة أي لا يمضي وقوعها كما تقول فلان إذا حمل لم يكذب

وقوله " خافضة رافعة " رفع على خبر ابتداء أي هي " خافضة رافعة "

٢٣٩

وقرا الحسن وعيسى الثقفي وأبو حيوة (خافضة رافعة) بالنصب على الحال بعد الحال التي هي " لوقعتها كاذبة " ولك ان تتابع الأحوال

كما لك ان تتابع اخبار المبتدأ والقراءة الأولى أشهر وأبرع معنى وذلك ان موقع الحال من الكلام موقع ما لم يذكر لاستغني عنه وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما يتهمم به

واختلف الناس في معنى هذا الخفض والرفع في هذه الآية فقال قتادة وعثمان بن عبد الله بن سراقة القيامة تخفض أقواما إلى النار وترفع أقواما الى النار وترفع أقواما الى الجنة

وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك الصيحة تخفض قوتها لتسمع الأدنى وترفعها لتسمع الأقصى

وقال جمهور من المتأولين القيامة بتفطر السماء والأرض والجبال انهدام هذه البنية ترفع طائفة من الأجرام وتخفض اخرى فكانها عبارة عن شدة الهول والاضطراب والعامل في قوله " إذا رجت " " وقعت " لأن " إذا " هذه بدل من " إذا " الأولى وقد قالوا إن " وقعت " هو العامل في الأولى وذلك لأن معنى الشرط فيها قوي فهي ك (من) و (ما) في الشرط يعمل فيها ما بعدها من الأفعال وقد قيل إن " إذا " مضافة الى " وقعت " فلا يصح ان يعمل فيها وإنما العامل فيها فعل مقدر". (١)

٨٤-"ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله. ثم برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر. وإن الإنسان السوي الذي لم تمسخه إيحاءات فرويد وكارل ماركس وأمثالهما ، ليستحيي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره. والمؤمن يحس وقع نظر الله - سبحانه - في أطواء حسه إحساسا يرتعش له ويهتز. فأولى أن يطهر حسه هذا وينظفه! والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم ،

---

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع ٥/٢١٦

يكره الشر ويحب الخير. ويعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

وهناك التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة ، وما تثيره في حس المؤمن من يقظة وحساسية ، ومن رزانة وتدبر. وهي ليست تبعة فردية فحسب ، إنما هي كذلك تبعة جماعية ، وتبعة تجاه الخير في ذاته ، وإزاء البشرية جميعا .. أمام الله .. وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله ، فيكبر في عين نفسه ، ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله .. إنه كائن له قيمة في الوجود ، وعليه تبعة في نظام هذا الوجود

والارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا – وهو بعض إيحاءات الإيمان – واختيار ما عند الله ، وهو خير وأبقى. «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون» .. والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف .. يساعد على هذا سعة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن .. بين الدنيا والآخرة ، والأرض والملأ الأعلى. مما يهدئ في نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة. فهو يفعل الخير لأنه الخير ، ولأن الله يريده ، ولا عليه ألا يدر الخير خيرا على مشهد من عينيه في عمره الفردي المحدود. فالله الذي يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت – سبحانه – ولا ينسى ، ولا يغفل شيئا من عمله. والأرض ليست دار جزاء. والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف. ومن ثم يستمد القدرة على مواصلة الخير من هذا الينبوع الذي لا ينضب. وهذا هو الذي يكفل أن يكون الخير منهجا موصولا ، لا دفعة طارئة ، ولا فلتة مقطوعة. وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه الشر. سواء تمثل في طغيان طاغية ، أو في ضغط الاعتبارات الجاهلية ، أو في اندفاع نزواته هو وضغطها على إرادته. هذا الضغط الذي ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق أطماعه ، وقصره كذلك عن رؤية النتائج البعيدة للخير ، وشهود انتصار الحق على الباطل! والإيمان يعالج هذا الشعور علاجا أساسيا كاملا «١».

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير ، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير ، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره ، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته ، صائر إلى ذبول وجفاف. وإلا فهي ثمرة شيطانية ، وليس لها امتداد أو دوام! وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة. وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشي ء ، ذاهبة بددا مع الأهواء والنزوات ..". (١)

٨٥–"ليحارب المؤمنين بالله ، ويحول بينهم وبين أداء ما لله سبحانه وتعالى عليهم من حق .. فجرم هذا الطاغية جرم مضاعف .. فلا هو يؤمن بالله ، ولا يؤدى حق ربه عليه ، ولا يدع المؤمنين يؤدون حق ربهم عليهم .. والاستفهام هنا تعجب من الأمر المستفهم عنه ، وتشنيع على فاعله ، ودعوة الناس إلى ضبطه وهو قائم على هذا المنكر ، متلبس به!!

وفى جعل فاصلة الآية الفعل : « ينهى » وفى قطع الفعل « ينهى » عن معموله ، وهو « عبدا إذا صلى » . فى هذا تشنيع على طغيان هذا الطاغية فإذا ..

استمع مستمع إلى قوله تعالى : « أرأيت الذي ينهى » . وقع فى تفكيره لأول وهلة ، أن هذا الإنسان إنما ينهى عن منكر ، لأن هذا هو شأن ما ينهى عنه .. فإذا فاجأه الخبر بأن ما ينهى عنه هذا الآثم ، إنما هو الصلاة والولاء لله رب العالمين

(١) المفصل في موضوعات سور القرآن ص/١٥٨٤

اشتد إنكاره له ، وتضاعفت جريمته عنده ..

والنهى هنا بمعنى المنع ، لأن الذي يملك النهى عن فعل الشيء ، يملك منع المنهى عن فعله ، إذ النهى فى حقيقته لا يكون إلا من ذى سلطان متمكن ممن ينهاه ، ويقدر على منعه مما نهاه عنه.

وفى قوله تعالى : « عبدا » . إشارة إلى أن هذا المنهي عن الصلاة ، هو فى مقام العبودية والولاء لربه .. فهو عبد ، ولكنه سيد الأسياد جميعا فى هذه الدنيا ، إذ كان عبد الله رب العالمين ..

وقوله تعالى : « أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى ؟ » « أرأيت » هنا ، استفهام إنكارى ، بمعنى ماذا ترى من حال هذا الأثيم الذي ينهى عبدا عن الصلاة ، ويحول بينه وبينها ؟ ثم أرأيت لو أنه كان فى موقف آخر غير هذا الموقف ، فكان قائما على طريق الهدى ، مؤمنا بربه ، مواليا له ، آمرا بالبر والتقوى بدلا من نهيه عن البر والتقوى ؟ فاى حاليه كان خيرا له وأهدى سبيلا ؟ أحال الضلال ، والعمى ، والصد عن سبيل الله ، أم حال الاستقامة والهدى والدعوة إلى الله ؟ وشتان بين الظلام والنور ، والشر والخير ، والكفر والإيمان! وقوله تعالى :« أرأيت إن كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى ».أي ثم ماذا ترى من حال هذا الضال ، وقد أبى أن يكون على الهدى أو يأمر بالتقوى ، بل كذب بآيات الله ، وتولى معرضا عمن دعاه إلى الله ، ورفع لعينيه مصابيح الهدى ؟ فأى إنسان هذا ؟ وبأى نظر ينظر ، وبأى عقل يفكر ويميز بين الخير والشر ؟ « ألم يعلم بأن الله يرى » ؟ أسفه نفسه حتى أنكر أن لهذا الوجود إلها قائما عليه ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؟ ألا يخاف بأس الله ؟ ألا يخشى عقابه ؟

وقوله تعالى : « كلا .. لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة ». هو رد على هذا السؤال فى قوله تعالى : « ألم يعلم بأن الله يرى ».وكلا ، إنه لا يعلم بأن الله مطلع على كل". [1]

٨٦-"ومن هنا كانت إيحاءات الدارونية والفرويدية والماركسية هي أبشع ما تبتلى به الفطرة البشرية والتوجيه الإنساني ، فتوحي إلى البشر بأن كل سفالة وكل قذارة وكل حقارة هي أمر طبيعي متوقع ، ليس فيه ما يستغرب ، ومن ثم ليس فيه ما يخجل . . وهي جناية على البشرية تستحق المقت والازدراء!

ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله . ثم برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر . وإن الإنسان السوي الذي لم تمسخه إيحاءات فرويد وكارل ماركس وأمثالهما ، ليستحيي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره . والمؤمن يحس وقع نظر الله سبحانه في أطواء حسه إحساسا يرتعش له ويهتز . فأولى أن يطهر حسه هذا وينظفه!

والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم ، يكره الشر ويحب الخير . ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وهناك التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة ، وما تثيره في حس المؤمن من يقظة وحساسية ، ومن رزانة وتدبر .

(١) المهذب في تفسير جزء عم ص/٧٩٩

وهي ليست تبعة فردية فحسب ، إنما هي كذلك تبعة جماعية ، وتبعة تجاه الخير في ذاته ، وإزاء البشرية جميعا . . أمام الله . . وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله ، فيكبر في عين نفسه ، ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله . . إنه كائن له قيمة في الوجود ، وعليه تبعة في نظام هذا الوجود ..

والارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا وهو بعض إيحاءات الإيمان واختيار ما عند الله ، وهو خير وأبقى . ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف . . يساعد على هذا سعة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن . . بين الدنيا والآخرة ، والأرض والملأ الأعلى . مما يهدئ في نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة . فهو يفعل الخير لأنه الخير ، ولأن الله يريده ، ولا عليه ألا يدر الخير خيرا على مشهد من عينيه في عمره الفردي المحدود . فالله الذي يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت سبحانه – ولا ينسى ، ولا يغفل شيئا من عمله . والأرض ليست دار جزاء . والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف . ومن ثم يستمد القدرة على مواصلة الخير من هذا الينبوع الذي لا ينضب . وهذا هو الذي يكفل أن يكون الخير منهجا موصولا ، لا دفعة طارئة ، ولا فلتة مقطوعة . وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه الشر . سواء تمثل في طغيان طاغية ، أو في ضغط الاعتبارات الجاهلية ، أو في اندفاع نزواته هو وضغطها على إرادته . هذا الضغط الذي ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق أطماعه ، وقصره كذلك". (١)

٨٧-" صفحة رقم ١٥٦

أحدها : أن تجعل لنا الصفا ذهبا .

والثاني : ما ذكره الله في آخر :) لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا (إلى قوله :) كتابا نقرؤه (فأمر الله نبيه حين أقسموا له أن يقول لهم) قل إنما الأيات عند الله (.

والثالث : أنه لما نزل قوله تعالى في الشعراء :) إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين (قال المشركون : أنزلها علينا حتى نؤمن بها إن كنت من الصادقين ، فقال المؤمنون : يا رسول الله أنزلها عليهم ليؤمنوا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، قاله الكلبي :

وليس يجب على الله إجابتهم إلى اقتراحهم لا سيما إذا علم أنهم لا يؤمنون بها ، واختلف في وجوبها عليه إذا علم إيمانهم بها على قولين وقد أخبر أنهم لا يؤمنون بقوله :) وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون (.

ثم قال تعالى :) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة (وهذا من الله عقوبة لهم ، وفيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها عقوبة من الله في الآخرة يقلبها في النار .

والثاني : في الدنيا بالحيرة حتى يزعج النفس ويغمها .

---

(١) المهذب في تفسير جزء عم ص/٩٨٤

والثالث : معناه أننا نحيط بذات الصدور **وخائنة الأعين** منهم .

وفي قوله :) أول مرة (تأويلان :

أحدهما : أول مرة جاءهم الآيات .

والثاني : أن الأول أحوالهم في الدنيا كلها ، ثم أكد الله تعالى حال عنتهم .

(الأنعام : (١١١) ولو أننا نزلنا . . . . .

" ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون " (".[1]

٨٨-" صفحة رقم ١٤٩

(غافر : (١٨ - ٢٠) وأنذرهم يوم الآزفة . . . . .

" وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير " (قوله عز وجل :) وأنذرهم يوم الآزفة (فيه قولان

: أحدهما : يوم حضور المنية ، قاله قطرب .

الثاني : يوم القيامة وسميت الآزفة لدنوها ، وكل آزف دان ، ومنه قوله تعالى) أزفت الآزفة (" [النجم : ٥٧] أي دنت القيامة

.) إذ القلوب لدى الحناجر (فيه قولان

: أحدهما : أن القلوب هي النفوس بلغت الحناجر عند حضور المنية ، وهذا قول من تأول يوم الآزفة بحضور المنية ، قاله قتادة . ووقفت في الحناجر من الخوف فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها .

) كاظمين (فيه أربعة أوجه

: أحدهما : مغمومون قاله الكلبي .

الثاني : باكون ، قاله ابن جريج .

الثالث : ممسكون بحناجرهم ، ماخوذ من كظم القربة وهو شد رأسها .

الرابع : ساكتون ، قاله قطرب ، وأنشد قول الشماخ :

فظلت كأن الطير فوق رؤوسها

صيام تنائي الشمس وهي كظوم

) ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (في الحميم قولان :

---

(١) النكت والعيون . موافق للمطبوع ١٥٦/٢

أحدهما : انه القريب ، قاله الحسن .

الثاني : الشفيق ، قاله مجاهد ، ومعنى الكلام : ما لهم من حميم ينفع ولا شفيع يطاع أي يجاب إلى الشفاعة ، وسميت الإجابة طاعة لموافقتها إرادة المجاب .

قوله عز وجل :) يعلم خائنة الأعين (فيه خمسة أوجه :". [1]

٨٩-" صفحة رقم ١٥٠

أحدها : أنه الرمز بالعين ، قاله السدي .

الثاني : هي النظرة بعد النظرة ، قاله سفيان .

الثالث : مسارقة النظر ، قاله ابن عباس .

الرابع : النظر إلى ما نهى عنه ، قاله مجاهد .

الخامس : هو قول الإنسان ما رأيت وقد رأى ، أو رأيت وما رأى ، قاله الضحاك .

وفي تسميتها خائنة الأعين وجهان :

أحدهما : لأنها أخفى الإشارات فصارت بالاستخفاء كالخيانة .

الثاني : لأنها باستراق النظر إلى المحظور خيانة .

) وما تخفي الصدور (فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : الوسوسة ، قاله السدي .

الثاني : ما تضمره [عندما ترى امرأة] إذا أنت قدرت عليها أتزني بها أم لا ، قاله ابن عباس .

الثالث : ما يسره الإنسان من أمانة أو خيانة ، وعبر عن القلوب بالصدور لأنها مواضع القلوب .

(غافر : (٢١ - ٢٢) أولم يسيروا في . . . . .

" أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب " (قوله عز وجل :) . . . كانوا هم أشد منهم قوة (فيه وجهان :

أحدهما : يعني بطشا ، قاله يحيى .

الثاني : قدرة ، قاله ابن عيسى .

) وآثارا في الأرض (فيه خمسة أوجه :

أحدها : أنها آثارهم من الملابس والأبنية ، قاله يحيى .". [2]

---

(١) النكت والعيون . موافق للمطبوع ٥/١٤٩

(٢) النكت والعيون . موافق للمطبوع ٥/١٥٠

٩٠-"فلا هي تخرج ولا تعود في أمكنتها.

و ﴿ لدى ﴾ ، بمعنى : عند.

﴿كاظمين ﴾ : مفتاظين لا شيء يزيل غيظهم.

﴿ ما للظالمين من حميم ﴾ ، أي : من قريب (ولا صديق) يحتج عنهم فيزيل عظيم ما نزل بهم.

﴿ ولا شفيع ﴾ يشفع لهم عند ربهم D فيما يشفع فيه.

قال الحسن : استكثروا من الأصدقاء المؤمنين ، فإذا الرجل منهم يشفع في صديقه وقريبه ، فإذا رأى الكافر ذلك قال : ما لنا من شافعين ولا صديق حميم.

ثم قال تعالى : ﴿ يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ ، أي : يعلم الله جل ذكره خائنة أعين عباده وما أخفته صدورهم ، لا يخفى عليه شيء من أمورهم حتى يتحدث به في نفسه ويضمره في قلبه.

ومعنى " خائنة الأعين " هو أن الله تعالى يعلم ما أراد بنظره إذا نظر وما ينوي بذلك في قلبه .". (١)

٩١-"قال ابن عباس : ﴿ يعلم خآئنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ : يعلم إذا نظرت إلى المرأة أتريد بذلك الخيانة أم لا . " وما تخفي الصدور " ، أي : إذا قدرت عليها أتزني أم لا.

وقوله : ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ ، أي : يقدر أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة.

وروى ابن وهب عن رجاله عن ابن عباس أنه قال : هو الرجل تمر به المرأة فيرى القوم أنه يغض بصره ، فإذا أغفلوا نظر إليها : ويريهم (أنه يغض) بصره ويود لو أنه يطلع على عورتها ويقدر عليها.

وعن ابن عباس أنه قال في " خائنة الأعين " : إنه الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر أصحابه إليه غض بصره ، (وقد علم الله D منه أنه يود لو نظر إلى عورتها ، فإذا رأى منهم غفلة تدسس النظر ، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره).

قال مجاهد : خائنة الأعين : نظر العين إلى ما نهى الله D عنه .". (٢)

٩٢-"وقال قتادة : يعلم همزه بعينه ، وإغماضه فيما لا يحب الله جل ذكره ولا يرضى به.

قال الفراء : " خائنة الأعين " : النظرة الثانية و ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ النظرة الأولى " ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ ، أي : يجازي من غض بصره عن محارمه حذر الموقف بين يديه ، ومن ردد النظر وعزم قلبه على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها.

قال الزجاج : " خائنة الأعين " نظر ونيته الخيانة.

ثم قال : ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ ، أي : والأوثان التي يدعو هؤلاء (المشركون) من قومك من دون الله.

﴿ لا يقضون بشيء ﴾ ، أي لا تقدر على شيء ولا تعلم شيئا ، فاعبدوا الله الذي هو ﴿ السميع ﴾ لما تنطق به ألسنتكم

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية ٦٤١٦/١٠

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية ٦٤١٧/١٠

﴿ البصير ﴾ بما تعملون من الأفعال ، المحيط بكل ذلك.

قوله تعالى : ﴿ أولم يسيروا في الأرض ﴾ – إلى قوله – ﴿ إلا سبيل الرشاد ﴾ ، ". [1]

٩٣–" ﴿ يعلم **خائنة الأعين** ﴾ خيانة الأعين وهي مسارقتها النظر إلى ما لا يحل ". [2]

٩٤–"والمراد **بخائنة الأعين** : النظرة الخائنة التى يتسلل بها المتسلل ليطلع على ما حرم الله الاطلاع عليه .

والجملة خبر لمبتدأ محذوف . والإضافة فى قوله ﴿ **خآئنة الأعين** ﴾ على معنى من ، وخائنة : نعت لمصدر محذوف .

أى : هو – سبحانه – يعلم النظرة الخائنة من الأعين ، وهى التى يوجهها صاحبها فى تسلل وخفية إلى محارم الله – تعالى –كما يعلم – سبحانه – الأشياء التى يخفيها الناس فى صدورهم ، وسيجازيهم على ذلك فى هذا اليوم بما يستحقون .

قال القرطبي : " ولما جئ بعبد الله بن أبى سرح إلى رسول الله A بعدما اطمأن أهل مكة ، وطلب له الأمان عثمان بن عفان ، صمت رسول الله A طويلا ، ثم قال : " نعم " .

فلما انصرف قال A لمن حوله : " ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه " .

فقال رجل من الأنصار : فهلا أو مأت إلى يا رسول الله؟ فقال : " إن النبي لا تكون له خائنة أعين " .

ثم بين – سبحانه – ان القضاء الحق فى هذا اليوم مرده إليه وحده فقال : ﴿ والله يقضي بالحق . . . ﴾ .

أى : والله – تعالى – يقضى بين عباده قضاء ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .

﴿ والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء . . ﴾ أى : والآلهة الذين يعبدهم الكفار من دون الله – تعالى – لا يقضون بشئ أصلا ، لأنهم لا يعلمون شيئا ، ولا يقدرون على شئ ، وإذا فهم أعجز وأتفه من أن يلتفت إليهم .

﴿ إن الله ﴾ – تعالى – ﴿ هو السميع ﴾ لكل شئ ﴿ البصير ﴾ بكل شئ ، لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .

ثم وبخ – سبحانه – هؤلاء الظالمين على عدم اعتبارهم واتعاظهم بمن كان قبلهم فقال : ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ .

أى : أبلغت الجهالة والغفالة وانطماس البصيرة بهؤلاء المشركين من قومك – يا محمد – أنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا بالظالمين السابقين الذين دمرناهم تدميرا .

إنهم يمرون عليهم مصبحين وبالليل ، وإنهم ليشاهدون آثارهم ماثلة أمام أعينهم ، يشاهدون آثار قوم صالح ، ويشاهدون آثار غيرهم .

ولقد كان هؤلاء السابقون الظالمون ، أشد من مشركى قريش فى القوة والبأس ، وأشد منهم فى إقامة المبانى الفارهة ،

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية ٦٤١٨/١٠

(٢) الوجيز للواحدي ص/٩٤٣

والحصون الحصينة . .

فلما استمروا فى جحودهم وكفرهم ، أخذهم الله – تعالى – أخذ عزيز مقتدر ، بسبب ذنوبهم . وما كان لهم من دون الله – تعالى – من يدفع عنهم عذابه ، أو يقيهم من بأسه .". (١)

٩٥-"ساكتين مغتمين. وقيل: ممسكين لحناجرهم، من كظم القربة. (**خائنة الأعين**) [١٩] قيل: هي مسارقة النظر. وقيل: إنها النظر إلى ما نهي عنه، كأن التقدير/: يعلم الأعين الخائنة. (يعرضون) [٤٦] [تجلد] جلودهم في النار غدوا وعشية، ولا غدوة ولا عشية هناك، ولكنه بمقادير الساعات الدنيا. (ولتبلغوا أجلا مسمى) [٦٧] أي: ليبلغ كل منكم أجله، من طال عمره ومن قصر.". (٢)

٩٦-"ساكتين مغتمين.

وقيل: ممسكين لحناجرهم، من كظم القربة.

(**خائنة الأعين**)

قيل: هي مسارقة النظر.

وقيل: إنها النظر إلى ما نهي عنه، كأن التقدير: يعلم الأعين الخائنة.

(يعرضون)

[تجلد] جلودهم في النار غدوا وعشية، ولا غدوة ولا عشية هناك، ولكنه بمقادير الساعات الدنيا.

(ولتبلغوا أجلا مسمى)

أي: ليبلغ كل منكم أجله، من طال عمره ومن قصر.". (٣)

٩٧-"١٩٣

" لله الواحد القهار "

قال بعضهم إن ذلك لأهل الجمع يوم القيامة

يقول " لمن الملك اليوم " فأقر الخلائق كلهم وقالوا " لله الواحد القهار "

سورة غافر ١٧ - ١٩

يقول الله تعالى " اليوم تجزى كل نفس بما كسبت " يعني ما عملت في الدنيا من خير أو شر " لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب " وقد ذكرناه

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي ص/٣٦٩٢

(٢) باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن ١٢٦٨/٢

(٣) باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن ١٢٦٨/٢

قوله عز وجل " وأنذرهم يوم الأزفة " يعني خوفهم بيوم القيامة فسمي الأزفة لقربه

ويقال أزف شخوص فلان يعني قرب كما قال " أزفت الآزفة "

ثم قال " إذ القلوب لدى الحناجر " من الخوف لا تخرج ولا تعود إلى مكانها "كاظمين " يعني مغمومين يتردد خوفهم في أجوافهم " ما للظالمين " يعني المشركين " من حميم " يعني من قريب " ولا شفيع يطاع " أي له الشفاعة فيهم

" يعلم خائنة الأعين " هذا موصول بقوله " لا يخفى على الله منهم شيء " وهو " يعلم خائنة الأعين "

وقال أهل اللغة الخائنة والخيانة واحدة كقوله " ولا تزال تطلع على خائنة " [المائدة ١٣]

وقال مجاهد " خائنة الأعين " يعني نظر العين إلى ما نهى الله عنه وقال مقاتل الغمزة فيما لا يحل له والنظرة إلى المعصية

ويقال النظرة بعد النظرة

وقال قتادة " يعلم خائنة الأعين " يعني يعلم غمزه بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى " وما تخفي الصدور "

سورة غافر ٢٠

ثم قال تعالى " والله يقضي بالحق " يحكم بالحق ويقال يأمر بما يجب الثواب به وينهى عما يجب به العقاب

" والذين يدعون من دونه " يعني يعبدون من الآلهة

قرأ نافع وابن عامر " تدعون " بالتاء على معنى المخاطبة والباقون بالياء على معنى الخبر عنهم

" لا يقضون بشيء " يعني ليس لهم قدرة ولا يحكمون بشيء " إن الله هو السميع البصير " يعني " السميع " لمقالة الكفار " البصير " بأعمالهم

سورة غافر ٢١ - ٢٢

قوله تعالى " أو لم يسيروا في الأرض فينظروا " يعني فيعتبروا "كيف كان عاقبة "". (١)

٩٨-"أي لا تستبعدوها أيها الناس ، فإنها مباغتتكم وسترون من شدة هولها «إذ القلوب لدى الحناجر» تصعد قلوبهم إلى حناجرهم من شدة الفزع وكثرة الوجل فتكون في تراقيهم لا تعود لأماكنها فيستريحوا ولا تخرج من أفواههم فيموتوا حال كونهم «كاظمين» مكروبين ممسكين أنفسهم على قلوبهم ممتلئين خوفا وجزعا ، لأن في ذلك اليوم «ما للظالمين من حميم» صديق شفوق أو قريب ودود أو حبيب رءوف يميلون إليه ، ولا يقدر أحد أن يحميهم ولو بكلام «ولا شفيع» لهم في ذلك اليوم «يطاع» قوله أو يسمع كلامه لأن شفعاء الكفرة أوثان مهانة لا شفاعة لها وأنها قد تتبرأ منهم وتنكر عبادتهم لها ، وقد يأتي يطاع بمعنى يجاب قال الشاعر :

رب من أنضجت غيظا قلبه قد تمنى لي موتا لم يطع

و عليه يكون المعنى ما لهم شفيع يجاب طلبه ، أي أن لهم أصدقاء وشفعاء ولكن لا يجاب طلبهم ، وفي تلك الساعة شفعاء المؤمنين أيضا لا يقدرون أن يشفعوا إلا لمن يأذن لهم بشفاعته ، فلا يتكلمون بالشفاعة لأحد إلا بإذنه ولمن يرتضيه سواء

---

(١) بحر العلوم ـ موافق للمطبوع ٣/١٩٣

كانوا أنبياء أو أولياء أو شهداء أو أصدقاء وأقرباء صلحاء ، فالكل إذ ذاك سكوت لا يقبل قول ولا يسمع كلام ، إلا أن المؤمنين لهم أمل بالشفاعة من هؤلاء الكرام على الله تعالى وهو لا يخيب أملهم ، أما الكافرون فلا أمل لهم البتة ، لأن الله يهين أوثانهم التي كانوا يأملون شفاعتها ، فتتقطع أفئدتهم أسفا وأسى وحزنا.
(٥٧٥/٣)

بيان المعاني ، ج ٣ ، ص : ٥٧٦
و اعلموا أيها الناس أن ذلك الإله الجليل الذي ستعرضون عليه في ذلك اليوم «يعلم **خائنة الأعين**» استراق النظر من أحدنا إلى ما لا يحل ، فكل نظرة لما نهى الله عنه تسمى خائنة يحاسب عليها العبد ، ألا فليتق الله الإنسان وليصرف نظره عن المحارم إلى ما أحل الله والتفكر في ملكوته والتملي من كتابه ، ولا يستحسن إلا الحسن الجائز له أن يستحسنه ، قال بعض العارفين :". (١)

٩٩-"بيان المعاني ، ج ٣ ، ص : ٥٧٦
و اعلموا أيها الناس أن ذلك الإله الجليل الذي ستعرضون عليه في ذلك اليوم «يعلم **خائنة الأعين**» استراق النظر من أحدنا إلى ما لا يحل ، فكل نظرة لما نهى الله عنه تسمى خائنة يحاسب عليها العبد ، ألا فليتق الله الإنسان وليصرف نظره عن المحارم إلى ما أحل الله والتفكر في ملكوته والتملي من كتابه ، ولا يستحسن إلا الحسن الجائز له أن يستحسنه ، قال بعض العارفين :
وعيني إذا استحسنت غيركم أمرت الدموع بتأديبها
لأن البكاء من خشية الله يطهر المساويء «وما تخفي الصدور ١٩» يعلمه أيضا وما هو أخفى لاستواء السر والعلانية عنده ، فكل ما تضمره القلوب من خيانة أو غل أو غش أو حسد أو غيره يعلمه الله ، فافعلوا ما شئتم أيها الناس فهو لكم بالمرصاد «والله يقضي بالحق» بينكم وبينه وبينكم وبين عباده وأعدائه ، لا رجاء ولا رشاء ولا مودة ولا مكانة ولا مال ولا جاه ولا منصب ولا عشيرة «والذين يدعون من دونه» أوثانا ويعبدونها بدله أو يشركونها معه بالعبادة «لا يقضون بشي ء» لدعاتهم ولا لعبادهم في ذلك اليوم وقد كانوا في الدنيا يقضون بينهم بحق وباطل بحسب ما تهواه أنفسهم ، أما اليوم فالحكم كله لله ولا يكون إلا بالحق وهذا من قبيل التهكم فيهم ، لأن من لا يوصف بالقدرة لا يقال له يقضي أو لا يقضي ، وهذا أبلغ من جعل يقضي هنا من باب المشاكلة لأن القصد السخرية بهم لا الاستدلال على صلاحيتهم للإلهية والقضاء.
واعلم أنا قد نأتي بالضمائر في مثل هذا كضمائر العقلاء موافقة لزعم عابديها ، لأن القرآن العظيم أتى بمثل ذلك لهذا الفرض «إن الله هو السميع» لأقوال خلقه «البصير ٢٠» بأفعالهم فيكافيء كلا بما يستحقه بمقتضى عمله ، وفي الآية تعريض بأن أصنامهم لا تبصر ولا تسمع ولا تعلم ولا تقدر على شي ء ،

---

(١) بيان المعاني ٥٠/١

قال تعالى «أ ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم» وكيف أهلكناهم وبقيت ديارهم خاوية «كانوا هم أشد منهم» من قومك يا سيد الرسل «قوة» على تحمل المشاق والقتال وغيره «وآثارا في الأرض» أيضا أكثر منهم لأنهم مكثوا فيها وعمروا أكثر منهم كما يعلم من المعالم المتروكة عنهم وأطلال ديارهم ، ". (١)

١٠٠-"وليعلم أن المراد بالغيب مما هو من جانب العبد لا سيده، كما في الحديث في الإحسان "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" وهذا الإحساس هو أقوى عامل على اكتساب خشية الله سبحانه. قوله تعالى؟: ﴿وأسروا قولكم أو ؟جهروا به إنه عليم بذات ؟لصدور﴾. فيه دلالة على أن السر والجهر عند الله وفي علم الله على حد سواء، لأنه عليم بذات الصدور يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

وقوله تعالى؟: ﴿سوآء منكم من أسر ؟لقول ومن جهر به﴾.

وقوله: ﴿وإن تجهر ب؟لقول فإنه يعلم ؟لسر وأخفى﴾.

وتقدم الشيخ عند كل من الآيتين بيان هذه الآية.

وقد تقدم قوله تعالى؟: ﴿قد سمع ؟لله قول ؟لتى تجادلك فى زوجها وتشتكى؟ إلى ؟لله﴾.

وقوله تعالى؟: ﴿ولقد خلقنا ؟لإنس؟ن ونعلم ما توسوس به نفسه﴾.

وتقدم في سورة التحريم قبل هذه السورة مباشرة قوله تعالى؟: ﴿وإذ أسر ؟لنبى إلى؟ بعض أزو؟جه حديثا فلما نبأت به وأظهره ؟لله عليه﴾، ففيه بيان عملي مشاهد بأنه تعالى يعلم السر وأخفى، ولذا قال تعالى هنا ﴿ألا يعلم من خلق وهو ؟للطيف ؟لخبير﴾.

كما قال في سورة التحريم: ﴿قالت من أنبأك ه؟ذا قال نبأنى ؟لعليم ؟لخبير﴾.". (٢)

١٠١-"فالجمهور: لا يحلف، ورجح ابن القيم جوازه فيما تقبل شهادته للضرورة كالمرأة الواحدة، والكافر في السفر، ومدار قبول الشهادة على الطمأنينة لصدق الشاهد، وذلك يدور على أصلين:

الأول: هو الضابط كما في قوله تعالى؟: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما ؟لاخرى؟﴾.

والثانية: العدالة كما في قوله تعالى؟ ﴿إن جآءكم فاسق بنبإ فتبينو؟ا﴾ والعلم عند الله تعالى.

وللشهادة مباحث عديدة اكتفينا بما أوردنا.

وقد بحث ابن القيم رحمه الله مباحث الشهادة من حيث العدد والموضوع في كتاب الطرق الحكمية.

تنبيه

للشهادة علاقة باليمين في الحكم، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم "شاهدان أو يمينه".

فما هي تلك العلاقة، وبين هذه العلاقة قوله تعالى؟: ﴿قل أى شىء أكبر شه؟دة قل ؟لله شهيد بينى وبينكم﴾، وقوله

---

(١) بيان المعاني ٥٧٦/٣

(٢) تتمة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم ٣٣٢/١

﴿أولم يكف بربك أنه على؟ كل شيء شهيد﴾، وقوله: ﴿وكنا لحكمهم ش؟هدين﴾، وقوله: ﴿هو أعلم بما تفيضون فيه كفى؟ به شهيدا بيني وبينكم﴾ ونحو ذلك من الآيات، لأنه تعالى: شاهد ومطلع على أحوال العباد لا تخفى عليه خافية، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، فإذا أعوز المدعي شاهدا حلف مع الشاهد كأنه قال: أستشهد بالله الذي يعلم مني صدق دعواي.

وكذلك المدعى عليه إذا عجز المدعي عن البينة وكانت الدعوى متوجهة، ومما يشبه، كما يقول المالكية: فإن المدعى عليه يقول لدى البينة والشهادة على عدم ثبوت ما ادعى به على ألا، وهو خير الشاهدين.

من هو أكبر شهادة مما عجز عنها المدعي ألا وهو الاستشهاد بالله تعالى،فيحلف على براءة ذمته مما ادعى به عليه.

تنبيه". (١)

١٠٢-"ثم إنه صلى الله عليه وسلم مطمئن له لما هو عليه من خير في دينه . كما قال في حنين : وأكل أقواما إلى ما في قلوبهم ، أي لما أعطى؟ المؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار ما هو معروف في القصة ، فلم يعاتبه الله على ذلك . ورضي الأنصار وبكوا فرحا ورضا .

ثم إن تقطيب الجبين وانبساط أسارير الوجه لحزن أو فرح ، يكاد يكون جبليا مما كان منه صلى الله عليه وسلم ، فهو من باب الجبلية تقريبا ، كأن المثير له غرض عام من خصوص الرسالة ومهمتها .

ومع ذلك فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان بعد نزولها يقول له : " مرحبا فيمن عاتبني فيه ربي " ، ويكرمه ، وقد استخلفه على المدينة مرتين .

وعلى هذا يكون المراد بهذا أمران :

الأول : التسامي بأخلاقه صلى الله عليه وسلم إلى ما لا نهاية له ، إلى حد اللحظ بالعين ، والتقطيب بالجبين ، ولو لمن لا يراه ، كما قال صلى الله عليه وسلم: " ما كان لنبي أن تكون له **خائنة الأعين** " وذلك في صلح الحديبية .

والثاني : تأديب للأمة وللدعاة خاصة ، في شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما علمهم في شخصيته في بر الوالدين ، في قوله تعالى؟ : ﴿إما يبلغن عندك ؟لكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهمآ أف ولا تنهرهما﴾.

وهذا السياق بكامله من أول السورة إلى قوله تعالى؟ : ﴿كلا إنها تذكرة * فمن شآء ذكره﴾، بيان لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يراعي في الدعوة إلى الله غنيا ولا فقيرا ، وأن يصبر على ضعفة المؤمنين . لأن الرسالة تبليغ وليس عليه ما وراء ذلك من مسؤولية ، فلا يتكلف لهم .". (٢)

١٠٣-"ومعلوم أنه سبحانه وتعالى يراه ، ولكن جاء الجواب مقرونا بالدليل والإحصاء في قوله تعالى؟ بعده ﴿ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين * وهدين؟ه ؟لنجدين﴾، لأن من جعل للإنسان عينين يبصر بهما ويعلم منه **خائنة الأعين**

---

(١) تتمة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم ٤٠٩/١

(٢) تتمة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم ٦٦/٢

، ولسانا ينطق به ويحصى عليه ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وهداه الطريق ، طريق البذل وطريق الإمساك ، وإذا كان الأمر كذلك فلن ينفق درهما إلا وهو سبحانه يعلمه ويراه . ﴿وهدين؟ه ؟لنجدين﴾. النجد : الطريق ، وهو كما تقدم في سورة الإنسان بعد تفصيل خلق الإنسان ﴿إنا خلقنا ؟لإنس؟ن من نطفة أمشاج نبتليه فجعلن؟ه سميعا بصيراإنا هدين؟ه ؟لسبيل﴾، أي الطريق على كلا الأمرين بدليل ﴿إما شاكرا وإما كفورا﴾.

وتقدم المعنى هناك ، ويأتي في السورة بعدها عند قوله تعالى؟ : ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾. زيادة إيضاح له ، إن شاء الله تعالى . ﴿فلا ؟قتحم ؟لعقبة﴾. وقد بين المراد بالعقبة فيما بعد بقوله : ﴿ومآ أدراك ما ؟لعقبة﴾، ثم ذكر تفصيلها .

وقد ذكر أن كل ما جاء بصيغة وما أدراك ، فقد جاء تفصيله بعده كقوله تعالى؟ : ﴿؟لقارعة * ما ؟لقارعة * ومآ أدراك ما ؟لقارعة * يوم يكون ؟لناس ك؟لفراش ؟لمبثوث﴾، وما بعدها .

وتقدم عند قوله تعالى؟ : ﴿؟لحاقة * ما ؟لحآقة﴾.

وفي تفسير العقبة بالمذكورات ، فك الرقبة ، وإطعام اليتيم والمسكين توجيه إلى ضرورة الإنفاق حقا لا ما يدعيه الإنسان بدون حقيقة في قوله : ﴿أهلكت مالا لبدا﴾.

أما فك الرقبة : فإنه الإسهام في عتق الرقيق والاستقلال في عتقها يعبر عنه بفك النسمة .

وهذا العنصر من العمل بالغ الأهمية ، حيث قدم في سلم الاقتحام لتلك العقبة .". (١)

١٠٤-"حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نضرة، عن ابن عباس، قال:"ينادي مناد بين يدي الساعة، يا أيها الناس: أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله إلى سماء الدنيا، ويقول: " لمن الملك اليوم لله الواحد القهار " ".

قوله تعالى: " يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور "

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله:" " يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور " ، قال: الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم فيريهم أنه يغض بصره عنها، وإذا غفلوا لحظ إليها، وإذا نظروا غض بصره عنها، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى عورتها"

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، في قوله:" " يعلم **خائنة الأعين** " ، قال: نظرت إليها أتريد الخيانة أم لا؟ إلا أخبركم " والله يقضي بالحق " ، قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة".

قوله تعالى: " أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله... الآية " ". (٢)

---

(١) تتمة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم ١٧٥/٢

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١٧٩/١٢

١٠٥-"ما للظالمين للمشركين من حميم أي شفيق يحمل عنهم من ذنوبهم شيئا ولا شفيع يطاع أي لا يشفع لهم أحد إنما الشفاعة للمؤمنين يعلم خائنة الأعين قال مجاهد يعني نظر العين إلى ما نهى عنه قال محمد الخائنة والخيانة واحد والذين يدعون من دونه يعني أوثانهم لا يقضون بشيء تفسير سورة غافر من الآية إلى آية كانوا هم أشد منهم من مشركي العرب قوة أي بطشا وآثارا في الأرض يعني ما عملوا من المدائن وغيرها من آثارهم وما كان لهم من الله من واق يقيهم من عذاب الله إنه قوي شديد العقاب للمشركين ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين حجة بينة قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه أي صدقوه واستحيوا نساءهم أي لا تقتلوهن وما كيد الكافرين إلا في ضلال يذهب فلا يكون شيئا أي في العاقبة تفسير سورة غافر من الآية إلى آية وقال فرعون ذروني أقتل موسى يقوله لأصحابه أي خلوا بيني وبينه فأقتله ولم يخف أن يمتنع منه وليدع ربه أي وليستعن ربه أي إن ربه لا يغني عنه شيئا إني أخاف أن يبدل دينكم قال الحسن كانوا عبدة أوثان وأن يظهر في الأرض يعني أرض مصر الفساد وقال رجل مؤمن من آل فرعون من قوم فرعون يكتم إيمانه قال الحسن قد كان مؤمنا قبل أن يأتيهم موسى وقد جاءكم بالبينات من ربكم يعني الآيات التي جاءهم بها موسى يصبكم بعض الذي يعدكم كان موسى يعدهم عذاب الله في الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا وقد كان مؤمن آل فرعون علم أن موسى على الحق تفسير سورة غافر من الآية إلى آية". (١)

١٠٦-"فالجواب: أن نفي الأخص هنا يستلزم نفي الأعم لأنه قال لهم (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) فكذبوه في هذه المقالة فإذا كذبوه فيها فهم لم يصدقوه في نبوته لأن النبي لا يكذب.

قوله تعالى: (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم).

هذا من كمال الاتصاف مثل (إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) فمعنى الآية الله شهيد علي وعليكم فيعلم المحق من المبطل فيجازي كلا بفعله، وقوله (شهيدا) من باب المبالغة، والمبالغة فيه إما [...] متعلقة شهادته؛ لأنها عامة في كل أحد.

قال تعالى: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)

والمبالغة في نفس الشهادة باعتبار استيفاء وجوهها وجميع شرائطها حتى لا يشذ عنه من حال المشهود عليه في نفس الشهادة هي، قوله تعالى: (شهيدا) يعم الدنيا والآخرة فالدنيا باعتبار ظهور المعجزات على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تنزل منزلة قوله صدق عبدي فصار كالشهادة لأحد الخصمين بالصدق في دعواه باعتبار آي القرآن.

قال تعالى: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) وأما الآخرة فباعتبار مجازاته إياهم وعقابهم على تكذيبهم قوله: (ومن عنده علم الكتاب) المصدر مضاف للمفعول أي ومن يعلم الكتاب والمراد بمن عنده إما الصحابة والكتاب القرآن أو الله تعالى واللوح المحفوظ، وقيل: المراد بها من أسلم من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام، والكتاب التوراة والإنجيل، قال ابن الخطيب: هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام إنما أسلم بعد ذلك فكيف يقال إنه هو المراد بقوله: (ومن عنده علم

---

(١) تفسير ابن أبي زمنين ٢/١٢٢

الكتاب) لأنه لا يشهد حينئذ أو هو كافر، أجاب: باحتمال أن تكون هذه الآية خاصة منها مدنية وبالله تعالى التوفيق.
* * *". (١)

١٠٧-"وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن يزيد عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعا " لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ولتقيمن وجوهكم أو لتكسفن وجوهكم" وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن زهير التستري قال : قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقري حدثنا يحي بن أبي بكير حدثنا هريم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود " قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركها مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوتها في قلبه " وقوله تعالى " إن الله خبير بما يصنعون "كما قال تعالى " يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور " وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق وزنا الأذنين الاستماع وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين الخطى والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه " رواه البخاري تعليقا ومسلم مسندا من وجه آخر بنحو ما ذكر .
وقد قال كثير من السلف إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان وشدد آخرون في ذلك كثيرا جدا .
وقال ابن أبي الدنيا حدثنا أبو سعيد المدني حدثنا عمر بن سهل المازني
٢١٦@@@". (٢)

١٠٨-"ذلكم كان عند الله عظيما " قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن أبي حماد حدثنا مهران عن سفيان عن داود بن هند عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى " وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله " قال نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعده قال رجل لسفيان أهي عائشة ؟ قال قد ذكروا ذلك وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله" من بعده " أم لا فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها فما نعلم في حلها لغيره والحالة هذه نزاعا والله أعلم وقال
ابن جرير حدثني محمد بن المثنى حدثنا عبد الوهاب حدثنا داود عن عامر أن نبي الله صلى الله عليه وسلم مات وقد ملك

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة ٤٣٧/٢
(٢) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ٢١٥/١٠

قيلة ابنة الأشعث يعني ابن قيس فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة فقال له عمر يا خليفة رسول الله إنها ليست من نسائه إنها لم يخيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يحجبها وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها قال فاطمأن أبو بكر رضي الله عنه وسكن وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد فيه وتوعد عليه بقوله " إن ذلكم كان عند الله عظيما " .

إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما (٥٤)

إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما

ثم قال " إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما " أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم فإن الله يعلمه فإنه لا تخفى عليه خافية " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " .

لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا (٥٥)

لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على

٢٠٩@@@". [(١)]

١٠٩-".

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨)

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى " أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة " وقال عز وجل " اقتربت الساعة وانشق القمر " وقال جل وعلا " اقترب للناس حسابهم " وقال " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " وقال جل جلاله " فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا " الآية .

وقوله تبارك وتعالى " إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين " قال قتادة وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه " يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا " وقال ابن جريج "كاظمين " أي باكين .

وقوله سبحانه وتعالى " ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع " أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ١١/٢٠٨

يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور

يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر .
قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور " هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض وقد اطلع الله تعالى من قلبه
١٨٢@@@". (١)

١١٠-"أنه ود أن لو اطلع على فرجها رواه ابن أبي حاتم وقال الضحاك " **خائنة الأعين** " هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير .
أو لم أر وقد رأى وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد وقتادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " وما تخفي الصدور " يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي " وما تخفي الصدور " أي من الوسوسة .
والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)
والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير

وقوله عز وجل " والله يقضي بالحق " أي يحكم بالعدل قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى " والله يقضي بالحق " قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة " إن الله هو السميع البصير " وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية كقوله تبارك وتعالى " ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى " وقوله جل وعلا " والذين يدعون من دونه " أي من الأصنام والأوثان والأنداد " لا يقضون بشيء " أي لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء " إن الله هو السميع البصير " أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .
أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ١٨١/١٢

١٨٣@@@". (١)

١١١-".

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨)

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى " أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة " وقال عز وجل " اقتربت الساعة وانشق القمر " وقال جل وعلا " اقترب للناس حسابهم " وقال " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " وقال جل جلاله " فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا " الآية .

وقوله تبارك وتعالى " إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين " قال قتادة وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه " يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا " وقال ابن جريج "كاظمين " أي باكين .

وقوله سبحانه وتعالى " ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع " أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)

يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور

يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض وقد اطلع الله تعالى من قلبه

١٨٢@@@". (٢)

١١٢-"أنه ود أن لو اطلع على فرجها رواه ابن أبي حاتم وقال الضحاك " خائنة الأعين " هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير .

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ١٢/١٨٢

(٢) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ١٢/٥٥٠

أو لم أر وقد رأى وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد وقتادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " وما تخفي الصدور " يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي " وما تخفي الصدور " أي من الوسوسة .

والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير

وقوله عز وجل " والله يقضي بالحق " أي يحكم بالعدل قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى " والله يقضي بالحق " قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة " إن الله هو السميع البصير " وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية كقوله تبارك وتعالى " ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى " وقوله جل وعلا " والذين يدعون من دونه " أي من الأصنام والأوثان والأنداد " لا يقضون بشيء " أي لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء " إن الله هو السميع البصير " أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان

١٨٣@@@". (١)

-١١٣".

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨)

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى " أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة " وقال عز وجل " اقتربت الساعة وانشق القمر " وقال جل وعلا " اقترب للناس حسابهم " وقال " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " وقال جل جلاله " فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا " الآية .

وقوله تبارك وتعالى " إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين " قال قتادة وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه " يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا " وقال ابن جريج "كاظمين " أي باكين .

وقوله سبحانه وتعالى " ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع " أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ١٢/٥٥١

يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)
يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور

يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر .
قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض وقد اطلع الله تعالى من قلبه
١٨٢@@@". (١)

١١٤-"أنه ود أن لو اطلع على فرجها رواه ابن أبي حاتم وقال الضحاك " خائنة الأعين " هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير .
أو لم أر وقد رأى وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد وقتادة وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى " وما تخفي الصدور " يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي " وما تخفي الصدور " أي من الوسوسة .
والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)
والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير

وقوله عز وجل " والله يقضي بالحق " أي يحكم بالعدل قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى " والله يقضي بالحق " قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة " إن الله هو السميع البصير " وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية كقوله تبارك وتعالى " ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى " وقوله جل وعلا " والذين يدعون من دونه " أي من الأصنام والأوثان والأنداد " لا يقضون بشيء " أي لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء " إن الله هو السميع البصير " أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .
أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ١٢/٩١٩

١٨٣@@@". (١)

١١٥-"وقوله تعالى " وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو " قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله " إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير " وفي حديث عمر أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي فسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فيما قال له " خمس لا يعلمهن إلا الله " ثم قرأ " إن الله عنده علم الساعة " الآية .

وقوله " ويعلم ما في البر والبحر " أي يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وما أحسن ما قال الصرصري :

فلا يخفى عليه الذر ... إما تراءى للنواظر أو توارى

وقوله " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها " أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم كما قال تعالى " يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور " .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن سعيد بن مسروق حدثنا حسان النمري عن ابن عباس في قوله " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها" قال ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها يكتب ما يسقط منها رواه ابن أبي حاتم وقوله" ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " قال ابن أبي حاتم : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري حدثنا مالك بن سعير حدثنا الأعمش عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث قال : ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني عن مالك بن سعير به .

ثم قال ابن أبي حاتم ذكر عن أبي حذيفة حدثنا سفيان عن عمرو بن قيس عن رجل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خلق الله النون وهي الدواة وخلق الألواح فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق أو رزق حلال أو حرام أو عمل بر أو فجور وقرأ هذه الآية " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها" إلى آخر الآية قال محمد بن إسحاق عن يحيى بن النضر عن أبيه سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن ما لو أنهم ظهروا يعني لكم لم تروا معهم نورا على كل زاوية من زوايا الأرض خاتم من خواتيم الله عز وجل على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله عز وجل إليه في كل يوم ملكا من عنده أن احتفظ بما عندك .

وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون (٦٠)

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ٩٢٠/١٢

وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون

يقول تعالى إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل وهذا هو التوفي الأصغر كما قال تعالى " إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي " وقال تعالى" الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى " فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى فقال " وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار " أي ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم في حال سكونهم وحال حركتهم كما قال " سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار " وكما قال تعالى " ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه " أي في الليل " ولتبتغوا من فضله " أي في النهار كما قال " وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا " ولهذا قال تعالى ههنا " وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار " أي ما كسبتم من الأعمال فيه " ثم يبعثكم فيه" أي في النهار قاله مجاهد وقتادة والسدي وقال ابن جريج عن عبد الله بن كثير أي في المنام والأول أظهر وقد روى ابن مردويه بسنده عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه ويرده إليه فإن أذن الله في قبض روحه قبضه وإلا رد إليه " فذلك قوله " وهو الذي يتوفاكم بالليل" .
وقوله " ليقضى أجل مسمى " يعني به أجل كل واحد من الناس " ثم إليه مرجعكم " أي يوم القيامة" ثم ينبئكم " أي فيخبركم " بما كنتم تعملون" أي ويجزيكم على ذلك إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا .
وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون (٦١)
وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون

وقوله " وهو القاهر فوق عباده " أي وهو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء " ويرسل عليكم حفظة " أي من الملائكة يحفظون بدن الإنسان كقوله " له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله " وحفظة يحفظون عمله ويحصونه كقوله " وإن عليكم لحافظين" الآية وكقوله " عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد " وقوله " إذ يتلقى المتلقيان " الآية وقوله " حتى إذا جاء أحدكم الموت " أي احتضر وحان أجله " توفته رسلنا " أي ملائكة موكلون بذلك قال ابن عباس وغير واحد : لملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم وسيأتي عند قوله تعالى " يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت " الأحاديث المتعلقة بذلك الشاهدة لهذا المروي عن ابن عباس وغيره بالصحة وقوله " وهم لا يفرطون " أي في حفظ روح المتوفى بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله عز وجل إن كان من الأبرار ففي عليين وإن كان من الفجار ففي سجين عياذا بالله من ذلك.
ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (٦٢)

ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين

وقوله " ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق " قال ابن جرير " ثم ردوا " يعني الملائكة " إلى الله مولاهم الحق " ونذكر ههنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا حسين بن محمد حدثنا ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فلا تزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل وإذا كان الرجل السوء قالوا اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنه لا يفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الثاني " وهذا حديث غريب ويحتمل أن يكون المراد بقوله " ثم ردوا " يعني الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة فيحكم فيهم بعدله كما قال " قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم " وقال " وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا " إلى قوله " ولا يظلم ربك أحدا " ولهذا قال " مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين" .

قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين (٦٣)

قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين

يقول تعالى ممتنا على عباده في إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر أي الحائرين الواقعين في المهامة البرية وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له كقوله " وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه " الآية .

وقوله" هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين " الآية .

وقوله " أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون " وقال في هذه الآية الكريمة" قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية " أي جهرا وسرا " لئن أنجانا " أي من هذه الضائقة " لنكونن من الشاكرين " أي بعدها .

قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون (٦٤)

قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون

قال الله " قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم " أي بعد ذلك " تشركون " أي تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى .

قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون (٦٥)

قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون

وقوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم " لما قال ثم أنتم تشركون عقبه بقوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا " أي بعد إنجائه إياكم كقوله في سورة سبحان " ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا " قال ابن أبي حاتم ذكر عن مسلم بن إبراهيم حدثنا هارون الأعور عن جعفر بن سليمان عن الحسن في قوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم " قال هذه للمشركين .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم " لأمة محمد صلى الله عليه وسلم وعفى عنهم ونذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك والآثار وبالله المستعان وعليه التكلان وبه الثقة .

قال البخاري رحمه الله تعالى في قوله " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون " يلبسكم يخلطكم من الالتباس يلبسوا يخلطوا شيعا فرقا حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أعوذ بوجهك " " أو من تحت أرجلكم" قال " أعوذ بوجهك " " أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه أهون – أو – أيسر .

وهكذا رواه أيضا في كتاب التوحيد عن قتيبة عن حماد به ورواه النسائي أيضا في التفسير عن قتيبة ومحمد بن النضر بن مساور ويحيى بن حبيب بن عدي أربعتهم عن حماد بن زيد به وقد رواه الحميدي في مسنده عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار سمع جابرا عن النبي صلى الله عليه وسلم به .

ورواه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى الموصلي عن أبي خيثمة عن سفيان بن عيينة به ورواه ابن جرير في تفسيره عن أحمد بن الوليد القرشي وسعيد بن الربيع وسفيان بن وكيع كلهم عن سفيان بن عيينة به ورواه أبو بكر بن مردويه من حديث

آدم بن أبي إياس ويحيى بن عبد الحميد وعاصم بن علي عن سفيان بن عيينة به ورواه سعيد بن منصور عن حماد بن زيد وسفيان بن عيينة كلاهما عن عمرو بن دينار به .

" طريق آخر" قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا مقدام بن داود حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا عبد الله بن لهيعة عن خالد بن يزيد عن أبي الزبير عن جابر قال لما نزلت" قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أعوذ بالله من ذلك أو من تحت أرجلكم " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أعوذ بالله من ذلك " " أو يلبسكم شيعا " قال " هذا أيسر " وإن استعاذه لأعاذه .

ويتعلق بهذه الآية أحاديث كثيرة .

" أحدها " قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده حدثنا أبو اليمان حدثنا أبو بكر يعني ابن أبي مريم عن راشد هو ابن سعد المقرائي عن سعد بن أبي وقاص قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية " قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم " فقال " أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد " .

وأخرجه الترمذي عن الحسن بن عرفة عن إسماعيل بن عياش عن أبي بكر بن أبي مريم به ثم قال هذا حديث غريب.". (١)

١١٦-"قال سعيد بن جبير "كتاب أنزل إليك " أي هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك" فلا يكن في صدرك حرج منه " قال مجاهد وقتادة والسدي شك منه وقيل لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به " فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل " ولهذا قال " لتنذر به " أي أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين " وذكرى للمؤمنين " .

اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون (٣)

اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون

قال تعالى مخاطبا للعالم " اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم " أي اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه " ولا تتبعوا من دونه أولياء " أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره " قليلا ما تذكرون "كقوله " وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين " وقوله " وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله " الآية .

وقوله " وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون" .

وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون (٤)

وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون

يقول الله تعالى " وكم من قرية أهلكناها " أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي في الدنيا موصولا بذل الآخرة كما قال تعالى " ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون " وكقوله" فكأين من قرية

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ٤٣٩/٥

أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد " وقال تعالى" وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين" وقوله " فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون " أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بياتا أي ليلا أو هم قائلون من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال " أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون " وقال " أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم " .

فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين (٥)

فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين

إنا كنا ظالمين " قوله " فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين " أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا كقوله تعالى " وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة – إلى قوله – خامدين " قال ابن جرير : في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله " ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم" حدثنا بذلك ابن حميد حدثنا جرير عن أبي سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال : قال عبد الله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم " قال : قلت لعبد الملك كيف يكون ذاك قال فقرأ هذه الآية" فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين " .

فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين (٦)

فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين

قوله " فلنسألن الذين أرسل إليهم " الآية .

كقوله " ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين" وقوله " يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب " فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية " فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين " قال عما بلغوا وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن حدثنا أبو سعيد الكندي حدثنا المحاربي عن ليث عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده " .

قال الليث وحدثني ابن طاوس مثله ثم قرأ " فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين " وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة .

فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين (٧)

فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين

قال ابن عباس في قوله " فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين " يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون " وما كنا غائبين " يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم **بخائنة الأعين** وما تخفي الصدور" وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " .

والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨)

والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون

يقول تعالى " والوزن " أي للأعمال يوم القيامة " الحق " أي لا يظلم تعالى أحدا كقوله" ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين " وقال تعالى " إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما " وقال تعالى " فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية " .

وقال تعالى " فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون " .

" فصل " والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعراضا إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما قال البغوي يروى نحو هذا عن ابن عباس كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف .

ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وإنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول من أنت فيقول أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك .

وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر " فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح " وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله فيقول يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى إنك لا تظلم .

فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فطاشت السجلات وثقلت البطاقة " رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه وقيل يوزن صاحب العمل كما في الحديث " يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة " ثم قرأ " فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا" وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد" وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا فتارة توزن الأعمال وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها والله أعلم .

ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (٩)

ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون

يقول تعالى " والوزن" أي للأعمال يوم القيامة " الحق " أي لا يظلم تعالى أحدا كقوله " ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين " وقال تعالى" إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما " وقال تعالى " فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية " .

وقال تعالى " فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون " .

" فصل" والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعراضا إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما قال البغوي يروى نحو هذا عن ابن عباس كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف .

ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وإنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول من أنت فيقول أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك .

وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر " فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح" وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله فيقول يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى إنك لا تظلم.

فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فطاشت السجلات وثقلت البطاقة " رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه وقيل يوزن صاحب العمل كما في الحديث " يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة " ثم قرأ " فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا" وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد" وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا فتارة توزن الأعمال وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها والله أعلم .

ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون (١٠)

ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون

يقول تعالى ممتنا على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قرارا وجعل فيها رواسي وأنهارا وجعل لهم فيها منازل وبيوتا وأباح لهم منافعها وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها وجعل لهم فيها معايش أي مكاسب وأسبابا يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار " وقد قرأ الجميع معايش بلا همز إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها والصواب الذي عليه

الأكثرون بلا همز لأن معايش جمع معيشة من عاش يعيش عيشا ومعيشة أصلها معيشة فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت معيشة فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال فقيل معايش ووزنه مفاعل لأن الياء أصلية في الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من مدن وصحف وأبصر فإن الياء فيها زائدة ولهذا تجمع على فعائل وتهمز لذلك والله أعلم .

ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (١١)

ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى " ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا" وهذا كقوله تعالى " وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين " وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشرا سويا ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الله تعالى وجلاله فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين وقد تقدم الكلام على إبليس في أول سورة البقرة .

وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير أن المراد بذلك كله آدم عليه السلام .

وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن منهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس " ولقد خلقناكم ثم صورناكم " قال خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء .

رواه الحاكم .

وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضا أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم الذرية.

وقال الربيع بن أنس والسدي وقتادة والضحاك في هذه الآية " ولقد خلقناكم ثم صورناكم " أي خلقنا آدم ثم صورنا الذرية وهذا فيه نظر لأنه قال بعده " ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم " فدل على أن المراد بذلك آدم وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم " وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى " والمراد بالآباء آباؤهم الذين كانوا في زمن موسى ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقع على الأبناء وهذا بخلاف قوله " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين " الآية .

فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معينا والله أعلم .

قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (١٢)

قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى " ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك" لا هنا زائدة وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد

كقول الشاعر : ما إن رأيت ولا سمعت بمثله .

فأدخل" أن " وهي للنفي على ما النافية لتأكيد النفي قالوا وكذا هنا " ما منعك ألا تسجد " مع تقدم قوله " لم يكن من الساجدين " حكاهما ابن جرير وردهما واختار أن منعك مضمن معنى فعل آخر تقديره ما أحرجك وألزمك واضطرك ألا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا .

وهذا القول قوي حسن والله أعلم .". (١)

١١٧-"وقوله " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها " أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم كما قال تعالى " يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور " .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن سعيد بن مسروق حدثنا حسان النمري عن ابن عباس في قوله " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها" قال ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها يكتب ما يسقط منها رواه ابن أبي حاتم وقوله" ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " قال ابن أبي حاتم : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري حدثنا مالك بن سعير حدثنا الأعمش عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث قال : ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست

٥٤@@@". (٢)

١١٨-"الحسن حدثنا أبو سعيد الكندي حدثنا المحاربي عن ليث عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده " .

قال الليث وحدثني ابن طاوس مثله ثم قرأ " فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين " وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة .

فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين (٧)

فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين

قال ابن عباس في قوله " فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين " يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون " وما كنا غائبين " يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور" وما تسقط من ورقة إلا

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ٤٦٠/٥

(٢) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ٥٤/٦

يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " .

والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨)

والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون

يقول تعالى " والوزن " أي للأعمال يوم القيامة " الحق " أي لا يظلم تعالى أحدا كقوله" ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين " وقال تعالى " إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما " وقال تعالى " فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية " .

وقال تعالى " فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون " .

٢٦١@@@". [١]

١١٩-"من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحجة عليه " ويحي من حي " أي يؤمن من آمن " عن بينة " أي حجة وبصيرة والإيمان هو حياة القلوب قال الله تعالى " أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس " وقالت عائشة في قصة الإفك فهلك في من هلك أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك وقوله " وإن الله لسميع " أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به " عليم " أي بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين .

إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور (٤٣)

إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور

قال مجاهد أراهم الله إياه في منامه قليلا وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك فكان تثبيتا لهم وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها وقد روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أبو قتيبة عن سهل السراج عن الحسن في قوله " إذ يريكهم الله في منامك قليلا " قال بعينك وهذا القول غريب وقد صرح بالمنام ههنا فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه وقوله " ولو أراكهم كثيرا لفشلتم " أي لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم " ولكن الله سلم " أي من ذلك بأن أراكهم قليلا " إنه عليم بذات الصدور " أي بما تجنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء " يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور " .

وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور (٤٤)

وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ٦/٢٦٠

٩٥@@@". (١)

١٢٠-"منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد ظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: أن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد أن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك فيما شئت، أن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم، من يعبد الله لا يشرك به شيئا" وهذا لفظ مسلم، فقد عرض عليهم عذابهم واستئصالهم، فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئا، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة، ﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين﴾ فالجواب والله أعلم، أن هذه الآية دلت، على أنه لو كان إليه وقوع العذاب، الذي يطلبونه حال طلبهم له، لأوقعه بهم، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه أن شاء أطبق عليهم الأخشبين، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم. وقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾" وفي حديث عمر: أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي، فسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فيما قاله له: "خمس لا يعلمهن إلا الله" ثم قرأ ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية. وقوله: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات، بريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما أحسن ما قال الصرصري:

فلا يفخى عليه الذر إما ... تراءى للنواظر أو توارى

وقوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ . وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، حدثنا حسان النمري، عن ابن عباس، في قوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط منها، رواه ابن أبي حاتم، وقوله: ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري، حدثنا مالك بن سعير، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، قال: ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة، إلا وعليها ملك موكل، يأتي الله بعلمها، رطوبتها إذا رطبت،

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة ٧/٩٤

وييبوستها إذا يبست، وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني، عن مالك بن سعير به. ثم قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي حذيفة، حدثنا سفيان عن عمرو بن قيس، عن رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: خلق الله النون وهي الدواة، وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا، حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل بر أو فجور، وقرأ هذه الآية ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ إلى آخر الآية، قال". (١)

١٢١-"لرؤوف رحيم﴾.

وقوله: ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب، إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا، كقوله تعالى: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة – إلى قوله – خامدين ﴾ قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله: "ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم"، حدثنا بذلك ابن حميد، حدثنا جرير عن أبي سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد، قال: قال عبد الله بن مسعود، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم" ، قال: قلت لعبد الملك: كيف يكون ذاك ؟ قال: فقرأ هذه الآية ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾. وقوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ الآية. كقوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ وقوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ قال عما بلغوا.

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أبو سعيد الكندي، حدثنا المحاربي عن ليث عن نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده" قال الليث: وحدثني ابن طاوس مثله، ثم قرأ ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وما كنا غائبين﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم **بخائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾

يقول تعالى: ﴿والوزن﴾ أي للأعمال يوم القيامة ﴿الحق﴾ أي لا يظلم تعالى أحدا كقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر ١٦٨/٢

القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ وقال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾ وقال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهيه نار حامية﴾ وقال تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾.

(فصل) والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعراضا إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما، قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من "أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف". ومن ذلك في". (١)

١٢٢-"تخلفوا عنك، ويوازرونك وينصرونك. فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا، ودعا له به فبني له عريش، فكان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ما معهما غيرهما. قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله صلى الله عليه وسلم تصوب من العقنقل، وهو الكثيب، الذي جاءوا منه إلى الوادي، فقال: "اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم أحنهم الغداة" وقوله: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾، قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد، على غير ميعاد، لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهرا والحجة قاطعة والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة، ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه، على بصيرة من أمره، إنه مبطل لقيام الحجة عليه، ﴿ويحيى من حي﴾ أي يؤمن من آمن ﴿عن بينة﴾ أي حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس﴾ وقالت عائشة في قصة الإفك فهلك في من هلك، أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك. وقوله: ﴿وإن الله لسميع عليم﴾ أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به، ﴿عليم﴾ أي بكم، وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الامور﴾

قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلا، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك، فكان تثبيتا لهم، وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد، وحكى ابن جرير عن بعضهم، أنه رآهم بعينه التي ينام بها، وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج عن الحسن في قوله: ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلا﴾ قال بعينك، وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام ههنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه، وقوله: ﴿ولو أراكهم كثيرا لفشلتم﴾

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر ٢٤٦/٢

أي لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، ﴿ولكن الله سلم﴾ أي من ذلك، بأن أراكهم قليلا ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ وقوله: ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا﴾ وهذا أيضا من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا في رأي العين، فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم، قال أبو إسحاق السبيعي: عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين ؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه، فقال: كنا ألفا، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وقوله: ﴿ويقللكم في أعينهم﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الحارث عن عكرمة ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم﴾ الآية، قال: حض بعضهم على بعض، إسناد صحيح، وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ﴿ليقضي الله أمرا كان مفعولا﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في". (١)

١٢٣-"عنهم، ولكن في إسنادها ضعف إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه. وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعا "لتغضن أبصاركم، ولتحفظن فروجكم، ولتقيمن وجوهكم، أو لتكسفن وجوهكم".

وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التستري قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرى، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هريم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم من تركها مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه". وقوله تعالى: ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ كما قال تعالى: ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾. وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه" رواه البخاري تعليقا، ومسلم مسندا من وجه آخر بنحو ما تقدم، وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى الأمرد، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيرا جدا. وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو سعيد المدني، حدثنا عمر بن سهل المازني، حدثني عمر بن محمد بن صهبان عن صفوان بن سليم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله، وعينا سهرت في سبيل الله، وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل".

﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر ٢/٣٨٤

ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبآئهن أو آبآء بعولتهن أو أبنآئهن أو أبنآء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسآئهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النسآء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركين وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال: بلغنا – والله أعلم – أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء: ما أقبح هذا فأنزل الله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ الآية، فقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن، ولهذا ذهب كثير". (١)

١٢٤-"﴿إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما﴾ أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه، فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾.

﴿لا جناح عليهن في آبآئهن ولا أبنآئهن ولا إخوانهن ولا أبنآء إخوانهن ولا أبنآء أخواتهن ولا نسآئهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا﴾

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ وفيها زيادات على هذه، وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ههنا. وقد سأل بعض السلف فقال: لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يذكرا لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما. قال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد، حدثنا داود عن الشعبي وعكرمة في قوله تعالى: ﴿لا جناح عليهن في آبائهن﴾ الآية، قلت: ما شأن العم والخال لم يذكرا ؟ قال لأنهما ينعتانها لأبنائهما وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها. وقوله تعالى: ﴿ولا نسائهن﴾ يعنى بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات. وقوله تعالى: ﴿ولا ما ملكت أيمانهن﴾ يعني به أرقاءهن من الذكور والإناث كما تقدم التنبيه عليه وإيراد الحديث فيه، قال سعيد بن المسيب: إنما يعني به الإماء فقط، رواه ابن أبي حاتم. وقوله تعالى: ﴿واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا﴾ أي واخشينه في الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية فراقبن الرقيب.

﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء. وقال ابن عباس: يصلون

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر ٣/٣٤٤

يبركون، هكذا علقه البخاري عنهما، وقد رواه أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية كذلك، وروي مثله عن الربيع أيضا، وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كما قاله سواء، رواهما ابن أبي حاتم: وقال أبو عيسى الترمذي: وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم، قالوا: صلاة الرب الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار.

ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو الأودي، حدثنا وكيع عن الأعمش عن عمرو بن مرة، قال الأعمش أراه عن عطاء بن أبي رباح ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ قال: صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس، سبقت رحمتي غضبي والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعا.

وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبي عن أبيه عن أشعث بن إسحاق عن جعفر يعني ابن المغيرة، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: هل يصلي ربك ؟ فناداه ربه عز وجل: يا موسى سألوك هل يصلي ربك،". (١)

١٢٥-"ولا من شر بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة قال تبارك وتعالى: ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا - إلى أن قال - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" وقوله عز وجل: ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا واحدة كما قال جل وعلا: ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ وقال جل جلاله: ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾

﴿وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم **خآئنة الأعين** وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى: ﴿ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ وقال عز وجل: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وقال جل وعلا: ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ وقال: ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقال جل جلاله: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ الآية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ قال قتادة وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد، ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ وقال ابن جريج ﴿كاظمين ﴾ أي باكين. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر ٣/٦١١

بهم الأسباب من كل خير. وقوله تعالى: ﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴾ يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴾ هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم، وقال الضحاك ﴿ **خائنة الأعين** ﴾ هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير. أو لم أر وقد رأى. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا ؟ وقال السدي ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي من الوسوسة.

وقوله عز وجل: ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ أي يحكم بالعدل، قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ﴿ ليجزي". (١)

١٢٦-"وفي حديث عمر [رضي الله عنه] (١) أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال له: "خمس لا يعلمهن إلا الله "، ثم قرأ: ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

وقوله: ﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ أي: يحيط علمه الكريم (٢) بجميع الموجودات، بريها وبحريها (٣) لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وما أحسن ما قال الصرصري:

فلا يخفى عليه الذر إما ... تراءى للنواظر أو توارى ...

وقوله: ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴾ [غافر: ١٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، عن حسان النمري، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط (٤) منها.

وقوله: ﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ قال محمد بن إسحاق، عن يحيي بن النضر، عن أبيه، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن ما لو أنهم ظهروا

---

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر ٤/٩٢

-يعني لكم -لم تروا معهم نورا، على كل زاوية من زوايا الأرض (٥) خاتم من خواتيم الله، عز وجل، على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله، عز وجل، إليه في كل يوم ملكا من عنده: أن احتفظ بما عندك.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري: حدثنا مالك بن سعير، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث قال: ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا عليها (٦) ملك موكل يأتي الله بعلمها: رطوبتها إذا رطبت، ويبسها إذا يبست.

وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني، عن مالك بن سعير، به (٧)

ثم قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي حذيفة، حدثنا سفيان، عن عمرو بن قيس، عن رجل عن

---

(١) زيادة من أ.

(٢) في م، أ: "العظيم".

(٣) في د: "بحرها وبرها".

(٤) في أ: "ما سقط".

(٥) في م، أ: "من زواياها".

(٦) في أ: "إلا وعليها".

(٧) تفسير الطبري (١١/٤٠٤)." .[1]

١٢٧-"والرجل يسأل عن أهله (١) والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده". قال الليث: وحدثني ابن طاوس، مثله، ثم قرأ: ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ (٢) .

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة (٣)

وقال ابن عباس: ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿ وما كنا غائبين ﴾ يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحقير؛ لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم **بخائنة الأعين** وما تخفي الصدور، ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (٩) ﴾

يقول [تبارك و] (٤) تعالى: ﴿ والوزن ﴾ أي: للأعمال (٥) يوم القيامة ﴿ الحق ﴾ أي: لا يظلم تعالى أحدا، كما قال تعالى: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة ٣/٢٦٥

﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ [النساء : ٤٠] وقال تعالى: ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه فأمه هاوية * وما أدراك ما هيه * نار حامية ﴾ [القارعة : ٦-١١] وقال تعالى: ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾ [المؤمنون : ١٠١ -١٠٣] .

فصل:

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة (٦) قيل: الأعمال وإن كانت أعراضا، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما.

قال البغوي: يروى هذا عن ابن عباس (٧) كما جاء في الصحيح من أن "البقرة" و "آل عمران" يأتيان (٨) يوم القيامة كأنهما غمامتان -أو: غيايتان -أو فرقان من طير صواف. من ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي

---

(١) في أ: "أهل بيته".

(٢) وفي إسناده عبد الرحمن بن محمد المحاربي، قال ابن معين: يروى المناكير عن المجهولين، ولكن روي من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر وفي الصحيحين.

(٣) صحيح البخاري برقم (٥١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٨٢٩).

(٤) زيادة من أ.

(٥) في ك: "الأعمال".

(٦) في ك: "يوم القيامة في الميزان".

(٧) معالم التنزيل للبغوي (٣/٢١٥).

(٨) في أ: "تأتيان".". [1]

١٢٨-"كفر بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك.

وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك أنه (١) تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهرا، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ ﴿ يهلك من هلك ﴾ أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، ﴿ ويحيى من حي ﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿ عن بينة ﴾ أي: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس ﴾ [الأنعام: ١٢٢]،وقالت عائشة في قصة الإفك: في

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة ٣٨٩/٣

هلك من هلك أي: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك.

وقوله: ﴿ وإن الله لسميع ﴾ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿ عليم ﴾ أي: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين .

﴿ إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور (٤٣) وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور (٤٤) ﴾

قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه (٢) قليلا فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك، فكان تثبيتا لهم.

وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها.

وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن موسى المدبر، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن في قوله: ﴿ إذ يريكهم الله في منامك قليلا ﴾ قال: بعينك.

وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه (٣)

وقوله: ﴿ ولوأراكهم كثيرا لفشلتم ﴾ أي: لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم، ﴿ ولكن الله سلم ﴾ أي: من ذلك: بأن أراكهم قليلا ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي: بما تجنه الضمائر، وتنطوي عليه الأحشاء، فيعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

وقوله: ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ﴾ وهذا أيضا من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا في رأي العين، فيجرؤهم عليهم، ويطمعهم فيهم.

---

(١) في أ: "أن الله".

(٢) في جميع النسخ: "أراهم الله في منامه" والمثبت من الطبري.

(٣) في أ: "له"." (١)

١٢٩-"احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك" (١) .

﴿ ذلك أزكى لهم ﴾ أي: أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، كما قيل: "من حفظ بصره، أورثه الله نورا في بصيرته". ويروى: "في قلبه".

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عتاب، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة [أول مرة] (٢) ثم يغض بصره، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها" (٣) .

وروي هذا مرفوعا عن ابن عمر، وحذيفة، وعائشة، رضي الله عنهم (٤) ولكن في إسنادها ضعف، إلا أنها في الترغيب،

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة ٤/٦٩

ومثله يتسامح فيه.

وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر، ، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعا: "لتغضن أبصاركم، ولتحفظن فروجكم، ولتقيمن وجوهكم -أو: لتكسفن وجوهكم" (٥) .

وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التستري قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هريم بن سفيان، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه مخافتي، أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه" (٦) .

وقوله: ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴾ [غافر:١٩] .

وفي الصحيح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة. فزنى العينين: النظر. وزنى اللسان: النطق. وزنى الأذنين: الاستماع. وزنى اليدين: البطش. وزنى الرجلين: الخطى. والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه".

---

(١) المسند (٥/ ٣ ، ٤) وسنن أبي داود برقم (٤٠١٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٢٠) من حديث معاوية بن حيدة، رضي الله عنه.

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) المسند (٥/٢٦٤). وفي إسناده عبيد الله بن زحر، قال ابن حبان: "يروي الموضوعات عن الأثبات وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالطامات، وإذا اجتمع في إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم أبو عبد الرحمن، لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم".

(٤) أما حديث حذيفة، فرواه الحاكم في المستدرك (٤/٣١٤) من طريق إسحاق القرشي، عن هشيم، عن عبد الرحمن، عن إسحاق، عن محارب، عن صلة بن زفر، عن حذيفة، رضي الله عنه، وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي. قلت: إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطي ضعفوه. وأما حديث ابن عمر، فرواه أبو نعيم في الحلية (٦/١٠١) من طريق أبي اليمان، عن أبي المهدي، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن ابن عمر، رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف جدا.

(٥) المعجم الكبير (٨/٢٤٦) وعبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم ضعفاء.

(٦) المعجم الكبير (١٠/٢١٤) وقال الهيثمي في المجمع (٨/٦٣): "وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف".". (١)

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة ٦/٤٣

١٣٠-"مع قومها. قال: فاطمأن أبو بكر، رضي الله عنهما (١) وسكن (٢) .

وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿ إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴾ ، ثم قال: ﴿ إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما ﴾ أي: مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله (٣) يعلمه؛ فإنه لا تخفى (٤) عليه خافية، ﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴾ [غافر: ١٩].

---

(١) في ت، ف: "عنه".

(٢) تفسير الطبري (٢٢/٢٩).

(٣) في ف: "فإنه".

(٤) في ت، ف: "لا يخفى"." (١)

١٣١-"وقد يقال: إن يوم القيامة (١) هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر. كما قاله آخرون.

وقوله: ﴿ يوم هم بارزون ﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أي: الجميع في علمه على السواء.

وقوله: ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر: أنه تعالى (٢) يطوي السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ .

وفي حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلا ﴿ لله الواحد القهار ﴾ أي: الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه (٣) .

وقد قال (٤) ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو نضرة، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] (٥) قال: ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله [عز وجل] (٦) إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ .

وقوله: ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿ لا ظلم اليوم ﴾ كما ثبت في صحيح مسلم (٧) ، عن أبي ذر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -فيما يحكي عن ربه عز وجل-أنه قال: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا -إلى أن قال-: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم (٨) ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" (٩) .

وقوله: ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفسا واحدة، كما قال: ﴿ ما خلقكم ولا

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة ٦/٤٥٦

بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال [تعالى] (١٠) : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾

---

(١) في ت، س: "التلاق".

(٢) في ت: "أن الله".

(٣) انظر حديث الصور بتمامه عند تفسير الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.

(٤) في ت: "وروى ابن أبي حاتم".

(٥) زيادة من أ.

(٦) زيادة من ت، أ.

(٧) في ت: "البخاري" وهو خطأ.

(٨) في ت، س: "لكم".

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

(١٠) زيادة من س.". (١)

١٣٢-"يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿ أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ [النجم:٥٧، ٥٨] وقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر: ١]، وقال ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ [الانبياء:١] وقال ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [النحل:١] وقال ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ [الملك:٢٧] .

وقوله: ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ [أي ساكتين] (١) ، قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها. وكذا قال عكرمة، والسدي، وغير واحد.

ومعنى ﴿ كاظمين ﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ [النبأ:٣٨].

وقال ابن جريج (٢) : ﴿ كاظمين ﴾ أي: باكين.

وقوله: ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

وقوله: ﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها،

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة ١٣٦/٧

صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

قال ابن عباس في قوله: ﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴾ وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض [بصره عنها] (٣) وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم.

وقال الضحاك: ﴿ **خائنة الأعين** ﴾ هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم ير؛ أو: لم أر، وقد رأى.

وقال ابن عباس: يعلم [الله] (٤) تعالى من العين في نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟.

وقال السدي: ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي: من الوسوسة .

---

(١) زيادة من ت.

(٢) في ت: "جرير".

(٣) زيادة من س، أ.

(٤) زيادة من س.". [1]

١٣٣-"" صفحة رقم ٢٠٥ "

انتفاء إيمانهم لا سبيل لكم إلى الشعور بها ، القراءة الرابعة : فتح الهمزة والتاء وهي قراءة ابن عامر وحمزة ، والظاهر أنه خطاب للكفار ويتضح معنى هذه القراءة على زيادة لا أي وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت كما أقسمتم عليه ، وعلى تأويل أن بمعنى لعل وكون لا نفيا أي وما يدريكم بحالهم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون بها وكذلك يصح المعنى على تقدير حذف المعطوف أي وما يدريكم بانتفاء إيمانكم إذا جاءت أو وقوعه لأن مآل أمركم مغيب عنكم فكيف تقسمون على الإيمان إذا جاءتكم الآية ، وكذلك يصح معناها على تقدير أي على أن تكون أنها علة أي) قل إنما الايات عند الله (فلا يأتيكم بها لأنها) إذا جاءت لا يؤمنون (وما يشعركم بأنكم تؤمنون وأما على إقرار أن) أنها (معمولة) ليشعركم (وبقاء) لفتاه لا (على النفي فيشكل معنى هذه القراءة لأنه يكون المعنى) وما يشعركم (أيها الكفار بانتفاء إيمانكم إذا جاءتكم الآية المقترحة ، والذي يناسب صدر الآية) وما يشعركم (بوقوع الإيمان منكم إذا جاءت ، وقد يصح أن يكون التقدير : وأي شيء يشعركم بانتفاء الإيمان إذا جاءت ، أي لا يقع ذلك في خواطركم بل أنتم مصممون على الإيمان إذا جاءت ، وأنا أعلم أنكم لا تؤمنون إذا جاءت لأنكم مطبوع على قلوبكم . وكم آية جاءتكم فلم تؤمنوا . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن ما في قوله) وما يشعركم (نافية والفاعل بيشعركم ضمير يعود على الله ، ويتكلف معنى الآية على جعلها نافية ،

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة ١٣٧/٧

سواء فتحت أن أم كسرت . ومتعلق) لا يؤمنون (محذوف وحسن حذفه كون ما يتعلق به وقع فاصلة ، وتقديره) لا يؤمنون (بها وقد اتضح من ترتيب هذه القراءات الأربع أنه لا يصلح أن يكون الخطاب للمؤمنين على الإطلاق ولا للكفار على الإطلاق ، بل الخطاب يكون على ما يصح به المعنى الذي للقراءة .

الأنعام : (١١٠) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم . . . . .

(ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون (الظاهر أن قوله :) ونقلب (جملة استئنافية أخبر تعالى أنه يفعل بهم ذلك وهي إشارة إلى الحيرة والتردد وصرف الشيء عن وجهه . والمعنى أنه تعالى يحولهم عن الهدى ويتركهم في الضلال والكفر . وكما للتعليل أي يفعل بهم ذلك لكونهم لم يؤمنوا به أول وقت جاءهم هدى الله كما قال تعالى :) وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون (ويؤكد هذا المعنى آخر الآية) ونذرهم فى طغيانهم يعمهون (أي ونتركهم في تغمطهم في الشر والإفراط فيه يتحيرون ، وهذا كله إخبار من الله تعالى بفعله بهم في الدنيا . وقالت فرقة : هذا الإخبار هو على تقدير : أنه لو جاءت الآية التي اقترحوها صنعنا بهم ذلك . ولذلك قال الزمخشري) ونقلب أفئدتهم ( ) ونذرهم (عطف على) لا يؤمنون (داخل في حكم) وما يشعركم (بمعنى وما يشعركم أنهم لا يؤمنون) وما يشعركم (إنا) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم (أي فنطبع على أبصارهم وقلوبهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا أولا لا يؤمنون بها ، لكونهم) وما يشعركم (إنا) ويمدهم في طغيانهم (أي نخليهم وشأنهم لا نكفهم ونصرفهم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه انتهى .

وهذا معنى ما قاله ابن عباس ومجاهد وابن زيد قالوا : لو أتيناهم بآية كما سألوا لقلبنا أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها ، وحلنا بينهم وبين الهدى فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها ، عقوبة لهم على ذلك . والفرق بين هذا القول والذي بدأنا به أولا أن ذلك استئناف إخبار بما يفعل بهم تعالى في الدنيا . وهذا إخبار على تقدير مجيء الآية المقترحة فذلك واقع وهذا غير واقع ، لأن الآية المقترحة لم تقع فلم يقع ما رتب عليها .

وقال مقاتل : نقلب أفئدة هؤلاء وأبصارهم عن الإيمان وعن الآيات كما لم يؤمن أوائلهم من الأمم الخالية بما رأوا من الآيات .

وقيل : تقليبها بإزعاج نفوسهم هما وغما .

وقال الكرماني : معناه أنا نحيط علما بذات الصدور **وخائنة الأعين** منهم انتهى .

ولا يستقيم هذا التفسير لقوله :) كما لم يؤمنوا به أول مرة (لا على التعليل ولا على التشبيه إلا أن جعل متعلقا بقوله) أنها جاءت لا يؤمنون (أي) كما لم يؤمنوا به أول مرة (فيصح على بعد في تفسير التقليب". (١)

١٣٤-"" صفحة رقم ٨٠ "

يكن لنبي **خائنة الأعين**) أو كما قال : وهي الإشارة ، فكيف يكون له النطق بشيء على سبيل التحييل ؟ حاشا منصب

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (الكتب العلمية) ٤/٢٠٥

الأنبياء عن ذلك ، ولكن هذا الرجل مسرح الألفاظ في حق الأنبياء بما لا يليق بحالهم ، ولقد تكلم عند تفسير قوله :) عفا الله عنك لم أذنت لهم (بكلام في حق الرسول نزهت كتابي هذا أن أنقله فيه ، والله تعالى يعصمنا من الزلل في القول والعمل ، ذلك إشارة إلى انتفاء الغفران وتبيين العلة الموجبة لذلك ، وانتفاء هداية الله الفاسقين هو للذين حتم لهم بذلك ، فهو عام مخصوص .

(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر (: لما ذكر تعالى ما ظهر من النفاق والهزء من الذين خرجوا معه إلى غزوة تبوك من المنافقين ، ذكر حال المنافقين الذين لم يخرجوا معه وتخلفوا عن الجهاد ، واعتذروا بأعذار وعلل كاذبة ، حتى أذن لهم ، فكشف الله للرسول (صلى الله عليه وسلم)) عن أحوالهم وأعلمه بسوء فعالهم ، فأنزل الله عليه : فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله الآية : أي : عن غزوة تبوك . وكان الرسول قد خلفهم بالمدينة لما اعتذروا ، فأذن لهم . وهذه الآية تقتضي التوبيخ والوعيد . ولفظة المخلفون تقتضي الذم والتحقير ، ولذلك جاء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وهي أمكن من لفظة المتخلفين ، إذ هم مفعول بهم ذلك ، ولم يفرح إلا منافق فخرج من ذلك الثلاثة وأصحاب العذر . ولفظ المقعد يكون للزمان والمكان ، والمصدر وهو هنا للمصدر أي : بقعودهم ، وهو عبارة عن الإقامة بالمدينة . وانتصب خلاف على الظرف ، أي بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)) يقال : فلان أقام خلاف الحي ، أي بعدهم . إذا ظعنوا ولم يظعن معهم . قاله أبو عبيدة ، والأخفش ، وعيسى بن عمرو . قال الشاعر : عقب الربيع خلافهم فكأنما

بسط السواطب بينهن حصيرا

ومنه قول الشاعر : فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى

تأهب لأخرى مثلها وكأن قد

ويؤيد هذا التأويل : قراءة ابن عباس ، وأبي حيوة ، وعمرو بن ميمون خلف رسول الله . وقال قطرب ، ومؤرج ،". (١)

١٣٥-"" صفحة رقم ٤٣٨ "

أن ينادي مناد :) لمن الملك اليوم (؟ فيجيبوا كلهم :) لله الواحد القهار). روي أنه تعالى يقرر هذا التقرير ويسكت العالم هيبة وجزعا ، فيجيب نفسه بقوله :) لله الواحد القهار (، فيجيب الناس ، وإنما خص التقرير باليوم ، وإن كان الملك له تعالى في ذلك اليوم وفي غيره ، لظهور ذلك للكفرة والجهلة ووضوحه يوم القيامة .

وإذا تأمل من له مسكة عقل تسخير أهل السموات الأرض ، ونفوذ القضاء فيهم ، وتيقن أن لا ملك إلا لله ، ومن نتائج ملكه في ذلك اليوم جزاء كل نفس بما كسبت ، وانتفاء الظلم ، وسرعة الحساب ، إن حسابهم في وقت واحد لا يشغله حساب عن حساب . قال ابن عطية : وهذه الآية نص في أن الثواب والعقاب معلق باكتساب العبد . انتهى ، وهو على طريقة الأشعرية . وروى أن يوم القيامة لا ينتصف حتى يقيل المؤمنون في الجنة والكافرون في النار . و) يوم الازفة (: هو

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (الكتب العلمية) ٥/٨٠

يوم القيامة ، يأمر تعالى نبيه أن ينذر العالم ويحذرهم منه ومن أهواله ، قاله مجاهد وابن زيد . والآزفة صفة لمحذوف تقديره يوم الساعة الآزفة ، أو الطامة الآزفة ونحو هذا . ولما اعتقب كل إنذار نوعا من الشدة والخوف وغيرهما ، حسن التكرار في الآزفة القريبة ، كما تقدم ، وهي مشارفتهم دخول النار ، فإنه إذ ذاك تزيغ القلوب عن مقارها من شدة الخوف . وقال أبو مسلم : يوم الآزفة : يوم المنية وحضور الأجل ، يدل عليه أنه يعدل وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق ، ويوم بروزهم ، فوجب أن يكون هذا اليوم غيره ، وهذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات ، يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب ، وأيضا فالصفات المذكورة بعد قوله :) يوم الازفة (، لائقة بيوم حضور المنية ، لأن الرجل عند معاينة ملائكة العذاب لعظم خوفه ، يكاد قلبه يبلغ حنجرته من شدة الخوف ، ولا يكون له حميم ولا شفيع يرفع عنه ما به من أنواع الخوف .

) إذ القلوب لدى الحناجر (، قيل : يجوز أن يكون ذلك يوم القيامة حقيقة ، ويبقون أحياء مع ذلك بخلاف حالة الدنيا ، فإن من انتقل قلبه إلى حنجرته مات ، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن ما يبلغون إليه من شدة الجزع ، كما تقول : كادت نفسي أن تخرج ، وانتصب كاظمين على الحال . قال الزمخشري : هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى ، إذا المعنى : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ، ويجوز أن تكون حالا عن القلوب ، وأن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها ، مع بلوغها الحناجر . وإنما جمع الكاظم جمع السلامة ، لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ، كما قال :) رأيتهم لى ساجدين (. وقال : فظلت أعناقهم لها خاضعين ، ويعضده قراءة من قرأ : كاظمون ، ويجوز أن يكون حالا عن قوله : أي وانذرهم مقدرين . وقال ابن عطية : كاظمين حال ، مما أبدل منه قوله تعالى :) تشخص فيه الابصار مهطعين (: أراد تشخص فيه أبصارهم ، وقال الحوفي : القلوب رفع بالإبتداء ، ولدى الحناجر الخبر متعلق بمعنى الاستقرار . وقال أبو البقاء : كاظمين حال من القلوب ، لأن المراد أصحابها . انتهى .) ما للظالمين من حميم (: أي محب مشفق ، ولا شفيع يطاع في موضع الصفة لشفيع ، فاحتمل أن يكون في موضع خفض على اللفظ ، وفي موضع رفع على الموضع واحتمل أن ينسحب النفي على الوصف فقط ، فيكون من شفيع ، ولكنه لا يطاع ، أي لا تقبل شفاعته ، واحتمل أن ينسحب النفي على الموصوف وصفته : أي لا شفيع فيطاع ، وهذا هو المقصود في الآية أن الشفيع عند الله إنما يكون من أوليائه تعالى ، ولا تكون الشفاعة إلا لمن ارتضاه الله وأيضا فيكون في زيادة التفضل والثواب ولا يمكن شيء من هذا في حق الكافر . وعن الحسن : والله لا يكون لهم شفيع البتة ،) يعلم **خائنة الاعين** (، كقوله :

وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

أي الناس الكرام ، وجوزوا أن تكون خائنة مصدرا ، كالعافية والعاقبة ، أي يعلم خيانة الأعين . ولما كانت الأفعال التي يقصد بها التكتم بدنية ، فأخفاها **خائنة الأعين** من كسر جفن وغمز ونظر يفهم معنى". [(١)]

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (الكتب العلمية) ٤٣٨/٧

ويريد صاحب معنى آخر وقلب ، وهو ما تحتوي عليه الضمائر ، قسم ما ينكتم به إلى هذين القسمين ، وذكر أن علمه متعلق بهما التعلق التام . وقال الزمخشري : ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين ، لأن قوله :) وما تخفى الصدور (لا يساعد عليه . انتهى ، يعني أنه لا يناسب أن يكون مقابل المعنى إلا المعنى ، وتقدم أن الظاهر أن يكون التقدير الأعين الخائنة ، والظاهر أن قوله : يعلم **خائنة الأعين** الآية متصل بما قبله ، لما أمر بإنكاره يوم الآزفة ، وما يعرض فيه من شدة الكرب والغم ، وأن الظالم لا يجد من يحميه من ذلك ، ولا من يشفع له .

ذكر اطلاعه تعالى على جميع ما يصدر من العبد ، وأنه مجازي بما عمل ، ليكون على حذر من ذلك اليوم إذا علم أن الله مطلع على أعماله . وقال ابن عطية : يعلم **خائنة الأعين** متصل بقوله :) سريع الحساب (، لأن سرعة حسابه للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكر ، ولا لشيء مما يحتاجه المحاسبون . وقالت فرقة : يعلم متصل بقوله : لا يخفي على الله منهم شيء ، وهذا قول حسن ، يقويه تناسب المعنيين ، ويضعفه بعد الآية من الآية وكثرة الحائل . انتهى . وقال الزمخشري : فإن قلت : فإن قلت : بم اتصل قوله : يعلم **خائنة الاعين** ؟ قلت : هو خبر من أخبار هو في قوله :) هو الذى يريكم البرق (، مثل :) يلقى الروح (، ولكن من يلقي الروح قد علل بقوله :) لينذر يوم التلاق (، ثم أسقط وتذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله :) ولا شفيع يطاع (، فبعد لذلك عن إخوانه . انتهى . وفي بعض الكتب المنزلة ، انا مرصاد الهمم ، انا العالم بجال الفكر وكسر العيون . وقال مجاهد : **خائنة الأعين** : مسارقة النظر إلى ما لا يجوز ؛ ومثل المفسرون **خائنة الأعين** بالنظر الثاني إلى حرمة غير الناظر ، وما تخفي الصدور بالنظر الأول الذي لا يمكن رفعه .

(والله يقضى بالحق (: هذا يوجب عظيم الخوف ، لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال لا يقضي إلا بالحق في ما دق وجل خافه الخلق غاية .) والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء (: هذا قدح في أصنامهم وتهكم بهم ، لأن ما لا يوصف بالقدرة ، لا يقال فيه يقضي ولا يقضي . وقرأ الجمهور :) يدعون (بياء الغيبة لتناسب الضمائر الغائبة قبل . وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، ونافع : بخلاف عنه ؛ وهشام : تدعون بتاء الخطاب ، أي قل لهم يا محمد .) إن الله هو السميع البصير (: تقرير لقوله :) يعلم **خائنة الاعين** وما تخفى الصدور (، وعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعلمون وتعريض بأصنامهم أنها لا تسمع ولا تبصر .) أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم (: أحال قريشا على الاعتبار بالسير ، وجاز أن يكون فينظروا مجزوما عطفا على يسيروا وأن يكون منصوبا على جواب النفي ، كما قال :

ألم تسأل فتخبرك الرسوم

وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة ، وحمل الزمخشري هم على أن يكون فصلا ولا يتعين ، إذ يجوز أن يكون هم توكيدا لضمير كانوا . وقرأ الجمهور : منهم بضمير الغيبة ؛ وابن عامر : منكم بضمير الخطاب على سبيل الالتفات .) أولم يسيروا فى (: معطوف على قوة ، أي مبانيهم وحصونهم وعددهم كانت في غاية الشدة .) وتنحتون من الجبال بيوتا). وقال الزمخشري : أو أرادوا أكثر آثارا لقوله :

متقلدا سيفا ورمحا

انتهى . أي : ومعتقلا رمحا ، ولا حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة المعنى بدونه .) من واق (: أي وما كان لهم من عذاب الله من ساتر بمنعهم منعه .) ذالك (: أي الأخذ ، وتقدم تفسير نظير ذلك .

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقشرون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين ءامنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال (سقط : وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل فيكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ، وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا)). ". (١)

١٣٧-"" صفحة رقم ٢٠٣ "

والعامل في إذا الفعل بعدها على ما قررناه في كتب النحو ، فهو في موضع خفض بإضافة إذا إليها احتاج إلى تقدير عامل ، إذ الظاهر أنه ليس ثم جواب ملفوظ به يعمل بها . فقال الزمخشري : فإن قلت : بم انتصب إذا ؟ قلت : بليس ، كقولك : يوم الجمعة ليس لي شغل ، أو بمحذوف يعني : إذا وقعت ، كان كيت وكيت ، أو بإضمار أذكر . انتهى .

أما نصبها بليس فلا يذهب نحوي ولا من شدا شيئا من صناعة الإعراب إلى مثل هذا ، لأن ليس في النفي كما ، وما لا تعمل ، فكذلك ليس ، وذلك أن ليس مسلوبة الدلالة على الحدث والزمان . والقول بأنها فعل هو على سبيل المجاز ، لأن حد الفعل لا ينطبق عليها . والعامل في الظرف إنما هو ما يقع فيه من الحدث ، فإذا قلت : يوم الجمعة أقوم ، فالقيام واقع في يوم الجمعة ، وليس لا حدث لها ، فكيف يكون لها عمل في الظرف ؟ والمثال الذي شبه به ، وهو يوم القيامة ، ليس لي شغل ، لا يدل على أن يوم الجمعة منصوب بليس ، بل هو منصوب بالعامل في خبر ليس ، وهو الجار والمجرور ، فهو من تقديم معمول الخبر على ليس ، وتقديم ذلك مبني على جواز تقديم الخبر الذي لليس عليها ، وهو مختلف فيه ، ولم يسمع من لسان العرب : قائما ليس زيد . وليس إنما تدل على نفي الحكم الخبري عن المحكوم عليه فقط ، فهي كما ، ولكنه لما اتصلت بها ضمائر الرفع ، جعلها ناس فعلا ، وهي في الحقيقة حرف نفي كما النافية .

ويظهر من تمثيل الزمخشري إذا بقوله : يوم الجمعة ، أنه سلبها الدلالة على الشرط الذي هو غالب فيها ، ولو كانت شرطا ، وكان الجواب الجملة المصدرة بليس ، لزمت الفاء ، إلا إن حذفت في شعر ، إذ ورد ذلك ، فنقول : إذا أحسن إليك زيد فلست تترك مكافأته . ولا يجوز لست بغير فاء ، إلا إن اضطر إلى ذلك . وأما تقديره : إذا وقعت كان كيت وكيت ، فيدل على أن إذا عنده شرطية ، ولذلك قدر لها جوابا عاملا فيها . وأما قوله : بإضمار اذكر ، فإنه سلبها الظرفية ، وجعلها مفعولا بها منصوبة باذكر .

و) كاذبة (: ظاهره أنه اسم فاعل من كذب ، وهو صفة لمحذوف ، فقدره الزمخشري : نفس كاذبة ، أي لا يكون حين تقع نفس تكذب على الله ، وتكذب في تكذيب الغيب ، لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة ، وأكثر النفوس اليوم كواذب

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (الكتب العلمية) ٧/٤٣٩

مكذبات ، لقوله تعالى :) فلما رأوا بأسنا قالوا ءامنا بالله وحده (، (لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم ( ) ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة (، واللام مثلها في قوله :) يقول ياليتنى قدمت لحياتى (، إذ ليس لها نفس تكذبها وتقول لها : لم تكذبي ، كما لها اليوم نفوس كثيرة يقلن لها : لم تكذبي ، أو هي من قولهم : كذبت فلانا نفسه في الخطب العظيم ، إذا شجعته على مباشرته ، وقالت له : إنك تطيقه وما فوقه ، فتعرض له ولا تبال على معنى : أنها وقعة لا تطاق بشدة وفظاعة ، وأن لا نفس حينئذ تحدث صاحبها بما تحدثه به عند عظائم الأمور ، وتزين له احتمالها وإطاقتها ، لأنهم يومئذ أضعف من ذلك وأذل . ألا ترى إلى قوله تعالى :)كالفراش المبثوث (؟ والفراش مثل في الضعف . انتهى ، وهو تكثير وإسهاب . وقدره ابن عطية حال كاذبة ، قال : ويحتمل الكلام على هذا معنيين : أحدهما كاذبة ، أي مكذوب فيما أخبر به عنها ، فسماها كاذبة لهذا ، كما تقول : هذه قصة كاذبة ، أي مكذوب فيها . والثاني : حال كاذبة ، أي لا يمضي وقوعها ، كما تقول : فلان إذا حمل لم يكذب . وقال قتادة والحسن المعنى : ليس لها تكذيب ولا رد ولا منثوية ، فكاذبة على هذا مصدر ، كالعاقبة والعافية **وخائنة الأعين** . والجملة من قوله :) ليس لوقعتها كاذبة (على ما قدره الزمخشري من أن إذا معمولة لليس يكون ابتداء السورة ، إلا إن اعتقد أنها جواب لإذا ، أو منصوبة باذكر ، فلا يكون ابتداء كلام . وقال ابن عطية : في موضع الحال ، والذي يظهر لي أنها جملة اعتراض بين الشرط وجوابه .

الواقعة : (٣) خافضة رافعة

وقرأ الجمهور :) خافضة رافعة (برفعهما ، على تقدير هي ؛ وزيد بن علي والحسن وعيسى وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن مقسم والزعفراني واليزيدي في اختياره بنصبهما . قال ابن خالوية : قال الكسائي : لولا أن اليزيدي سبقني إليه لقرأت به ، ونصبهما على الحال . قال ابن عطية : بعد الحال التي هي) ليس لوقعتها كاذبة (، ولك أن تتابع الأحوال ، كما لك أن تتابع أخبار المبتدأ . والقراءة الأولى أشهر وأبدع معنى ، وذلك أن موقع الحال من الكلام موقع ما لو لم يذكر لاستغنى عنه ، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما". (١)

١٣٨-"أي الناس الكرام ، وجوزوا أن تكون خائنة مصدرا ، كالعافية والعاقبة ، أي يعلم خيانة الأعين. ولما كانت الأفعال التي يقصد بها التكتم بدنية ، فأخفاها **خائنة الأعين** من كسر جفن وغمز ونظر يفهم معنى ويريد صاحب معنى آخر وقلب ، وهو ما تحتوي عليه الضمائر ، قسم ما ينكتم به إلى هذين القسمين ، وذكر أن علمه متعلق بهما التعلق التام. وقال الزمخشري : ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين ، لأن قوله : ﴿وما تخفى الصدور﴾ لا يساعد عليه. انتهى ، يعني أنه لا يناسب أن يكون مقابل المعنى إلا المعنى ، وتقدم أن الظاهر أن يكون التقدير الأعين الخائنة ، والظاهر أن قوله : يعلم **خائنة الأعين** الآية متصل بما قبله ، لما أمر بإنكاره يوم الآزفة ، وما يعرض فيه من شدة الكرب والغم ، وأن الظالم لا يجد من يحميه من ذلك ، ولا من يشفع له.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٤٤

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (الكتب العلمية) ٢٠٣/٨

ذكر اطلاعه تعالى على جميع ما يصدر من العبد ، وأنه مجازي بما عمل ، ليكون على حذر من ذلك اليوم إذا علم أن الله مطلع على أعماله. وقال ابن عطية : يعلم **خائنة الأعين** متصل بقوله : ﴿سريع الحساب﴾ ، لأن سرعة حسابه للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكر ، ولا لشيء مما يحتاجه المحاسبون. وقالت فرقة : يعلم متصل بقوله : لا يخفى على الله منهم شيء ، وهذا قول حسن ، يقويه تناسب المعنيين ، ويضعفه بعد الآية من الآية وكثرة الحائل. انتهى. وقال الزمخشري : فإن قلت : فإن قلت : بم اتصل قوله : يعلم **خائنة الاعين** ؟قلت : هو خبر من أخبار هو في قوله : ﴿هو الذى يريكم البرق﴾ ، مثل : ﴿يلقى الروح﴾ ، ولكن من يلقي الروح قد علل بقوله : ﴿لينذر يوم التلاق﴾ ، ثم أسقط وتذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله : ﴿ولا شفيع يطاع﴾ ، فبعد لذلك عن إخوانه. انتهى. وفي بعض الكتب المنزلة ، انا مرصاد الهمم ، انا العالم بحال الفكر وكسر العيون. وقال مجاهد : **خائنة الأعين** : مسارقة النظر إلى ما لا يجوز ؛ ومثل المفسرون **خائنة الأعين** بالنظر الثاني إلى حرمة غير الناظر ، وما تخفي الصدور بالنظر الأول الذي لا يمكن رفعه.

﴿والله يقضى بالحق﴾ : هذا يوجب عظيم الخوف ، لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال لا يقضي إلا بالحق في ما دق وجل خافه الخلق غاية. ﴿والذين يدعون من دونها لا يقضون بشىء ﴾ : هذا قدح في أصنامهم وتهكم بهم ، لأن ما لا يوصف بالقدرة ، لا يقال فيه يقضي ولا يقضي. وقرأ الجمهور : ﴿يدعون﴾ بياء الغيبة لتناسب الضمائر الغائبة قبل. وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، ونافع : بخلاف عنه ؛ وهشام : تدعون بتاء الخطاب ، أي قل لهم يا محمد. ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ : تقرير لقوله : ﴿يعلم خآئنة الاعين وما تخفى الصدور﴾ ، وعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعلمون وتعريض بأصنامهم أنها لا تسمع ولا تبصر. ﴿أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ : أحال قريشا على الاعتبار بالسير ، وجاز أن يكون فينظروا مجزوما عطفا على يسيروا وأن يكون منصوبا على جواب النفي ، كما قال :

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٤٤

ألم تسأل فتخبرك الرسوم

وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة ، وحمل الزمخشري هم على أن يكون فصلا ولا يتعين ، إذ يجوز أن يكون هم توكيدا لضمير كانوا. وقرأ الجمهور : منهم بضمير الغيبة ؛ وابن عامر : منكم بضمير الخطاب على سبيل الالتفات. ﴿أولم يسيروا فى﴾ : معطوف على قوة ، أي مبانيهم وحصونهم وعددهم كانت في غاية الشدة. ﴿وتنحتون من الجبال بيوتا﴾ . وقال الزمخشري : أو أرادوا أكثر آثارا لقوله :

متقلدا سيفا ورمحا

٤٥٧

انتهى. أي : ومعتقلا رمحا ، ولا حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة المعنى بدونه. ﴿من واق﴾ : أي وما كان لهم من عذاب الله من ساتر بمنعهم منعه. ﴿ذالك﴾ : أي الأخذ ، وتقدم تفسير نظير ذلك.

﴿ولقد أرسلنا موسى بااياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب * فلما جآءهم بالحق من

عندنا قالوا اقتلوا أبنآء الذين ءامنوا معه واستحيوا نسآءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال * وقال﴾ .
ابتدأ تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام ، ووعيد القريش أن يحل بهم ما حل بفرعون وقومه من نقمات الله ،
٤٥٨
". (١)

١٣٩-"﴿ونقلب أفادتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا بها أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾ الظاهر أن قوله : ﴿ونقلب﴾ جملة استئنافية أخبر تعالى أنه يفعل بهم ذلك وهي إشارة إلى الحيرة والتردد وصرف الشيء عن وجهه. والمعنى أنه تعالى يحولهم عن الهدى ويتركهم في الضلال والكفر. وكما للتعليل أي يفعل بهم ذلك لكونهم لم يؤمنوا به أول وقت جاءهم هدى الله كما قال تعالى : ﴿وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ ويؤكد هذا المعنى آخر الآية ﴿ونذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾ أي ونتركهم في تغمطهم في الشر والإفراط فيه يتحيرون ، وهذا كله إخبار من الله تعالى بفعله بهم في الدنيا. وقالت فرقة : هذا الإخبار هو على تقدير : أنه لو جاءت الآية التي اقترحوها صنعنا بهم ذلك. ولذلك قال الزمخشري ﴿ونقلب أفادتهم﴾ ﴿ونذرهم﴾ عطف على ﴿لا يؤمنون﴾ داخل في حكم ﴿وما يشعركم﴾ بمعنى وما يشعركم أنهم لا يؤمنون ﴿وما يشعركم﴾ إنا ﴿ونقلب أفادتهم وأبصارهم﴾ أي فنطبع على أبصارهم وقلوبهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا أولا لا يؤمنون بها ، لكونهم ﴿وما يشعركم﴾ إنا ﴿ويمدهم في طغيانهم﴾ أي نخليهم وشأنهم لا نكفهم ونصرفهم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه انتهى.
جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٨٣
وهذا معنى ما قاله ابن عباس ومجاهد وابن زيد قالوا : لو أتيناهم بآية كما سألوا لقلبنا أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها ، وحلتا بينهم وبين الهدى فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها ، عقوبة لهم على ذلك. والفرق بين هذا القول والذي بدأنا به أولا أن ذلك استئناف إخبار بما يفعل بهم تعالى في الدنيا. وهذا إخبار على تقدير مجيء الآية المقترحة فذلك واقع وهذا غير واقع ، لأن الآية المقترحة لم تقع فلم يقع ما رتب عليها.
وقال مقاتل : نقلب أفئدة هؤلاء وأبصارهم عن الإيمان وعن الآيات كما لم يؤمن أوائلهم من الأمم الخالية بما رأوا من الآيات.
وقيل : تقليبها بإزعاج نفوسهم هما وغما.
وقال الكرماني : معناه أنا نحيط علما بذات الصدور **وخائنة الأعين** منهم انتهى.
ولا يستقيم هذا التفسير لقوله : ﴿كما لم يؤمنوا بها أول مرة﴾ لا على التعليل ولا على التشبيه إلا أن جعل متعلقا بقوله ﴿إذا جآءت لا يؤمنون﴾ أي ﴿كما لم يؤمنوا بها أول مرة﴾ فيصح على بعد في تفسير التقليب بإحاطة العلم.
وقال الكعبي : المراد أنا لا نفعل بهم ما نفعل بالمؤمنين من الفوائد والألطاف من حيث أخرجوا أنفسهم عن الهداية بسبب

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر) /

الكفر انتهى.
وهو على طريقة الاعتزالي ومعنى تقليب القلب والبصر ما ينشأ عن القلب والبصر من الدواعي إلى الحيرة والضلال ، لأن القلب والبصر يتقلبان بأنفسهما فنسبة التقليب إليهما مجاز. وقدمت الأفئدة لأن موضع الدواعي والصوارف هو القلب فإذا حصلت الداعية في القلب انصرف البصر إليه شاء أم أبى ، وإذا حصلت الصوارف في القلب انصرف البصر عنه وإن كان تحدق النظر إليه ظاهرا وهذه التفاسير على أن ذلك في الدنيا.
وقالت فرقة : إن ذلك إخبار من الله تعالى يفعل بهم ذلك في الآخرة.
فروي عن ابن عباس أنه جواب لسؤالهم
٢٠٣
في الآخرة الرجوع إلى الدنيا. والمعنى لو ردوا لحلنا بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا انتهى. وهذا ينبو عنه تركيب الكلام.
وقيل : تقليبها في النار في جهنم على لهيبها وجمرها ليعذبوا ﴿كما لم يؤمنوا بها أول مرة﴾ يعني في الدنيا وقاله الجبائي.
وقال أبو الهذيل : تقليب أفئدتهم بلوغها الحناجر كما قال تعالى : ﴿وأنذرهم يوم الازفة﴾ .
جزء : ٤ رقم الصفحة : ١٨٣
وقيل : تقليب أبصارهم إلى الزرقة وحمل ذلك على أنه في الآخرة ضعيف قلق النظم ، لأن التقليب في الآخرة وتركهم في الطغيان في الدنيا ، فيختلف الظرفان من غير دليل على اختلافهما ، بل الظاهر أن ذلك إخبار مستأنف كما قررناه أولا ، والكاف في كما ذكرنا أنها للتعليل ، وهو واضح فيها وإن كان استعمالها فيه قليلا. وقالت فرقة كما : هي بمعنى المجازاة أي لما ﴿لم يؤمنوا بها أول مرة﴾ نجاريهم بأن ﴿ولا أفادتهم﴾ عن الهدى ونطبع على قلوبهم. فكأنه قال : ونحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم جزاء لما ﴿لم يؤمنوا بها أول مرة﴾ بما دعوا إليه من الشرع. قاله ابن عطية ، وهو معنى التعليل الذي ذكرناه إلا أن تسمية ذلك بمعنى المجازاة غريبة ، لا يعهد في كلام النحويين أن الكاف للمجازاة.قيل : للتشبه
". (١)

١٤٠-"قال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته ، والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار كيف ؟ وقد تلاه بقوله تعالى ذلك بأنهم كفروا الآية ، فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال : ؟ (قلت) : لم يخف عليه صلى الله عليه وسلم ذلك ، ولكنه خيل بما قال إظهارا لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿من الناسا فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ وفي إظهار النبي صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة لطف لأمته ، ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض انتهى. وفي هذا السؤال والجواب. غض من منصب النبوة ، وسوء أدب على الأنبياء ، ونسبته إلهم ما لا يليق بهم.

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر) ١٦٣/٤

وإذا كان صلى الله عليه وسلم يقول : "لم يكن لنبي **خائنة الأعين**" أو كما قال : وهي الإشارة ، فكيف يكون له النطق بشيء على سبيل التحييل ؟ حاشا منصب الأنبياء عن ذلك ، ولكن هذا الرجل مسرح الألفاظ في حق الأنبياء بما لا يليق بحالهم ، ولقد تكلم عند تفسير قوله : ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ بكلام في حق الرسول نزهت كتابي هذا أن أنقله فيه ، والله تعالى يعصمنا من الزلل في القول والعمل ، ذلك إشارة إلى انتفاء الغفران وتبيين العلة الموجبة لذلك ، وانتفاء هداية الله الفاسقين هو للذين حتم لهم بذلك ، فهو عام مخصوص.

﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر﴾ : لما ذكر

٧٨

تعالى ما ظهر من النفاق والهزء من الذين خرجوا معه إلى غزوة تبوك من المنافقين ، ذكر حال المنافقين الذين لم يخرجوا معه وتخلفوا عن الجهاد ، واعتذروا بأعذار وعلل كاذبة ، حتى أذن لهم ، فكشف الله للرسول صلى الله عليه وسلم عن أحوالهم وأعلمه بسوء فعالهم ، فأنزل الله عليه : فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله الآية : أي : عن غزوة تبوك. وكان الرسول قد خلفهم بالمدينة لما اعتذروا ، فأذن لهم. وهذه الآية تقتضي التوبيخ والوعيد. ولفظة المخلفون تقتضي الذم والتحقير ، ولذلك جاء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وهي أمكن من لفظة المتخلفين ، إذ هم مفعول بهم ذلك ، ولم يفرح إلا منافق فخرج من ذلك الثلاثة وأصحاب العذر. ولفظ المقعد يكون للزمان والمكان ، والمصدر وهو هنا للمصدر أي : بقعودهم ، وهو عبارة عن الإقامة بالمدينة. وانتصب خلاف على الظرف ، أي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال : فلان أقام خلاف الحي ، أي بعدهم. إذا ظعنوا ولم يظعن معهم. قاله أبو عبيدة ، والأخفش ، وعيسى بن عمرو. قال الشاعر :

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٧٢

عقب الربيع خلافهم فكأنمابسط السواطب بينهن حصيرا

ومنه قول الشاعر :

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضتأهب لأخرى مثلها وكأن قد

". (١)

١٤١-"ويظهر من تمثيل الزمخشري إذا بقوله : يوم الجمعة ، أنه سلبها الدلالة على الشرط الذي هو غالب فيها ، ولو كانت شرطا ، وكان الجواب الجملة المصدرة بليس ، لزمت الفاء ، إلا إن حذفت في شعر ، إذ ورد ذلك ، فنقول : إذا أحسن إليك زيد فلست تترك مكافأته. ولا يجوز لست بغير فاء ، إلا إن اضطر إلى ذلك. وأما تقديره : إذا وقعت كان كيت وكيت ، فيدل على أن إذا عنده شرطية ، ولذلك قدر لها جوابا عاملا فيها. وأما قوله : بإضمار اذكر ، فإنه سلبها الظرفية ، وجعلها مفعولا بها منصوبة باذكر.

---

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر) ٦٤/٥

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٠

و﴿كاذبة﴾ : ظاهره أنه اسم فاعل من كذب ، وهو صفة لمحذوف ، فقدره الزمخشري : نفس كاذبة ، أي لا يكون حين تقع نفس تكذب على الله ، وتكذب في تكذيب الغيب ، لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة ، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذبات ، لقوله تعالى : ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا ءامنا بالله وحده﴾ ، ﴿لا يؤمنون بها حتى يروا العذاب الاليم﴾ ﴿ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة﴾ ، واللام مثلها في قوله : ﴿يقول ياليتنا قدمت لحياتى﴾ ، إذ ليس لها نفس تكذبها وتقول لها : لم تكذبي ، كما لها اليوم نفوس كثيرة يقلن لها : لم تكذبي ، أو هي من قولهم : كذبت فلانا نفسه في الخطب العظيم ، إذا شجعته على مباشرته ، وقالت له : إنك تطيقه وما فوقه ، فتعرض له ولا تبال على معنى : أنها وقعة لا تطاق بشدة وفظاعة ، وأن لا نفس حينئذ تحدث صاحبها بما تحدثه به عند عظائم الأمور ، وتزين له احتمالها وإطاقتها ، لأنهم يومئذ أضعف من ذلك وأذل. ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿كالفراش المبثوث﴾ ؟ والفراش مثل في الضعف. انتهى ، وهو تكثير وإسهاب. وقدره ابن عطية حال كاذبة ، قال : ويحتمل الكلام على هذا معنيين : أحدهما كاذبة ، أي مكذوب فيما أخبر به عنها ، فسماها كاذبة لهذا ، كما تقول : هذه قصة كاذبة ، أي مكذوب فيها. والثاني : حال كاذبة ، أي لا يمضي وقوعها ، كما تقول : فلان إذا حمل لم يكذب. وقال قتادة والحسن المعنى : ليس لها تكذيب ولا رد ولا منثوية ، فكاذبة على هذا مصدر ، كالعاقبة والعافية **وخائنة الأعين**. والجملة من قوله : ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ على ما قدره الزمخشري من أن إذا معمولة لليس يكون ابتداء السورة ، إلا إن اعتقد أنها جواب لإذا ، أو منصوبة باذكر ، فلا يكون ابتداء كلام. وقال ابن عطية : في موضع الحال ، والذي يظهر لي أنها جملة اعتراض بين الشرط وجوابه.

وقرأ الجمهور : ﴿خافضة رافعة﴾ برفعهما ، على تقدير هي ؛ وزيد بن علي والحسن وعيسى وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن مقسم والزعفراني

٢٠٣

واليزيدي في اختياره بنصبهما. قال ابن خالوية : قال الكسائي : لولا أن اليزيدي سبقني إليه لقرأت به ، ونصبهما على الحال. قال ابن عطية : بعد الحال التي هي ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ ، ولك أن تتابع الأحوال ، كما لك أن تتابع أخبار المبتدأ. والقراءة الأولى أشهر وأبدع معنى ، وذلك أن موقع الحال من الكلام موقع ما لو لم يذكر لاستغنى عنه ، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما يهتم به. انتهى. وهذا الذي قاله سبقه إليه أبو الفضل الرازي. قال في كتاب اللوامح : وذو الحال الواقعة والعامل وقعت ، ويجوز أن يكون ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ حال أخرى من الواقعة بتقدير : إذا وقعت صادقة الواقعة ، فهذه ثلاثة أحوال من ذي حال ، وجازت أحوال مختلفة عن واحد ، كما جازت عنه نعوت متضادة وأخبار كثيرة عن مبتدأ واحد. وإذا جعلت هذه كلها أحوالا ، كان العامل في ﴿إذا وقعت﴾ محذوفا يدل عليه الفحوى بتقدير يحاسبون ونحوه. انتهى. وتعداد الأحوال والأخبار فيه خلاف وتفصيل ذكر في النحو ، فليس ذلك مما أجمع عليه النحاة.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠٠

قال الجمهور : القيامة تنفظر له السماء والأرض والجبال ، وتنهد له هذه البنية برفع طائفة من الأجرام وبخفض أخرى ، فكأنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب. وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك : الصيحة تخفض قوتها لتسمع الأدنى ، وترفعها لتسمع الأقصى. وقال قتادة وعثمان بن عبد الله بن سراقة : القيامة تخفض أقواما إلى النار ، وترفع أقواما إلى الجنة ؛ وأخذ الزمخشري هذه الأقوال على عادته وكساها بعض ألفاظ رائعة ، فقال : ترفع أقواما وتضع آخرين ، أما وصفا لها بالشدة ، لأن الواقعات العظام كذلك يرتفع فيها ناس إلى مراتب ويتضع ناس ؛ وأما أن الأشقياء يحطون إلى الدركات ، والسعداء يحطون إلى الدرجات ؛ وأما أنها تزلزل الأشياء عن مقارها لتخفض بعضا وترفع بعضا ، حيث تسقط السماء كسفا ، وتنتثر الكواكب وتنكدر ، وتسير الجبال فتمر في الجو مر السحاب. انتهى.

". (١)

١٤٢-"" صفحة رقم ٨٨ "

من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم وهو تقرير لقوله) هم بارزون (وإزاحة لنحو ما يتوهم في الدنيا) لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به أو لما دل عليه ظاهر الحال فيه من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائما

غافر : (١٧) اليوم تجزى كل . . . . .

) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت (كأنه نتيجة لما سبق وتحقيقه أن النفوس تكتسب بالعقائد والأعمال هيئات توجب لذتها وألمها لكنها لا تشعر بها في الدنيا لعوائق تشغلها فإذا قامت قيامتها زالت العوائق وأدركت لذاتها وألمها) لا ظلم اليوم (ينقص الثواب وزيادة العقاب) إن الله سريع الحساب (إذ لا يشغله شأن عن شأن فيصل إليهم ما يستحقونه سريعا

غافر : (١٨) وأنذرهم يوم الآزفة . . . . .

) وأنذرهم يوم الآزفة (أي القيامة سميت بها لأزوفها أي قربها أو الخطة الآزفة وهي مشارفتهم النار وقيل الموت) إذ القلوب لدى الحناجر (فإنها ترتفع عن أماكنها فتلصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحوا ولا تخرج فيستريحوا) كاظمين (على الغم حال من أصحاب القلوب على المعنى لأنه على الإضافة أو منها أو من ضميرها في لدى وجمعه كذلك لأن الكظم من أفعال العقلاء كقوله) فظلت أعناقهم لها خاضعين (أو من مفعول) أنذرهم (على أنه حال مقدرة) ما للظالمين من حميم (قريب مشفق) ولا شفيع يطاع (ولا شفيع مشفع والضمائر إن كانت للكفار وهو الظاهر كان وضع الظالمين موضع ضميرهم للدلالة على اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم

غافر : (١٩) يعلم **خائنة الأعين** . . . . .

) يعلم **خائنة الأعين** (النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى غير المحرم واستراق النظر". (٢)

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر) ١٥٣/٨

(٢) تفسير البيضاوى ـ موافق للمطبوع ٨٨/٥

١٤٣-"" صفحة رقم ٨٩ "

إليه أو خيانة الأعين) وما تخفي الصدور (من الضمائر والجملة خبر خامس للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء

غافر : (٢٠) والله يقضي بالحق . . . . .

) والله يقضي بالحق (لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه) والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء (تهكم بهم لأن الجماد لا يقال فيه إنه يقضي أو لا يقضي وقرأ نافع وهشام بالتاء على الالتفات أو إضمار قل) إن الله هو السميع البصير (تقرير لعلمه ب) **خائنة الأعين** (وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما) يدعون من دونه)

غافر : (٢١) أولم يسيروا في . . . . .

) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم (مآل حال الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود) كانوا هم أشد منهم قوة (قدرة وتمكنا وإنما جيء بالفصل وحقه أن يقع بين معرفتين لمضارعة أفعل من للمعرفة في امتناع دخول اللام عليه وقرأ ابن عامر أشد منكم بالكاف) وآثارا في الأرض (مثل القلاع والمدائن الحصينة وقيل المعنى وأكثر آثارا كقوله متقلدا سيفا ورمحا) فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (يمنع العذاب عنهم

غافر : (٢٢) ذلك بأنهم كانت . . . . .

) ذلك (الأخذ) بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات (بالمعجزات أو الأحكام الواضحة) فكفروا فأخذهم الله إنه قوي (متمكن مما يريده غاية التمكن) شديد العقاب (لا يؤبه بعقاب دون عقابه

غافر : (٢٣) ولقد أرسلنا موسى . . . . .

) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا (يعني المعجزات) وسلطان مبين (وحجة قاهرة ظاهرة والعطف لتغاير الوصفين أو لإفراد بعض المعجزات كالعصا تفخيما لشأنه

غافر : (٢٤) إلى فرعون وهامان . . . . .

) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (يعنون موسى عليه الصلاة والسلام وفيه تسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وبيان لعاقبة من هو أشد الذين كانوا من قبلهم بطشا وأقربهم زمانا

غافر : (٢٥) فلما جاءهم بالحق . . . . .

) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم (أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولا كي يصدوا عن مظاهرة موسى عليه السلام) وما كيد الكافرين إلا في ضلال (في ضياع ووضع الظاهر فيه موضع الضمير لتعميم الحكم والدلالة على العلة". (١)

(١) تفسير البيضاوى . موافق للمطبوع ٨٩/٥

١٤٤-" سبحانه هو نفسه بقوله لله الواحد القهار ثم يعلم الله تعالى أهل الموقف بأن اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وباقي الآية تكرر معناه فانظره في موضعه ثم أمر الله تعالى نبيه عليه السلام بانذار العالم وتحذيرهم من يوم القيامة وأهواله والآزفة القريبة من أزف الشيء اذا قرب والآزفة في الآية صفة لمحذوف قد علم واستقر في النفوس هوله والتقدير يوم الساعة والآزفة أو الطامة الآزفة ونحو هذا وقوله سبحانه اذ القلوب لدى الحناجر معناه عند الحناجر أي قد صعدت من شدة الهول والجزع والكاظم الذي يرد غيظه وجزعه في صدره فمعنى الآية أنهم يطمعون في رد ما يجدونه في الحناجر والحال تغالبهم ويطاع في موضع الصفة لشفيع لأن التقدير ولا شفيع مطاع قال أبو حيان يطاع في موضع صفة لشفيع فيحتمل أن يكون في موضع خفض على اللفظ أو في موضع رفع على الموضع ثم يحتمل النفي أن يكون منسحبا على الوصف فقط فيكون ثم شفيع ولكنه لا يطاع ويحتمل أن ينسحب على الموصوف وصفته أي لا شفيع فيطاع انتهى وهذا الاحتمال الاخير هو الصواب قال ع وهذه الآية كلها عندي اعتراض في الكلام بليغ وقوله يعلم **خائنة الأعين** متصل بقوله سريع الحساب وقالت فرقة يعلم متصل بقوله لا يخفي على الله منهم شيء وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين ويضعفه بعد الآية من الآية وكثرة الحائل والخائنة مصدر كالخيانة ويحتمل أن تكون خائنة اسم فاعل أي يعلم الأعين اذا خانت في نظرها قال ابو حيان والظاهر أن **خائنة الأعين** من اضافة الصفة الى الموصوف أي الأعين الخائنة كقوله وان سقيت كرام الناس فاسقينا أي الناس الكرام وجوزوا أن يكون خائنة مصدرا كالعافية أي يعلم خيانة الأعين انتهى وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات فمن ذلك كسر الجفون والغمز بالعين أو النظرة التي تفهم معنى ". (١)

١٤٥-" ومنه قول النبي صلى الله عليه و سلم لأصحابه في شأن رجل ارتد ثم جاء ليسلم هلا قام اليه رجل منكم حين تلكأت عنه فضرب عنقه فقالوا يا رسول الله الا أومأت الينا فقال صلى الله عليه و سلم ما ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين** وفي بعض الكتب المنزلة من قول الله عز و جل أنا مرصاد الهمم انا العالم بمجال الفكر وكسر الجفون وقال مجاهد **خائنة الأعين** مسارقة النظر الى ما لا يجوز ثم قوى تعالى هذا الاخبار بقوله وما تخفي الصدور بما لم يظهر على عين ولا غيرها واسند أبو بكر بن الخطيب عن مولى أم معبد الخزاعية عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه كان يدعو اللهم طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء ولساني من الكذب وعيني من الخيانة فانك تعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور انتهى قال القشيري في التحبير ومن علم اطلاع الحق تعالى عليه يكون مراقبا لربه وعلامته أن يكون محاسبا لنفسه ومن لم تصح محاسبته لم تصح مراقبته وسئل بعضهم عما يستعين به العبد على حفظ البصر فقال يستعين عليه بعلمه ان نظر الله اليه سابق على نظره الى ما ينظر اليه انتهى وقوله سبحانه والله يقضي بالحق أي يجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثلها وينصف المظلوم من الظالم الى غير ذلك من أقضية الحق والعدل والأصنام لا تقضي بشيء ولا تنفذ أمرا ويدعون معناه يعبدون وقوله سبحانه أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق الضمير في يسيروا لكفار قريش والآثار في الارض هي المباني والمآثر

---

(١) تفسير الثعالبي ٤/٧٠

والصيت الدنيوي وذنوبهم كانت تكذيب الأنبياء والواقي الساتر المانع مأخوذ من الوقاية وباقي الآية بين وخص تعالى هامان وقارون بالذكر تنبيها على مكانهما من الكفر ولكونهما أشهر رجال فرعون وقيل أن قارون هذا ليس بقارون بني اسرائيل وقيل هو ذلك ولكنه كان ". (١)

١٤٦-" ١٩ - ﴿ يعلم ﴾ أي الله ﴿ **خائنة الأعين** ﴾ بمسارقتها النظر إلى محرم ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ القلوب ". (٢)

١٤٧-" صفحة رقم ٩١

تعالى في الدنيا ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة فهذه موتتان وحياتان وقيل أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في القبر للسؤال ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا للبعث في الآخرة وذلك أنهم عدوا أوقات البلاء والمحنة وهي أربعة الموتة الأولى ثم الحياة في القبر ثم الموتة الثانية فيه ثم الحياة للبعث فأما الحياة الأولى التي هي من الدنيا فلم يعدوها لأنها ليست من أقسام البلاء وقيل ذكر حياتين وهي حياة الدنيا وحياة القيامة وموتتين وهي الموتة الأولى في الدنيا ثم الموتة الثانية في القبر بعد حياة السؤال ولم يعدوا حياة السؤال لقصر مدتها) فاعترفنا بذنوبنا (يعني إنكارهم البعث بعد الموت فلما شاهدوا البعث اعترفوا بذنوبهم ثم سألوا الرجعة بقولهم) فهل إلى خروج (يعني من النار) من سبيل (والمعنى فهلا إلى رجوع إلى الدنيا من سبيل لنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط من الخروج وإنما قالوا ذلك تعللا وتحيرا والمعنى فلا خروج ولا سبيل إليه ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله تعالى : (ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم (معناه فأجيبوا أن لا سبيل إلى الخروج وهذا العذاب والخلود في النار بأنكم إذا دعي الله وحده كفرتم يعني إذا قيل لا إله إلا الله أنكرتم ذلك) وإن يشرك به (أي غيره) تؤمنوا (أي تصدقوا ذلك الشرك) فالحكم لله العلي (أي الذي لا أعلى منه) الكبير (أي الذي لا أكبر منه.

(

غافر : (١٣ - ١٩) هو الذي يريكم...

" هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور " (قوله عز وجل : (هو الذي يريكم آياته (أي عجائب مصنوعاته التي تدل على كمال قدرته) وينزل لكم من السماء رزقا (يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق) وما يتذكر (أي يتعظ بهذه الآيات) إلا من ينيب (أي يرجع إلى الله تعالى

---

(١) تفسير الثعالبي ٧١/٤

(٢) تفسير الجلالين ص/٦٢٠

في جميع أموره) فادعوا الله مخلصين له الدين (أي الطاعة والعبادة) ولو كره الكافرون (.
قوله تعالى : (رفيع الدرجات (أي رافع درجات الأنبياء والأولياء والعلماء في الجنة وقيل معناه المرتفع أي إنه سبحانه وتعالى هو المرتفع بعظمته في صفات جلاله وكماله ووحدانيته المستغني عن كل ما سواه وكل الخلق فقراء إليه) ذو العرش (أي خالقه ومالكه ، والفائدة في تخصيص العرش بالذكر لأنه أعظم الأجسام والمقصود بيان كمال التنبيه على كمال القدرة فكل ما كان أعظم كانت دلالته على كمال القدرة أقوى) يلقي الروح (يعني ينزل الوحي سماه روحا لأن به تحيا الأرواح كما تحيا الأبدان بالأرواح) من أمره (قال ابن عباس : من قضائه وقيل بأمره وقيل من قوله) على من يشاء من عباده (يعني الأنبياء) لينذر يوم التلاق (يعني لينذر النبي (صلى الله عليه وسلم) بالوحي يوم التلاق وهو يوم القيامة لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ، وقيل يلتقي الخلق والخالق وقيل يلتقي العابدون والمعبودون وقيل يلتقي المرء مع عمله وقيل يلتقي الظالم والمظلوم) يوم هم بارزون (أي خارجون من قبورهم ظاهرون لا يسترهم". (١)

١٤٨-"المسألة الرابعة : في بيان نظم الآية ، فنقول إنه تعالى ذكر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف فأولها : أنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة ، أي يوم القرب من عذابه لمن ابتلي بالذنب العظيم ، لأنه إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف ، حتى قيل إن تلك الغموم والهموم أعظم في الإيحاش من عين تلك العقوبة والثاني : قوله ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ والمعنى أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة والتصق بها وصار مانعا من دخول النفس والثالث : قوله ﴿كاظمين ﴾ والمعنى أنه لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف ، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب الرابع : قوله ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ فبين أنه ليس لهم قريب ينفعهم ، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته والخامس : قوله ﴿يعلم خآائنة الاعين وما تخفى الصدور﴾ والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدا جدا ، قال صاحب "الكشاف" : الخائنة صفة النظرة أو مصدر بمعنى الخائنة ، كالعافية المعاناة ، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحلة كما يفعل أهل الريب ، والمراد بقوله ﴿وما تخفى الصدور﴾ مضمرات القلوب ، والحاصل أن الأفعال قسمان : أفعال الجوارح وأفعال القلوب ، أما أفعال الجوارح ، فأخفاها **خائنة الأعين** والله أعلم بها ، فكيف الحال في سائر الأعمال. وأما أفعال القلوب ، فهي معلومة لله تعالى لقوله ﴿وما تخفى الصدور﴾ فدل هذا على كونه تعالى عالما بجميع أفعالهم السادس : قوله تعالى : ﴿والله يقضى بالحق ﴾ وهذا أيضا يوجب عظم الخوف ، لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوالل ، وثبت منه أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل ، كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى السابع : أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام ، وقد بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها ألبتة ، فقال : ﴿والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ﴾ الثامن : قوله ﴿إن الله هو السميع البصير﴾
جزء : ٢٧ رقم الصفحة : ٥١٠

---

(١) تفسير الخازن . موافق للمطبوع ٦/٩١

أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ، ولا يسمع منهم ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم ، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله ، فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت في حق المذنب الذي عظم ذنبه كان بالغا في التخويف إلى الحد الذي لا تعقل الزيادة عليه ، ثم إنه تعالى لما بالغ في تخويف الكفار بعذاب الآخرة أردفع ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال : ﴿أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ والمعنى أن العاقل من اعتبر بغيره ، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار ، وأقوى آثارا في الأرض منهم ، والمراد حصونهم وقصورهم وعساكرهم ، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله بضروب الهلاك معجلا حتى إن هؤلاء الحالضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار ، فحذرهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول ، وبين بقوله ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ أنه لما نزل العذاب بهم عند أخذه تعالى لهم لم يجدوا من يعينهم ويخلصهم ، ثم بين أن ذلك نزل بهم لأجل أنهم كفروا وكذبوا الرسل ، فحذر قوم الرسوم من مثله ، وختم الكلام بـ ﴿إنه قوى شديد العقاب﴾ مبالغة في التحذير والتخويف ، والله أعلم.

وقرأ ابن عامر وحده ﴿كانوا هم أشد منهم﴾ بالكاف ، والباقون بالهاء أما وجه قراءة ابن عامر فهو انصراف من الغيبة إلى الخطاب ، كقوله ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ بعد قوله والوجه في حسن هذا الخطاب أنه في شأن أهل مكة ، فجعل الخطاب على لفظ المخاطب الحاضر لحضورهم ، وهذه الآية في المعنى كقوله ﴿قرن مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم﴾ (الأنعام : ٦) وأما قراءة الباقين على لفظ الغيبة فلأجل موافقة ما قبله من ألفاظ الغيبة.

جزء : ٢٧ رقم الصفحة : ٥١٠

٥١٢

واعلم أنه تعالى لما سلى رسوله بذكر الكفار الذين كذبوا الأنبياء قبله وبمشاهدة آثارهم ، سلاه أيضا بذكر موسى عليه السلام ، وأنه مع قوة معجزاته بعثه إلى فرعون وهامان وقارون فكذبوا وكابروه ، وقالوا هو ساحر كذاب.

". (١)

١٤٩-"وأجابوا عن الكلام الثاني بأن قالوا الأصل في حرف التريف أن ينصرف إلى المعهود السابق فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق انصرف إليه وقد حصل في هذه الآية معهود سابق وهم الكفار الذين يجادلون في آيات الله فوجب أن ينصرف إليه وأجابوا عن الكلام الثالث بأن قالوا قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يحتمل عموم السلب ويحتمل سلب العموم أما الأول فعلى تقدير أن يكون المعنى أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع وأما الثاني فعلى تقدير أن يكون المعنى أن مجموع الطالمين ليس لهم حميم ولا شفيع ولا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع والذي يؤكد ما ذكرناه قوله تعالى الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (البقرة ٦) فقوله إن الذين كفروا لا يؤمنون إن حملناه على أن كل واحد منهم محكوم عليه بأنه لا يؤمن لزم وقوع الخلف في كلام الله لأن كثيرا ممن كفر فقد آمن بعد ذلك أما لو حملناه على أن مجموع الذين

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع ص/٣٨٩٧

كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أو لم يؤمن صدق وتخلص عن الخلف فلا جرم حملنا هذه الآية على سلب العموم ولم نحملها على عموم السلب فكذا قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يجب حمله على سلب العموم لا على عموم السلب وحينئذ استدلال المعتزلة بهذه الآية فهذا غاية الكلام في هذا الباب

المسألة الرابعة في بيان نظم الآية فنقول إنه تعالى ذكر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف فأولها أنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة أي يوم القرب من عذابه لمن ابتلي بالذنب العظيم لأنه إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف حتى قيل إن تلك الغموم والهموم أعظم في الإيحاش من عين تلك العقوبة والثاني قوله إذ القلوب لدى الحناجر والمعنى أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة والتصق بها وصار مانعا من دخول النفس والثالث قوله كاظمين والمعنى أنه لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب الرابع قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع فبين أنه ليس لهم قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته والخامس قوله يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدا جدا قال صاحب (الكشاف) الخائنة صفة النظرة أو مصدر بمعنى الخائنة كالعافية المعاناة والمراد استراق النظر إلى ما لا يحلة كما يفعل أهل الريب والمراد بقوله وما تخفى الصدور مضمرات القلوب والحاصل أن الأفعال قسمان أفعال الجوارح وأفعال القلوب أما أفعال الجوارح فأخفاها **خائنة الأعين** والله أعلم بها فكيف الحال في سائر الأعمال وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله وما تخفى الصدور فدل هذا على كونه تعالى عالما بجميع أفعالهم السادس قوله تعالى والله يقضى بالحق وهذا أيضا يوجب عظم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوالل وثبت منه أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى السابع أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام وقد بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها ألبتة فقال والذين يدعون من دونه لا يقضون بشى ء الثامن قوله إن الله هو السميع البصير أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ولا يسمع منهم ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم ولا يبصر خضوعهم". (١)

١٥٠-"وقد عرض لي إشكال على ما قاله الفقهاء بهذه الآية وذلك أن الشرط الثاني ههنا لا يمكن تقدمه في الوجود بالنسبة إلى الحكم بالنبي صلى الله عليه وسلم لا أنه لا يمكن عقلا ، وذلك أن المفسرين فسروا قوله تعالى : ﴿إن أراد﴾ بمعنى قبل الهبة لأن بالقبول منه صلى الله عليه وسلم يتم نكاحه وهذا لا يتصور تقدمه على الهبة ؛ إذ القبول متأخر ، فإن العصمة كانت في تأخر إرادته عن هبتها ، ولما جاء أبو حيان إلى هنا جعل الشرط الثاني مقدما على الأول على القاعدة العامة ، ولم يستشكل شيئا مما ذكر. قال ذلك البعض. وقد عرضت هذا الإشكال على جماعة من أعيان زماننا فاعترفوا به ولم يظهر عنه جواب إلا ما قدمته من أنه ثم قرينة مانعة من ذلك كما مثلته آنفا.

٣٢٥

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع ٢٧/٤٦

ولما كان ربما فهم أن غير النبي صلى الله عليه وسلم يشاركه في هذا المعنى قال الله منبها للخصوصية : ﴿خالصة لك﴾ وزاد المعنى بيانا بقوله تعالى : ﴿من دون المؤمنين﴾ أي : من الأنبياء وغيرهم.

تنبيهات : الأول في إعراب خالصة وفيه أوجه : أحدها : أنه منصوب على الحال من فاعل وهبت أي : حالة كونها خالصة لك دون غيرك. ثانيها : أنه نعت مصدر مقدر أي : هبة خالصة فنصبه بوهبت. ثالثها : أنه حال من امرأة ؛ لأنها وصفت فتخصصت ، وهو بمعنى الأول ، وإليه ذهب الزجاج ، وقيل غير ذلك. والمعنى : أنا أحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٢١

التنبيه الثاني : في انعقاد النكاح بلفظ الهبة في حق الأمة وفيه خلاف : فقال سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء : لا ينعقد إلا بلفظ الإنكاح أو التزويج ، وبه قال مالك وربيعة والشافعي. ومعنى الآية : أن إباحة الوطء بالهبة وحصول التزويج بلفظها من خواصه صلى الله عليه وسلم وقال النخعي وأبو حنيفة وأهل الكوفة : ينعقد بلفظ الهبة والتمليك. وأن معنى الآية : أن تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة من أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك أبدا بالتزويج ، وأجيب : بأن هذا التخصيص بالواهبة لا فائدة فيه ، فإن أزواجه صلى الله عليه وسلم كلهن خالصات له ، وما مر فللتخصيص فائدة.

التنبيه الثالث : في التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم هل كانت عنده امرأة منهن ؟

فقال عبد الله بن عباس ومجاهد : لم يكن عند النبي صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها منه ، ولم يكن عنده امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين وقوله تعالى ﴿وهبت نفسها﴾ على طريق الشرط والجزاء ، وقال غيرهما : بل كانت موهوبة وهو ظاهر الآية ، واختلفوا فيها : فقال الشعبي : هي زينب بنت خزيمة الهلالية يقال لها : أم لمساكين ، وقال قتادة : هي ميمونة بنت الحارث ، وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل : هي أم شريك بنت جابر من بني أسد ، وقال عروة بن الزبير : هي خولة بنت حكيم من بني سليم.

التنبيه الرابع : في ذكر شيء من خصائصه صلى الله عليه وسلم وقد ذكرت منها أشياء كثيرة ينشرح الصدر بها في شرح التنبيه فلا أطيل بذكرها هنا ، ولكن أذكر منها طرفا يسيرا تبركا ببركة صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام ، فإن ذكرها مستحب. قال النووي في روضته : ولا يبعد القول بوجوبها لئلا يرى الجاهل بعض الخصائص في الخبر الصحيح فيعمل به أخذا بأصل التأسي ، فوجب بيانها لتعرف وهي أربعة أنواع :

أحدها الواجبات وهي أشياء كثيرة : منها الضحى ، والوتر ، والأضحية ، وفي الحديث ما يدل على أن الواجب أقل الضحى ، وقياسه أن الوتر كذلك. ومنها السواك لكل صلاة ، والمشاورة لذوي الأحلام في الأمر ، وتخيير نسائه بين مفارقته طلبا للدنيا واختياره طلبا للآخرة ، ولا يشترط الجواب له منهن فورا ، فلو اختارته واحدة لم يحرم عليه طلاقها أو كرهته توقفت الفرقة على الطلاق ، وليس قولها : اخترت نفسي بطلاق كما مرت الإشارة إليه ، وله تزوجها بعد الفراق.

النوع الثاني : المحرمات : وهي أشياء كثيرة منها الزكاة والصدقة وتعلم الخط والشعر ومد العين إلى متاع الدنيا. **وخائنة الأعين** وهي : الإيماء بما يظهر خلافه دون الخديعة في الحرب ، وإمساك من كرهت نكاحه. ومنها نكاح كتابية لا للتسري بها كما

مر ، ولا يحرم عليه أكل الثوم ونحوه ولا الأكل متكئا.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٢١

النوع الثالث : التخفيفات والمباحات : وهي كثيرة جدا منها : تزويج من شاء من النساء لمن شاء ولو لنفسه بغير إذن من المرأة ووليها متوليا للطرفين ، وزوجه الله تعالى ، وأبيح له الوصال

٣٢٦

ونصفي المغنم. ويحكم ويشهد لولده ولو لنفسه ، وأبيح له نكاح تسع ، وقد تزوج صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ومات عن تسع ، قال الأئمة : وكثرة الزوجات في حقه صلى الله عليه وسلم للتوسعة في تبليغ الأحكام عنه الواقعة سرا مما لا يطلع عليه الرجال ، ونقل محاسنه الباطنة فإنه صلى الله عليه وسلم تكمل له الظاهر والباطن ، وحرم عليه الزيادة عليهن ، ثم نسخ وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.". (١)

١٥١-"تنبيه : الآزفة : نعت لمحذوف مؤنث كيوم القيامة الآزفة أو يوم المجازاة الآزفة ، قال القفال : وأسماء القيامة تجري على التأنيث كالطامة والحاقة لأنها مرجع معناها على الداهية ، ويوم القيامة له أسماء كثيرة تدل على أهواله باعتبار مواقفه وأحواله ، منها يوم البعث وهو ظاهر ومنها يوم التلاق لما مر ومنها يوم التغابن لغبن أكثر من فيه وخسرانه ، وقيل : المراد بيوم الآزفة مشارفتهم دخول النار فإن عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف ، وقال أبو مسلم : هو يوم حضور الأجل فإن يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب.

ولما ذكر تعالى اليوم هول أمره بما يحصل فيه من المشاق بقوله تعالى : ﴿إذ القلوب﴾ أي : من كل من حضره ترتفع ﴿لدى﴾ أي : عند ﴿الحناجر﴾ أي : حناجر المجموعين فيه وهو جمع حنجور وهو الحلقوم يعني أنها زالت عن أماكنها صاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج.

ثم أسند إليها ما يسند للعقلاء فقال تعالى : ﴿كاظمين﴾ أي : ممتلئين خوفا ورعبا وحزنا مكروبين فقد استدت مجاري أنفاسهم وأخذ بجميع إحساسهم.

ولما كان من المعهود أن الصداقات تنفع في مثل ذلك والشفاعات قال تعالى مستأنفا : ﴿ما للظالمين﴾ أي : العريقين في الظلم ﴿من حميم﴾ أي : قريب صادق في مودتهم مهتم بأمورهم مزيل لكروبهم ﴿ولا شفيع يطاع﴾ فيشفع لهم.

٥٧٠

تنبيه : احتج المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة عن المذنبين ، فقالوا : نفي حصول شفيع لهم يطاع يوجب أن لا يحصل لهم هذا الشفيع وأجيبوا بوجوه ؛ أولها : أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لا يدل على نفي الشفيع كقولك ما عندي كتاب يباع ، لا يقتضي نفي الكتاب فهذا ينفي أن لهم شفيعا يطيعه الله تعالى ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ثانيها : أن المراد بالظالمين في هذه الآية ههنا الكفار لأنها وردت في زجر الكفار قال تعالى : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان

(١) تفسير السراج المنير . موافق للمطبوع ٣/٢٢٠

: ١٣) ، ثالثها : أن لفظ الظالمين إما أن يفيد الاستغراق أو لا ، فإن كان المراد : جميعهم فيدخل فيه الكفار ، وعندنا أنه ليس لهذا الجمع شفيعا لأن بعضه كفار وليس لهم شفيع ، فحينئذ لا يكون لهذا الجمع شفيع ، وإن لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٥٦٩

ولما أمر الله تعالى بإنذار يوم الآزفة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا يشفع له ، ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا فقال تعالى :

﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ أي : خيانتها التي هي أخفى ما يقع من أفعال الظاهر ، جعل الخيانة مبالغة في الوصف وهو الإشارة بالعين ، قال أبو حيان : من كسر عين وغمز ونظر يفهم المراد.

ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر أتبعه أخفى أفعال الباطن فقال تعالى : ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي : القلوب فعلم من ذلك أن الله تعالى عالم بجميع أفعالهم لأن الأفعال على قسمين أفعال الجوارح وأفعال القلوب ، فأما أفعال الجوارح فأخفاها خيانة الأعين والله تعالى عالم بها فكيف الحال في سائر الأعمال ، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله عز وجل : ﴿وما تخفي الصدور﴾ (غافر : ١٩)

وقوله تعالى :

﴿والله﴾ أي : المتصف بجميع صفات الكمال ﴿يقضي بالحق﴾ أي : الثابت الذي لا ينتفي يوجب عظيم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى. ولما عول الكفار في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة فقال تعالى : ﴿والذين يدعون﴾ أي : يعبدون ﴿من دونه﴾ وهم الأصنام ﴿لا يقضون﴾ لهم ﴿بشيء﴾ من الأشياء أصلا فكيف يكونون شركاء لله تعالى ، وقرأ نافع وهشام تدعون بتاء الخطاب للمشركين والباقون بياء الغيبة إخبارا عنهم بذلك.

ولما أخبر تعالى أنه لا فعل لشركائهم وأن الأمر له وحده قال تعالى مؤكدا لأجل أن أفعالهم تقتضي إنكار ذلك ﴿إن الله﴾ أي : المنفرد بصفات الكمال ﴿هو﴾ أي : وحده ﴿السميع﴾ أي : لجميع أقوالهم ﴿البصير﴾ أي : بجميع أفعالهم ، ففي ذلك تقرير لعلمه تعالى **بخائنة الأعين** وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه ، فثبت أن الأمر له وحده فما تنفعهم شفاعة الشافعين ولا تقبل فيهم من أحد شفاعة بعد الشفاعة العامة التي هي خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهي المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ، فإن كان أحد يحجم عنها حتى يصل الأمر إليه صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها أنا لها ، ثم يذهب إلى المكان الذي أذن له فيه فيشفع فيشفعه الله تعالى ، فيفصل سبحانه وتعالى بين الخلائق ليذهب كل أحد إلى داره جنته أو ناره.

ولما أوعدهم سبحانه بصادق الأخبار عن قوم نوح ومن تبعهم من الكفار وختمه بالإنذار بما يقع في دار القرار للظالمين الأشرار أتبعه الوعظ والتخويف بالمشاهدة ممن تتبع الديار ، والاعتبار

٥٧١". (١)

١٥٢-"﴿ ١٨٦ ﴾ ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ .

هذا جواب سؤال، سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ لأنه تعالى، الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضا من داعيه، بالإجابة، ولهذا قال: ﴿ أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به، الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره، سبب لحصول العلم كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ .". (٢)

١٥٣-"﴿ ١٨ - ٢٠ ﴾ ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور * والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها، ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروع والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم. ﴿ كاظمين ﴾ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا وكاظمين على ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿ ما للظالمين من حميم ﴾ أي: قريب ولا صاحب، ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها.

﴿ يعلم **خائنة الأعين** ﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿ والله يقضي بالحق ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علما وكتابة وحفظا بجميع

---

(١) تفسير السراج المنير ـ موافق للمطبوع ٣/٣٨١

(٢) تفسير السعدي ص/٨٧

الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئا كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.

﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله. ﴿ إن الله هو السميع ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿ البصير ﴾ (١) بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترغيب والترهيب.

---

(١) في النسختين (العليم) وهو خطأ فالوارد في الآية: (البصير).". [1]

١٥٤-"﴿ لا تأخذه سنة ﴾ أي: نعاس ﴿ ولا نوم ﴾ ؛ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض فكلهم عبيد لله مماليك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿ إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا ﴾ فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف، والسلطان، والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا ﴿ يشفع عنده ﴾ أحد ﴿ إلا بإذنه ﴾ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم. ﴿ قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ﴾ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضي إلا توحيده، واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعة نصيب.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور المستقبلة، التي لا نهاية لها ﴿ وما خلفهم ﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴾

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿ إلا بما شاء ﴾ منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدا مضمحل في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به، وهم الرسل والملائكة: ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه، وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التي جعلها الله في المخلوقات.

ومع ذلك ف ﴿ لا يئوده ﴾ أي: يثقله حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة حكمته في أحكامه.

﴿ وهو العلي ﴾ بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له

---

(١) تفسير السعدي ص/٧٣٥

الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب.

﴿ العظيم ﴾ الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبرا متفهما، أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظا بذلك من شرور الشيطان.

﴿٢٥٦﴾ ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعناده.

فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله، ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين.

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض مع البر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي.

فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة فقوله ضعيف، لفظا ومعنى، كما هو واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة، كما نبهنا عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك له، وكفر بالطاغوت– وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره–، فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح، حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته.

ويؤخذ القسم الثاني من مفهوم الآية، أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وآمن بالطاغوت، فإنه هالك هلاكا أبديا، ومعذب عذابا سرمديا.

وقوله: ﴿ والله سميع ﴾ أي: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين، وخضوع المتضرعين.

﴿ عليم ﴾ بما أكنته الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه، من نياته وعمله.

﴿٢٥٧﴾ ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة.

فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا إيمانهم، بالقيام بواجبات الإيمان، وترك كل ما ينافيه، أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، وييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى.

وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولاهم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكلهم إلى رعاية من تولاهم، ممن ليس عنده نفع ولا ضر، فأضلوهم وأشقوهم، وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح وحرموهم السعادة، وصارت النار مثواهم، خالدين فيها مخلدين.

اللهم تولنا فيمن توليت.

﴿٢٥٨﴾ ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين، ما به تتبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد.". (١)

"-١٥٥

و ﴿ ودوا ﴾ ضميرها يعود على المنافقين الذين اختلف فيهم المسلمون إلى فئتين، وحكم الله في صالح الفئة التي أرادت أن تقف منهم موقف القوة والبطش والجبروت، فقال سبحانه وتعالى تعليلا لنفاقهم: ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا ﴾ ثم إن تفاقهم معناه قلق يصيبهم من مستوى حالهم مع مستقبل الإسلام أو حاضره؛ لأنهم كافرون بقلوبهم، ولكنهم يخافون أن يظهر الإسلام فيعاملهم معاملة الكافرين به، فيحاولون أن يظهروا أنهم مسلمون ليحتاطوا لنصرة الإسلام وذيوعه، فهم في كرب وتعب، وهذا التعب يجعلهم يديرون كثيرا من الأفكار في رءوسهم: يقولون نعلن أمام المسلمين أننا مسلمون، ونعلن أمام الكافرين أننا كافرون.

وما الذي ألجأهم إلى هذا الحال، وقد كانوا قديما على وتيرة واحدة، ألسنتهم مع قلوبهم قبل أن يجيء الإسلام؟ إذن فالذي يعيدهم إلى حالة الاستقرار النفسي وينزعهم من القلق والاضطراب والخوف على حاضرهم ومستقبلهم هو أن تنتهي قضية الإسلام، فلا يكون هناك مسلمون وكافرون ومنافقون. بل يصير الكل كافرا.

﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا ﴾ والودادة عمل القلب، وعمل القلب تخضع له جميع الجوارح إن قدرت، فما داموا يودون أن يكون المسلمون كافرين، إذن سيقفون في سبيل انتصار المسلمين، وسيضعون العقبات التي تحقق مطلوبات قلوبهم. لذلك فاحذروهم، سأفضح لكم أمرهم لتكونوا على بينة من كل تصرفاتهم وخائنات أعينهم وخائنات ألسنتهم.

﴿ ودوا لو تكفرون ﴾ ونعرف أن كلمة " الكفر " تعني " الستر " ، فالفعل "كفر " معناه " ستر ". ومن عظمة الإيمان بالإسلام وعظمة الحق في ذاته هو أنه لا يمكن أبدا أن يطمسه خصومه، فاللفظ الذي جاء ليحدد المضاد لله هو عينه دليل على الإيمان بالله. فعندما نقول: "كفر بالله " أي " ستر وجوده " ، كأنه قبل أن يستر الوجود فالوجود موجود، ولذلك نجد أن لفظ " الكفر " نفسه دليل على الإيمان، فلفظ " الكفر " في ذاته تعني إيمانا موجودا يجاهد صاحبه نفسه أن يغطيه ويستره.

---

(١) تفسير السعدي ص/٩٥٤

﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا ﴾. وهذا القول جاء بعد أن قال الحق:﴿ فما لكم في المنافقين فئتين ﴾[النساء: ٨٨].

ويدل على أنهم يوصفون مرة بالمنافقين ويوصفون مرة بالكافرين. وسماهم الله في آية بـ " المنافقين " ويصفهم الحق في هذه الآية بأنهم كفروا ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا ﴾ والكفر الذي يجيء وصفه هنا يدل على مكنون القلب، فالنفاق لم يعطهم إلا ظاهريات الإسلام، لكن الباطنيات لم يأخذوها، ولذلك سيكونون في الدرك الأسفل من النار في الآخرة؛ وإن كانوا في الدنيا يعاملون معاملة المسلمين احتراما لكلمة " لا إله إلا الله محمد رسول الله ".

لكن الله يعاملهم في الآخرة معاملة الكافرين، ويزيد عليها أنهم في الدرك الأسفل من النار.

إذن فأصحاب الباطل إن كانت لهم قوة يجعلون لسانهم مع قلوبهم في الجهر بالباطل، وإن كان عندهم ضعف يجعلون قلوبهم للباطل ولسانهم للحق. وهذه العملية ليست مريحة في كلا الموقعين. فالمريح لهم ألا توجد للحق طائفة. لذلك يقول سبحانه وصفا لحقيقة مشاعرهم: ﴾ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سوآء ﴿. فهم يتمنون إزالة طائفة الحق حتى لا يكون هناك أحد أفضل من أحد، مثلما نقول: مفيش حد أحسن من حد.

مثال ذلك: نجد مجموعة من الموظفين في مصلحة حكومية، ويكون في بينهم واحد مختلس أو لا يؤدي عمله على الشكل الراقي المطلوب، لذلك فهو لا يحب أن يؤدي الآخرون أعمالهم بمنتهى الإتقان، ويريدهم فاسدين، ويحاول أن يغريهم بالفساد حتى يكونوا مثله؛ كي لا يظهره أمام نفسه بمظهر النقيصة. وحتى لا يكون مكسور العين أمامهم.

ومن العجيب أننا نجد الذي يسرق يحترم الأمين، وكثيرا ما نسمع عن لص من فور ما يعلم أن هناك كمينا ينتظره ليقبض عليه فهو يبحث عن رجل أمين يضع عنده المسروقات كأمانة.

وقول الحق عن أمنية المنافقين الكافرين بقلوبهم هو أن يكون المؤمنون مثلهم ﴾ فتكونون سوآء ﴿. وهذه شهادة في أن صاحب الباطل يحب من صاحب الحق أن يكون معه؛ لأنه حين يجده في الحق، فصاحب الباطل يحتقر نفسه، وقد حدثت العجائب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كفروا به وعذبوا صحابته، ولكنه هو الأمين باعترافهم جميعا. فها هوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يهاجر من مكة وخلف " عليا "كرم الله وجهه ليرد الودائع والأمانات التي عنده.

هم كذبوه في الرسالة، ولكنه الأمين باعترافهم جميعا؛ لذلك أودعوا عنده الأمانات. إذن فصاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة. وحتى نتعرف تماما على هذا المعنى، فلنفترض أن إنسانا وقع في مشكلة، سب أحدا من الناس ورفع المعتدي عليه دعوى قضائية على هذا المعتدي الذي سبه، ولهذا المعتدي صديق عزيز، استشهد به المعتدي عليه، فيقول المعتدي: أتشهد علي؟ ويذهب الصديق إلى المحكمة ليقول: " لا يقول صديقي مثل هذا السباب ". وهنا شهد الصديق لصديقه شهادة زور. ولنفترض أن هذا المعتدي قد تاب وأناب وصار من الأتقياء، وجعله الناس حكما بينهم، وجاء له الصديق الذي شهد الزور من أجله ليشهد أمامه، فهل يقبل شهادته؟ طبعا لا.

إذن صاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة، فإذا ما حاول أحد من أصحاب الرذيلة أن يشد صاحب الفضيلة إلى خطأ، فهو يسعى إلى إضلاله، وينطبق على ذلك قول الحق: ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سوآء ﴾ وما دام هذا هو هدفهم وفكرتهم ألا يتركوا المؤمنين على إيمانهم، لأجل أن يأخذوهم إلى صف الكفر.

وهم بذلك كمنافقين كفار قلوب غير مخلصين لصف الإيمان. وهم لا يقفون من الإيمان موقف الحياد، ولكنهم يقفون منه موقف العناد والعداوة. ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سوآء ﴾ وفي هذا تحذير واضح للمؤمنين هو: إياكم أن تأمنوهم على شيء يتعلق بمصالحكم وإيمانكم.

ويصدر الحق الحكم في هذه القضية بمنتهى الوضوح: ﴿ فلا تتخذوا منهم أوليآء ﴾ أي إياكم أن تتخذوا من المنافقين نصراء لكم أو أهل مشورة؛ لأن الله سبحانه فضح لكم دخائل نفوسهم، وهذه المسألة ليست ضربة لازب، فإن آب الواحد منهم وأناب ورجع إلى حظيرة الإيمان فلن يرده الله، فسبحانه وتعالى لا يضطهد أحدا لمجرد أنه ارتكب الذنب؛ لأنه الحق غفور ورحيم، فما دام قد عاد الإنسان إلى الصواب وبعد عن الخطأ، فعلى المؤمنين أن يقبلوا من يعود إليهم بإخلاص، فالكراهية لا تنعقد ضد أحد لأنه أخطأ؛ لأن الكراهية تكون للعمل الخطأ، وليست موجهة ضد الإنسان المخلوق لله، فإن أقلعوا عن الخطأ؛ فهم مقبولون من المؤمنين.

وها هوذا قاتل زيد بن الخطاب يمر أمام عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وقال له بعض الناس ها هوذا قاتل أخيك زيد. فيقول عمر بن الخطاب: وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام؟!

وهكذا نرى أن الكراهية لم تتعد إلى ذات القاتل، ولكن الكره يكون للفعل، فإن أقلعت الذات عن الفعل فالذات لها مكانتها. وهكذا يصدر الحكم الرباني: ﴿ فلا تتخذوا منهم أوليآء حتىا يهاجروا في سبيل الله ﴾.

والهجرة في سبيل الله كانت تكلف الإنسان أن يخرج من ماله ومن وطنه ومن أهله، ويذهب إلى حياة التقشف والتعب والمشقة، وفي هذا ما يكفر عنه، ويتعرف المؤمنون هنا أنه قد تاب إلى الله فتاب الله عليه وآن له الأوان أن يدخل في حوزة الإيمان. فإن فعل ذلك فقد عاد إلى الإيمان. ولذلك يجب على الناس أن يفصلوا الذوات عن الأفعال. لماذا؟ لأن الذوات في ذاتها لا تستحق أن تكره، وإنما يكره فعل الذات إن كان قبيحا سيئا.

وحين نقرأ القرآن نجده يعرض مثل هذه المسألة، فسيدنا نوح عليه السلام عندما تلقى وحي الله بأن يصنع السفينة، وجلس يصنعها ويمر عليه الناس فيسخرون منه فيقول لهم سيدنا نوح: سنسخر منكم غدا كما تسخرون منا. ويأتي له ابن ليس على منهجه، فيدعوه نوح إلى المنهج فيقول الابن: " لا ". ويركب نوح السفينة ويقول لله: لقد وعدتني أن تنجيني أنا وأهلي.

وهنا يوضح الحق: صحيح أنا أنجيك أنت وأهلك، ولكن ما الذي جعلك تعتبر ابنك من أهلك، إن الذوات عند الأنبياء لا نسب لها، إنما نسب الأنبياء الأعمال:﴿ إنه عمل غير صالح ﴾[هود: ٤٦].

إن العمل هو الذي يتم تقييمه. ولذلك يقول الحق: ﴾ فلا تتخذوا منهم أوليآء حتا يهاجروا في سبيل الله ﴿ والهجرة من " هجر " ، و " هجر " يعني أن الإنسان قد عدل من مكان إلى مكان، أو عن ود إلى ود، أو عن خصلة إلى خصلة، والذي يهجر عادة يتجنى على من " هجر " ، لنلاحظ أن الله سبحانه وتعالى في كتابه عندما يأتي بالحدث. يأتي بـ " هاجر " ، ولم يأت بالحادث " هجر " ، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة. ولكنه هاجر منها، ويقول صلى الله عليه وسلم:

" والله إنك لأحب أرض الله إلي وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت ".

فالهجرة جاءت؛ لأن أهل مكة هجروه أولا، فاضطر أن يهاجر. و " هاجر " على وزن " فاعل ". والمتنبي يقول:إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هموولذلك جاء الحق بالهجرة على صيغة المفاعلة. لقد كرهوا دعوته. واستجاب الرسول للكراهية فهاجر.

ويوضح سبحانه أن الذي يخلص هؤلاء المنافقين من حكمنا عليهم، ألا يتخذ المؤمنون منهم أولياء هو: أن يهاجروا في سبيل الله؛ لأن ذلك هو حيثية صدق الإيمان. فالمهاجر يحيا عيشة صعبة. وقد عاش المهاجرون على فيض الله من خير الأنصار، ولم يؤسسوا حياتهم بشكل لائق. إذن فمن ينضم إلى ذلك الموكب هو مؤمن اشترى الإيمان وقدر على أن يكفر عما بدر منه. فليست الهجرة مجرد هجرة، ولكنها هجرة في سبيل الله.

ولذلك نرى القاعدة الإيمانية في الحديث النبوي: " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمريء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله.. فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ".

وهكذا يعامل المؤمنون المنافق إن عاد من كفره ونفاقه إلى الإيمان. لكن ماذا لو تولى المنافقون؟. ﴾ فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا ﴿ والأخذ إذا جاء في مقام النزاع فمعناه الأسر. وقتلهم في ساحة أمر واجب، ولا يصح أن يتخذهم المؤمنون أولياء أو نصراء؛ لأن الواحد من المنافقين يكون دسيسة على المؤمنين، ويحاول أن يعرف أمور وأحوال المسلمين، ويطلع خصوم الإسلام على ما يمكن أن ينفذ منه العدو إلى المسلمين. ويستميت ليعرف ما يبيت المسلمون للكافرين.

واتخاذ الولي أو النصير ممن نعلم أنه لا يحب الإيمان وليس على مبدأ الإسلام وعقيدته أمر يشكك في صدق بصيرة الإنسان الذي يتولى ويود غير المسلمين المخلصين. فحين يرى الواحد منا إنسانا آخر لا يحبه ويكيد المكائد، وعندما يراك تثق فيه وتحسن إليه، يقول هذا الكاره: هذا إنسان فاقد البصيرة فلو عرف ما في قلبي لما فعل ذلك.

فإذا اتخذ المؤمنون من المنافقين أولياء أو نصراء والمنافقون على ما هم عليه من نفاق لقال المنافقون: إن المسلمين فاقدوا البصيرة وهم لا يعلمون ما في قلوبنا، لذلك ينير الحق بصيرة المؤمنين حتى لا نأخذ رأيا من المنافقين ينال منا.

وقد يقول المنافقون: إن هؤلاء المسلمين ليس لهم رب يبصرهم، فلماذا يدعون أن لهم إلها؟ لو كان لهم إله لبصرهم بما في نفوسنا. ونجد هذا الفضح لهم عندما يقول الحق:﴾ ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴿[المجادلة: ٨].

وعدم تعذيب الحق له وقت كفرهم له فائدة ورحمة سديركونها فيما بعد. فمن هؤلاء من سيكون سيفا للإسلام بعد أن كان سيفا على الإسلام؛ فقد ادخرهم الله ليكون بعض منهم سيفا للإسلام، فها هو ذا ابن الوليد يهتدي، وها هو ذا عمرو بن العاص، وها هو ذا عكرمة بن أبي جهل، هؤلاء سيكونون سيوفا للإسلام، ولا يظنن منهم أحد أنه ستر مكنون نفسه عن الله:﴿ ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾[المجادلة: ٨].

هذا القول قد أدى أمرين:

الأمر الأول: وضح أن هناك ربا مطلعا على **خائنة الأعين** وخفايا الصدور. والأمر الثاني: أوضح أن الله لم يعذبهم لأن منهم من سيمس الإيمان قلوبهم وسيكونون سيوفا للإسلام وسيخرج من ذريتهم قادة يحملون الدعوة لله. ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم وقد جاء جبريل وقال له: " إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد: إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك ليأمرني بأمرك مما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا ".

وقد حدث ذلك. إن أسلوب معاملة المنافقين يحدده الله في هذه الآية بما يلي: هم قوم الكفر يسكن القلب منهم ومظهرهم يدعي الإسلام ويتمنون أن يكون المؤمنون على شاكلتهم، فلذلك لا يتخذ المسلم وليا من المنافقين ولا نصيرا.

ولكن إن هاجر المنافق فرحابة الإيمان تتسع له، أما إن تولى المنافق وأعرض عن ذلك. فأسلوب المعاملة يكون كما يحدده الله: ﴿ فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا ﴾ لكن بعد أن يطلق هذا الأمر توجد عقبة في تنفيذه، إنما عقبة الأحلاف والعهود والمواثيق التي كان يعطيها رسول الله لبعض القبائل، وكانت هذه العهود تتلخص في أن الرسول يعاهد بعض القبائل بعدم الإغارة على المسلمين وعدم إغارة المسلمين عليهم. ولذلك يحترم الحق هذه المواثيق والأحلاف.

إن الحق يوضح لنا: لا تأخذوا هذا الأمر أيها المسلمون على إطلاقه؛ لأن الإسلام دين الوفاء بالعهود، وقد أعطيتم بعض القبائل عهودا بأن من لجأ إليهم يؤمنونه ويدخل في حمايتهم، وكذلك الذي يصل ويلجأ إلى المسلمين فعليهم حفظه ومنع التسلط عليه.

لذلك قال الحق في هذا الاستثناء: ﴿ إلا الذين يصلون إلىا قوم بينكم... ﴾.

". (١)

"-١٥٦

(١) تفسير الشعراوي ص/٣٧٠

إن الحق سبحانه يكشف للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به من الأميين لعبة إيمان بعض من أهل الكتاب بالإسلام وجه النهار والكفر به آخر النهار، لقد طالب المتآمرون بعضهم بعضا أن يظل الأمر سرا حتى لا يفقد المكر هدفه وهو بلبلة المسلمين من الأميين، ولذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض: ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ أي لا تكشفوا سر هذه الخدعة إلا لمن هو على شاكلتكم، لكن الحق يكشف هذا الأمر كله بنزول هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلاغه إياها للمؤمنين، وبذلك فسد أمر تلك البلبلة، وارتدت الحرب النفسية إلى صدور من أشعلوها، ويستمر القول الكريم في كشف خديعة هؤلاء البعض من أهل الكتاب فيقول سبحانه: ﴿ قل إن الهدىا هدى الله أن يؤتى أحد مثل مآ أوتيتم أو يحآجوكم عند ربكم ﴾.

إن الحق سبحانه يكشف فعل الماكرين من أهل الكتاب الذين أرادوا إعلان الإيمان أول النهار كلون من " هدى النفس " لكنه من صميم الضلال والإضلال وذريعة له، ولم يكن هدى من الله؛ لأن هدى الله إنما يوصل الإنسان إلى الغاية التي يريدها الله، وهؤلاء البعض من أهل الكتاب أرادوا بالخديعة أن يجعلوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أتباع يؤمنون بالإسلام؛ لقد تواصي هؤلاء القوم من أهل الكتاب بأن يكتموا اتفاقهم على تمثيل الادعاء بالإيمان وجه النهار والكفر به في آخره، وألا يعلنوا ذلك إلا لأهل ديانتهم حتى لا يفقد المكر هدفه، وهو بلبلة المسلمين.

لقد أخذهم الخوف؛ لأن الناس إن أخذوا بدين محمد صلى الله عليه وسلم لأوتوا مثلما أوتي أهل الكتاب من معرفة بالمنهج، بل إن المنهج الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج الخاتم، وأهل المكر من أهل الكتاب إنما أرادوا أن يحرموا الناس من الإيمان، أو أنهم خافوا أن يدخل المسلمون معهم في المحاجة في أمر الإيمان، وكان كل ذلك من قلة الفطنة التي تصل إلى حد الغباء.

لماذا؟ لأنهم توهموا أن الله لا يعرف باطن ما كتموا وظاهر ما فعلوا، إنهم تناسوا أن الحق يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، وتطابق ذلك مع سابق فعلهم عندما خرجوا من مصر، وذهبوا إلى التيه أثناء عبور الصحراء، وادعوا أن الله قال لموسى عليه السلام: " علموا بيوتكم أيها الإسرائيليون، لأني سأنزل وأبطش بالبلاد كلها ". وكأنهم لو لم يضعوا العلامات على البيوت فلن يعرفها الله، إنه كلام خائب للغاية بل هو منتهى الخيبة والضلال، ويبلغ الحق رسوله الكريم: ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشآء والله واسع عليم ﴾.

وما دام الفضل بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أن تأخذوا أناسا كما تودون، وبعد ذلك تريدون أن تخدعوهم؛ لأن الفضل حين يؤتيه الله لمن آمن به فلن ينزعه إلا الله.

فالحيلة لن تنزع فضل الإيمان بالله مادام قد أعطاه الله، والله واسع بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكل الخلق، ولن ينقص ذلك من فضله شيئا، والحق سبحانه عليم بمن يستحق هذا الفضل لأن قلبه مشغول بربه.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ يختص برحمته من يشآء... ﴾

". (١)

"١٥٧-

والحق سبحانه وتعالى يؤرخ للإيمان تأريخا صادقا أمينا، فالقرآن لم يتحامل على أهل الكتاب لأنهم عاندوا رسول الله وواجهوا دعوته وصنعوا معه كل ما يمكن أن يحبط الدعوة ويقضي عليها.

إن القرآن يقول: في شأن بعض منهم منصفا لهم: ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ وهذا اسمه – كما قلنا – صيانة الاحتمال. فساعة يقول الحق: ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ ، ساعة ينزل هذا الكلام، فيسمعه بعض من أهل الكتاب الذين انشغلوا في أعماقهم بتصديق الرسول، ويعرضون قضية الإيمان على نفوسهم، فإذا ما كانوا كذلك ماذا يكون موقفهم وهم الذين يفكرون في أمر الإيمان بما جاء به محمد؟ إنهم عندئذ يقولون لأنفسهم: هذه مسألة في أعماقنا، فمن الذي أطلع محمدا عليها؟ إن ذلك دليل على أن محمدا لا ينطق عن الهوى، وأن الله يعلمه بما في نفوسنا مما لم يبرز إلى حيز الوجود، وما دام الحق يخبره بما لم يخرج إلى حيز الوجود فلابد أنه صادق. فإن كانت الآية قد قيلت بعد أن آمنوا فلن يكون لها هذا الوقع.

إذن فلابد أن هذا القول تبشير بأن كثيرا من أهل الكتاب يفكرون في تصديق الرسول الله في البلاغ من الله، وهم بصدد أن يؤمنوا. فقول الله ذلك يجعل العملية الإيمانية في نفوسهم مصدقة، لأنهم يقولون: إن الرسول الذي يقول ذلك هو مبلغ عن إله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ويقول الحق من بعد ذلك: ﴿ يا أيها الذين آمنوا... ﴾.

". (٢)

"١٥٨-

ساعة يأتي الحق بأسلوب استفهامي فليس الهدف أن يستفهم. إنه – سبحانه – لا يريد ان يأتي الخبر من عنده، وهو يقدر أن يقول: الذي يفتري ظالم، لكنه هنا يأتي بالاستفهام الذي يؤكد أنه لا يوجد أظلم من الذي يفتري على الله كذبا، ويعرض الله القضية على المؤمنين وكأنه يسأل ليعوض كل مؤمن القضية على ذهنه ويستنبط الجواب. إن الذي يفتري على زميله والمثيل له كذبا نوقع به العقاب، فما بالك بمن يفتري على الله؟ وحين تسمع أنت هذا الكلام: ﴿ ومن أظلم ممن افترىا على الله كذبا ﴾. وتستعرض الأمر فلا تجد أظلم منه، وهكذا يستخرج الله الحكم من فم المقابل.

وكيف يفتري إنسان الكذب على الله؟ كأن يبلغ الناس ويدعي ويقول: أنا نبي وهو ليس كذلك. هنا تكون الفرية على الله، وإياك ان تظن أنه يكذب على الناس، لا، إنه يكذب على الله؛ لأنه أبلغ أن الله قد بعثه وهو لم يبعثه.

---

(١) تفسير الشعراوي ص/٤٦٤

(٢) تفسير الشعراوي ص/٥٩٠

و " الافتراء ": كذب متعمد مقصود، وينطبق ذلك على النبوات التي ادعيت؛ من مثل مسيلمة الكذاب، سجاح، طليحة الأسدي، الأسود العنسي؛ كل هؤلاء ادعوا النبوة، ومع ذلك لم يسألهم أحد عن المعجزة الدالة على نبوتهم؛ لأن كل واحد منهم عندما أعلن نبوته جاء بما يخفف عن الناس أحكام الدين.

فواحد قال: أنا أخفف الصلاة، والزكاة لا داعي لها. لذلك تبعهم كل من أراد أن يتخفف من أوامر الدين ونواهيه، موهما نفسه بأنه متدين، دون أن يلتزم بالتزامات التدين، وهذا هو السبب في أن أصحاب النبوات الكاذبة، والادعاءات الباطلة يجدون لهم أنصارا من المنافقين؛ فالواحد من هؤلاء الأتباع قد يكون مثقفا ثم يصدق نبيا دجالا، وتسأل التابع للدجال وتقول له: أسألت مدعي النبوة هذا ما معجزتك؟ – وهذا أول شرط في النبوة – ولم نجد أحدا سأل هذا السؤال قط، لماذا؟

لأن التدين فطرة في النفس، ولكن الذي يصعب التدين هو الالتزامات التي يفرضها التدين، وعندما يرى التابع الضعيف النفس أن هناك من يريحه من الالتزامات الدينية، ويفهمه أنه على دين، ويقلل الالتزامات عليه، لذلك يتبعه ضعاف النفوس، وتصبح المسألة فوضى.

﴿ ومن أظلم ممن افترىا على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه ﴾ [الأنعام: ٩٣]

هناك من ادعى وقال: أنا نبي، وقال: سأنزل مثل هذا القرآن، فماذا قال هذا المدعي وهو " النضر بن الحارث " يقول – في أمة أذنها أذن بلاغية، تتأثر بموسيقى اللفظ –: " والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا "!! ولماذا لم يأت بالمسألة من أولها ويقول: " والزارعات زرعا والحارثات حرثا " ثم يقول من ادعى أنه أوحي إليه: " والعاجنات عجنا والخابزات خبزا " ، وكان عليه أن يتبعها أيضا: " والآكلات أكلا والهاضمات هضما ".

وطبعا كان هذا الكلام لونا من هراء فارغ؛ لأن الحق إنما أنزل كلامه موزونا جاذبا لمعان لها قيمتها في الخبر، ولذلك نزل القول الحق: ﴾ أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ﴿ ، " وقد جاء واحد هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح القرشي وكان أخا لسيدنا عثمان من الرضاعة وكان كاتبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد في حضرة النبي. فنزلت الآية: ﴾ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ﴿ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وانبهر بالأطوار التي خلق فيها الحق الإنسان فقال: ﴾ تبارك الله أحسن الخالقين ﴿. فقال له رسول الله: اكتبها فقد نزلت. واغتر الرجل وقال: إن كان محمد صادقا لقد أوحى إلي كما أوحي إليه؛ وإن كاذبا لقد قلت كما قال: فأهدر رسول الله دمه. وقال لصحابته: من رآه فليقتله. وفي عام الفتح جاء به عثمان رضي الله عنه، وقال: يا رسول الله، اعف عن عبدالله، فسكت رسول الله. قال عثمان رضي الله عنه: اعف عنه. فسكت رسول الله. وكررها ثالثا: اعف عنه يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم.

وكان لسيدنا عثمان منزلة خاصة عند رسول الله، وأشار الرسول لسيدنا عثمان بن عفان، فأخذ الرجل وانصرف، فلما انصرف قال الرسول لصحابته: ألم أقل لكم من رآه فليقتله؟ قال سيدنا عباد بن بشر: يا رسول الله لقد جعلت إليك

بصري – أي وجهت عيني لك – لتشير علي بقتله، فقال رسول الله لعباد بن بشر: " ما ينبغي لرسول أن تكون له **خائنة الأعين** " وأسلم ابن أبي سرح وحسن إسلامه ".

ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله، ما هي عقوبات هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب، ويحاولون التغرير بالناس مدعين أن الله أنزل عليهم وحيا؟

يقول الحق سبحانه: ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وساعة تسمع " لو " هذه تعرف أنها شرطية، وأنت تقول – مثلا – لو جاءني فلان لأكرمته. وحين تقرأ القرآن نجد كثيرا من " لو " ليس لها جواب، لماذا؟ لأن الإتيان بالجواب يعني حصر الجواب الذي لا يمكن للفظ أن يحصره فأنت تتركه للسامع مثلما تجد شابا يلعب دور الفتوة في الحارة ويتعب سكانها، ثم وقع في أيدي الشرطة وأخذوه ليعاقبوه، فيقول واحد ممن رأوه من قبل وهو يرهق أهل الحارة: آه لو رأيتم الولد الفتوة وهو في يد الشرطة!

أين جواب الشرط هنا؟ إنه لا يأتي؛ لأنه يتسع لأمر عجيب يضيق الأسلوب عن أدائه.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا: ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ﴾ ولم يقل لي: ماذا ترى؟ لأنك سترى عجبا لا يؤديه اللفظ. و " الغمرات " هي الشدة التي لا يستطيع الإنسان منها فكاكا ولا تخلصا.

ويتابع الحق: ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ﴾ فهل هم ملائكة الموت الذين يقبضون الروح؟ أو الكلام في ملائكة العذاب؟ إنها تشمل النوعين: ملائكة قبض الروح وملائكة العذاب.

﴿ والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ﴾كأن ملائكة قبض الروح تقول لهم: إن كنتم متأبين على الله في كثير من الأحكام لقد تأبيتم على الله إيمانا، وتأبيتم على الله أحكاما، وتأبيتم على الله في تصديق الرسول، فهاهو ذا الحق قد أمرنا أن نقبض أرواحكم، فهل أنتم قادرون على التمرد على مرادات الحق؟ إن كنتم كذلك فليظهر كل منكم مهارته في التأبي على قبض روحه، أو أن الملائكة يبالغون في النكاية بهم كأن نقول لواحد: اخنق نفسك وأخرج روحك بيديك أو: أخرجوا أنفسكم من العذاب الذي يحيق بكم.

" وعذاب الهون " هو العذاب المؤلم وفيه ذلة. وأساليب العذاب في القرآن متعددة، فيقول مرة: " من العذاب المهين " أو وأعد لهم " عذابا مهينا " أو ولهم " عذاب أليم " فمرة يكون العذاب مؤلما لكن لا ذلة فيه، ومرة يكون العذاب مؤلما وفيه ذلة. وكما أن النعمة فيها تعظيم فالنقمة فيها ذلة. وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى، فالله سبحانه منزه عن أي تشبيه –: قد نجد حاكما يعتقل إنسانا ويأمر بأن يجلس المعتقل في قصر فخم وله حديقة، لكن حين يأتيه الطعام، يقول له الحارس: خذ اتسمم، وفي ذلك إهانة كبيرة.

ولماذا يذيقهم الحق العذاب المهين؟ تأتي الإجابة من الله: ﴿ بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾. كأن يقول واحد: أوحي إلي ولم يوح إليه شيء. وهم أيضا يستكبرون على الآيات التي يؤمن بها العقل الطبيعي، ويقول الحق:﴿ وجحدوا بها واستيقنتهآ أنفسهم ظلما وعلوا ﴾[النمل: ١٤].

ويقول الحق بعد ذلك: ﴿ ولقد جئتمونا فرادىا... ﴾
". (١)

"-١٥٩

وساعة ترى " هو " هذه فاعرف أنها ترد وتجيب على ما يمكن أن يقال، فهناك من يقول: أنا سوف أرى تصرفات فلان، ولأنك من البشر فمهما علمت عنه فأنت محدود الإدارك؛ لأنك سترى تصرفات فقط، ولن ترى انفعالات قلبه وتقلبات عقله، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم؛ لأن الميزان كله عنده، إنه يدرك الظاهر والباطن، وهو سبحانه يقول هنا: " أعلم " وهناك " عليم " ، و " العليم " هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به، لا الخافي منه، أما الذي يرى الظاهر والخفي فهو أعلم.

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم في مسائل كثيرة يعامل الناس بعلانيتهم، ويترك سرائرهم إلى الله. " وعندما قتل مسلم رجلا أعلن الإسلام، سأله صلى الله عليه وسلم لماذا؟، قال: لأنه أعلن الإسلام نفاقا. فقال صلى الله عليه وسلم: أشققت عن قلبه؟! "

وسبحانه وتعالى " أعلم "؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن، ويعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

ويقول الحق:

﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين * وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾

ما الذي أدخل هذه المسألة في هذا السياق؟ لقد تكلم الحق عن أن هناك أعداء لكل نبي يلتمسون ثغرة في منهجه ليتكلموا فيها، وهذه هي مهمتهم التي هيأها الله لهم، فحين يقولون الاعتراضات نجد المنهج يرد عليهم وبذلك تنتفع الدعوة إلى أن تقوم الساعة.

مثال ذلك نجد الجماعة الذين عارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج، فحين قال لهم: أنني أسرى بي إلى المسجد الأقصى وعرج بي إلى السماء في ليلة واحدة، التمسوا له ثغرة لينفذوا منها ويضللوا غيرهم وقالوا له: أتدعي أنك أتيتنا في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهرا؟!! لكن أبو بكر الصديق قال: إن كان قال فقد صدق، وهذا هو الإيمان الذي يحسن استقبال الأمر المخالف للنواميس. ويجادلون أبا بكر، فيقول: أنا صدقته في خبر السماء فكيف أكذبه في ذلك، مادام قال فقد صدق، وهذا كلام منطقي.

لكن المعارضين لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: أتدعي أنك أتيتها في ليلة، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهرا! فأعطى صلى الله عليه وسلم لهم الأمارات ووصف لهم العير التي في الطريق، وغير ذلك من العلامات التي تجعل من

---

(١) تفسير الشعراوي ص/٨٧٣

الأمر حجة إلى يوم القيامة، ولو مرت مسألة الإسراء والمعراج من غير أن يعترض أحد من الأعداء، لما وجدنا الحرارة في تصديقها.

إننا نجد حاليا من يقول: وهل من المعقول أنه صلى الله عليه وسلم راح إلى بيت المقدس وجاء في ليلة؟ لابد أن ذلك كان حلما. لو لم يقولوا هم هذا ما كنا عرفنا الرد؛ إنما هم قالوها حتى نعرف الرد ويظل الرد رادعا إلى أن تقوم الساعة، وهذه هي المهمة التي جعلها الله للأعداء؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لو قال لهم: إنني حلمت أني رحت بيت المقدس. أكان هناك من يعترض على أن يحلم النبي حتى ولو قال: إنه ذهب إلى آخر المعمورة إنه لا يجرؤ واحد أن يكذبه، لكنهم ما داموا قد كذبوه، ورفضوا تصديق الإسراء فهذا دليل على أنهم فهموا من الذهاب أنه ليس ذهاب رؤيا وإنما ذهاب قالب، لقد فهموا عنه أنه انتقل بجسده من مكة إلى بيت المقدس، ولذلك كذبوه، وهذا التكذيب منهم ينفعنا الآن، لنرد به على المكذبين المعاصرين.

إذن فوجد الأعداء يهيج القرائح التي يمكن أن نرد على أية شبه يثيرها أي إنسان سواء أكان ماضيا أم معاصرا.

والحق هنا يقول: ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ [الأنعام ١١٨]

هذه الآية لها قصة توضح كيف يحاول الأعداء اصطياد الثغرات لينفذوا منها، وقالوا: يقول النبي لكم: إن الميتة لا يحل أن تأكلوا منها، وما تذبحونه بأيديكم كلوا منه، والذبح لون من الموت، هذه هي الشبهة التي قالوها، وهي أولا مغالطة في الأساليب؛ لأن الميتة غير المذبوحة وغير المقتولة. فالمذبوحة إنما ذبحناها لنطهرها من الدم؛ لذلك فالمناقشة الفقهية أو العلمية تهزم قولهم؛ لأن هناك فرقا بين الموت والقتل. فالموت هو أخذ للحياة بدون سلب للبنية، إنما القتل هو سلب للبنية أولا فتزهق الروح ويبقى الدم في الجسم. ثم هل يأخذ المشرع وهو الرب الأعلى الحكمة منا أو أن الحكمة عنده هو وحده؟.

وقد تبين لنا في عصرنا أن غير المؤمنين بدأوا في الاهتداء إلى أن الميتة فيها كل الفضلات الضارة، واهتدوا إلى إزالة كل الفضلات الضارة من الحيوانات التي يريدون أكلها؛ لأن تكوين جسم الحيوان يتشابه مع تكوين جسم الإنسان، فهو يأكل ويهضم ويمتص العناصر الغذائية ليتكون الدم والطاقة، وفي الجسد أجهزة تصفي وتنقي الجسم من السموم الضارة، فالكلية مثلا تصفي الدم من البولينا وغيرها، ويسير الدم ليمر على الرئة ليأخذ الأوكسيجين، وكل ذلك لتخليص الجسد من الفضلات الضارة، وأوعية الدم في الإنسان والحيوان فيها الدم الصالح والدم الفاسد، والدم الفاسد هو الذي لم تتم تنقيته، وعندما نذبح الذبيحة ينزل منها الدم الفاسد وغيره، أي أننا ضحينا بالدم الصالح في سبيل وقايتنا من الدم الفاسد. لكنها إن ماتت دون ذبح؛ فآثار الدمين الاثنين موجودة. وكذلك آثار الفضلات التي كان يجب أن يتخلص منها، وهذا ما نفعله في هذا الأمر، لكن هل لنا مع الحق سبحانه وتعالى تعقل في شيء إلا في توثيق الحكم والاطمئنان إلى مجيئه منه جلت قدرته؟

كان جدلهم انهم قالوا: أنتم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله، فأنتم تظنون أنفسكم أحسن من الله، وهذا افتراء منهم.

ثم إن الحيوان حين يموت لم يذكر عليه اسم الله، لكن الذبيحة التي نذبحها نذكر عليها اسم الله، فكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح: فكلوا مما ذكر اسم الله عليه. أي غير الميتة وغير ما يذبح للأصنام. ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ [الأنعام ١١٨]

إن تلقي أي حكم من الحق، لا يصح أبدا أن نبحث عن علته أولا ثم نؤمن به، بل علينا بعد أن نثق بأنه من الله الذي آمنا به. علينا إذن أن نأخذ الحكم الذي أمر به الله.

﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ [الأنعام: ١١٩]

وللآيتين- كما علمنا- سبب نزلتا من أجله وهو أن بعض المعارضين لرسول الله الذين يقفون من الدعوة موقف التكذيب والعمل على إبطالها والقضاء عليها، كانوا يشيعون عند المؤمنين إشاعات قد تفت في عضدهم العقدي فعرضوا هذه المسألة وهي في ظاهرها تشكيك. وهم قد عرضوا القضية بهذا الشكل غير المتسق؛ لأن من الذي قتل؟ لقد قالوا: إن الميتة قتلها الله، فهل الله هو الذي قطع رقبتها؟ وهل ضربها الله على رأسها فأمات أصل إدارة الحياة وهو المخ؟ هل صوب شيئا إلى قلبها؟ سبحانه جل وعلا منزه عن مثل هذه الأفعال البشرية، فكيف يسمون الموت قتلا؟ إن تسمية الموت قتلا هو الخطأ، فقولهم: كيف تبيحون لأنفسكم ما قتلتموه أي بالذبح. ولا تبيحون ما قتله الله أي أماته، فيه مغالطة في عرض القضية، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يضع عند المؤمنين مناعة من هذه الهواجس التي يثيرونها؛ فقال: ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ [الأنعام ١١٨]

وما معنى الذكر؟ إن عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر، هو الذي أوجد بينهم خلافا كبيرا. فسيدنا الإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم الله سواء أكنت ناسيا أم عامدا فلا يصح لك ان تأكل من الذبيحة. ويرى الإمام أبو حنيفة: إذا كنت لم تسم ناسيا فكل مما ذبحت، لكن إن كنت عامدا فلا تأكل، والإمام الشافعي- رضي الله عنه- يرى: ما دمت مؤمنا ومقبلا على الذبح وأنت مؤمن فكل مما لم تذكر اسم الله ناسيا أو عامدا لأن إيمانك ذكر لله.

ونقول: ما هو الذكر؟ هل الذكر أن تقول باللسان؟ أو الذكر أن يمر الشيء بالخاطر؟ إن كنتم تقولون إن الذكر باللسان فلنبحث في الحديث القدسي الذي قاله الله تعالى: " أنا عند ظن عبدي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم. "

إذن فقد سمي ربنا الخاطر في النفس ذكرا وبذلك يصبح من حق الإمام الشافعي أن يقول ما قال.

لذلك أقول: يجب أن نحدد معنى الذكر أولا حتى ننهي الخلاف حول هذه المسألة، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى " الذكر "؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال، وقد يظل خطورا على البال فقط، بدليل ما جاء في الحديث السابق.

والمؤمن حين يجد أمامه أشياء كثيرة، قد يوجد شيء جميل وآخر ليس له من الجمال شيء؛ فالجاموسة أقل في الجمال من بعض الحيوانات التي حرم الله أكلها، وأقبل المؤمنون على ذبح الجاموسة ليأكلوا منها. ولم نسمع عن مسلم تقدم إلى

حيوان حرم الله أكله ليذبحه، لماذا؟ لأن المؤمن يقبل على ما أحل الله، وهذا الإقبال دليل على أنه ذكر في نفسه المحلل والمحرم وهو الله، إذن اختياره حيوانا للذبح دليل على أنه ذكر الله في النفس أو في القول، وبهذا نتفق على أن ذكر المؤمن يكون في قلبه قال أو لم يقل، وينتهي الخلاف في هذه المسألة. إذن الإمام الشافعي أخذ بهذه المسألة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم حينما سئل عن أكل المسلم من ذبيحة لا يعرف من ذبحها وهل سمى أو لم يسم، أوضح لمن سأله: سم وكل.

فالإنسان منا لا يحضر وقت الذبح دائما، ويكفيه أن يستحضر المحلل والمحرم ساعة الأكل. والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا: اذكروا اسم الله، وسبحانه يعلم أنك تقبل على أشياء لتفعلها. وهذه الأشياء تنقسم إلى قسمين: قسم يمر على بالك قبل أن تفعله، وقسم لا يمر على بالك، بل تفعله تلقائيا بدون ما يمر على البال، ومثال ذلك الأفعال العكسية كلها التي يفعلها الإنسان إنها لا تمر على باله. فلو حدث أن حاول واحد أن يضع إصبعه في عين آخر، فهذا الآخر يغمض عينيه تلقائيا. ويختلف ذلك عن الفعل الذي تفكر فيه قبل أن تفعله. فالذي يفعل الفعل بعد أن يمر بخاطره هو فعل ذو بال. ولذلك أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ألا يكلفنا عناء أو مشقة؛ فقال: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع. "

والأمر ذو بال هو الأمر الذي يكون قد خطر على بالك أن تفعله أو لا تفعله.

إذن فالله سبحانه وتعالى لا يكلفنا إلا عند الأمر الذي يمر على الخاطر؛ لأنك حين تقبل على أي فعل فينفعل لك كما تريد، إن هذا من عطاء الله لك، وأنت حين تذبح عجلا، أو خروفا، وتتأمل أنت كيف يقدرك الله على هذا الكائن الحي. وإنك لم تفعل ذلك إلا لتسخير الله كل الكائنات لك. فباسم الله تذبحه.

إذن هناك أمور كثيرة وأفعال ذات بال تمر عليك ومن حسن الأدب والإيمان أن تقبل عليها باسم الله. ولذلك يخطئ بعض الناس حين يظنون أن الإنسان عندما يذبح حيوانا فهو يؤذيه. لا، بل ذبح هذا الحيوان هو تكملة لمهمته في الحياة؛ لأنه مخلوق لهذا الهدف ومذلل له.

لقد قلنا سابقا: إن هناك عجيبة من عجائب المزاولات الفعلية، هذه العجيبة أنك حين تأتي إلى الحيوانات التي لم يحلها الله للإنسان، كالحمار مثلا إذا ما تعرضت هذه الحيوانات إلى ما يميتها، كأن التف حول عنقه حبل، واختنق فهو يموت دون أن يمد رقبته إلى الأمام، لكن الحيوان الذي أحله الله للأكل؛ مثل الجاموسة أو الخروف أو العجل، نجد الحيوان من هذه الحيوانات إن اختنق يمد رأسه إلى الإمام، فيقول أهل الريف في مصر: إنه يطلب الحلال، أي الذبح. فلا يسمى ذبح الحيوان اعتداء عليه؛ لأن الحيوان مخلوق لهذه المهمة.

إذن فمعنى كلمة " باسم الله " أي أنني لم أجترئ على هذا العمل إلا في إطار اسم الله الذي أحل لي هذا.

بعد ذلك يقول الحق للمؤمنين: لا تسمعوا كلام الكافرين، ويأتي السؤال الاستنكاري: ﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ والمعنى: أي سبب يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم، فما ذكر اسم الله عليه ليس من ضمن المحرمات التي نص الله عليها، فربنا سبحانه هو من حلل وحرم. وإن قيل: ما دام قد حرم علينا بعض الأشياء فلماذا خلقت هذه الأشياء؟

ونقول: إن من يفكر بمثل هذا الأسلوب يتناسى أن كل مخلوق من الحيوانات ليس مخلوقا للأكل، بل لكل حيوان مهمة. وإن ذبحت محرما، فقد يناقص هذا الفعل مهمته فالخنزير - مثلا - حرمه ربنا؛ إن ذبحته فستذهب به بعيدا عن مهمته؛ لأنه مخلوق كي يلم جراثيم الأشياء التي لا تراها العين، فأنت حين تذبحه تخرجه عن مهمته. والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، ويعلم ما يناسبه من غذاء يولد الطاقة ولا يهدر الصحة؛ لذلك حرم وحلل له، وإياك أن تقول: إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم إلا الشيء الضار؛ فقد حرم شيئا غير ضار لأنه يريد بذلك الأدب في: " افعل هذا " و " لا تفعل هذا ".

ولذلك قال الحق سبحانه:﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾[النساء: ١٦٠]

وفي حياتنا اليومية هل تقول: إن الذين يربون أبناءنا في الجيش بالشدة، يقسون على الأبناء؟ لا، بل إنهم يعدونهم لمواجهة المهام الشاقة. وأن يتعودوا التزام الأدب والطاعة والانضباط، فكذلك حلل الحق ما أراد وحرم ما شاء ليجعل الكون منضبطا بقدرة الحكيم القادر، فسبحانه يحرم أشياء مثل المخدرات، ونحن في بعض الأحيان نتناولها لنداوي بها الأمراض، فلو أخذها الإنسان من غير مرض أو داع فإنها تسرق الصحة من بنية الإنسان، وإن أخذها من بعد ذلك للعلاج لا تأتي بالمفعول المطلوب منها. ولذلك نجد من الأطباء من يسأل الإنسان قبل إجراء الجراحات الدقيقة إن كان المريض قد تناول المخدرات أو لا، وذلك حتى يتعرف الأطباء على حقيقة ما يصلح له من ألوان التخدير.

وسبحانه وتعالى قد منع عنا تلك الألوان من مغيبات العقول، لعلنا نحتاج إليها في لحظة الشدة والمرض.

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد ربط كل حكم من الأحكام التحليلية والتحريمية بـ " إن كنتم مؤمنين " ، ومعنى " إن كنتم مؤمنين " أي يا من آمنتم بالإله الحكيم الذي لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم، امتنعوا عن مثل تلك الأفعال، وإذا أقبلت على أي شيء مما أحله الله لك فأقبل عليه باسم الله، وسبحانه وتعالى له أسماء علمها لنا، وأنزلها في كتابه، وأسماء علمها لأحد من خلقه، وأسماء استأثر بها في علم الغيب عنده، وهذه الأسماء هي صفات الكمال لله، التي لا توجد في غيره. وحين نستحضر الاسم الجامع لكل صفات الكمال نقول: باسم الله. وتنهي المسألة. وحين ناقش العلماء مسألة التحريم والتحليل، قال بعضهم: إن الحق سبحانه وتعالى قال في أول سورة المائدة:﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾[المائدة: ٣]

وهنا في سورة الأنعام يقول: ﴾ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ﴿ [الأنعام: ١١٩]

والمتنبهون من العلماء قالوا: إن سورة المائدة مدنية، ومعنى كونها مدنية أنها نزلت بعد السورة المكية، وسورة الأنعام مكية، وهل يقول الحق في السورة المكية ﴾ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ﴿ في السورة المدنية؟ وبعض العلماء الذين أعطاهم ربنا نور بصيرة قال: لقد فصل لكم في سورة المائدة وجاء أيضا في سورة الأنعام فقال:﴿ قل لا أجد في مآ أوحي إلي محرما علىا طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴾[الأنعام: ١٤٥]

أي فصل لك في هذه السورة المكية. وقد يأتي واحد من المولعين بالاعتراض أو من خصوم الإسلام ويقول: لم تذكر الآية كل الأشياء المحرمة لماذا؟

ونقول: القرآن هو الخطوط الأساسية في المنهج، وتأتي السنة بالتفصيل في إطار:

﴿ وماَ آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا.. ﴾[الحشر: ٧]

والحق يقول هنا: ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه.. ﴾ [الأنعام: ١١٩]

واضطرار هو أمر ملجئ إلى شيء غير الأسباب الكونية المشروعة. ومعنى كونه مضطرا أنه يلجأ إلى شيء فقد أسبابه المشروعة كالذي يريد أن يأكل ليستبقي الحياة، فإذا لم يجد من الحل ما يستبقي به الحياة فهو مضطر. ونقول له: خذ من غير ما أحل الله بالقدر الذي يدفع عنك الضرورة، فكل من الميتة بقدر الضرورة ولا تشبع.

والحق يقول:﴿ فمن اضطر في مخمصة.. ﴾[المائدة: ٣]

والمخمصة هي المجاعة. إذن فالاضطرار هو شيء فوق الأسباب المشروعة للعمل. والله سبحانه وتعالى يعطي الإنسان الرخصة في أن يتناول ما حرمه إذا كان مضطرا. ﴿ إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم.. ﴾ [الأنعام: ١١٩]

والذين يضلون بأهوائهم بغير علم هم من أرادوا زراعة الشك في نفوس المسلمين، ومعنى الضلال بالهوى أي أن تكون عالما بالقضية، ولكن هواك يعدل بك عن مراد الحق من القضية. ولذلك يصف الحق رسوله صلى الله عليه وسلم:﴿ وما ينطق عن الهوىا ﴾[النجم: ٣]

وحين يقول الحق: ﴿ وإن كثيرا ليضلون بأهوائه ﴾ فمعنى ذلك أنه يوجد ضلال بغير هوى، وهو عدم وصول الإنسان إلى الحقيقة؛ لأنه لا يعرف الطريق إليها، والضلال بالهوى أي أن تكون عندك الحقيقة وأنت عارف بدورها ولكنك تعدل عنها: ﴿ وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم.. ﴾ [الأنعام: ١١٩]

وساعة ترى مجيء متعلق بعد " يضلون " وهو قوله: ﴿ بأهوائهم ﴾ تقول كأن هناك ضلالا بغير علم، وهو غير مذموم؛ لأن صاحبه لا يعرف الحكم في القضية، وهذا يختلف عن الذي يضل وهو يعرف الحكم، فهذا ضلال بالهوى، وهذا الفهم يحل لنا إشكالات كثيرة أيضا. و ﴿ بغير علم ﴾ أي ليس عندهم علم بالقضية وأحكامها.

ويذيل الحق الآية بقوله: ﴿..إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ [الأنعام: ١١٩]

وقد أفسح الله في النص القرآني لبعض خلقه الذين يعرفون المهتدى من غير المهتدى، والكثير من الناس لا يعلمون المهتدى من غير المهتدى ولكن إن علموا فالله أعلم.

ويقول الحق بعد ذلك: ﴿ وذروا ظاهر الإثم.. ﴾

". (١)

"-١٦٠

(١) تفسير الشعراوي ص/٨٩٧

يقول العلماء: بعد أربعين يوما تتحول هذه النطفة إلى علقة، وسميت كذلك لأنها تعلق بجدار الرحم، والعلماء يسمونها الزيجوت، وهي عبارة عن بويضة مخصبة، وتبدأ في أخذ غذائها منه.

ومن عجائب قدرة الله في تكوين الإنسان أن المرأة إذا لم تحمل ينزل عليها دم الحيض، فإذا ما حملت لا ترى الحيض أبدا، لماذا؟ لأن هذا الدم ينزل حين لم تكن له مهمة ولا تستفيد به الأم، أما وقد حدث الحمل فإنه يتحول بقدرة الله إلى غذاء لهذا الجنين الجديد.

ثم يقول سبحانه: ﴿ فخلقنا العلقة مضغة.. ﴾ [المؤمنون: ١٤] وهي قطعة صغيرة من اللحم على قدر ما يمضغ، وسبق أن قلنا: إن المضغة تنقسم بعد ذلك إلى مخلقة وغير مخلقة، كما قال تعالى في الآية الأخرى:﴿ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم.. ﴾[الحج: ٥] هذا على وجه التفصيل، أما في الآية التي معنا فيحدثنا عن أطوار الخلق عامة، حتى لا نظن أن القرآن فيه تكرار كما يدعي البعض.

المضغة المخلقة هي التي يتكون منها جوارح الإنسان وأعضاؤه، وغير المخلقة تظل كما قلنا: احتياطيا لصيانة ما يتلف من الجسم، كما يحدث مثلا في الجروح وما شابه ذلك من عطب يصيب الإنسان، فتقوم غير المخلقة بدورها الاحتياطي.

ثم يقول تعالى: ﴿ فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر.. ﴾ [المؤمنون: ١٤] لأنه كان في كل هذه الأطوار: النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم العظام واللحم ما يزال تابعا لأمة متصلا بها ويتغذى منها، فلما شاء الله له أن يولد ينفصل عن أمه ليباشر حياته بذاته؛ ولذلك نجد لحظة انفصال الجنين عن أمه في عملية الولادة مسألة صعبة؛ لأنه سيستقبل حياة ذاتية تستلزم أن تعمل أجهزته لأول مرة، وأول هذه الأجهزة جهاز التنفس.

ومن رحمة الله بالجنين أن ينزل برأسه أولا ليستطيع التنفس، ثم يخرج باقي جسمه بعد ذلك، فإن حدث العكس ونزل برجليه فربما يموت؛ لأنه انفصل عن تبعيته لأمه، وليس له قدرة على التنفس ليحتفظ بحياته الذاتية الجديدة؛ لذلك في هذه الحالة يلجأ الطبيب إلى إجراء عملية قيصرية لإنقاذ الجنين من هذا الوضع، وقبل أن يختنق.

ولما كانت مسألة خلق الإنسان فيها كثير من العبر والآيات ودلائل القدرة طوال هذه المراحل التي يتقلب فيها الإنسان، ناسب أن تختم الآية بقوله تعالى: ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون: ١٤] لأنك حين تقف وتتأمل قدرة الله في خلق الإنسان لا تملك إلا أن تقول: سبحان الله، تبارك الله الخالق.

" لذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قرأ هذه الآية سبق عمر فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال صلى الله عليه وسلم للكاتب: اكتبها فقد نزلت "

، لأنها انفعال طبيعي لقدرة الله، وعجيب صنعه، وبديع خلقه، وهذا نوع من التجاوب بين السليقة العربية واللسان العربي وبين أسلوب القرآن الذي جاء بلسان القوم.

ويقال: إن سيدنا معاذ بن جبل نطق بها أيضا، وكذلك نطق بها رجل آخر هو عبد الله بن سعد بن أبي السرح، مع اختلاف في نتيجة هذا النطق: لما نطق بها عمر ومعاذ رضي الله عنهما كان استحسانا وتعجبا ينتهي إلى الله، ويقر له سبحانه بالقدرة وبديع الصنع.

أما ابن أبي السرح فقد قالها كذلك تعجبا، لكن لما وافق قوله قول القرآن أعجب بنفسه، وادعى أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد، ولم لا وهو يقول كما يقول القرآن، ومع ذلك هو ما يزال مؤدبا يدعي مجرد أنه يوحى إليه، لكن زاد تعاليه وجره غرور إلى أن قال: سأنزل مثلما أنزل الله، فليس ضروريا وجود الله في هذه المسألة، فارتد والعياذ بالله بسببها، وفيه نزل قول الله تعالى:﴿ ومن أظلم ممن افترىا على الله كذبا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل مآ أنزل الله.. ﴾[الأنعام: ٩٣].

" وظل ابن أبي السرح إلى فتح مكة حيث شفع فيه عثمان رضي الله عنه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأى رسول الله حرص عثمان عليه سكت، ولم يقل فيه شيئا، وعندها أخذه عثمان رضي الله عنه وانصرف، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته: " أما كان فيكم من يجهز عليه؟ " فقالوا: يا رسول الله لو أومأت لنا برأسك؟ يعني: أشرت إلينا بهذا، انظر هنا إلى منطق النبوة، قال صلى الله عليه وسلم: " لا ينبغي أن يكون لنبي **خائنة الأعين** " يعني: هذا تصرف لا يليق بالأنبياء، فلو فعلتموها من أنفسكم كان لا بأس.

ثم بعد ذلك تحل بركة عثمان على ابن أبي السرح فيؤمن ويحسن إسلامه، ثم يولي مصر، ويقود الفتوحات في إفريقيا، ويتغلب على الضجة التي أثاروها في بلاد النوبة، وكأن الله تعالى كان يدخره لهذا الأمر الهام.

وبعد هذه العجائب التي رأيناها في مراحل خلق الإنسان وخروجه إلى الحياة والإقرار لله تعالى بأنه أحسن الخالقين، يذكرنا سبحانه بأن هذه الحياة لن تدوم، فيقول تبارك وتعالى: ﴿ ثم إنكم بعد ذالك لميتون ﴾

.

". (١)

"-١٦١

جمعت هذه الآية أيضا بين المذكر والمؤنث في ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة... ﴾ [الأحزاب: ٣٦] فهي امتداد للآية السابقة، فهي تخدم ما قبلها، وتخدم أيضا ما بعدها، وما به أصل السبب؛ لأنها نزلت في عبد الله بن جحش وأخته زينب، حين رفضا زواج زينب من زيد بن حارثة، فالمؤمن عبد الله بن جحش، والمؤمنة أخته زينب من حيث هما سبب لنزول الآية، وإلا فهي لجميع المؤمنين وجميع المؤمنات.

---

(١) تفسير الشعراوي ص/٢٦٦٨

وسبق أن ذكرنا قصة زيد بن حارثة، وملخصها أنه سرق من أهله، وبيع في سوق العبيد على أنه عبد، فاشتراه حكيم بن حزام، ثم وهبه للسيدة خديجة أم المؤمنين، فوهبته خديجة رضي الله عنها لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار مولى لرسول الله.

وبينما هو ذات يوم بالسوق، إذ رآه جماعة من قومه فعرفوه، وأخبروا أباه أنه بالمدينة، فجاءه أبوه وأعمامه، وحكوا لرسول الله قصته، وطلبوا عودته معهم، فقال رسول الله: خيروه، فإن اختاركم فهنيئا لك، وإن اختارني، فما كان لي أن أسلمه، فرد زيد وقال: والله ما كنت لأختار على رسول الله أحدا.

فأراد سيدنا رسول الله أن يكافيء زيدا على هذا التصرف، فنسبه إليه على عادة العرب في هذا الوقت، فسماه زيد بن محمد.

فلما أراد الحق سبحانه أن ينهي هذه العادة، ومثلها عادة الظهار، نزل قوله سبحانه: ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعيآءكم أبنآءكم... ﴾ [الأحزاب: ٤].

فكما أن الرجل لا يكون له إلا قلب واحد، كذلك لا يكون له إلا أب واحد، وشاء الله أن يبدأ بمتبني رسول الله؛ ليكون نموذجا تطبيقيا عمليا أمام الناس، وكانت هذه الظاهرة يترتب عليها أن يرث المتبني من المتبني بعد موته، وأن تحرم زوجة المتبني أن يتزوجها المتبني.

صحيح أن القضاء على هذه العادة قضاء على نظام اجتماعي فاسد موجود في الجزيرة العربية، لكنه في الوقت نفسه دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تبني كما يتبنى العرب، وأن الله تعالى أبطل من رسول الله هذا التصرف؛ وهذا سيفتح الباب أمام معاندي رسول الله أن يشمتوا فيه، وأن تتناوله ألسنتهم؛ لذلك عالج الحق سبحانه هذه القضية علاج رب بإنفاذ الأمر في نصرة حبيب له، فلم يشوه عمل الرسول، إنما جعل فعله عدلا، وحكمه سبحانه أعدل، فقال:﴿ ادعوهم لآبآئهم هو أقسط عند الله... ﴾[الأحزاب: ٥].

والمعنى: إن كنتم جعلتم من العدل والمحبة أن تكفلوا هؤلاء الأولاد، وأن تنسبوهم إليكم، فهذا عدل بشري، لكن حكم الله أعدل وأقسط، وشرف لرسول الله أن يرد الله حكمه إلى حكم ربه، وشرف لرسول الله أن يكون له الأصل في المسألة، وأنه يحكم، فيرد الله حكمه إلى حكمه، فهذا تكريم لرسول الله.

فقوله تعالى﴿ هو أقسط عند الله... ﴾[الأحزاب: ٥] يعني: أن فعل محمد كان قسطا وعدلا بقانون البشر، وقد جاء محمد ليغير قوانين البشر بقوانين رب البشر، وبهذا خرج سيدنا رسول الله من هذا المأزق.

أما زيد فقد عوضه الله عما لحقه من ضرر بسبب انتهاء نسبه إلى رسول الله، فصار زيد بن حارثة بعد أن كان زيد بن محمد، عوضه الله وأنصفه بأن جعله العلم الوحيد من صحابة رسول الله الذي ذكر اسمه في القرآن الكريم بنصه وفصه، فقال سبحانه:﴿ فلما قضا زيد منها وطرا زوجناكها... ﴾[الأحزاب: ٣٧] فخلد زيد في كتاب يتلى، ويتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة.

وعلاقة زيد بن حارثة بما نحن بصدده من قوله تعالى ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة... ﴾ [الأحزاب: ٣٦] أنه تزوج من السيدة زينب بنت جحش، زوجه إياها رسول الله، وقد نزلت هذه الآية في زينب، وفي أخيها عبد الله.

ومعنى ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة... ﴾ [الأحزاب: ٣٦] معنى (ما كان) أي: أنه شيء بعيد، لا يمكن أن يرد على العقل، أي: أنه أمر مستبعد غير متصور، وكان المنفية تدل على جحد هذه المسألة، فالمؤمن والمؤمنة، ما دام أن الإيمان باشر قلبيهما لا يمكن أن يتركا أمر الله وحكمه، أو أمر رسوله إلى اختيارهما.

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم... ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وإلا فلا إيمان لا بالله، ولا برسول الله.

فإن قلت: كيف وقد أثبت الله الاختيار؟ نقول: هناك فرق بين اختيار داخل في التكليف، إن شئت فعلته أو لم تفعله، وشيء في إيجاد التكليف بداية، فليس للعباد دخل في إيجاد الشيء المكلف به، إنما إذا كلفتهم أنا، فأنا صاحب التكليف، وكونهم يطيعونه أو لا يطيعونه، فهذا أمر آخر، ليس للعباد أن يقترحوا التكليف على هواهم؛ لأن التكليف لي، ولهم الاختيار في طاعته وفي قبوله، وما دام قد ثبت أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسول الله فكان من الواجب عليهم أن يرتضوا الأمر، وألا يعرضوا عنه إلى غيره.

وقصة طلاق زيد وزينب، ثم زواج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منها قصة خاض فيها المستشرقون والمغرضون كثيرا، وتجرأوا على سيدنا رسول الله بكلام لا ينبغي في حقه صلى الله عليه وسلم، ومن قولهم أن محمدا أحب زينب وأرادها لنفسه، فأمرها أن تشاغب زيدا حتى يطلقها فيتزوجها.

ونقول لهؤلاء الأغبياء: أولا زينب بنت جحش الأسدية هي بنت عمة رسول الله، وكان صلى الله عليه وسلم مكلفا بإدارة أموالها ورعاية شئونها، وقد نشأت تحت عينه، ولو أرادها لنفسه لتزوجها بداية، وهذا بنص القرآن:

﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه... ﴾[الأحزاب: ٣٧] فإن أردت أن تعرف ما أخفاه رسول الله فخذه مما أبداه الله والذي أبداه الله قوله تعالى:﴿ لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيآئهم... ﴾[الأحزاب: ٣٧] وهذا يهدم كل ادعاءاتكم على رسول الله.

أما قولهم بانشغال قلب رسول الله بزينب، فنقول: ولماذا تجعلون انشغال قلب محمد انشغالا جنسيا؟ ولوتتبعتم القصة من أولها لظهر لكم غير ذلك، فحينما أرسل رسول الله من يخطب زينب ظن أخوها عبد الله وأختها حمنة أنه جاء ليخطبها لرسول الله، فلما علموا أنه يخطبها لمولاه زيد غضبوا جميعا، فكيف تتزوج السيدة القرشية وبنت عمة رسول الله من عبد، لكن لما علموا أن الأمر من الله أذعنوا له ووافقوا.

ثم بعد أن تزوجت زينب من زيد تعالت عليه، بل وشعر أنها تحتقره لهذا الفارق بينهما، فكان زيد يشتكي لرسول الله سوء معاملة زوجته له، وأنها كما نقول (منكدة عليه عيشته)، وأنها تعيش معه في بيت الزوجية بالقالب لا بالقلب، لكن حبه لرسول الله كان يمنعه من طلاقها، وهو أيضا لا يريد أن يخسر هذا الشرف الذي ناله بالزواج من ابنة عمة رسول الله.

وكان سيدنا رسول الله في كل مرة يشتكي فيها زيد من زينب يقول له﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله... ﴾[الأحزاب: ٣٧] ولو أرادها الرسول لنفسه لقال له طلقها، ولوجد الفرصة أمامه سانحة.

ويجب أن نبحث هنا علاقة المرأة بالرجل، فالخالق سبحانه خلق الرجل للمرأة، والمرأة للرجل؛ لذلك نجد المرأة العربية أم إياس، وهي توصي ابنتها لما خطبها الحارث، تقول: " أي بنية، إنك لو تركت بلا نصيحة لكنت أغنى الناس عنها، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغني أبويها وشدة حاجتهما إليها لكنت أغنى الناس، ولكن الرجال للنساء خلقن، ولهن خلق الرجال، وأن النصيحة لو تركت لفضل أدب لتركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ".

وقلنا: إن الإنسان يستطيع أن يعيش أفضل ما يكون من مأكل ومشرب وملبس ومسكن، لكنه مع ذلك لا يستغني بحال عن الزوجة والمرأة كذلك؛ لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها ".

لماذا؟ لأن الزوج يعطيها ما يعطيه الأب والأم والإخوة، ويزيد على ذلك مما يقدرون ولا يستطيعون.

الشاهد أن المرأة للرجل، والرجل للمرأة، مهما وضعوا من أسوار من عز أو من جبروت، أو غيره.

إن المسألة بالنسبة لزيد كانت صعبة؛ لأن الله تعالى جعل للزواج ثلا مراحل، وردت في قوله تعالى:﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة... ﴾[الروم: ٢١].

فالأولى أن يسكن الزوج إلى زوجته، وأن يطمئن إليها، ويرتاح بجوارها حين تمسح عنه عرقه، وتحتويه بعد تعب اليوم ومشاق الحياة، فإن امتنع السكن بسبب منغصات للحياة، فليكن بينهما مودة تجمعهما، ولم لا، وأنت حين تصاحب صديقا مثلا مدة طويلة تجد له مودة في قلبك، وتجد أن لهذه المودة ثمنا، فتتحمله إن أخطأ، وتسامحه إن أساء، فما بالك بالزوجة، أليست أحق بهذه المودة؟

فإذا ما فقدت المودة أيضا، فليبق بين الزوجين التراحم، فليرحم كل منهما الآخر إن أصابه الكبر أو المرض، أو غير ذلك.

وقد وصل زيد مع زينب إلى مرحلة فقد فيها السكن والمودة والرحمة بسبب ما بينهما من فارق.

أمر آخر، إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فكر في أمر زينب، فلماذا تعدلون به إلى التفكير في الغريزة؟ ولماذا لا تعدلون به إلى مرتبة الإنصاف، وهو الذي أرغم زينب على الزواج من زيد، وهي الشريفة القرشية، وهو العبد المملوك، فلما وضعها في هذا المأزق أراد أن يطيب خاطرها، ويصلح ما كان منه بأن يضمها إليه، فتصير إحدى أمهات المؤمنين.

ثم من الذي منع رسولا قال الله عنه أنه بشر من أن تكون له هذه الرغبة، وكل الرسل السابقين كان لهم هذه – هذا على فرض رغبة رسول الله في زينب – لكن الناس لم يحسنوا الظن.

والذي يدلنا على أن هذه المسألة كانت ترتيبا ربانيا صرفا ما نجده من الرياضية الإيمانية بين كل من سيدنا رسول الله، ومولاه زيد، وابنة عمته زينب، فقد جمعهم الثلاثة رياضة إيمانية كما نقول نحن الآن: فلان عنده روح رياضية.

يعني: يتقبل الهزيمة بروح عالية بدون عداوات أو أحقاد، فلقد انصاع الجميع لأمر الله بهذه الروح الإيمانية.

أما الذين يأخذون من قوله تعالى في حق رسوله﴿ وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه... ﴾[الأحزاب: ٣٧] يأخذونها سبة في حق الرسول، فعليهم أن يعلموا أن الخشية نوعان: خشية من شيء تخاف أن يضرك، وخشية استحياء، فالخشية في﴿ وتخشى الناس... ﴾[الأحزاب: ٣٧] خشية استحياء، ويكفي أن الحق سبحانه قال في حق رسوله صلى الله عليه وسلم:﴿ إن ذالكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق... ﴾[الأحزاب: ٥٣].

فالخشية هنا تعني خوف رسول الله من ألسنة الكفار التي ستخوض في حقه، والتي ستقول إن محمدا تزوج من امرأة متبناه، لكن غاب عن هؤلاء أن الله تعالى ألغي مسألة التبني، فليس لهم حجة، وطبيعي أن يخاف رسول الله من ألسنة الكفار؛ لأنه جاء لنقض عادات وتقاليد جاهلية، وكان هو صلى الله عليه وسلم أول من تحمل تبعة هذا التغيير؛ لأنه جاء على يديه وفي شخصه صلى الله عليه وسلم.

وسيدنا رسول الله حين يستحي من زواجه من زينب أو من كلام الناس، فإنما يريد أن يبريء عرضه وساحته، مما يشين، وقد كان صلى الله عليه وسلم يدفع الشبهة عن نفسه دائما، لذلك

" لما رآه بعض أصحابه مع امرأة، فمالوا عنه صلى الله عليه وسلم خشية أن يتسببوا له في حرج، فناداهما رسول الله: " على رسلكما إنها صفية " فقالوا: نحن لا نشك فيك يا رسول الله، فقال: " إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم " ".

فرسول الله يريد أن ينفض عن نفسه أي شبهة، يريد ألا يجعل لأحد جميلا عليه، بأنه ستر على رسول الله.

ولا أدل على حيائه صلى الله عليه وسلم من قصته مع عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فلما دخل صلى الله عليه وسلم مكة فاتحا ومنتصرا كان قد أهدر دم عبد الله بن سعد بن أبي السرح؛ لأنه نال كثيرا من رسول الله، فجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه يستأمن لعبد الله من رسول الله – يعني: يطلب له الأمان – فما رد عليه رسول الله، وكان ينتظر أن يقوم رجل من القوم فيقتل عبد الله، لكن عثمان أعادها مرارا على رسول الله حتى أنه استحي من عثمان فأمن عبد الله، فلما أمنه أخذه عثمان وانصرف من مجلس رسول الله.

فقال رسول الله لصحابته: " ألم يكن فيكم رجل رشيد يقوم إليه فيقتله؟ " يعني: قبل أن يكلمه عثمان فيكون قد سبق السيف العذل كما يقولون، فقام عبد الله بن بشر وقال: يا رسول الله، لقد كانت عيني في عينك، أنتظر إشارة منك لأقتله، لكنك لم تفعل، فقال سيدنا رسول الله – انظر إلى العظمة " ما كان لنبي أن تكون له **خائنة الأعين** ".

أذكر أنه كان لنا أستاذ، هو سيدنا الشيخ موسى شريف رحمه الله ورضي الله عنه، وكان رجلا له مدد من الله، وقد فسر لنا هذه الآية، وكنا نذاكر دروسنا قبل أن نحضر درسه، وكان يصطفيني من بين إخواني الموجودين أمثال الشيخ حسن جاد، والدكتور خفاجة وأبي العينين وغيرهم، ليسألني عن مذاكرتنا وما وقف أمامنا من قضايا، فناداني وكان قد علم من أبي اسم أمي، فناداني بها فتقدمت إليه، فضربني على قفاي ضربة انحلت معها القضية التي كانت تقف أمامنا، تماما كما تضرب الذي يعاني من (الزغطة) ضربة على ظهره فتذهب.

ولما حدثنا الشيخ عن قصة سيدنا عثمان هذه جاء في اليوم التالي وقال: يا أولاد، رأينا الليلة سيدنا عثمان بحيائه، فقلت له: كيف تستأمن لرجل قال في رسول الله كذا وكذا؟ فقال لي: ألا تعلم أن الله يحب من تاب، فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم – ولم يقل: " أنا رأيت رسول الله – ما الذي جعلك تقبل شفاعة عثمان؟ فقال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟

فالنبي صلى الله عليه وسلم بطبيعته كان شديد الحياء.

ثم يقول تعالى: ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وهنا ثلاثة توكيدات: قد الدالة على التحقيق وبعدها الفعل الماضي، ثم المفعول المطلق ضلالا، ثم وصف هذا الضلال بأنه مبين.

والضلال هو عدم الاهتداء إلى الطريق المؤدي إلى الغاية، لكن قد يضل إنسان طريقه، ثم يأتي من يفتح عليه ويدله، أما هذا الذي يعصي الله ورسوله، فضلاله ضلال مبين لا يجد من يدله، ولا من يهديه أبدا؛ لأن هذا الطريق الذي يسير فيه موصل إلى الآخرة، وليس هناك شيء من ذلك.

كانت هذه (لقطة) لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عثمان وعباد بن بشر أوضحت صفة الحياء في رسول الله، نعود بعدها إلى ما كنا بصدده من الحديث عن الرياضة الإيمانية التي جمعت بين رسول الله وكل من زيد وزينب.

وكان سيدنا رسول الله إذا غاب زيد يذهب فيسأل عنه، فذهب مرة، فرأى زينب منشغلة في أمور بيتها، وكانت زينب على حالة طيبة، فقال صلى الله عليه وسلم: " تبارك الله أحسن الخالقين "كما ترى مثلا ابنتك في مظهر حسن، فتقول: ما شاء الله.

وكأن رسول الله أراد أن يطيب خاطرها، أو يرفع من روحها نظير ما أجبرها عليه من الزواج بزيد، ونظير أنها تعيش معه على مضض، فلما جاء زيد قالت له: لقد جاء رسول الله وسأل عنك وقال لي: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال لها: يا زينب أرى أن تكوني لرسول الله؛ لأنك وقعت في قلبه، وأرى أن أطلقك ليتزوجك رسول الله، فبدا عليها الارتياح، وتعجبت كأنها لم تصدق: إذا طلقتني أتزوج برسول الله، كان هذا الحوار مجرد كلام.

وبالله لو قيل هذا الكلام في غير هذا الموقف، ولواحد غير زيد لغلي الدم في عروقه، وفعل ما أفعل، إنما تأمل الرياضة الإيمانية التي تحلي بها زيد.

يقول تعالى في هذه المسألة: ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت... ﴾.

". (١)

١٦٢-"وقوله:(لا ظلم اليوم) يقول: لا بخس على أحد فيما استوجبه من أجر عمله في الدنيا، فينقص منه إن كان محسنا، ولا حمل على مسيء إثم ذنب لم يعمله فيعاقب عليه(إن الله سريع الحساب) يقول: إن الله ذو سرعة في

---

(١) تفسير الشعراوي ص/٣٤٩٤

محاسبة عباده يومئذ على أعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ ذكر أن ذلك اليوم لا ينتصف حتى يقيل أهل الجنة في الحنة، وأهل النار في النار، وقد فرغ من حسابهم، والقضاء بينهم.

القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه: وأنذر يا محمد مشركي قومك يوم الآزفة، يعني يوم القيامة، أن يوافوا الله فيه بأعمالهم الخبيثة، فيستحقوا من الله عقابه الأليم.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

* ذكر من قال ذلك:

حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعا عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قول الله:(يوم الآزفة) قال: يوم القيامة.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة(وأنذرهم يوم الآزفة) يوم القيامة.

حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدي(وأنذرهم". [١]

١٦٣-"وقوله:(ما للظالمين من حميم ولا شفيع) يقول جل ثناؤه: ما للكافرين بالله يومئذ من حميم يحم (١) لهم، فيدفع عنهم عظيم ما نزل بهم من عذاب الله، ولا شفيع يشفع لهم عند ربهم فيطاع فيما شفع، ويجاب فيما سأل.

وبنحو الذي قلنا فى ذلك قال أهل التأويل.

* ذكر من قال ذلك:

حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدي(ما للظالمين من حميم ولا شفيع) قال: من يعنيه أمرهم، ولا شفيع لهم. وقوله:(يطاع) صلة للشفيع. ومعنى الكلام: ما للظالمين من حميم ولا شفيع إذا شفع أطيع فيما شفع، فأجيب وقبلت شفاعته له.

وقوله:(يعلم **خائنة الأعين**) يقول جل ذكره مخبرا عن صفة نفسه: يعلم ربكم ما خانت أعين عباده، وما أخفته صدورهم، يعني: وما أضمرته قلوبهم؛ يقول: لا يخفى عليه شيء من أمورهم حتى ما يحدث به نفسه، ويضمره قلبه إذا نظر ماذا يريد بنظره، وما ينوي ذلك بقلبه(والله يقضي بالحق) يقول: والله تعالى ذكره يقضي في الذي خانته الأعين بنظرها، وأخفته الصدور عند نظر العيون بالحق، فيجزي الذين أغمضوا أبصارهم، وصرفوها عن محارمه حذار الموقف بين يديه، ومسألته عنه بالحسنى، والذين رددوا النظر، وعزمت قلوبهم على مواقعة الفواحش إذا قدرت، جزاءها.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

---

(١) تفسير الطبري ٣٦٧/٢١

* ذكر من قال ذلك:

حدثني عبد الله بن أحمد المروزي، قال: ثنا علي بن حسين بن واقد قال: ثني أبي، قال: ثنا الأعمش، قال: ثنا سعيد بن جبير، عن ابن عباس

---

(١) في اللسان : حمنى : الأمر وأحمني : أهمني . وقال الأزهري : أحمني هذا الأمر واحتممت له ، كأنه اهتمام بحميم قريب .". (١)

١٦٤-"(يعلم **خائنة الأعين**) إذا نظرت إليها تريد الخيانة أم لا(وما تخفي الصدور) إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا؟ قال: ثم سكت، ثم قال: ألا أخبركم بالتي تليها؟ قلت نعم، قال:(والله يقضي بالحق) قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة(إن الله هو السميع البصير) قال الحسن: فقلت للأعمش: حدثني الكلبي، إلا أنه قال: إن الله قادر على أن يجزي بالسيئة السيئة، وبالحسنة عشرا. وقال الأعمش: إن الذي عند الكلبي عندي، ما خرج مني إلا بحقير.

حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعا، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد(يعلم **خائنة الأعين**) قال: نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله:(**خائنة الأعين**) : أي يعلم همزه بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله ولا يرضاه.

وقوله:(والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء) يقول: والأوثان والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون بالله من قومك من دونه لا يقضون بشيء، لأنها لا تعلم شيئا، ولا تقدر على شيء، يقول جل ثناؤه لهم: فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجزي محسنكم بالإحسان، والمسيء بالإساءة، لا ما لا يقدر على شيء ولا يعلم شيئا، فيعرف المحسن من المسيء، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء.

وقوله:(إن الله هو السميع البصير) يقول: إن الله هو السميع لما تنطق به ألسنتكم أيها الناس، البصير بما تفعلون من الأفعال، محيط بكل ذلك محصيه عليكم، ليجازي جميعكم جزاءه يوم الجزاء.

واختلفت القراء في قراءة قوله:(والذين يدعون من دونه) فقرأ ذلك عامة قراء المدينة:"والذين تدعون من دونه" بالتاء على وجه الخطاب. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة بالياء على وجه الخبر.". (٢)

١٦٥-"@ ١١٢ @ ١٦ - ! ٢ " بارزون " ٢ ! من قبورهم ! ٢ " لا يخفى على الله " ٢ ! من أعمالهم شيء أو أبرزهم جميعا لأنه لا يخفى عليه شيء من خلقه ! ٢ " لمن الملك اليوم " ٢ ! يقوله الله - تعالى - بين النفختين إذا لم يبق سواه فيجيب نفسه فيقول ! ٢ " لله الواحد القهار " ٢ ! لأنه بقي وحده وقهر خلقه ، أو يقوله الله

---

(١) تفسير الطبري ٣٦٩/٢١

(٢) تفسير الطبري ٣٧٠/٢١

في القيامة والخلائق سكوت فيجيب نفسه ، أو تجيبه الخلائق كلهم مؤمنهم وكافرهم فيقولون : لله الواحد القهار . قاله ابن جريج . ^ (وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)) ^ ١٨ - ! ٢ " يوم الآزفة " ٢ ! حضور المنية ، أو القيامة لدنوها ! ٢ " إذ القلوب " ٢ ! النفوس بلغت الحناجر عند حضور المنية ، ' أو القلوب تخاف في القيامة ' فتبلغ الحناجر خوفا فلا هي تخرج ولا تعود إلى أماكنها . ! ٢ " كاظمين " ٢ ! مغمومين ، أو باكين ، أو ساكتين والكاظم الساكت على امتلائه غيظا ، أو ممسكين بحناجرهم من كظم القربة وهو شد رأسها ! ٢ " حميم " ٢ ! قريب ، أو شفيق ! ٢ " يطاع " ٢ ! يجاب إلى الشفاعة سمى الإجابة طاعة لموافقتها إرادة المجاب . ١٩ - ! ٢ " **خائنة الأعين** " ٢ ! الرمز بالعين ، أو النظرة [١٦٨ / أ] / بعد النظرة أو مسارقة النظر ' ع ' أو النظر إلى ما نهي عنه ، أو قوله رأيت وما رأى ، أو ما رأيت وقد رأى سماها خائنة لخفائها كالخيانة ، أو لأن استراق نظر المحظور خيانة . ! ٢ " وما تخفي الصدور " ٢ ! الوسوسة ، أو ما تضمره إذا قدرت عليها تزني بها أم لا

". (١)

١٦٦-"٢٥٨١ - نا عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة ، في قوله تعالى : (يعلم **خائنة الأعين** (١)) قال : « يعلم همزه بعينه ، وإغماضه عما لا يحب الله »

---

(١) سورة : غافر آية رقم : ١٩". (٢)

١٦٧-"وهي الفناتق، أي الفنادق، والزبون يدخل الدكان للابتياع، والحاقن يدخل الخلاء للحاجة، وكل يؤتى على وجهه من بابه. وأما قول ابن زيد والشعبي فقول «١»! وذلك أن بيوت القيساريات محظورة بأموال الناس، غير مباحة لكل من أراد دخولها بإجماع، ولا يدخلها إلا من أذن له ربها، بل أربابها موكلون بدفع الناس.

[سورة النور (٢٤): آية ٣٠]

قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون (٣٠)

فيه سبع مسائل: الأولى- قوله تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ٣٠ وصل تعالى بذكر الستر ما يتعلق به من أمر النظر، يقال: غض بصره يغضه غضا، قال الشاعر:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعبا بلغت ولا كلابا

---

(١) تفسير العز بن عبد السلام موافق للمطبوع ص/١٠٢٤

(٢) تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني ١٢٥/٦

وقال عنترة.

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مأواها

ولم يذكر الله تعالى ما يغض البصر عنه ويحفظ الفرج، غير أن ذلك معلوم بالعادة، وأن المراد منه المحرم دون المحلل. وفي البخاري:" وقال سعيد بن أبي الحسن للحسن إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورءوسهن؟ قال: اصرف بصرك، يقول الله تعالى:" قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ٣٠" وقال قتادة: عما لا يحل لهم،" وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن" [النور: ٣١] **خائنة الأعين** [من «٢»] النظر إلى ما نهي عنه. الثانية- قوله تعالى: (من أبصارهم) ٣٠" من" زائدة، كقوله:" فما منكم من أحد عنه حاجزين «٣» " [الحاقة: ٤٧]. وقيل:" من" للتبعيض، لأن من النظر ما يباح. وقيل: الغض النقصان، يقال: غض فلان من فلان أي وضع منه، فالبصر إذا لم يمكن من عمله فهو موضوع منه ومنقوص. ف"- من" [من «٤»] صلة الغض، وليست للتبعيض ولا للزيادة.

---

(١). في ط: فتقول.

(٢). زيادة عن صحيح البخاري.

(٣). راجع ج ١٨ ص ٢٧٦.

(٤). من ب وك.". (١)

١٦٨-"الخامسة عشرة- أجمع العلماء على أن هبة المرأة نفسها غير جائز «١»، وأن هذا اللفظ من الهبة لا يتم عليه نكاح، إلا ما روي عن أبي حنيفة وصاحبيه فإنهم قالوا: إذا وهبت فأشهد هو على نفسه بمهر فذلك جائز. قال ابن عطية: فليس في قولهم إلا تجويز العبارة ولفظة الهبة، وإلا فالأفعال التي اشترطوها هي أفعال النكاح بعينه، وقد تقدمت هذه المسألة في" القصص" مستوفاة «٢». والحمد لله. السادسة عشرة- خص الله تعالى رسوله في أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد- في باب الفرض والتحريم والتحليل- مزية على الأمة وهبت «٣» له، ومرتبة خص بها، ففرضت عليه أشياء ما فرضت على غيره، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم، وحللت له أشياء لم تحلل لهم، منها متفق عليه ومختلف فيه. فأما ما فرض عليه فتسعة: الأول- التهجد بالليل، يقال: إن قيام الليل كان واجبا عليه إلى أن مات، لقوله تعالى:" يا أيها المزمل «٤». قم الليل" [المزمل: ٢ - ١] الآية. والمنصوص أنه كان، واجبا عليه ثم نسخ بقوله تعالى:" ومن الليل فتهجد به «٥» نافلة لك" [الاسراء: ٧٩] وسيأتي. الثاني- الضحا. الثالث- الأضحى. الرابع- الوتر، وهو يدخل في قسم التهجد. الخامس- السواك. السادس- قضاء دين من مات معسرا. السابع- مشاورة ذوي الأحلام في غير الشرائع. الثامن- تخير النساء. التاسع- إذا عمل عملا أثبته. زاد غيره: وكان يجب عليه إذا رأى منكرا أنكره وأظهره، لأن إقراره لغيره على ذلك يدل على جوازه، ذكره صاحب البيان. وأما ما حرم عليه فجملته عشرة: الأول- تحريم الزكاة عليه وعلى آله. الثاني-

---

(١) تفسير القرطبي ٢٢٢/١٢

صدقة التطوع عليه، وفي آله تفصيل باختلاف. الثالث- خائنة «٦» الأعين، وهو أن يظهر خلاف ما يضمر، أو ينخدع عما يجب. وقد ذم بعض الكفار عند إذنه ثم ألان له القول

---

(١). أي أمر غير جائز.

(٢). راجع ج ١٣ ص ٢٧٢.

(٣). في ابن العربي: (وهيبة له).

(٤). راجع ج ١٩ ص ٣٠.

(٥). راجع ج ١٠ ص (٣٠٧)

(٦). الخائنة بمعنى الخيانة وهي من المصادر التي جاءت على لفظ الفاعلة كالعافية فإذا كف الإنسان لسانه وأومأ بعينه فقد خان وإذا كان ظهور تلك الحالة من قبل العين سميت **خائنة الأعين."**. [1]

١٦٩-"قلت: والقول الأول ظاهر جدا، لأن المقصود إظهار انفراده تعالى بالملك عند انقطاع دعاوى المدعين وانتساب المنتسبين، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ومتكبر وملكه وانقطعت نسبهم ودعاويهم، ودل على هذا قوله الحق عند قبض الأرض والأرواح وطي السماء:" أنا الملك أين ملوك الأرض" كما تقدم في حديث أبي هريرة وفي حديث ابن عمر، ثم يطوي الأرض بشماله والسموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون. وعنه قوله سبحانه:" لمن الملك اليوم" هو انقطاع زمن الدنيا وبعده يكون البعث والنشر. قال محمد بن كعب قوله سبحانه:" لمن الملك اليوم" يكون بين النفختين حين فني الخلق وبقي الخالق فلا يرى غير نفسه مالكا ولا مملوكا فيقول:" لمن الملك اليوم" فلا يجيبه أحد، لأن الخلق أموات فيجيب نفسه فيقول:" لله الواحد القهار" لأنه بقي وحده وقهر خلقه. وقيل: إنه ينادي مناد فيقول:" لمن الملك اليوم" فيجيبه أهل الجنة:" لله الواحد القهار" فالله أعلم. ذكره الزمخشري. قوله تعالى:" اليوم تجزى كل نفس بما كسبت" أي يقال لهم إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده" اليوم تجزى كل نفس بما كسبت" من خير أو شر." لا ظلم اليوم" أي لا ينقص أحد شيئا مما عمله." إن الله سريع الحساب" أي لا يحتاج إلى تفكر وعقد يد كما يفعله الحساب، لأنه العالم الذي لا يعزب عن علمه شي فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره، وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة. وقد مضى هذا المعنى في" البقرة" «١». وفي الخبر: ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ١٨ الى ٢٢]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما

---

(١) تفسير القرطبي ٢١١/١٤

تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)

---

(١). راجع ج ٢ ص ٤٣٥ طبعه ثانيه. [.....]". [1]

١٧٠-"نفسه مثل مسجد الجامع وصلاة الأولى." ما للظالمين من حميم" أي من قريب ينفع" ولا شفيع يطاع" فيشفع فيهم. قوله تعالى:" يعلم **خائنة الأعين**" قال المؤرج: فيه تقديم وتأخير أي يعلم الأعين الخائنة وقال ابن عباس: هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها. وعنه: هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، وقد علم الله عز وجل منه أنه يود لو نظر إلى عورتها. وقال مجاهد هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. وقال قتادة: هي الهمزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى. وقال الضحاك: هي قول الإنسان ما رأيت وقد رأى أو رأيت وما رأى. وقال السدي: إنها الرمز بالعين. وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة. وقال الفراء:" **خائنة الأعين**" النظرة الثانية" وما تخفي الصدور" النظرة الأولى. وقال ابن عباس:" وما تخفي الصدور" أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا. وقيل:" وما تخفي الصدور" تكنه وتضمره. ولما جئ بعبد الله بن «١» أبي سرح إلى رسول الله لي الله عليه وسلم، بعد ما اطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان رضي الله عنه، صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال:" نعم" فلما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله:" ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه" فقال رجل من الأنصار فهلا أومأت إلي يا رسول الله، فقال:" إن النبي لا تكون له خائنة أعين"." والله يقضي بالحق" أي يجازي من غض بصره عن المحارم، ومن نظر إليها، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها." والذين يدعون من دونه" يعني الأوثان" لا يقضون بشيء" لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر عليه ولا تملك. وقراءة العامة بالياء على الخبر عن الظالمين وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ نافع وشيبة وهشام:" تدعون" بالتاء." إن الله هو السميع البصير"" هو" زائدة فاصلة. ويجوز أن تكون في موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبر والجملة خبر إن.

---

(١). عبد الله بن أبي سرح: كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ارتد ولحق بالمشركين، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة. راجع قصته في ج ٧ ص ٤٠ طبعه أولى أو ثانيه.". [2]

---

(١) تفسير القرطبي ٣٠١/١٥

(٢) تفسير القرطبي ٣٠٣/١٥

١٧١-"وحده" ميسرة" بضم السين، والجمهور بفتحها. وحكى النحاس عن مجاهد وعطاء" فناظره- على الأمر- إلى ميسرهي" بضم السين وكسر الراء وإثبات الياء في الإدراج. وقرى" فناظرة" قال أبو حاتم لا يجوز فناظرة، إنما ذلك في" النمل «١» " لأنها امرأة تكلمت بهذا لنفسها، من نظرت تنظر فهي ناظرة، وما في" البقرة" فمن التأخير، من قولك: أنظرتك بالدين، أي أخرتك به. ومنه قوله:" أنظرني إلى يوم يبعثون «٢» ". وأجاز ذلك أبو إسحاق الزجاج وقال: هي من أسماء المصادر، كقوله تعالى:" ليس لوقعتها كاذبة «٣» ". وكقوله تعالى:" تظن أن يفعل بها فاقرة «٤» " وك" خائنة الأعين «٥» " وغيره. الثامنة- قوله تعالى: (وأن تصدقوا «٦») ابتداء، وخبره (خير). ندب الله تعالى بهذه الألفاظ إلى الصدقة على المعسر وجعل ذلك خيرا من إنظاره، قاله السدي وابن زيد والضحاك. وقال الطبري: وقال آخرون: معنى الآية وأن تصدقوا على الغني والفقير خير لكم. والصحيح الأول، وليس في الآية مدخل للغني. التاسعة- روى أبو جعفر الطحاوي عن بريدة بن الخصيب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من أنظر معسرا كان له بكل يوم صدقة" ثم قلت: بكل يوم مثله صدقة، قال فقال:" بكل يوم صدقة ما لم يحل الدين فإذا أنظره بعد الحل فله بكل يوم مثله صدقة". وروى مسلم عن أبي مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شي إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال قال الله عز وجل نحن أحق بذلك منه تجاوزوا عنه". وروي عن أبي قتادة أنه طلب غريما له فتوارى عنه ثم وجده فقال: إني معسر. فقال: آلله؟ قال: آلله «٧». قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه"، وفي حديث أبي اليسر الطويل «٨» - واسمه

---

(١). راجع ج ١٣ ص ١٩٦.

(٢). ج ١٠ ص ٢٧.

(٣). ج ١٧ ص ١٩٤

(٤). ج ١٩ ص ١٠٨

(٥). ج ١٥ ص ٣٠٣.

(٦). قراءة نافع الإدغام.

(٧). قوله:" قال الله قال الله" قال النووي:" الأول بهمزة ممدودة على الاستفهام، والثاني بلا مد، والهاء فيهما مكسورة. قال القاضي: ورويناه بفتحهما معا وأكثر أهل العربية لا يجزون الكسر".

(٨). الطويل: صفة للحديث. [.....]". [1]

---

(١) تفسير القرطبي ٣/٣٧٤

١٧٢-"قلت: قد استنبط بعض العلماء من قوله في حديث علقمة بن وائل عن أبيه: [فانطلق ليحلف] القيام- والله أعلم- أخرجه مسلم. الرابع- التغليظ باللفظ، فذهبت طائفة إلى الحلف بالله لا يزيد عليه، لقوله تعالى:" فيقسمان بالله" وقوله:" قل إي وربي" «١»] يونس: ٥٣] وقال:" وتالله لأكيدن أصنامكم" «٢»] الأنبياء: ٥٧] وقوله عليه السلام: [من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت]. وقول الرجل: والله لا أزيد عليهن. وقال مالك: يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما له عندي حق، وما ادعاه علي باطل، والحجة له ما رواه أبو داود حدثنا مسدد قال حدثنا أبو الأحوص قال حدثنا عطاء بن السائب عن أبي يحيى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال- يعني لرجل حلفه [احلف بالله الذي لا إله إلا هو ما له عندك شي] يعني للمدعي، قال أبو داود: أبو يحيى اسمه زياد «٣» كوفي ثقة ثبت. وقال الكوفيون: يحلف بالله لا غير، فإن اتهمه القاضي غلظ عليه اليمين، فيحلفه بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم الذي يعلم من السر ما يعلم من العلانية الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور. وزاد أصحاب الشافعي التغليظ بالمصحف. قال ابن العربي: وهو بدعة ما ذكرها أحد قط من الصحابة. وزعم الشافعي أنه رأى ابن مازن قاضي صنعاء يحلف بالمصحف ويأمر أصحابه بذلك] ويرويه [«٤» عن ابن عباس، ولم يصح. قلت: وفي كتاب (المهذب) وإن حلف بالمصحف وما فيه من القرآن فقد حكى الشافعي عن مطرف أن ابن الزبير كان يحلف على المصحف، قال: ورأيت مطرفا بصنعاء يحلف «٥» على المصحف، قال الشافعي: وهو حسن. قال ابن المنذر: وأجمعوا على أنه لا ينبغي للحاكم أن يستحلف بالطلاق والعتاق والمصحف «٦». قلت: قد تقدم في الأيمان: وكان قتادة يحلف بالمصحف. وقال أحمد وإسحاق: لا يكره ذلك، حكاه عنهما ابن المنذر.

---

(١). راجع ج ٨ ص ٣٥١.
(٢). راجع ج ١١ ص ٢٩٦.
(٣). هو أبو يحيى زياد الأعرج مولى الأنصار. [.....]
(٤). من الأصول. وفي ابن العربي: ويأثر أصحابه ذلك عن ابن عباس.
(٥). وفي ب وج وع وى وهـ: يستحلف.
(٦). في ب وع وهـ وى: أو المصحف.". [1]

١٧٣-"قوله تعالى: (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) " من" في موضع خفض، أي ومن أظلم ممن قال سأنزل، والمراد عبد الله بن أبي سرح الذي كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ارتد ولحق بالمشركين. وسبب ذلك فيما ذكر المفسرون أنه لما نزلت الآية التي في" المؤمنون":" ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين «١» " دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فأملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله" ثم أنشأناه خلقا آخر" عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان فقال:"

---

(١) تفسير القرطبي ٣٥٤/٦

فتبارك الله أحسن الخالقين". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وهكذا أنزلت علي) فشك عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقا لقد أوحي إلى كما أوحى إليه ولين كان كاذبا لقد قلت كما قال. فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، فذلك قوله:" ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله" رواه الكلبي عن ابن عباس. وذكره محمد بن إسحاق قال حدثني شرحبيل قال: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح" ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله" ارتد عن الإسلام، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أمر بقتله وقتل عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، ففر عبد الله بن أبي سرح إلى عثمان رضي الله عنه، وكان أخاه من الرضاعة، أرضعت أمه عثمان، فغيبه عثمان حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما اطمأن أهل مكة فاستأمنه له، فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال: (نعم). فلما انصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه). فقال رجل من الأنصار: فهلا أو مات إلي يا رسول الله؟ فقال: (إن النبي لا ينبغي أن تكون له **خائنة الأعين** «٢». قال أبو عمر: وأسلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح أيام الفتح فحسن إسلامه، ولم يظهر منه ما ينكر عليه بعد ذلك. وهو أحد النجباء العقلاء الكرماء من قريش، وفارس بني عامر بن لؤي المعدود فيهم، ثم ولاه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين. وفتح على يديه إفريقية سنة سبع وعشرين، وغزا منها الأساود من أرض النوبة سنة إحدى وثلاثين، وهو هادنهم الهدنة الباقية إلى اليوم.

(١). راجع ج ١٢ ص ١٠٨.

(٢). أي يضمر في نفسه غير ما يظهره فإذا كف لسانه وأومأ بعينه فقد خان.". [١]

١٧٤-"جبريل عليهما السلام، فقلت: هذا دحية يا رسول الله؟ فقال:" هذا جبريل عليه السلام". قال:" يا رسول الله ما يمنعك من بني قريظة أن تأتيهم (؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" فكيف لي بحصنهم" فقال جبريل:" فإني أدخل فرسي هذا عليهم". فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا معرورى «١»، فلما رآه علي رضي الله عنه قال: يا رسول الله، لا عليك ألا تأتيهم، فإنهم يشتمونك. فقال:" كلا إنها ستكون تحية". فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا إخوة القردة والخنازير) فقالوا: يا أبا القاسم، ما كنت فحاشا! فقالوا: لا ننزل على حكم محمد، ولكنا ننزل على حكم سعد بن معاذ، فنزل. فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" بذلك طرقني الملك سحرا". فنزل فيهم" يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون". نزلت في أبي لبابة، أشار إلى بني قريظة حين قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، لا تفعلوا فإنه الذبح، وأشار إلى حلقه. وقيل: نزلت الآية في أنهم يسمعون الشيء من النبي صلى الله عليه وسلم فيلقونه إلى المشركين ويفشونه. وقيل: المعنى بغلول الغنائم. ونسبتها إلى الله، لأنه هو «٢» الذي أمر بقسمتها. وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه المؤدي عن الله عز وجل والقيم بها. والخيانة: الغدر وإخفاء الشيء، ومنه: (يعلم **خائنة الأعين** «٣») ٤٠: ١٩ وكان عليه السلام يقول: (اللهم إني أعوذ بك

(١) تفسير القرطبي ٧/٤٠

من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنها بئست البطانة). خرجه النسائي عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، فذكره. (وتخونوا أماناتكم)

في موضع جزم، نسقا على الأول. وقد يكون على الجواب، كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. والأمانات: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد. وسميت أمانة لأنها يؤمن معها من منع الحق، مأخوذ من الأمن. وقد تقدم في" النساء" القول في أداء الأمانات والودائع «٤» وغير ذلك. (وأنتم تعلمون) أي ما في الخيانة من القبح والعار. وقيل: تعلمون أنها أمانة.

---

(١). عريانا.

(٢). من ج.

(٣). راجع ج ١٥ ص ٣٠١ فما بعد.

(٤). راجع ج ٥ ص ٢٥٥.". (١)

١٧٥-"قوله تعالى: (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) " من " في موضع خفض، أي ومن أظلم ممن قال سأنزل، والمراد عبد الله بن أبي سرح الذي كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ارتد ولحق بالمشركين.

وسبب ذلك فيما ذكر المفسرون أنه لما نزلت الآية التي في " المؤمنون ": " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (١) " دعاه النبي صلى الله عليه وسلم فأملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله " ثم أنشأنا خلقا آخر " عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان فقال: " تبارك الله أحسن الخالقين ".

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وهكذا أنزلت علي) فشك عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقا لقد أوحي إلي كما أوحي إليه ولئن كان كاذبا لقد قلت كما قال.

فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، فذلك قوله: " ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله " رواه الكلبي عن ابن عباس.

وذكره محمد بن إسحاق قال حدثني شرحبيل قال: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح " ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله " ارتد عن الإسلام، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أمر بقتله وقتل عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة ولو وجدوا تحت أستار الكعبة، ففر عبد الله بن

أبي سرح إلى عثمان رضي الله عنه، وكان أخاه من الرضاعة، أرضعت أمه عثمان، فغيبه عثمان حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما اطمأن أهل مكة فاستأمنه له، فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال: (نعم).

فلما أنصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه).

فقال رجل من الأنصار: فهلا أو مأت إلي يا رسول الله ؟ فقال: (إن النبي لا ينبغي أن تكون له **خائنة الأعين** (٢).

قال أبو عمر: وأسلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح أيام الفتح فحسن إسلامه، ولم يظهر منه ما ينكر عليه بعد ذلك.

---

(١) تفسير القرطبي ٧/٣٩٥

وهو أحد النجباء العقلاء الكرماء من قريش، وفارس بني عامر بن لؤي المعدود فيهم، ثم ولاه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين.

وفتح على يديه إفريقية سنة سبع وعشرين، وغزا منها الأساود من أرض النوبة سنة إحدى وثلاثين، وهو هادنهم الهدنة الباقية إلى اليوم.

---

(١) راجع ج ١٢ ص ١٠٨.

(٢) أي يضمر في نفسه غير ما يظهره فإذا كف لسانه وأومأ بعينه فقد خان.

(*)".[1]

١٧٦-"جبريل عليهما السلام، فقلت: هذا دحية يا رسول الله ؟ فقال: " هذا جبريل عليه السلام ".

قال: " يا رسول الله ما يمنعك من بني قريظة أن تأتيهم) ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فكيف لي بحصنهم " فقال جبريل: " فإني أدخل فرسي هذا عليهم ".

فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا معروري (١)، فلما رآه علي رضي الله عنه قال: يا رسول الله، لا عليك ألا تأتيهم، فإنهم يشتمونك.

فقال: "كلا إنها ستكون تحية ".

فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا إخوة القردة والخنازير) فقالوا: يا أبا القاسم، ما كنت فحاشا ! فقالوا: لا ننزل على حكم محمد، ولكنا ننزل على حكم سعد بن معاذ، فنزل.

فحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بذلك طرقني الملك سحرا ".

فنزل فيهم " يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ".

نزلت في أبي لبابة، أشار إلى بني قريظة حين قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، لا تفعلوا فإنه الذبح، وأشار إلى حلقه.

وقيل: نزلت الآية في أنهم يسمعون الشئ من النبي صلى الله عليه وسلم فيلقونه إلى المشركين ويفشونه.

وقيل: المعنى بغلول الغنائم.

ونسبتها إلى الله، لأنه هو (٢) الذي أمر بقسمتها.

وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنه المؤدي عن الله عز وجل والقيم بها.

والخيانة: الغدر وإخفاء الشئ، ومنه: (يعلم خائنة الأعين (٣)) وكان عليه السلام يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ومن الخيانة فإنها بئست البطانة).

---

(١) تفسير القرطبي ٧/٤٠

خرجه النسائي عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول، فذكره.

(وتخونوا أماناتكم) في موضع جزم، نسقا على الأول.

وقد يكون على الجواب، كما يقال:

لا تأكل السمك وتشرب اللبن.

والأمانات: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد.

وسميت أمانة لأنها يؤمن معها من منع الحق، مأخوذ من الأمن.

وقد تقدم في " النساء " القول في أداء الأمانات والودائع (٤) وغير ذلك.

(وأنتم تعلمون) أي ما في الخيانة من القبح والعار.

وقيل: تعلمون أنها أمانة.

---

(١) عريانا.

(٢) من ج.

(٣) راجع ج ١٥ ص ٣٠١ فما بعد.

(٤) راجع ج ٥ ص ٢٥٥.

(*)".[١]

١٧٧-"نفسه مثل مسجد الجامع وصلاة الأولى.

" ما للظالمين من حميم " أي من قريب ينفع " ولا شفيع يطاع " فيشفع فيهم.

قوله تعالى: " يعلم **خائنة الاعين** " قال المؤرج: فيه تقديم وتأخير أي يعلم الأعين الخائنة وقال ابن عباس: هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها.

وعنه: هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، وقد علم الله عز وجل منه أنه يود لو نظر إلى عورتها.

وقال مجاهد هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه.

وقال قتادة: هي الهمزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى.

وقال الضحاك: هي قول الإنسان ما رأيت وقد رأى أو رأيت وما رأى.

وقال السدي: إنها الرمز بالعين.

وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة.

---

(١) تفسير القرطبي ٧/٣٩٥

وقال الفراء: " خائنة الأعين " النظرة الثانية " وما تخفي الصدور " النظرة الأولى.

وقال ابن عباس: " وما تخفي الصدور " أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا.

وقيل: " وما تخفي الصدور " تكنه وتضمره.

ولما جئ بعبدالله بن أبي سرح إلى رسول الله لى الله عليه وسلم،

بعد ما اطمأن أهل مكة وطلب له الأمان عثمان رضي الله عنه، صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال: " نعم " فلما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله: " ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه " فقال رجل من الأنصار فهلا أومأت إلي يا رسول الله، فقال: " إن النبي لا تكون له خائنة أعين ".

" والله يقضى بالحق " أي يجازي من غض بصره عن المحارم، ومن نظر إليها، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها.

" والذين يدعون من دونه " يعني الأوثان " لا يقضون بشى " لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر عليه ولا تملك.

وقراءة العامة بالياء على الخبر عن الظالمين وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم.

وقرأ نافع وشيبة وهشام: " تدعون " بالتاء.

" إن الله هو السميع البصير " " هو " زائدة فاصلة.

ويجوز أن تكون في موضع رفع بالابتداء وما بعدها خبر والجملة خبر إن.

---

(١) عبد الله بن أبي سرح: كان يكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ارتد ولحق بالمشركين، فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة.

راجع قصته في ج ٧ ص ٤٠ طبعة أولى أو ثانيه.

(*)".[١]

١٧٨-"يوم الآزفة : يوم القيامة ، ومعنى الآزفة : القريبة . الحناجر : جمع حنجرة ، الحلقوم . كاظمين : ممسكين ، محزونين . حميم : صديق . خائنة الأعين : الأعين التي تزوغ وتنظر بخبث . وما تخفي الصدور : ما تكتمه الضمائر . من واق : من حافظ .

أنذر أيها الرسول مشركي قومك عذاب يوم القيامة وهوله ، حين تصير القلوب عند الحناجر من شدة الخوف . يومئذ ليس لهم صديق ينفعهم ، ولا شفيع تقبل شفاعته لهم ، والله تعالى لا يخفى عليه شيء ، يعلم النظرة الخائنة ، والسر المستور الذي تخفيه الصدور . وهو تعالى يقضي بالعدل والحق ، فلا يظلم احدا ولا ينسى شيئا ، والآلهة المزعومة لا يستطيعون عمل شيء ، ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ .

ألم يسافر المشركون في الأرض ، فيروا كيف كان مآل الأمم الماضية!! كانوا أشد منهم قوة وتركوا آثارا عظيمة في الأرض ،

---

(١) تفسير القرطبي ٣٠٣/١٥

فاستأصلهم الله بذنوبهم .

﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾

لم يكن لهم من ينصرهم ويحفظهم من عذاب الله .

وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من آية ، ولكن بأسلوب مختلف .

ولقد نزل بهم ذلك العذاب لأنهم كذبوا رسلهم وجحدوا آيات الله ﴿ فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ﴾

قراءات :

قرأ نافع وهشام : والذين تدعون : بالتاء . والباقون : يدعون : بالياء .". (١)

١٧٩-"" صفحة رقم ١٦٣ "

يرضون إلا من أحبه الله ورضيه ، وأن الله لا يحب الظالمين ، فلا يحبونهم ، وإذا لم يحبوهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم . قال الله تعالى :) وما للظالمين من أنصار ((البقرة : ٢٧٠) وقال :) ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ((الأنبياء : ٢٨) ولأن الشفاعة لا تكون إلا في زيادة التفضل ، وأهل التفضل وزيادته إنما هم أهل الثواب ، بدليل قوله تعالى :) ويزيدهم من فضله ((النساء : ١٧٤) وعن الحسن رضي الله عنه : والله ما يكون لهم شفيع البتة ، فإن قلت : الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه ، فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها ؟ قلت : في ذكرها فائدة جليلة ، وهي أنها ضمت إليه ، ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة ، لأن الصفة لا تتأتى بدون موصوفها ، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف ، بيانه : أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت : ما لي فرس أركبه ، ولا معي سلاح أحارب به ، فقد جعلت عدم الفرس وفقد السلاح علة مانعة من الركوب والمحاربة ، كأنك تقول : كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة ولا فرس لي ولا سلاح معي ، فكذلك قوله :) ولا شفيع يطاع (معناه : كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع ، فكان ذكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأتيه بعدم الشفيع : وضعا لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه .

) يعلم خآئنة الا عين وما تخفى الصدور (

غافر : (١٩) يعلم خائنة الأعين . . . . .

الخائنة : صفة للنظرة . أو مصدر بمعنى الخيانة ، كالعافية بمعنى المعافاة ، والمراد : استراق النظر إلى ما لا يحل ، كما يفعل أهل الريب ، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين ، لأن قوله :) وما تخفى الصدور (لا يساد عليه . فإن قلت : بم اتصل قوله :) يعلم خائنة الاعين (؟ قلت : هو خبر من أخبار هو في قوله :) هو الذى يريكم ((الرعد : ١٢) مثل) يلقى الروح ((غافر : ١٥) ولكن) يلقى الروح ((غافر : ١٥) قد علل بقوله :) لينذر يوم التلاق ((غافر : ١٥) ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله :) ولا شفيع يطاع ((غافر : ١٨) فبعد لذلك عن أخواته .

---

(١) تفسير القطان ٣/١٨٤

) والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير (
غافر : (٢٠) والله يقضي بالحق . . . . .
) والله يقضى بالحق (يعني : والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلا بالحق". (١)

١٨٠-"أو لفظ الطاعة بمعنى حصول المرتبة فهذا يدل على أنه ليس لهم يوم القيامة شفيع يطيعه الله ، لأن ليس في الوجود أحد أعلى حالا من الله سبحانه وتعالى حتى يقال : إن الله تعالى يطيعه.
والثاني : أن المراد بالظالمين ههنا : الكفار ، لأن هذه الآية وردت في زجر الكفار وقال تعالى : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان : ١٣].
الثالث : أن لفظ الظالمين إما أن يفيد الاستغراق أو لا يفيد الاستغراق فإن كان المراد من الظالمين مجموعهم فيدخل في هذا المجموع هم الكفار وليس لهم شفيع فحنيئذ لا يكون لهذا المجموع شفيع ، وإن لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض الموصوفين بهذه الصفة وعندنا أن بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع وهم الكفار.
وأجاب (بعض] المعتزلة عن الأول فقالوا : يجب حمل كلام الله تعالى على محمل مفيد وكل أحد يعلم أنه ليس في الوجود شيء يطيعه الله لأن المطيع أدون حالا من المطاع وليس في الوجود أعلى درجة من الله حتى يقال : إن الله يطيعه ، وإذا كان هذا المعنى معلوما بالضرورة كان حمل الآية عليه إخراجا لها عن الفائدة ، فوجب حمل الطاعة على الإجابة ويدل على أن لفظ الطاعة بمعنى الإجابة قول الشاعر : ٤٣٢٩. رب من أنضجت غيظا صدره
قد تمنى لي موتا لم يطع
٣١
وعن الثاني : بأن لفظ " الظالمين " صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم ، أقصى ما في الباب أن هذه الآية وردت لذم الكافر ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وعن الثالث أن قوله : ﴿ما للظالمين من حميم﴾ يفيد أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع يطاع.
وأجيبوا عن الأول بأن القوم كانوا يقولون في الأصنام : إنها شفعاؤهم عند الله ، وكانوا يقولون : إنها تشفع لهم عند الله من غير حاجة إلى إذن فلهذا السبب رد ا لله تعالى عليهم ذلك بقوله : ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة : ٢٥٥] فهذا يدل على أن القوم اعتقدوا أنه يجب على الله تعالى إجابة تلك الأصنام في الشفاعة وهذا نوع طاعة فالله تعالى نفى تلك الطاعة بقوله : ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾.
وعن الثاني بأن قالوا : الأصل في حرف التعريف أن ينصرف إلى المعهود السابق فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق انصرف إليه ، وقد حصل في هذه الآية معهود سابق وهم الكفار الذين يجادلون في آيات الله فوجب أن ينصرف إليهم.

---

(١) تفسير الكشاف ـ موافق للمطبوع ٤/١٦٣

وعن الثالث بأن قالوا قوله : ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ يحتمل عموم السلب ، ويحتمل سلب العموم ، أما الأول : فعلى تقدير أن يكون المعنى أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ، ولا شفيع.

وأما الثاني : فعلى تقدير أن يكون مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع ، ولا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع ، ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا سوآء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ [البقرة : ٦] وقوله : ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ [يونس : ٩٦] فإن حملناه على أن كل واحد منهم محكوم عليه بأنه لايؤمن لزم وقوع الخلف في كلام الله تعالى ؛ لأن كثيرا ممن كفر قد آمن بعد ذلك ، أما لو حملناه على أن مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أو لم يؤمن صدق وتخلص عن الخلف ، فلا جرم حلمنا هذه الآية على سلب العموم لا على عموم السلب وحينئذ يسقط استدلال المعتزلة بهذه الآية.

قوله " يعلم " فيه أربعة أوجه : أظهرها : أنه خبر آخر عن " هو " في قوله ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ [غافر : ١٣] ، قال الزمخشري : فإن قلت : بم اتصل قوله ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قلت : هو خبر من أخبار

٣٢

". (١)

١٨١-"" هو " في قوله ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ [غافر : ١٣] مثل " يلقي الروحط " ولكن " يلقي الروح " قد علل بقوله " لينذر " ثم استطرد لذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله " ولا شفيع يطاع " فبعد لذلك عن أخواته.

الثاني : أنه متصل بقوله " وأنذرهم " لما أمر بإنذاره يوم الآزمة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا شفيع له ، ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا إذ المعنى أنه تعالى عالم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات والأرض ، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب شديدا جدا وعلى هذا فهذه الجملة لا محل لها لأنها في قوة التعليل للأمر بالإنذار.

الثالث : أنها متصلة بقوله : " سريع الحساب ".

الرابع : أنها متصلة بقوله : ﴿لا يخفى على الله﴾ [غافر : ١٦] وعلى هذين الوجهين فيحتمل أن تكون جارية مجرى العلة ، وأن تكون في محل نصب على الحال.

و " **خائنة الأعين** " فيه وجهان : أحدهما : أنها مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة (والعافية) أي يعلم خيانة الأعين أي استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب.

والثاني : أنها صفة على بابها وهو من باب إضافة الصفة للموصوف والأصل الأعين الخائنة كقوله : ٤٣٣٠..............................

وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع ص/٤٣٩٣

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٧

وقد رده الزمخشري وقال : لا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين لأن قوله : ﴿وما تخفي الصدور﴾ لا يساعد عليه يعنهي أنه لا يناسب أن يقابل المعنى إلا بالمعنى.

٣٣

وفيه نظر ؛ أذ لقائل أن يقول لا نسلم أن " ما " في قوله ﴿وما تخفي الصدور﴾ مصدرية حتى يلزم ما ذكره ، بل يجوز أن يكون بمعنى الذي وهو عبارة عن نفس ذلك الشيء المخفي فيكون قد قابل الاسم غير المصدر بمثله ، والمراد بقوله : ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي تضمر القلوب.

واعلم أن الأفعال قسمان : أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب ، وأما أفعال الجوارح فأخفاها **خائنة الأعين** والله بهات فكيف الحال في سائر الأعمال ، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله ﴿وما تخفي الصدور﴾ فدل هذا على كونه عالما بجميع أفعالهم.

قوله ﴿والله يقضي بالحق﴾ وهذا أيضا يوجب عظم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى.

قوله : " والذين يدعون " ، قرأ نافع وهشام تدعون بالخطاب للمشركين والباقون بالغيبة ، إخبارا عنهم بذلك.

واعلم أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام فبين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة ، فقال : ﴿الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ ثم قال : ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ، ولا يسمع ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم ، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله.

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٧

ولما بالغ في تخويفهم بأحوال أهل الآخرة أردفه بيان تخويفهم بأحوال أهل الدنيا فقال ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ والمعنى أن العال من اعتبر بغيره ، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار ، وأقوى آثارا في الأرض أي حصونهم وقصورهم وعساكرهمخ ، فملا كذبوا رسلهم أهلكهم الله عاجلا حتى إن هؤلاء الجاحدين من الكفار شاهدوا تلك الآثار

٣٤

فحذرهم الله من مثل ذلك وقال ﴿وما لهم من الله من واق﴾ [الرعد : ٣٤] أي لما نزل العذاب بهم لم يجدوا معينا يخلصهم.

قوله " فينظروا " يجوز أن يكون منصوبا في جواب الاستفهام ، وأن يكون مجزوما نسقا على ماقبله كقوله : ٤٣٣١. ألم تسأل فتخبرك الرسوم

....

رواه بعضهم بالجزم ، والنصب.

قوله " منهم " قوة " قرأ ابن عامر " منكم " على سبيل الالتفات ، وكذلك هو في مصاحفهم ، والباقون " منهم " بمضير

الغيبة جريا على ما سبق من الضمائر الغائبة.

قوله : " وآثارا " عطف على " قوة " وهو في قوة قوله " وتنحتون من الجبال بيوتا آمنين ".

وجعله الزمخشري منصوبا بمقدر ، قال : أو أراد أكثر آثارا كقوله : " متقلدا سيفا ورمحا " (يعني ومعتقلا رمحا) ؟ ولا حاجة إلى هذا مع الاستغناء عنه.

قوله " ذلك " أي ذلك العذاب الذي نزل بهم ﴿بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب﴾ وهو مبالغة في التخويف والتحذير.

". (١)

١٨٢-"بمعنى واحد، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: (فالحكم لله العلي الكبير).

قال قتادة: لما خرج أهل حروراء قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: " من هؤلاء؟ قيل: المحكمون، قال قائل: هم القراء، قال - عليه السلام - ليسوا بالقراء، ولكنهم العيابون الخيابون، قال: إنهم يقولون " لا حكم إلا لله، قال علي - رضي الله عنه -: كلمة حق أريد بها باطل "، وذكر: " عني بها باطل ".

* * *

قوله تعالى: (هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩)

وقوله: (هو الذي يريكم آياته).

اختلف في قوله: (يريكم) هو ما أراهم بمكذبي رسله ومصدقهم من أوائلهم حيث استأصل هؤلاء بتكذيبهم رسله، وأنجى مصدقيهم بتصديقهم إياه؛ ليحذر هؤلاء عن تكذيب رسوله. وقال بعضهم: أراهم آيات وحدانيته وربوبيته وقدرته وسلطانه في السماوات والأرض ما لو تأملوا لعرفوا ذلك؛ وهو كقوله - تعالى -: (وكأين من آية في السماوات والأرض)، آيات وحدانيته وربوبيته، وذكر أنهم يمرون عليها، أي: يرونها - لكنهم يعرضون عنها، والله أعلم.

وقال بعضهم في قوله: (هو الذي يريكم آياته): يا أهل مكة إذا سافرتم رأيتم آيات المتقدمين ومنازلهم وهلاكهم؛ وهو الأول بعينه.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع ص/٤٣٩٤

وقوله: (وينزل لكم من السماء رزقا).

يخبر عن آيات وحدانيته أيضا: أنه ينزل رزقهم من السماء، وحيل الخلق تنقطع عن استنزال الرزق من السماء؛ ليعلموا أن منشئ الأرض والسماء واحد حيث اتصل منافع السماء بمنافع الأرض على بعد ما بينهما.

ويحتمل أنه يذكر نعمه عليهم حيث يعلمون أنه هو الذي أنزل أرزاقهم من السماء دون من يعبدون من الأصنام، فكيف تصرفون عبادتكم وشكركم إلى غيره؟!

وقوله: (وما يتذكر إلا من ينيب).". (١)

١٨٣-"وقوله - عز وجل -: (يعلم خائنة الأعين ... (١٩) والخيانة واحد، وهو ما قال عز وجل: (ولا تزال تطلع على خائنة منهم)، أي: خيانة منهم. وقال بعضهم: هي النظرة بعد النظرة: أما الأولى فليس فيها شيء، وأما الثانية فعليه مأثمها.

وقوله: (وما تخفي الصدور).

أي: ما لم يتكلم به المرء ولم يعمل، كل ذلك يعلمه الله تعالى.

وقال بعضهم: خائنة الأعين: هي النظرة فيما لا يحل والغمزة بعينه؛ وهو مثل الأول.

وقال بعضهم: خائنة الأعين: هي التي ينتظرها: غفلة الناس إذا غفلوا عنه، نظر إلى ما يهواه ويحبه، و (تخفي الصدور) هو ما ذكر - عز وجل -: (يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون)، يذكر هذا ليكونوا أبدا مراقبين أنفسهم، حافظين لها عما لا يحل من السمع والبصر والفؤاد، وعلى ما ذكر في آية أخرى: (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)، ليكونوا أبدا على حذر من ذلك وخوف، والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: (والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)

وقوله - عز وجل -: (والله يقضي بالحق).

قال أهل التأويل: أي: الحكم بالحق. والقضاء المذكور في الكتاب يخرج على وجوه: أحدها: (يقضي) أي: يأمر؛ كقوله تعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)؛ وكقوله: (إذا قضى الله ورسوله أمرا)، أي: إذا أمر أمرا، يقول: (والله يقضي بالحق) أي: يأمر بالحق، (والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء) أي: لا يملكون الأمر بالحق، فكيف تعبدون من دونه؟!

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة ١١/٩

والثاني: القضاء: الوحي والخبر؛ كقوله تعالى: (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب)". [1]

١٨٤-"أي: أوحينا إليهم، فكأنه يقول: والله يوحي بالحق ويخبر به، والذين يدعون من دونه لا يملكون الوحي ولا الخبر، فكيف اخترتم عبادتهم على عبادة من يوحي بالحق ويخبر؟! والله أعلم.

والثالث: القضاء هو الخلق والإنشاء؛ كقوله تعالى: (فقضاهن سبع سماوات) أي: خلقهن، فيكون قوله على هذا (والله يقضي بالحق)، أي: يخلق بالحق، والذين يدعون من دونه لا يخلقون شيئا، وقد يعلمون استحقاق العبادة إنما يجوز بالخلق والإنشاء؛ وهو كقوله تعالى: (أفمن يخلق كمن لا يخلق)، (خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم)، يقول: خلق من يدعون دونه كخلقه حتى تشابه ذلك عليهم فعبدوهم؛ إذ يعلمون أن من خلق ليس كمن لم يخلق، وقد تعلمون أنها لم تخلق شيئا، فكيف عبدتموها؟! والله أعلم.

ثم أقول: أصل التأويل (يقضي بالحق) أي: يحكم بالحق في الدنيا بالآيات والحجج ما عرف كل أحد أنها حجج وآيات وبراهين، والحكم بما ذكرنا حكم بالحق، والله أعلم.

والثاني: أي يحكم بالحق في الآخرة وهو الشفاعة، أي: لا يجعل الشفاعة لمن يعبدون على رجاء الشفاعة؛ كقولهم: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله)، ولكن إنما يجعل لمن ارتضى؛ كقوله تعالى: (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: (إن الله هو السميع البصير).

روي عن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قال: السميع للمؤمن، أي: المجيب للمؤمن، والبصير لعقاب أولئك.

وقيل: السميع لأقوالهم، البصير بأفعالهم.

وجائز أن يكون قوله - تعالى -: (إن الله هو السميع البصير) صلة ما تقدم من قوله: (يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور) يقول: السميع بما يكون منهم ظاهرا من قول أو فعل، والبصير بما أخفوا في قلوبهم وتكن صدورهم، يخبر بهذا؛ ليكونوا أبدا مراقبين حافظين أنفسهم ما ظهر وما خفي، والله أعلم.

وقوله - عز وجل -: (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١).

هذا يخرج على وجهين:". [2]

١٨٥-"قيل معنى الخالقين هاهنا المصورين أو المقدرين والخلق في اللغة التقدير وقبل

التفسير المظهري ج ٦ ، ص : ٣٧٢

هذا على سبيل الفرض وفرض المحال ليس بمحال يعنى لو فرضنا تعدد الخالقين - ركما هو رأى المعتزلة مجوس هذه الامة

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة ١٦/٩

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة ١٧/٩

فالله تعالى أحسنهم أخرج ابن أبي حاتم عن عمر قال وافقت ربي في اربع نزلت ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين الآيات فلما نزلت قلت فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت فتبارك الله أحسن الخالقين الحديث – وهذه القصة تدل على ان ما دون الآية ليس بمعجز يقدر عليه البشر حيث نطق به عمر رضى الله عنه – وقيل ان عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فنطق بذلك قبل إملائه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هكذا نزلت فقال عبد الله ان كان محمد نبيا يوحى إليه فانا نبي يوحى الى فارتد ولحق بمكة – فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أهدر دمه فيمن أهدر من الدماء فجاء إلى عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فصمت طويلا ثم قال نعم فلما انصرف عثمان قال النبي صلى الله عليه وسلم ما صمت الا لتقتلوه فقال رجل هلا أو مأت إلينا يا رسول الله فقال ما كان لنبي ان يكون له **خائنة الأعين** ثم اسلم ذلك اليوم وحسن إسلامه قلت ذكر في سبيل الرشاد ارتداده واهدار النبي صلى الله عليه وسلم دمه وشفاعة عثمان وغير ذلك لكن لم يذكر ان سبب ارتداده كان نطقه بهذه الآية قبل إملائه ولا يتصور ان يكون هذا سببا لارتداده لان ارتداده كان بالمدينة وهذه السورة مكية والله اعلم.". [١]

١٨٦-"يعلم **خائنة الأعين** أى النظرة الخائنة كالنظرة إلى من حرم النظر إليها واستراق النظر إليها أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة يعنى يعلم خيانة الأعين الجملة خبر اخر لهو فى قوله هو الذى يريكم آياته وما تخفي الصدور (١٩) من الضمائر قيل يعنى ما يتفكر الرجل بقلبه فى جمال امراة اجنبية بعد ما ينظر إليها بشهوة مسارقة.
والله يقضي بالحق لأنه المالك على الإطلاق والحكيم والعليم بما ظهر وما بطن فلا يقضى الا بما يقتضيه علمه وحكمته ولا يقضى الا وهو حقه والجملة عطف على يعلم والذين يدعون قرأ نافع وهشام بالتاء للخطاب على الالتفات أو بإضمار قل والباقون بالياء للغيبة من دونه من الأوثان والشياطين والملوك الجبابرة لا يقضون بشي ء لعدم قدرتهم على القضاء إن الله هو
التفسير المظهري ج ٨ ، ص : ٢٥١
السميع البصير
(٢٠) تقرير لعلمه **بخائنة الأعين** وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه بانها لا تسمع ولا تبصر.
أ ولم يسيروا عطف على محذوف تقديره ا ينكرون وبال الكفر ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة أى مال إليه امر الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة للرسل كعاد وثمود كانوا هم أشد منهم قوة قدرة وتمكنا جئ بالفصل لمشابهة افعل من بالمعرفة فى امتناع دخول اللام عليه قرأ ابن عامر أشد منكم على الالتفات وآثارا في الأرض من القلاع والمدائن الحصينة وقيل المعنى اكثر اثارا كقوله متقلدا سيفا ورمحا فأخذهم الله بذنوبهم فاهلكهم بالريح أو الصيحة أو نحو ذلك وما

---

(١) تفسير المظهرى ص/٤٤٦٣

كان لهم من الله من واق (٢١) يمنع عنهم من العذاب حيث لم يلتجئوا إليه الجملة عطف أو حال ذلك الاخذ.". (١)

١٨٧-" النور ٣١ - ٣٠

ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون

غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل ويحفظوا فروجهم عن الزنا ولم يدخل من هنا لأن الزنا لارخصة فيه بوجه ويجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفها وقدميها فى رواية وإلى رأس المحارم والصدر والساقين والعضدين ذلك أى غض البصر وحفظ الفرج أزكى لهم أى أطهر من دنس الإثم إن الله خبير بما يصنعون فيه ترغيب وترهيب يعنى أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم وكيف يجيلون أبصارهم يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذر فى كل حركة وسكون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجنه أمر بغض الابصار فال يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبى إلى ما تحت سرته إلى ركبتيه وإن اشتهت غضت بصرها رأسا ولا تنظر إلى المرأة إلا إلى مثل ذلك وغض بصرها من الأجانب أصلا أولى بها وإنما قدم غض الابصار على حفظ الفروج لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور فبذر الهوى طموح العين ولا يبدين زينتهن الزينة ما تزينت به المرأة من حلى أو كحل أو خضاب والمعنى ولا يظهرن مواضع الزينة إذ إظهار عين الزينة وهى الحلى ونحو مباح فالمراد بها مواضعها أو إظهارها وهى فى مواضعها لاظهار مواضعها لإظهار أعيانها ومواضعها الرأس والأذن والعنق والصدور والعضدان والذراع والساق فهى للاكليل والقرط القلادة والوشاح والدملج والسوار والخلخال إلا ما ظهر منها إلا ماجرت العادة والجبلة على ظهوره وهو الوجه والكفان والقدمان ففى سترها حرج بين فإن المرأة لا تجديدا من مزاولة الأشياء بيديها ومن إلى كشف وجهها خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر إلى المشى فى الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن وليضربن وليضعن من قولك ضربت بيدى على الحائط إذا وضعتها عليه بخمرهن جمع خمار على جيوبهن بضم الجيم مدنى وبصرى وعاصم كانت جيوبهن واسعة تبدو منها صدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فأمرن بأن يسدلنها من قدامهن حتى تغطينها إلا لبعولتهن لأزواجهن جمع بعل أو آبائهن ويدخل فيهم الأجداد أو آباء بعولتهن فقد صاروا محارم أو أبنائهن ويدخل فيهم النوافل أو أبناء بعولتهن فقد صاروا محارم أيضا أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن ويدخل فيهم النوافل ". (٢)

١٨٨-"وقوله ﴿ كاظمين ﴾ أي مكروبين . والكاظم الساكت حال امتلائه غما وغيظا قال عز من قائل ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] وانتصابه على أنه حال عن أصحاب القلوب كأنه قيل : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ، أو عن القلوب . وجمع جمع السلامة بناء على أن الكظم من أفعال العقلاء كقوله ﴿ فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ [الشعراء : ٤] أو عن ضمير المفعول في ﴿ وأنذرهم ﴾ أي وأنذرهم مقدرين أو مشارفين الكظم فيكون حالا مقدرة . وفي قوله ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع ﴾ بحث بين الأشاعرة والمعتزلة حيث حمله الأولون على

(١) تفسير المظهرى ص/٥٧٤٣

(٢) تفسير النسفي ١٤٣/٣

أهل الشرك ، والآخرون على معنى أعم حتى يشمل أصحاب الكبائر . وقد مر مرارا ولا سيما في قوله ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ [آل عمران : ١٩٢] ومعنى قوله ﴿ يطاع ﴾ يجاب أي لا شفاعة ولا إجابة كقوله :
ولا ترى الضب بها ينجحر ... وذلك أنه لا يشفع أحد في ذلك اليوم إلا بإذن الله ، فإن أذن له أجيب وإلا فلا يوجد شيء من الأمرين . والفائدة في ذكر هذه الصفة أن يعلم أن الغرض من الشفيع منتف في حقهم وإن فرض شفيع على ما يزعم أهل الشرك من أن الأصنام يشفعون لهم . وقوله ﴿ يعلم **خائنة الأعين** ﴾ خبر آخر لقوله ﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ إلا أنه فصل بالتعليل وهو قوله ﴿ لينذر ﴾ وذكر وصف القيامة استطرادا ، قال جار الله : هي صفة للنظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية ، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب . قال : ولا يحسن أن تكون الخائنة صفة للأعين مضافة إليها نحو « جرد قطيفة » أي يعلم العين الخائنة لأن قوله ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ لا يساعد عليه . قلت : يعني أن عطف العرض على الجوهر والمعنى على العين غير مناسب . وقيل : هي قول الإنسان رأيت ولم ير وما رأيت ورأى . ومضمرات الصدرو أي القلوب فيها لأنها فيها . قيل : هي ما يستره الإنسان من أمانة وخيانة . وقيل : الوسوسة . وقال ابن عباس : ما تخفي الصدور بعد النظر إليها أيزني بها أم لا . أقول : والحاصل أنه تعالى أراد أن يصف نفسه بكمال العلم فإن المجازاة تتوقف على ذلك . ففي قوله ﴿ يعلم **خائنة الأعين** ﴾ إشارة إلى أنه عالم بجميع أفعال الجوارح ، وفي قوله ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ دلالة على أنه عالم بجميع أفعال القلوب . وإذا علمت هذه الصفة وقد عرفت من الأصناف السابقة كمال قدرته واستغنائه لم يبق شك في حقية قضائه فلذلك قال ﴿ والله يقضى بالحق ﴾ ثم وبخهم على عبادة من لا قضاء له ولا سمع ولا بصر بقوله ﴿ والذين يدعون ﴾ الخ . ثم وعظهم بالنظر في أحوال الأمم السالفة وقد مر نظير الآية في مواضع . وإنما قال في هذه السورة ﴿ ذلك بأنهم كانت ﴾ وفي « التغابن »". [١]

١٨٩-"﴿ما للظالمين﴾ ؛ أي : الكافرين ﴿من حميم﴾ ؛ أي : قريب مشفق ، يعني : (هيج خويشى مشفق ويار مهربان عذاب ايشان را دفع كند).

﴿ولا شفيع يطاع﴾ : وشفيع مشفع على معنى نفي الشفاعة والطاعة معا ، وعلى أن يطاع مجاز عن يجاب وتقبل شفاعته ؛ لأن المطيع في الحقيقة يكون أسفل حالا من المطاع ، وليس في الوجود من هوأعلى حالا من الله تعالى حتى يكون مطاعا له تعالى.

وفي الآية بيان أن لا شفاعة في حق الكفار ؛ لأنها وردت في ذمهم ، وإنما قيل للظالمين موضع للكافرين ، وإن كان أعم منهم ومن غيرهم من العصاة ، بحسب لظاهر تسجيلا لهم بالظلم ، ودلالة على اختصاص انتفاء كل واحد من الحميم والشفيع المشفع بهم فثبت أن لعصاة المسلمين حميما وشفيعا ومشفعا ، وهو النبي عليه السلام ، وسائر الأنبياء والمرسلين والأولياء المقربين والملائكة أجمعين.

﴿وأنذرهم يوم الازفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمينا ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خاآانة الاعين وما

---

(١) تفسير النيسابوري ٦/٤٢٧

تخفى الصدور * والله يقضى بالحقا والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىءا إن الله هو السميع البصير﴾ .

﴿يعلم﴾ : (ميداند خداى تعالى).

﴿خاآانة الاعين﴾ ؛ أي : النظرة الخائنة للأعين وإسناد الخيانة إلى النظرة مجاز لأن الخائن هو الناظر أو يعلم **خائنة الأعين** على أنها مصدر كالعافية كقوله تعالى : ﴿ولا تزال تطلع على خاآانة منهم﴾ (المائدة : ١٣).

والخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر ونقيضها الأمانة.

والمراد هنا : استراق النظر إلى غير المحرم كفعل أهل الريب.

والنظرة الثانية إليه.

وفي الخبر "يا ابن آدم لك النظرة الأولى" معفوة لوقوعها مفاجأة دون الثانية لكونها مقارنة للقصد ، وهي من قبيل زنا النظر.

وفي المثنوي :

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٨

كرزناى جشم حظى مى برى

نى كباب از بهلوى خود ميخورى

وذلك لأن النظر سهم مسموم من سهام إبليس.

والنظرة تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنة.

قال الكاشفي :

جشم نظر بانجة حرامست

يا غمز كرده بمعايب مردم

أي : الرمز بالعين على وجه العيب :

دو جشم از بى صنع باري نكوست

زعيب برادر فروكير ودوست

(يا كذب در رؤيت وعدم رؤيت).

يعني : يدعي الرؤية كذابا ، أو ينكرها.

وفي "التأويلات النجمية" : خائنة أعين المحبين استحسانهم شيئا غير المحبوب ، والنظر إلى غير المحبوب.

وفي معناها قيل : ()

فعيني إذا استحسنت غيركم

أمرت الدموع بتأديبها

حكي : أن بعضهم مر بدكان.

وفيه نطاق معلق فتعلق به نظره ، فاستحسنه ، ثم لما تباعد عن الدكان.

١٧٠

فقد النطاق من محله ، فاتبعه صاحب الدكان ، ففتش عنه ، فوجده على وسطه.

وكان ذلك عقوبة من الله عليه لاستحسانه ذلك النطاق حتى اتهم بسرقته وعوقب عليه.

قال أبو عثمان : خيانة العين ، هو أن لا يغضها عن المحارم ويرسلها إلى الهوى والشهوات.

وقال أبو بكر الوارق : يعلم من يمد عينيه إلى الشيء معتبرا ، ومن يمد عينيه لإرادة الشهوة.

وقال أبو جعفر النيسابوري : زنا العارف نظره بالشهوة إمام قشيري : (فر مود كه خيانت جشمهاى محبان آنست كه در أوقات مناجات خواب را بيرا من آن كذا رند خيانكه در زبور آمده كه دروغ كويد هركه دعوى محبت من كند وجون شب در آيد جشم از بخواب رود (ع) ومن نام عينا نام عنه وصالنا) :

خواب رابا ديده عاشق جه كار

جشم او جون شمع باشد اشكبار

جشمهاى عاشقا نرا خواب نيست

بك نفس ان جشمهابى آب نيست

﴿وما تخفى الصدور﴾ : من الضمائر والأسرار مطلقا خيرا كانت أو شرا ، ثبت بهذا أن أفعال القلوب معلومةتعالى.

وكذا أفعال الجوارح تكون ؛ لأن أخفاها ، وهي **خائنة الأعين** إذا كانت معلومةتعالى ، فعلمه تعالى سائر أفعال الجوارح يكون أولى ، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد ، ويجب أن يكون خوف المجرم منه أشد وأقوى ، فقوله تعالى : يعلم. إلخ.

في قوة التعليل للأمر بالإنذار.

وفي "التأويلات النجمية" : وما تخفي الصدور من متمنيات النفوس ومستحسنات القلوب ومرغوبات الأرواح ، فالحق به خبير ، ويكون السالك موقوفا بها ، حتى يخرج من تعلقها.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٨

". (١)

١٩٠-"وقال بعضهم : خيانته في الصدور أن لا يصير في مقام القبض ليجري عليه أحكام الحقيقة ، ثم ينكشف له عالم البسط ، فقد وصف الله خيانة العيون وخفايا الصدور.

وقال : لا يخفى عليه شيء من ذلك ، وذلك أن العين باب من أبواب القلب ، فإذا رأت شيئا يكون حظ القلب منه يعلم ذلك نفسه ، فيطلب الحظ منه ، ومن القلب إلى العين باب يجري عليها حركة هواجس النفس تحثها على النظر إلى

---

(١) تفسير روح البيان . موافق للمطبوع ١٢٨/٨

شيء فيه لها نصيب ، فإذا تحققت ذلك علمت أن خيانة الأعين متعلقة بما تخفي الصدور ، وإذا كان العارف عارفا بنفسه وراضها برياضات طويلة وطهرها بمجاهدات كثيرة وزمها بزمام الخوف وآداب الشريعة ، صارت صافية من حظوظها ، ولكن بقيت في سرها جبلتها على الشهوات ، ففي كل لحظة يجري في سرها طلب حظوظها ، ولكنها سترتها عن العقل وأخفتها عن الروح من خوفها ، فإذا وجدت الفرصة خرجت إلى رؤية العين ، فتنظر إلى مرادها ، فتسرق حظها من النظر إلى المحارم ، وذلك النظر خفي ، وتلك الشهوة خفية وصفهما الله سبحانه في هذه الآية ، واستعاذ منهما النبي عليه السلام ، حيث قال : أعوذ بك من شهوة خفية ، ثم إن الروح العاشق إذا احتجب عن مشاهدة جمال الأزل ينقبض ويطلب حظه ، ولا يقدر أن ينظر إلى الحق ، فيطلب ذلك من الصورة الإنسانية التي فيها آثار الروحانية ، فينظر من منظره إلى منظر العقل ، ومن منظر العقل إلى منظر القلب ، ومن منظر القلب إلى منظر النفس ، ومن منظر النفس إلى منظر الصورة ، وينظر من العين إلى جمال المستحسنات ، لينكشف له ما استتر

١٧١

عنه من شواهد الحق ، فتذهب النفس معه وتسرق بحثه حظها ، من النظر بالشهوة ، فذلك النظر منها غير مرضي في الشرع ، والطريقة والحقيقة ، وكذا نظر الروح إلى الحق بالوسائط خيانة ، فيلزم عليه أن يصبر على الانقباض إلى أن يتجلى له جمال الحق بغير واسطة.

قال الشيخ سعدي :

جرا طفل يك روزه هو شش نبرد

كه در صنع ديدن جه بالغ جه بلغ جه خرد

محقق همي بيند اندر ابل

كه درخو برويان جبن وجكل

ومن الله التوفيق لنظر التحقيق.

﴿والله يقضى﴾ يحكم.

﴿بالحق﴾ ؛ أي : بالصدق والعدل في حق كل محسن ومسيء ؛ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق ، فلا يقضي بشيء إلا وهو حق وعدل يستحقه المكلف ، ويليق به ففيه تشديد لخوف المكلف.

﴿والذين يدعون﴾ ؛ أي : يعبدونهم.

﴿من دونه﴾ تعالى ، وهم : الأصنام.

وبالفارسية : (وآناهم راكه مى برستند مشركان بدون خدا).

﴿لا يقضون بشيء﴾ : (حكمى نمى كنند ايشان بجيزى زيراكه اكر جماداند ايشانرا قدرت بدان نيست واكر حيوانند مخلوق ومملوك اند ومخلوق راقوت حكم وفرمان نيست).

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤٨

وفي "الإرشاد" : هذا تهكم بهم ؛ لأن جمادا ، لا يقال في حقه يقضي ولا يقضى.

﴿إن الله هو السميع البصير﴾ : تقرير لعلمه تعالى **بخائنة الأعين** وقضائه بالحق ، فإن من يسمع ما يقولون ، ويبصر ما يفعلون إذا قضى قضى بالحق ووعيد لهم على ما يفعلون ، ويقولون وتعريض بحال ما يدعون من دونه ، فإنهم عريانون عن التلبس بهاتين الصفتين ، فكيف يكونون معبودين.

وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى يقضي للأجانب بالبعاد والوصال لأهل الوداد ، ويخرج السالكين من تعلقات أوصافهم على ما قضى به ، وقدر في الأزل ، وإن كان بواسطة إيمانهم وأعمالهم الصالحة ، أن الله قد سمع سؤال الحوائج في الأزل ، وهم بعد في العدم ، وكذا سمع أنين نفوس المذنبين وحنين قلوب المحبين وأبصر بحاجاتهم ، ثم إنه لما بالغ في تخويف الكفار بأحوال الآخرة أردفه بالتخويف بأحوال الدنيا ، فقال :

﴿والله يقضى بالحقا والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىءا إن الله هو السميع البصير * أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وءاثارا فى الارض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذالك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب﴾ .

﴿أولم يسيروا فى الأرض﴾ : (آيا سفر نميكنند مشركان مكه درزمين ويمن براى تجارت).

﴿فينظروا﴾ : يجوز أن يكون منصوبا بالعطف على أن يسيروا ، وأن يكون منصوبا على أنه جواب الاستفهام.

﴿كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ ؛ أي : مآل حال من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم كعاد وثمود وأضرابهم ، وكانت ديارهم ممر تجار قريش.

﴿كانوا هم أشد منهم قوة﴾ ، قدرة وتمكنا من التصرفات ، وإنما جيء بضمير الفصل مع أن حقه التوسط بين معرفتين كقوله : أولئك هم المفلحون لمضاهاة أفعل من للمعرفة في امتناع دخول اللام عليه.

". (١)

١٩١-"﴿ءأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات﴾ الإشفاق الخوف من المكروه ومعنى الاستفهام التقرير كان بعضهم ترك المناجاة للإشفاق ولا ومخالفة للأمر وجمع صدقات لجمع المخاطبين قال في بعض التفاسير أفرد الصدقة أولا لكفاية شيء منها وجمع ثانيا نظرا إلى كثرة التناجي والمناجى والمعنى أخفتم الفقر يا أهل الغنى من تقديم الصدقات فيكون المفعول محذوفا للاختصار وأن تقدموا في تقدير لأن تقدموا وأخفتم التقديم لما يعدكم الشيطان عليه من الفقر قال الشاعر :

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٣٨٨

هون عليك ولا تولع بإشفاق

فإنما ما لنا للوارث الباقي

﴿فإن لم تفعلوا﴾ ما أمرتم به وشق عليكم ذلك وبالفارسية س ون نكر ديد اين كاررا ﴿وتاب الله عليكم﴾ بأن رخص لكم

---

(١) تفسير روح البيان ـ موافق للمطبوع ٨/١٢٩

في أن لا تفعلوه وأسقط عنكم تقديم الصدقة وذلك لأنه لا وجه لحملها على قبول التوبة حقيقة إذ لم يقع منهم التقصير في حق هذا الحكم بأن وقعت المناجاة بلا تصدق وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه لما رأى منهم

٤٠٦

من الانفعال ما قام مقام توبتهم وإذ على بابها يعني الظرفية والمضي بمعنى إنكم تركتم ذلك فيما مضى وتجاوز الله عنكم بفضله فتداركوه بما تؤمرون به بعد هذا وقيل بمعنى إذا للمستقيل كما في قوله إذ الإغلال في أعناقهم ومعنى أن الشرطية وهو قريب مما قبله إلا أن يستعمل فيما يحتمل وقوعه واللاوقوعه ﴿ءأشفقتم أن تقدموا بين﴾ مسبب عن قوله فإذ لم تفعلوا أي فإذ فرطتم فيما أمرتم به من تقديم الصدقات فتداركوه بالمواظبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المفروضة ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ في سائر الأوامر فإن القيام بها كالجابر لما وقع في ذلك من التفريط وهو تعميم بعد التخصيص لتتميم النفع ﴿والله خبيرا بما تعملون﴾ عالم بالذي تعملون من الأعمال الظاهرة والباطنة لا يخفى عليه خافية فيجازيكم عليه فاعملوا ما أمركم به ابتغاء لمرضاته لا لرياء وسمعة وتضرعوا إليه خوفا من عقوباته خصوصا بالجماعة يوم الجمعة ومن الأدعية النبوية : اللهم طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء ولساني من الكذب وعيني من الخيانة إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور وفي تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر من بين العبادات المرادة بالأمر بالإطاعة العامة إشارة إلى علو شأنهما وإنافة قدرهما فإن الصلاة رئيس الأعمال البدنية جامعة لجميع أنواع العبادات من القيام والركوع والسجود والقعود من التعوذ والبسملة والقراءة والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والصلاة على النبي عليه السلام ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة ومن ذلك سميت صلاة وهي الدعاء لغة فهي عبادة من عبد الله تعالى بها فهو محفوظ بعبادة العابدين من أهل السموات والأرضين ومن تركها فهو محروم منها فطوبى لأهل الصلاة وويل لتاركها وإن الزكاة هي أم الأعمال المالية بها يطهر القلب من دنس البخل والمال من خبث الحرمة فعلى هذا هي بمعنى الطهارة وبها ينمو المال في الدنيا بنفسه لأنه يمحق الله الربا ويربي الصدقات وفي الآخرة بأجره لأنه تعالى يضاعف لمن يشاء وفي الحديث : "من تصدق بقدر تمرة من كسب حلال ولا يقبل الله إلا الثيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل" فعلى هذا هي من الزكاء بمعنى النماء أي الزيادة في الستان :

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٣٨٨

بدنيا توانى كه عقبى خرى

بخرجان من ورنه حسرت خورى

زر ونعمت آيدكسى رابكار

كه ديوار عقبى كند زر نكار

﴿ألم تر﴾ تعجيب من حال المنافقين الذين يتخذون اليهود أولياء ويناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين والخطاب للرسول عليه السلام أو لكل من يسمع ويعقل وتعدية الرؤية بإلى لكونها بمعنى النظر أي ألم تنظر يعني آيانمى نكرى ﴿إلى الذين تولوا﴾ من التولي بمعنى المولا ة لا بمعنى الإعراض أي والوا يعني دوست كفتند ﴿قوما غضب الله عليهم﴾ وهم اليهود

كما أنبأ عنه قوله تعالى من لعنه الله وغضب عليه والغضب حركة للنفس مبدأها إرادة الانتقام وهو بالنسبة إليه تعالى نقيض الرضى أو إرادة الانتقام أو تحقيق الوعيد أو الأخذ الأليم والبطش الشديد أو هتك الأسرار والتعذيب بالنار أو تغيير النعمة ﴿ما هم﴾ أي الذين تولوا ﴿منكم﴾ في الحقيقة ﴿ولا منهم﴾ أي من القوم المغضوب عليهم لأنهم منافقون

٤٠٧

". (١)

١٩٢-" صفحة رقم ١٤٦

غافر : (١٩) يعلم خائنة الأعين . . . . . .

) يعلم خائنة الأعين (يعني الغمزة فيما لا يحل بعينه والنظرة في المعصية) وما تخفي الصدور) [آية : ١٩] يعني وما تسر القلوب من الشر

غافر : (٢٠) والله يقضي بالحق . . . . .

) والله يقضي بالحق (يعني

يحكم بالعدل) والذين يدعون من دونه لا يقضون (يعني لا يحكمون) بشيء (يعني

والذين يعبدون من دونه لا يقضون بشئ ، يعني آلهة كفار مكة) إن الله هو السميع البصير) [آية : ٢٠] .

تفسير سورة غافر من الآية (٢١) إلى الآية (٢٤) .

غافر : (٢١) أولم يسيروا في . . . . . .

ثم خوفهم بمثل عذاب الأمم الخالية ليحذروا فيوحدو الرب تبارك وتعالى فقال :

(أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم (من الأمم الخالية

عاد ، وثمود ، وقوم لوط) كانوا هم أشد منهم (يعني من كفار مكة) قوة (يعني

بطشا) وءاثارا في الأرض (يعني أعمالا وملكوا في الأرض) فأخذهم الله بذنوبهم (

فعذبهم) وما كان لهم من الله من واق) [آية : ٢١] يقي العذاب عنهم .

غافر : (٢٢) ذلك بأنهم كانت . . . . . .

يقول : (ذلك (العذاب إنما نزل بهم) بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات (

يعني بالبيان) فكفروا (بالتوحيد) فأخذهم الله (بالعذاب) إنه قوي (في أمره

) شديد العقاب) [آية : ٢٢] إذا عاقب يعني عقوبة الأمم الخالية .

غافر : (٢٣) ولقد أرسلنا موسى . . . . . .

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا موسى بئاياتنا (يعني اليد والعصا) وسلطان مبين (

---

(١) تفسير روح البيان . موافق للمطبوع ٩/٣٣١

[آية : ٢٣] يعني وحجة بينة

غافر : (٢٤) إلى فرعون وهامان . . . . .

) إلى فرعون وهامان وقارون (فلما رأوا اليد والعصا

قالوا ليستا من الله بل موسى ساحرن في اليد حين أخرجها بيضاء ، والعص حين صارت

حية) فقالوا سحر كذاب) [آية : ٢٤] حين زعم أنه رسول رب العالمين .

تفسير سورة غافر من الآية (٢٥) إلى الآية (٢٨) .". (١)

١٩٣-"وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ؟ .

* * *". (٢)

١٩٤-"قوله عز وجل ؟ هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ؟ .

عن السدي : ؟ إلا من ينيب ؟ ، قال : من يقبل إلى طاعة الله .

وقوله تعالى : ؟ رفيع الدرجات ذو العرش ؟ ، قال ابن كثير : يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها ، كما قال تعالى : ؟ من الله ذي المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ . وعن قتادة قوله : ؟ يلقي الروح من أمره ؟ ، قال : الوحي ، ؟ من أمره على من يشاء من

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ١٤٦/٣

(٢) توفيق الرحمن / فيصل آل مبارك ٢٠٦/٤

عباده لينذر يوم التلاق ؟ ، قال : يوم تلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ، والخالق والخلق .". [1]

١٩٥-"وقال ابن زيد في قوله : ؟ وأنذرهم يوم الآزفة ؟ ، قال : يوم القيامة ، وقرأ : ؟ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ؟ .

؟ إذ القلوب لدى الحناجر ؟ ، قال قتادة : قد وقعت القلوب في الحناجر من المخالفة ، فلا هي تخرج ولا تعود إلى أمكنتها . وعن السدي : ؟ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ؟ ، قال : شخصت أفئدتهم عن أمكنتها ، فنشبت في حلوقهم فلم تخرج من أجوافهم فيموتوا ، ولم ترجع إلى أمكنتها فتستقر . ؟ ما للظالمين من حميم ولا شفيع ؟ ، قال : من يعنيه أمرهم ولا شفيع لهم .

وقال ابن كثير : وقوله سبحانه وتعالى : ؟ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ؟ أي : ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ، ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ؟ يعلم **خائنة الأعين** ؟ ، إذا نظرت إليها – يريد الخيانة – أم لا ، ؟ وما تخفي الصدور ؟ ، إذا قدرت عليها – أتزني بها – أم لا .

وقوله تعالى : ؟ والله يقضي بالحق ؟ أي : بالعدل ، ؟ والذين يدعون من دونه ؟ ، من الأصنام ، والأوثان ، والأنداد ، ؟ لا يقضون بشيء ؟ ، أي : لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء ، ؟ إن الله هو السميع البصير ؟ .

قوله عز وجل : ؟ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ؟ .". [2]

١٩٦-"يوم الآزفة : يوم القيامة ، ومعنى الآزفة : القريبة . الحناجر : جمع حنجرة ، الحلقوم . كاظمين : ممسكين ، محزونين . حميم : صديق . **خائنة الأعين** : الأعين التي تزوغ وتنظر بخبث . وما تخفي الصدور : ما تكتمه الضمائر . من واق : من حافظ .

أنذر أيها الرسول مشركي قومك عذاب يوم القيامة وهوله ، حين تصير القلوب عند الحناجر من شدة الخوف . يومئذ ليس لهم صديق ينفعهم ، ولا شفيع تقبل شفاعته لهم ، والله تعالى لا يخفى عليه شيء ، يعلم النظرة الخائنة ، والسر المستور الذي تخفيه الصدور . وهو تعالى يقضي بالعدل والحق ، فلا يظلم احدا ولا ينسى شيئا ، والآلهة المزعومة لا يستطيعون عمل شيء ، ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ .

ألم يسافر المشركون في الأرض ، فيروا كيف كان مآل الأمم الماضية!! كانوا أشد منهم قوة وتركوا آثارا عظيمة في الأرض ، فاستأصلهم الله بذنوبهم .

---

(١) توفيق الرحمن / فيصل آل مبارك ٢٦١/٤

(٢) توفيق الرحمن / فيصل آل مبارك ٢٦٢/٤

﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾
لم يكن لهم من ينصرهم ويحفظهم من عذاب الله .
وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من آية ، ولكن بأسلوب مختلف .
ولقد نزل بهم ذلك العذاب لأنهم كذبوا رسلهم وجحدوا آيات الله ﴿ فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ﴾
قراءات :
قرأ نافع وهشام : والذين تدعون : بالتاء . والباقون : يدعون : بالياء .". (١)

١٩٧-"يقول الله تعالى : ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولا بذل الآخرة كما قال تعالى : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ [الأنعام : ١٠] ، وكقوله : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ [الحج : ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ﴾ [القصص : ٥٨] ، وقوله : ﴿ فجآءها بأسنا بياتا أو هم قآئلون ﴾ أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿ بياتا ﴾ أي ليلا ﴿ أو هم قآئلون ﴾ من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو ، كما قال : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نآئمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ [الأعراف : ٩٧-٩٨] ، وقال ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين ﴾ [النحل : ٤٥-٤٦] ، وقوله : ﴿ فما كان دعواهم إذ جآءهم بأسنآ إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا ، كقوله تعالى : ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ﴾ [الأنبياء : ١١] إلى قوله ﴿ خامدين ﴾ [الأنبياء : ١٥] ، قال ابن جرير : في هذه الآية الدالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله A قال : « ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم » ، وقوله : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ الآية ، كقوله : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذآ أجبتم المرسلين ﴾ [القصص : ٦٥] ، وقوله : ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذآ أجبتم قالوا لا علم لنآ إنك أنت علام الغيوب ﴾ [المائدة : ١٠٩] فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته ، ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ قال : عما بلغوا .
وعن ابن عمر قال ، قال رسول الله A : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده » ، ثم قرأ : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ ، وقال ابن عباس في قوله ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غآئبين ﴾ : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون

---

(١) تيسير التفسير للقطان ٣/١٨٤

، ﴿ وما كنا غآئبين ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء بل هو العالم **بخائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ [الأنعام : ٥٩] .". (١)

١٩٨-"ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط ، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلة التي لا نهاية لها ﴿ وما خلفهم ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، من الأمور الماضية التي لا حد لها ، وأنه لا تخفى عليه خافية ، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ، ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يا بس إلا في كتاب مبين ﴾ ، وأن الخلق لا يحيط أحد منهم بشيء من علم الله ، ولا معلوماته إلا بما شاء منهما ، وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية ، وهو جزء يسير جدا بالنسبة إلى علم الباري ، تضمحل العلوم كلها في علم الباري ومعلوماته ، كما قال أعلم المخلوقات ، وهم الرسل والملائكة : ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ﴾ [البقرة : ٣٢] .". (٢)

١٩٩-"يعني : أن العامة يطلبون الستر في المعصية خوف اطلاع الناس عليهم فهم ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم﴾ [النساء ١٠٨]. قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ غافر(١٩). هو الرجل يكون في القوم فتمر به المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها فإذا رأى من القوم غفلة
لحظ إليها. وهذا شأن المرائين الذين يستخفون بنظر الجبار ويهابون الناس أن يطلعوا عليهم فيما يرتكبونه من الأوزار. وأما الخاصة فهم يطلبون من الله الستر عنها بأن يجعل بينهم وبينها حاجبا حتى لا تخطر بقلوبهم خشية سقوطهم من نظر الملك الحق. وإلى هذا المعنى أشار أبو الحسن الشاذلي في دعائه بقوله : اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ونعوذ بك من المعصية وأسبابها وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها واحملنا على النجاة منها ومن التفكر في طرائقها
(١٣٤) من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره فالحمد لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك
أي من أكرمك من العباد بعطاء أو محبة فإنما أكرم فيك جميل ستره تعالى أي ستره الجميل عليك فإنه لولا جميل ستره ما نظروا بعين الرضا إليك بل لو نظروا إلى ما فيك من العيوب لاستقذروك ونفروا منك وطرحوك. فلا تعبثك رؤية إكرام الخلق لك لجهلهم بعيبك على حمدهم على ذلك دون حمد ربك فتضع الحمد في غير موضعه فإن الحمد لا ينبغي أن يكون إلا لمن سترك ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك. وإنما تحمده من حيث إجراء الخير على يديه فقط لا من حيث إنه المكرم الحقيقي إذ ليس ذلك إلا الله. قال تعالى : ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ النحل (٥٣)

---

(١) تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير ص/٨٢٧

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن ١/٢٧

أهـ [شرح الحكم العطائية ص١٠٤]. ". (١)

٢٠٠-"" قدر الله المقادير قبل أن يخلق الخلق بكذا وكذا عاما " وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " جف القلم بما هو كائن " وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " أربع قد فرغ منها : العمر والرزق والخلق والخلق " وثالثها : أنه سبحانه علام الغيوب : ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور﴾ [غافر : ١٩] فأي حاجة بالداعي إلى الدعاء ؟ ولهذا السبب قالوا إن جبريل عليه السلام بلغ بسبب هذا الكلام إلى أعلى درجات الإخلاص والعبودية ولولا أن ترك الدعاء أفضل لما كان كذلك ورابعها : أن المطلوب بالدعاء إن كان من مصالح العبد فالجواد المطلق لا يهمله وإن لم يكن من مصالحه لم يجز طلبه وخامسها : ثبت بشواهد العقل والأحاديث الصحيحة أن أجل مقامات الصديقين وأعلاها الرضا بقضاء الله تعالى والدعاء ينافي ذلك لأنه اشتغال بالإلتماس وترجيح لمراد النفس على مراد الله تعالى وطلبه لحصة البشر وسادسها : أن الدعاء يشبه الأمر والنهي وذلك من العبد في حق المولى الكريم الرحيم سوء أدب وسابعها : روي أنه عليه الصلاة والسلام قال رواية عن الله سبحانه وتعالى : " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين " قالوا فثبت بهذه الوجوه أن الأولى ترك الدعاء.
". (٢)

٢٠١-"كلام نفيس للعلامة السعدى فى الآية

﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾.

هذا جواب سؤال ، سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقالوا : يا رسول الله ، أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فنزل : ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ لأنه تعالى ، الرقيب الشهيد ، المطلع على السر وأخفى ، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ، فهو قريب أيضا من داعيه ، بالإجابة ، ولهذا قال : ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾

والدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة.

والقرب نوعان : قرب بعلمه من كل خلقه ، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر ، ودعاء مشروع ، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء ، كأكل الحرام ونحوه ، فإن الله قد وعده بالإجابة ، وخصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء ، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية ، والإيمان به ، الموجب للاستجابة ، فلهذا قال : ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي : يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة ، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره ، سبب لحصول العلم كما قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾. أ هـ ﴿تفسير السعدى صـ ٨٦﴾

---

(١) جامع لطائف التفسير ٢٨٣/١

(٢) جامع لطائف التفسير ٦٣/٤

". (١)

٢٠٢-"فائدة

قال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ لقد سمع الله ﴾ تهديد ، وهو يؤذن بأن هذا القول جراءة عظيمة ، وإن كان القصد منها التعريض ببطلان كلام القرآن ، لأنهم أتوا بهاته العبارة بدون محاشاة ، ولأن الاستخفاف بالرسول وقرآنه إثم عظيم وكفر على كفر ، ولذلك قال تعالى : ﴿ لقد سمع ﴾ المستعمل في لازم معناه ، وهو التهديد على كلام فاحش ، إذ قد علم أهل الأديان أن الله يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ، فليس المقصود إعلامهم بأن الله علم ذلك بل لازمه وهو مقتضى قوله : ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾. أ هـ ﴿التحرير والتنوير حـ ٣ صـ ٢٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿سنكتب ما قالوا﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ حمزة ﴿سيكتب﴾ بالياء وضمها على ما لم يسم فاعله ﴿الله وقتلهم الأنبياء﴾ برفع اللام على معنى سيكتب قتلهم ، والباقون بالنون وفتح اللام إضافة إليه تعالى.

قال صاحب "الكشاف" : وقرأ الحسن والأعرج ﴿سيكتب﴾ بالياء وتسمية الفاعل. أ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٩ صـ ٩٦﴾

قال الطبرى :

وقرأ ذلك بعض قرأة الكوفيين : (" سيكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ") بالياء من"سيكتب" وبضمها، ورفع"القتل"، على مذهب ما لم يسم فاعله، اعتبارا بقراءة يذكر أنها من قراءة عبد الله في قوله : "ونقول ذوقوا"، يذكر أنها في قراءة عبد الله : "ويقال"." (٢)

٢٠٣-"قال الله تعالى : ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ [البقره : ٢٣٥] وقال تعالى ﴿وكان الله على كل شيء رقيبا﴾ [الأحزاب : ٥٢] وقال تعالى : ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾ [الحديد : ٤] وقال تعالى : ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ [العلق : ١٤] وقال تعالى : ﴿فإنك بأعيننا﴾ [الطور : ٤٨] وقال تعالى : ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ [غافر : ١٩] إلى غير ذلك من الآيات وفي حديث جبريل عليه السلام : أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإحسان فقال له : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك المراقبة دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه فاستدامته لهذا العلم واليقين : هي المراقبة وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب

---

(١) جامع لطائف التفسير ٨٨/٤

(٢) جامع لطائف التفسير ٣٥٤/١٨

عليه ناظر إليه سامع لقوله وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات فكيف بحال المريدين فكيف بحال العارفين

قال الجريري : من لم يحكم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة : لم يصل إلى الكشف والمشاهدة وقيل : من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه

وقيل لبعضهم : متى يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة فقال : إذا علم أن عليه رقيبا وقال الجنيد : من تحقق في المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه لا غير وقال ذو النون : علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله وتعظيم ما عظم الله وتصغير ما صغر الله

وقيل : الرجاء يحرك إلى الطاعة والخوف يبعد عن المعاصي والمراقبة تؤديك إلى طريق الحقائق وقيل : المراقبة مراعاة القلب لملاحظة الحق مع كل خطرة وخطوة

". (١)

٢٠٤-" من أول الأمر بتأييد وليه له في المحاجة فان التربية نوع من الولاية أن ءاته الله الملك أي لأن آتاه الله تعالى ذلك فالكلام على حذف اللام وهو مطرد في أن وإن وليس هناك مفعول لأجله منصوب لعدم إتحاد الفاعل والتعليل فيه على وجهين : إما أن إيتاء الملك حملة على ذلك لأنه أورثه الكبر والبطر فنشأت المحاجة عنهما وإما أنه من باب العكس في الكلام بمعنى أنه وضع المحاجة وضع الشكر إذ كان من حقه أن يشكر على ذلك فعلى الأول العلة تحقيقية وعلى الثاني تهكمية كما تقول عاداني فلان لأني أحسنت اليه وجوز أن يكون آتاه الخ واقعا موقع الظرف بدون تقدير أو بتقدير مضاف أي حاج وقت أن آتاه الله وأورد عليه أن المحاجة لم تقع وقت إيتاء الملك بل الإيتاء سابق عليها وبأن النحاة نصوا على أنه لا يقوم مقام الظرف الزماني إلا المصدر الصريح بلفظة كجئت خفوف النجم وصياح الديك ولا يجوز إن خفف وإن صاح

وأجيب باعتبار الوقت ممتدا وبأن النص معارض بأنهم نصوا على أن ما المصدرية تنوب عن الزمان وليست بمصدر صريح والذى جوز ذلك ابن جني والصفار في شرح الكتاب والحق أن التعليل لما أمكن وهو متفق عليه خال عما يقال لا ينبغي أن يعدل عنه لا سيما وتقدير المضاف مع القول بالإمتداد وإلتزام قول ابن جني والصفار مع مخالفته لكلام الجمهور في غاية من التعسف والآية حجة على من منع إيتاء الله الملك لكافر وحملها على إيتاء الله تعالى ما غلب به وتسلط من المال والخدام والأتباع أو على أن الله تعالى ملكه إمتحانا لعباده كما فعل المانع القائل بوجوب رعاية الأصلح ليس بشئ إذ من له مسكة من الإنصاف يعلم أنه لا معنى لإيتاء الملك والتسليط إلا إيتاء الأسباب ولو سلم ففي إيتاء الأسباب يتوجه السؤال ولو سلم فما من قبيح إلا ويمكن أن يعتبر فيه غرض صحيح كالإمتحان ولقوة هذا الإعتراض إلتزم بعضهم جعل ضمير آتاه لإبراهيم عليه السلام لأنه تعالى قال : لا ينال عهدي الظالمين وقال سبحانه : فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب

---

(١) جامع لطائف التفسير ٤٠٣/١٩

والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما وهو المحكي عن أبي قاسم البلخي ولا يخفى أنه خلاف المنساق إلى الذهن وخلاف التفسير المأثور عن السلف الصالح والواقع مع هذا يكذبه إذ ليس لإبراهيم عليه السلام إذ ذاك ملك ولا تصرف ولا نفوذ أمر

وذهب بعض الإمامية إلى أن الملك الذي لا يؤتيه الله للكافر هو ما كان بتمليك الأمر والنهي وإيجاب الطاعة على الخلق وأما ما كان بالغلبة وسعة المال ونفوذ الكلمة قهرا كملك نمروذ فهو مما لا ينبغي أن ينتطح فيه كبشان أو تكون فيه كلمتان والقول : بأن هذا المارد أعطى الملك بالإعتبار الأول خارج عن الإنصاف بل الذي أوتي ذلك في الحقيقة إبراهيم عليه الصلاة و السلام إلا أنه قد عورض في ملكه وغولب على ما من الله تعالى به عليه إلى أن قضى الله تعالى ما قضى ومضى من مضى وللباطل جولة ثم يزول وهو كلام أقرب ما يكون إلى الصواب لكنى أشم منه ريح الضلال ويلوح لي أنه تعريض بالأصحاب والله تعالى يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور وفي العدول عن الإضمار إلى الإظهار في هذا المقام ما لا يخفى إذ قال إبراهيم ظرف لحاج وجؤز أن يكون بدلا من آتاه بناءا على القول الذي علمت وإعترضه أبو حيان بأن الظرفين مختلفان إذ وقت إيتائه الملك ليس وقت إبراهيم عليه السلام ربي الذي يحي ويميت فانه على ما روى قاله أن سجن لكسره الأصنام وإثر قول نمروذ له وقد كان أوتي قبل الملك : من ربك الذي تدعو إليه وأجاب السفاقسي بالتجوز في آتاه وعدم إرادة إبتداء الإتيان منه بل زمان الملك وهو ممتد يسع قولين بل أقوالا واعترض أبو البقاء أيضا بأن المصدر غير الظرف فلو كان ". (١)

٢٠٥-" والمراد إيصاء الكمل من الشيوخ أن يخلفوا ويأذنوا بالإرشاد من يصلح لذلك من المريدين السالكين على ايديهم ولا تأكلوها أي تنتفعوا بتلك الأموال دونهم إسرافا وبدارا أن يكبروا بالتصدي للأرشاد فإن ذلك من أعظم أدواء النفس والسموم القاتلة ومن كان منكم غنيا بالله لا يلتفت إلى ضرورات الحياة أصلا فليستعفف عما للمريد ومن كان فقيرا لا يتحمل الضرورة فليأكل أي فلينتفع بما للمريد بالمعروف وهو ما كان بقدر الضرورة فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم الله تعالى وأرواح أهل الحضرة وخذوا العهد عليهم برعاية الحقوق مع الحق والخلق وكفى بالله حسيبا لأنه الموجود الحقيقي والمطلع الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور وهو حسبنا ونعم الوكيل للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون شروع في بيان أحكام المواريث بعد بيان أموال اليتامى المنتقلة إليهم بالإرث والمراد من الرجال الأولاد الذكور أو الذكور أعم من أن يكون كبارا أو صغارا ومن الأقربين الموروثون ومن الوالدين مالم يكن بواسطة والجد والجدة داخلان تحت الأقربين وذكر الولدان مع دخولهما أيضا إعتناءا بشأنهما وجوز أن يراد من الوالدين ما هو أعم من أن يكون بواسطة أو بغيرها فيشمل الجد والجدة وأعترض بأنه يلزم توريث أولاد الأولاد مع وجود الأولاد

وأجيب بأن عدم التوريث في هذه الصورة معلوم من أمر آخر لا يخفى والنصيب الحظ كالنصب بالكسر ويجمع على أنصباء وأنصبة ومنفي مما متعلقة بمحذوف وقع صفة للنكرة قبله أي نصيب كائن مما ترك وجوز تعلقه بنصيب

---

(١) روح المعاني ١٦/٣

وللنسآء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون المراد من النساء البنات مطلقا أو الإناث كذلك وإيراد حكمهم على الإستقلال دون الدرج في تضاعيف أحكام السالفين بأن يقال للرجال والنساء نصيب إلخ للإعتناءكما قال شيخ الإسلامبأمرهن والإيذان بأصالتهن في إستحقاق الأرث والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبي الفريقين والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال ويقولون : إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة وللرد عليهم نزلت هذه الآيةكما قال إبن جبير وغيرهوروى أن أوس بن ثابت وقيل : أوس بن مالك وقيل : ثابت بن قيس وقيل : أوس بن الصامتوهو خطألأنه توفى في زمن خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه مات وترك إبنتين وإبنا صغيرا وزوجته أم كحة وقيل : بنت كحة وقيل : أم كحلة وقيل : أم كلثوم فجاء أبناء عمه خالد أو سويد وعرفطة أو قتادة وعرفجة فأخذا ميراثه كله فقالت أمرأته لهما : تزوجا بالإبنتين وكانت بهما دمامة فأبيا فأتت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبرته الخبر فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما أدري ما أقول فنزلت للرجال نصيب الآية فأرسل صلى الله تعالى عليه وسلم إلى إبني العم فقال : لا تحركا من الميراث شيئا فإنه قد أنزل علي فيه شيء أخبرت فيه أن للذكر والأنثى نصيبا ثم نزل بعد ذلك ويستفتونك في النساء إلى قوله : عليما ثم نزل يوصيكم الله في أولادكم إلى قوله : والله عليم حكيم فدعى بالميراث فأعطى المرأة الثمن وقسم ما بقى بين الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين ولم يعط إبني العم شيئا وفي بعض طرقهأن الميت خلف زوجة وبنتين وإبني عم فأعطى الزوجة الثمن والبنتين الثلثين وإبني العم الباقي

وفي الخبر دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب ومن عمم الرجال والنساء وقال : إن الأقربين عام لذوي القرابة النسبية والسببية جعل الآية متضمنة لحكم الزوج والزوجة وإستحقاق كل منهما الإرث من صاحبه ". (١)

٢٠٦-" لفساد المعنى والحاجة إلى تقدير محذوف مع الغنى عنه وكذلك على قراءة كاظمون للأول فقط فيتعين كون لدى الحناجر خبرا و كاظمون خبرا آخر وبذلك يترجح كون الحال من القلوب وقدر الكواشي هم كاظمون ليوافق وجه الحالية من الأصحاب وجوز كونه حالا من مفعوا أنذرهم أي أنذرهم مقدرا كظمهم أو مشارفين الكظم

ما للظالمين من حميم أي قريب مشفق من احتم فلان لفلان احتد فكأنه الذي يحتد حماية لذويه ويقال لخاصة الرجل حامته ومن هنا فسر الحميم بالصديق ولا شفيع يطاع

١٨

- أي ولا شفيع يشفع فالجملة في محل جر أو رفع صفة شفيع والمراد نفي الصفة والموصوف لا الصفة فقط ليدل على أن ثم شفيعا لكن لا يطاع فالكلام من باب

لا ترى الضب بها ينجحر

ولم يقتصر على نفع الشفيع بل ضم إليه ما ضم ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة فيكون ذلك الضم إزالة لتوهم وجود الموصوف حيث جعل انتفاؤه أمرا مسلما مشهورا لا نزاع فيه لأن الدليل ينبغي أن يكون أوضح من

---

(١) روح المعاني ٢١٠/٤

المدلول وهذا كما تقول لمن عاتبك على القعود عن الغزو مالي فرس أركبه وما معي سلاح أحارب به فليفهم والضمائر المذكورة من قوله تعالى : وأنذرهم إلى هنا إن كانت للكفار كما هو للظاهر فوضع الظالمين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم وإن كانت عامة لهم ولغيرهم فليس هذا من باب وضع الظاهر موضع الضمير وإنما هو بيان حكم للظالمين بخصوصهم والمراد بهم الكاملون في الظلم وهم الكافرون لقوله تعالى : إن الشرك لظلم عظيم يعلم **خائنة الأعين** أي النظرة الخائنة كالنظرة إلى غير المحرم واستراق النظر إليه وغير ذلك فخائنة صفة لموصوف مقدر وجعل النظرة خائنة إسناد مجازي أو استعارة مصرحة أو مكنية وتخييلية ويجعل النظر بمنزلة شيء يسرق من المنظور إليه ولذا عبر فيه بالإستراق ويجوز أن يكون خائنة مصدرا كالكاذبة والعاقبة والعافية أي يعلم سبحانه خيانة الأعين وقيل وصف مضاف إلى موصوفه كما في قوله :

سيقت كرام الناس فأسقينا

أي يعلم سبحانه الأعين الخائنة ولا يحسن ذلك لقوله تعالى : وما تخفي الصدور

١٩

– أي والذي تخفيه الصدور من الضمائر أو إخفاء الصدور لما تخفيه من ذلك لأن الملاءمة واجبة الرعاية في علم البيان وملائم الأعين الخائنة الصدور المخفية وما قيل في عدم حسن ذلك من أن مقام المبالغة يقتضي أن يراد استراق العين ضم إليه هذه القرينة أولا فغير قادح في التعليل المذكور إذ لا مانع من أن يكون على مطلوب دلائل ثم لولا القرينة لجاز أن تجعل الأعين تمهيدا للوصف فالقرينة هي المانعة وهذه الجملة على ما في الكشاف متصلة بأول الكلام خبر من أخبار هو في قوله تعالى : هو الذي يريكم على معنى هو الذي يريكم الخ وهو يعلم **خائنة الأعين** ولم يجعله تعليلا لنفي الشفاعة على معنى ما لهم من شفيع لأن الله تعالى يعلم منهم الخيانة سرا وعلانية قيل : لأنه لا يصلح تعليلا لنفيها بل لنفي قبولها فإن الله تعالى هو العالم لا الشفيع والمقصود نفي الشفاعة ووجه تقرير هذا الخبر في هذا الموضع ما فيه من التخلص إلى ذم آلهتهم مع أن تقديمه على الذي يريكم لا وجه له لتعلقه بما قبله أشد التعلق كما أشير إليه وكذلك على رفيع الدرجات لاتصاله بالسابق وأمر المنيبين بالإخلاص ولما فيه من النبو من توسيط المنكر الفعلي بين المبتدأ وخبره المعرف الإسمي وأما توسيطه بين القرائن الثلاث فبين العصا ". [١]

٢٠٧-" ولحائها فلا موضع له أحق من هذا ولا يضر البعد اللفظي في مثل ذلك كما لا يخفى وظن بعضهم ضرره فمنهم من قال : الجملة متصلة بمجموع قوله عز و جل : وأنذرهم يوم الآزفة إلى آخره وذلك أنه سبحانه لما أمر بإنذار ذلك اليوم وما يعرض فيه من شدة الكرب والغم وذكر تعالى أن الظالم لا يجد من يحميه من ذلك ولا من يشفع له ذكر جل وعلا إطلاعه على جميع ما يصدر من العبد وأنه مجازي بما عمل ليكون على حذر من ذلك اليوم إذا علم أن الله تعالى مطلع على أعماله وإلى هذا ذهب أبو حيان

---

(١) روح المعاني ٥٩/٢٤

وقال ابن عطية : هي متصلة بقوله تعالى : سريع الحساب لأن سرعة حسابه تعالى للخلق إنما هي لعلمه تعالى الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكر ولا لشيء مما يحتاجه المحاسبون وحكى رحمه الله تعالى عن فرقة أنها متصلة بقوله تعالى : لا يخفى على الله منهم شيء ثم قال : وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين ويضعفه البعد وكثرة الحائل وجعلها بعض متصلة بنفي قبول الشفاعة الذي تضمنه قوله تعالى : ولا شفيع يطاع فإن يطاع المنفي بمعنى تقبل شفاعته على أنها تعليل لذلك أي لا تقبل شفاعة شفيع لهم لأن الله تعالى يعلم منه الخيانة سرا وعلانية وليست تعليلا لنفي ليرد ما قيل ولا يخفى ما فيه ولعمري أن جار الله في مثل هذا المقام لا يجارى

والله يقضي بالحق أي والذي هذه صفاته يقضي قضاء ملتبسا بالحق لا بالباطل لاستغنائه سبحانه عن الظلم وتقديم المسند إليه للتقوى وجوز أن يكون للحصر وفائدة العدول عن المضمر إلى المظهر والإتيان بالاسم الجامع عقيب ذكر الأوصاف ما أشير إليه من إرادة الموصوف بتلك الصفات

والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء تهكم بآلهتهم لأن الجماد لا يقال فيه يقضى أو لا يقضى وجعله بعضهم من باب المشاكلة وأصله لا يقدرون على شيء واختير الأول قيل لأن التهكم أبلغ لأنه ليس المقصود الإستدلال على عدم صلاحيتهم للإلهية

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بخلاف عنه وهشام تدعون بتاء الخطاب على الإلتفات وجوز أن يكون على إضمار قل فلا يكون التفاتا وإن عبر عنه بالغيبة قبله لأنه ليبس على خلاف مقتضى الظاهر إذ هو ابتداء كلام مبني على خطابهم إن الله هو السميع البصير

٢٠

– تقرير لعلمه تعالى **بخائنة الأعين** وما تخفي الصدور وقضاؤه سبحانه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويغفلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه عز و جل وفيه إشارة إلى أن القاضي ينبغي أن يكون سميعا بصيرا أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم أي مآل حال الذين كذبوا الرسل عليهم السلام قبلهم كعاد وثمود و ينظروا مجزوم على أنه معطوف على يسيروا وجوز أبو حيان كونه منصوبا في جواب النفي كما في قوله :

ألم تسأل فتخبرك الرسوم

وتعقب بأنه لا يصح تقديره بأن لم يسيروا ينظروا وأجيب بأن الإستفهام إنكاري وهو في معنى النفي فيكون جواب نفي النفي كانوا هم أشد منهم قوة قدرة وتمكنا من التصرفات والضمير المنفصل تأكيد للضمير المتصل قبله وجوز كونه ضمير فصل ولا يتعين وقوعه بين معرفتين فقد أجاز الجرجاني وقوع المضارع بعده كما في قوله تعالى إنه هو يبديء ويعيد نعم الأصل الأكثر فيه ذلك على أن أفعل التفضيل الواقع بعده من الداخلة على المفضل عليه مضارع للمعرفة لفظا في عدم دخول أل عليه ومعنى لأن المراد به الأفضل باعتبار أفضلية معينة ". (١)

---

(١) روح المعاني ٦٠/٢٤

٢٠٨-" فما بعدها عطف على آمنوا دلالة على أن عدم نفع إيمانهم ورده عليهم تابع للإيمان عند رؤية العذاب كأنه قيل : فلما رأوا بأسنا آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم إذ النافع إيمان الإختيار سنت الله التي قد خلت في عباده أي سن الله تعالى ذلك أعني عدم نفع الإيمان عند رؤية البأس سنة ماضية في البعاد وهي من المصادر المؤكدة كوعد الله وصبغة الله وجوز انتصابها على التحذير أي احذروا يا أهل مكة سنة الله تعالى في أعداء الرسل

وخسر هنا لك الكافرون

٨٥

- أي وقت رؤيتهم في البأس على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفا وهذا الحكم خاص بإيمان البأس وأما توبة البأس فهي مقبولة نافعة بفل الله تعالى وكرمه والفرق ظاهر

وعن بعض الأكابر أن إيمان البأس مقبول أيضا ومعنى فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا أن نفس إيمانهم لم ينفعهم وإنما نفعهم الله تعالى حقيقة به ولا يخفى عليك حال هذا التأويل وما كان من ذلك القبيل والله تعالى أعلم

ومن باب الإشارة في بعض الآيات على ما أشار إليه بعض السادات حم إشارة إلى ما أفيض على قلب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من الرحمن فإن الحاء والميم من وسط الاسمين الكريمين وفي ذلك أيضا سر لا يجوز كشفه ولما صدرت السورة بما أشار إلى الرحمة وأنها وصف المدعو إليه والداعي ذكر بعض من صفات المدعو إليه وهو الله عز و جل ما يدل على عظم الرحمة وسبقها وفي ذلك من بشارة المدعو ما فيه

الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا الخ فيه إشارة إلى شرف الإيمان وجلالة قدر المؤمنين وإلى أنه ينبغي للمؤمنين من بني آدم أن يستغفر بعضهم لبعض وفي ذلك أيضا من تأكيد الدلالة على عظم رحمة الله عز و جل ما لا يخفى فادعو الله مخلصين له الدين بأن يكون غير مشوب بشيء من مقاصد الدنيا والآخرة يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده قيل : في إطلاق الروح إشارة إلى روح النبوة وهو يلقى على الأنبياء وروح الولاية ويلقى على العارفين وروح الدراية ويلقى على المؤمنين الناكسين لينذر يوم التلاق قيل التلاقي مع الله تعالى ولا وجود لغيره وتعالى وهو مقام الفناء المشار إليه بقوله سبحانه : يوم هم بارزون من قبور وجودهم لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار إذ ليس في الدار غيره ديار اليوم تجزى كل نفس من التجلي بما كسبت في بذال الوجود للمعبود لا ظلم اليوم فتنال كل نفس من التجلي بقدر بذلها من الوجود لا أقل من ذلك

وأنذرهم يوم الآفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين هذه قيامة العوام المؤجلة ويشير إلى قيامة الخواص المعجلة لهم فقد قيل : إن لهم في كل نفس قيامة من العتاب والعقاب والثواب والبعاد والإقتراب وما لم يكن لهم في حساب وخفقان القلب ينطق والنحول يخبر واللون يفصح والمشوق يستر ولكن البلاء يظهر وإذا أزف فناء الصفات بلغت القلوب الحناجر وشهدت العيون بما تخفى الضمائر يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور خائنة أعين المحبين استحسانهم تعمد النظر إلى غير المحبوب باستحسان واستلذاذ وما تخفيه الصدور من متمنيات النفوس ومستحسنات القلوب ومرغوبات الأرواح وقال ربكم ادعوني أستجب لكم قيل أي اطلبوني مني أجبكم فتجدوني ومن وجدني وجد كل شيء فالدعاء الذي لا يرد هو هذا

الدعاء ففي بعض الأخبارِ من طلبني وجدني إن الذين يستكبرون عن عبادتي دعائي وطلبي سيدخلون جهنم الحرمان ". [1]

٢٠٩-" ليس لها من دون الله تعالى نفس كاشفة تكشف وقت وقوعها وتبينه لأنها من أخفى المغيبات ة فالكشف بمعنى التبيين والآية كقوله تعالى : لا يجليها لوقتها إلا هو والتاء في كاشفة على جميع الأوجه للتأنيث وهو لتأنيث الموصوف المحذوف كما سمعت وبعضهم يقدر الموصوف حالا والأول أولى وجوز أن تكون للمبالغة مثلها في علامة وتعقب بأن المقام يأباه لإيهامه ثبوت أصل الكشف لغيره عز و جل وفيه نظر وقال الرماني وجماعة : يحتمل أن يكون كاشفة مصدرا كالعافية **وخائنة الأعين** أي ليس لها كشف من دون الله تعالى أفمن هذا الحديث أي القرآن تعجبون

٥٩

- إنكارا وتضحكون استهزاءا مع كونه أبعد شيء من ذلك ولا تبكون

٦٠

- حزنا علما فرطتم في شأنه خوفا من أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة وأنتم سامدون

٦١

- أي لا هون كما روي عن ابن عباس جوابا لنافع بن الأزرق وأنشد عليه قول هزيلة بنت بكر وهي تبكي قوم عاد : ليت عادا قبلوا الحق ولم يبدوا جحودا قيل : قم فانظر إليهم ثم دع عنك السمودا وفي رواية أنه رضي الله تعالى عنه سئل عن السمود فقال : البرطمة وهي رفع الرأس تكبرا أي وأنتم رافعون رءوسكم تكبرا وروي تفسيره بالبرطمة عن مجاهد أيضا وقال الراغب : السامد اللامي الرافع رأسه من سمد البعير في سيره إذا رفع رأسه وقال أبو عبيدة : السمود الغناء بلغة حمير يقولون : يا جارية أسمديلنا أي غني لنا وروري نحوه عن عكرمة وأخرج عبد الرزاق والبزاز وابن جرير والبيهقي في سننه وجماعة عن ابن عباس أنه قال : هو الغناء باليمانية وكانواإذا سمعوا القرآن غنوا تشاغلا عنه وقيل : يفعلون ذلك ليشغلوا الناس عن استماعه والجملةالإسمية على جميعذلك حال من فاعل لا تبكون ومضمونها قيد للنفي والإنكار متوجه إلى نفي البكاء ووجود السمود وقال المبرد : السمود الجمود والخشوع كما في قوله : رمى الحدثان نسوة آل سعد بمقدار سمدن له سمودا فرد شعورهن السود بيضا ورد وجوههن البيض سودا والجملةعليه حال من فاعل تبكون أيضا إلا أن مضمونها قيد للمنفي والإنكار وارد على نفي البكاء والسمو معا فلا تغفل وفي حرف أبي وعبد الله تضحكون بغير واو وقرأ الحسن تعجبون تضحكون بغير واو وضم التاءين وكسر الجيم والحاء واستدل بالآية كما في أحكام القرآن على استحباب البكاء عند سماع القرآنوقراءته أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال : لما نزلت أفمن هذا الحديث الآية بكىأصحاب الصفة حتى جرت دموعهم على خدودهم فلما سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم حنينهم بكى معهم فبكينا ببكائه فقال عليه الصلاة و السلام : لا يلج النار من بكى من خشية الله تعالى ولا يدخلالجنة مصر على معصيته ولو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم وأخرج أحمد في الزهد وابن أبي شيبة وهناد وغيرهم عن صالح أبي الخليل قال : لما

---

(١) روح المعاني ٩٣/٢٤

نزلت هذه الآية أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ما ضحك النبي صلى الله عليه و سلم بعد ذلك إلا أن يتبسم ولفظ عبد بن حميد فما رؤي النبي عليه الصلاة و السلام ضاحكا ولا مبتسما حتى ذهب من الدنيا وفيه سد باب الضحك عند قراءة القرآنولو لم يكن استهزاءا والعياذ بالله ". (١)

٢١٠-" أحدهما أنه أخبر بأنها ستكون زوجة له فقال لزيد أمسك عليك زوجك فكتم ما أخبره الله به من أمرها حياء من زيد ان يقول له إن زوجتك ستكون امرأتي وهذا يخرج على ما ذكرنا عن علي بن الحسين وقد نصره الثعلبي والواحدي

والثاني أنه لما رأى اتصال الخصومة بين زيد وزينب ظن أنهما لا يتفقان وأنه سيفارقها وأضمر أنه إن طلقها تزوجتها صلة لرحمها وإشفاقا عليها لانها كانت بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب فعاتبه الله على إضمار ذلك وإخفاؤه حين قال لزيد أمسك عليك زوجك وأراد منه ان يكون ظاهره وباطنه عند الناس سواء كما قيل له في قصة رجل أراد قتله هلا أومأت إلينا بقتله فقال ما ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين** ذكر هذا القول القاضي أبو يعلى رحمه الله عليه

قوله تعالى فلما قضى زيد منها وطرا قال الزجاج الوطر كل حاجة لك فيها همة فاذا بلغها البالغ قيل قد قضى وطره وقال غيره قضاء الوطر في اللغة بلوغ منتهى ما في النفس من الشئ ثم صار عبارة عن الطلاق لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة والمعنى لما قضى زيد حاجته من نكاحها زوجناكها وإنما ذكر قضاء الوطر هاهنا ليبين أن امرأة المتبني تحل وإن وطئها وهو قوله لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا والمعنى زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي تبنيته لكيلا يظن أن امرأة المتبني لا يحل نكاحها وروى مسلم في ". (٢)

٢١١-" لا يستترون منه بجبل ولا مدر قاله قتادة والثالث أن المعنى أبرزهم جميعا لأنه لا يخفى عليه منهم شيء حكاه الماوردي

قوله تعالى لمن الملك اليوم اتفقوا على أن هذا يقوله الله عز و جل بعد فناء الخلائق واختلفوا في وقت قوله له على قولين

أحدهما أنه يقوله عند فناء الخلائق إذا لم يبق مجيب فيرد هو على نفسه فيقول لله الواحد القهار قاله الأكثرون

والثاني أنه يقوله يوم القيامة

وفيمن يجيبه حينئذ قولان أحدهما أنه يجيب نفسه وقد سكت الخلائق لقوله قاله عطاء والثاني أن الخلائق كلهم يجيبونه فيقولون لله الواحد القهار قاله ابن جريج

وأنذرهم يوم الآزفة إذا القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور

---

(١) روح المعاني ٧٢/٢٧

(٢) زاد المسير ٣٩٠/٦

قوله تعالى وأنذرهم يوم الآزفة فيه قولان

أحدهما أنه يوم القيامة قاله الجمهور قال ابن قتيبة وسميت القيامة بذلك لقربها يقال أزف شخوص فلان أي قرب

والثاني أنه يوم حضور المنية قاله قطرب ". (١)

٢١٢-" قوله تعالى إذا القلوب لدى الحناجر وذلك أنها ترتقي إلى الحناجر فلا تخرج ولا تعود هذا على القول الأول وعلى الثاني القلوب هي النفوس تبلغ الحناجر عند حضور المنية قال الزجاج و كاظمين منصوب على الحال والحال محمولة على المعنى لأن القلوب لا يقال لها كاظمين وإنما الكاظمون أصحاب القلوب فالمعنى إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم قال المفسرون كاظمين أي مغمومين ممتلئين خوفا وحزنا والكاظم الممسك للشيء على ما فيه وقد أشرنا إلى هذا عند قوله والكاظمين الغيظ آل عمران ١٣٤

ما للظالمين يعني الكافرين من حميم أي قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته

يعلم خائنة الأعين قال ابن قتيبة الخائنة والخيانة واحد وللمفسرين فيها أربعة أقوال

أحدها أنه الرجل يكون في القوم فتمر به المرأة فيريهم أنه يغض بصره فإذا رأى منهم غفلة لحظ إليها فان خاف أن يفطنوا له غض بصره قاله ابن عباس

والثاني أنه نظر العين إلى ما نهي عنه قاله مجاهد

والثالث الغمز بالعين قاله الضحاك والسدي قال قتادة هو الغمز بالعين فيما لا يحبه الله ولا يرضاه

والرابع النظرة بعد النظرة قاله ابن السائب

قوله تعالى وما تخفي الصدور فيه ثلاثة أقوال أحدها ما تضمره من الفعل أن لو قدرت على ما نظرت إليه قاله ابن عباس والثاني الوسوسة ". (٢)

٢١٣-"قوله تعالى : ﴿ واتق الله ﴾ أي : في أمرها فلا تطلقها ﴿ وتخفي في نفسك ﴾ أي : تسر وتضمر في قلبك ﴿ ما الله مبديه ﴾ أي : مظهره؛ وفيه أربعة أقوال .

أحدها : حبها ، قاله ابن عباس .

والثاني : عهد عهده الله إليه أن زينب ستكون له زوجة ، فلما أتى زيد يشكوها ، قال له : ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ ، وأخفى في نفسه ما الله مبديه ، قاله علي بن الحسين .

والثالث : إيثاره لطلاقها ، قاله قتادة ، وابن جريج ، ومقاتل .

والرابع : أن الذي أخفاه : إن طلقها زيد تزوجتها ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ وتخشى الناس ﴾ فيه قولان .

---

(١) زاد المسير ٧/٢١٢

(٢) زاد المسير ٧/٢١٣

أحدهما : أنه خشي اليهود أن يقولوا : تزوج محمد امرأة ابنه ، رواه عطاء عن ابن عباس .
والثاني : أنه خشي لوم الناس أن يقولوا أمر رجلا بطلاق امرأته ، ثم نكحها .
قوله تعالى : ﴿ والله أحق أن تخشاه ﴾ أي : أولى أن تخشى في كل الأحوال ، وليس المراد أنه لم يخش الله في هذه الحال ، ولكن لما كان لخشيته بالخلق نوع تعلق ، قيل له : الله أحق أن تخشى منهم . قالت عائشة : ما نزلت على رسول الله A آية هي أشد عليه من هذه الآية ، ولو كتم شيئا من الوحي لكتمها .
فصل
وقد ذهب بعض العلماء إلى تنزيه رسول الله من حبها وإيثاره طلاقها ، وإن كان ذلك شائعا في التفسير . قالوا : وإنما عوتب في هذه القصة على شيئين :
أحدهما : أنه أخبر بأنها ستكون زوجة له ، فقال لزيد : ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ فكتم ما أخبره الله به من أمرها حياء من زيد ان يقول له : إن زوجتك ستكون امرأتي؛ وهذا يخرج على ما ذكرنا عن علي بن الحسين ، وقد نصره الثعلبي ، والواحدي .
والثاني : أنه لما رأى اتصال الخصومة بين زيد وزينب ، ظن أنهما لا يتفقان وأنه سيفارقها ، وأضمر أنه إن طلقها تزوجتها صلة لرحمها ، وإشفاقا عليها ، لأنها كانت بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب ، فعاتبه الله على إضمار ذلك وإخفائه حين قال لزيد : ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ ، وأراد منه أن يكون ظاهره وباطنه عند الناس سواء كما قيل له في قصة رجل أراد قتله : هلا أومأت إلينا بقتله؟ فقال : « ما ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين** » ، ذكر هذا القول القاضي أبو يعلى C عليه .
قوله تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا ﴾ قال الزجاج : الوطر : كل حاجة لك فيها همة ، فاذا بلغها البالغ قيل : قد قضى وطره . وقال غيره : قضاء الوطر في اللغة : بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء ، ثم صار عبارة عن الطلاق ، لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة . والمعنى : لما قضى زيد حاجته من نكاحها ﴿ زوجناكها ﴾ ، وإنما ذكر قضاء الوطر هاهنا ليبين أن امرأة المتبني تحل وإن وطئها ، وهو قوله : ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ ؛ والمعنى : زوجناك زينب – وهي امرأة زيد الذي تبنيته – لكيلا يظن أن امرأة المتبنى لا يحل نكاحها ." (١)

٢١٤–"قوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ فيه قولان :
أحدهما : أنه يوم القيامة ، قاله الجمهور . قال ابن قتيبة : وسميت القيامة بذلك لقربها . يقال : أزف شخوص فلان ، أي : قرب .
والثاني : أنه يوم حضور المنية ، قاله قطرب .

---
(١) زاد المسير في علم التفسير ٥/١٣٧

قوله تعالى : ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ وذلك أنها ترتقي إلى الحناجر فلا تخرج ولا تعود ، هذا على القول الأول . وعلى الثاني : القلوب هي النفوس تبلغ الحناجر عند حضور المنية؛ قال الزجاج : و ﴿كاظمين ﴾ منصوب على الحال ، والحال محمولة على المعنى؛ لأن القلوب لا يقال لها : كاظمين ، وإنما الكاظمون أصحاب القلوب؛ فالمعنى : إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم . قال المفسرون : « كاظمين » أي : مغمومين ممتلئين خوفا وحزنا ، والكاظم : الممسك للشيء على ما فيه؛ وقد أشرنا إلى هذا عند قوله : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

﴿ ما للظالمين ﴾ يعني الكافرين ﴿ من حميم ﴾ أي : قريب ينفعهم ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ فيهم فتقبل شفاعته .

﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ قال ابن قتيبة : الخائنة والخيانة واحد . وللمفسرين فيها أربعة أقوال :

أحدها : أنه الرجل يكون في القوم فتمر به المرأة فيريهم أنه يغض بصره ، فإذا رأى منهم غفلة لحظ إليها ، فإن خاف أن يفطنوا له غض بصره ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه نظر العين إلى ما نهي عنه ، قاله مجاهد .

والثالث : الغمز بالعين ، قاله الضحاك والسدي . قال قتادة : هو الغمز بالعين فيما لا يحبه الله ولا يرضاه .

والرابع : النظرة بعد النظرة قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ما تضمره من الفعل أن لو قدرت على ما نظرت إليه ، قاله ابن عباس .

والثاني : الوسوسة ، قاله السدي .

والثالث : ما يسره القلب من أمانة أو خيانة حكاه الماوردي ." . (١)

٢١٥-"أولها – أنه هو الذي أمر ربه، ولم يؤمر بغيره، وهو رسول من عند الله، ولا يمكن أن يكون الرسول قد أدى الرسالة على وجهها إلا إذا بلغ ما أمر به دون سواه، ولذا قال عليه السلام: (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به).

ما أمرتني أن أقوله وأبلغه، وإلا أكن غير مؤد للرسالة.

ثانيها – أنه لم يكتف ببيان أنه أدى ما أمر به إجمالا، بل ذكر حقيقة ما دعا مفسرا غير مجملا، إذ قال: (أن اعبدوا الله).

فإن هي المفسرة، فهو يفسر ما أمر به وهو بين لا إبهام فيه.

وثالثها – أنه أقام الدليل على استحقاقه وحده للعباده سبحانه: (ربي وربكم). أي أنه هو المستحق للعبادة لأنه هو وحده الذي خلقني، فأنا مخلوق، فكيف أكون إلها، وهو الذي خلقكم وحده فكيف تعبدون غيره؟!، وفي هذا التعبير أثبت وحدانية الخلق والتكوين ووحدانية الذات، كما أثبت تصريح اللفظ وحدانية العبادة.

وقد أكد عليه السلام أنه بلغهم تلك الحقائق، فقال كما حكى عنه ربه: (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم). أي كنت مشاهدا لهم رقيبا عليهم تعلم ما حاولوه من الزيغ والتحريف مدة بقائي فيهم، فما تركت تنبيههم إلى التوحيد في العبادة

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ٥/٢٨٧

والذات والصفات والتكوين مدة إقامتي بينهم، ولما تركت الدنيا كنت أنت الرقيب.

(فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) في النص الكريم السابق ذكر - عليه السلام - شهادته عليهم وهو حي، قائم برسالته مؤد لها على وجهها، وفي هذا النص يذكر انتهاء مهمته بوفاته، ويفوض أمرهم إلى ربهم في ألطف تعبير وأدق إشارة.

والفاء للتفصيل كما تدل على الحالية والبعد به، والمعنى عند حد وفاتي ومن قبلها، ومن بعد كنت أنت وحدك الرقيب عليهم العالم بحالهم وأنت على كل شيء عالم بحالهم تعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

وفقنا الله لما يحب ويرضى.

* * *". (١)

٢١٦-"(فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين).

الفاء عاطفة ما قبلها على ما بعدها، واللام لام القسم دالة هي والنون والقاف على التوكيد. و " نقص ": معناها نخبر خبر من يتقصى ويتتبع لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والضمير في " عليهم " يعود على من أرسل إليهم، ويحتمل أن يعود إليهم وإلى المرسلين معا، فيعلم المرسلون من الله ما كان يقع عليهم ويدركون أن الله كان عليما بالعنت الذي أعنتوه، يعلمون ذلك عند الحساب، كما علموه في الدنيا بإطلاع الله تعالى عليه، فعلمهم في الدنيا بالحساب والعقاب، كان علم إيمان بالغيب، ويقين من خبر الله، وعلمهم الآن بالحساب والعقاب والثواب علم معاينة. أما الكفار الذين أرسل إليهم فعلمهم يقيني بما أنكروا من قبل وهو علم بما جهلوا علم معاينة أو علم عقاب أنكروه، وبعث ونشر، وقد كابروا فيه.

وأكد الله تعالى قصصه الحق المتتبع بأمرين:

أولهما: قوله تعالى: (بعلم)، أي أنه قصص لأعمالهم وأعمال رسلهم بعلم صادق ليس فيه حدس وتخمين. كما كانوا يدعون من علم من يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، فهو يعلم الظاهر والباطن والأول والآخر.

ثانيهما: أنه علم من عاين وشاهد، وإذا قال تعالى: (وما كنا غائبين) أي كنا حاضرين حضورا مستمرا ما كنا غائبين فأخبرنا، ولكن كنا شاهدين، فعاينا، وليس علم الخبر، كعلم المعاينة والمشاهدة في الصدق واليقين.". (٢)

٢١٧-"وفى الكلام السامي إظهار في موضع الإضمار؛ لأنه سبحانه وتعالى قال عز من قائل: (وستردون إلى عالم الغيب والشهادة) ولم يقل - ولكلامه المثل الأعلى - (وستردون إليه) وذلك للإشارة إلى أن الأمر سيرجع إلى من لا تخفى عليه خافية في السماء والأرض، والغيب ما غاب عن الحس، أو ما أخفته الصدور، وما أسروه في نفوسهم، فهو يعلم **خائنة الأعين**، وما تخفي الصدور، والشهادة هي الأمر المعلن الذي تشاهده الجوارح مبصرة أو سامعة، أو باطنة، يعلم سبحانه

---

(١) زهرة التفاسير ٥/٢٤٠٩

(٢) زهرة التفاسير ٥/٢٧٨٨

كل شيء ما يسر وما يعلن، وما يظهر وما يختفى، سبحانه علام الغيوب.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى الجزاء الواقع لا محالة فقال تعالت كلماته:

(فينبئكم بما كنتم تعملون) (الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، أي إذا كنتم ستردون إليه سبحانه فإنه ينبئكم أي يخبركم إخبار فعل وجزاء بما كنتم تعملون، فترون أعمالكم عيانا، تنطق بها جوارحكم، وكتابا منشورا قد سجل كل ما عملتم، لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فتجزى كل نفس بما كسبت. وإن هذا فيه تبشير للمؤمن، وإنذار للمشرك والمنافق، وأعمالهم كلها في كتاب.

وقد فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة لمن تخلف، وعصا، بعد ذلك ذكر أناس ممن تخلفوا لم يكتب عليهم الشقوة بل لا يزال الباب مفتوحا للتوبة، فإما يتوبون، وإما يعذبهم الله على نفاقهم وتخلفهم، فقال تعالى:". (١)

٢١٨-"أولها – أنه هو الذى أمر ربه ، ولم يؤمر بغيره ، وهو رسول من عند الله ،

ولا يمكن أن يكون الرسول قد أدى الرسالة على وجهها إلا إذا بلغ ما أمر به دون سواه ، ولذا قال عليه السلام : (ما قلست لفم إلأ ما أمرتني به .

ما أمرتنى أن أقوله وأبلغه ، وإلا أكن غير مؤد للرسالة.

ثانيها – أنه لم يكتف ببيان أنه أدى ما أمر به إجمالا ، بل ذكر حقيقة ما دعا

مفسرا غير مجملا ، إذ قال : (أن اعئدوا الله . فإن هى المفسرة ، فهو يفسر ما أمر به وهو بين لا إبهام فيه.

وثالثها – أنه اقام الدليل على استحقاقه وحده للعباده سبحانه : (ربي

وربكم . أى أنه هو المستحق للعبادة لأنه هو وحده الذى خلقنى ، فأنا مخلوق ، فكيف أكون إلها ، وهو الذى خلقكم وحده فكيف تعبدون غيره ؟ ! ، وفى هذا التعبير أثبت وحدانية الخلق والتكوين ووحدانية الذات ، كما أثبت تصريح اللفظ وحدانية العبادة.

وقد أكد عليه السلام أنه بلغهم تلك الحقائق ، فقال كما حكى عنه ربه : (وكنت عليهم شهيدا ما ذمت فيهم . أى كنت مشاهدا لهم رقيبا عليهم تعلم ما جاولوه من الزيغ والتحريف مدة بقائى فيهم ، فما تركت تنبيههم إلى التوحيد فى العبادة والذات والصفات والتكوين مدة إقامتي بينهم ، ولما تركت الدنيا كنت أنت الرقيب.

(فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل لثيء شهيد@ فى النص

الكريم السابق ذكر – عليه السلام – شهادته عليهم وهو حى ، قائم برسالته مؤد لها على وجهها ، وفى هذا النص يذكر انتهاء مهمته بوفاته ، ويفوض أمرهم إلى ربهم فى ألطف تعبير وأدق إشارة.

والفاء للتفصيل كما تدل على الحالية والبعد به ، والمعنى عند حد وفاتى ومن قبلها ، ومن بعد كنت أنت وحدك الرقيب عليهم العالم بحالهم وأنت على كل شيء عالم بحالهم تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

---

(١) زهرة التفاسير ٣٤٣٩/٧

وفقنا الله لما يحب ويرضى.". [١]

٢١٩-"يعذروا من أنفسهم " (١) ولقد أكد - سبحانه وتعالى - أنه لا سبيل لإنكارهم لأن الله تعالى يعلم غيب أمرهم إن أخفوه ، فقال : (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين .

الفاء عاطفة ما قبلها على ما بعدها ، واللام لام القسم دالة هى والنون والقاف على التوكيد. و " نقص " : معناها نخبر خبر من يتقصى ويتتبع لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، والضمير فى " عليهم " يعود على من أرسل إليهم ، ويحتمل أن يعود إليهم وإلى المرسلين معا ، فيعلم المرسلون من الله ما كان يقع عليهم ويدركون أن الله كان عليما بالعنت الذى أعنتوه ، يعلمون ذلك عند الحساب ، كما علموه فى الدنيا بإطلاع الله تعالى عليه ، فعلمهم فى الدنيا بالحساب والعقاب ، كان علم إيمان بالغيب ، ويقين من خبر الله ، وعلمهم الان بالحساب والعقاب والثواب علم معاينة. أما الكفار الذين أرسل إليهم فعلمهم يقيني بما أنكروا من قبل وهو علم بما جهلوا علم معاينة أو علم عقاب أنكروه ، وبعث ونشر ، وقد كابروا فيه.

وأكد الله تعالى قصصه الحق المتتبع بأمرين :

أولهما : قوله تعالى : (بعلم @ ، أى أنه قصص لأعمالهم وأعمال رسلهم

بعلم صادق ليس فيه حدس وتخمين. كما كانوا يدعون من علم من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو يعلم الظاهر والباطن والاول والآخر.

ثانيهما : أنه علم من عاين وشاهد ، وإذا قال تعالى : (وما كنا غائبين @ أى

كنا حاضرين حضورا مستمرا ما كنا غائبين فأخبرنا ، ولكن كنا شاهدين ، فعاينا ، وليس علم الخبر ، كعلم المعاينة والمشاهدة فى الصدق واليقين.

(١) رواه أحمد : باقى مسند الأنصار (٢٢٠٠٠) ، وأبو داود : الملاحم - الأمر والنهى (٤٣٤٧).". [٢]

٢٢٠-"ا " إا ا.تفسير ابسو رة! لتوبة ١١" اا@اا أ اا"" أا اا " اا@

وفى الكلام السامى إظهار فى موضع الإضمار ؟ لأنه سبحانه وتعالى قال عز

من قائل : (وستردون إلن عالم الغيب والشهادة@ ولم يقل - ولكلامه المثل الأعلى - " وستردون إليه @ وذلك للإشارة إلى أن الأمر سيرجع إلى من لا تخفى عليه خافية فى السماء والأرض ، والغيب ما غاب عن الحس ، او ما أخفته الصدور ، وما أسروه فى نفوسهم ، فهو يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور ، والشهادة هى الأمر المعلن الذى تشماهده الجوارح مبصرة أو سامعة ، أو باطنة ، يعلم سبحانه كل شيء ما يسر وما يعلن ، وما يظهر وما يختفى ، سبحانه علام الغيوب.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى الجزاء الواقع لا محالة فقال تعالت كلماته : (فينبئكم بما كنتم تعملون @ (الفاء) للإفصاح

---

(١) زهرة التفاسير ص/٢٤٠٩

(٢) زهرة التفاسير ص/٢٧٨٨

عن شرط مقدر ، أى إذا كنتم ستردون إليه سبحانه فإنه ينبئكم أى يخبركم إخبار فعل وجزاء بما كنتم تعملون ، فترون أعمالكم عيانا ، تنطق بها جوارحكم ، وكتابا منشورا قد سجل كل ما عملتم ، لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فتجزى كل نفس بما كسبت.

وإن هذا فيه تبشير للمؤمن ، وإنذار للمشرك والمنافق ، وأعمالهم كلها فى كتاب.

وقد فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة لمن تخلف ، وعصا ، بعد ذلك ذكر

أناس ممن تخلفوا لم يكتب عليهم الشقوة بل لا يزال الباب مفتوحا للتوبة ، فإما يتوبون ، وإما يعذبهم الله على نفاقهم وتخلفهم ، فقال تعالى :

(واخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم .

ذكرنا أن الذين دعوا إلى الخروج إلى الغزوة التى كانت فتحا للطريق إلى

بلاد الشام وما وراءها من الأرض التى كان الروم يسيطرون عليها ، وأشرنا إلى أنه كان فيهم السباقون إلى المكرمات المهاجرون والأنصار ، وكان فيهم المنافقون". (١)

٢٢١-"معنى الصديقية وكيفية الاتصاف بها

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ﴾ [النساء:٦٩]، الصديق أصله من كثرة الصدق في الحديث، ومن كثرة التصديق كذلك، لكن يحمل التصديق على معنى شرعي وهو: تصديق الله فيما أخبر به، وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم فيما بلغ عن ربه تبارك وتعالى، فالصديقية مأخوذة من كثرة التصديق، ومأخوذة من كثرة الصدق كذلك، فـ أبو بكر رضي الله عنه أطلق عليه أنه صديق؛ لكثرة تصديقه بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الخبر الذي ظاهره لا يقبله العقل، لكن مع ذلك كله كان أبو بكر يصدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أما مأخذه من الصدق في الحديث فلما ورد في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)، فالصديقية تنال بالإكثار من تصديق الله ورسوله، وبالإكثار من الصدق في الحديث، حتى لو كانت لك إلى الكذب ضرورة وتركته كي تقترب من مرتبة الصديقين فهذا فعل حسن، حتى في أمور المزاح، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يمزح ويقول له الصحابة: (إنك تداعبنا يا رسول الله! قال: نعم ولكني لا أقول إلا حقا -أو لا أقول إلا صدقا-) فكان ينادي أنسا فيقول له: (ياذا الأذنين!)، وحقا فـ أنس له أذنان، فيكاد أنس يرتاب من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يا ذا الأذنين)! لكنه حقيقة فليس فيه كذب من رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لما أتته العجوز تقول: (يا رسول الله! سل الله أن يدخلني الجنة، فقال: إنه لن يدخل الجنة عجوز! فولت مدبرة حزينة، فدعاها النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها: إن الله يقول: ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكارا * عربا أترابا * لأصحاب

---

(١) زهرة التفاسير ص/٣٤٣٩

اليمين ﴾ [الواقعة:٣٥-٣٨])، أو كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، فالرجل ينال مرتبة الصديقية بالإكثار من الصدق في حديثه، وتحري الصدق في الحديث، وعدم الإكثار من التورية، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام خير من يقتدى بهم في هذا الباب، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**)، حتى خائنة العين والإشارة بها يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**)." (١)

٢٢٢-"تفسير قوله تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم .)

باسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد: فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فقال: (اصرف بصرك) وقد ورد في الباب حديث علي وفي إسناده كلام: (يا علي ! لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة) وهو حديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام في معرض بيان غض البصر : (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة)، ومن الجهل والقبح والعار أن ترى رجالا ونساء عراة، أو رجالا يسبحون في البحر عراة كما ولدتهم أمهاتهم، وفي الأنهار والترع كالبهائم والعياذ بالله.

قال الله سبحانه: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ [النور:٣٠] قد يقول قائل: إن حفظ الفرج آكد من غض البصر؛ لأن عدم حفظ الفرج كبيرة، أما إطلاق البصر ليس من الكبائر عند كثير من العلماء، لأن ابن عباس فسر اللمم بحديث أبي هريرة : (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة: فالعين تزني وزناها النظر) فقال: ما رأيت أشبه باللمم المذكور في قوله تعالى: ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ [النجم:٣٢] مما قال أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ...) الحديث، فلماذا قدم الأمر بغض البصر على الأمر بحفظ الفرج، مع أن حفظ الفرج أهم من غض البصر؟! صحيح أن حفظ الفرج أهم من غض البصر، لكن النظر هو الوسيلة إلى المحرم.

فالفرج لا يتحرك إلا بعد نظر، وكما قال الشاعر: ومعظم النار من مستصغر الشرر فالأمر بغض البصر أمر بسد الذريعة إلى الوصول إلى المحرم، فالزنا جعل له حمى حتى لا يقع شخص فيه، فلا تدخل بيت شخص إلا إذا استأذنت، ولا تنظر إلا إلى الذي أبيح لك، وقد قدمنا أن من الحمى الذي وضع للزنا: مصافحة المرأة الأجنبية، فإنها لا يجوز، والخلوة بالمرأة الأجنبية لا تجوز، سفر المرأة بدون محرم لا يجوز، والغناء الذي يثير الكامن ويهيج على الفاحشة لا يجوز، فللزنا حمى فليبتعد عنه الشخص، ومنه غض البصر.

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ [النور:٣٠] فيه أن ذكر الرجل يطلق عليه الفرج خلافا لمن كره ذلك من العلماء، فمن أهل العلم من كره أن يقال عن عورة الرجل فرج، وقال: الفرج هو ما انفرج، أي: ما فتح، كما

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي ٧/١٣

قال تعالى: ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ [ق:٦] فقال: إن الفرج مختص بالمرأة، لكن هذه الآية ترد عليه، لأن الله جل ذكره قال: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ [النور:٣٠].

والمقصود أن يحفظوها عن الزنا، وعن اللواط، وعن الاستمناء، وعن نظر الأجانب إليها، وعن نظر من لا يحل له النظر إليها، وبالجملة عن كل ما حرمه الله سبحانه وتعالى عليهم، قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما تقدم: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل).

وقد ورد في الباب حديث محمول على الاستحباب، ألا وهو حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: (يا رسول الله! إن الله لا يستحي من الحق -وذكر الحديث وفيه:- عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟) يعني: ما هو الشيء الذي يرى، وما الشيء الذي يترك؟ قال: (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك، قال: الرجل يغتسل عاريا يا رسول الله؟! قال: الله أحق أن يستحيا منه من الناس) فمن العلماء من قال: وإن كنت وحدك استحب لك أن تستتر ولا تباشر السماء بفرجك، ولا تكن مكشوفا، وحمل هذا على الاستحباب لا على الإيجاب؛ لأن نبي الله موسى اغتسل عريانا، ولأن نبي الله أيوب اغتسل عريانا، وهذا حيث لا يراهما الناس، لكن الكلام على الاستحباب في شريعتنا، والله تعالى أعلم.

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ [النور:٣٠]، هذا التعقيب بقوله: ((إن الله خبير بما يصنعون))[النور:٣٠] لأن للأعين خائنة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، فقد تكون ماشيا مع شخص في طريق ولعينه خائنة وأنت لا تشعر بها، ولا تستطيع أن تضبطه بحال، يسارق النظر وأنت لا تشعر، كما قال سبحانه: ﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴾ [غافر:١٩] فختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ [النور:٣٠] فمهما أخطأت على الناس فإن الله يعلم حالك ويطلع عليك .". (١)

٢٢٣-"ثبوت صفة السمع والبصر لله، وتعزيز مبدأ المراقبة له سبحانه

قال تعالى: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ [المجادلة:١]، الآية أثبتت كغيرها ما هو من بدهيات الإسلام: صفة السمع لله سبحانه وتعالى، ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ [المجادلة:١]، ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ [المجادلة:١]، فهذه الآية مع غيرها من الآيات تعزز مبدأ مراقبة الله عز وجل، وعليك أن تعبد الله على هذا النحو، تعبده عبادة المحسنين، إن لم تكن تراه فإنه يراك، قال تعالى: ﴿ الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ [النور:٦٤]، وقال جل شأنه: ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم ﴾ [هود:٥] أي: وهم متغطون بثيابهم.

﴿ يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ [هود:٥] .

وهذا المعنى قد لقنه لقمان لولده: ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ [لقمان:١٦]، وأيضا: ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي ٢/٣٥

في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [يونس:٦١]، والآيات في باب الحث على مراقبة الله سبحانه وتعالى لا تكاد تنتهي، قال تعالى: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر:١٩]، ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ [الملك:١٣]، آيات لا تحصى ولا تنتهي، تفيد أنك مراقب بدقة وأي دقة، مراقب مراقبة دقيقة من كل صوب ومن كل اتجاه، وكل الحركات منك محسوبة عليك، بل ما بداخلك مطلع عليه ربك سبحانه وتعالى، قال جل جلاله: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ق:١٦]، فأنت يا ابن آدم ضعيف كما قال ربك سبحانه، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم، وأنت عجول، ومع هذا كله فأنت مراقب مراقبة صارمة ودقيقة في غاية الدقة.

قال الله سبحانه: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ﴾ [المجادلة:١]، والمحاورة: هي إرجاع الكلام إلى الطرف الآخر، هو يتكلم وأنت تحاوره، أي: ترد الكلام عليه، كما قال الشاعر في وصف فرسه: لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ [المجادلة:١]، (وقد تلا النبي صلى الله عليه وسلم آية ختامها يشابه هذا الختام: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا ﴾ [النساء:٥٨]ولما تلاها النبي عليه الصلاة والسلام وضع إبهامه على أذنه وسبابته على عينه)، فاستنبط بعض العلماء من هذا الحديث: إثبات السمع والبصر لله سبحانه وتعالى، ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ [المجادلة:١].". (١)

٢٢٤-"حكم لبس النظارة الشمسية بدون حاجة

Q نرجو إلقاء الضوء على حكم لبس النظارة الشمسية بدون داع، هل فيه تشبه أو تغيير للخلق؟

A ليست تشبها وليست تغييرا للخلق، لكن إذا كنت تلبسها حتى تتابع بها النساء ولا يراك أحد فربك يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إذا كنت تلبسها لحاجة شر فهي شر، لكن الأصل أنها جائزة لا شيء فيها أبدا ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ [الأعراف:٣٢].". (٢)

٢٢٥-"تفسير قوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة)

قال تعالى: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ [الزلزلة:٧] أي: فمن يعمل في دنياه مثقال ذرة من الخير يراها، وما هو ضابط الذرة؟ من العلماء من قال: إن الذرة هي النملة الصغيرة الحمراء، ومنه قول الحسن البصري في بعض مقالاته في شأن الأبرار: البر هو الذي لا يؤذي الذر.

فالشاهد: أن من العلماء من ضبط الذرة بأنها النملة الصغيرة الحمراء.

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي ٣/٥٤

(٢) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي ٢١/٨٧

فإن قال قائل: إن العلم الحديث وضح أن الذرة تنقسم إلى الكترون وبروتون، وكل هذا لا يرى بالعين المجردة، فلماذا فسرت الذرة بهذا التفسير الذي هو النملة؟ فالإجابة أن الله خاطب الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصغر شيء في أعينهم وهو النملة الصغيرة الحمراء.

والقول الثاني: إنها ذرة الغبار التي تكون في شعاع الشمس في الغرفة التي يدخلها ثقب، على ما قاله بعض العلماء، وكان هذا أصغر شيء يتخيله العرب، لكن أصغر منه أثبت أيضا في كتاب الله: ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ﴾ [يونس:٦١] فأثبت الذي هو أصغر من الذرة، فيندرج تحته ما اكتشف مؤخرا ﴿ ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [يونس:٦١].

فقوله: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة ﴾ [الزلزلة:٧] حتى الذرة، ولذلك فقد روي عن أم المؤمنين عائشة أنها كانت إذا أتاها سائل لا تبخل عليه بالصدقة، ولو بتمرة، وتقول: سبحان الله! كم في التمرة من ذرات، والله يقول: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ [الزلزلة:٧] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة جارتها ولو فرس شاة) أي: لا تحقرن جارة الهدية أن تهديها إلى جارتها أو تقبلها من جارتها ولو كانت الهدية هذه حافر شاة أو رجل شاة، وإذا أهديت أيتها المسلمة أو إذا رغبت في الإهداء وليس عندك شيء فلا تستقلي الهدية أن تهديها، وإن كانت قليلة فبادري بإخراجها ولا تحقريها، فكم فيها من ذرات.

والوجه الثاني: إذا أهدت لك أيتها المسلمة أختك شيئا فاقبليه، فالهدية في أصلها دليل على المحبة، ومن ثم حس بعض العلماء حديث: (تهادوا تحابوا)، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها.

فالشاهد: أنه على العبد ألا يستقل أعمال البر ولا يستصغر أعمال الشر كذلك، فقد ترى العمل في عينيك يسيرا ولكنه عند الله كبير، قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث لما مر بالقبرين (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير -أي: في أنظاركم- بلى إنه كبير) أي: عند الله سبحانه وتعالى.

فقد تتكلم بكل بساطة في عرض مسلم وتظن أنك ما فعلت شيئا وأنت قد أكلت لحما ميتا، ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ﴾ [الحجرات:١٢]، وقد تقدم عن أنس بن مالك كما في البخاري (إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، إنا كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات) أي: من المهلكات.

فالله يقول: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ [الزلزلة:٧-٨] هذا النص عام تندرج تحته كل أفعال البر وكل أفعال الشر، وقد استدل به الرسول صلى الله عليه وسلم لما ذكر حديثا في فضل الخيل، فسأله سائل: يا رسول الله! والحمر -أي: والحمير يا رسول الله ما القول فيها إذا احتبستها في سبيل الله- (فقال: ما أنزل علي فيها إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ [الزلزلة:٧-٨]).

فأفادت الآية أن كل شيء يفعله العبد مثبت، حتى **خائنة الأعين** مثبتة، اللفظ الذي يتلفظه العبد مثبت، حركة اليد مثبتة، قال تعالى: ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر * وكل صغير وكبير مستطر ﴾ [القمر:٥٢-٥٣]، وقال: ﴿ ما يلفظ من

قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق:١٨] ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ﴾ [الكهف:٤٩] ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ﴾ [آل عمران:٣٠]، فالأمر كما قال سبحانه: ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ [المجادلة:٦].

قال تعالى: ﴿ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ [الزلزلة:٨]، لقد صحح بعض العلماء حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لـ عائشة : (يا عائشة ، إياك ومحقرات الذنوب، فإنهن إذا اجتمعن على رجل يهلكنه -وفي رواية-: كقوم نزلوا ببطن واد، فجمع هذا عودا، وجمع هذا عودا، حتى جمعوا حطبا كثيرا فأنضجوا لحمهم) أو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم، وكما قال الشاعر: لا تحقرن من الذنوب صغيرها إن الصغير غدا يعود كبيرا إن الصغير وإن تضاءل قدره عند الإله مسطر تسطيرا فجدير بكل عبد أن يحدث توبة لكل ذنب.

والله الموفق.". (١)

٢٢٦-"[فلنسألن الذين أرسل إليهم] أى لنسألن الأمم قاطبة : هل بلغكم الرسل وماذا أجبتم ؟ والمقصود من هذا السؤال التقريع ، والتوبيخ للكفار

[ولنسألن المرسلين] أى ولنسألن الرسل أيضا هل بلغوا الرسالة وأدوا الامانة ؟ قال في البحر : وسؤال الأمم تقرير وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة نكالا وعذابا ، وسؤال الرسل تأنيس يعقب الأنبياء كرامة وثوابا

[فلنقصن عليهم بعلم] أى فلنخبرنهم بما فعلوا عن علم منا ، قال ابن عباس : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون

[وما كنا غائبين] أى ما كنا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم ، قال ابن كثير : يخبر تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا ، من قليل وكثير ، وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور

[والوزن يومئذ الحق] أى والوزن للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل ، ولا يظلم ربك أحدا

[فمن ثقلت موازينه] أى فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات

[فأولئك هم المفلحون] أى الناجون غدا من العذاب ، الفائزون بجزيل الثواب

[ومن خفت موازينه] أى ومن خفت موازين أعماله بسبب الكفر واجتراح السيئات

[فأولئك الذين خسروا أنفسهم] أى خسروا أنفسهم وسعادتهم

[بما كانوا بآياتنا يظلمون] أى بسبب كفرهم وجحودهم بآيات الله ، قال ابن كثير : والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت إعراضا ، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما ، يروى هذا عن ابن عباس ، وقيل : يوزن

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي ١٠/١٠٠

كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة ، وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث (يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة) والكل صحيح فتارة توزن الأعمال ، وتارة محالها ، وتارة يوزن فاعلها والله أعلم أقول : لا غرابة في وزن الأعمال ، ووزن الحسنات والسيئات بالذات ، فإذا كان العلم الحديث قد كشف لنا عن موازين للحر ، والبرد ، واتجاه الرياح ، والأمطار ، أفيعجز القادر على كل شيء ، عن وضع (موازين) لأعمال البشر ؟

[ولقد مكناكم في الأرض] أى جعلنا لكم أيها الناس في الأرض مكانا وقرارا ، قال البيضاوي : أى مكناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها

[وجعلنا لكم فيها معايش] أى ما تعيشون به وتحيون ، من المطاعم والمشارب وسائر ما تكون به الحياة

[قليلا ما تشكرون] أى ومع هذا الفضل والإنعام ، قليل منكم من يشكر ربه كقوله [وقليل من عبادي الشكور]

[ولقد خلقناكم ثم صورناكم] أي خلقنا أباكم آدم طينا غير مصور ، ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم ، وإنما ذكر بلفظ الجمع [صورناكم] تعظيما له لأنه أبو البشر

[ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم] أى ثم أمرنا الملائكة بالسجود لآدم تكريما له ولذريته

[فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين] أى سجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس امتنع من السجود تكبرا وعنادا ، والاستثناء منقطع لأنه استثناء من غير الجنس ، وقد تقدم قول الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين

[قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك] أى قال تعالى لإبليس : أى شيء منعك أن تدع السجود لآدم ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ

[قال أنا خير منه] أي قال إبليس اللعين أنا أفضل من آدم وأشرف منه ، فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟ ثم ذكر اللعين العلة في الامتناع فقال

". (١)

٢٢٧-"[كاظمين] أي ممتلئين غما وحسرة شأن المكروب قال في التسهيل : معنى الآية أن القلوب قد صعدت من الصدور ، لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر ، ويحتمل أن يكون ذلك مجازا ، عبر به عن شدة الخوف ، والحنجرة هي الحلق

[ما للظالمين من حميم] أي ليس للظالمين صديق ينفعهم

[ولا شفيع يطاع] أي ولا شفيع يشفع لهم لينقذهم من شدة العذاب

[يعلم خائنة الأعين] أي يعلم جل وعلا العين الخائنة ، بمسارقتها النظر إلى محرم قال ابن عباس : هو الرجل يكون جالسا مع الناس ، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها

[وما تخفي الصدور] أي ويعلم السر المستور الذي تخفيه الصدور

---

(١) صفوة التفاسير . للصابوني ٢٨٩/١

[والله يقضى بالحق] أي يقضي ويحكم بالعدل

[والذين يدعون من دونه] أي والذين يعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام

[لا يقضون بشيء] أي لا حكم لهم أصلا فكيف يكونون شركاء لله ؟ قال أبو السعود : وهذا تهكم بهم ، لأن الجماد لا يقال في حقه يقضى أو لا يقضى

[إن الله هو السميع البصير] أي هو السميع لأقوال العباد ، البصير بأفعالهم

[أو لم يسيروا في الأرض] ؟ اي أو لم يعتبر هؤلاء المشركون في أسفارهم بما يرون من آثار المكذبين

[فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم] أي فينظروا ما حل بالمكذبين من العذاب والنكال ؟ فإن العاقل من اعتبر بغيره

[كانوا هم أشد منهم قوة] أي كانوا أشد قوة من هؤلاء الكفار من قومك

[وآثارا في الأرض] أي وأقوى آثارا فى الأرض من الحصون والقصور والجند الأشداء ، ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد ، أهلكهم الله لما كذبوا الرسل

[فأخذهم الله بذنوبهم] أي أهلكهم الله إهلاكا فظيعا ، بسبب إجرامهم وتكذيبهم رسل الله

[وما كان لهم من الله من واق] أي وما كان لهم أحد يدفع عنهم عذاب الله ، ولا يقيهم من عقابه . . ثم ذكر تعالى سبب عقابه لهم ، فقال سبحانه

[ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات] أي ذلك العذاب بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الباهرات ، والآيات الساطعات الواضحات

[فكفروا فأخذهم الله] أي فكفروا مع هذا البيان والبرهان ، فأهلكهم الله ودمرهم

[إنه قوى] أي إنه تعالى قوي لا يقهر ، ذو قوة عظيمة وبأس شديد

[شديد العقاب] أي عقابه شديد لمن عصاه ، وعذابه أليم وجيع لمن كفر به ، أعاذنا الله من عقابه ، وأجارنا من عذابه .

قال الله تعالى : [ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . .] إلى قوله [أدخلوا آل فرعون أشد العذاب] . من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٦) .

المناسبة :

لما ذكر تعالى ما حل بالكفار من العذاب والدمار ، أردفه بذكر قصة موسى مع فرعون ، تسلية لرسول الله (ص) عما يلقاه من الأذى والتكذيب ، وبيانا لسنة الله تعالى في إهلاك الظالمين ، ثم ذكر موقف مؤمن آل فرعون ونصيحته لقومه ، وهي مواقف بطولية مشرفة في وجه الطغيان .

اللغة :

[استحيوا] استبقوا بناتهم على قيد الحياة

[ضلال] ضياع وبطلان

[يكتم] يخفي ، يقال : كتمت عنه الأمر أي أخفيته

[عدت] اعتصمت وتحصنت والتجأت

[ظاهرين] غالبين مستعلين

[بأس الله] عذابه وانتقامه

[دأب] عادة وشأن

[التناد] يوم القيامة للنداء فيه إلى المحشر ، أو لمناداة بعضهم بعضا ، قال أمية بن الصلت : وبث الخلق فيها إذ دحاها فهم سكانها حتى التناد

[عاصم] مانع ودافع

[صرحا] قصرا وبناة عظيما عاليا

[تباب] خسران وهلاك

[لا جرم] حقا ولا محالة

[حاق] نزل وأحاط .

التفسير :

[ولقد أرسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين] اللام موطئة للقسم أي والله لقد بعثنا رسولنا موسى ، بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، وبالبرهان البين الظاهر ، وهو معجزة اليد والعصا

". (١)

٢٢٨-"" صفحة رقم ١٩ "

سورة المؤمن

(سورة المؤمن وهي مكية إلا آية قوله إن الذين يجادلون حروفها أربعة آلاف وتسعمائة وسبعون كلمها ألف ومائتان غير كلمة آياتها خمس وثمانون) بسم الله الرحمن الرحيم

(غافر : (١ - ٢٢) حم

" حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم

---

(١) صفوة التفاسير . للصابوني ١٤٩/٣

ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في". (١)

٢٢٩-"" صفحة رقم ٢٩ "

أمارات الموت يعظم خوفه ، فلو جعلنا كون القلوب لدى الحناجر كناية عن شدة الخوف جاز ، ولو حملناه على ظاهره فلا بأس .

وقوله (كاظمين (أي مكروبين .

والكاظم الساكت حال امتلائه غما وغيظا قال عز من قائل) والكاظمين الغيظ ( ) آل عمران : ١٣٤ (وانتصابه على أنه حال عن أصحاب القلوب كأنه قيل : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ، أو عن القلوب .

وجمع جمع السلامة بناء على أن الكظم من أفعال العقلاء كقوله) فظلت أعناقهم لها خاضعين) [الشعراء : ٤] أو عن ضمير المفعول في) وأنذرهم (أي وأنذرهم مقدرين أو مشارفين الظم فيكون حالا مقدرة .

وفي قوله) ما للظالمين من حميم ولا شفيع (بحث بين الأشاعرة والمعتزلة حيث حمله الأولون على أهل الشرك ، والآخرون على معنى أعم حتى يشمل أصحاب الكبائر .

وقد مر مرارا ولا سيما في قوله) وما للظالمين من أنصار ( ) آل عمران : ١٩٢ (ومعنى قوله) يطاع (يجاب أي لا شفاعة ولا إجابة كقوله :

ولا ترى الضب بها ينجحر

وذلك أنه لا يشفع أحد في ذلك اليوم إلا بإذن الله ، فإن أذن له أجيب وإلا فلا يوجد شيء من الأمرين .

والفائدة في ذكر هذه الصفة أن يعلم أن الغرض من الشفيع منتف في حقهم وإن فرض شفيع على ما يزعم أهل الشرك من أن الأصنام يشفعون لهم .

وقوله (يعلم **خائنة الأعين** (خبر آخر لقوله) هو الذي يريكم آياته (إلا أنه فصل بالتعليل وهو قوله) لينذر (وذكر

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٩/٦

وصف القيامة استطرادا ، قال جار الله : هي صفة للنظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية ، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب .

قال : ولا يحسن أن تكون الخائنة صفة للأعين مضافة إليها نحو (جرد قطيفة) أي يعلم العين الخائنة لأن قوله) وما تخفي الصدور (لا يساعد عليه .

قلت : يعني أن عطف العرض على الجوهر والمعنى على العين غير مناسب .

وقيل : هي قول الإنسان رأيت ولم ير وما رأيت ورأى .

ومضمرات الصدرو أي القلوب فيها لأنها فيها .

قيل : هي ما يستره الإنسان من أمانة وخيانة .

وقيل : الوسوسة .

وقال ابن عباس : ما تخفي الصدور بعد النظر إليها أيزني بها أم لا .

أقول : والحاصل أنه تعالى أراد أن يصف نفسه بكمال العلم فإن المجازاة تتوقف على ذلك .

ففي قوله) يعلم **خائنة الأعين** (إشارة إلى أنه عالم بجميع أفعال الجوارح ، وفي قوله) وما تخفى الصدور (دلالة على أنه عالم بجميع أفعال القلوب .

وإذا علمت هذه الصفة وقد عرفت من الأصناف السابقة كمال قدرته واستغنائه لم يبق شك في حقية قضائه فلذلك قال) والله يقضى بالحق (ثم وبخهم على عبادة من لا قضاء له ولا سمع ولا بصر". (١)

٢٣٠-"(يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم) الخون أصله كما في الكشاف النقص كما أن الوفاء التمام، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان، وقيل معناه الغدر وإخفاء الشيء ومنه قوله تعالى: (يعلم **خائنة الأعين**).

نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم أو يخونوا رسوله بترك شيء مما آمنهم الله عليه أو بترك شيء مما سنه لهم، أو يخونوا شيئا من الأمانات التي ائتمنوا عليها، وسميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق، مأخوذة من الأمن، قال ابن عباس: لا تخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سننه وارتكاب معصيته.

وقال المغيرة بن شعبة: نزلت هذه الآية في قتل عثمان، وقال يزيد بن أبي حبيب: هو الإخلال بالسلاح في المغازي، ولعل مرادهما أن هذا مما يندرج تحت عمومها.

قال جابر بن عبد الله: إن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه بمكان كذا فاخرجوا إليه واكتموا فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان أن محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦/٢٩

وعن عبد الله بن أبي قتادة قال: نزلت هذه الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر سألوه يوم قريظة ما هذا الأمر فأشار إلى حلقه أنه الذبح فنزلت، وعن". (١)

٢٣١-"يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)". (٢)

٢٣٢-"(يعلم **خائنة الأعين**) وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل له النظر إليه، والخائنة مصدر كالعافية والكاذبة، أي يعلم خيانة الأعين، والجملة خبر آخر لقوله: هو الذي يريكم، أو خبر رابع عن المبتدأ الذي أخبر برفيع وما بعده عنه، والأول هو الظاهر، وقيل غير ذلك، قال المؤرج: فيه تقديم وتأخير أي يعلم الأعين الخائنة. وقيل: الإضافة على معنى من، أي: الخائنة من الأعين، قال قتادة: **خائنة الأعين** الهمز بالعين فيما لا يحب الله، وقال الضحاك: هو قول الإنسان: ما رأيت، وقد رأى، ورأيت، وما رأى. وقال السدي: إنه الرمز بالعين، وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة، وبه قال الفراء والأول أولى، وبه قال مجاهد قال ابن عباس في الآية: " الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها، وإذا غضوا نظر إليها، وإذا نظروا غض بصره عنها، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها " أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.
وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال: " إذا نظر إليها يريد الخيانة أم لا؟ وما تخفي". (٣)

٢٣٣-"(والله يقضي بالحق) فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر.
(والذين يدعون من دونه) أي يعبدونهم من دون الله، قرأ الجمهور بالتحتية يعني الظالمين، وقرىء بالفوقية على الخطاب لهم، وهما سبعيتان (لا يقضون بشيء) لأنهم لا يعلمون شيئا ولا يقدرون على شيء. فكيف يكونون شركاء لله، وهذا تهكم بهم لأن ما لا يوصف بالقدرة كالجماد لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي.
(إن الله هو السميع البصير) فلا يخفى عليه من المسموعات والمبصرات خافية؛ تقرير لقوله: (يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور) ولقضائه بالحق، ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون، ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه. وتعريض بما يدعون من

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ١٦٢/٥
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن ١٧٥/١٢
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن ١٧٥/١٢

دونه وأنها لا تسمع". [١]

٢٣٤-"الصدور، قال: إذا قدر عليها أيزني لها أم لا؟ ألا أخبركم بالتي تليها؟ والله يقضي بالحق، قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة.

وأخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال لما كان يوم فتح مكة أمن النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فاختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة جاء به فقال: " يا رسول الله بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى بيعته ثم بايعه، ثم أقبل على أصحابه فقال أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله، فقالوا ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟ هلا أومأت إلينا بعينك فقال إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين** ".

(وما تخفي الصدور) أي القلوب من الضمائر، وتستره وتكنه، وتضمره عن معاصي الله أو من أمانة وخيانة أو النظرة الأولى، أو هل يزني بها لو خلا بها أو لا؟". [٢]

٢٣٥-" والخون أصله كما في الكشاف : النقص كما أن الوفاء التمام ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان وقيل معناه : الغدر وإخفاء الشيء ومنه قوله تعالى : ﴿ يعلم **خائنة الأعين** ﴾ نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم أو يخونوا رسوله بترك شيء مما أمههم عليه أو بترك شيء مما سنه لهم أو يخونوا شيئا من الأمانات التي اؤتمنوا عليها وسميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق مأخذوة من الأمن وجملة ٢٧ - ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ في محل نصب على الحال : أي وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة فتفعلون الخيانة عن عمد أو أنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل ". [٣]

٢٣٦-" ثم وصف سبحانه شمول علمه لكل شيء وإن كان في غاية الخفاء فقال : ١٩ - ﴿ يعلم **خائنة الأعين** ﴾ وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل النظر إليه والجملة خبر آخر لقوله : ﴿ هو الذي يريكم ﴾ قال المؤرج : فيه تقديم وتأخير : أي يعلم الأعين الخائنة وقال قتادة : **خائنة الأعين** : الهمز بالعين فيما لا يحب الله وقال الضحاك : هو قول الإنسان ما رأيت وقد رأى ورأيت وما رأى وقال سفيان : هي النظرة بعد النظرة والأول أولى وبه قال مجاهد ﴿ وما تخفي

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ١٧٦/١٢
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن ١٧٦/١٢
(٣) فتح القدير ٤٣٨/٢

الصدور ﴾ من الضمائر وتسره من معاصي الله ". (١)

٢٣٧-" ٢٠ - ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أي تعبدونهم من دون الله ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ لأنهم لا يعلمون شيئا ولا يقدرون على شيء : قرأ الجمهور ﴿ يدعون ﴾ بالتحتية يعني الظالمين واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم وقرأ نافع وشيبة وهشام بالفوقية على الخطاب لهم ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ فلا يخفى عليه من المسموعات والمبصرات خافية

وقد أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال : هي مثل التي في البقرة ﴿ كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ كانوا أمواتا في صلب آبائهم ثم أخرجهم فأحياهم ثم أماتهم ثم يحييهم بعد الموت وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : كنتم ترابا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة فهما موتتان وحياتان كقوله : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ الآية وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ يوم التلاق ﴾ قال : يوم القيامة يلتقي فيه آدم وآخر ولده وأخرج عنه أيضا قال : ﴿ يوم التلاق ﴾ يوم الآزفة ونحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وأبو نعيم في الحلية عنه أيضا قال : ينادي مناد بين يدي الساعة : يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات وينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ وأخرج ابن أبي الدنيا في البعث والديلمي عن أبي سعد عن النبي صلى الله عليه و سلم مثله وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال [يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأول ما يتكلم أن ينادي مناد ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ فأول ما يبديه من الخصومات الدماء] وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ قال : الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها وإذا غفلوا لحظ إليها وإذا نظروا غض بصره عنها وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال : إذا نظر إليها يريد الخيانة أم لا ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ قال : إذا قدر عليها أيزني بها أم لا ؟ ألا أخبركم بالتي تليها ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة وأخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال : [لما كان يوم فتح مكة أمن النبي صلى الله عليه و سلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال : اقتلوهم وإن وجتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فاختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم الناس إلى البيعة جاء به فقال : يا رسول الله بايع عبد الله فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى بيعته ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم

(١) فتح القدير ٤/٦٩٢

رجل رشيد يقول إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك ؟ فقال : إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له **خائنة الأعين**] ". [(١)]

٢٣٨-"لطائف الإشارات ، ج ٣ ، ص : ٣٠٢

قيامه الكل مؤجلة ، وقيامة المحبين معجلة فلهم في كل نفس قيامة من العقاب والعذاب والثواب ، والبعاد والاقتراب ، وما لم يكن لهم في حساب «١» ، وتشهد عليهم الأعضاء فالدمع يشهد ، وخفقان القلب ينطق ، والنحول يخبر ، واللون يفصح ... والعبد يستر ولكن البلاء يظهر :

يا من تغير صورتى لما بدا لجميع ما ظنوا بنا تصديقا «٢»

و أنشدوا :

لى في محبته شهود أربع وشهود كل قضية اثنان

ذوبان جسمى وارتعاد مفاصلى وخفوق قلبى واعتقال لسانى

و قلوبهم - إذا أزف الرحيل بلغت الحناجر ، وعيونهم شرقت بدموعها إذا نودى بالرحيل وشدت الرواحل.

قوله جل ذكره :

[سورة غافر (٤٠) : آية ١٩]

يعلم **خائنة الأعين** و ما تخفي الصدور (١٩)

فخائنة أعين المحبين استحسانهم شيئا ، ولهذا قالوا :

يا قرة العين : سل عينى هل اكتحلت بمنظر حسن مذ غبت عن بصرى؟

و لذلك قالوا :

فعينى إذا استحسنت غيركم أمرت السهاد بتعذيبها

---

(١) أي وما لم يخطر لهم ببال.

)

٢) معنى الشاهد الشعرى فيما نظن : يا أيها الذي تتغير صورتى عند تجليه علي ، فينكشف أمرى رغم محاولتى ستر حالى ، وبذا تصدق ظنون العاذلين واللائمين. [.....]".[(٢)]

٢٣٩-"فصل

وأما قول القائل : إن النبي صلى الله عليه وسلم خص كل قوم بما يصلح لهم . . . إلخ، فهذا الكلام له وجهان :

---

(١) فتح القدير ٤/٦٩٢

(٢) لطائف الإشارات موافقا للمطبوع ٣/٣٠٢

إن أراد به أن الأعمال المشروعة يختلف الناس فيها بحسب اختلاف أحوالهم، فهذا لاريب فيه؛ فإنه ليس ما يؤمر به الفقير كما يؤمر به الغني، ولا ما يؤمر به المريض كما يؤمر به الصحيح، ولا ما يؤمر به عند المصائب هو ما يؤمر به عند النعم،ولا ما تؤمر به الحائض كما تؤمر به الطاهرة، ولا ما تؤمر به الأئمة كالذي تؤمر به الرعية، فأمر الله لعباده قد يتنوع بتنوع أحوالهم،كما قد يشتركون في أصل الإيمان بالله وتوحيده،والإيمان بكتبه ورسله .

وإن أراد به أن الشريعة في نفسها تختلف، وأن النبي صلى الله عليه وسلم خاطب زيدا بخطاب يناقض ما خاطب به عمرا، أو أظهر لهذا شيئا يناقض ما أظهره لهذا .كما يرويه الكذابون : أن عائشة سألته هل رأيت ربك ؟ فقال : (لا) . وسأله أبو بكر فقال : (نعم) . وأنه أجاب عن مسألة واحدة بجوابين متناقضين لاختلاف حال السائلين . فهذا من كلام الكذابين المفترين، بل هو من كلام الملاحدة المنافقين؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**) ، والحديث في سنن أبي داود وغيره . وكان عام الفتح قد أهدر دم جماعة منهم ابن أبي سرح، فجاء به عثمان ليبايع النبي صلى الله عليه وسلم فأعرض عنه مرتين أو ثلاثا ثم بايعه، ثم قال : (أما كان فيكم رجل رشيد ينظر إلى وقد أعرضت عن هذا فيقتله ؟) فقال بعضهم : هلا أومضت إلى يارسول الله ؟ فقال : (ما ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**) وهذا مبالغة في استواء ظاهره وباطنه وسره وعلانيته، وأنه لا يبطن خلاف ما يظهر على عادة المكارين المنافقين ". (١)

٢٤٠-"ولفظ الخيانة حيث استعمل لا يستعمل إلا فيما خفي عن المخون،كالذي يخون أمانته، فيخون من ائتمنه إذا كان لا يشاهده، ولو شاهده لما خانه، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ [الأنفال : ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ ولا تزال تطلع على خآئنة منهم إلا قليلا ﴾ [المائدة : ١٣] ، وقالت امرأة العزيز : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ [يوسف : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما قام : (أما فيكم رجل يقوم إلى هذا فيضرب عنقه ؟) فقال له رجل : هلا أومضت إلي ؟ فقال : (ما ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**) ، قال تعالى : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ﴾ [النساء : ١٠٧، ١٠٨] ، وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان) ، وفى حديث آخر : (على كل خلق يطبع المؤمن إلا الخيانة والكذب) ، ومثل هذا كثير .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) ٢/٢١٤

". (١)

٢٤١-"ودل قوله : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ [النساء : ١٠٧] ، أنه لا يجوز الجدال عن الخائن، ولا يجوز للإنسان أن يجادل عن نفسه إذا كانت خائنة؛لها فى السر أهواء وأفعال باطنة تخفى على الناس، فلا يجوز المجادلة عنها، قال تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ [غافر : ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ [الأنعام : ١٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وقد قال تعالى : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقىمعاذيره ﴾ [القيامة : ١٤، ١٥] ، فإنه يعتذر عن نفسه بأعذار ويجادل عنها،وهو يبصرها بخلاف ذلك،وقال تعالى : ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ [الإسراء : ١٤]

وقال تعالى : ﴿ ومن

الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ [البقرة : ٢٠٤] .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم) ، فهو يجادل عن نفسه بالباطل، وفيه لدد . أي : ميل واعوجاج عن الحق، وهذا على نوعين : أحدهما : أن تكون مجادلته وذبه عن نفسه مع الناس، والثانى : فيما بينه وبين ربه، بحيث يقيم أعذار نفسه ويظنها محقة وقصدها حسنا، وهي خائنة ظالمة، لها أهواء خفية قد كتمتها حتى لا يعرف بها الرجل حتى يرى وينظر، قال شداد بن أوس : إن أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية، قال أبو داود : هى حب الرياسة .

". (٢)

٢٤٢-"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور * والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير * أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب * ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب * فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ [١٩ - ٢٥] . :

﴿ يعلم خائنة الأعين ﴾ أي : نظراتها الخائنة ، وهي الممتدة إلى ما لا يحل : ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ أي : تكنه من الضمائر والأسرار : ﴿ والله يقضي بالحق ﴾ أي : بالعدل : ﴿ والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ﴾ أي : لأنهم لا يقدرون على شيء : ﴿ إن الله هو السميع البصير أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض ﴾ يعني حصونهم وقصورهم وعددهم : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) ١٨٣/٣

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) ١٨٧/٣

الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق ﴾ أي : بآيات نبوته : ﴿ من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ أي : قالوا أعيدوا عليهم القتل ، كالذي كان أولا ، واستبقوا نسائهم للخدمة : ﴿ وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي : وما مكرهم في دفع ما أراد الله من ظهور دينه ، إلا في ضياع ؛ إذ هو كالغثاء الذي يقذفه تيار الحق .". (١)

٢٤٣-"سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ [١ - ٧] .

﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ أي : دخلوا في الفوز الأعظم ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ أي : متذللون مع خوف وسكون للجوارح ، لاستيلاء الخشية والهيبة على قلوبهم ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ . أي : عن الفضول وما لا يعني من الأقوال والأفعال ، معرضون في عامة أوقاتهم ، لاستغراقهم بالجد .

﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ أي : للتجرد عن رذيلة البخل . قيل : السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ؟ وجوابه : إن الذي فرض بالمدينة إنما هو النصب والمقادير الخاصة . وإلا فأصل التفضل بالعفو مشروع في أوائل البعثة ، فلا حاجة إلى دعوى إرادة زكاة النفوس من الشرك والعصيان ، لعدم التبادر إليه .

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ لأنه الحق المأذون فيه ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ أي : الكاملون في العدوان المرتكبونه على أنفسهم .

تنبيهات :

الأول : دلت الآية على تعليق فلاح العبد على حفظ فرجه ، وأنه لا سبيل له إلى الفلاح بدونه ، وتضمنت هذه الآية ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين . وأنه من الملومين . ومن العادين . ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم . فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها ، أيسر من بعض ذلك . وقد أمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم . وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها ، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر ، جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج . فإن الحوادث مبدؤها من النظر . كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر . ثم تكون نظرة ، ثم تكون خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة . ولهذا قيل : من حفظ

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) /

هذه الأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات ، واللفظات . والخطوات . فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة . ويلازم الرباط على ثغورها . فمنها يدخل عليه العدو ، فيجوس خلال الديار ويتبروا ما علوا تتبيرا .

الثاني : روي عن الإمام أحمد أنه قال : لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنى .

واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال : يا رسول الله أي : الذنب أعظم ؟ قال : (١). والنبي صلى الله عليه وسلم ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل . فإنه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعه وما هو أعظم كل نوع ، فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله ندا . وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه . وأعظم أنواع الزنى أن يزني بحليلة جاره . فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق . فالزنى بالمرأة التي لها زوج ، أعظم إثما وعقوبة من الزنى بالتي لا زوج لها إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه ، لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه . فهو أعظم إثما وجرما من الزنى بغير ذات الزوج فإذا كان زوجها جارا له ، انضاف إلى ذلك سوء الجوار ، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى . وذلك من أعظم البوائق . وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (٢). ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته . فالزنى بمائة امرأة لازوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار . فإن كان أخا له ، أو قريبا من أقاربه ، انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم . فإن كان الجار غائبا في طاعة الله ، كالصلاة وطلب العلم والجهاد ، تضاعف الإثم ، فإن اتفق أن تكون المرأة رحما منه ، انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها .

فإن اتفق أن يكون الزاني محصنا ، كان الإثم أعظم . فإن كان شيخا كان أعظم إثما وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة ، تضاعف الإثم .

وعلى هذا ، فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة والله المستعان .

الثالث : أجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره ، ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز ، واحتج على ذلك بقوله تعالى : ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ وقاس ذلك على أمته المملوكة ، فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد . فإن تاب وإلا قتل وضربت عنقه . وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره . في الإثم والحكم . أفاد هذا وما قبله بتمامه الإمام ابن القيم في " الجواب الكافي " . وقوله تعالى :". (٣)

٢٤٤-"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ [٤٠] .

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ هذا دفع لتعيير من جهل ، فقال : تزوج محمد زوج ابنه زيد . فدفعه تعالى بأنه إنما يتصور لو كان صلى الله عليه وسلم أبا لزيد على الحقيقة ، لكنه ليس أبا لأحد من أصحابه ، حتى يثبت بينه وبينه ما

---

(١) أن تجعل لله ندا وهو خلقك قال قلت : ثم أي : ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال قلت : ثم أي : ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك

(٢) لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه

(٣) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) /

يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، وزيد واحد منهم ، الذين ليسوا بأولاده حقيقة ، فكان حكمه حكمهم ، والادعاء والتبني من باب الاختصاص والتقريب لاغير : ﴿ ولكن رسول الله ﴾ أي : ولكن كان رسول الله مبلغا رسالاته : ﴿ وخاتم النبيين ﴾ بفتح التاء وكسرها ، قراءتان ؛ أي : فهذا نعته وهذه صفته ، فليس هو في حكم الأب الحقيقي ، وإنما ختمت النبوة به ؛ لأنه شرع له من الشرائع ما ينطبق على مصالح الناس في كل زمان ، وكل مكان ؛ لأن القرآن الكريم لم يدع أما من أمهات المصالح إلا جلاها ، ولا مكرمة من أصول الفضائل إلا أحياها ، فتمت الرسالات برسالته إلى الناس أجمعين ، وظهر مصداق ذلك بخيبة كل من أدعى النبوة بعده ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين : ﴿ وكان الله بكل شيء عليما ﴾ أي : فلا يقضي إلا بما سبق به علمه ، ونفذت فيه مشيئته ، واقتضته حكمته .

تنبيهان في لطائف هذه القصة ، وفوائدها الباهرات :

الأول - لم تختلف الروايات أنه نزلت في قصة زيد بن حارثة ، وزوجه زينب بنت جحش . ورواه البخاري عن أنس في التفسير . ورواه عنه في التوحيد قال : جاء زيد بن حارثة يشكو ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (١). وأخرجه أحمد بلفظ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم منزل زيد بن حارثة . فجاءه زيد يشكوها إليه . فقال له : (٢). فنزلت .

وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي . فساقها سياقا حسنا واضحا ، ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش ، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجها إياه ، ثم أعلم الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بعد ، أنها من أزواجه ، فكان يستحي أن يأمره بطلاقها ، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس ، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمسك عليه زوجه ، وأن يتقي الله ، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه ؛ وكان قد تبنى زيدا .

وعنده ، ومن طريق علي [بن] زيد بن جدعان عن علي بن الحسين بن علي ، قال : أعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد يشكوها إليه ، وقال له : (٣). قال الله تعالى : " قد أخبرتك أني مزوجكها " : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

قال الحافظ ابن حجر في " الفتح " بعد نقل ما تقدم : ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ، ونقلها كثير من المفسرين ، لا ينبغي التشاغل بها ، والذي أوردته منها هو المعتمد . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا أثارا ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا ؛ لعدم صحتها ، فلا نوردها . انتهى .

الثاني - قال القاضي عياض رحمه الله في " الشفا " في بحث أقواله صلى الله عليه وسلم الدنيوية : ولا يجوز عليه صلى الله

---

(١) اتق الله وأمسك عليك زوجك

(٢) أمسك زوجك واتق الله

(٣) اتق الله وأمسك عليك زوجك

عليه وسلم أن يأمر أحدا بشيء أو ينهى أحدا عن شيء ، وهو يبطن خلافه ، وقد قال عليه السلام : [(١)]. فإن قلت : فما معنى قوله في قصة زيد : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ﴾ الآية . فاعلم أكرمك الله ولا تسترب في تنزيه النبي عليه السلام عن هذا الظاهر ، وأن يأمر زيدا بإمساكها ، وهو يحب تطليقه إياها ، ذكر عن جماعة من المفسرين ، وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن حسين أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه ، فلما شكاها إليه زيد ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : [(٢)]وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها .

وروى نحوه عمرو بن فائد [في المطبوع : عمر بن قائد] عن الزهري قال : نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش . فذلك الذي أخفى في نفسه ، ويصحح هذا قول المفسرين في قوله بعد هذا : ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ أي : لا بد لك أن تتزوجها ، ويوضح هذا أن الله تعالى لم يبد من أمره معها غير زواجه لها ، فدل أنه الذي أخفاه عليه السلام ، مما كان أعلمه به تعالى ، وقوله تعالى في القصة : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ﴾ دل على أنه لم يكن عليه حرج في الأمر ، ولو كان على ما قيل من وقوعها في قلبه ، ومحبة طلاق زيد لها ، لكان فيه أعظم الحرج . وكيف يقال : رآها فأعجبته وهي بنت عمته ، ولم يزل يراها منذ ولدت ، ولا كان النساء يحتجبن منه عليه السلام ، وهو زوجها لزيد ، وإنما جعل الله طلاق زيد لها ، وتزويج النبي صلى الله عليه وسلم إياها ، لإزالة حرمة التبني وإبطال سببه . كما قال : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ ، وقال : ﴿ لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم ﴾ قال ابن فورك : وليس معنى الخشية هنا الخوف ، وإنما معناه الاستحياء ؛ أي : يستحي منهم أن يقولوا تزوج زوجة ابنه ، وأن خشيته عليه السلام من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود ، وتشغيبهم على المسلمين بقولهم : تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء ، كما كان . فعتبه الله تعالى على هذا ، أو نزهه عن الالتفات إليهم فيما أحله له ، كما عتبه على مراعاة رضا أزواجه في سورة التحريم بقوله : ﴿ لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ [التحريم : ١] ، الآية . كذلك قوله ههنا . انتهى ملخصا .

الثالث – قال الإمام ابن حزم في " الفصل " يرد على من استدل بمثل هذه الآية على جواز وقوع الصغائر من الأنبياء ، ما مثاله : وأما قوله تعالى : ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴾ الآية . فقد أنفنا من ذلك ؛ إذ لم يكن فيه معصية أصلا ولا خلاف فيما أمره الله تعالى به ، وأن ما كان أراده زواج ، مباح له فعله ، ومباح له تركه ، ومباح له طيه ، ومباح له إظهاره ، وإنما خشي النبي صلى الله عليه وسلم الناس في ذلك خوف أن يقولوا ويظنوا ظنا ، فيهلكوا ؛ كما قال عليه السلام للأنصاريين : [(٣)]. فاستعظما ذلك ، فأخبرهما النبي صلى الله عليه وسلم [(٤)] . وهذا الذي خشيه عليه السلام على الناس من هلاك أدياهم ، بظن يظنونه به عليه السلام ، هو الذي يحققه هؤلاء المخذولون المخالفون لنا في هذا الباب .

---

(١) ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين ، فكيف أن تكون له خائنة قلب ؟

(٢) أمسك عليك زوجك واتق الله

(٣) إنها صفية

(٤) أنه إنما يخشى أن يلقي الشيطان في قلوهما شيئا

وكان مراد الله عز وجل أن يبدي ما في نفسه ، لما كان سلف في علمه من السعادة لأمنا زينب رضي الله عنها ، انتهى .
الرابع – للإمام مفتي مصر رحمه الله مقالة على هذه الآية . رأيت نقلها هنا تعزيزا لما سلف ، وإيقافا من أسرار الآية على نخب ما وصف . قال رحمه الله : نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش ، وهي بنت عمته – صلى الله عليه وسلم – أميمة بنت عبد المطلب ، وقد خطبها الرسول على مولاه زيد بن حارثة ، فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزلت آية : ﴿ وما كان لمؤمن ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، الخ ، فلما نزلت الآية قالا : رضينا يا رسول الله . فأنكحها إياه . وساق عنه إليها مهرها ستين درهما ، وخمارا ، وملحفة ، ودرعا ، وإزارا ، وخمسين مدا من طعام ، وثلاثين صاعا من تمر . كذا يروى .

فنحن من جهة ، نرى أن زينب كانت بنت عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت مع والدها لأول الأمر ، حتى أنه اختارها لمولاه زوجة ، مع إبائها وإباء أخيها ، وعد إباءها هذا عصيانا ، ولا زالت كذلك حتى نزل في شأنها قرآن ، فكأنه أرغمها على زواجه ، لما ألهمه الله من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك ، ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم ، لكان أقوى سلطانه عليه جمال البكر في روائه ، ونضرة جدته ، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ، ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة ، ولكنه لم يرغبها لنفسه ، ورغبها لمولاه، فكيف يمتد نظره إليها ، ويصيب قلبه سهم حبها ، بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحرية ؟ لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر ، أن تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب ، إلى أن تبلغ حد العشق ، خصوصا إذا كان عشيره منذ صغره . بل المألوف زهادة الأقرباء بعضهم في بعض ، متى تعود بعضهم النظر إلى بعض ، من بداية السن إلى أن يبلغ حدا منه يجول فيه نظر الشهوة . فكيف يظن أو يتوهم أن النبي الذي يقول الله له : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾ [طه : ١٣١] ، يخالف مألوف العادة ، ثم يخالف أمر الله في ذلك ؟ أم كيف بالبال أن من عصم الله قلبه عن كل دنيئة ، يغلب عليه سلطانه شهوة في بنت عمته ، بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده ؟ .
ومن جهة أخرى ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الرؤوف الرحيم ، لم يبال بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، وقد كان لا يخفى عليه أن نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة ، وتفسد به شؤون المعيشة . فما كان له – وهو سيد المصلحين – أن يرغم امرأة على الاقتران برجل وهي لا ترضاه ، مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين .
لا ريب أننا نجد من ذلك هاديا إلى وجه الحق في فهم الآية التي نحن بصدد تفسيرها . ذلك أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ، كان أمرا تدين به العرب ، وتعده أصلا يرجع إليه في الشرف والحسب ، وكانوا يعطون الدعي جميع حقوق الابن ، ويجرون له وعليه جميع الأحكام التي يعتبرونها للابن ، حتى في الميراث وحرمة النسب ، وهي عقيدة جاهلية رديئة ، أراد الله محوها بالإسلام ، حتى لا يعرف من النسب إلا الصريح ولا يجرى من أحكامه إلا ماله أساس صحيح ؛ لهذا أنزل الله : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴾ [الأحزاب : ٤] ، ثم قال : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ [الأحزاب : ٥] ، الخ فهذا العدل الإلهي ، أن لا ينال حق الابن إلا من يكون ابنا .
أما المتبنى واللصيق فلا يكون له حق إلا حق المولى والأخ في الدين ، فحرم الله على المسلمين أن ينسبوا الدعي لمن تبناه ،

وحظر عليهم أن يقتطعوا له شيئا من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا ، وشدد الأمر حتى قال : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ﴾ [الأحزاب : ٥] ، فهو يعفو عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر : هذا ابني . أو ينادى شخص آخر بمثل ذلك ، لا عن قصد التبني . ولكنه لا يعفو عن العمد من ذلك ، الذي يقصد منه الإلصاق بتلك اللحمة ، كما كان معروفا من قبل ، مضت سنة الله في خلقه ، أن ما رسخ في النفس بحكم العادة، لا يسهل عليها التفصي منه ، ولا يقدر على ذلك إلا من رفعه الله فوق العادات ، وأعتقه من رق الشهوات ، وجعل همته فوق المألوفات . فلا يطبيه – أي : يستميله – إلا الحق ، ولا يحكم عليه إلف ، ولا يغلبه عرف . ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن يختصه الله بالتأسي به ؛ لهذا كان الأمر إذا نهى الله عن مكروه كانت الجاهلية عليه ، أو أحل شيئا كانت الجاهلية تحرمه ، بادر النبي صلى الله عليه وسلم إلى امتثال النهي بالكف عن المنهي عنه ، والإتيان بضده ، وسارع إلى تنفيذ الأمر بإتيان المأمور به ، حتى يكون قدوة حسنة ، ومثالا صالحا تحاكيه النفوس ، وتحتذيه الهمم ، وحتى يخف وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة ، نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بحرمة الربا ، وأول ربا وضعه ربا عمه العباس ، حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس إليه وأكرمهم عليه ، فيسهل عليهم ترك مالهم ، وتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم .

على هذا السنن الإلهي كان عمل النبي صلى الله عليه وسلم في أمر زينب ، كبر على العرب أن يفصلوا عن أهلهم من ألصقوه بأنسابهم من أدعيائهم ؛ كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وتخشى الناس ﴾ الخ ، فعمد النبي صلى الله عليه وسلم ، على سنته ، إلى خرق العادة بنفسه ، وما كان ينبغي له ، ولا من مقتضى الحكمة ، أن يكلف أحد الأدعياء الأباعد عنه ، أن يتزوج ، ثم يأمره بالطلاق ، ثم يأمر من كان قد تبناه أن يتزوج مطلقته ، ففي ذلك من المشقة مع تحكم العادة ، وتمكن الاشمئزاز من النفوس ، ما لا يخفى على أحد . فألهمه الله أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عتقائه ؛ لتسقط العادة بالفعل ، كما ألغى حكمها بالقول الفصل ؛ لهذا أرغم النبي صلى الله عليه وسلم زينب أن تتزوج بزيد ، وهو مولاه وصفيه ، والنبي يجد في نفسه أن هذا الزواج مقدمة لتقرير شرع ، وتنفيذ حكم إلهي .

وبعد أن صارت زينب إلى زيد لم يلن إباؤها الأول ، ولم يسلس قيادها ، بل شمخت بأنفها وذهبت تؤذي زوجها وتفخر عليه بنسبها ، وبأنها أكرم منه عرقا وأصرح منه حرية ؛ لأنه لم يجر عليها رق كما جرى عليه فاشتكى منها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة ، وهو عليه السلام مع علو مقامه يغلبه الحياء فيتئد ويتمكث في تنفيذ حكم الله ولا يعجل ، فكان يقول لزيد : ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، إلى أن غلب أمر الله على أمر الأنفة ، وسمح لزيد بطلاقها بعد أن مضه العيش معها ، ثم تزوجها بعد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمزق حجاب تلك العادة ، ويكسر ذلك الباب الذي كان مغلقا دون مخالفتها كما قال : ﴿ لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وأكد ذلك بالتصريح في نفي الشبهة بقوله : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ الآية . هذه هي الرواية الصحيحة والقولة الراجحة .

ثم قال : وأما ما رووه من أن النبي مر ببيت زيد وهو غائب ، فرأى زينب ، فوقع منها في قلبه شيء ، فقال : سبحان مقلب القلوب ! فسمعت التسبيحة فنقلتها إلى زيد ، فوقع في قلبه أن يطلقها الخ ، ما حكوه – فقد قال الإمام أبو بكر

بن العربي إنه لا يصح . وإن الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم في فهم الآية ، لم يقدروا مقام النبوة حق قدره ، ولم تصب عقولهم من معنى العصمة كنهها . وأطال في ذلك ، وأذكر من كلامه ما يؤيد ذكرنا في شأن هذه الروايات .

قال ، بعد الكلام في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم وطهارته من العيب في زمن الجاهلية ، وبعد أن جاء الإسلام : وقد مهدنا لك روايات كلها ساقطة الأسانيد ، وإنما الصحيح منها ما روي عن عائشة أنها قالت : لو كان النبي صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ﴾ يعني بالإسلام : ﴿ وأنعمت عليه ﴾ فأعتقته : ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ إلى قوله : ﴿ وكان أمر الله ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وأن رسول الله لما تزوجها قالوا : تزوج حليلة ابنه ، فأنزل الله : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ ، الآية .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه وهو صغير ، فلبث حتى صار رجلا ، يقال له : زيد ابن محمد . فأنزل الله : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ [الأحزاب : ٥] ، يعني أنه أعدل عند الله . قال القاضي : وما وراء هذه الآية غير معتبر . فأما قولهم إن النبي صلى الله عليه وسلم رآها ، فوقعت في قلبه ، فباطل . فإنه كان معها في كل وقت وموضع ، ولم يكن حينئذ حجاب ، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ، ويلحظها في كل ساعة ولا تقع في قلبه ، إلا إذا كان لها زوج ؟ وقد وهبته نفسها وكرهت غيره ، فلم تخطر [في المطبوع : يخطر] بباله . فكيف يتجدد هوى لم يكن ! حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ﴾ [طه : ١٣١] ، والنساء أفتن الزهرات ، وأنشر الرياحين ، فيخالف هذا في المطلقات ، فكيف في المنكوحات المحبوسات ؟ .

ثم ساق الكلام في نفس الآية على حسب ما صح في الواقعة ، ولولا خوف التطويل لنقلت كلامه بحروفه . سبحان الله ! كيف ساغ لقوم مسلمين أن يعتقدوا بمثل هذه الروايات ، وقد علموا أن [في المطبوع : أنه] الله لم يدع لنبيه أن يعرض عن ابن أم مكتوم ، ويتصدى لصناديد قريش طمعا في إسلامهم ، حتى عاتبه على ذلك في قوله : ﴿ عبس وتولى ﴾ [عبس : ١] ، إلى آخر الآيات ، مع أنه [في المطبوع : أن] لم ينصرف عن الأعمى إلا لاشتغاله بما كان يعده في نفسه خيرا للدين ، ولم يكن رغبة في جاه ، ولا شرها إلى مال ، ولا طموحا إلى لذة .

فلو صحت الرواية التي زعموها في شأن زينب ، لكان العتاب على تلك التسبيحة ، بمسمع من زينب ، ثم على الزواج بعد الطلاق ، كما أشار إليه في قصة داود عليه السلام وما كان محمد صلى الله عليه وسلم في علو مقامه ورفعة منزلته من النبوة ، لتظمح نفسه إلى التلذذ ببنت عمته وزوجة مولاه ، ولا أن يسمعها ما يدل على شغفه بها ، ولا أن تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها ، وما كان رب محمد يعلل شهوته ، ويرفه من هواه فيما يخالف أمره ، وهو الذي نهاه أن يمد عينيه إلى ما متع به الناس من زهرة الحياة الدنيا ، ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن ذلك ، وتعالى شأن ربه عن هذا علوا كبيرا .

أما والله ! لولا ما أدخل الضعفاء أو المدلسون من مثل هذه الرواية ، ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شيء مما يرمون إليه ؛ فإن نص الآية ظاهر جلي لا يحتمل معناه التأويل ، ولا يذهب إلى النفس منه إلا أن العتاب كان على التمهل في الأمر ، والتريث به ، وأن الذي كان يخفيه في نفسه هو ذلك الأمر الإلهي الصادر إليه ، بأن يهدم تلك العادة المتأصلة في

نفوس العرب ، وأن يتناول المعول لهدمها بنفسه ؛ كما قدر له أن يهدم أصنامهم بيده لأول مرة عند فتح مكة ، وكما هو شأنه في جميع ما نهى عنه من عاداتهم ، وهذا الذي كان يخفيه في نفسه كان الله مبديه بأمره الذي أوحاه إليه في كتابه ، وبتزويجه زوجة من كانوا يدعونه ابنا له ، كما تقدم بيانه ، ولم يكن يمنعه عن إبداء ما أبدى الله ، إلا حياء الكريم ، وتؤدة الحكيم ، مع العلم بأنه سيفعل لا محالة ، لكن مع معاونة الزمان .

ثم قال الإمام رحمه الله : أذكر لطيفة لبعض الأذكياء جرت بمحضر مني لدى أحد الأساتذة الأميركانيين ، فجاء في الحديث ذكر قوله تعالى : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه ﴾ [السجدة : ٧] ، فقال الأميركي : حتى زينب زوجة زيد بن حارثة ، يشير بقوله هذا إلى تلك الحادثة ، ويعرض بعشقه صلى الله عليه وسلم لزينب على ما زعموا ، فقال له صاحبي : سبحان الله ! إنكم تشتغلون بعلوم السماوات والأرض ، ولا تستعملون عقولكم في أقرب الأشياء إليكم ، مع أنكم ، في المشهور عنكم ، من أشد الناس ولعا بالبحث في الأديان ، إن الله أمر نبيه أن يتزوج زوجة من دعاه ابنا له ، ليبين للناس بالفعل أنه ليس كل من لقب بالابن يكون على الحقيقة ابنا ، فإن كان المسيح قد دعي في لسان الإنجيل بـ " الابن " فليس هذا على الحقيقة ، وإنما الابن الحقيقي من ولد من أبيه ولادة صحيحة ، إن في ذلك لذكرى للعالمين . والله أعلم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .

الخامس – روى الإمام أحمد ومسلم والنسائي عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة : [١]. فانطلق حتى أتاها وهي تخمر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها . فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت : يا زينب ! أبشري . أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربي عز وجل . فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، أطعمنا عليها الخبز واللحم .

قال الحافظ ابن حجر : وهذا أيضا من أبلغ ما وقع في ذلك : وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب ، لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهرا بغير رضاه ، وفيه أيضا اختبار ما كان عنده منها ؛ هل بقي منه شيء أم لا ؟ وفيه استحباب فعل المرأة الاستخارة ودعائها عند الخطبة قبل الإجابة ، وأن من وكل أمره إلى الله عز وجل ، يسر الله له ما هو الأحظ له والأنفع دنيا وأخرى . انتهى . أي : فقد حفظ الله شرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى . فاختار لها ما شرفها به وأسمى مكانتها ، عناية منه ورحمة للأمة أيضا .

السادس – روى ابن جرير عن الشعبي قال : كانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي صلى الله عليه وسلم إني لأدل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدي وجدك واحد ، وإني أنكحنيك الله عز وجل من السماء ، وإن السفير لجبريل عليه السلام .

وروى البخاري بعضه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن زينب كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) اذهب فاذكرها علي

فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات . قال ابن القيم في " زاد المعاد " : ومن خصائص زينب أن الله سبحانه كان هو وليها الذي زوجها لرسوله من فوق سماواته ، وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب .
وكانت [في المطبوع : كان] أولا عند زيد بن حارثة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تبناه ، فلما طلقها زوجه الله إياها لتتأسى به أمته في نكاح أزواج من تبنوه . انتهى .
السابع – قالوا : لا ينقض عموم قوله تعالى : ﴿ من رجالكم ﴾ بكونه صلى الله عليه وسلم أبا للطاهر والقاسم وإبراهيم ؛ لأنهم لم يبلغوا الحلم ، ولو بلغوا لكانوا رجالا له ، صلى الله عليه وسلم ، لا لهم . انتهى .
وهذا من التعمق في البحث ، وإلا فدلالة السياق أوضح من تخصيص الإضافة .
قال ابن كثير : لم يعيش له عليه الصلاة والسلام ولد ذكر ، حتى بلغ الحلم ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة رضي الله عنها ، فماتوا صغارا ، وولد له صلى الله عليه وسلم إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضا رضيعا ، وكان له صلى الله عليه وسلم من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، رضي الله عنهن أجمعين ، فمات في حياته صلى الله عليه وسلم ثلاث ، وتوفيت فاطمة بعده بستة أشهر . انتهى .
ثم أمر تعالى بكثرة ذكره ، والعناية بشكره لما من به من هدايته ، إلى نور شريعته حتى ينسى عار الكفر وجاهليته ، بقوله سبحانه :". (١)

٢٤٥-"[١٧] ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴾ ، يجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، ﴿ لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ .
[١٨] ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ ، يعني يوم القيامة سميت بذلك لأنها قريبة إذ كل ما هو آت قريب ، نظيره قوله عز وجل: ﴿ أزفت الآزفة ﴾ ، أي قربت القيامة . ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ ، وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر ، فهي لا تعود إلى أماكنها وهي لا تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا ، ﴿ كاظمين ﴾ ، مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا ، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به . ﴿ ما للظالمين من حميم ﴾ ، قريب ينفعهم ، ﴿ ولا شفيع يطاع ﴾ فيشفع فيهم .
[١٩] ﴿ يعلم **خائنة الأعين** ﴾ أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل . قال مجاهد : نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه . ﴿ وما تخفي الصدور ﴾ .". (٢)

٢٤٦-"ج ٢ ، ص : ٣٤٥
بدليل قراءة لينذر يوم التلاق على البناء للمفعول ، ورفع «يوم» وسمي يوم القيامة بيوم التلاق ، لأن الأرواح متلاقية للأجساد ، ولأن الخلائق يتلاقون فيه ، فيقف بعضهم على حال بعض ، ولأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض ، ولأن

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي) /
(٢) مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل ٦/٤٩٠

كل أحد يصل إلى جزاء عمله ويلتقي فيه العابدون والمعبودون ويلتقي فيه الظالم والمظلوم ، يوم هم بارزون أي خارجون عن بواطن القبور ، وظاهرون لا يسترهم شيء من جبل وغيره ، وليس عليهم ثياب ، وتظهر أعمالهم وتنكشف أسرارهم ، لا يخفى على الله منهم شيء فيعلم ما فعله كل واحد منهم فيجازي كلا منهم بحسبه إن خيرا فخيرا ، وإن شرا فشر ، وينادي مناد : لمن الملك اليوم فيجيبه أهل المحشر : لله الواحد القهار (١٦) ، أي الذي قهر الخلق بالموت ، فالمؤمنون يقولونه تلذذا بهذا الكلام حيث نالوا المنزلة الرفيعة ، والكفار يقولونه على وجه التحسر والندامة على ما فاتهم في الدنيا ، اليوم تجزى كل نفس برة أو فاجرة ، بما كسبت من خير أو شر لا ظلم اليوم بنقص ثواب ، أو زيادة عذاب ، أي يقال لهم : إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده اليوم تجزى إلخ.

إن الله سريع الحساب (١٧) ، إذ لا يشغله شأن عن شأن ، فيحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر ، ف «إذ» بدل من يوم الآزفة ، أي وأنذرهم يوم القرب من العذاب ، ومشارفتهم دخول النار ، فعند ذلك ترتفع قلوبهم من أماكنها ، فتلتصق بحلوقهم من شدة الخوف ، كاظمين أي مغمومين يتردد الغيظ في أجوافهم ، فلا يمكنهم أن ينطقوا ويبينوا خوفهم ، ما للظالمين من حميم أي قريب مشفق ، ولا شفيع يطاع (١٨) أي ولا شفيع مقبول شفاعته ، يعلم **خائنة الأعين** أي استراق النظر إلى ما لا يحل ، وما تخفي الصدور (١٩) أي مضمرات القلوب ، والله يقضي بالحق إذا علم المذنب أن الله لا يحكم إلا بالحق في كل ما دق وجل ، كان خوف المذنب من الله في الغاية القصوى. والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء أي والذين يعبدونهم من دون الله تعالى من الأوثان ، لا يصنعون شيئا من الشفاعة يوم القيامة ، ولا يأمرون بخير في الدنيا ، فإن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام ، فلذلك بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها ألبتة بهذه الآية.

وقرأ نافع وهشام «تدعون» بتاء الخطاب إن الله هو السميع البصير (٢٠) أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام ، ويبصر سجودهم لهم ولا يسمع منهم ثناءهم على الله ، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله.

أولم يسيروا في الأرض أي أغفلوا ولم يسافروا في الأرض فيعتبروا بمن قبلهم فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم كانوا هم أي الذين مضوا من الكفار أشد منهم أي من هؤلاء الحاضرين من الكفار قوة ، أي قدرة على التصرفات.". [1]

٢٤٧-" تخرج ولم ترجع

وقال غيره تزحزحت قلوبهم من الفزع فلم تخرج فيستريحوا ولم ترجع

ثم قال تعالى كاظمين أي مغتاظين ولا شيء يزيل غيظهم يقال كظم البعير بجرته إذا رددها في حلقه و كظم غيظه إذا حبسه

١٩ - ثم قال جل وعز ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع آية ١٨

---

(١) مراح لبيد لكشف معنى القرآن مجيد ٢/٣٤٥

أي ليس لهم شفيع مطاع

قال الحسن استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن الرجل منهم يشفع في قريبه وصديقه فإذا راى الكفار ذلك قالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم

٢٠ - ثم قال جل وعز يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور آية ١٩ ". (١)

٢٤٨-"ج ٣ ، ص : ٧

تقبل شفاعته ، ثم قال : «يعلم **خائنة الأعين**» يعنى : الله عز وجل ، يقال : إن للرجل نظرتين : فالأولى مباحة له ، والثانية محرمة عليه ، فقوله : «يعلم خائنة» الأعين في النظرة الثانية ، وما تخفى الصدور فى النظرة الأولى. فإن كانت النظرة الأولى تعمدا كان فيها الإثم أيضا ، وإن لم يكن تعمدها فهى مغفورة.

وقوله : أو أن يظهر «١» في الأرض الفساد (٢٦).

رفع (الفساد) الأعمش «٢» ، وعاصم جعلا «٣» له الفعل. وأهل المدينة والسلمى قرءوا : [وأن] «٤» يظهر «٥» فى الأرض الفساد ، نصبوا الفساد ، وجعلوا يظهر لموسى. وأهل المدينة «٦» يلقون «٧» الألف الأولى يقولون : وأن يظهر ، وكذلك [هى] «٨» فى مصاحفهم. وفى مصاحف أهل العراق : «أو أن يظهر» [المعنى «٩»] أنه قال : إنى أخاف التبديل على [١٦٣/ ب] دينكم ، أو أن يتسامع الناس [به] «١٠» ، فيصدقوه فيكون فيه فساد على دينكم.

وقوله : [و] «١١» يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد (٣٢) قرأها العوام على التناد بالتخفيف ، وأثبت الحسن «١٢» وحده [فيه] «١٣» الياء ، وهى من تنادى القوم. [حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال] «١»

حدثنا الفراء قال : وحدثنى حبان عن الأجلح

---

(١) فى ا ، ب : يظهر. [.....]

(٢) وهى كذلك قراءة الأعرج ، وابن وثاب وعيسى (البحر المحيط ٧/ ٤٦٠).

(٣) فى ب : وجعلا.

(٤) سقط فى ب ، ش.

(٥) فى ب : يطهر.

(٦) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بواو النسق ، ويظهر بضم الياء وكسر الهاء من أظهر معدى ظهر بالهمزة ، وفاعله ضمير موسى عليه الصلاة والسلام. و(الفساد) بالنصب على المفعول به ، ووافقهم اليزيدي (الإتحاف : ٣٧٨)

(٧) فى ب : لا يثبتون.

(٨) زيادة فى ب.

---

(١) معاني القرآن ٦/٢١٢

(٩) فى ب : والمعنى.

(١٠) سقط فى ب.

(١١) سقط فى كل من ب ، ش ، وفى ش يا قيوم خطأ.

(١٢) أثبت الياء وصلا فقط ورش وابن وردان ، وفي الحالين ابن كثير ويعقوب (الإتحاف ٣٧٨).

(١٣) فى ب ، ش فيها.

(١٤) زيادة من ح.". [1]

٢٤٩-"ج ٣ ، ص : ٣٠٥

سورة المؤمن ص س قوله عز وجل : «غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب»/ ٥/ ٣ قوله تعالى : «و همت كل أمة برسولهم ليأخذوه»/ ٥/ ٩ والقراءات فى «برسولهم» قوله تعالى : «و أدخلهم جنات عدن»/ ٥/ ١١ والقراءات فى «جنات» قوله تعالى : «و من صلح من آبائهم»/ ٥/ ١٣ وإعراب «من» فى قوله : «و من صلح» قوله تعالى : «ينادون لمقت الله»/ ٦/ ١ وبيان أن اللام فى «لمقت» بمنزلة أن فى كل كلام ضارع القول قوله تعالى : «يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده»/ ٦/ ٦ - تفسير «الروح» فى هذه الآية - لما ذا سمى اليوم «يوم التلاق» قوله تعالى : «يوم هم بارزون»/ ٦/ ٩ وإعراب «هم» معنى «الآزفة»/ ٦/ ١١ قوله تعالى : «كاظمين»/ ٦/ ١٣ والكلام فى إعرابها قوله تعالى : «ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع»/ ٦/ ١٩ - معنى «يطاع» - معنى «خائنة الأعين» فى قوله تعالى : «يعلم خائنة الأعين»/ ٧/ ١". [2]

٢٥٠-"وفي قوله تعالي: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) " ١٩/غافر " أي خيانة الأعين.

٣ - والاختيان من الخيانة فيه زيادة شدة.

يقال ك اختانه أي خانه خيانة بينة.

تختانون: (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم) " ١٨٧/البقرة "

خ وي

٥ كلمات

(خاوية)

خوت الدار تخوي خواء: خلت من أهلها أو سقطت وتهدمت فهي خاوية.

خاوية: (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها) " ٢٥٩/البقرة " أي ساقطة علي سقوفها.

---

(١) معاني القرآن للفراء موافقا للمطبوع ٧/٣

(٢) معاني القرآن للفراء موافقا للمطبوع ٣٠٥/٣

وفي قوله تعالي: (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) "٧/الحاقة" أي خوت من منيتها فسقطت علي الأرض، وقيل: خاوية أي فارغة.". (١)

٢٥١-"صدرا: (ولكن من شرح بالكفر صدرا) "١٠٦/النحل ".

ووردت مضافة إلي "ذات" أي حقيقة الصدور من المضمرات والخفايا في:

الصدور: (عليم بذات الصدور) " ١١٩/آل عمران "

ووردت مجرورة بفي: (وشفاء لما في الصدور) " ٥٧/يونس ".

ووردت مسندا إليها الإخفاء في:

(يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) "١٩/غافر ".

٢ – ومن معني الرجوع، ورد:

يصدر: (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) " ٢٣/القصص".قري بفتح الياء، وضمها أي يرجع الرعاء من سقيهم أو يرجعون إبلهم وهنا الرعاء):جمع راع.

يصدر: (يومئذ يصدر الناس أشتاتا) " ٦/الزلزلة "أي يعودون بالبعث.

ص د ع

٥ كلمات

الصدع: الشق في الشئ الصلب، كالزجاجة والحائط ويقال". (٢)

٢٥٢-"وهذه المعاني هي التي استعملها القرآن في:

عين: (تغرب في عين حمئة) " ٨٦/الكهف " للجارية بالماء أو غيره، وكذلك ما في قوله تعالي: (عين القطر) " ١٢/سبا" (عين آنية)،"٥/الغاشية". (عين جارية) " ١٢/الغاشية ". (قرت عين لي ولك) "٩/القصص" هي للباصرة بمعني السرور، وفي قوله تعالي: (عين اليقين) " ٧/التكاثر" للتأكيد، أي التي هي نفس اليقين.

العين: (رأي العين) " ١٣/آل عمران " هي للباصرة، وكذلك ما في ٤٥ " مكررة /المائدة.

عينا: (وقري عينا) " ٢٦/مريم"للباصرة، بمعني السرور.

عينها: (كي تقر عينها) " ٤٠/طه " للباصرة، و١٣ / القصص.

عيني: (ولتصنع على عيني) "٣٩/طه " للباصرة.

عيناك: (ولا تعد عيناك عنهم) " ٢٨/الكهف " للباصرة

(١) معجم وتفسير لغوى لكلمات القرآن ٧٤/٢

(٢) معجم وتفسير لغوى لكلمات القرآن ٤٢٩/٢

عيون: (جنات وعيون) " الجارية).

العيون: (فيها من العيون) " ٣٤/يس" للجارية.

عيونا: (وفجرنا الأرض عيونا) " ١٢/القمر " للجارية.

أعين: (سحروا أعين الناس) " ١١٦/الأعراف) للباصرة

الأعين: (يعلم **خائنة الأعين**) " ١٩/غافر" للباصرة.". (١)

٢٥٣-"- الخيانة والنفاق واحد، إلا أن الخيانة تقال اعتبارا بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتبارا بالدين، ثم يتداخلان، فالخيانة: مخالفة الحق بنقض العهد في السر. ونقيض الخيانة: الأمانة، يقال: خنت فلانا، وخنت أمانة فلان، وعلى ذلك قوله: ﴿لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم﴾ [الأنفال/٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما﴾ [التحريم/١٠]، وقوله: ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ [المائدة/١٣]، أي: على جماعة خائنة منهم. وقيل: على رجل خائن، يقال: رجل خائن، وخائنة، نحو: رواية، وداهية. وقيل: (خائنة) موضوعة موضع المصدر، نحو: قم قائما (قال السمين: قوله: ﴿على خائنة﴾ في خائنة أوجه:

أحدها: أنها اسم فاعل، والهاء للمبالغة، كراوية ونسابة، أي: على شخص خائن.

الثاني: أن التاء للتأنيث، وأنث على معنى: طائفة، أو نفس، أو فعلة خائنة.

الثالث: أنها مصدر كالعاقبة والعافية، ويؤيد هذا الوجه قراءة الأعمش: (على خيانة). انظر: الدر المصون ٣/٢٢٤؛ وعمدة الحفاظ: خون)، وقوله: ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ [غافر/١٩]، على ما تقدم (راجع: مادة (بقي))، وقال تعالى: ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ [الأنفال/٧١]، وقوله: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم﴾ [البقرة/١٨٧]، والاختيان: مراودة الخيانة، ولم يقل: تخونون أنفسكم؛ لأنه لم تكن منهم الخيانة، بل كان منهم الاختيان، فإن الاختيان تحرك شهوة الإنسان لتحري الخيانة، وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ [يوسف/٥٣].

خوى

- أصل الخواء: الخلا، يقال خوي بطنه من الطعام يخوى خوى (انظر: الأفعال ١/٥٠٥)، وخوى الجوز خوى تشبيها به، وخوت الدار تخوي خواء، وخوى النجم وأخوى: إذا لم يكن منه عند سقوطه مطر، تشبيها بذلك، وأخوى أبلغ من خوى، كما أن أسقى أبلغ من سقى. والتخوية: ترك ما بين الشيئين خاليا.

---

(١) معجم وتفسير لغوى لكلمات القرآن ١٨٢/٣

". (١)

٢٥٤-"المفردات في غريب القرآن ، ص : ٣٠٥

والتخويل في الأصل : إعطاء الخول ، وقيل :

إعطاء ما يصير له خولا ، وقيل : إعطاء ما يحتاج أن يتعهده ، من قولهم : فلان خال مال ، وخايل مال ، أي : حسن القيام به. والخال : ثوب يعلق فيخيل للوحوش ، والخال في الجسد : شامة فيه.

خون

الخيانة والنفاق واحد ، إلا أن الخيانة تقال اعتبارا بالعهد والأمانة ، والنفاق يقال اعتبارا بالدين ، ثم يتداخلان ، فالخيانة : مخالفة الحق بنقض العهد في السر. ونقيض الخيانة :

الأمانة ، يقال : خنت فلانا ، وخنت أمانة فلان ، وعلى ذلك قوله : لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم

[الأنفال / ٢٧] ، وقوله تعالى : ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما

[التحريم / ١٠] ، وقوله : ولا تزال تطلع على خائنة منهم [المائدة / ١٣] ، أي : على جماعة خائنة منهم. وقيل : على رجل خائن ، يقال : رجل خائن ، وخائنة ، نحو : راوية ، وداهية. وقيل : (خائنة) موضوعة موضع المصدر ، نحو : قم قائما «١» ، وقوله : يعلم خائنة الأعين [غافر / ١٩] ، على ما تقدم «٢» ، وقال تعالى : وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم [الأنفال / ٧١] ، وقوله :

علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم

[البقرة / ١٨٧] ، والاختيان : مراودة الخيانة ، ولم يقل : تخونون أنفسكم ، لأنه لم تكن منهم الخيانة ، بل كان منهم الاختيان ، فإن الاختيان تحرك شهوة الإنسان لتحري الخيانة ، وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى : إن النفس لأمارة بالسوء [يوسف / ٥٣].

خوى

أصل الخواء : الخلا ، يقال خوى بطنه من الطعام يخوي خوى «٣» ، وخوى الجوز خوى تشبيها به ، وخوت الدار تخوي خواء ، وخوى النجم وأخوى : إذا لم يكن منه عند سقوطه مطر ، تشبيها بذلك ، وأخوى أبلغ من خوى ، كما أن أسقى أبلغ من سقى. والتخوية : ترك ما بين الشيئين خاليا.

تم كتاب الخاء

---

(١) قال السمين : قوله : على خائنة في خائنة ثلاثة أوجه :

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن . نسخة محققة ٣٣٤/١

أحدها : أنها اسم فاعل ، والهاء للمبالغة ، كراوية ونسابة ، أي : على شخص خائن.

الثاني : أن التاء للتأنيث ، وأنث على معنى : طائفة ، أو نفس ، أو فعلة خائنة.

الثالث : أنها مصدر كالعاقبة والعافية ، ويؤيد هذا الوجه قراءة الأعمش : (على خيانة). انظر : الدر المصون ٣ / ٢٢٤ ، وعمدة الحفاظ : خون. [.....]

(٢) راجع : مادة (بقي).

(٣) انظر : الأفعال ١ / ٥٠٥.". [1]

٢٥٥-"

يوم الآزفة : يوم القيامة وسميت بذلك لقربها يقال أزف السفر : أي قرب ، قال :

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

و الحناجر : واحدها حنجرة أو حنجور كحلقوم لفظا ومعنى ، وهى لحمة بين الرأس والعنق ، كاظمين : أي ممسكين أنفسهم على قلوبهم لئلا تخرج ، والحميم : القريب ، **خائنة الأعين** : يراد بها النظر إلى ما لا يحل ، ما تخفى الصدور : أي ما تكتمه الضمائر.". [2]

٢٥٦-" صفحة رقم ٥٣٨

نظرهم لأنفسهم بانيا للمفعول لأن المنكئ هذا القول مطلقا لا لكونه من قائل معين : (ثم قيل لهم) أي بعد أن طال عذابهم ، وبلغ منهم كل مبلغ ، ولم يجدوا ناصرا يخلصهم ولا شافعا يخصصهم : (أين (والتعبير عنهم بأداة ما لا يعقل في أحكم مواضعه في قوله : (ما كنتم) أي دائما) تشركون) أي بدعائكم لهم في مهماتكم دعاء عبادة مع تجديده في كل وقت ؛ ثم بين سفولهم بقوله لافتا القول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه فقال : (من دون الله) أي المحيط بجميع العز وكل العظمة ، لتطلبوا منهم تخليصكم مما أنتم فيه أو تخفيفه : (قالوا) أي مسترسلين مع الفطرة وهي الفطرة الأولى على الصدق : (ضلوا عنا (فلا نراهم كما ضللنا نحن في الدنيا عما ينفعنا .

ولما رأوا أن صدقهم قد أوجب اعترافهم بالشرك ، دعتهم رداءة المكر ورذالة الطباع إلى الكذب ، فاسترسلوا معها فبادروا أن أظهروا الغلط فقالوا ملبسين على من يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ظانين أن ذلك ينفعهم كما كان ينفعهم عند المؤمنين في دار الدنيا : (بل لم نكن ندعو) أي لم يكن ذلك في طباعنا .

ولما كان مرادهم نفي دعائهم أصلا ورأسا في لحظة فما فوقها ، لا النفي المقيد بالاستغراق ، فإنه لا ينفي ما دونه ، أثبتوا الجار فقالوا : (من قبل) أي قبرل هذه الإعادة) شيئا (لنكون قد أشركنا به ، فلا يقدرهم بعضا بحيث لا يزالون في ندم كما كان حالهم في الدنيا

---

(١) مفردات القرآن . للراغب . نسخة محققة ص/٣٠٥

(٢) مفردات القرآن للشيخ المراغى ص/٨٢١

٧٧ ( ) انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ( ) ٧

[الأنعام : ٢٤] فالآية من الاحتباك : ذكر الإشراك أولا دليلا على نفيهم له ثانيا ، والدعاء ثانيا دليلا على تقديره أولا .

ولما كان في غاية الإعجاب من ضلالهم ، كان كأنه قيل : هل يضل أحد من الخلق ضلال هؤلاء ، فأجيب بقوله : (كذلك) أي نعم مثل هذا الضلال البعيد عن الصواب) يضل الله) أي المحيط علما وقدرة ، على القصد النافع عن حجة وغيرها) الكافرين) أي الذين ستروا مرائي بصائرهم لئلا يتجلى فيها ثم صار لهم ذلك ديدنا .

ولما تم جواب السؤال عن التعجب من هذا الضلال ، رجع إلى خطاب الضلال فقال معظما لما ذكر من جزائهم بأداة البعد وميم الجمع نصا على تقريع كل منهم : (ذلكم) أي الجزاء العظيم المراتب ، الضخم المواكب) بما كنتم) أي دائما) تفرحون) أي تبالغون في السرور وتستغرقون فيه وتضعفون عن حمله للإعراض عن العواقب .

ولما كانت الأرض سجنا ، فهي في الحقيقة دار الأحزان ، حسن قوله : (في الأرض) أي ففعلتم فيها ضد ما وضعت له ، وزاد ذلك حسنا قوله :". [(١)]

٢٥٧-"نظرهم لأنفسهم بانيا للمفعول لأن المنكء هذا القول مطلقا لا لكونه من قائل معين : ﴿ثم قيل لهم﴾ أي بعد أن طال عذابهم ، وبلغ منهم كل مبلغ ، ولم يجدوا ناصرا يخلصهم ولا شافعا يخصصهم : ﴿أين﴾ والتعبير عنهم بأداة ما لا يعقل في أحكم مواضعه في قوله : ﴿ما كنتم﴾ أي دائما ﴿تشركون*﴾ أي بدعائكم لهم في مهماتكم دعاء عبادة مع تجديده في كل وقت ؛ ثم بين سفولهم بقوله لافتا القول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه فقال : ﴿من دون الله﴾ أي المحيط بجميع العز وكل العظمة ، لتطلبوا منهم تخليصكم مما أنتم فيه أو تخفيفه : ﴿قالوا﴾ أي مسترسلين مع الفطرة وهي الفطرة الأولى على الصدق : ﴿ضلوا عنا﴾ فلا نراهم كما ضللنا نحن في الدنيا عما ينفعنا.

ولما رأوا أن صدقهم قد أوجب اعترافهم بالشرك ، دعتهم رداءة المكر ورذالة الطباع إلى الكذب ، فاسترسلوا معها فبادروا أن أظهروا الغلظ فقالوا ملبسين على من يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ظانين أن ذلك ينفعهم كما كان ينفعهم عند المؤمنين في دار الدنيا : ﴿بل لم نكن ندعو﴾ أي لم يكن ذلك في طباعنا.

ولما كان مرادهم نفي دعائهم أصلا ورأسا في لحظة فما فوقها ، لا النفي المقيد بالاستغراق ، فإنه لا ينفي ما دونه ، أثبتوا الجار فقالوا : ﴿من قبل﴾ أي قبرل هذه الإعادة ﴿شيئا﴾ لنكون قد أشركنا به ، فلا يقدرهم بعضا بحيث لا يزالون في ندم كما كان حالهم في الدنيا ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ [الأنعام : ٢٤] فالآية من الاحتباك : ذكر الإشراك أولا دليلا على نفيهم له ثانيا ، والدعاء ثانيا دليلا على تقديره أولا.

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب) ٦/٥٣٨

ولما كان في غاية الإعجاب من ضلالهم ، كان كأنه قيل : هل يضل أحد من الخلق ضلال هؤلاء ، فأجيب بقوله : ﴿كذلك﴾ أي نعم مثل هذا الضلال البعيد عن الصواب ﴿يضل الله﴾ أي المحيط علما وقدرة ، على القصد النافع عن حجة وغيرها ﴿الكافرين*﴾ أي الذين ستروا مرائي بصائرهم لئلا يتجلى فيها ثم صار لهم ذلك ديدنا.

". (١)

٢٥٨-"ما حرم على النبي صلى الله عليه وسلم ومنع منه

حرمت عليه أشياء دون غيره عليه الصلاة والسلام: من ذلك تحريم الزكاة عليه وعلى آله، فيحرم على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ شيئا من زكوات الناس، وذلك إلى قيام الساعة، فليس للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لأحد من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب أن يأخذوا من الصدقات شيئا ولا من الزكوات، فيحرم عليه صلى الله عليه وسلم الزكاة وكذلك على آل بيته.

كذلك يحرم عليه صدقة التطوع، فكان يؤتى بالشيء من تمر ونحوه فيسأل: ما هذا؟ فإذا قالوا: هذا صدقة قال لأصحابه: كلوا، وإذا قالوا: هدية أكل وأمرهم أن يأكلوا عليه الصلاة والسلام، فكان يأكل الهدية ولا يقبل الصدقة لنفسه عليه الصلاة والسلام.

أيضا من ذلك: **خائنة الأعين**، يعني: أن يغمز لأحد على شيء، فيجوز لغيره إذا كان في حاجة غمز فيها، أما هو فليس له ذلك صلى الله عليه وسلم.

وهنا قصة رواها الإمام أبو داود ورواها النسائي من حديث مصعب بن سعد عن أبيه يوضح هذا الأمر أنه ما كان لنبي أن يكون له خائنة أعين عليه الصلاة والسلام.

يقول سعد بن أبي وقاص: (لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين).

وهذا في فتح مكة صلى الله عليه وسلم حين قال للناس: (اذهبوا فأنتم الطلقاء) إلا أربعة لم يؤمنهم النبي صلى الله عليه وسلم، لأنهم كانوا من الخونة ومن أشد الناس إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، فبعضهم قتل، وبعضهم أفلت ثم أسلم بعد ذلك.

فهؤلاء قال النبي صلى الله عليه وسلم: (اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة) وهم: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، هؤلاء الأربعة من الرجال، وامرأتان كانتا تغنيان بشتم النبي صلى الله عليه وسلم وسبه وهجائه، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل هؤلاء.

فأما عبد الله بن خطل فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن كريز وعمار بن ياسر فسبق سعيد عمارا فقتله.

---

(١) نظم الدرر . موافق للمطبوع ٨٠١/٦

وأما مقيس بن صبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه.

وأما عكرمة فركب البحر فأصابته ريح عاصف وهم في البحر، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا، يعني: انظر العرب في الجاهلية يعرفون أن الذي يعبدونه باطل لا ينفع ولا يضر، فلما ركبوا السفينة -وكلهم كفار- جاءت ريح عاصف عليهم فقال أصحاب السفينة: ارجعوا إلى الإخلاص واتركوا العبادة التي أنتم فيها، فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا ففكر عكرمة وقال: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص فلا ينجي في البر غيره، فقال: اللهم إن لك علي عهدا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدا صلى الله عليه وسلم حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفوا كريما، فجاءه فأسلم بعد ذلك رضي الله عنه.

أما عبد الله بن سعد بن أبي السرح فاختبأ عند عثمان وكان أخا لـ عثمان من أمه، فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة جاء به عثمان، ووقف به على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى، يعني: لم يرض أن يبايعه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم في المرة الرابعة بايعه صلى الله عليه وسلم، ثم أقبل على أصحابه بعد أن مشى الرجل فقال: النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟)، يعني: لا بيعة بيننا وبينه، وهذا إنسان كان على الكفر وعمل عملا قبل ذلك، فتفهمون أنني لا أريد أصلا هذا الإنسان فيقوم له أحد ليقتله، فقالوا: (وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هلا أومأت إلينا بعينك؟) أي: تغمز لأحد منا يقوم له فيقتله، قال: (إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**)، مع أنه يريد قتل هذا الإنسان.

وعبد الله بن سعد بن أبي السرح هذا كان كاتبا يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم القرآن، ثم ارتد ورجع إلى الكفار وقال: أنا كنت أملي على النبي صلى الله عليه وسلم وكنت أكتب من عند نفسي، فافترى وفتن الناس في ذلك، يعني يقول: أنا كنت أؤلف القرآن، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوافقني، فكانت تنزل الآية فيها شيء، ثم ختام الآية: وكان الله غفورا رحيما، كان الله عليما حكيما، فالرجل يقول للنبي صلى الله عليه وسلم: أكتب عليما حكيما فينزل القرآن من عند الله عز وجل، يقول: اكتب عليما حكيما، فهو كان يفتري ويقول للناس: أنا الذي كنت أؤلف هذه الأشياء، وأنا الذي كنت أجعلها؛ ففتن الناس فاستحق أن يقتل، ولكن رحمة الله عظيمة وواسعة، لم يقتل هذا الإنسان وأفلت، وصار بعد ذلك أميرا على مصر في أيام الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

المقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد قتله وأراد الله عز وجل شيئا آخر، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يغمز للناس، لو غمز لهم لقاموا إليه وقتلوه، ولكن من خصوصياته أنه ليس من حقه أن يغمز على أحد.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.". [١]

---

(١) تفسير أحمد حطيبة ٩/٢٨٣

٢٥٩-"تفسير قوله تعالى: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)

قال الله عز وجل: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩]، خائنة الأعين أي: العين الخائنة، فالإنسان قد يخون بعينه، وقد يمشي ويراه الناظر أنه غاض البصر، ولكن إذا لم ير أحدا ينظر إليه نظر إلى ما حرم الله عز وجل، فهذه هي النظرة الخائنة التي يختلسها الإنسان إلى شيء حرمه الله سبحانه وتعالى، وكأن يغمز إنسان لآخر بعينه أن يفعل أي شيء فهذا لا يجوز.

وقد جاء في الحديث أنه لما جيء بـ عبد الله بن أبي السرح إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد فعل أشياء في كفره، ثم أسلم، ثم ارتد عن الإسلام، ونافق، وآذى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فجاء به عثمان رضي الله عنه ليشفع فيه يوم فتح مكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنه، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم استكثر ما صنعه هذا الرجل في كفره، وفي ردته، وفي نفاقه، فأبى أن يقبل منه صلى الله عليه وسلم وسكت، ولم يعطه عهدا ولا أمانا، ومن أدب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم معه أن مكثوا ينتظرون ماذا سيقول فيه، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم، فأطال سكوته، وفي النهاية أمنه صلوات الله وسلامه عليه، ثم قال لأصحابه بعد ذلك: (أما كان منكم من رجل رشيد يقوم لهذا فيضرب عنقه؟) أي: هذا الرجل الذي آذى الله ورسوله، الذي ارتد عن الإسلام، وآذى المسلمين، وقد رفضت أن أعطيه أمانا، أما كان منكم رجل رشيد يقوم إليه فيقطع رقبته؟ فقالوا: هلا أشرت لنا؟ أي: لو غمزت لنا بعينك لكنا قتلناه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين) فلا يليق بنبي أن يغمز لأحد ليعمل شيئا من وراء آخر.

فالمقصود: أن الله عز وجل يعلم خائنة العين، وما يكون من تلصص وتجسس وتحسس، وما يكون منها من نظر إلى ما حرم الله سبحانه وتعالى من غير أن يدري الناس، وما يكون منها من إشارة وغمز إلى إنسان بتهكم أو بسخرية، أو بغير ذلك.

وقوله: (وما تخفي الصدور) أي: ما يكنه الإنسان في صدره من نية سوء أو غيرها.". (١)

٢٦٠-"تفسير قوله تعالى: (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم)

الحمد لله وحده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحابته أجمعين.

قال الله عز وجل في سورة غافر: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق * ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب * ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب * فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال﴾ [غافر:٢١ - ٢٥].

---

(١) تفسير أحمد حطيبة ٨/٣٧٠

في هذه الآيات من سورة غافر يخبرنا الله سبحانه وتعالى بعلمه العظيم، فإنه سبحانه ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩]، وبقضائه المحكم بين عباده، وبفصله بالحق بينهم، كما قال تعالى: ﴿والله يقضي بالحق﴾ [غافر:٢٠]، فيجازي سبحانه وتعالى المحسن على إحسانه بالحسنى وزيادة، ويجازي المسيء على إساءته، ﴿ولا يظلم ربك أحدا﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ [غافر:٢٠]، أي: ما يعبدونه من أوثان ومن أصنام لا يقضون بشيء، ولا يملكون أن يفصلوا بين الخلق، وأن يقضوا بينهم، فهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فضلا عن غيرهم.

قال تعالى: ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ [غافر:٢٠]، فالله هو الذي أحاط سمعه كل شيء، وأحاط علمه وبصره بكل شيء، يعلم ما ظهر وما خفي، يعلم ما قاله الإنسان وما أخفاه في صدره وما أكنه، يعلم نيته، يعلم ما في حاضر وما في مستقبل هذا الإنسان، وإلى أي شيء يصل يوم القيامة، ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ [غافر:٢٠].

ثم يأمر عباده أن يسيروا في الأرض فيتفكروا في مصارع السابقين، فقد عاش على هذه الأرض أناس قبلهم، عاشوا كما عاش هؤلاء، وخاضوا كما خاض هؤلاء، فأهلك الله عز وجل السابقين، فما ينتظر هؤلاء اللاحقون من الله عز وجل إلا مصير السابقين، قال تعالى: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ [غافر:٢١]، ويعتبروا بما وقع على الأرض، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ [غافر:٢١]، كيف كانت العاقبة والنهاية، فهم عملوا في هذه الأرض، واستمتعوا بخلاقهم، وخاضوا في هذه الدنيا، ثم في النهاية أماتهم الله وأهلكهم سبحانه وتعالى فلم يملكوا لأنفسهم شيئا.

قال تعالى: ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ [غافر:٢١]، لكنهم مضوا وذهبوا، لقد كانوا في هذه الدنيا ملوكا، كانوا رؤساء، كانوا أقوياء، كانوا أغنياء، خاضوا في هذه الدنيا، ألا تعتبرون بما حدث لهؤلاء؟ كيف كان عاقبة الذين كانوا في الماضي؟ ((كانوا هم))، وقد عبر بكان التي تفيد أن الشيء انتهى وصار أثرا بعد عين، فبعدما كانوا حاضرين صاروا آثارا، وصاروا ذكرا، وصاروا عبرة يعتبر بهم الناس، فكرر سبحانه (كانوا)، ليؤكد أنهم كانوا في الماضي وانتهى أمرهم وذهبوا إلى ربهم ليجازيهم بأعمالهم.

﴿كانوا هم أشد منهم قوة﴾ [غافر:٢١]، هؤلاء السابقون يذكر الله سبحانه وتعالى أنهم كانوا أشد من هؤلاء الموجودين الآن، فقد كان السابقون من الكفار أشد من اللاحقين الموجودين.

وقوله: (منهم) هذه قراءة الجمهور، أما ابن عامر فقرأها: (كانوا هم أشد منكم) أي: أنتم أيها الموجودون أضعف منهم في الأبدان، فهم كانوا أقوى منكم، كانوا أطول منكم، وكان لهم في هذه الدنيا أعمار، فمنهم من عاش ألف سنة، ومنهم من عاش ثلاثمائة سنة، ومنهم من عاش خمسمائة سنة، فقد عاشوا سنين طويلة، فهل نفعتهم أعمارهم وقد كانوا يكفرون بالله سبحانه؟ وهل نفعهم إعمارهم لهذه الأرض وقد كانوا يكفرون بالله سبحانه وتعالى؟ وهل انتفعوا بهذه الآثار التي خلفوها من ورائهم؟ فهم قد ذهبوا وتركوا الآثار، فانظروا إليها واعتبروا يا أولي الأبصار.

قال تعالى: ﴿كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض﴾ [غافر:٢١]، فترون آثارهم، يسير الإنسان فيقول: هذه آثار الأقدمين، هنا كان قوم عاد ﴿إرم ذات العماد﴾ [الفجر:٧]، كانت بيوتهم عظيمة في هذه الجبال، وكانوا يتخذون من هذه

الآثار ما يدل على قوتهم فرحين بذلك، أرادوا أن يظهروا مهاراتهم وأن يظهروا قوتهم، لكنهم خالفوا ربهم، وخالفوا أنبياءهم عليهم الصلاة والسلام، فكفروا وذهبوا وبقيت الآثار تدل على أصحابها الذين صاروا ذكرا بعد ذلك، قال سبحانه: ﴿كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم﴾ [غافر:٢١]، لم يأخذهم ظلما سبحانه، وحاشا له أن يظلم أحدا من عباده، وإنما أخذهم بسبب ذنوبهم، بسبب ما اقترفوا من أعمال سيئة.

قال تعالى: ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ [غافر:٢١]، أي: لم يكن لهم من ينصرهم، ومن يقيهم عذاب رب العالمين سبحانه وتعالى، وكلمة (واق): نكرة في سياق النفي تفيد العموم، فلا كبير ولا صغير ولا شيء يقيهم من الله سبحانه وتعالى، فما وجدوا لهم أحدا ينصرهم من عذاب الله.

وقرأها الجمهور بالوقف على تسكين القاف (واق)، وقرأها ابن كثير وقفا: (من واقي) فيقف عليها بالياء، فإذا وصل وصلها بغير ياء (من واق ذلك بأنهم).". [1]

٢٦١-"تفسير قوله تعالى: (أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير)

قال تعالى: ﴿أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير﴾ [الشورى:٣٤] أي: يهلك ويدمر ويغرق السفينة بذنوب العباد، فإذا أغرق السفينة فبسبب ظلم أهلها، ويعفو عن كثير.

يركب الإنسان السفينة وهو ماش بقضاء الله وقدره، وليس ذلك بحذق الملاح ومهارته، وقد سمعنا قصة مركب المعتمرين من الإسكندرية، فبينما هم قد قاربوا البر وأصبح أمامهم، إذ جاءهم مركب آخر للبضائع فاصطدم بمركبهم فخرقه، لكن من رحمة الله بهم أن بقي مركبهم ملتصقا به حتى نجوا بأنفسهم وأنقذ الله ألفا وأربعمائة ومات واحد أو اثنان.

قال تعالى: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ [العنكبوت:٦٥].

كان أهل الجاهلية إذا ركبوا السفينة نادوا: يا رب يا رب! حتى إذا نجوا رجعوا يعبدون اللات والعزى من دون الله سبحانه وتعالى.

ومن هؤلاء عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه، فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة فر هاربا؛ لأنه من ضمن من أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه، وكانوا أربعة من أهل الكفر وامرأتان قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم: (اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة).

فقد روى الإمام النسائي من حديث سعد بن أبي وقاص قال: (لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة).

فالأول: عكرمة بن أبي جهل، والثاني: عبد الله بن خطل، والثالث: مقيس بن صبابة، والرابع: عبد الله بن سعد بن أبي السرح.

فكان كل واحد منهم له عمل في الكفر يؤذي به النبي صلوات الله وسلامه عليه، وكان من أشدهم كفرا عكرمة وأبوه أبو

---

(١) تفسير أحمد حطيبة ٢/٣٧١

جهل الذي قتل يوم بدر.

ومشى على طريقته ومنواله عكرمة بن أبي جهل، فظل يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم، ويؤذي المسلمين، ولا يجد موطنا يكيد فيه للنبي صلى الله عليه وسلم، ويقاتل فيه النبي صلى الله عليه وسلم إلا وفعل ذلك، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل هؤلاء الأربعة، وامرأتين، قتل منهم اثنان، وتاب اثنان ودخلا في الإسلام، والله يمن على من يشاء.

ويذكر عكرمة بن أبي جهل أنه خرج من مكة هاربا فركب السفينة فأصابتهم عاصفة، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا هاهنا، وكان أصحاب السفينة كفارا.

وقد ذكرنا في قصة الحصين أبي عمران بن حصين الذي قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (كم إلها تعبد؟ فقال: ستة، واحد في السماء وخمسة في الأرض.

فقال له: من الذي ترجو؟ قال: الذي في السماء.

قال: يا حصين! كيف تعبد من لا تنتفع به؟) ثم أسلم بعد ذلك حصين رضي الله عنه.

فهم كانوا يعبدون هذه الآلهة، وعندما يسألون عنها يقولون: ما نعبدها إلا لتقربنا إلى الله زلفى، فكانوا يعبدون هذه الأصنام لئلا يأتي إليهم من يقول لهم: اعبدوا الذي أنا أعبده، فكل واحد له إله يخصه؛ إنها عنجهية الجاهلية والعصبية والاستكبار؛ لذلك تركوا دين النبي صلى الله عليه وسلم استكبارا، لا لأنه ليس على الحق، فهم يعرفون أنه الحق، ولكن قالوا: لا نتبعك لأنك ستأمرنا وتنهانا.

قال ربان السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئا هاهنا، فعند ذلك استيقظ عكرمة من غفلته بعد سنين طويلة في معاداة الله ومعاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره.

وقال: اللهم إن لك علي عهدا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدا صلى الله عليه وسلم حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوا كريما.

فجاء فأسلم رضي الله تعالى عنه.

وكان بعض المسلمين يذكر أمامه أباه، فالنبي صلى الله عليه وسلم نهاهم عن ذلك وقال: (لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء) وجاهد عكرمة في سبيل الله جهادا عظيما رضي الله تعالى عنه، فلما كانت وقعة اليرموك بين المسلمين والروم في أول خلافة عمر رضي الله عنه، وكانت حربا شديدة جدا، فمر به رجل ورآه يقاتل قتالا شديدا حتى قتل، فوجدوا فيه بضعة وسبعين ما بين ضربة وطعنة ورمية.

وكان عكرمة قبل ذلك يقول: من يبايع على الموت؟ فبايعه جماعة من المسلمين، وكان يقول رضي الله عنه: إني ما تركت موطنا إلا وقاتلت فيه النبي صلى الله عليه وسلم، فلا أجد موطنا أدافع فيه عن هذا الدين إلا وقاتلت فيه.

فقاتل وقتل شهيدا رضي الله عنه.

والثاني الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله: عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وكان قد أسلم، وكان يجيد القراءة والكتابة، فكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم، فكان يعتبر من كتاب الوحي، ثم فتن بالدنيا، وارتد عن دين الله عز

وجل، وهرب إلى الكفار يطعن في النبي صلى الله عليه وسلم، وينفر الناس عن الدين، ويقول: أنا الذي كنت أكتب هذا القرآن، أنا الذي كنت أملي هذا القرآن، فالقرآن من تأليفي.

فينسب لنفسه أشياء لم يكن له، وكان كاذبا فيها، وهذه فتنة للكفار، وفتنة للمسلمين، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله.

وكان أخا لـ عثمان بن عفان رضي الله عنه لأمه، فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة إذا بـ عثمان يأتي به للنبي صلى الله عليه وسلم، وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنه، فرفض النبي صلى الله عليه وسلم أن يبايعه.

وظلا منتظرين، فإذا بـ عثمان يلح على النبي صلى الله عليه وسلم، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ولم يبايعه، وفي النهاية حقن دمه وتركه، وكأنه وجد على المسلمين فقال: (أما كان فيكم رجل رشيد يقوم لهذا فيقتله -بما صنع من كفر وردة، وآذى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وآذى المسلمين- قالوا: يا رسول الله! هلا أشرت لنا بعينك، قال: ما كان لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**).

الثالث ممن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله وقتل: عبد الله بن خطل، وهو رجل من الذين كفروا بالله تبارك وتعالى، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان مسلما وارتد عن دين الله، وذهب إلى مكة.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لما أسلم هذا الرجل قد أرسله ليجمع الصدقات، ومعه مولى من المسلمين، فلما خرج في الطريق أمر هذا المولى أن يصنع الطعام، ثم نام، فلما وجده لم يصنع الطعام قتله، وهرب ورجع مرتدا إلى الكفار، ثم أتى بمغنيتين تغنيان بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم في مجالس الخمر لقريش، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلهما.

والرابع هو: مقيس بن صبابة وقد قتل، وهذا الرجل كان قد أسلم هو وأخ له اسمه هشام، فقتل أحد الأنصار أخاه، وبحثوا عن القاتل فلم يجدوه، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار أن يدفعوا الدية له، فأخذ الدية، وبعدما أخذ الدية قتل رسولا لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان معه، فأخذ الدية، وقتل رجلا مظلوما، ثم ارتد وفر إلى مكة، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم به فقتل.

فهؤلاء الأربعة الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتلهم، وكذلك المرأتان اللتان كانتا تغنيان بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم، وسب دين الله عز وجل، وعفا عن ألوف من أهل مكة، وهم كفار في ذاك الحين، وقد رد ربه سبحانه وتعالى ذلك إلى اختياره إن شاء أن يعفو، وإن شاء أن يقتل، فعفا صلوات الله وسلامه عليه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.". (١)

٢٦٢-"من فوائد الحديث التي ذكرها الحافظ ابن حجر

شرح الإمام البخاري بعض الألفاظ الغريبة في الحديث، فقال: قال أبو عبد الله: معرة العر: الجرب.

---

(١) تفسير أحمد حطيبة ٦/٤٢٩

تزيلوا: تميزوا.

وحميت القوم: منعتهم حماية، وأحميت الحمى: جعلته حمى لا يدخل.

وأحميت الرجل إذا أغضبته.

وهذا سوف يأتي إن شاء الله تفسيره في نهاية الكلام على سورة الفتح.

ثم قال الحافظ خاتما فوائد هذا الحديث -دون ما تقدم أثناء شرح الحديث-: أن ذا الحليفة ميقات أهل المدينة للحاج والمعتمر.

وأن تقليد الهدي وسوقه سنة للحاج والمعتمر فرضا كان أو سنة.

وأن الإشعار سنة لا مثلة، والإشعار: هو جرح جانب السنام الأيمن، فهذا ليس من المثلة وإنما هو سنة.

وأن الحلق أفضل من التقصير، وأنه نسك في حق المعتمر محصورا كان أو غير محصور.

وأن المحصر ينحر هديه حيث أحصر، ولو لم يصل إلى الحرم، ويقاتل من صده عن البيت، وأن الأولى في حقه ترك المقاتلة إذا وجد إلى المسالمة طريقا.

وفي هذا الحديث أشياء تتعلق بالجهاد منها: جواز سبي ذراري الكفار إذا انفردوا عن المقاتلة ولو كان قبل القتال.

وفيه: الاستتار عن طلائع المشركين ومفاجأتهم بالجيش لطلب غرتهم، وجواز التنكب عن الطريق السهل إلى الطريق الوعر لدفع المفسدة وتحصيل المصلحة، واستحباب تقديم الطلائع والعيون بين يدي الجيوش، والأخذ بالحزم في أمر العدو لئلا ينالوا غرة المسلمين، وجواز الخداع في الحرب، والتعريض بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كان من خصائصه أنه منهي عن **خائنة الأعين**.

وفيه: فضل الاستشارة من استقراء الرأي واستطابة قلوب الأتباع، وجواز بعض المسامحة في أمر الدين، واحتمال الضيم فيه ما لم يكن قادحا في أصله، إذا تعين ذلك طريقا للسلامة في الحال، والصلاح في المآل، سواء كان ذلك في حال ضعف المسلمين أو قوتهم.

وأن التابع لا يليق به الاعتراض على المتبوع بمجرد ما يظهر في الحال، بل عليه التسليم؛ لأن المتبوع أعرف بمآل الأمور غالبا بكثرة التجربة ولاسيما مع من هو مؤيد بالوحي.

وفيه: جواز الاعتماد على خبر الكافر إذا قامت القرينة على صدقه، قاله الخطابي مستدلا بأن الخزاعي الذي بعثه النبي صلى الله عليه وسلم عينا له ليأتيه بخبر قريش كان حينئذ كافرا، قال: وإنما اختاره لذلك مع كفره ليكون أمكن له في الدخول فيهم، والاختلاط بهم، والاطلاع على أسرارهم، قال: ويستفاد من ذلك جواز قبول قول الطبيب الكافر.

يعني: إذا علم منه الصدق في النصيحة.

قلت: ويحتمل أن يكون الخزاعي المذكور كان قد أسلم ولم يشتهر إسلامه، وحينئذ فليس ما قاله دليلا على ما ادعاه، والله

سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.". [1]

٢٦٣-"تفسير سورة غافر [١٥ - ١٩]

إن الله تعالى هو رفيع الدرجات وذو العرش، وهو الذي يرفع من يشاء من عباده درجات، فجعل بعضهم درجات ومراتب. والملك في الدنيا والآخرة هو لله تعالى لا شريك له، فإذا حشر الخلق وجمعهم يوم القيامة قال لهم: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيقول: لله الواحد القهار، وهو سبحانه من عظمته يعلم خائنة الأعين وما تخفيه الصدور والنفوس.". [2]

٢٦٤-"تفسير قوله تعالى: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)

قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩].

ربنا جل جلاله يعلم العين الخائنة، العين التي تنظر إلى الحرام خلسة، أو بالنظر والغمز واللمز، حتى تلك العين يعرفها ويراها ويحاسب عليها.". [3]

٢٦٥-"تفسير سورة غافر [١٩ - ٢٢]

إن الله تبارك وتعالى له العلم المطلق والإحاطة التامة بكل شيء، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفيه الصدور، ويعلم السر وأخفى.

وقد أمر الله تعالى العباد في هذه الآيات أن يسيروا في الأرض؛ كي يروا عاقبة الأمم المكذبة السابقة، وما حل بهم لما عصوا أمر ربهم.". [4]

٢٦٦-"تفسير قوله تعالى: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)

قال الله جل جلاله: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩].

إن ربنا جل جلاله لا يخفى عنه شيء، ويعلم ما تسر الأنفس وما تعلن، وهو جل جلاله يذكر هنا أنه: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ أي: يعلم الأعين الخائنة، وهي التي تسارق النظر فيما حرم الله، كأن تمر امرأة فيحاول أن ينظر إليها حراما، فإذا انتبه له غض بصره، وإذا غض الناس عنه رفع بصره يتتبع عورات النساء.

فالعين الخائنة هي التي تنظر إلى ما حرم الله من عورات الرجال والنساء، ومن الإشراف على ما لا يحل له أن ينظر إليه، والنبي عليه الصلاة والسلام طرق بابه أحد يوما في المدينة المنورة فجعل ينظر من خلل الباب، فكان النبي صلى الله عليه

---

(١) تفسير القرآن الكريم - المقدم ١٣/١٢٩

(٢) تفسير المنتصر الكتاني ١/٢٨٤

(٣) تفسير المنتصر الكتاني ٦/٢٨٤

(٤) تفسير المنتصر الكتاني ١/٢٨٥

وسلم يبحث عن شيء ليفقأ به عينه، ثم خرج إليه وقال: (لو وجدتك تنظر لفقأت عينك) ولذلك يقول الأئمة: إن جزاء من ينظر إلى ما حرم الله أو إلى عورات ما يكون عادة مخفيا في البيت -وما جعلت الأبواب إلا لستر ذلك- أن تفقأ عينه من صاحب البيت أو صاحب الشأن، فيكون قد عاقبه بما أمر به الشرع.

والنبي عليه الصلاة والسلام عند فتح مكة أهدر دم أربعة عشر إنسانا: ثمانية رجال وست نساء وقال: (اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة) فقتل من قتل، وفر من فر، وإذا بـ عثمان بن عفان رضي الله عنه يأتي بواحد -وهو قريب له نسبا- ممن أهدر النبي عليه الصلاة والسلام دمه واسمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح فقال: (يا رسول الله! اقبل من ابن أخيك توبته وإيمانه، فسكت عنه النبي عليه الصلاة والسلام ولم يلتفت إليه زمنا من الوقت، وبعد إلحاح عثمان قبل توبته)، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحترم عثمان ويستحيي منه؛ إذ كان قد خرج عن قومه بني أمية وقد ظاهروا النبي عليه الصلاة والسلام بالعداوة والحرب على وتيرة واحدة، كما هو شأنهم في الجاهلية، وتولى حرب رسول الله والمسلمين كبيرهم أبو سفيان بن حرب، فخرج عثمان عنهم وآمن برسول الله وكان من السابقين الأولين صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فعندما جاء شفيعا لـ عبد الله بن أبي سرح سكت عنه النبي زمنا، وبعد ذلك الزمن قبل منه عليه الصلاة والسلام، ومد يده إليه فجدد توبته وإيمانه، ثم التفت للحاضرين فقال لهم: (ألم يكن منكم أحد يقوم إليه فيقتله؟ قالوا: يا رسول الله! ألا أشرت إلينا بعينك لنقتله؟! قال: ما كان لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**) أي: ما يجوز وما ينبغي من نبي معصوم أن يقابل الناس بوجه وأن يكتم عنهم وجها، ففي هذه الحالة يكون ذلك تغرير لا يليق برسول الله، بل ولا يليق بالمؤمن الفاضل، فإما أن يقتل علنا ويجدد الأمر بقتله، أو يتركه كما قد فعل، أما أن يوهمه بأنه سيتركه ثم يغمز بعينه ليقتل فهي **خائنة الأعين**.

والعين الخائنة: هي التي أظهرت شيئا وأبطنت شيئا آخر، وهو ما يقول الله تعالى عنه: ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ [غافر:١٩].

وعبد الله بن أبي سرح كان قد أسلم قبل وكتب الوحي، ثم ارتد عن الإسلام، فأهدر النبي دمه، ولكن الله أراد شيئا وأراد النبي غيره، وما يريده الله هو الأصلح والأكمل؛ لأنه خالق العباد، وهو أدرى بمصالحهم، فـ ابن أبي سرح هذا أخذ يكذب عندما ارتد، وقال: كان يأمرني أن أكتب (شديد العقاب)، فأكتب (غفور رحيم)، فيبدل ويغير، فلو قتل لقال أعداء الإسلام: ها هو رجل كان يكتب الوحي، فلما كشف السر قتله النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن الله أبقى ابن أبي سرح إلى أن أسلم، فلما حسن إسلامه جعل يكذب نفسه في المجالس ويقول: لا والله، ما غيرت كلمة مما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابتها، ولكن الشيطان تلاعب به وأغراه، فأخذ يكذب على الله ورسوله، فهو تائب إلى الله ولن يعود، وهو الذي كان قائد الجيش في فتح طرابلس وبرقة التي أصبحت تسمى أخيرا باسم: ليبيا.

قوله تعالى: ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ أي: يخبر جل جلاله بأنه العالم بكل شيء، حتى بغمزة العين، وما يريد صاحبها أن يقول، كما يعلم ما تسره الضمائر، وما تبطنه النفوس مما لا يتكلم ولا ينطق به؛ ولذلك فالله جل جلاله لا تخفى عليه خافية، فمن حاول أن يكتم شروره وآثامه فإن لم يعلمها البشر فالله جل جلاله يعلمها، وهو لا تخفى عليه خافية، حتى إذا جاء يوم القيامة وجده معروضا على الله للحساب: كل ما كان يعمله في الحياة الدنيا من جرائم وذنوب

وآثام، فإما أن يغفر الله له وقد جاء موحدا مؤمنا، وإما أن يأتي مشركا فلا توبة ولا رحمة لمشرك إن مات على شركه.". (١)

٢٦٧-"ﷺ ﴿خائنة الأعين﴾ خيانتها ومسارقتها، أي: النظر إلى ما يحل، وهو النظر الذي يخفيه العبد عن جليسه.". (٢)

"ومن أمثلة تعدي الغض ب من قوله تعالى: يغضوا من أبصارهم ويغضضن من أبصارهن وما ذكره هنا من الأمر بغض البصر قد جاء في آية أخرى تهديد من لم يمتثله، ولم يغض بصره عن الحرام، وهي قوله تعالى: يعلم **خائنة الأعين** [٤٠ \ ١٩].

وقد قال البخاري - رحمه الله -: وقال سعيد بن أبي الحسن، للحسن: إن نساء العجم يكشفن صدرهن ورءوسهن، قال: اصرف بصرك عنهن، يقول الله - عز وجل -: قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم قال قتادة: عما لا يحل لهم، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن **خائنة الأعين** النظر إلى ما نهي عنه، اهـ محل الغرض منه بلفظه.

وبه تعلم أن قوله تعالى: يعلم **خائنة الأعين** فيه الوعيد لمن يخون بعينه بالنظر إلى ما لا يحل له، وهذا الذي دلت عليه الآيتان من الزجر عن النظر إلى ما لا يحل جاء موضحا في أحاديث كثيرة.

منها: ما ثبت في الصحيح، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال «: إياكم والجلوس بالطرقات» ، قالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، قال «: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه» ، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟ قال «: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر» ، انتهى، هذا لفظ البخاري في «صحيحه» .

ومنها ما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: أردف النبي - صلى الله عليه وسلم - الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عجز راحلته، وكان الفضل رجلا وضيئا فوقف النبي - صلى الله عليه وسلم - للناس يفتيهم، وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فطفق الفضل ينظر إليها وأعجبه حسنها، فالتفت النبي - صلى الله عليه وسلم - والفضل ينظر إليها، فأخلف بيده، فأخذ بذقن الفضل فعدل وجهه عن النظر إليها، الحديث.

ومحل الشاهد منه: أنه - صلى الله عليه وسلم - صرف وجه الفضل عن النظر إليها، فدل ذلك على أن نظره إليها لا يجوز، واستدلال من يرى أن للمرأة الكشف عن وجهها بحضرة الرجال الأجانب بكشف الخثعمية وجهها في هذا الحديث، سيأتي إن شاء الله الجواب عنه في." (٣)

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني ٢/٢٨٥

(٢) تفسير غريب القرآن - الكواري ١٩/٤٠

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٥/٥٠٩

"قول العجاج:

ورب أسراب حجيج كظم ... عن اللغا ورفث التكلم

ويرجع إلى هذا القول معنى قول من قال: كاظمين أي: لا يتكلمون إلا من أذن له الله، وقال الصواب، كما قال تعالى: لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا [٧٨ \ ٣٨] .

وقوله: كاظمين حال من أصحاب القلوب على المعنى. والتقدير: إذ القلوب لدى الحناجر، أي: إذ قلوبهم لدى حناجرهم في حال كونهم كاظمين، أي: ممتلئين خوفا وغما وحزنا، ولا يبعد أن يكون حالا من نفس القلوب ؛ لأنها وصفت بالكظم الذي هو صفة أصحابها.

ونظير ذلك في القرآن: إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين [١٢ \ ٤] فإنه أطلق في هذه الآية الكريمة، على الكواكب والشمس والقمر صفة العقلاء في قوله تعالى: رأيتهم لي ساجدين، والمسوغ لذلك وصفه الكواكب والشمس والقمر بصفة العقلاء التي هي السجود.

ونظير ذلك أيضا قوله تعالى: إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين [٢٦ \ ٤] وقوله تعالى: قالتا أتينا طائعين [٤١ \ ١١] .

قوله تعالى: ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع. قد قدمنا الكلام عليه في سورة البقرة وسورة الأعراف، وأحلنا عليه مرارا.

قوله تعالى: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. قد قدمنا الكلام على ما يماثله من الآيات في أول سورة هود وفي غيرها وأحلنا عليه أيضا مرارا.

قوله تعالى: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أنه أرسل نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، بآياته وحججه الواضحة كالعصا واليد البيضاء إلى فرعون وهامان وقارون." (١)

"الناس، ولا يخشون الله: فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين [٩ \ ١٣] .

وإفراد الله بالخشية منزلة الأنبياء، كما في قوله: الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا [٣٣ \ ٣٩] .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه: والعرب تمدح من يكون في خلوته كمشهده مع الناس.

ومنه قول مسلم بن الوليد:

يتجنب الهفوات في خلواته عف السريرة غيبه كالمشهد

والواقع أن هذه الصفة، وهي خشية الله بالغيب والإيمان بالغيب أساس عمل المسلم كله، ومعاملاته ؛ لأنه بإيمانه بالغيب

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٨٢/٦

سيعمل كل خير طمعا في ثواب الله، كما في مستهل المصحف: الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب الآية [٢ \ ١ – ٣] .

وبمخافة الله بالغيب سيتجنب كل سوء، فيسلم ويتحصل له ما قال الله تعالى عنهم: مغفرة وأجر عظيم [٥ \ ٩] ، (مغفرة) من ذنوبه: وأجر عظيم على أعماله. رزقنا الله خشيته في السر والعلن.

وليعلم أن المراد بالغيب مما هو من جانب العبد لا سيده، كما في الحديث في الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ، وهذا الإحساس هو أقوى عامل على اكتساب خشية الله سبحانه.

قوله تعالى: وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور.

فيه دلالة على أن السر والجهر عند الله وفي علم الله على حد سواء ؛ لأنه عليم بذات الصدور يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

وقوله تعالى: سواء منكم من أسر القول ومن جهر به [١٣ \ ١٠] .

وقوله: وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى [٢٠ \ ٧] .

وتقدم للشيخ عند كل من الآيتين بيان هذه الآية.." [(١)]

"وقد تقدم قوله تعالى: قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله الآية [٥٨ \ ١] .

وقوله تعالى: ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه [٥٠ \ ١٦] .

وتقدم في سورة «التحريم» قبل هذه السورة مباشرة قوله تعالى: وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه الآية [٦٦ \ ٣] ، ففيه بيان عملي مشاهد بأنه تعالى يعلم السر وأخفى، ولذا قال تعالى هنا:

ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

كما قال في سورة «التحريم» : قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير [٦٦ \ ٣] .

وقال القرطبي نقلا عن أبي إسحاق الإسفرائيني: من أسماء صفات الذات ما هو للعلم منها العليم، ومعناه تفهيم جميع المعلومات، ومنها: الخبير، ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون، ومنها: الحكيم ويختص بأنه يعلم دقائق الأوصاف، ومنها: الشهيد ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر، ومعناه ألا يغيب عنه شيء. ومنها: الحافظ ويختص بأنه لا ينسى، ومنها: المحصي ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النهار واشتداد الريح وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة، وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق وقد قال: ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، (ومن) في قوله تعالى: ألا يعلم من خلق، أجازوا فيها أن تكون فاعل (يعلم) ، وهو الله تعالى، أي: إن الذي خلق يعلم ما خلق ومنه ما في الصدور.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٨/٢٣٦

وأجازوا أن تكون مفعولا والفاعل ضمير مستتر في الفعل (يعلم) ، ذكرهما القرطبي وأبو حيان، وهو واضح ومحتمل.
ولكن الذي تشهد له النصوص أنها مفعول كما في قوله: إنه بكل شيء عليم [٤٢ \ ١٢] : يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [٤٠ \ ١٩] .
وقوله: والله خلقكم وما تعملون [٣٧ \ ٩٦] ، ومن أعمالهم ما يسرون، وما يجهرون. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور.." (١)
"خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فإذا أعوز المدعي شاهدا حلف مع الشاهد كأنه قال: أستشهد بالله الذي يعلم مني صدق دعواي.
وكذلك المدعى عليه، إذا عجز المدعي عن البينة وكانت الدعوى متوجهة، ومما يشبه، كما يقول المالكية: فإن المدعى عليه يقول: لدي البينة والشهادة على عدم ثبوت ما ادعى به علي، ألا وهو خير الشاهدين.
من هو أكبر شهادة مما عجز عنها المدعي ألا وهو الاستشهاد بالله تعالى، فيحلف على براءة ذمته مما ادعى به عليه.
تنبيه.
ومن هنا يعلم حقيقة قوله - صلى الله عليه وسلم -: «من حلف بغير الله فقد أشرك» أي ؛ لأن الحالف يقيم المحلوف به مقام الشهود الذين رأوا أو سمعوا، والمخلوق إذا كان غائبا لا يرى ولا يسمع، فإذا حلف به كان قد أعطاه صفات من يرى ويسمع، والحال أنه بخلاف ذلك، ومن ناحية أخرى الحالف والمستحلف بالله يعلمان أن الله تعالى قادر على أن ينتقم من صاحب اليمين الغموس، وغير الله إذا ما حلف به لا يقوى ولا يقدر على شيء من ذلك. والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: فما للذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين
«مهطعين» : أي مسرعين نافرين، «وعزين» جمع عزة، وهم الجماعة، أي: ما بال أولئك الكفار المنصرفين عنك متفرقين، وعليه قول الكميت:
ونحن وجندل با غ تركنا ... كتائب جندل شتى عزين
وكذلك هنا فهم متفرقون عنه - صلى الله عليه وسلم - جماعات من كل جهة عن اليمين وعن الشمال. تفرقت بهم الأهواء، وأخذتهم الحيرة، كقوله تعالى: فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة [٧٤ \ ٤٩ - ٥١] .
ونقل ابن كثير عن أحمد - رحمه الله - في أهل الأهواء، فهم مخالفون للكتاب، مختلفون، متفقون على مخالفة الكتاب.

قوله تعالى: إنا خلقناهم مما يعلمون." (٢)

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٣٧/٨
(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٠٣/٨

"كان منه – صلى الله عليه وسلم –، فهو من باب الجبلية تقريبا، كأن المثير له غرض عام من خصوص الرسالة ومهمتها.

ومع ذلك فقد جاء عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه كان بعد نزولها يقول له: " مرحبا فيمن عاتبني فيه ربي "، ويكرمه، وقد استخلفه على المدينة مرتين.

وعلى هذا يكون المراد بهذا أمران:

الأول: التسامي بأخلاقه – صلى الله عليه وسلم – إلى ما لا نهاية له، إلى حد اللحظ بالعين، والتقطيب بالجبين، ولو لمن لا يراه، كما قال – صلى الله عليه وسلم –: " ما كان لنبي أن تكون له **خائنة الأعين** " وذلك في صلح الحديبية.

والثاني: تأديب للأمة وللدعاة خاصة، في شخصية رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما علمهم في شخصيته في بر الوالدين، في قوله تعالى: إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما [١٧ \ ٢٣] .

وهذا السياق بكامله من أول السورة إلى قوله تعالى: كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره [٨٠ \ ١١ – ١٢] ، بيان ؛ لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لا يراعي في الدعوة إلى الله غنيا ولا فقيرا، وأن يصبر على ضعفة المؤمنين ؛ لأن الرسالة تبليغ وليس عليه ما وراء ذلك في مسئولية، فلا يتكلف لهم.

وقد حثه الله تعالى على الصبر مع المؤمنين، لإيمانهم في قوله تعالى: واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر [١٨ \ ٢٨ – ٢٩] .

ومثله قوله تعالى: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين [٦ \ ٥٢] .

وقد تقدم للشيخ – رحمة الله تعالى علينا وعليه – شيء من هذا البيان عند هذه الآية، وبين أن هذا التنبيه قد وقع من نبي الله نوح إلى قومه، حينما ازدروا ضعفة المؤمنين في." (١)

"بلده مسقط رأسه فصبر، ولم يدع عليهم، ورضي الدخول في جوار رجل مشرك وهذا هو المناسب ؛ لقوله بعده لقد خلقنا الإنسان في كبد [٩٠ \ ٤] ، وهذا من أعظمه.

فإذا كان كل إنسان يكابد في حياته، أيا كان هو، ولأي غرض كان، فمكابدتك تلك جديرة بالتقدير والإعظام، حتى يقسم بها. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ووالد وما ولد

قيل: الوالد: هو آدم، وما ولد، قيل: «ما» نافية. وقيل: مصدرية.

فعلى أنها نافية: أي: وكل عظيم لم يولد له.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٨/٤٣٢

وعلى المصدرية: أي: بمعنى الولادة من تخليص نفس من نفس، وما يسبق ذلك من تلقيح وحمل، ونمو الجنين، وتفصيله وتخليقه، وتسهيل ولادته.

وقيل: «ووالد وما ولد» : كل والد مولود من حيوان وإنسان.

وقد رجح بعض العلماء أن الوالد هو آدم، وما ولد ذريته، بأنه المناسب مع هذا البلد ؛ لأنها أم القرى، وهو أبو البشر، فكأنه أقسم بأصول الموجودات وفروعها.

قوله تعالى: لقد خلقنا الإنسان في كبد

تقدم بيانه عند قوله تعالى: يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه [٨٤ \ ٦] .

قوله تعالى: يقول أهلكت مالا لبدا أيحسب أن لم يره أحد لم يبين أيراه أحد؟ ومن الذي يراه؟

ومعلوم أنه سبحانه وتعالى يراه، ولكن جاء الجواب مقرونا بالدليل والإحصاء في قوله تعالى بعده: ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين [٩٠ \ ٨ - ١٠] ؛ لأن من جعل للإنسان عينين يبصر بهما، ويعلم منه **خائنة الأعين**، ولسانا ينطق به ويحصي عليه: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» [٥٠ \ ١٨] ، وهداه الطريق، طريق البذل وطريق الإمساك، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلن ينفق درهما إلا وهو سبحانه يعلمه ويراه.." [١]

"يروى بخفض حين على الاعراب وفتحه على البناء لكونه مضافا الى مبني وهو يستصبين فإنه مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث وماضيه استصبيت فلانا إذا جعلته في عداد الصبيان وإن كان ما وليه فعلا مضارعا معربا أو جملة اسمية فالإعراب أرجح من البناء وهو واجب عند البصريين لعدم التناسب وإنما قلنا بأرجحية الاعراب لأن نافعا وهو من كبار القراء قرأ «هذا يوم ينفع» بالفتح على البناء لا على الاعراب وأجاب جمهور البصريين بأن الفتحة فيه ليست فتحة بناء وإنما هي فتحة إعراب مثلها في صمت يوم الخميس والتزموا لأجل ذلك أن تكون الاشارة ليست لليوم وإلا لزم كون الشيء ظرفا لنفسه ولهذا قال الفارسي وابن مالك بأرجحية الاعراب، قال في الخلاصة:

وقبل فعل معرب أو مبتدأ ... أعرب ومن بنى فلن يفندا

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٩ الى ٢٢]

يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)." [٢]

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٥٣١/٨

(٢) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٤٧٢/٨

"الإعراب:

(يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور) الجملة خبر رابع للمبتدأ المحذوف الذي أخبر برفيع الدرجات وما بعده أو هو خبر من أخبار هو الذي يريكم أو هي في محل نصب على الحال أو هي تعليلية لا محل لها. ويعلم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره هو أي الله تعالى **وخائنة الأعين** مفعول به والإضافة بمعنى من أي الخائنة من الأعين فعلى هذا تكون خائنة نعت لمحذوف أي العين الخائنة ويجوز أن تكون الخائنة مصدرا كالعاقبة والكاذبة أي يعلم خيانة الأعين، وسيأتي مزيد بحث عن هذا التعبير في باب البلاغة، والواو حرف عطف وما عطف على **خائنة الأعين** وجملة تخفي الصدور صلة ما.

(والله يقضي بالحق) الواو حرف عطف والله مبتدأ وجملة يقضي بالحق خبره وبالحق متعلقان بيقضي أو بمحذوف حال أي ملتبسا به.

(والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير) الواو عاطفة والذين مبتدأ وجملة يدعون صلة ومن دونه متعلقان بيدعون والعائد محذوف أي يدعونهم من دونه بمعنى يعبدونهم وجملة لا يقضون بشيء خبر الذين وان واسمها وهو مبتدأ أو ضمير فصل والسميع البصير خبر ان لهو أو لإن.

(أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) الهمزة للاستفهام الانكاري أنكر عليهم عدم الاعتبار بأحوال غيرهم والواو عاطفة على مقدر يقتضيه المقام أي أغفلوا ولم يسيروا ولم حرف نفي وقلب وجزم ويسيروا فعل مضارع مجزوم بلم وفي الأرض متعلقان بيسيروا، فينظروا الفاء سببية أو عاطفة وينظروا." (١)

"البلاغة:

فن الفرائد:

في قوله «يعلم **خائنة الأعين**» فن الفرائد وهو من فنون البديع والمختص بالفصاحة دون البلاغة لأنه عبارة عن إتيان المتكلم في كلامه بلفظة تتنزل منزلة الفريدة من حب العقد وهي الجوهرة التي لا نظير لها تدل على جزالة منطقه، وعظم فصاحته، وقوة عارضته، وأصالة عربية بحيث تكون هذه اللفظة لو سقطت من الكلام عزت على الفصحاء غرابتها وهي كثيرة في القرآن وقد مر الكثير منها وهي هنا في لفظة «خائنة» فإنها بمفردها سهلة مستساغة كثيرة الجريان على الألسن فلما أضيفت الى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها في النفوس هذا الوقع بحيث لا يتاح الإتيان بمثلها ولا يكاد يقع ذو فكر سليم وذهن مستقيم على شبهها، وقد شغلت هذه الكلمة كبار العلماء وأرباب الفصاحة وسنورد أقوالا منها، فقال ابن عباس: «هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها» وقال مجاهد: «هي مسارقة نظر الأعين الى ما قد نهى الله عنه» وقال الضحاك «هي قول الإنسان ما رأيت وقد رأى» وقال السدي: «إنه الرمز بالعين» وقال سفيان: «هو النظرة بعد النظرة» وقال الفراء: «**خائنة الأعين** هي النظرة الثانية وما تخفي الصدور النظرة الأولى» وقال ابن عباس: «وما تخفي الصدور أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا» وقيل «وما تخفي الصدور تكنه وتضمره» .." (٢)

---

(١) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٤٧٣/٨

(٢) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٤٧٥/٨

"عطف على أظلم (والمؤتفكة أهوى) الواو عاطفة والمؤتفكة مفعول مقدم لأهوى فتكون الجملة معطوفة ويجوز لك عطف المؤتفكة على ما قبله (فغشاها ما غشى) الفاء حرف عطف وغشاها فعل وفاعل مستتر وما موصول مفعول ثان لغشى وجملة غشى صلة ويجوز أن يكون غشى المشدد بمعنى المجرد فيتعدى لواحد ويكون الفاعل ما كقوله تعالى: «فغشيهم من اليم ما غشيهم» (فبأي آلاء ربك تتمارى) الفاء الفصيحة أي إن عرفت هذا كله فبأي آلاء ربك تتمارى والباء ظرفية والخطاب للسامع والجار والمجرور متعلقان بتتمارى أي تتشكك وهو استفهام إنكاري وأطلق على النعم والنقم لفظ الآلاء وهي النعم التي لا يتشكك فيها سامع لما في النقم من الزجر والوعظ لمن اعتبر وتدبر (هذا نذير من النذر الأولى) اسم الإشارة مبتدأ والإشارة إلى القرآن أو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ونذير خبر وتنوينه للتفخيم ومن النذر نعت لنذير والنذر إما جمع لاسم الفاعل إذا اعتبرنا نذيرا اسم فاعل غير قياسي أو للمصدر إذا اعتبرنا نذيرا مصدرا غير قياسي لأنه من أنذر وقياس اسم الفاعل منه منذر وقياس المصدر منه منذر والأولى نعت للنذر (أزفت الآزفة) فعل وفاعل أي قربت الموصوفة بالقرب وهي يوم القيامة (ليس لها من دون الله كاشفة) الجملة حال من الآزفة وليس فعل ماض ناقص ولها خبر مقدم ومن دون الله حال وكاشفة اسم ليس وهو تحتمل أن تكون وصفا أو مصدرا فإذا كانت وصفا فالتاء فيها للتأنيث لأنها عندئذ صفة لمحذوف أي نفس كاشفة أو حال كاشفة ويجوز أن تكون التاء فيها للمبالغة كعلامة ونسابة وأن تكون مصدرا كما قال الرماني وجماعته كالعاقبة **وخائنة الأعين** (أفمن هذا الحديث تعجبون) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء استئنافية ومن هذا متعلقان بتعجبون والحديث بدل من اسم الإشارة وتعجبون فعل مضارع مرفوع والعجب قد يكون للتكذيب وقد يكون للاستحسان والتصديق والأول هو المقصود بالإنكار." (١)

"الكاظمون أصحاب القلوب «١» .

٢٨ يصبكم بعض الذي يعدكم: هذا باب من النظر يذهب فيه إلى إلزام الحجة بأيسر الأمر، وليس فيه نفي الكل. قال الشاعر- وهو النابغة «٢» -:

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون من المستعجل الزلل

فكان مؤمن آل فرعون- وهو حزبيل «٣» -، وكان لفرعون بمنزلة ولي العهد قال: أقل ما يكون في صدقه: أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وفي بعض ذلك هلاككم.

١٩ **خائنة الأعين**: هو مسارقة النظر «٤» ، أو النظر إلى ما نهي عنه «٥» ، أي: يعلم الأعين الخائنة.

٤٦ يعرضون: تجلد «٦» جلودهم في النار غدوة وعشيا بهذه المقادير من ساعات الدنيا.

قال الحسن «٧» : وجميع أهل النار تعرض أرواحهم على النار غير

---

(١) معاني القرآن للزجاج: ٤/ ٣٦٩، وإعراب القرآن للنحاس: ٤/ ٢٩، والتبيان للعكبري: ٢/ ١١١٧.

(٢) كذا في الأصل ولم يرد اسمه في نسخة (ك) ، والصحيح أنه القطامي والبيت في ديوانه: ٢ من قصيدة طويلة، وبعده:

---

(١) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٣٦٨/٩

والناس من يلق خيرا قائلون له ... ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

(٣) نقله الماوردي في تفسيره: ٣/ ٤٨٥ عن الكلبي، وعزاه البغوي في تفسيره: ٤/ ٩٦ إلى ابن عباس رضي الله عنهما وأكثر العلماء.

وقيل في اسمه: «شمعان» بالشين المعجمة، قال السهيلي في التعريف والإعلام: ١٥١:

«وهو أصح ما قيل فيه» .

وانظر الاختلاف فيه في زاد المسير: ٧/ ٢١٧، وتفسير القرطبي: ١٥/ ٣٠٦.

(٤) نقله الماوردي في تفسيره: ٣/ ٤٨٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره البغوي في تفسيره: ٤/ ٩٥ دون عزو.

(٥) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: ٢٤/ ٥٤ عن مجاهد، وأورده السيوطي في الدر المنثور: ٧/ ٢٨٢ وزاد نسبته إلى عبد بن حميد، وابن المنذر عن مجاهد أيضا.

(٦) في «ج» : تجدد.

(٧) لم أقف على تخريج هذا الأثر.." [1]

"(٦٢) - قال رجل من المنافقين عن رؤساء المنافقين، الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فنزل فيهم ما نزل من القرآن: (إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإذا كان ما يقوله محمد حقا، لهم شر من الحمير) . فسمعه رجل مسلم فقال: إن محمدا لا يقول إلا حقا، ولأنت شر من الحمار) . ثم ذهب المسلم إلى رسول الله يحدثه بما جرى. فأرسل النبي إلى المنافق وسأله، وقال ما حملك على ما قلت؟ فأخذ المنافق يحلف بالله إنه ما قال ذلك. وقال الرجل المسلم: اللهم صدق الصادق، وكذب الكاذب. فأنزل الله هذه الآية الكريمة.

فهؤلاء المنافقون يحلفون لكم على أنهم ما قالوا ما نقل عنهم مما يورث أذى النبي ليرضوكم، فلا تخبروا النبي، مع أن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين، لأن الله لا يخفى عليه شيء، ويعلم **خائنة الأعين**. وما تخفي الصدور.." [2]

"﴿خائنة﴾

(١٩) - وهو تعالى يعلم كل شيء حتى إنه ليعلم العين الخائنة التي تنظر خلسة إلى ما لا يحل لها. ويعلم خبايا الصدور من الضمائر والسرائر، وما توسوس به النفس.

خائنة الأعين - النظرة الخائنة إلى ما لا يحل.." [3]

"سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ من خير وشر فهو تعالى فوق عرشه بائن من خلقه ويعلم سر عباده وجهرهم ويعلم أعمالهم وما يكتسبون بجوارحهم يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، لذا وجبت الرغبة فيما عنده من خير، والرهبة مما لديه من عذاب، ويحصل ذلك لهم بالإنابة إليه وعبادته والتوكل عليه.

---

(١) إيجاز البيان عن معاني القرآن النيسابوري، بيان الحق ٧٢٦/٢

(٢) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/١٢٩٨

(٣) أيسر التفاسير لأسعد حومد أسعد حومد ص/٤٠٣١

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١- وجوب حمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله.

٢- لا يصح حمد أحد بدون ما يوجد لديه من صفات الكمال ما يحمد عليه.

٣- التعجب من حال من يسوون المخلوقات بالخالق عز وجل في العبادة.

٤- التعجب من حال من يرى عجائب صنع الله ومظاهر قدرته ثم ينكر البعث والحياة الآخرة.

٥- صفة العلم لله تعالى وأنه تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء يعلم السر وأخفى.

وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤) فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون (٥) ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين (٦)." [1]

"معنى الآيات:

سبق أن ذكرنا أنه لقبح وفساد الزنى وسوء أثره على النفس والحياة البشرية وضع الشارع عدة أسباب واقية من الوقوع فيه ومنها الأمر بغض البصر للرجال والنساء فقوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا١ فن أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ أي مر يا رسولنا المؤمنين بأن يغضوا من٢ أبصارهم أي بأن يخفضوا أجفانهم على أعينهم حتى لا ينظروا إلى الأجنبيات عنهم من النساء ويحفظوا فروجهم عن النظر إليها فلا يكشفوها لأحد إلا ما كان من الزوج لزوجه فلا حرج وعدم النظر أولى وأطيب، وقوله: ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي أطهر لنفوسهم من نوافل العبادات، وقوله: ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ فليراقبوه تعالى في ذلك المأمور به من غض البصر وحفظ الفرج إنه يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

وقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن٣﴾ إذ شأنهن شأن الرجال في كل ما أمر به الرجال من غض البصر وحفظ الفرج وقوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ أي مرهن بغض البصر وحفظ الفرج وعدم إظهار الزينة ﴿إلا ما ظهر منها﴾ مما لا يمكنها ستره وإخفاؤه كالكفين عند تناول شيء أو إعطائه أو العينين تنظر بهما وإن كان في اليد خاتم وحناء وفي العينين كحل وكالثياب الظاهرة من خمار على الرأس وعباءة تستر الجسم فهذا معفو عنه إذ لا يمكنها ستره.

وقوله تعالى: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ كانت المرأة تضع خمارها على رأسها مسبلا على كتفيها فأمرت أن تضرب به على فتحات درعها حتى تستر العنق والصدر سترا كاملا وقوله: ﴿ولا يبدين زينتهن٤﴾ أعاد اللفظ ليرتب عليه ما بعده من المحارم الذي يباح للمؤمنة أن تبدي زينتها إليهم وهم الزوج، والأب والجد وان علا وأب الزوج وإن علا وابنها لان سفل وأبناء الزوج وإن نزلوا، والأخ لأب أو الشقيق أو لأم وأبناؤه وأن نزلوا، وابن الأخ

---

١ غض البصر واحترام النساء بعدم النظر إليهن معروف في الجاهلية وهذا عنترة بن شداد يقول:

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٢/٣٦

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي

حتى يواري جارتي مأواها؟

لم يذكر الله تعالى ما يغض البصر من أجله للعلم به وهو: وجود النساء الأجنبيات، وكذا ما يحفظ منه الفرج، وهو: النظر إليه والزنى واللواط.

٢ ﴿من﴾ جائز أن تكون زائدة في يغضوا أبصارهم، وجائز أن تكون للتبعيض لجواز النظر إلى المحارم.

٣ ورد في الأمر بغض البصر في السنة قوله صلى الله عليه وسلم "إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وقال لعلي رضي الله عنه "لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية".

٤ قال ابن عطية: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية: أن المرأة مأمورة بأن لا تبدي وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر لحكم ضرورة حركة فيما لابد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك فيما ظهر على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه.." [(١)]

"هداية الآيات

من هداية الآيات:

١- عدم جدوى الاعتذار يوم القيامة هذا فيما لو أذن للعبد أن يعتذر فلا ينفعه اعتذار.

٢- تقرير التوحيد وإبطال الشرك والتنديد.

٣- بيان إفضال الله على العباد إذ يريهم آياته لهدايتهم ويرزقهم وهم يكفرون به.

٤- وجوب إخلاص الدعاء وسائر العبادات لله وحد ولو كره ذلك المشركون.

٥- تقرير النبوة، وبيان الحكمة فيها وهي إنذار الناس من عذاب يوم القيامة حيث الناس بارزون لله لا يخفى على الله منهم شيء فيحاسبهم بعلمه وعدله فلا ينقضي نهار إلا وقد استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار اللهم أعذنا من نار جهنم.

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

شرح الكلمات:

يوم الآزفة: أي يوم القيامة.

إذ القلوب لدى الحناجر: أي من شدة الخوف تكون القلوب قد ارتفعت حتى وصلت عند الحناجر.

كاظمين: أي لقلوبهم يريدون ردها فلم يقدروا.

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٣/٥٦٦

ما لظالمين من حميم: أي ليس للمشركين من محب قريبا كان أو بعيدا.

يعلم **خائنة الأعين**: أي الله تعالى يعلم العين إذا سرقت النظر إلى محرم.

والله يقضي بالحق: أي لكمال قدرته وعلمه يحكم بالحق.

والذين يدعون من دونه: أي والذين يدعوهم مشركو قريش من أصنام لا يقضون بشيء عدلا كان أو جورا لأنهم أصنام لا تسمع ولا تبصر.." (١)

"معنى الآيات:

بعد بيان الموقف الصعب في عرصات القيامة في الآيات السابقة قال تعالى لرسوله ﴿وأنذرهم﴾ يا رسولنا أي خوف قومك ﴿يوم الآزفة﴾ (١) وهي يوم القيامة القريبة والتي قد قربت فعلا وكل ما هو آت قريب أنذرهم قربها حتى لا يوافوها بالشرك والمعاصي فيخسروا خسرانا مبينا، أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب (٢) من شدة الخوف ترتفع إلى الحناجر (٣) وهم يكظمونها فلا هي تخرج فيموتوا ولا هي تعود إلى أماكنها فيستريحوا.

﴿ما للظالمين﴾ وهم أهل الشرك والمعاصي ﴿من حميم﴾ قريب أو حبيب يدفع عنهم العذاب ﴿ولا شفيع﴾ يشفع لهم وتقبل شفاعته ويطاع فيها لا ذا ولا ذاك يا لفظاعة الحال وقوله تعالى: ﴿يعلم **خائنة الأعين** (٤) ﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه وواسع اطلاعه أنه يعلم **خائنة الأعين** وهي العين تسترق النظر إلى المحارم، ويعلم ﴿وما تخفي الصدور (٥) ﴾ أي وما تكتمه صدور العباد وما تضمره من خير وشر، ولذا فسوف يكون الحساب دقيقا ومن نوقش الحساب عذب. ﴿والله يقضي بالحق﴾ أي يحكم بالعدل، ﴿والذين يدعون من (٦) دونه﴾ أي والذين يعبدهم المشركون من أصنام وأوثان ﴿لا يقضون بشيء (٧) ﴾ لأنهم لا يسمعون ولا يبصرون.

وقوله ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ السميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم فلذا إذا حكم يحكم بالحق ويقدر على إنفاذ الحكم فيجزي السيئة بالسيئة والحسنة بعشر أمثالها.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١- بيان هول يوم القيامة وصعوبة الموقف فيه.

١- يقال أزف فلان يأزف أزفا قال النابغة:

أزف الترحل غير أن ركابنا

لما تزل برحالنا وكأن قد

٢- القلوب: جمع قلب وهو البضعة الصنوبرية الشكل التي تتحرك دائما ما دام الجسم حيا تدفع الدم إلى الشرايين التي بها حياة الجسم.

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٥٢٢/٤

٣- الحناجر جمع حنجرة بفتح الحاء والجيم وهي الحلقوم.

٤- أي الله جل جلاله يعلم الأعين الخائنة قال ابن عباس رضي الله عنهما هو الرجل يكون جالسا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها.

٥- قال ابن عباس وما تخفي الصدور أي هل يزني بها من سرق النظر إليها لو خلا بها أو لا.

٦- قرأ نافع تدعون بالتاء وقرأ حفص بالياء يدعون.

٧- من جملتي والله يقضي بالحق وجملة والذين يدعون من دونه قبلها تألف قصر القضاء على الله تعالى قصر قلب أي دون الأصنام. كما أفيد القصر من ضم الجملتين في قوله الشاعر:

تسيل على حد الظبات نفوسا

وليست على غير الظبات تسيل." (١)

"٢- انعدام الحميم والشفيع للظالمين يوم القيامة.

٣- بيان سعة علم الله تعالى حتى إنه يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

٤- قضاء الله عدل وحكمه نافذ وذلك لكمال علمه وقدرته.

أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)

شرح الكلمات:

أو لم يسيروا في الأرض: أي أغفل كفار قريش ولم يسيروا في الأرض.

فينظروا: أي بأعينهم.

كيف كان عاقبة الذين من قبلهم: إنها كانت دمارا وخسارا ووبالا عليهم.

كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض: ولم يغن ذلك عنهم من الله شيئا.

فأخذهم الله بذنوبهم: أي عاقبهم بذنوبهم فدمرهم وأهلكهم.

وما كان لهم من الله من واق: أي ولم يوجد لهم من عقاب الله من واق يقيهم منه.

ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات: أي بالحجج والبراهين والأدلة والمعجزات.

فكفروا: أي بتلك الحجج والآيات.

فأخذهم الله: أي لما كفروا أخذهم بكفرهم.

إنه قوي شديد العقاب: هذا تعليل لأخذه إياهم." (٢)

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٥٢٣/٤

(٢) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٥٢٤/٤

"وقال الرماني وجماعة: ويحتمل أن يكون مصدرا، كالعاقبة، **وخائنة الأعين**، أي ليس لها كشف من دون الله. وقيل: يحتمل أن يكون التقدير حال كاشفة. أفمن هذا الحديث. وهو القرآن، تعجبون فتنكرون، وتضحكون مستهزئين، ولا تبكون جزعا من وعيده. وأنتم سامدون، قال مجاهد: معرضون. وقال عكرمة:

لاهون. وقال قتادة: غافلون. وقال السدي: مستكبرون. وقال ابن عباس: ساهون. وقال المبرد: جامدون، وكانوا إذا سمعوا القرآن غنوا تشاغلا عنه.

وروي أنه عليه الصلاة والسلام لم ير ضاحكا بعد نزولها.

فاسجدوا: أي صلوا له، واعبدوا: أي أفردوه بالعبادة، ولا تعبدوا اللات والعزى ومناة والشعرى وغيرها من الأصنام.

وخرج البغوي بإسناد متصل إلى عبد الله، قال: أول سورة نزلت فيها السجدة النجم، فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسجد من خلفه إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا، والرجل أمية بن خلف.

وروي أن المشركين سجدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي حرف أبي وعبد الله: تضحكون بغير واو.

وقرأ الحسن: تعجبون تضحكون، بغير واو وبضم التاء وكسر الجيم والحاء. وفي قوله:

ولا تبكون، حض على البكاء عند سماع القرآن. والسجود هنا عند كثير من أهل العلم، منهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، ووردت به أحاديث صحاح، وليس يراها مالك هنا.

وعن زيد بن ثابت: أنه قرأ بها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يسجد

، والله تعالى أعلم.." (١)

"انتهى، وهو تكثير وإسهاب. وقدره ابن عطية حال كاذبة، قال: ويحتمل الكلام على هذا معنيين: أحدهما كاذبة، أي مكذوب فيما أخبر به عنها، فسماها كاذبة لهذا، كما تقول:

هذه قصة كاذبة، أي مكذوب فيها. والثاني: حال كاذبة، أي لا يمضي وقوعها، كما تقول:

فلان إذا حمل لم يكذب. وقال قتادة والحسن المعنى: ليس لها تكذيب ولا رد ولا منثوية، فكاذبة على هذا مصدر، كالعاقبة والعافية **وخائنة الأعين**. والجملة من قوله: ليس لوقعتها كاذبة على ما قدره الزمخشري من أن إذا معمولة لليس يكون ابتداء السورة، إلا إن اعتقد أنها جواب لإذا، أو منصوبة باذكر، فلا يكون ابتداء كلام. وقال ابن عطية: في موضع الحال، والذي يظهر لي أنها جملة اعتراض بين الشرط وجوابه.

وقرأ الجمهور: خافضة رافعة برفعهما، على تقدير هي وزيد بن علي والحسن وعيسى وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن مقسم والزعفراني واليزيدي في اختياره بنصبهما. قال ابن خالويه: قال الكسائي: لولا أن اليزيدي سبقني إليه لقرأت به، ونصبهما على الحال.

قال ابن عطية: بعد الحال التي هي ليس لوقعتها كاذبة، ولك أن تتابع الأحوال، كما لك أن تتابع أخبار المبتدأ. والقراءة

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٢٩/١٠

الأولى أشهر وأبدع معنى، وذلك أن موقع الحال من الكلام موقع ما لو لم يذكر لاستغني عنه، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما يتهم به. انتهى. وهذا الذي قاله سبقه إليه أبو الفضل الرازي. قال في كتاب اللوامح: وذو الحال الواقعة والعامل وقعت، ويجوز أن يكون ليس لوقعتها كاذبة حال أخرى من الواقعة بتقدير: إذا وقعت صادقة الواقعة، فهذه ثلاثة أحوال من ذي حال، وجازت أحوال مختلفة عن واحد، كما جازت عنه نعوت متضادة وأخبار كثيرة عن مبتدأ واحد. وإذا جعلت هذه كلها أحوالا، كان العامل في إذا وقعت محذوفا يدل عليه الفحوى بتقدير يحاسبون ونحوه. انتهى. وتعداد الأحوال والأخبار فيه خلاف وتفصيل ذكر في النحو، فليس ذلك مما أجمع عليه النحاة.

قال الجمهور: القيامة تنفظر له السماء والأرض والجبال، وتنهد له هذه البنية برفع طائفة من الأجرام وبخفض أخرى، فكأنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب. وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك: الصيحة تخفض قوتها لتسمع الأدنى، وترفعها لتسمع الأقصى.

وقال قتادة وعثمان بن عبد الله بن سراقة: القيامة تخفض أقواما إلى النار، وترفع أقواما إلى الجنة وأخذ الزمخشري هذه الأقوال على عادته وكساها بعض ألفاظ رائعة، فقال: ترفع أقواما وتضع آخرين، إما وصفا لها بالشدة، لأن الواقعات العظام كذلك يرتفع فيها ناس إلى." (١)

"ضميرا تقديره: هو، أي: الغريم، يدل على إضماره ما تقدم من الكلام، لأن المرابي لا بد له ممن يرابيه.

وقرىء: ومن كان ذا عسرة، وهي قراءة أبان بن عثمان. وحكى المهدوي أن في مصحف عثمان: فإن كان، بالفاء، فمن نصب ذا عسرة أو قرأ معسرا، وذلك بعد: إن كان، فقيل: يختص بأهل الربا. ومن رفع فهو عام في جميع من عليه دين وليس بلازم، لأن الآية إنما سيقت في أهل الربا، وفيهم نزلت.

وقيل: ظاهر الآية يدل على أن الأصل الإيسار، وأن العدم طارئ جاذب يحتاج إلى أن يثبت.

فنظرة إلى ميسرة قرأ الجمهور: فنظرة، على وزن نبقة. وقرأ أبو رجاء، ومجاهد، والحسن، والضحاك، وقتادة: بسكون الظاء وهي لغة تميمية، يقولون في: كبد كبد. وقرأ عطاء: فناظرة، على وزن: فاعلة وخرجه الزجاج على أنها مصدر كقوله تعالى: ليس لوقعتها كاذبة «١» وكقوله: تظن أن يفعل بها فاقرة «٢» وكقوله: يعلم خائنة الأعين «٣» وقال: قرأ عطاء: فناظرة، بمعنى: فصاحب الحق ناظره، أي: منتظره، أو:

صاحب نظرته، على طريقة النسب، كقولهم: مكان عاشب، وباقل، بمعنى: ذو عشب وذو بقل. وعنه: فناظره، على الأمر بمعنى: فسامحه بالنظرة، وباشره بها. انتهى. ونقلها ابن عطية. وعن مجاهد: جعلاه أمرا، والهاء ضمير الغريم. وقرأ عبد الله: فناظروه، أي:

فأنتم ناظروه. أي: فأنتم منتظروه.

فهذه ست قراءات، ومن جعله اسم مصدر أو مصدرا فهو يرتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: فالأمر والواجب على صاحب الدين نظرة منه لطلب الدين من المدين إلى ميسرة منه.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ١٠/٧٧

وقرأ نافع وحده: ميسرة، بضم السين، والضم لغة أهل الحجاز، وهو قليل كمقبرة، ومشرفة، ومسربة. والكثير مفعلة بفتح العين. وقرأ الجمهور بفتح السين على اللغة الكثيرة، وهي لغة أهل نجد. وقرأ عبد الله: إلى ميسوره، على وزن مفعول مضافا إلى ضمير الغريم، وهو عند الأخفش مصدر كالمعقول والمجلود في قولهم: ما له معقول

---

(١) سورة الواقعة: ٥٦/ ٢.

(٢) سورة القيامة: ٧٥/ ٢٥.

(٣) سورة غافر: ٤٠/ ١٩.." [1]

"وهذا معنى ما قاله ابن عباس ومجاهد وابن زيد قالوا: لو أتيناهم بآية كما سألوا لقلبنا أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها، وحلنا بينهم وبين الهدى فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها، عقوبة لهم على ذلك. والفرق بين هذا القول والذي بدأنا به أولا أن ذلك استئناف إخبار بما يفعل بهم تعالى في الدنيا. وهذا إخبار على تقدير مجيء الآية المقترحة فذلك واقع وهذا غير واقع، لأن الآية المقترحة لم تقع فلم يقع ما رتب عليها.

وقال مقاتل: نقلب أفئدة هؤلاء وأبصارهم عن الإيمان وعن الآيات كما لم يؤمن أوائلهم من الأمم الخالية بما رأوا من الآيات.

وقيل: تقليبها بإزعاج نفوسهم هما وغما.

وقال الكرماني: معناه أنا نحيط علما بذات الصدور **وخائنة الأعين** منهم انتهى.

ولا يستقيم هذا التفسير لقوله: كما لم يؤمنوا به أول مرة لا على التعليل ولا على التشبيه إلا إن جعل متعلقا بقوله أنها إذا جاءت لا يؤمنون أي كما لم يؤمنوا به أول مرة فيصح على بعد في تفسير التقليب بإحاطة العلم.

وقال الكعبي: المراد أنا لا نفعل بهم ما نفعل بالمؤمنين من الفوائد والألطاف من حيث أخرجوا أنفسهم عن الهداية بسبب الكفر انتهى.

وهو على طريقة الاعتزالي ومعنى تقليب القلب والبصر ما ينشأ عن القلب والبصر من الدواعي إلى الحيرة والضلال، لأن القلب والبصر يتقلبان بأنفسهما فنسبة التقليب إليهما مجاز. وقدمت الأفئدة لأن موضع الدواعي والصوارف هو القلب فإذا حصلت الداعية في القلب انصرف البصر إليه شاء أم أبى، وإذا حصلت الصوارف في القلب انصرف البصر عنه وإن كان تحدق النظر إليه ظاهرا وهذه التفاسير على أن ذلك في الدنيا.

وقالت فرقة: إن ذلك إخبار من الله تعالى يفعل بهم ذلك في الآخرة.

فروي عن ابن عباس أنه جواب لسؤالهم في الآخرة الرجوع إلى الدنيا. والمعنى لو ردوا لحلنا بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا انتهى. وهذا ينبو عنه تركيب الكلام.

وقيل: تقليبها في النار في جهنم على لهيبها وجمرها ليعذبوا كما لم يؤمنوا به أول مرة يعني في الدنيا وقاله الجبائي.." [2]

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٧١٧/٢

(٢) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٦١٧/٤

"ولقائل أن يقول هذا الاستدلال بالعكس أولى، لأنه تعالى لما بين أنه لا يغفر لهم ألبتة ثبت أن الحال فيما وراء العدد مساو للحال في العدد، وذلك يدل على أن التقييد بالعدد لا يوجب أن يكون الحكم فيما رآه بخلافه.

قال الزمخشري: (فإن قلت) : كيف خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته، والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار كيف؟

وقد تلاه بقوله تعالى ذلك بأنهم كفروا الآية، فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى

قال: «رخص لي ربي فأزيد على السبعين» ؟

(قلت) : لم يخف عليه صلى الله عليه وسلم ذلك، ولكنه خيل بما قال إظهارا لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه كما قال إبراهيم عليه السلام: ومن عصاني فإنك غفور رحيم «١» وفي إظهار النبي صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة لطف لأمته، ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض انتهى. وفي هذا السؤال والجواب. غض من منصب النبوة، وسوء أدب على الأنبياء، ونسبته إليهم ما لا يليق بهم. وإذا

كان صلى الله عليه وسلم يقول: «لم يكن لنبي **خائنة الأعين**»

أو كما قال: وهي الإشارة، فكيف يكون له النطق بشيء على سبيل التحييل؟

حاشا منصب الأنبياء عن ذلك، ولكن هذا الرجل مسرح الألفاظ في حق الأنبياء بما لا يليق بحالهم، ولقد تكلم عند تفسير قوله: عفا الله عنك لم أذنت لهم «٢» بكلام في حق الرسول نزهت كتابي هذا أن أنقله فيه، والله تعالى يعصمنا من الزلل في القول والعمل، ذلك إشارة إلى انتفاء الغفران وتبيين العلة الموجبة لذلك، وانتفاء هداية الله الفاسقين هو للذين حتم لهم بذلك، فهو عام مخصوص.

فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون: لما ذكر تعالى ما ظهر من النفاق والهزء من الذين خرجوا معه إلى غزوة تبوك من المنافقين، ذكر حال المنافقين الذين لم يخرجوا معه وتخلفوا عن الجهاد، واعتذروا بأعذار وعلل كاذبة، حتى أذن لهم، فكشف الله للرسول صلى الله عليه وسلم عن أحوالهم وأعلمه بسوء فعالهم، فأنزل الله عليه: فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله الآية: أي: عن غزوة تبوك. وكان الرسول قد خلفهم بالمدينة لما اعتذروا، فأذن لهم. وهذه الآية تقتضي التوبيخ والوعيد. ولفظة المخلفون تقتضي الذم والتحقير، ولذلك

---

(١) سورة إبراهيم: ١٤/ ٣٦.

(٢) سورة التوبة: ٩/ ٤٣.." [١]

"سورة غافر

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٤٧٣/٥

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١ الى ٨٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير (٣) ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد (٤)

كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار (٦) الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٨) وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٩)

إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون (١٠) قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤)

رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩)

والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤)

فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦) وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب (٢٧) وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨) يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد (٢٩)

وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب (٣٠) مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما

الله يريد ظلما للعباد (٣١) ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد (٣٢) يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد (٣٣) ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (٣٤)

الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار (٣٥) وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب (٣٦) أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب (٣٧) وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٣٩)

من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار (٤١) تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (٤٢) لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)

فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب (٤٥) النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (٤٦) وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (٤٧) قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد (٤٨) وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (٤٩)

قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (٥٠) إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (٥١) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (٥٢) ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤)

فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار (٥٥) إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥٧) وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨) إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩)

وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٤)

هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥) قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين (٦٦) هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون (٦٧) هو

الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (٦٨) ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤)

ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦) فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون (٧٧) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون (٧٨) الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون (٧٩)

ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون (٨٠) ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون (٨١) أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤)

فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥)." (١)

"على الأولين والآخرين، وآيات الإعجاز على أيدي رسله. وهذه الآيات راجعة إلى نور العقل الداعي إلى توحيد الله. ثم قال: وينزل لكم من السماء رزقا، وهو المطر الذي هو سبب قوام بنية البدن، فتلك الآيات للأديان كهذا الرزق للأبدان. وما يتذكر: أي يتعظ ويعتبر، وجعله تذكرا لأنه مركوز في العقول دلائل التوحيد، ثم قد يعرض الاشتغال بعبادة غير الله فيمنع من تجلي نور العقل، فإذا تاب إلى الله تذكر.

فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب، وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير، أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب.

الأمر بقوله: فادعوا الله للمنيبين المؤمنين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي اعبدوه، مخلصين له الدين من الشرك على كل حال، حتى في حال غيظ أعدائكم المتمالئين عليكم وعلى استئصالكم. ورفيع: خبر مبتدأ محذوف. وقال الزمخشري: ثلاثة أخبار مترتبة على قوله: الذي يريكم «١» ، أو أخبار مبتدأ محذوف، وهي مختلفة تعريفا وتنكيرا. انتهى. أما ترتبها

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٢٢٦/٩

على قوله: هو الذي يريكم، فبعيد كطول الفصل، وأما كونها أخبارا لمبتدأ محذوف، فمبني على جواز تعدد الأخبار، إذا لم تكن في معنى خبر واحد، والمنع اختيار أصحابنا. وقرىء: رفيع بالنصب على المدح، واحتمل أن يكون رفيع للمبالغة على فعيل من رافع، فيكون الدرجات مفعولة، أي رافع درجات المؤمنين ومنازلهم في الجنة. وبه فسر ابن سلام، أو عبر بالدرجات عن السموات، أرفعها سماء فوق سماء، والعرش فوقهن. وبه فسر ابن جبير، واحتمل أن يكون رفيع فعيلا من رفع الشيء علا فهو رفيع، فيكون من باب الصفة المشبهة، والدرجات: المصاعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش، أضيفت إليه دلالة على عزه وسلطانه، أي درجات ملائكته، كما وصفه بقوله:

(١) سورة الرعد: ١٣/ ١٢.." (١)

"موضع خفض على اللفظ، وفي موضع رفع على الموضع، واحتمل أن ينسحب النفي على الوصف فقط، فيكون من شفيع، ولكنه لا يطاع، أي لا تقبل شفاعته، واحتمل أن ينسحب النفي على الموصوف وصفته: أي لا شفيع فيطاع، وهذا هو المقصود في الآية أن الشفيع عند الله إنما يكون من أوليائه تعالى، ولا تكون الشفاعة إلا لمن ارتضاه الله وأيضا فيكون في زيادة التفضل والثواب ولا يمكن شيء من هذا في حق الكافر. وعن الحسن: والله لا يكون لهم شفيع ألبتة، يعلم **خائنة الأعين**، كقوله:

وإن سقيت كرام الناس فاسقينا أي الناس الكرام، وجوزوا أن تكون خائنة مصدرا، كالعافية والعاقبة، أي يعلم خيانة الأعين.
ولما كانت الأفعال التي يقصد بها التكتم بدنية، فأخفاها **خائنة الأعين** من كسر جفن وغمز ونظر يفهم معنى ويريد صاحب معنى آخر وقلب، وهو ما تحتوي عليه الضمائر، قسم ما ينكتم به إلى هذين القسمين، وذكر أن علمه متعلق بهما التعلق التام. وقال الزمخشري: ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين، لأن قوله: وما تخفي الصدور لا يساعد عليه. انتهى، يعني أنه لا يناسب أن يكون مقابل المعنى إلا المعنى، وتقدم أن الظاهر أن يكون التقدير الأعين الخائنة، والظاهر أن قوله: يعلم **خائنة الأعين** الآية متصل بما قبله، لما أمر بإنكاره يوم الآزفة، وما يعرض فيه من شدة الكرب والغم، وأن الظالم لا يجد من يحميه من ذلك، ولا من يشفع له.
ذكر اطلاعه تعالى على جميع ما يصدر من العبد، وأنه مجازى بما عمل، ليكون على حذر من ذلك اليوم إذا علم إن الله مطلع على أعماله. وقال ابن عطية: يعلم **خائنة الأعين** متصل بقوله: سريع الحساب، لأن سرعة حسابه للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكر، ولا لشيء مما يحتاجه المحاسبون. وقالت فرقة: يعلم متصل بقوله: لا يخفى على الله منهم شيء، وهذا قول حسن، يقويه تناسب المعنيين، ويضعفه بعد الآية من الآية وكثرة الحائل. انتهى. وقال الزمخشري: فإن قلت: بم اتصل قوله: يعلم **خائنة الأعين؟** قلت: هو خبر من أخبار هو في قوله: هو الذي يريكم البرق «١» ، مثل: يلقي الروح، ولكن من يلقي الروح قد علل بقوله: لينذر يوم التلاق، ثم أسقط

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٢٤٣/٩

(١) سورة الرعد: ١٣/ ١٢.." (١)

"وتذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله: ولا شفيع يطاع، فبعد لذلك عن إخوانه. انتهى.

وفي بعض الكتب المنزلة، أنا مرصاد الهمم، أنا العالم بجال الفكر وكسر العيون. وقال مجاهد: **خائنة الأعين**: مسارقة النظر إلى ما لا يجوز ومثل المفسرون **خائنة الأعين** بالنظر الثاني إلى حرمة غير الناظر، وما تخفي الصدور بالنظر الأول الذي لا يمكن رفعه.

والله يقضي بالحق: هذا يوجب عظيم الخوف، لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال لا يقضي إلا بالحق في ما دق وجل خافه الخلق غاية. والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء: هذا قدح في أصنامهم وتهكم بهم، لأن ما لا يوصف بالقدرة، لا يقال فيه يقضي ولا يقضي. وقرأ الجمهور: يدعون بياء الغيبة لتناسب الضمائر الغائبة قبل.

وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع: بخلاف عنه وهشام: تدعون بتاء الخطاب، أي قل لهم يا محمد. إن الله هو السميع البصير: تقرير لقوله: يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، وعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون وتعريض بأصنامهم أنها لا تسمع ولا تبصر. أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم: أحال قريشا على الاعتبار بالسير، وجاز أن يكون فينظروا مجزوما عطفا على يسيروا وأن يكون منصوبا على جواب النفي، كما قال:

ألم تسأل فتخبرك الرسوم وتقدم الكلام على مثل هذه الجملة، وحمل الزمخشري هم على أن يكون فصلا ولا يتعين، إذ يجوز أن يكون هم توكيدا لضمير كانوا. وقرأ الجمهور: منهم بضمير الغيبة وابن عامر: منكم بضمير الخطاب على سبيل الالتفات.

وآثارا في الأرض: معطوف على قوة، أي مبانيهم وحصونهم وعددهم كانت في غاية الشدة. وتنحتون من الجبال بيوتا «١» . وقال الزمخشري: أو أرادوا أكثر آثارا لقوله:

متقلدا سيفا ورمحا انتهى. أي: ومعتقلا رمحا، ولا حاجة إلى ادعاء الحذف مع صحة المعنى بدونه. من واق: أي وما كان لهم من عذاب الله من ساتر يمنعهم منه. ذلك: أي الأخذ، وتقدم تفسير نظير ذلك.

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر

---

(١) سورة الشعراء: ٢٦/ ١٤٩.." (٢)

"يقول الحق جل جلاله: قل للمؤمنين، ويندرج فيهم المستأذنون بعد دخولهم البيوت اندراجا أوليا، أي: قل لهم: يغضوا من أبصارهم، و «من» : للتبعيض، والمراد: غض البصر عما يحرم، والاقتصار على ما يحل. ووجه المرأة وكفاها ليس بعورة، إلا خوف الفتنة، فيحل للرجل الصالح أن يرى وجه الأجنبية بغير شهوة. وفي الموطأ: هل تأكل المرأة مع غير ذي محرم، أو مع غلامها؟ قال مالك: لا بأس بذلك، على وجه ما يعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال، وقد تأكل المرأة مع

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٩/٢٤٧

(٢) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٩/٢٤٨

زوجها ومع غيره ممن يؤاكله. هـ. وقال ابن القطان: فيه إباحة إبداء المرأة وجهها ويديها للأجنبي، إذ لا يتصور الأكل إلا هكذا، وقد أبقاه الباجي على ظاهره، وقال عياض: ليس بواجب أن تستر المرأة وجهها، وإنما ذلك استحباب أو سنة لها، وعلى الرجل غض بصره. ثم قال في الإكمال: ولا خلاف أن فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم. هـ.

وقل لهم أيضا: يحفظوا فروجهم، إلا على أزواجهم، أو ما ملكت إيمانهم، وتقييد الغض بمن التبعيضية، دون حفظ الفروج لما في النظر من السعة، فيجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفيها وقدميها، وإلى رأس المحارم والصدور والساقين والعضدين. قاله النسفي. قلت: ومذهب مالك: حرمة نظر الساقين والعضدين من المحرم، فإن تعذر التحرر منه، كشغل البنات في الدار، باديات الأرجل، فليتمسك بقول الحنفي، إن لم يقدر على غض بصره. قاله شيخنا الجنوي.

ذلك أزكى لهم أي: أطهر لهم من دنس الإثم أو الريبة، إن الله خبير بما يصنعون، وفيه ترغيب وترهيب، يعني: أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم، فكيف يجيلون أبصارهم، وهو يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور؟! فعليهم، إذا عرفوا ذلك، أن يكونوا منه على حذر.." (١)

"يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، هو وحي أحكام للأنبياء، ووحي إلهام للأولياء، فيحيي الله بهم الدين في كل زمان، وقال القشيري: بعد كلام: ويقال: روح النبوة، وروح الرسالة، وروح الولاية، وروح المعرفة.

هـ. والمراد بالروح: مطلق الوحي، لينذر الداعي يوم التلاقي، فيحصل اللقاء السرمدي مع الحبيب للمقربين، ويحصل الافتراق والبعد للغافلين، حين تبرز الخلائق بين يدي الله، لا دعوى لأحد يومئذ، فيقول الحق تعالى: لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار.

قال القشيري: لا يتقيد ملكه بيوم، ولا يختص بوقت، ولكن دعاوى الخلق- اليوم- لا أصل لها، ترتفع غدا، وتنقطع تلك الأوهام. هـ. ومثله في الإحياء، وأنه إذا كشف الغطاء شهد الأمر كذلك، كما كان كل يوم، لا في خصوص ذلك اليوم. فإذا حصل للعبد مقام الفناء، لم ير في الدارين إلا الله، فيقول: لمن الملك اليوم؟ فيجيب: لله الواحد القهار. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من التقريب أو الإبعاد. قال القشيري: يجازيهم على أعمالهم الجنان، وعلى أحوالهم الرضوان، وعلى أنفاسهم- أي: على حفظ أنفاسهم- القرب، وعلى محبتهم الرؤية، ويجازي المذنبين على توبتهم الغفران، وعلى بكائهم الضياء والشفاء. هـ. لا ظلم اليوم، بل كل واحد يرتفع على قدر سعيه اليوم.

وقوله تعالى: إن الله سريع الحساب قال القشيري: وسريع الحساب مع أوليائه في الحال، يطالبهم بالنقير والقطمير. هـ. قلت: يدقق عليهم الحساب في الحال، ويرفع مقدارهم في المآل. وبالله التوفيق.

ثم حذر من هول ذلك اليوم، فقال:

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٠]

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٠/٤

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

يقول الحق جل جلاله: وأنذرهم يوم الآزفة أي: القيامة، سميت بها لأزوفها، أي: قربها. فالأزوف والازدلاف هو القرب، غير أن فيه إشعارا بضيق الوقت، أو الخطة الأزفة، وهي مشارفة أهل النار لدخولها، ثم أبدل من يوم الآزفة قوله: إذ القلوب لدى الحناجر أي: التراقي، يعني: ترتفع قلوبهم عن مقارها، فتلتصق." (١)

"بحناجرهم من الرعب، فلا هي تخرج فيموتوا فيستريحوا، ولا ترجع إلى مقارها فيتروحوا. حال كونهم كاظمين ممسكين الغيظ بحناجرهم، أو: ممسكين قلوبهم بحناجرهم، يرومون ردها لئلا تخرج، فهو حال من القلوب، وجمعت جمع السلامة لوصفها بالكظم، وهو من أوصاف العقلاء، أو: من أصحاب القلوب إذ الأصل:

قلوبهم، أو: من ضميرها في الظرف، ما للظالمين من حميم أي: قريب مشفق ولا شفيع يطاع أي: ولا شفيع تقبل شفاعته، فالمراد: نفي الشفاعة والطاعة، كقول الشاعر:

ولا ترى الضب فيها ينجحر «١» يريد به: نفي الضب وانجحاره. وكقول الآخر:

على لاحب لا يهتدى بمناره «٢» وإن احتمل اللفظ نفي الطاعة دون الشفاعة. فعن الحسن البصري: «والله ما يكون لهم شفيع ألبتة» . ووضع «الظالمين» موضع الضمير للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم به.

يعلم **خائنة الأعين** أي: النظرة الخائنة، كاستراق النظر إلى ما لا يحل. قيل: فيه تقديم وتأخير، أي: الأعين الخائنة، وقيل: مصدر، كالعافية، أي: خيانة الأعين. قال ابن عباس رضي الله عنه: هو الرجل يكون جالسا مع القوم، فتمر المرأة، فيسارقهم النظر إليها «٣» . هـ. وقال ابن عطية: متصل بقوله: سريع الحساب، فيحاسب على خيانة الأعين، وقالت فرقة: متصل بقوله: لا يخفى على الله منهم شيء، وهذا حسن، يقويه تناسب المعنيين، ويبعده بعد الآية من الآية، وكثرة الحائل. والحاصل: أنه متصل بما تقدم من ذكر الله ووصفه، واعترض في أثناء ذلك بوصف القيامة لما استطرد إليه من قوله: لينذر يوم التلاق الآية. قاله المحشى. ويعلم ما تخفي الصدور أي: ما تكنه من خيانة وأمانة. وقيل: هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة، ثم يتفكر بقلبه في جمالها، ولا يعلم بنظرته وفكرته من حضره، والله يعلم ذلك كله.

والله يقضي بالحق أي: ومن هذه صفاته لا يقضي إلا بالعدل، فيجازي كلا بما يستحقه إذ لا يخفى عليه خفي ولا جلي، والذين يدعون يعبدونهم من دونه من الآلهة لا يقضون بشيء، وهذا

---

(١) عجز بيت، صدره: لا تفزع الأرنب أهوالها.

(٢) هذا صدر بيت عجزه: [إذا سافه النباطى جرجرا] . وهو من قصيدة لامرئ القيس فى ديوانه (٦٦) . وصدر البيت فى لسان العرب (لحف ٥/ ٤٠٠٩) . واللحب: الطريق الواسع، من لحبه: إذا وطئه ومر فيه، والمنار: ما يعلم به الطريق.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٢٢/٥

والشاهد فى البيت: نفى الاهتداء بالمنار، والمقصود: نفى المنار، فلا منار ولا هداية.

(٣) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٦٥٣) لسعيد بن منصور، وابن أبى شيبة وابن النذر وابن أبى حاتم.." [١]

"تهكم بهم لأن الجماد الذي لا يعقل لا يقال فيه: يقضي ولا يقضي، وقرأ نافع بالخطاب أو: على إضمار «قل» ، إن الله هو السميع البصير تقرير لقوله: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ووعيد لهم لأنه يسمع ما يقولون، ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه، وتعريض بما يدعون من دون الله، بأنها لا تسمع ولا تبصر.

الإشارة: قال القشيري: قيامة الكل مؤجلة، وقيامة المحبين معجلة، في كل نفس من العتاب والعذاب، والبعاد والاقتراب، ما لم يكن في حساب، وشهادة الأعضاء بالدمع تشهد، وخفقان القلب ينطق، والنحول يخبر، واللون يفضح، والعبد يستر، ولكن البلاء يظهر، قال:

يا من تغير صورتي لما بدا ... لجميع ما ظنوا بنا تحقيق هـ. «١»

وقوله تعالى: إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، هو في حق من فاته التأهب والترقي في هذه الدار، فتحسر حين يعاين مقامات الرجال، وليس له شفيع يرقيه، ولا حميم يصافيه. وقوله تعالى: يعلم خائنة الأعين هو في حق العارفين: النظر إلى السوى بعين الاستحسان. قال القشيري: خائنة الأعين هي من المحبين استحسانهم شيئا- أي: من السوى- وأنشدوا:

يا قرة العين: سل عيني هل اكتحلت ... بمنظر حسن مذ غبت عن عيني؟

وأنشد أيضا:

وعيني إذا استحسنت غيركم ... أمرت الدمع بتأديبها «٢»

قلت: ومثله قول الشاعر:

وناظر في سوى معناك حق له ... يقتص من جفنه بالدمع وهو دم

والسمع إن حال فيه ما يحدثه ... سوى حديثك، أمسى وقره الصمم

ثم قال: ومن خائنة الأعين: أن تأخذهم السنة والسنات «٣» في أوقات المناجاة، وفي قصص داود عليه السلام: «كذب من ادعى محبتي، فإذا جنه الليل نام عني» ومن خائنة أعين العارفين: أن يكون لهم خير، أي: استحسان يقع لقلوبهم مما تقع عليه أعينهم، ينظرون ولكن لا يبصرون- أي: ينظرون إلى المستحسنات، ولكن لا يقفون

---

(١) فى لطائف الإشارات: [لجميع ما ظنوا بنا تصديقا] .

(٢) فى القشيري: [أمرت السهاد بتعذيبها] . والبيت منسوب إلى سلم الخاسر، كما فى نهاية الأرب (٢/ ٥٦) وفيه:

تقول وفى قولها حشمة ... أتبكي بعين تراني بها

---

[١] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٢٣/٥

فقلت إذ استحسنت غيركم ... أمرت الدموع بتأديبها با أديبها

(٣) فى القشيري: والسبات. [.....]."(١)

"معها- ومن خائنة أعين الموحدين- أي: السائرين للتوحيد- أن يخرج منها قطرة دمع، تأسفا على مخلوق يفوت من الدنيا والآخرة، ومن **خائنة الأعين**: النظر إلى غير المحبوب بأي وجه كان، ففي الخبر: «حبك الشيء يعمي ويصم» «١» ، أي: يغيبك عن غيره، فلا ترى إلا محاسن الحبيب، وجماله في مظاهر تجلياته، وإليه يشير قول ابن الفارض رضي الله عنه:

عيني لغير جمالكم لا تنظر ... وسواكم في خاطري لا يخطر

وقوله تعالى: والله يقضي بالحق قال القشيري: يقضي للأجانب بالبعاد، ولأهل الوداد بالوصال، ويقضي يوم القدوم بعدل «٢» عمال الصدود. هـ. أي: يعدل في أهل الصدود عن حضرته، فيجازيهم بنعيم الأشباح فقط. ثم قال: وإذا ذبح الموت غدا بين الجنة والنار على صورة كبش أملح، فلا غرو أن يذبح الفراق على رأس سكة الأحباب، في صورة شخص، ويصلب على جذوع الغيرة، لينظر إليه أهل الحضرة. هـ.

ثم أمر بالتفكر- الذي هو طريق النجاة من كل ضرر- فقال:

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)

قلت: (هم أشد) : ضمير فصل، وحقه أن يقع بين معرفتين، إلا أن (أشد) لما ضارع المعرفة في كونه لا يدخله الألف واللام أجرى مجراها.

يقول الحق جل جلاله: أولم يسيروا في أقطار الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم أي: مآل من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم، كعاد، وثمود، وأضرابهم، كانوا هم أشد منهم قوة أي: قدرة وتمكنا من التصرف، وآثارا في الأرض وأشد تأثيرا في الأرض، ببناء القلاع الحصينة،

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٤) وأبو داود فى (الأدب، باب فى الهوى ٥/ ٣٤٦ ح ٥١٣٠) والخطيب فى تاريخ بغداد (٣/ ١١٧) من حديث أبى الدرداء رضي الله عنه.

(٢) فى القشيري: [بعزل] ، وهو أنسب.." (٢)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٢٤/٥

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٢٥/٥

"ظهور أحوالهم خشية الاعتراف بما نسب إليهم ولذلك اجتزوا بالتناظر دون الكلام. فالنظر هنا نظر دال على ما في ضمير الناظر من التعجب والاستفهام.

وجملة: هل يراكم من أحد بيان لجملة نظر بعضهم إلى بعض لأن النظر تفاهموا به فيما هو سر بينهم فلما كان النظر نظر تفاهم صح بيان جملته بما يدل على الاستفهام التعجبي، ففي هذا النظم إيجاز حذف بديع دلت عليه القرينة. والتقدير: وإذا ما أنزلت سورة فيها فضيحة أمرهم نظر بعضهم إلى بعض **بخائنة الأعين** مستفهمين متعجبين من اطلاع النبيء صلى الله عليه وسلم على أسرارهم، أي هل يراكم من أحد إذا خلوتم ودبرتم أموركم، لأنهم بكفرهم لا يعتقدون أن الله أطلع نبيه- عليه الصلاة والسلام- على دخيلة أمرهم.

وزيادة جملة: ثم انصرفوا لإفادة أنهم لم يكتسبوا من نزول السورة التي أطلعت المؤمنين على أسرارهم عبرة ولا قربا من الإيمان، بل كان قصارى أمرهم التعجب والشك في أن يكون قد اطلع عليهم من يبوح بأسرارهم ثم انصرفوا كأن لم تكن عبرة. وهذا من جملة الفتن التي تحل بهم ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

وجملة: صرف الله قلوبهم مستأنفة استئنافا بيانيا، لأن ما أفاده قوله: ثم انصرفوا من عدم انتفاعهم بما في تلك السورة من الإخبار بالمغيبات الدال على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم يثير سؤال من يسأل عن سبب عدم انتفاعهم بذلك واهتدائهم، فيجاب بأن الله صرف قلوبهم عن الفهم بأمر تكويني فحرموا الانتفاع بأبلغ واعظ. وكان ذلك عقابا لهم بسبب أنهم قوم لا يفقهون، أي لا يفهمون الدلائل، بمعنى لا يتطلبون الهدى بالتدبر فيفهموا.

وجعل جماعة من المفسرين قوله: صرف الله قلوبهم دعاء عليهم، ولا داعي إليه لأن دعاء الله على مخلوقاته تكوين كما تقدم، ولأنه يأباه تسبيبه بقوله: بأنهم قوم لا يفقهون.

وقد أعرض المفسرون عن تفسير هذه الآية تفسيرا يبين استفادة معانيها من نظم الكلام فأتوا بكلام يخاله الناظر إكراها لها على المعنى المراد وتقديرات لا ينثلج لها الفؤاد.." (١)

"خالصا أو مشوبا بشيء من التأمل في مفاسده، وتلك مراتب لا يحيط بها إلا الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

[٥]

[سورة النمل (٢٧) : آية ٥]

أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون (٥)

قصد باسم الإشارة زيادة تمييزهم فضحا لسوء حالهم مع ما ينبه إليه اسم الإشارة في مثل هذا المقام من أن استحقاقهم ما يخبر به عنهم ناشيء عما تقدم اسم الإشارة كما في أولئك على هدى من ربهم في سورة البقرة [٥] .

وعزز ما نبه عليه باسم الإشارة فأعقب باسم الموصول وصلته لما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الخبر.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٦٩/١١

وجيء بلام الاختصاص للإشارة إلى أنهم في حالتهم هذه قد هيىء لهم سوء العذاب. والظاهر أن المراد به عذاب الدنيا وهو عذاب السيف وخزي الغلب يوم بدر وما بعده بقرينة عطف: وهم في الآخرة هم الأخسرون.

ففي الآية إشارة إلى جزاءين: جزاء في الدنيا معدود لهم يستحقونه بكفرهم، فهم ما داموا كافرين متهيئون للوقوع في ذلك العذاب إن جاء إبانه وهم على الكفر.

وجزاء في الآخرة ينال من صار إلى الآخرة وهو كافر، وهذا المصير يسمى بالموافاة عند الأشعري.

ولكون نوال العذاب الأول إياهم قابلا للتفصي منه بالإيمان قبيل حلوله بهم جيء في جانبه بلام الاختصاص المفيدة كونه مهيأ تهيئة، أما أصالة جزاء الآخرة إياهم فلا مندوحة لهم عنه إن جاؤوا يوم القيامة بكفرهم.

فالضمائر في قوله لهم وقوله: وهم في الآخرة هم عائدة إلى الذين لا يؤمنون بالآخرة [النمل: ٤] بمراعاة ذلك العنوان الذي أفادته الصلة فلا دلالة في الضمير على أشخاص معينين ولكن على موصوفين بمضمون الصلة فمن تنقشع عنه." (١)

"بينهما.

وأما إشارة النبيء عليه الصلاة والسلام على زيد بإمساك زوجه مع علمه بأنها ستصير زوجة له فهو أداء لواجب أمانة الاستنصاح والاستشارة، وقد يشير المرء بالشيء يعلمه مصلحة وهو يوقن أن إشارته لا تمتثل. والتخليط بين الحالين تخليط بين التصرف المستند لما تقتضيه ظواهر الأحوال وبين ما في علم الله في الباطن، وأشبه مقام به مقام موسى مع الخضر في القضايا الثلاث. وليس هذا من **خائنة الأعين**، كما توهمه من لا يحسن، لأن **خائنة الأعين** المذمومة ما كانت من الخيانة والكيد.

وليس هو أيضا من الكذب لأن قول النبيء عليه الصلاة والسلام لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله لا يناقض رغبته في تزوجها وإنما يناقضه لو قال: إني أحب أن تمسك زوجك، إذ لا يخفى أن الاستشارة طلب النظر فيما هو صلاح للمستشير لا ما هو صلاح للمستشار. ومن حق المستشار إعلام المستشير بما هو صلاح له في نظر المشير، وإن كان صلاح المشير في خلافه، فضلا على كون ما في هذه القصة إنما هو تخالف بين النصيحة وبين ما علمه الناصح من أن نصحه لا يؤثر.

فإن قلت: فما معنى ما روي في الصحيح عن عائشة أنها قالت: لو كان رسول الله كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية: وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك الآية.

قلت: أرادت أن رغبة النبيء صلى الله عليه وسلم في تزوج زينب أو إعلام الله إياه بذلك كان سرا في نفسه لم يطلع عليه أحد إذ لم يؤمر بتبليغه إلى أحد. وعلى ذلك السر انبنى ما صدر منه لزيد من قوله: أمسك عليك زوجك. فلما طلقها زيد ورام تزوجها علم أن المنافقين سيرجفون بالسوء، فلما أمره الله بذكر ذلك للأمة وتبليغ خبره بلغه ولم يكتمه مع أنه ليس في كتمه تعطيل شرع ولا نقص مصلحة، فلو كان كاتما لكتم هذه الآية التي هي حكاية سر في نفسه وبينه وبين ربه تعالى، ولكنه لما كان وحيا بلغه لأنه مأمور بتبليغ كل ما أنزل إليه.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢٢/١٩

واعلم أن للحقائق نصابها، وللتصرفات موانعها وأسبابها، وأن الناس قد تمتلكهم العوائد، فتحول بينهم وبين إدراك الفوائد، فإذا تفشت أحوال في." (١)

"يهلك في مدة تأخير حقه فلا ينتفع به، أو لعل الشيء المحكوم به يتلف بعارض أو قصد فلا يصل إليه صاحبه بعد. وإن كان الحق حق الله كان تأخير القضاء فيه إقرارا للمنكر. في «صحيح البخاري» «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل أبا موسى على اليمن ثم أتبعه معاذ بن جبل فلما قدم معاذ على أبي موسى ألقى إليه أبو موسى وسادة وقال له: انزل، وإذا رجل موثق عند أبي موسى، قال معاذ: ما هذا؟ قال: كان يهوديا فأسلم ثم تهود. قال معاذ: لا أجلس حتى يقتل، قضاء الله ورسوله، ثلاث مرات، فأمر به أبو موسى فقتل» .

[١٨]

[سورة غافر (٤٠) : آية ١٨]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨)

الأظهر أن يكون قوله: وأنذرهم وما بعده معترضا بين جملة إن الله سريع الحساب [غافر: ١٧] وجملة يعلم **خائنة الأعين** [غافر: ١٩] على الوجهين الآتيين في موقع جملة يعلم **خائنة الأعين**، فالواو اعتراضية، والمناسبة أن ذكر الحساب به يقتضي التذكير بالاستعداد ليوم الحساب وهو يوم الآزفة.

ويوم الآزفة يوم القيامة. وأصل الآزفة اسم فاعل مؤنث مشتق من فعل أزف الأمر، إذا قرب، فالآزفة صفة لموصوف محذوف تقديره: الساعة الآزفة، أو القيامة الآزفة، مثل الصاخة، فتكون إضافة يوم إلى الآزفة، حقيقية. وتقدم القول في تعدية الإنذار إلى (اليوم) في قوله: لتنذر يوم التلاق [غافر: ١٥] .

وإذ بدل من يوم فهو اسم زمان منصوب على المفعول به، مضاف إلى جملة القلوب لدى الحناجر وأل في القلوب والحناجر عوض عن المضاف إليه.

وأصله: إذ قلوبهم لدى حناجرهم، فبواسطة (أل) عوض تعريف الإضافة بتعريف العهد وهو رأي نحاة الكوفة، والبصريون يقدرون: إذ القلوب منهم والحناجر." (٢)

"ووصف: شفيع بجملة يطاع وصف كاشف إذ ليس أن المراد لهم شفعاء لا تطاع شفاعتهم لظهور قلة جدوى ذلك ولكن لما كان شأن من يتعرض للشفاعة أن يثق بطاعة المشفوع عنده له. وأتبع شفيع بوصف يطاع لتلازمهما عرفا فهو من إيراد نفي الصفة اللازمة للموصوف. والمقصود: نفي الموصوف بضرب من الكناية التلميحية كقول ابن أحمر:

ولا ترى الضب بها ينجحر (١) أي لا ضب فيها فينجحر، وذلك يفيد مفاد التأكيد.

والمعنى: أن الشفيع إذا لم يطع فليس بشفيع. والله لا يجترىء أحد على الشفاعة عنده إلا إذا أذن له فلا يشفع عنده إلا

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٣٧/٢٢

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٣/٢٤

من يطاع.
[١٩]

[سورة غافر (٤٠) : آية ١٩]

يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)

يجوز أن تكون جملة يعلم خائنة الأعين خبرا عن مبتدأ محذوف هو ضمير عائد إلى اسم الجلالة من قوله: إن الله سريع الحساب [غافر: ١٧] على نحو ما قرر قبله في قوله: رفيع الدرجات [غافر: ١٥] . ومجموع الظاهر والمقدر استئناف للمبالغة في الإنذار لأنهم إذا ذكروا بأن الله يعلم الخفايا كان إنذارا بالغا يقتضي الحذر من كل اعتقاد أو عمل نهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عنه، فبعد أن أيأسهم من شفيع يسعى لهم في عدم المؤاخذة بذنوبهم أيأسهم من أن يتوهموا أنهم يستطيعون إخفاء شيء من نواياهم أو أدنى حركات أعمالهم على ربهم. ويجوز أن تكون خبرا ثانيا عن اسم إن في قوله: إن الله سريع الحساب [غافر: ١٧] ، وما بينهما اعتراض كما مر على كلا التقديرين.

---

(١) أوله: لا تفزع الأرنب أهوالها.

يصف مفازة قاحلة لا ضب فيها ولا أرنب.." (١)

"و (خائنة الأعين) مصدر مضاف إلى فاعله فالخائنة مصدر على وزن اسم الفاعل مثل العافية للمعافاة، والعاقبة، والكاذبة في قوله تعالى: ليس لوقعتها كاذبة [الواقعة:

٢] ويجوز إبقاء خائنة على ظاهر اسم الفاعل فيكون صفة لموصوف محذوف دل عليه الأعين، أي يعلم نظرة الأعين الخائنة. وحقيقة الخيانة: عمل من اؤتمن على شيء بضد ما اؤتمن لأجله بدون علم صاحب الأمانة، ومن ذلك نقض العهد بدون إعلان بنبذه. ومعنى: خائنة الأعين خيانة النظر، أي مسارقة النظر لشيء بحضرة من لا يحب النظر إليه. فإضافة خائنة إلى الأعين من إضافة الشيء إلى آلته كقولهم: ضرب السيف.

والمراد ب خائنة الأعين النظرة المقصود منها إشعار المنظور إليه بما يسوء غيرها الحاضر استهزاء به أو إغراء به. وإطلاق الخائنة بمعنى الخيانة على هذه النظرة استعارة مكنية، شبه الجليس بالحليف في أنه لما جلس إليك أو جلست إليه فكأنه عاهدك على السلامة، ألا ترى أن المجالسة يتقدمها السلام وهو في الأصل إنباء بالمسالمة فإذا نظرت إلى آخر غيركما نظرا خفيا لإشارة إلى ما لا يرضي الجليس من استهزاء أو إغراء فكأنك نقضت العهد المدخول عليه بينكما، فإطلاق الخيانة على ذلك تفظيع له، ويتفاوت قرب التشبيه بمقدار تفاوت ما وقعت النظرة لأجله في الإساءة وآثار المضرة. ولذلك

قال النبيء صلى الله عليه وسلم: «ما يكون لنبي أن تكون له خائنة الأعين»

، أي لا تصدر منه.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٥/٢٤

وو ما تخفي الصدور النوايا والعزائم التي يضمرها صاحبها في نفسه، فأطلق الصدر على ما يكن الأعضاء الرئيسية على حسب اصطلاح أصحاب اللغة.." (١)

"[سورة غافر (٤٠) : آية ٢٠]

والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

كان مقتضى الظاهر أن يؤتى بجملة يقضي بالحق معطوفة بالواو على جملة يعلم **خائنة الأعين** [غافر: ١٩] فيقال: ويقضي بالحق ولكن عدل عن ذلك لما في الاسم العلم لله تعالى من الإشعار بما يقتضيه المسمى به من صفات الكمال التي منها العدل في القضاء، ونظيره في الإظهار في مقام الإضمار قوله تعالى: أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه

[الرعد: ٤١] . وليحصل من تقديم المسند إليه على المسند الفعلي تقوي المعنى، ومنه قوله تعالى: إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون [الأنفال: ٣٦] أعيد الموصول ولم يؤت بضمير الذين كفروا ليفيد تقديم الاسم على الفعل تقوي الحكم.

والجملة من تمام الغرض الذي سيقت إليه جملة يعلم **خائنة الأعين** [غافر: ١٩] كما تقدم، وكلتاهما ناظرة إلى قوله: ما للظالمين من حميم ولا شفيع [غافر: ١٨] أي أن ذلك من القضاء بالحق.

وأما جملة والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء فناظرة إلى جملة ما للظالمين من حميم ولا شفيع [غافر: ١٨] فبعد أن نفي عن أصنامهم الشفاعة، نفي عنها القضاء بشيء ما بالحق أو بالباطل وذلك إظهار لعجزها. ولا تحسبن جملة والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء مسوقة ضميمة إلى جملة: والله يقضي بالحق ليفيد مجموع الجملتين قصر القضاء بالحق على الله تعالى قصر قلب، أي دون الأصنام، كما أفيد القصر من ضم الجملتين في قول السموأل أو عبد الملك الحارثي:

تسيل على حد الظبات نفوسنا ... وليست على غير الظبات تسيل

لأن المنفي عن آلهتهم أعم من المثبت لله تعالى، وليس مثل ذلك مما يضاد صيغة القصر لكفى في إفادته تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي بحمله على إرادة." (٢)

"الاختصاص في قوله: والله يقضي بالحق. فالمراد من قوله: والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء التذكير بعجز الذين يدعونهم وأنهم غير أهل للإلهية، وهذه طريقة في إثبات صفة لموصوف ثم تعقيب ذلك بإظهار نقيضه فيما يعد مساويا له كما في قول أمية بن أبي الصلت:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فصار فيما بعد أبوالا

وإلا لما كان لعطف قوله: لا قعبان من لبن، مناسبة.

والدعاء يجوز أن يكون بمعنى النداء وأن يكون بمعنى العبادة كما تقدم آنفا.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٦/٢٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٧/٢٤

وجملة إن الله هو السميع البصير مقررة لجمل يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور إلى قوله: لا يقضون بشيء [غافر: ١٩، ٢٠] . فتوسيط ضمير الفصل مفيد للقصر وهو تعريض بأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر فكيف ينسبون إليها الإلهية، وإثبات المبالغة في السمع والبصر لله تعالى يقرر معنى يقضي بالحق لأن العالم بكل شيء تتعلق حكمته بإرادة الباطل ولا تخطىء أحكامه بالعثار في الباطل. وتأكيد الجملة بحرف

التأكيد تحقيق للقصر. وقد ذكر التفتازاني في «شرح المفتاح» في مبحث ضمير الفصل أن القصر يؤكد.

وقرأ نافع وهشام عن ابن عامر تدعون بتاء الخطاب على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لقرع أسماع المشركين بذلك. وقرأ الجمهور بياء الغيبة على الظاهر.." (١)

"وقعت الواقعة، وغشيته غاشية، والعرب يستعملون التأنيث دلالة على المبالغة في النوع، ولعلهم راعوا أن الأنثى مصدر كثرة النوع.

والتعريف في الآزفة تعريف الجنس، ومنه زيادة تهويل بتمييز هذا الجنس من بين الأجناس لأن في استحضاره زيادة تهويل لأنه حقيق بالتدبر في المخلص منه نظير التعريف في الحمد لله [الفاتحة: ٢] ، وقولهم: أرسلها العراك.

والكلام يحتمل آزفة في الدنيا من جنس ما أهلك به عاد وثمود وقوم نوح فهي استئصالهم يوم بدر، ويحتمل آزفة وهي القيامة. وعلى التقديرين فالقرب مراد به التحقق وعدم الانقلاب منها كقوله تعالى: اقتربت الساعة [القمر: ١] وقوله: إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا [المعارج: ٦، ٧] .

وجملة ليس لها من دون الله كاشفة مستأنفة بيانية أو صفة ل الآزفة. وكاشفة يجوز أن يكون مصدرا بوزن فاعلة كالعافية، **وخائنة الأعين**، وليس لوقعتها كاذبة. والمعنى ليس لها كشف.

ويجوز أن يكون اسم فاعل قرن بهاء التأنيث للمبالغة مثل راوية، وباقعة، وداهية،

أي ليس لها كاشف قوي الكشف فضلا عمن دونه.

والكشف يجوز أن يكون بمعنى التعرية مراد به الإزالة مثل ويكشف الضر، وذلك ضد ما يقال: غشية الضر.

فالمعنى: لا يستطيع أحد إزالة وعيدها غير الله، وقد أخبر بأنها واقعة بقوله: ليس لها من دون الله كاشفة كناية عن تحقق وقوعها.

ويجوز أن يكون الكشف بمعنى إزالة الخفاء، أي لا يبين وقت الآزفة أحد له قدرة على البيان على نحو قوله تعالى: لا يجليها لوقتها إلا هو [الأعراف: ١٨٧] . فالمعنى: أن الله هو العالم بوقتها لا يعلمه أحد إلا إذا شاء أن يطلع عليه أحدا من رسله أو ملائكته.

ومن دون الله أي غير الله، ومن مزيدة للتوكيد، وهو متعلق بالكون الذي ينوى في خبر ليس قوله: لها.." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ١١٨/٢٤

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ١٥٩/٢٧

"في ذلك كله هو الله، فهو يرث السماوات والأرض، أي يستمر ملكه عليهما بعد زوال البشر كلهم المنتفعين ببعض ذلك، وهو يملك ما في ضمنهما تبعا لهما، وهو عليم بما يعمل الناس من بخل وصدقة، فالآية موعظة ووعيد ووعد لأن المقصود لازم قوله: خبير.

[١٨١، ١٨٢]

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٨١ إلى ١٨٢]

لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق (١٨١) ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد (١٨٢)

استئناف جملة لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء لمناسبة ذكر البخل لأنهم قالوه في معرض دفع الترغيب في الصدقات، والذين قالوا ذلك هم اليهود، كما هو صريح آخر الآية في قوله: وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقائل ذلك: قيل هو حيي بن أخطب اليهودي، حبر اليهود، لما سمع قوله تعالى: من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا [البقرة: ٢٤٥] فقال حيي: إنما يستقرض الفقير الغني، وقيل: قاله فنحاص بن عازوراء لأبي بكر الصديق بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل أبا بكر إلى يهود قينقاع يدعوهم، فأتى بيت المدراس فوجد جماعة منهم قد اجتمعوا على فنحاص حبرهم، فدعاه أبو بكر، فقال فنحاص: ما بنا إلى الله من حاجة، وإنه إلينا لفقير ولو كان غنيا لما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، فغضب أبو بكر ولطم فنحاص وهم بقتله، فنزلت الآية. وشاع قولهما في اليهود.

وقوله: لقد سمع الله تهديد، وهو يؤذن بأن هذا القول جراءة عظيمة، وإن كان القصد منها التعريض ببطلان كلام القرآن، لأنهم أتوا بهاته العبارة بدون محاشاة، ولأن الاستخفاف بالرسول وقرآنه إثم عظيم وكفر على كفر، ولذلك قال تعالى: لقد سمع المستعمل في لازم معناه، وهو التهديد على كلام فاحش، إذ قد علم أهل الأديان أن الله يعلم **خائنة الأعين**." (١)

"والخائنة: الخيانة فهو مصدر على وزن الفاعلة، كالعاقبة، والطاغية. ومنه يعلم **خائنة الأعين** [غافر: ١٩] . وأصل الخيانة: عدم الوفاء بالعهد، ولعل أصلها إظهار خلاف الباطن. وقيل: خائنة صفة لمحذوف، أي فرقة خائنة.

واستثنى قليلا منهم جبلوا على الوفاء، وقد نقض يهود المدينة عهدهم مع رسول الله والمسلمين فظاهروا المشركين في وقعة الأحزاب، قال تعالى: وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم [الأحزاب: ٢٦] . وأمره بالعفو عنهم والصفح حمل على مكارم الأخلاق، وذلك فيما يرجع إلى سوء معاملتهم للنبيء صلى الله عليه وسلم. وليس المقام مقام ذكر المناواة القومية أو الدينية، فلا يعارض هذا قوله في براءة قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون [التوبة: ٢٩] لأن تلك أحكام التصرفات العامة، فلا حاجة إلى القول بأن هذه الآية نسخت بآية براءة.

[١٤]

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤/١٨٣

[سورة المائدة (٥) : آية ١٤]

ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون (١٤)

ذكر بعد ميثاق اليهود ميثاق النصارى. وجاءت الجملة على سبه اشتغال العامل عن المعمول بضميره حيث قدم متعلق أخذنا ميثاقهم وفيه اسم ظاهر، وجيء بضميره مع العامل للنكتة الداعية للاشتغال من تقرير المتعلق وتثبيته في الذهن إذ يتعلق الحكم باسمه

الظاهر وبضميره، فالتقدير: وأخذنا، من الذين قالوا: إنا نصارى، ميثاقهم، وليس تقديم المجرور بالحرف لقصد الحصر. وقيل: ضمير ميثاقهم عائد إلى اليهود، والإضافة على معنى التشبيه، أي من النصارى أخذنا ميثاق اليهود، أي مثله، فهو تشبيه بليغ حذفت الأداة." (١)

"نعم، هذا يطالب به المكلف، وليس معنى هذا أن يقر أولئك النسوة اللاتي يكشفهن عن رؤوسهن وصدروهن، لكن لكل ما يخصه من الخطاب، فالرجل عليه أن يغض البصر، والمرأة عليها أن تستتر، وولي الأمر أن يأطر الناس على الحق، لا يترك النساء يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ثم إذا تكلم أحد من الغيورين، قيل له: غض بصرك، هو مطالب بهذا بلا شك، لكن المرأة مطالبة بالستر، ولا يجوز لها أن تتبرج، وإذا تبرجت جاز لعنها على الجملة، فالأمر ليس مطالب به جهة واحدة، فلكل من الجهات ما يخصه من الخطاب، الرجل عليه أن يغض البصر ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ [(٣٠) سورة النور]، والمرأة عليها أن تستر، وتغض البصر عن الرجال، ولا تكن سببا ومثارا لفتنتهم، وولي الأمر ومن يملك الإنكار باليد عليه أن ينكر باليد، والذي يملك الإنكار باللسان يملكه باللسان، والذي لا يستطيع لا هذا ولا هذا ففي قلبه، ولا يترك الأمر هكذا، يترك النساء يلعبن بعقول الرجال بالتبرج المشين الفاضح المستورد الذي لا يليق بالمسلمات بحال، ثم بعد ذلك يطالب الرجال بالغض، نعم هم مطالبون بالغض، ولا أحد ينكر هذا، وهذا نص القرآن، لكن مع ذلك التبعة عليهن أكثر.

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ [(٣٠) سورة النور] وقال قتادة: عما لا يحل لهم، ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ [(٣١) سورة النور] **خائنة الأعين** من النظر إلى ما نهي عنه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿من أبصارهم﴾ [(٣٠) سورة النور].

هذه عادة البخاري -رحمه الله تعالى- أنه يفسر ما يتعلق بالمقام، وما له أدنى مناسبة بالحديث أو الأثر، فلما ذكر خبر سعيد بن أبي الحسن وقتادة قال: **خائنة الأعين** لأن لها تعلق بالموضوع، لها تعلق بالموضوع، لأن الإنسان قد يدعي أنه

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٦/١٤٥

غض بصره، وهو يسارق النظر لما حرم الله عليه، فالله -جل وعلا- يعلم **خائنة الأعين**، التي تنظر إلى ما نهي عنه، ولو خفي ذلك على الناس، فإن الله -جل وعلا- لا تخفى عليه.." [1]

"ولم تكن ... للغدر خائنة مغل الإصبع (١)

وقد تكون الخائنة مصدرا على فاعلة، ومنه قوله تعالى: ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ [غافر: ١٩]، وكثير من المصادر في القرآن جاء على: فاعله، نحو قوله: ﴿لاغية﴾ (٢) [الغاشية: ١١]، أي لغوا، وتقول العرب: سمعت (راغية الإبل) و (ثاغية الشاء)، يعنون: رغاءها وثفاءها (٣).

قال الزجاج: وفاعلة في أسماء المصادر كثيرة نحو: عافاه الله عافية، و ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ [الواقعة: ٢]، و ﴿فأهلكوا بالطاغية﴾ [الحاقة: ٥] (٤).

وعلى هذا دل كلام المفسرين، فقال (٥) ابن عباس: ولا تزال تطلع على معصية منهم (٦). فهذا يدل على أنه أراد بالخائنة الخيانة.

---

(١) جزء من بيت لرجل من بني كلاب يخاطب قرينا أخا عمير الحنفي، وكان له عنده دم وتمام البيت:

حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن ... للغدر خائنة مغل الإصبع

"مجاز القرآن" ١/ ١٥٨، والطبري في "تفسيره" ٦/ ١٥٦، و"معاني الزجاج" ٢/ ١٦٠، و"اللسان" ٣/ ١٢٩٤ (خون).

ومغل الإصبع: كناية عن الخيانة والسرقة.

(٢) من قوله تعالى: ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ [الغاشية: ١١].

(٣) "تهذيب اللغة" ١/ ٩٧١، وانظر البغوي في "تفسيره" ٣/ ٣١، و"اللسان" ٣/ ١٢٩٥ (خون).

(٤) "معاني القرآن وإعرابه" ٢/ ١٦٠.

(٥) في (ش): (وقال).

(٦) انظر البغوي في "تفسيره" ٣/ ٣١، والقرطبي في "تفسيره" ٦/ ١١٦، و"تنوير المقباس" بهامش المصحف ص ١٠٩.." [2]

"وهي من الطير كالمعدة للإنسان، ومن الحوض مستقر الماء في عمقه الأقصى.

ولهذه الدلالة اللغوية الأصلية، أثرها في معنى ﴿حصل﴾ هنا، فكل ما يعمله الإنسان مستقر في أعماقه، مجموع في صدره، حتى يحين أوان كشفه بعد بعثرة ما في القبور للبعث والقيامة.

والتحصيل لما ﴿في الصدور؟﴾ إيذانا بكشف المستور وإظهار المطوى المضمر - جلالة واضحة، لا نخطئها في استعمال القرآن للفظ الصدور:

---

(١) التعليق على تفسير القرطبي - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ٢/٨

(٢) التفسير البسيط الواحدي ٣٠٥/٧

فالشيطان. ﴿يوسوس في صدور الناس﴾ ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ .

وهو تعالى: ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ غافر ١٩.

﴿يعلم ما تكن صدورهم﴾ القصص ٦٩.

﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ العنكبوت ١٠.

﴿وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ النمل ٧٤.

﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾ آل عمران ٢٩

وتدبر هذه الآيات جميعا، يرينا ما في تأويل آية العاديات:

"إن معنى حصل، جمع في الصحف، أي أظهر محصلا مجموعا" من جور على المعنى القوى المثير لقوله تعالى: ﴿وحصل ما في الصدور﴾ فليس المقام هنا للجمع في الصحف، وإنما المقام للإنذار بيوم ينكشف فيه ما طوى في الصدور، ويظهر ما تخفي الضمائر، وقد كان الظن الكاذب به أن يظل خفيا مستورا.

* * *

ويلفتنا هنا أت تأتي آية:

﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ .

بعد بعثرة ما في القبور وتحصيل ما في الصدور، فتصل بالمشهد المثير إلى." (١)

"في الآيتين كلتيهما، إلا للذين ألهلم التكاثر، ما التكرير إلا مبالغة في ردعهم وزجرهم وإنذارهم.

ويلفتنا هنا أيضا. أنه قال "تعلمون" ولم يقل: تعرفون. والعلم إدراك الشيء بحقيقته كعبارة "الراغب" في مفرداته، والعربية قد استعملت المادة حسيا فيما هو ظاهر واضح لا لبسفيه. فالعلمة والعلم شق ظاهر في الشفة العليا، وعلمه وسمه، والعلامة: السمة، والعلامة أيضا، والعلم: الفصل بين الأرضين، وشيء منصوب في الطريق يهتدي به. والعلم: الجبل الطويل، والراية، ما يعقد على الرمح.

ومن هذا الوضوح المميو في العلامة والعلم، استعمل العلم فيما يعرف معرفة واضحة قوية، فقيل: علم الشيء، إذا أدركه، وهو عالم به إذا انكشف له حقيقته.

وفي الاستعمال القرآني للملدة، نرى الله تعالى يوصف بالعالم ولا يوصف بالعارف، والعليم من أسمائه الحسنى، ويسند إليه العلم ولا تسند إليه المعرفة. ويختص الله سبحانه وتعلى بما يكون خفيا، وغيبا، ومضمرا، فهو يعلم ما يسرون ويعلم ما في الأرحام، وما تحمل كل أنثى، ما في أنفسكم، وما في قلوبكم، وذات الصدور، ويعلم ما في السماوات والأرض، وما في البر والبحر، ويعلم سركم وجهركم، ويعلم سرهم ونجواهم، ويعلم السر وأخفى، ويعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، ويعلم ما توسوس به نفسك، علام الغيوب، وعنده علم الساعة، وعلم الكتاب.

وحين يسند العلم إلى البشر فهو العلم الكسبي عندما يكون على وجه التأكد واليقين، أو في النذير بيوم لا ريب فيه.

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ١١٧/١

وتأتي ﴿سوف تعلمون﴾ ، في نظائر لآية التكاثر، مثل، آيات: الحجر (٣، ٩٦) والفرقان (١٢) والعنكبوت (٦٦) والصافات (١٧٠) والزخرف (٨٩) ، وفي أكثرها بهذا الإنذار بيوم يأتي، تنكشف لهم حقيقة ما خفى عنهم وما أنكروه أو ارتابوا فيه.." [١]

"[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٠]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

. (١) الآزفة: القريبة أو التي تسوق الناس وتزفهم بالسرعة. وهي كناية عن الساعة أو يوم القيامة.

(٢) إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين: الكظم بمعنى الكتم والإمساك.

ومعنى الجملة إذ القلوب ترتفع من شدة الاضطراب إلى الحناجر فتكتم حلوق أصحابها وأنفاسهم فلا تستطيع خروجا ولا تستطيع العودة إلى أماكنها. وهي بسبيل تصوير حالة الهلع الشديد التي تعتري الكفار.

(٣) حميم: صديق مشفق.

(٤) **خائنة الأعين**: ما ينطوي في نظرات الأعين من مقاصد يريد أصحابها إخفاءها فتخونهم هذه النظرات.

وهذه الآيات احتوت كذلك إنذارا وتنديدا بأسلوب آخر. فهي تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإنذار الكفار بيوم القيامة القريب الذي يزف الناس فيه زفا ويساقون سوقا وبما سوف تكون حالتهم فيه من الهلع والرعب بحيث يشتد اضطرابهم حتى ترتفع قلوبهم إلى حناجرهم وتكاد أن تسد عليهم مجرى النفس ولا يجد الظالمون صديقا مشفقا ولا شفيعا مستجابا مطاعا. وقد أشارت إلى سعة إحاطة الله بأعمال الناس ونواياهم فهو يعلم كل حركة من حركاتهم خفيها وظاهرها حتى ما يدق على المشاهدين مما تنطوي عليه لحظات العيون وتخفيه الصدور من النوايا المريبة.

فهو السميع لكل شيء النافذ بصره إلى كل شيء. وهو الذي سيقضي بين الناس بالحق وفق أعمالهم، أما الشركاء الذين يدعوهم المشركون مع الله فليس لهم أي قدرة على شيء أو القضاء في أي شيء أو النفوذ إلى أي شيء.." [٢]

"«أن الله يولج الليل في النهار ... » وكأنه تعقيب عليه.. وذلك أن الذي ينظر متأملا في نظام الوجود، وفي قدرة الله الممسكة به، لا بد أن يؤديه هذا النظر المتأمل، إلى إدراك هذه الحقيقة، وهو أن الله عليم بكل ما نعمل، فلا تخفى عليه خافية من أعمالنا، دقيقها وعظيمها، خيرها وشرها.. إنه علم العليم الخبير، الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور..

قوله تعالى:

«ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير» .

الإشارة هنا، إلى ما عرضته الآيات من مظاهر قدرة الله، وسعة علمه..

والجار والمجرور في قوله تعالى: «بأن الله هو الحق» متعلق بمحذوف، يدل عليه السياق وتقديره: يقضى، أو يقطع. ونحو

---

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ٢٠٣/١

(٢) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٣٦١/٤

هذا.. أي أن ذلك الذي يراه الراءون في هذا الوجود من آيات القدرة، ومظاهر العلم- يقضى، ويقطع بأن الله هو الحق، أي الإله الحق، الذي يتفرد بالألوهة، من غير شريك، كما يقضى بأن تلك الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله، هى الباطل كله، لا شيء من حق فيه أبدا.. وذلك من شأنه أن يقضى ويقطع بأن الله هو «العلى» ، المنفرد بالعلو والسلطان، «الكبير» الذي له الكبرياء وحده، وأن مادونه دون ضئيل، لا وزن له، ولا قدر!.

قوله تعالى:

«ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور» .." [1]

"أيضا: «إذا وقعت فى آل حم فقد وقعت فى روضات أتانق فيهن» .

قوله تعالى:

«تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم» أي منزل الكتاب، ومصدره، هو من الله العزيز العليم.. وكتاب يكون إلى الله نسبته، هو ما هو فى رفعة الشأن، وعلو المقام.. إنه كلام الله، وكلام الله صفة من صفاته..

وفى وصف الله بالعزة والعلم، إشارة إلى بسطة سلطانه على الوجود، وتمكنه من كل موجود، مع إحاطة علمه بكل شيء، فيعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور.

وفى الجمع بين العزة والعلم هنا، والجمع بين العزة والحكمة فى سورة الزمر- مراعاة للمقام هنا، وهناك..

ففى سورة «الزمر» ناسبت الحكمة دعوة النبي إلى التمسك بهذا الكتاب الحكيم، والاهتداء بهديه، وعبادة الله على ضوئه..

وهنا، ناسب العلم دعوة الناس إلى التوبة، والإقبال على الله بنية خالصة..

لأن الله يعلم ما تكن السرائر، وما تخفى الصدور..

قوله تعالى:

«غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير» هو عرض لبعض صفات الله سبحانه وتعالى، إلى ما عرض فى الآية السابقة.. فمن صفاته سبحانه أنه «غافر الذنب» يغفر للمذنبين، الذين يدرءون بالحسنة، ذنوبهم، كما يقول سبحانه: «إن الحسنات يذهبن السيئات» (١١٤: هود)." [2]

"الآيات: (١٣- ٢٠) [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ٢٠]

هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما

---

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١١/٥٩٠

(٢) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١٢/١٢٠٤

تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

التفسير:

قوله تعالى:

«هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب» ..

هو لقاء مع الناس، بهذا العرض الكاشف لقدرة الله، وتفرده بالخلق والأمر، بعد أن شهدوا صورا من مشاهد القيامة، وما يلقى المؤمنون من إحسان ورضوان، وما يلقى الكافرون من خزى وعذاب.. فمن كان من المؤمنين ازداد بهذا اللقاء إيمانا، وتمسكا بما هو فيه، من طاعة وهدى، ومن كان من أهل الكفر والضلال، فليطلب لنفسه النجاة والسلامة، وليعد إلى الله من." (١)

"«إذ» ، ظرف.. بدل من يوم الآزفة.. والحناجر: جمع حنجرة، وهى الغلصمة فى أعلى الزور، والكاظم: المأخوذ من كظمه، أي من مخنقه.. يقال كظم القربة أي ربط فمها، ومنه كظم الغيظ: أي حبسه فى الصدر.

والمعنى: وأنذر الناس- أيها النبي- وحذرهم يوم القيامة وقد أزف، وهو يوم عظيم، تختنق فيه الأنفاس، وتضيق الصدور، وتجف القلوب وتضطرب، حتى لتبلغ القلوب الحناجر فى خفقها واضطرابها..

وقوله «كاظمين» حال من أصحاب القلوب.

وقوله تعالى: «ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع» .. أي ليس للظالمين فى هذا اليوم العظيم، من صاحب أو صديق يعين، أو من شفيع تقبل شفاعته فيهم..

قوله تعالى:

«يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء.. إن الله هو السميع البصير» .

خائنة الأعين: أي نظرة العين تكون عن خلسة، لا يراها الناس، ولا يعلم بها المنظور إليه.

وقوله تعالى: «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» هو تعليل لما فى الآية السابقة من وعيد للظالمين الذين أنذروا بيوم القيامة، وما فيه من أهوال، وأن الذي سيحاسبهم هناك هو الله سبحانه، الذي يعلم ما يبدون وما يكتمون، لا تخفى عليهم منهم خافية، ولا يرد عنهم بأسه أحد، ولا تقبل فيهم عنده شفاعة من أحد..

وقوله تعالى: «والله يقضي بالحق» أي أنه سبحانه- مع بأسه، وسلطانه." (٢)

"قوله تعالى:

«قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم» ..

هو إنكار على هؤلاء الأعراب، الذين ادعوا تلك الدعوى، بأنهم مؤمنون، وهم فى حقيقة أمرهم غير مؤمنين، إذ أنهم أسلموا،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١٢١٣/١٢

(٢) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١٢١٧/١٢

ولم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد..

فلمن يقولون هذا القول؟

أيقولونه لله؟ وكيف يتفق قولهم هذا مع الإيمان بالله؟ إن الإيمان بالله حقا، يقضى على المؤمن ألا يقول غير الحق.. لأن الله سبحانه وتعالى يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور، وإنه لن يكذب على الله إلا من استخف بجلال الله وعظمة الله، وعلم الله، جهلا منه بما لله سبحانه من كمال مطلق. «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم» (٧: المجادلة)

قوله تعالى:

«يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين» .

المن: الإدلال بالإحسان على من أحسن إليه.. وهو مما يذهب بثواب الإحسان، ويفسد مغارسه.. والله سبحانه وتعالى يقول: «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى» (٢٦٢، ٢٦٣ البقرة) .." [1]

"الذي ينهى عبدا عن الصلاة، ويحول بينه وبينها؟ ثم أرأيت لو أنه كان فى موقف آخر غير هذا الموقف، فكان قائما على طريق الهدى، مؤمنا بربه، مواليا له، آمرا بالبر والتقوى بدلا من نهيه عن البر والتقوى؟ فاى حاليه كان خيرا له وأهدى سبيلا؟ أحال الضلال، والعمى، والصد عن سبيل الله، أم حال الاستقامة والهدى والدعوة إلى الله؟ وشتان بين الظلام والنور، والشر والخير، والكفر والإيمان! وقوله تعالى:

«أرأيت إن كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى» .

أي ثم ماذا ترى من حال هذا الضال، وقد أبى أن يكون على الهدى أو يأمر بالتقوى، بل كذب بآيات الله، وتولى معرضا عمن دعاه إلى الله، ورفع لعينيه مصابيح الهدى؟ فأى إنسان هذا؟ وبأى نظر ينظر، وبأى عقل يفكر ويميز بين الخير والشر؟ «ألم يعلم بأن الله يرى» ؟ أسفه نفسه حتى أنكر أن لهذا الوجود إلها قائما عليه، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور؟ ألا يخاف بأس الله؟ ألا يخشى عقابه؟

وقوله تعالى:

«كلا.. لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة» .

هو رد على هذا السؤال فى قوله تعالى: «ألم يعلم بأن الله يرى» . وكلا، إنه لا يعلم بأن الله مطلع على كل شيء، ولو كان يعلم هذا علما مستيقنا لخاف ربه وخشى بأسه، ولكن ضلاله أعمى قلبه، وأظلم بصيرته، فلم يرى جلال الله، ولم يشهد عظمته، ولم يخش بأسه! وقوله تعالى: «لئن لم ينته لنسفعا بالناصية» هو وعيد وتهديد لهذا الضال." [2]

---

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ٤٥٩/١٣

(٢) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١٦٢٩/١٦

"وليس هذا الأمر للأغنياء على سبيل الوجوب، بل هو للاستحباب والندب.. ولهذا جاء التعبير عنه بقوله تعالى: «فليستعفف» ولو كان للإلزام والوجوب لكان النظم هكذا: «فليعف» .. لأن فى الاستعفاف تردد ومعاودة للفعل بعد الترك، والترك بعد الفعل.. وهكذا.

الآيتان: (٧- ٨) [سورة النساء (٤) : الآيات ٧ الى ٨]

للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا (٧) وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا (٨)

التفسير: هنا يجىء ذكر الميراث، وأحكامه، بعد ذكر اليتامى، وما لهم على الأوصياء- الذين هم من أقارب المورث غالبا- من حقوق..

فاليتم لا يكون إلا بعد موت الوالدين، وخاصة الأب، وكذلك الميراث، لا تقوم أحكامه إلا بعد موت المورث.

وفى قوله تعالى: «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون.. الآية) حكم عام مجمل للميراث، وستجىء الآيات بعد ذلك بأحكامه مفصلة مخصصة.

وقوله تعالى: «وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا» هو تدبير حكيم، من لدن عليم خبير، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور..

فهذا مال ساقه القدر- على غير انتظار- لجماعة من قرابة المتوفى،." (١)

"لا يقل فى نظر الشريعة نكرا عن الأمر الأول، لأن فى هذا عدوانا على حق الله، وتعطيلا لحدوده! وقوله تعالى: «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول»

هو تهديد ووعيد لهؤلاء الذين يدبرون السوء، ويؤامرون أنفسهم وأصحابهم على المنكر، فى خفاء، وحذر، بعيدا عن أعين الناس، حتى لا ينكشف أمرهم، وينفضح حالهم، ويفسد تدبيرهم..

ولكن أين يذهب هؤلاء الذين أخفوا مكرهم السيء عن الناس؟ إنهم إن استخفوا من الناس فلن يستخفوا من الله، الذي لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.. فهو- سبحانه- «يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور» ..

وهو سبحانه: «معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول»

! إنهم فى سكرة يعمهون.. يحسبون أنهم- وقد استخفوا عن الناس- قد غاب أمرهم عن الله، وأنهم وقد أفلتوا من يد الناس- لن تمسك بهم يد الله! وكلا، فإن عين الله لا تغفل، وإن ما بيتوه من سوء قد سجله الله عليهم، وسيأخذهم به.. «وكان الله بما يعملون محيطا» .

وقوله تعالى: «ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا»

---

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ٢/٧٠٤

هو استدعاء لأولئك الذين يتولون الظالمين، ويمكنون لهم من إمضاء مكرهم السيء، وتغطية ما ينكشف عنه، وذلك بالدفاع عنهم، وتبرير أعمالهم المنكرة، والتماس التأويلات الكاذبة لها..." (١)

"هذا على سبيل الفرض وفرض المحال ليس بمحال يعنى لو فرضنا تعدد الخالقين- ركما هو رأى المعتزلة مجوس هذه الامة فالله تعالى أحسنهم اخرج ابن ابى حاتم عن عمر قال وافقت ربى في اربع نزلت ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين الآيات فلما نزلت قلت فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت فتبارك الله أحسن الخالقين الحديث- وهذه القصة تدل على ان ما دون الاية ليس بمعجز يقدر عليه البشر حيث نطق به عمر رضى الله عنه- وقيل ان عبد الله بن سعد بن ابى سرح كان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فنطق بذلك قبل إملائه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هكذا نزلت فقال عبد الله ان كان محمد نبيا يوحى اليه فانا نبى يوحى الى فارتد ولحق بمكة- فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أهدر دمه فيمن أهدر من الدماء فجاء الى عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فصمت طويلا ثم قال نعم فلما انصرف عثمان قال النبي صلى الله عليه وسلم ما صمت الا لتقتلوه فقال رجل هلا او مأت إلينا يا رسول الله فقال ما كان لنبى ان يكون له **خائنة الأعين** ثم اسلم ذلك اليوم وحسن إسلامه قلت ذكر في سبيل الرشاد ارتداده واهدار النبي صلى الله عليه وسلم دمه وشفاعة عثمان وغير ذلك لكن لم يذكر ان سبب ارتداده كان نطقه بهذه الاية قبل إملائه ولا يتصور ان يكون هذا سببا لارتداده لان ارتداده كان بالمدينة وهذه السورة مكية والله اعلم.

ثم إنكم بعد ذلك اى بعد ما ذكرنا من أمركم لميتون (١٥) عند انقضاء اجالكم اى لصائرون الى الموت لا محالة ولذلك ذكر صيغة النعت الذي هو للثبوت دون اسم الفاعل وهذه الجملة مع ما عطف عليه معطوف على ولقد خلقنا الإنسان الى اخر الآيات وفيه التفات من الغيبة الى الخطاب وانما أكد الجملة بان واللام لكون الناس مصرين على ارتكاب المعاصي وذلك دليل على انكارهم الموت والبعث فنزلوا منزلة المنكرين لهما- قال البغوي." (٢)

"فى غير ملكه بلا اذن مالكه وكل ما يفعله الله يفعله فى ملكه إن الله سريع الحساب (١٧) يحاسب الناس كلهم فى قدر نصف يوم من ايام الدنيا بناء على مشيته والا فهو قادر على ان يحاسبهم دفعة فى ان واحد إذ لا يشغله شأن عن شأن-.

وأنذرهم عطف على الاخبار السابقة بتقدير يقال لك انذرهم يوم الآزفة اى القيامة سميت بها لازوافها اى قربها إذ كل ما هو ات قريب إذ القلوب إذ بدل من يوم الآزفة لدى الحناجر فانها ترفع عن أماكنها من شدة الهول فتلتصق بحلوقهم فلا يعود حتى يترحوا ولا يخرج فيموتوا كاظمين مكروبين ممتلين خوفا وو حزنا والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن فى القلب حتى تطيق به- القلوب مبتدا ولدى الحناجر خبره والكاظمين حال من القلوب محمول على أصحابها وانما جمع الكاظم جمع السلامة لانه وصف بالكظم الذي هو من افعال العقلاء ما للظالمين الكافرين والضمائر ان كانت للكفار كان هذا وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بهم وانه لظلمهم من حميم اى قريب مشفق ولا شفيع يطاع (١٨)

---

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ٨٩١/٣

(٢) التفسير المظهري المظهري، محمد ثناء الله ٣٧٢/٦

اى ولا شفيع مشفع لا مفهوم للوصف إذ لا شفيع لهم أصلا فما لهم من شافعين او له مفهوم على زعمهم ان لهم شفعاء اى لو شفعوا فرضا لا تقبل شفاعتهم.

يعلم **خائنة الأعين** اى النظرة الخائنة كالنظرة الى من حرم النظر إليها واستراق النظر إليها او مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة يعنى يعلم خيانة الأعين الجملة خبر اخر لهو فى قوله هو الذى يريكم آياته وما تخفي الصدور (١٩) من الضمائر قيل يعنى ما يتفكر الرجل بقلبه فى جمال امراة اجنبية بعد ما ينظر إليها بشهوة مسارقة.

والله يقضي بالحق لانه المالك على الإطلاق والحكيم والعليم بما ظهر وما بطن فلا يقضى الا بما يقتضيه علمه وحكمته ولا يقضى الا وهو حقه والجملة عطف على يعلم والذين يدعون قرا نافع وهشام بالتاء للخطاب على الالتفات او بإضمار قل والباقون بالياء للغيبة من دونه من الأوثان والشياطين والملوك الجبابرة لا يقضون بشيء لعدم قدرتهم على القضاء إن الله هو." [١]

"السميع البصير

(٢٠) تقرير لعلمه **بخائنة الأعين** وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه بانها لا تسمع ولا تبصر.

أولم يسيروا عطف على محذوف تقديره اينكرون وبال الكفر ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة اى مال اليه امر الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة للرسل كعاد وثمود كانوا هم أشد منهم قوة قدرة وتمكنا جئ بالفصل لمشابهة افعل من بالمعرفة فى امتناع دخول اللام عليه قرأ ابن عامر أشد منكم على الالتفات وآثارا في الأرض من القلاع والمدائن الحصينة وقيل المعنى اكثر اثارا كقوله متقلدا سيفا ورمحا فأخذهم الله بذنوبهم فاهلكهم بالريح او الصيحة او نحو ذلك وما كان لهم من الله من واق (٢١) يمنع عنهم من العذاب حيث لم يلتجئوا اليه الجملة عطف او حال ذلك الاخذ.

بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات اى المعجزات او الاحكام الواضحات الصحة والصلاح فكفروا فأخذهم الله إنه قوي قادر على كل ما يريد غاية القدرة شديد العقاب (٢٢) اى شديد عقابه الجملة تعليل للاخذ القوى-.

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا اى المعجزات التسع وسلطان مبين (٢٣) حجة ظاهرة العطف لتغائر الوصفين او لافراد بعض المعجزات كالعصا تفخيما لشأنه وتخصيصا بعد تعميم.

إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) يعنون موسى عليه السلام تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وبيان لعاقبة بعض من كان قبلهم من الذين كانوا أشد بطشا واقرب زمانا.

فلما جاءهم موسى بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه اى أعيدوا عليهم القتل واستحيوا اى استبقوا نساءهم كما كنتم فعلتم ذلك اولا كى يصدوا عن مظاهرة موسى عليه السلام وما كيد الكافرين وضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل على كفرهم ولتعميم الحكم والدلالة على العلة إلا في ضلال (٢٥) اى فى." [٢]

(١) التفسير المظهري المظهري، محمد ثناء الله ٢٥٠/٨

(٢) التفسير المظهري المظهري، محمد ثناء الله ٢٥١/٨

"ويتناجون أو يتحدثون به فيما بينهم من المطاعن في الدين، وأنه أعلم بضمائرهم، فإنهم إن قالوا: ليتصدقن بشيء من أموالهم، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم، وأنه علام الغيوب، يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، يعلم الله كل ذلك وما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به، وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه؟! والفرق بين السر والنجوى والغيب: أن السر: ما ينطوي عليه صدورهم، والنجوى: ما يتحدث به الناس فيما بينهم. والغيب: ما كان غائبا عن الخلق.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

١- المعاهدة مع الله توجب الوفاء بالعهد، وهل من شرط المعاهدة التلفظ بها باللسان أو لا حاجة إلى التلفظ، وإنما تكفي النية في القلب؟ خلاف بين العلماء، قال المالكية: العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المرء، ولا يفتقر إلى غيره فيه، فإنه يلزمه منه ما يلتزمه بقصده، وإن لم يتلفظ به. سئل مالك: إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه، فقال: يلزمه كما يكون مؤمنا بقلبه، وكافرا بقلبه. وروي عنه غير ذلك كما سيأتي.

وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا يلزم أحدا حكم إلا بعد أن يلفظ به، وذلك يشمل النذور والأيمان والطلاق ونحوها. ودليلهم ما رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم به»

قال ابن عبد البر: هذا هو الأشهر عن مالك، وقال القرطبي: وهذا هو الأصح في النظر وطريق الأثر

لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم به أو تعمل به» .." (١)

"غض البصر وحفظ الفرج يطهران النفوس من دنس الرذائل. والمفاضلة على سبيل الفرض والتقدير، أو باعتبار ظنهم أن في النظر نفعا.

إن الله خبير بما يصنعون أي إن الله عليم علما تاما بكل ما يصدر عنهم من أفعال، لا تخفى عليه خافية، وهذا تهديد ووعيد، كما قال تعالى: يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩] فهو يعلم استراق النظر وسائر الحواس، والخبرة: العلم القوي الذي يصل إلى بواطن الأشياء.

أخرج البخاري في صحيحة تعليقا ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، وزنى الأذنين الاستماع، وزنى اليدين البطش، وزنى الرجلين الخطا، والنفس تمني وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» .

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٣٢٢/١٠

وخلافا لما عليه غالب الخطابات التشريعية من دخول النساء في الحكم بخطاب الرجال تغليبا، أمر الله تعالى المؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج كما أمر الرجال، تأكيدا للمأمور به، وبيان بعض الأحكام التي تخصهن وهي النهي عن إبداء الزينة، والحجاب، والامتناع عن كل ما يلفت النظر إلى زينتهن، فقال تعالى:

وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن أي وقل أيها الرسول أيضا للنساء المؤمنات: اغضضن أبصاركن عما حرم الله عليكن من النظر إلى غير أزواجكن، واحفظن فروجكن عن الزنى ونحوه كالسحاق، فلا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلا، في رأي كثير من العلماء، بدليل

ما رواه أبو داود والترمذي عن أم سلمة: «أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة، فأقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه، وذلك بعد ما." (١)

"رسوله من أحكام في الشريعة لم يشاركه فيها أحد، سواء في مجال الفرض أو التحريم أو الإباحة، ففرضت عليه أشياء لم تفرض على غيره، وحرمت عليه أفعال لم تحرم عليهم، وأبيحت له أشياء لم تبح لهم.

فأما ما اختص به من الفرائض فهو تسعة:

الأول- التهجد بالليل، لقوله تعالى: يا أيها المزمل، قم الليل إلا قليلا [المزمل ٧٣/ ١] ، والصحيح أنه كان واجبا عليه ثم نسخ بقوله تعالى:

ومن الليل فتهجد به نافلة لك [الإسراء ١٧/ ٧٩] .

الثاني- الضحى. الثالث- الأضحى. الرابع- الوتر. الخامس- السواك.

السادس- قضاء دين من مات معسرا. السابع- مشاورة ذوي الأحلام في غير الشرائع. الثامن- تخيير النساء. التاسع- إذا عمل عملا أثبته.

وأما ما اختص به مما حرم عليه فهو عشرة:

الأول- تحريم الزكاة عليه وعلى آله. الثاني- صدقة التطوع عليه، وفي آله اختلاف. الثالث- **خائنة الأعين**: وهو أن يظهر خلاف ما يضمر، أو ينخدع عما يجب. الرابع- حرم الله عليه إذا لبس لأمته (درعه) أن يخلعها عنه أو يحكم الله بينه وبين محاربه. الخامس- الأكل متكئا. السادس- أكل الأطعمة كريهة الرائحة. السابع- التبدل بأزواجه. الثامن- نكاح امرأة تكره صحبته.

التاسع- نكاح الحرة الكتابية. العاشر- نكاح الأمة.

وحرم الله عليه أشياء لم يحرمها على غيره تنزيها له وتطهيرا، فحرم الله عليه الكتابة وقول الشعر وتعليمه، تأكيدا لحجته وبيانا لمعجزته، قال الله تعالى:

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ١٨/٢١٥

وما كنت تتلوا من قبله من كتاب، ولا تخطه بيمينك [العنكبوت ٢٩/ ٤٨] .

وهذا هو المشهور. وذكر النقاش أن النبي صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كتب.." (١)

"ولما علم الله المؤمنين أدب الدخول إلى البيوت وصون الأذن والعين من النظر المحرم، أكده بما يحملهم على محافظته، فقال:

٤- وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أي ما صح وما ينبغي لكم أن تكونوا سببا في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو تفعلوا فعلا يضايقه ويكرهه، كالمكث في منزله والاشتغال بالحديث، فكل ما منعتم عنه مؤذ، فامتنعوا عنه، فإنه صلى الله عليه وسلم حريص على ما فيه إسعادكم وخيركم في الدنيا والآخرة، ومن أشد أنواع الأذى ومما هو حرام عليكم أن تتزوجوا أبدا بنسائه بعد مفارقتهن بموت أو طلاق، تعظيما له، ولأنهن أمهات المؤمنين، ولأنه ذنب عظيم كما قال تعالى:

إن ذلكم كان عند الله عظيما أي إن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ونكاح أزواجه من بعده ذنب عظيم وإثم كبير. وفي هذا تعظيم الأمر، وتشديد فيه وتوعد عليه، ثم أكد ذلك بالبعد عن الإيذاء في الباطن والظاهر فقال:

إن تبدوا شيئا أو تخفوه، فإن الله كان بكل شيء عليما أي إن تظهروا شيئا من الأذى أو تكتموه، فإن الله عليم علما تاما دقيقا به، يعلم ما تكنه ضمائركم، وتنطوي عليه سرائركم، ولا تخفى عليه خافية: يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩] وهو مجاز كل إنسان بحسب ذلك العلم.

ثم استثنى الله تعالى من حكم حجاب أزواج النبي على الأجانب المحارم ونساء المؤمنين والأرقاء، فقال:

لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن، واتقين الله، إن الله كان على كل شيء شهيدا أي لا إثم على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في ترك الحجاب أمام آبائهن." (٢)

"في ساعة واحدة.

جاء في الخبر: «ولا ينتصف النهار حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار» .

والخلاصة: ذكر الله تعالى ست صفات ليوم القيامة: وهي كونه يوم التلاق، وكون الخلق بارزين ظاهرين فيه، ولا يخفى على الله منهم شيء، ويظهر فيه الملك التام لله الواحد القهار، وتجزى فيه كل نفس بما كسبت من خير أو شر، ولا ظلم في الحساب الذي هو سريع الإجراء والتنفيذ وتحقيق المطلوب.

أوصاف أخرى هائلة رهيبة ليوم القيامة

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٢]

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٧٢/٢٢

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٨٨/٢٢

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)

الإعراب:

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع إذ بدل من يوم الآزفة الذي هو مفعول به ل أنذرهم لا ظرف، لأن الإنذار لا يكون يوم الآزفة. والقلوب مبتدأ، ولدى الحناجر خبر. وكاظمين." (١)

"حال من ضمير لدى أو حال من أصحاب القلوب. و: من في من حميم زائدة، تقديره:

ما للظالمين حميم ولا شفيع. ويطاع جملة فعلية صفة ل شفيع.

أولم يسيروا في الأرض فينظروا.. فينظروا إما منصوب على جواب الاستفهام بالفاء بتقدير «أن» أو مجزوم عطفا على يسيروا وكيف في موضع نصب، لأنها خبر كان وعاقبة: اسم كان المرفوع، وفي كيف ضمير يعود على العاقبة. ويجوز جعل كان تامة، فلا تحتاج إلى خبر، فيكون كيف ظرفا ملغى لا ضمير فيه. وكذلك كانوا في قوله: الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد يجوز فيها الوجهان، ويكون أشد إذا جعلت كان بمعنى «وقع» حالا. وقوة تمييز. وجملة كان واسمها وخبرها مفعول: ينظروا. وكانوا هم أشد منهم قوة جواب كيف.

البلاغة:

ما للظالمين أي الكفار، فيه وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على اختصاص ذلك بهم، وإنه لظلمهم.

أولم يسيروا في الأرض؟ استفهام إنكاري.

السميع البصير من صيغ المبالغة.

المفردات اللغوية:

يوم الآزفة يوم القيامة، سميت بها لأزوفها، أي قربها، يقال: أزف الرحيل يأزف أزفا: قرب إذ القلوب لدى الحناجر ترتفع خوفا عند الحناجر أي الحلوق، جمع حنجرة أو حنجور كحلقوم لفظا ومعنى. للظالمين الكفار كاظمين ممتلئين غما حميم قريب نافع أو محب ولا شفيع يطاع مشفع أي تقبل شفاعته، ولا مفهوم للوصف: يطاع إذ لا شفيع لهم أصلا كما قال تعالى فما لنا من شافعين [الشعراء ٢٦/ ١٠٠] أوله مفهوم بناء على زعمهم أن لهم شفعاء أي لو شفعوا فرضا لم يقبلوا. يعلم الله **خائنة الأعين** أي النظرة الخائنة، كالنظرة الثانية إلى الحرام، واستراق النظر إليه، فالمراد الأعين الخائنة: وهي التي

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٩٦/٢٤

تختلس النظر إلى المحرم وتسارقه وما تخفي الصدور القلوب، أي ما تكتمه الضمائر. والجملة خبر خامس للقلوب، للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء.." (١)

"والله يقضي بالحق لأنه المالك الحاكم على الإطلاق، فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه والذين يدعون يعبدون، أي كفار مكة من دونه أي الأصنام لا يقضون بشيء فكيف يكونون شركاء لله؟ وهذا تهكم بهم، لأن الجماد لا يقال فيه: إنه يقضي أو لا يقضي إن الله هو السميع البصير السميع لأقوالهم البصير بأفعالهم، وهذا تعليل وتقرير لعلمه **بخائنة الأعين** وقضائه بالحق، ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريض بحال ما يدعونه من دونه.

عاقبة الذين كانوا من قبلهم مآل حال الذين كذبوا الرسل قبلهم كعاد وثمود كانوا هم أشد منهم قوة قدرة وتمكنا وآثارا في الأرض من قلاع ومصانع وقصور ومدائن حصينة فأخذهم الله أهلكهم واق حافظ يدفع عنهم السوء أو العذاب.

بالبينات بالمعجزات الظاهرات والأحكام الواضحة إنه قوي متمكن مما يريده غاية التمكن شديد العقاب ليس هناك عقاب أشد منه.

المناسبة:

بعد بيان كون الأنبياء ينذرون الناس يوم التلاق، أتى بأوصاف هائلة رهيبة أخرى ليوم القيامة، لتخويف الكفار بعذاب الآخرة، ثم خوفهم بعذاب الدنيا المماثل لإهلاك الأمم السابقة الذين كذبوا الرسل.

التفسير والبيان:

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين أي خوف أيها الرسول الكفار يوم القيامة، ليؤمنوا ويقلعوا عن الشرك، ذلك اليوم الذي لكأن القلوب تزول من مواضعها من الخوف، وترتفع حتى تصير إلى الحلوق، حال كون أصحابها مكروبين ممتلئين غما.

ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع أي وحال كون أولئك الكافرين ليس لهم قريب ينفعهم، ولا شفيع مشفع تقبل شفاعته لهم.

والمقصود بالآية تخويف الكفار وترويعهم من شدة الخوف وأهوال يوم." (٢)

"القيامة. وفي الآية إشارة إلى أن الكفار يوم القيامة يشتد خوفهم، حتى لكأن قلوبهم لدى حلوقهم، وفيها تصريح بعدم جدوى شفاعة الأصنام كما زعموا و تأملوا.

والقيامة وإن طال زمانها في تقدير الناس إلا أنها آتية من غير أي شك فيها، وكل آت قريب، كما قال تعالى: اقتربت الساعة وانشق القمر [القمر ٥٤/ ١] وقال جل وعلا: اقترب للناس حسابهم [الأنبياء ٢١/ ١] وقال سبحانه: أتى أمر الله فلا تستعجلوه [النحل ١٦/ ١] وقال عز وجل: فلما رأوه زلفة، سيئت وجوه الذين كفروا [الملك ٦٧/ ٢٧] .

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٩٧/٢٤

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٩٨/٢٤

ثم أعلمهم تعالى بشمول علمه وضبطه ودقته، فقال:

يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور أي إن الله يعلم النظرة الخائنة التي ينظرها العبد إلى المحرم، ويعلم ما تسره الضمائر من أمور خيرة أو شريرة، حتى حديث النفس أو خواطر النفس. وهذا يعني أن علم الله تام محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة، وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر، أي مضمرات القلوب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها «١» .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة وابن المنذر.." [(١)]

"عليم

، والله بما تعملون عليم ودليل على إحاطة علم الله بالأشياء لأن من ملك شيئا وخلقه، فلا بد من أن يعلمه، كقوله تعالى: ألا يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير [الملك ٦٧/ ١٤] ، وكذلك من ملك شيئا فله حسابه على أفعاله وما يخفيه صدره، ومنها كتمان الشهادة، وصاحب السلطة المطلقة في شيء وهو الحساب، له الإرادة المطلقة في العفو عمن شاء ممن أخطأ، وعقاب من شاء، وذلك كله مقترن بالقدرة المطلقة على كل شيء.

وللآية أمثال كثيرة في القرآن الكريم نحو: قل: إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله، ويعلم ما في السماوات وما في الأرض، والله على كل شيء قدير [آل عمران ٣/ ٢٩] ونحو: فإنه يعلم السر وأخفى [طه ٢٠/ ٧] يعلم **خائنة الأعين**، وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩] .

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى في هذه الآية أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر والسرائر والضمائر وإن دقت وخفيت، وأنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما قال ابن كثير فلله ما في السموات وما في الأرض ملكا وخلقا وتصريفا وعلما، وهو العليم بكل شيء، فإن تظهروا ما في قلوبكم من السوء والعزم عليه، أو تكتموه عن الناس وتخفوه، فالله يحاسبكم عليه ويجازكم به، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وهو يغفر بفضله لمن يشاء من عباده، ويعاقب من يشاء عقابه، ومما يكون عونا على المغفرة توفيق الله عبده إلى التوبة

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٩٩/٢٤

والعمل الصالح، كما قال تعالى: ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك، وقهم عذاب الجحيم. ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم، ومن صلح من." (١)

"وقال الحنفية: يحلف بالله لا غير، فإن اتهمه القاضي، غلظ عليه اليمين، فيحلفه «بالله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم الذي يعلم من السر ما يعلم من العلانية، الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور» .

وزاد الشافعية: التغليظ بالمصحف. وقال أحمد: لا يكره ذلك.

٨- قدر المال الذي يحلف به: قال مالك: لا تكون اليمين في أقل من ثلاثة دراهم، قياسا على حد القطع في السرقة. وقال الشافعي: لا تكون اليمين في ذلك في أقل من عشرين دينارا قياسا على الزكاة، وكذلك عند منبر كل مسجد.

٩- الأصل قبول أخبار الشهود وتصديقهم دون يمين لقول الله تعالى:

ولا يضار كاتب ولا شهيد وشرط في تحليف الشاهدين الارتياب في خبرهما، فإذا لم يكن الشاهدان عدلين وارتاب الحاكم بقولهما حلفهما، بدليل قوله تعالى:

إن ارتبتم ومتى لم يقع ريب فلا يمين. وأصبح تحليف الشهود السمة العامة في المحاكم الحالية. وسبب الريبة في الآية: هو الاحتياط لقبول شهادة الكافر بدلا عن شهادة المسلم للضرورة. وقد حلف ابن عباس المرأة التي شهدت بالرضاع.

١٠- تجيز الآية شهادة المدعين لأنفسهم واستحقاقهم بمجرد أيمانهم: وهذا مخالف للمقرر في الشريعة: أن البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر. وهو محض العدل، وقد أجاب الجمهور بأن حكم الآية هذا منسوخ.

وأما جواب القائلين بأن الآية محكمة غير منسوخة: فهو قبول يمين المدعي بسبب العثور على خيانة المدعى عليه واستحقاقه الإثم، وهذا موافق للأصول حيث يتقوى جانب المدعي بالشاهد، أو بنكول خصمه عن اليمين، أو قوة جانبه باللوث (القرينة على القتل) ، أو قوة جانبه بشهادة العرف في تداعى." (٢)

"بالظالمين

ثم ذكر هنا مدى سعة علمه وقدرته، فعنده مفاتح الغيب، وهو المتصرف في الخلق أجمعين، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحافظ المتوفي، وهو المحاسب خلقه في أسرع وقت.

التفسير والبيان:

خزائن الغيب ومفاتيحها التي يتوصل بها إلى علم الغيب عند الله، وهو المتصرف فيها، وهو عالم الغيب والشهادة، ولا يعلم بالغيب أحد سواه، وينفذ منها ما يراه في الوقت المناسب لحكمته.

والغيبيات التي اختص الله بها خمس،

روى البخاري عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: إن الله عنده علم

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ١٢٧/٣

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ١٠٥/٧

الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير» [لقمان ٣١/ ٣٤] .

وجاء في الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك.

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: قل: لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله [النمل ٢٧/ ٦٥] .

وفي معناها أيضا قوله تعالى: عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول [الجن ٧٢/ ٢٦- ٢٧] .

ويعلم سبحانه حديث النفس، ويعلم السر وأخفى، فقال: وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون. وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين [النمل ٢٧/ ٧٤- ٧٥] وقال: يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور [غافر ٤٠/ ١٩] ".. [1]

"والمراد بالسؤال حينئذ تقريع الكفار وتوبيخهم، فلما أقروا بأنهم كانوا ظالمين مقصرين، سئلوا بعد ذلك عن سبب ذلك الظلم والتقصير.

والتوفيق أو الجمع بين قوله: فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين وبين قوله: فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان [الرحمن ٥٥/ ٣٩] وقوله: ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون [القصص ٢٨/ ٧٨] : هو أن ليوم القيامة مواقف وأحوالا متعددة، فقد يكون السؤال والجواب في بعضها دون بعض، وقد يكون السؤال لأجل الاسترشاد والاستفادة، وقد يكون لأجل التوبيخ والإهانة.

وقال الرازي: إن القوم لا يسألون عن الأعمال لأن الكتب مشتملة عليها، ولكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال، وعن الصوارف التي صرفتهم عنها «١» ، أي الموانع التي حالت بينهم وبين التزام الأحكام الشرعية.

فلنخبرن عن علم ومعرفة وإحاطة تامة الرسل وأقوامهم بكل ما حدث منهم، فلا يغيب عنا شيء قليل أو كثير، وإن كان مثقال ذرة من خردل في صخرة أو في السموات أو في الأرض. قال ابن عباس في آية: فلنقصن عليهم بعلم: يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كان يعملون.

وما كنا غائبين عنهم في وقت أو حال، بل كنا معهم نسمع قولهم، ونبصر فعلهم، ونعلم ما يسرون وما يعلنون، ونخبر العباد يوم القيامة بمنا قالوا وبما عملوا من قليل وكثير، وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم **بخائنة الأعين** وما تخفي الصدور، كما قال: وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات

---

(١) تفسير الرازي: ١٤/ ٢٣ [.....]."[2]

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٢٢٨/٧

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ١٤٤/٨

"فعلى الحكام أن يبحثوا في القضية، ويدققوا النظر في شكلها وموضوعها، ولا تغرنهم بلاغة الخصم ولحنه في القول، ولا تأخذهم العاطفة الدينية أو الجنسية فيميلوا لبني جنسهم أو دينهم، ولعل السر فيما دار في خلد النبي صلى الله عليه وسلم أن طعمة المسلم يغلب عليه الصدق، وذاك اليهودي يغلب عليه الكذب والخداع.

والثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحكم في هذه القضية قبل نزول القرآن ولم يعمل بغير ما يعتقد لكنه أحسن الظن في المسلم، فبين له علام الغيوب حقيقة الأمر.

واستغفر- يا محمد- الله مما يعرض لك من شئون البشر وميلك إلى من هو ألحن بحجة أو إلى من هو مسلم لإسلامه فهذا وإن لم يكن ذنبا إلا أنه في صورة الذنب. إن الله كان غفورا لذنوب عباده، ستارا رحيما بهم.

ولا تجادل- يا محمد- عن الذين يخونون أنفسهم بتعديهم على حقوق الغير، إن الله لا يحب بل يبغض من كان كثير الخيانة دائبا على ارتكاب الإثم، واجتراح السيئة!! والخيانة مطلقا تقتضي عدم المحبة من الله لصاحبها، ولكن الوصف المبالغ فيه في الآية لبيان ما كان عليه من طعمة وأقاربه، هؤلاء وأمثالهم الذين يأخذون المال خفية يستخفون من الناس، ويستترون منهم حياء وخوفا، ويا للعجب العجاب!! يستخفون من الله عالم الغيب والشهادة الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور، وبالضرورة يعلمهم ويشاهدهم وقت أن يدبروا ليلا ما لا يرضى الله ورسوله، تبرئة لأنفسهم ولصاحبهم ولرمي غيرهم بالجريمة وهم يعلمون أنه برىء، وما ذاك إلا لضعف دينهم ولصدأ قلوبهم، وكان الله بما يعملون محيطا وحافظا لهم، فكيف ينجون من عقابه؟

أيها الأقارب لطعمة: ها أنتم أولاء جادلتم عن صاحبكم ومن وقف معه تبرئة له، زورا وبهتانا، جادلتم في الدنيا، فمن يجادل عنهم يوم القيامة؟ يوم تكشف السرائر، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله؟ بل من يكون عليهم وكيلا ومدافعا عنهم؟ لا أحد إلا أعمالهم تنطق عليهم، فلينظر كل إلى عمله.

ومن يعمل سوءا يتعدى جرمه إلى غيره أو يظلم نفسه بفعل معصية خاصة، ثم هو يرجع إلى الله ويتوب نادما على فعله فإنه يجد الله غفورا رحيما يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، لأنه كتب على نفسه الرحمة، فلا تيأسوا من رحمته، ومن يفعل." (١)

"الجزية! انطلقا حتى تفرغا ثم عودا، ولم يعطهما شيئا، ثم أقبلا على النبي صلى الله عليه وسلم بصدقة السلمى الذي أعطاهما من خيار ماله، فلما رآهما النبي مقبلين قال: «يا ويح ثعلبة» ثم دعا للسلمى بالبركة، فنزلت الآية الكريمة وحينما بلغت ثعلبة عاد إلى رسول الله ومعه الصدقة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله منعني أن أقبل منك»

وهكذا لحق النبي بالرفيق الأعلى ولم يقبلها منه ونهج الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان هذه السيرة ومات ثعلبة في خلافة عثمان.

المعنى:

---

(١) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ١/٤٢٦

وبعض المنافقين عاهد الله ورسوله لئن أعطاه الله مالا كثيرا ليصدقن، ويعطى كل ذي حق حقه. وليكونن من عباد الله الصالحين، فلما آتاه الله مالا وأغناه من فضله، بخل بالمال وشح بالخير، وأمسك فلم يتصدق بشيء، وبدل أن يصلح نفسه وأمته بالإنفاق كما عاهد الله وأقسم على ذلك، أعرض عن ذلك وتولى وهو معرض بكل قواه إعراضا راسخا ثابتا، وهذا طبع في المنافقين لازم لهم راسخ فيهم.

فأعقبهم ذلك البخل وهذا الإعراض نفاقا من النوع العالي الدائم إلى يوم القيامة، ولا غرابة فكل معصية وإن صغرت تحجب شيئا من نور الإيمان حتى إذا كثرت المعاصي حجبت جميع النور فأصبح القلب في ظلمات الفساد والعصيان والنفاق غارقا. كل هذا بسبب ما أخلفوا الله وعده، كما في قصة ثعلبة وأضرابه من المنافقين، وبما كانوا يكذبون ... فآية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان «١» . صدق رسول الله.

ألم يعلم هؤلاء أن الله يعلم سرهم ونجواهم، وأن الله علام الغيوب يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور؟!! فالله يعلم كل هذا، ولكن المنافقين لا يعلمون..

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٨٣، ٨٤ في الإيمان باب علامات المنافق ومسلم ٥٩ في الإيمان.." (١)

"ويخفف من حدتها، ويوجهها إلى الوجهة العليا إلا الخوف من الله، وتلاوة القرآن ومدارسة الحديث، ومجالسة العلماء، والانضمام إلى الجمعيات الدينية حتى يشغل فراغه ويصرف وقته في النافع، وإن أساس الوقوع في المعصية هو الشباب والفراغ والمال فإذا أمكننا صرف الشباب إلى الوجهة النافعة، وشغل وقتهم وفراغهم بالهوايات الصالحة النافعة كالرياضة البدنية وغيرها توصلنا بهذا إلى التقليل من وقوع الجرائم الجنسية. والنبي صلى الله عليه وسلم قد عالج هذا الموضوع بقوله «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة- أى:

النكاح- فليتزوج وإلا فعليه بالصوم فإنه له وجاء»

ولا شك أن في الصوم جنة، ورياضة روحية، وإضعافا للقوة الجسمية.

يا جماعة المسلمين: لولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا وكيف يسير الإنسان على الصراط المستقيم، وهو بين قائد ضال ودافع أضل؟ ولكن الله يزكى من يشاء، ويهدى إليه من ينيب، والله سميع عليم، ويعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور، وهو يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.

أليس في هذا خير لنا وهداية؟ نسأله التوفيق والسداد.

ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أى: لا يحلف أصحاب الغنى والجاه أن يؤتوا أولى القربى والمساكين مما أعطاهم الله من خيره جزاء ما اشتركوا في إثم الإفك، وهذا نهى لأبى بكر حتى لا يمنع مسطحا من النفقة التي كان يجريها، وهكذا كل مسلم. وليعفوا عن السيئات، وليصفحوا عن العصاة والمذنبين، ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ وهذا تمثيل أى كما تحبون أن يغفر الله لكم، فاغفروا أنتم لمن دونكم

---

(١) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٩١١/١

«من لا يرحم لا يرحم»
والله سبحانه كثير المغفرة والرحمة فاقتدوا به واعملوا بما أمر فهو خير لكم.

نهاية القصة [سورة النور (٢٤) : الآيات ٢٣ الى ٢٦]
إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم (٢٣) يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (٢٤) يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين (٢٥) الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم (٢٦)." (١)

"وببعد الزنى، فالإذن قبل الدخول، والحجاب وعدم النظر ومنع الاختلاط مما يباعد بلا شك بين الشخص وبين الخطر.

المعنى:
قل يا محمد، وكذا كل رئيس للمؤمنين أو إمام لهم، قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويكفوها عن النظر إلى الأجنبيات غير المحارم، ويحفظوا فروجهم من كل منكر كالنظر واللمس والزنى، وانظر إلى قوله- تعالى- وقد قدم تحريم النظر على حفظ الفروج التي هي المقصود الأساسى من الكلام ليعلم الناس جميعا ما للنظر من خطر وأثر، وأنه رسول الشهوة: وبريد الزنى، وبذرة الفسق والفجور.
وخص المؤمنين بالذكر لأنهم الممتثلون المنتفعون بهذا. ذلك أزكى لهم وأطهر، وأبعد عن الشك وأنفى للريبة، وأبقى للنفس طاهرة زكية بعيدة عن الخطر. واعلموا أيها الناس أن الله خبير بما تصنعون، فراقبوا الله واتقوا عذابه، واعلموا أنه يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون.
وكل أمر في القرآن للمؤمنين فهو كذلك للمؤمنات، ولكنه أعيد الحكم هنا مع المؤمنات لأن النساء في أشد الحاجة إلى ذلك، على أن الحكم من أخطر الأحكام التي تقتضي التفصيل والبيان.
وقل: أيها القائد والمربى والمشرف على المؤمنات وتربيتهن والإرعاء عليهن سواء كنت حاكما أو زوجا أو معلما قل لهن يغضضن من أبصارهن، ويمنعن بعض أبصارهن عن النظر أما النظر جملة فمنعه شاق وعسير، ولقد صدق رسول الله حيث يقول: «لك الأولى وعليك الثانية» أى لك النظرة الأولى دون الثانية، فالمنهى عنه النظر الذي يتجاوز الحد المعروف شرعا.
وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، ولا يبدين مواضع الزينة منهن، وإنما نهى القرآن عن الزينة والمراد مواضعها للمبالغة في المنع، إلا ما جرت به العادة بكشفه لاقتضاء الضرورة ذلك كالوجه والكفين، لأنه لا غنى عن كشفهما.
وقد كانت العادة المتفشية في الجاهلية أن تكشف المرأة عن نحرها وصدرها وللأسف." (٢)

---

(١) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٢/٦٦٧
(٢) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٢/٦٧٤

"للحساب، ويخوفونهم يوما يبرزون فيه أمام الحق- تبارك وتعالى- ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة [الأنعام ٩٤] بروزا أمام الله لا حول لهم ولا قوة ولا ساتر ولا وقاية من عذابه لا يخفى على الله منهم شيء.
يا حسرتا على القوم الكافرين!! يقول الله- تعالى- بعد فناء الخلق أجمعين، أى: بعد النفخة الأولى: لمن الملك اليوم؟ فيجيب الله: لله الواحد القهار، فالسائل والمجيب هو الله، أو هو على لسان ملك، أو حال الخلائق ناطقة بذلك.
اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب فهو لا يشغله حساب عن حساب.

تخويف الكفار وترويعهم [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٢]
وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)." (١)
"المفردات:
الآزفة المراد: يوم القيامة سميت بذلك لقربها إذ كل ما هو آت قريب، ويقال: أزف الرحيل يأزف أزفا: إذا قرب كاظمين: ممتلئين غما الحناجر: جمع حنجرة وهي الحلقوم حميم: قريب نافع **خائنة الأعين:**
المراد الأعين الخائنة وهي التي تختلس النظر إلى المحرم وتسارقه واق: حافظ يدفع عنهم السوء.
وهذا وصف آخر لأهوال يوم القيامة حتى يرتا ع الكفار وتمتلئ قلوبهم روعة ورهبة.

المعنى:
وأنذر الناس وخاصة الذين يجادلون في آيات الله بالباطل، أنذرهم يوم القيامة اقتربت الساعة وانشق القمر «١» ، والقيامة وإن بعد زمانها إلا أنها آتية لا شك فيها، وكل آت قريب أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة «٢» إذ «٣» القلوب لدى الحناجر كاظمين، والمراد تخويفهم وترويعهم من ذلك اليوم وقت أن تكون القلوب لدى الحناجر، وهذه العبارة كناية عن شدة الخوف والوجل إلى درجة أن تخلع القلوب من أماكنها حتى تصل إلى الحلقوم فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون «٤» حالة كون أصحاب القلوب كاظمين، أى: مكروبين وساكتين مع امتلائهم غما وحزنا.
ومن هنا فهمنا أن الكفار يوم القيامة يخافون خوفا شديدا يجعل قلوبهم لدى حلقومهم وأنهم من شدة الهم والخوف ساكتون فلا يستطيعون الكلام، ليس للظالمين- وهم أو لهم- حميم يدافع عنهم من صديق أو قريب، وليس لهم شفيع يشفع لهم ويجادل عنهم، وكانوا يعبدون الأصنام على أنها شفعاء عند الله.

---
(١) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٣/٢٩٥

(١) – سورة القمر آية ١.

(٢) – سورة النجم الآيتان ٥٧، ٥٨.

(٣) – (إذ) بدل من (يوم الآزفة) و (لدى الحناجر) خبر، و (كاظمين) حال من القلوب، على معنى قلوبهم.

(٤) – سورة الواقعة الآيتان ٨٣، ٨٤.." [1]

"وهذا الذي يحاسبهم يوم القيامة يعلم الأعين الخائنة التي تسرق النظر إلى المحرم وتختلسه اختلاسا حتى لا يشعر بها أحد من الجالسين، ويعلم ما تخفيه الصدور من الرغبات والحاجات والنوايا، والإنسان يصدر عنه عمل نفسي قلبي أو عمل بالجوارح، فإذا كان الله يعلم أدق شيء عن جوارح الإنسان وهو النظر خلسة فمن باب أولى أن يعلم اليد التي تبطش والرجل التي تسير واللسان الذي يتكلم، ويعلم كذلك خطرات القلوب وما تخفيه الصدور وهو يعلم السر وأخفى، ويا ويلنا إذا كان يحاسبنا وهو من يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور!! والله يقضى بالحق، لا ظلم اليوم، فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل أتى بها الله وكفى به خير الحاسبين.

والذين يدعوهم من دونه لا يقضون بشيء، وكيف يقضون، وهم لا يعلمون شيئا، إن الله هو السميع لكل قول، والعليم بكل فعل، وسيجازى على ذلك كله.

نرى أن القرآن ملأ قلوبهم خوفا ورعبا من ذلك اليوم لو كانوا يعقلون، فذرك أنه قريب، وأن القلوب تنخلع فيه لهول ما ترى، وأن المجرمين لا يستطيعون الكلام مع امتلاء قلوبهم غيظا، وليس لهم صديق ولا حميم ولا شفيع يطاع، والحاكم يومئذ عالم بكل شيء لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وهو يقضى بالحق فلا محاباة عنده، وهؤلاء الأصنام لا تنفع عنده بشيء، وهو وحده السميع البصير.

ولما بالغ الحق- تبارك وتعالى- في تخويفهم من يوم القيامة أردفه بإنذارهم وتخويفهم في الدنيا، وبيان ما عمله الله مع من كفر وعذب الرسل السابقين لعلهم يتعظون فقال ما معناه:

أغفلوا ولم يسيروا «١» في الأرض التي هي حولهم وفي طريقهم فينظروا نظرة اعتبار وموعظة ما حل بالأمم السابقة لما كذبت رسلهم كعاد وثمود وغيرهما، وهؤلاء السابقون كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا، وقد مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم، وقد أثاروا الأرض وزرعوها، وأصبحت لهم مدن وحضارة، وزراعة وصناعة ولكنهم

---

(١) الاستفهام إنكارى، و (كيف) خبر مقدم لكان، و (عاقبة) اسمها، والجملة من كان واسمها وخبرها في محل نصب على المفعول لينظروا، وقوله تعالى: (كانوا هم أشد منهم قوة) جواب (كيف) .." [2]

---

(١) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٢٩٦/٣

(٢) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٢٩٧/٣

"ولا يغتب بعضكم بعضا

ولقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا. الله ورسوله أعلم، قال: «هي ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت لو كان في أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» .

والغيبة تباح عند رفع الظلم، والشهادة في الخصومات، والاستشارات العامة، وكالتشنيع على المتجاهر بالمعصية، وما أروع هذا التمثيل حيث يقول الله: أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا وحقا من ولغ في العرض فكأنه أكل اللحم من أخيه وهو ميت لا يقدر على رده، وكذلك المغتاب في غيبة أخيه ينهش من عرضه وهو لا يستطيع رده، فهذا أسلوب غاية في التنفير من الغيبة، ثم أتبع ذلك بقوله:

فكرهتموه فقد صور المغتاب بصورة من يحب شيئا، حقه أن يكون في غاية الكراهية وهو أكل لحم الأخ، وزاده أن صوره بصورة الميت، وحقه أن يكون منه أنفر، وخلاصة المعنى: إن يفعل ذلك أحد فقد كرهتموه واتقوا الله الذي يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور وتوبوا إليه إنه هو التواب الرحيم، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم.

«وبعد» : فالغيبة عادة مرذولة، وصفة مستهجنة، كثيرا ما أودت بالصلات، وأثارت الأحقاد، وشتتت من جمع، وفرقت من شمل، وهي مع هذا عذابها شديد وعقابها أليم، وهي بالفساق أولى فاتقوا الله واجتنبوها

«وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» صدق رسول الله.

ما مضى كانت إرشادات إسلامية يوجهها الله إلى المؤمنين ليبين لهم أن مقتضى الإيمان ألا يحصل هذا منكم كما عرفنا سابقا. وهنا قال: «يا أيها الناس» لأن هذا الداء الذي هو التفاخر والتباهي بالأنساب والأحساب داء قديم عام في جميع الأمم، فهو يعرض للناس من حيث كونهم ناسا فهو في طبيعة الإنسان، ولقد عالج الله هذا الداء علاجا حاسما حكيما، فإنك تفضل هذا على ذاك إذا كان من معدن وهو من آخر، أو هذا من صنع فلان، وذاك من صنع فلان، فإذا كانت المادة واحدة والصانع واحدا ففيم إذن الاختلاف والتفاضل؟!." (١)

"هو الأول فليس قبله شيء، إذ هو السابق على جميع الموجودات لأنه مصدرها، وهو الآخر لأنه الباقي بعد فناء خلقه، وهو الظاهر وجوده لكثرة الدلائل المادية والمعنوية عليه، وهو الباطن فلا تعرف العقول ذاته على حقيقتها، ولا تدركها الأوهام وهو بكل شيء عليم،

روى في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر!»

. هو الذي خلق السموات والأرض «١» في ستة أيام، الله أعلم بمقدارها، وهو القادر على خلقها في لحظة إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون «٢» لكنه ذكر هذه المدة ليعلم العباد التأني والتثبت في الأمور، وليعلمهم أن خلق السموات والأرض أكبر من خلقهم، وليس هو بالهين لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس «٣» .

ثم استوى على عرشه، واستقام أمره، واستقر على حسب ما يريده مما لا يعلم ذلك إلا هو، وهذا هو رأى السلف، وأما

---

(١) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٥١٠/٣

الخلف فيؤولون قائلين: استوى على عرشه بعد تكوين خلقه بمعنى أنه يدبر الأمر ويفصل الآيات، يعلم ما يلج في الأرض ويدخل فيها من نبات وبذور، وإنسان ومعادن وكنوز، وما يخرج منها من زروع وثمار، ومياه وجثث وغيرها، وهو يعلم ما ينزل من السماء من مطر أو شهب أو ملك أو آيات، وما يعرج فيها ويصعد إليها من عمل أو ملك أو غيره، وهو معكم بعلمه وقدرته أينما كنتم، والله بما تعملون بصير.

له ملك السموات والأرض، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وإلى الله وحده ترجع الأمور، يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، بمعنى أنه يدخل هذا في زمن ذاك، وبالعكس، ونحن في مصر نرى الليل في الشتاء طويلا بينما يكون النهار في الصيف قصيرا، وفي الصيف يكون العكس، وفي الربيعين يتساوى الليل والنهار، سبحانه من قادر حكيم! وهو العليم بذات الصدور ومكنوناتها التي لا تفارقها يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور «٤» سبحانه وتعالى عما يشركون؟

---

(١) - الظاهر والله أعلم أن هذه الجمل بيان وتفسير لتمام ملكه ولذا فصلت عن سابقتها.

(٢) - سورة يس آية ٨٢.

(٣) - سورة غافر آية ١٩.

(٤) - سورة غافر آية ٥٧.." (١)

"والمعنى: ويسألك الناس عن أمر اليتامي، قل إصلاح لهم خير من تركهم أو ظلمهم. والإصلاح يتناول كل نفع يعود عليهم من: تنمية أموالهم، وحسن تربيتهم، وتوليتهم بعض أمورهم المالية، ليديروها تحت رقابة أوصيائهم، ونحو ذلك.

ولذا نكر ﴿إصلاح﴾ ليتناول كل فروعه. ونكر ﴿خير﴾ ولم يقيد بقيد، ليفهم منه أنه "خير" مطلق: يعم الأوصياء والأيتام. فالخير للأوصياء: جزيل الثواب وحسن الذكر. والخير للأيتام: يسارهم وطيب نشأتهم، ليكونوا نافعين لأنفسهم وأمتهم.

﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾:

أي: إن تخالطوهم - في الطعام والشراب والمسكن - تؤدوا اللائق بكم، فإنهم إخوانكم في الدين.

والمقصود: الحث على المخالطة، بشرط الإصلاح.

﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾:

وقد حذر الله المخالطين من الإفساد عند المخالطة لها فيجازي كلا منهما بما يستحقه، فإن الله لا تخفى عليه خافية: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ (١).

فالمؤمن ينبغي أن يراعي هذا، فيرغب في إصلاح أحوال اليتيم: طلبا لثواب الله، ويرغب عن الإفساد، خشية عقاب الله:

﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾:

أي: ولو شاء الله لضيق عليكم، بأن لم يجوز لكم مخالطتهم، لترعوا مصالحهم دون مخالطة. ولكنه - سبحانه - رحيم بعباده، رءوف بهم، ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ (٢).

---

(١) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٣/٦١٠

﴿إن الله عزيز حكيم﴾:

أي إن الله غالب على كل شيء: لا يعجزه أمر أراده، وفي جملته إعانتكم ﴿حكيم﴾ فيما يشرعه من أحكام. ومن جملة ذلك: أنه شرع لكم ما تقتضيه الحكمة، وتتسع له الطاقة البشرية: التي هي أساس التكليف.

---

(١) غافر: ١٩

(٢) الحج: ٧٨." (١)

"وقد ذكروا تفضيلات عن جوهر كل سماء وعن المسافة بين كل سماء وأخرى وبين كل أرض وأخرى.

وهذا ونحوه حقيق بأن نكل أمره إلى الله عالم الغيب والشهادة.

(يتنزل الأمر بينهن) أي: يجري أمر الله - تعالى - وقضاؤه وقدره - عز وجل - بينهن، وينفذ حكمه فيهن، وعن قتادة في كل سماء وفي كل أرض خلق من خلقه وقضاء من قضائه - عز وجل - وقيل: (يتنزل الأمر بينهن) بحياة وموت وغنى وفقر.

وقال مقاتل: (الأمر) هنا الوحي و (بينهن) إشارة إلى ما بين هذه الأرض السفلى التي هي أدناها وبين السماء السابعة التي هي أقصاها (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير) أي: أعلمتكم وأخبرتكم بذلك من خلق سبع سموات بعضها فوق بعض ومن الأرض مثلهن: لتعلموا أن الله قادر على كل شيء (وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) لاستحالة صدور هذه المخلوقات العظيمة ممن ليس كذلك، بل هي شواهد ناطقة، ودلالات بينة.

على أن علمه الواسع قد أحاط بكل شيء - عز أو دق - وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.." (٢)

"(الأكمه): من ولد أعمى.

(والأبرص): المريض ببياض الجلد. والبرص: مرض جلدى يغير لون البشرة إلى البياض.

(سحر مبين): السحر؛ تمويه وتخييل. به يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته.

التفسير

١٠٩ - ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ... ﴾ الآية.

لما أوجب الله على عباده - في الآيات السابقة. إقامة الشهادة على وجهها، وحذرهم من شهادة الزور، وأمرهم بتقوى الله تعالى، عقب ذلك ببيان أهوال يوم القيامة، حتى تتمكن خشية الله وتقواه من نفوسهم، ويعملوا بما كلفهم به.

والمعنى: واذكر - أيها المكلف - حين يجمع الله الرسل يوم القيامة. فيقول لهم: ماذا أجبتم من أقوامكم حين دعوتموهم إلى توحيدي وطاعتي؟ أهي إجابة قبول؟ أم إجابة رد وإباء؟

---

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٣٥٧/١

(٢) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ١٤٧٧/١٠

وبما أن الله تعالى - يعلم جواب الأمم لرسلهم. فالمقصود بسؤال الله إياهم، وهو إظهار أمانة الرسل وحرصهم على تحري الصدق فيما يقولون. ليكون ذلك تنبيها على وجوب تحرى الصدق في الشهادة، والبعد عن قول الزور؛ ولذا قال سبحانه حكاية عنهم:

﴿قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾:

أي: يقولون للمولى - عز وجل - لا علم لنا بما أجابونا به، أهو موافق لقلوبهم؟ أم مخالف لها؟ وكل ما عرفناه، ظاهر أحوالهم. فمنهم من أظهر الإيمان فعاملناه معاملة المؤمنين، ومنهم من أظهر الكفر فعاملناه معاملة الكافرين.

أما أمر القلوب، فهو إليك. إنك أنت علام الغيوب. وصدق الله إذ يقول:

﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ (١).

---

(١) غافر، الآية: ١٩." (١)

"أي أوجبها على نفسه، كرما منه وفضلا. وقد شمل برحمته في الدنيا المؤمن والكافر، والبر والفاجر. فلا تغتروا أيها الكفار بما تنالون في الدنيا من رحمته. واعملوا ليوم يجمعكم فيه للحساب والجزاء. كما قال سبحانه:

﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾:

يؤكد الله تعالى في هذه الجملة: أنه سيحيى الناس ويبعثهم في يوم القيامة؛ الذي لا ينبغي أن يرتاب فيه عاقل.

ولا ريب أن تهديد الناس بهذا اليوم العصيب، يعتبر من رحمة الله بالناس. إذ لولا الخوف من عذاب الله يوم القيامة، لعم الفساد في الأرض. واختلت نظم الاجتماع، وأكل القوى الضعيف؛ - ولا وازع ولا زاجر - فصار من رحمة الله التهديد بهذا الجمع، لأجل الحساب والجزاء. كما أنه حافز للمؤمنين على زيادة الطاعة، رغبة في حسن الجزاء.

﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾:

أي الذين خسروا أنفسهم بإهدار قواهم العقلية، وتعطيلها عن النظر في آيات الله، فهؤلاء، لا يؤمنون بما دعوتهم إليه، من توحيد الله، والإيمان بيوم البعث والنشور.

﴿وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم﴾:

هذا معطوف على ما قبله. أي لله ما في السموات وما في الأرض، ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾: أي ما اشتمل عليه الليل والنهار من موجودات. فكل ما طلع عليه النهار وغشيه الليل والظلام، هو في ملك الله وحده. وهو السميع لكل ما من شأنه أن يسمع، العليم بكل ما من شأنه أن يعلم. سبحانه!! يعلم دبيب النملة في الليلة الظلماء ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ (١)، ﴿ ... يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ... ﴾ (٢).

---

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٣/١١٨١

(١) غافر، الآية: ١٩

(٢) البقرة، من الآية: ٢٥٥." (١)

"﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون (٢٨) فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين (٢٩)﴾

المفردات:

﴿ألقوا السلم﴾: أظهروا المسالمة والانقياد والإذعان.

﴿مثوى﴾: مستقر ومكان إقامة.

التفسير

٢٨ - ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء﴾:

تسوق هذه الآية مشهدا من مشاهد النهاية لحياة الظالمين المصرين على الكفر، وهو أن ملائكة العذاب حين تقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم بالكفر والعصيان، يستسلمون زاعمين أنهم لم يرتكبوا إثما في حياتهم وأنهم ما كانوا يعملون السوء، فترد عليهم الملائكة قائلة:

﴿بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾: أي نعم قد عملتم السوء؛ إن الله سبحانه واسع العلم، محيط بكل ما كنتم تعملونه قبل وفاتكم، فكيف تكذبون على من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ومن ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾. (١)

---

(١) سورة غافر الآية: ١٩." (٢)

"التفسير

٥٤ - ﴿إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما﴾:

سبب نزول هذه الآية على ما قيل، أنه لما نزلت آية الحجاب قال رجل: أننهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب؟ لئن مات محمد - صلى الله عليه وسلم - لنتزوجن نساءه، وفي بعض الروايات لتزوجت عائشة.

والمعنى: إن تظهروا على ألسنتكم شيئا مما لا خير فيه كنكاح أزواجه من بعده أو تخفوه في صدوركم يجزكم الله لا محالة بما صدر عنكم من المعاصي البادية، وبما أخفيتموه من الخواطر والمعتقدات المذمومة، فإنه - سبحانه - كامل العلم لا يخفى عليه ما كان من ماض تقضى وما يكون من مستقبل يأتي: ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ (١).

قال الإمام أبو السعود: وفي هذا التعميم مزيد تهويل وتشديد، ومبالغة في التوبيخ والوعيد.

﴿لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن

---

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ١٢٠٩/٣

(٢) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٦٠٧/٥

واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا (٥٥)﴾

المفردات:

﴿لا جناح عليهن﴾: لا إثم عليهن.

---

(١) الآية: ١٩ من سورة غافر.." (١)

"١٧ - ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾:

بعد ما يقر الخلائق بأن الملك يوم القيامة لله الواحد القهار، يجابون من قبل الله على ألسنة الملائكة: اليوم تجزى كل نفس بما كسبته في دنياها، الحسنة بعشر أمثالها إلى ما شاء الله، والسيئة بمثلها، لا ظلم اليوم في محكمة العدل الإلهى، ولا بطء في صدور الأحكام، إن الله سريع الحساب، لا يشغله حساب أحد عن حساب آخر، ولا حساب أمة عن حساب أخرى، فإنه - تعالى - ليس محتاجا إلى تذكر أعمال العباد أو الاطلاع عليها في كتب أعمالهم ، فإنه يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور، وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم في ساعة واحدة، فكل واحد منهم يتلقى كتاب عمله، ويرى فيه حسناته وسيئاته والحكم الذي صدر له أو عليه ، قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا (١٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ (١) كما أنه تعالى ليس محتاجا إلى شهود ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ (٢). نسأل الله الأمان في ذلك اليوم الرهيب.

﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)﴾

المفردات:

﴿يوم الآزفة﴾: يوم القيامة، سمى بالآزفة لقربه، من أزف الشيء يأزف أزفا إذا قرب، فهو من باب تعب.

﴿كاظمين﴾: كاتمين مع الضيق.

---

(١) سورة الإسراء الآيتان: ١٣، ١٤.

(٢) سورة النور الآية: ٢٤.." (٢)

"﴿حميم﴾: قريب يهتم لأمرهم.

﴿خائنة الأعين﴾: هي النظرة الخفية إلى ما يعاب في العلانية.

التفسير

---

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٢١٧/٨

(٢) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٦٢٢/٨

١٨ – ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾):
يأمر الله نبيه في هذه الآية بأن ينذر قومه المشركين ويخوفهم من يوم القيامة المسمى: بالآزفة لقربه، فإن ما بقى من عمر الدنيا بالنسبة إلى ما مضى منه قليل جدا، وقد ظهرت أشراطها وعلاماتها فضلا عن أن كل آت قريب.
ونظير هذه الآية: ﴿أزفت الآزفة﴾ (١) أي: قربت الساعة، وقد وصف الله يوم الآزفة بأن القلوب تصل فيه إلى الحناجر ، وهذا على سبيل المجاز، مثل قوله تعالى: ﴿وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا﴾ (٢).
وتراهم في هذه الشدة كاظمين كاتمين لغمهم وكربهم، لا يتكلمون إلا بإذن الله، وليس لهم شفيع يطاع، فقد منع الله الشفاعة للكفار ، قال تعالى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ (٣) فلا شفيع لهم في هذا اليوم حتى يطاع.
والمعنى الإجمالي للآية: وخوف المشركين – أيها الرسول – من يوم الساعة القريبة. حيث يشتد فيه الأمر حتى كأن القلوب تبلغ الحناجر كاظمين كاتمين لهمومهم وأحزانهم وكروبهم، ليس للظالمين في ذلك اليوم صديق يشفق عليهم، ولا شفيع مأذون له حتى يطاع وتقبل شفاعته.

---

(١) سورة النجم الآية: ٥٧.
(٢) سورة الأحزاب من الآية: ١٠.
(٣) سورة الأنبياء من الآية: ٢٨.." [١]

"١٩ – ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾:
أي: يعلم الأعين الخائنة، قال ابن عباس: هو الرجل ينظر إلى المرأة، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، وقد علم الله – عز وجل – منه أنه يود لو نظر إلى عورتها.
وقال مجاهد: "هي مسارقة الأعين إلى ما نهى الله عنه" وهذا أشمل، وكما يعلم الله خائنة الأعين، يعلم ما تخفيه صدور الناظرين: هل يزنون لو خلوا بها أو لا.
٢٠ – ﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾:
والله يجازى من نظر إلى المحارم ومن لم ينظر إليها، ومن عزم على مواقعة الفواحش ومن عزف قلبه عنها.
والأوثان التي يعبدونها من دون الله لا تقضى بشى؛ لأنها لا تعلم شيئا ولا تملك، إن الله هو السميع لأقوال خلقه البصير بأعمالهم، فيجازيهم حسب أعمالهم.

﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)﴾

---

(١) التفسير الوسيط – مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٦٢٣/٨

المفردات:

﴿عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ أي: آخر أمرهم، وعاقبة كل شيء آخره.." [1]

"التفسير

٥٦ – ﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾:

لفظ (هذا) يشير إلى القرآن الكريم، ومعنى الآية: هنا القرآن نذير لكم من جنس الكتب الأولى التي جاء بها الرسل السابقون، فإنها أنذرتهم من عذاب الله على شركهم كما أنذركم القرآن، وبهذا الرأي قال قتادة.

وقيل: إنه يشير إلى نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – والمعنى: هذا النبي منذر لكم، من جنس الأنبياء المنذرين قبله، فإن أطعتموه نجوتم من عذاب الله، وإن خالفتموه لحق بكم ما حل بمكذبي الرسل السابقين.

وهذان الرأيان من أفضل ما قيل في معنى الآية:

٥٧، ٥٨ – ﴿أزفت الآزفة (٥٧) ليس لها من دون الله كاشفة﴾:

أي: قربت الساعة الموصوفة بالقرب في عدة مواضع من القرآن الكريم، وقيل: لفظ الآزفة: علم بالغلبة على الساعة.

وقد أخبر الله – تعالى – أن هذه الآزفة ليس لها من غير الله نفس كاشفة ومبينة لوقت وقوعها، لأنها من أخفى المغيبات، فالكشف هنا بمعنى التبيين، وهذا هو رأي الطبري والزجاج، وهذا التفسير موافق في المعنى لقوله – تعالى –: ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ (١) هو من أحسن ما قيل في معنى الآية.

والتاء في (كاشفة) لتأنيث الموصوف المقدر، وهو كلمة (نفس) التي ذكرناها في معنى الآية، وقيل: إن كلمة (كاشفة) مصدر من المصادر السماعية كالعافية **وخائنة الأعين**، أي: ليس لها من دون الله كشف وتبيين.

---

(١) سورة الأعراف، من الآية: ١٨٧.." [2]

"نظيف من الخنا، مجتمع لا تمنع فيه الشهوات الحلال وإنما تمنع منه الشهوات الحرام، مجتمع لا تختلس فيه العيون النظرات السيئة ولا تتطلع فيه الأبصار إلى ما لا يحل لها التطلع إليه، فالله– تعالى– يقول: إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا «١» ويقول: يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور «٢» .

وقد وردت أحاديث متعددة في الأمر بغض البصر، وحفظ الفرج، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه.

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة– أى

---

(١) التفسير الوسيط – مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٨/٦٢٤

(٢) التفسير الوسيط – مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٩/١١٦٦

البغتة من غير قصد- فقال: «اصرف بصرك» «٣» .

٢- أنه لا يحل للمرأة أن تبدى زينتها لأجانب، إلا ما ظهر منها، لأن الله- تعالى- يقول: ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها.

قال الإمام القرطبي ما ملخصه: «أمر الله- تعالى- النساء بألا يبدين زينتهن للناظرين، إلا ما استثناه من الناظرين في باقى الآية، حذارا من الافتتان، ثم استثنى ما يظهر من الزينة، واختلف الناس في قدر ذلك.

فقال ابن مسعود: ظاهر الزينة هو الثياب.. وقال سعيد بن جبير والأوزاعى: الوجه والكفان والثياب.. وقال ابن عباس وقتادة: ظاهر الزينة هو الكحل والسوار والخضاب..

ونحو هذا، فمباح أن تبديه لكل من ظهر عليها من الناس.

وقال ابن عطية: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية، بأن المرأة مأمورة بأن لا تبدى، وأن لا تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر، بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك، «فما ظهر» على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه.

قلت: أى القرطبي-: وهذا قول حسن، إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما، عادة وعبادة، صح أن يكون الاستثناء راجعا إليهما.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.

(٢) سورة غافر الآية ١٩.

(٣) راجع كتاب «رياض الصالحين» ص ٥٨٦ للإمام النووي. [.....]."[١]

"والمقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله، كما قال- تعالى- ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم، ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون «١» .

ثم بين- سبحانه- أن تذللهم هذا لن يجديهم، وأن ما هم فيه من عذاب سببه إعراضهم عن دعوة الحق في الدنيا، فقال: ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم، وإن يشرك به تؤمنوا، فالحكم لله العلي الكبير.

أى: ذلكم الذي نزل بكم من عذاب سببه، أنكم كنتم في الدنيا إذا عبد الله- تعالى- وحده، وطلب منكم ذلك كفرتم به- عز وجل-، وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها آمنتم، ومادام هذا حالكم في الدنيا، فاخسئوا في النار ولا تؤملوا في الخروج منها، بحال من الأحوال، فالحكم لله وحده دون غيره، وهو سبحانه الذي حكم عليكم بما حكم..

وهو- سبحانه- العلي أى: المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته أو صفاته الكبير أى: العظيم الذي هو أعظم وأكبر من أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد.

وجمع- سبحانه- لذاته بين هذين الوصفين للدلالة على كبريائه وعظمته.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ١١٩/١٠

ثم ساق- سبحانه- بعد ذلك ما يدل على فضله ورحمته بعباده، وعلى وحدانيته وكمال قدرته، وعلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه، وعلى أن كل نفس ستجازى في هذا اليوم بما كسبت بدون ظلم أو محاباة، لأن القضاء فيه لله الواحد القهار. فقال- تعالى-:

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ٢٢]

هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٢٢.." [(١)]

"والشفيع: من الشفع، بمعنى الانضمام، يقال شفع فلان لفلان إذا انضم إليه ليدافع عنه.

أى: ليس للظالمين في هذا اليوم قريب أو محب يعطف عليهم، ولا شفيع يطيعهم في الشفاعة لهم، لأنهم في هذا اليوم يكونون محل غضب الجميع ونقمتهم، بسبب ظلمهم وإصرارهم على كفرهم.

فالآية الكريمة نفت عنهم الصديق الذي يهتم بأمرهم، والشفيع الذي يشفع لهم، والإنسان الذي تكون له أية كلمة تسمع في شأنهم.

ثم أكد- سبحانه- شمول علمه لكل شيء فقال: يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

والمراد **بخائنة الأعين**: النظرة الخائنة التي يتسلل بها المتسلل ليطلع على ما حرم الله الاطلا ع عليه.

والجملة خبر لمبتدأ محذوف. والإضافة في قوله **خائنة الأعين** على معنى من، وخائنة:

نعت لمصدر محذوف.

أى: هو- سبحانه- يعلم النظرة الخائنة من الأعين، وهي التي يوجهها صاحبها في تسلل وخفية إلى محارم الله- تعالى- كما يعلم- سبحانه- الأشياء التي يخفيها الناس في صدورهم، وسيجازيهم على ذلك في هذا اليوم بما يستحقون.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٢٦٨/١٢

قال القرطبي: ولما جيء بعبد الله بن أبي سرح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما اطمأن أهل مكة، وطلب له الأمان عثمان بن عفان، صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا، ثم قال:

«نعم» .

فلما انصرف قال صلى الله عليه وسلم لمن حوله: «ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» .

فقال رجل من الأنصار: فهلا اومأت إلى يا رسول الله؟ فقال: «إن النبي لا تكون له خائنة أعين» «١» .

ثم بين- سبحانه- أن القضاء الحق في هذا اليوم مرده إليه وحده فقال: والله يقضي بالحق....

أى: والله- تعالى- يقضى بين عباده قضاء ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل.

والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء.. أى: والآلهة الذين يعبدهم الكفار من

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٣٠٣.." [1]

"والله تعالى عليم بما تظهرونه من استئذان عند الدخول، وما تضمرونه من قصد سيء، وتدخل في شؤون الآخرين، وحب الاطلاع على عورات الناس وخصوصياتهم وهذا وعيد لأهل الريبة الذين يدخلون البيوت للتلصص، واستراق السمع، ومعرفة الأسرار.

يتبين من هذه الآية أنها تشتمل على حكمين:

الحكم الأول: وجوب الاستئذان حين الدخول إلى بيوت الآخرين المسكونة.

والحكم الثاني: السماح بالدخول إلى البيوت غير الآهلة بالسكان، وليس فيها أحد، إذا كان للداخل متاع فيها، وذلك بغير إذن، كالمضافة العامة، والنزل المخصصة للمسافرين والعابرين.

والمهم في الاستئذان: هو تجنب النظر إلى ما يؤذي أهل البيت،

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن سهل بن سعد: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» .

وذلك للبعد عن المضايقات، وتربية الإنسان على الخلق الكريم، والحياء والأدب الجم، ورقابة الله في السر والعلن، فإن الله يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

غض البصر والحجاب

لقد نظم الشرع الحنيف العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس من الثقة والحياء والاحترام المتبادل، وترك الاسترسال في التفكير بالخصوصيات المتعلقة بكل منهما، والتي تحتاج إلى وجود مسوغ شرعي واضح ودائم، وبعيد عن ساحات الحياة العامة

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٢٧٥/١٢

والأنظار الشائعة، ليكون كل شيء في وضعه السليم، وفي موضعه الملائم، لذا أمر الشرع بغض البصر من الجنسين، وبستر ما يجب ستره، منعا من التشبه بالبدائيين،." [(١)]

"وحفاظا على الأعراض والحرمات والكرامات، قال الله تعالى مبينا حكم النظر والحجاب، وذلك من قبيل سد الذرائع ومنع الوسائل إلى الحرام:

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٣٠ الى ٣١]

قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون (٣٠) وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٣١)

«١» «٢» «٣» «٤» «٥» «٦» «٧» [النور:

٢٤/ ٣٠- ٣١] .

نزلت هذه الآية في رجل وامرأة تبادلا نظرات السوء، زاعمين أنهما نظرا إلى بعضهما إعجابا وإعظاما، بفعل وسوسة الشيطان، ولكن الحقائق أقوى من الوسواس، والله لا تخفى عليه خافية، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

لذا أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول للمؤمنين: كفوا أو غضوا أبصاركم، فلا تنظروا إلا إلى ما أبيح النظر إليه. والمعنى: قل لهم: غضوا يغضوا. والغض لبعض الأبصار، لتوبيخ من يكثر التأمل في الحرام. ومع غض البصر حفظ الفروج من ارتكاب الفواحش، فإن غض البصر وحفظ الفرج خير وأطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، فإن الله تام العلم بكل ما يصدر عن الناس من أفعال. وهذا تهديد ووعيد.

وخلافا للمعتاد في أن خطاب الرجال يتناول النساء، أفرد الله النساء أيضا

---

(١) يكفوا من نظرهم إلى الحرام.

(٢) وليلقين.

(٣) أغطية رؤوسهن.

(٤) على صدورهن وما حولها.

(٥) لأزواجهن.

---

(١) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ٢/١٧٤٥

(٦) أصحاب الحاجة للنساء.

(٧) لم يطلعوا.." (١)

"الواحد الأحد، صاحب القهر والغلبة والقدرة، لا لأحد سواه من ملك أو رسول أو نبي.

إن يوم القيامة: هو يوم الجزاء والحساب والعقاب والثواب بحسب عمل كل عامل، من خير أو شر، صالح أو سيئ، ولا ظلم في الحكم فيه على أحد، فلا زيادة في العقاب، ولا نقص من الثواب، وإن الله في هذا الموقف سريع الحساب لعباده على أعمالهم في الدنيا، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا واحدة، كما جاء في آية أخرى: ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة [لقمان: ٣١/ ٢٨] . وهذا نص واضح على أن الثواب أو العقاب على اكتساب العبد وعمله، وعلى إحاطة الله بالأشياء علما.

إنذارات من مخاوف القيامة

حرص الحق سبحانه وتعالى في قرآنه على تقويم الإنسان وضمان حياة السعادة والنجاة له، فقدم له الإنذارات المتتالية، والتحذيرات المتعاقبة، ولا سيما من أهوال القيامة ومخاطرها، وهو يوم الآزفة، ليبادر الناس جميعا للإيمان، ويتجنبوا الشرك والعصيان، فإن فعلوا حققوا الخير لأنفسهم، وإن تمردوا وعصوا، جلبوا الدمار والهلاك لذواتهم، ولا يغنيهم أي شيء قدموه أو يقدمونه عن الجزاء العادل، والحساب الرهيب عن سوء أعمالهم، وفحش منكراتهم. وإذا كان الأمر خطيرا تفادينا أسبابه، والسبب النافع يحقق ثمرة طيبة، والسبب العقيم يؤدي إلى نتيجة وخيمة، قال الله تعالى واصفا إنذاراته:

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٢]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)

«١» «٢»

---

(١) أي يوم القيامة، سميت بذلك لقرب وقوعها.

(٢) أي ممتلئين غما شديدا، والحناجر: جمع حنجرة وهي الحلقوم.." (٢)

"«١» [غافر: ٤٠/ ١٨- ٢٢] .

المعنى: خوف أيها الرسول أهل الكفر من يوم القيامة، ليؤمنوا ويتركوا الشرك والضلال، حيث تكون القلوب في ذلك اليوم

---

(١) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ١٧٤٦/٢

(٢) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ٢٢٦٥/٣

كأنها زائلة عن مواضعها من الخوف، وترتفع حتى تصير إلى الحلوق، ويكون أصحابها ممتلئين كربا وغما شديدا، ولا يكون للظالمين الكافرين قريب ينفعهم، ولا شفيع يشفع لهم، أو تقبل شفاعته بهم.

وقوله تعالى: إذ القلوب لدى الحناجر معناه عند الحناجر، قد صعدت من شدة الهول والجزع.

وهذا يصور حال الرعب والخوف أو الذعر الذي يكون عليه الكفار يوم القيامة، والله تعالى يعلم النظرة الخائنة، التي ينظرها الإنسان إلى ما حرم الله عليه، أي يعلم الاختلاسة التي تختلس النظر إلى المحرم وتسارقه، ويعلم الله أيضا كل ما تسره الضمائر من أمور خيرة أو شريرة،. وما تخفيه الصدور من الرغبات والنوايا والخواطر.

والنظرة الخائنة: هي النظرة الثانية، وما تخفي الصدور: أي عند النظرة الأولى التي لا يمكن للمرء دفعها. وقوله تعالى: يعلم **خائنة الأعين** متصل بقوله: سريع الحساب لأن سرعة حسابه تعالى للخلق، إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رؤية وفكرة، ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون. والله يحكم بالحكم العادل، ويجازي كل

---

(١) أي حافظ يدفع عنهم السوء أو العذاب.." [1]

"وهذه كلها أسماء تقتضي تعظيمها وتشنيع أمرها، ليس لوقوعها صارف ولا دافع، ولا بد من أن تكون، وليس لها تكذيب ولا رد. وكلمة كاذبة إما مصدر كالعاقبة والعافية **وخائنة الأعين**، أي ليس لها تكذيب ولا رد، وهذا قول قتادة والحسن، وإما أن تكون صفة لمقدر، كأنه تعالى قال: ليس لوقعتها حال كاذبة.

- وهي خافضة أقواما كانوا في الدنيا مرفوعين، فتجعلهم في الجحيم، وهم الكفرة والفسقة، ورافعة أقواما كانوا في الدنيا مغمورين، فتجعلهم في الجنة، وهم المؤمنون. فقوله: خافضة رافعة (٣) خبر لمبتدأ، أي هي خافضة رافعة.

- إذا زلزلت وحركت الأرض بعنف تحريكا شديدا، حتى ينهدم كل ما عليها من بناء وجبال.

- وفتتت الجبال فتا، وصارت غبارا متفرقا منتشرا أو شائعا في الهواء، كالهباء «١» الذي يطير في النار. وهذا يدل على دك الجبال وزوالها عن أماكنها يوم القيامة.

- وأصبحتم يوم القيامة من قسمين إلى ثلاثة أصناف: أهل اليمين أصحاب الجنة، وأهل الشمال أهل النار، والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنة والرحمة، وهم الأنبياء والرسل والصديقون والشهداء.

فأصحاب اليمين: هم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذون إلى الجنة، فما أحسن حالهم وصفتهم وأكمل سعادتهم!

وقوله: ما أصحاب الميمنة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم. وقوله: فأصحاب الميمنة مبتدأ، والفاء تدل على التفسير، وقوله: ما أصحاب الميمنة ما: مبتدأ ثان، وأصحاب الميمنة: خبر: ما، والجملة خبر المبتدأ الأول.

---

(١) الهباء: ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة، ولا يكاد يرى إلا في الشمس الداخلة من نافذة.." [2]

---

(١) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ٢٢٦٦/٣

(٢) التفسير الوسيط للزحيلي وهبة الزحيلي ٢٥٦٨/٣

"القهار ﴿١٦﴾ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر: ١٣-١٧]

﴿هو الذي يريكم آياته﴾ [غافر: ١٣] مصنوعاته التي تدل على قدرته، وتوحيده من السماء والأرض، والشمس والقمر، والسحاب، ﴿وينزل لكم من السماء رزقا﴾ [غافر: ١٣] يعني: المطر الذي هو سبب الأرزاق، وما يتذكر وما يتعظ بهذه الآيات، فيوحد الله، ﴿إلا من ينيب﴾ [غافر: ١٣] يرجع إلى طاعته.

ثم أمر المؤمنين بتوحيده، فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ [غافر: ١٤] موحدين، تخلصون له الطاعة، ﴿ولو كره الكافرون﴾ [غافر: ١٤] من أهل مكة.

ثم عظم نفسه، فقال: رفيع الدرجات قال عطاء، عن ابن عباس: يريد درجاتكم، والرفيع بمعنى الرافع.

والمعنى: أنه يرفع درجات الأنبياء، والأولياء في الجنة، ذو العرش: خالقه ومالكه، يلقي الروح ينزل الوحي من السماء، من أمره قال ابن عباس: من قضائه.

وقال مقاتل: بأمره.

لينذر النبي صلى الله عليه وسلم بما أوحي إليه، يوم التلاق بيوم التلاق، يلتقي في ذلك اليوم أهل السماء، وأهل الأرض.

﴿يوم هم بارزون﴾ [غافر: ١٦] من قبورهم، ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ [غافر: ١٦] لا يستتر منهم أحد، وقال ابن عباس: لا يخفى على الله من أعمالهم شيء.

ويقول الله في ذلك: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ [غافر: ١٦] .

قال الحسن: هو السائل وهو المجيب، لأنه يقول ذلك حين لا أحد يجيبه، فيجيب نفسه.

وهذا قول جماعة المفسرين.

﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ [غافر: ١٧] يجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يقول الله تعالى: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى أقصها منه ".

وتلا هذه الآية.

﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴿١٨﴾ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴿١٩﴾ والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴿٢٠﴾ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم." (١)

"كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴿٢١﴾ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ﴿٢٢﴾ ﴾ [غافر: ١٨-٢٢] .

وأنذرهم يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم: وأنذر أهل مكة بـ يوم الآزفة يعني: القيامة، قال ابن عباس: أزف أمرها، أي: دنا.

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٤/٧

يقال: أزف الشيء يأزف أزفا.

قال الزجاج: وقيل لها آزفة، لأنها قريبة، وإن استبعد الناس أمرها، وما هو كائن فهو قريب.

﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ [غافر: ١٨] وذلك أنها تزول عن مواضعها من الخوف، حتى تصير إلى الحنجرة، كقوله: ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ [الأحزاب: ١٠] .

كاظمين: مغمومين، مكروبين، ممتلئين غما، ما للظالمين قال ابن عباس، ومقاتل: يريد المشركين، والمنافقين.

من حميم قريب ينفعهم، ﴿ولا شفيع يطاع﴾ [غافر: ١٨] فيهم، فتقبل فيهم شفاعته.

﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ [غافر: ١٩] خيانتها، وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل، ﴿وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩] : وما تسر القلوب، في السر من المعصية.

﴿والله يقضي بالحق﴾ [غافر: ٢٠] يحكم به، فيجزي بالحسنة والسيئة، ﴿والذين يدعون من دونه﴾ [غافر: ٢٠] من الشركاء، ﴿لا يقضون بشيء﴾ [غافر: ٢٠] لا يجازون، لأنهم لا يعلمون ولا يقدرون، ﴿إن الله هو السميع﴾ [غافر: ٢٠] لما يقوله الخلق، البصير بأعمالهم.

قوله: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ [غافر: ٢١] ظاهر إلى قوله: ﴿وما كان لهم من الله﴾ [غافر: ٢١] أي: من عذاب الله، من واق يقي العذاب عنهم.

ذلك أي: ذلك العذاب الذي نزل بهم، ﴿بأنهم كانت تأتيهم﴾ [غافر: ٢٢] الآية.

ثم ذكر قصة موسى وفرعون ليعتبروا، فقال: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴿٢٣﴾ إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴿٢٤﴾ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴿٢٥﴾ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴿٢٦﴾ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴿٢٧﴾ ﴾ [غافر: ٢٣-٢٧] .

﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ [غافر: ٢٣] إلى قوله: ﴿قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه﴾ [غافر: ٢٥] قال ابن عباس: أعيدوا عليهم القتل فيهم كالذي كان أولا.

وقال قتادة: كان فرعون أمسك عن قتل الولدان، فلما بعث الله موسى، عليه السلام، إليه أعاد عليهم القتل ليصدهم بذلك عن متابعة موسى.

قوله: ﴿وما كيد الكافرين إلا في." (١)

"الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)." (٢)

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٨/٤

(٢) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٣٧٣/٥

"فقد رحمته﴾، يدل على أن المعنى الأصلي المراد من استعمال كلمة " التقوى " هو أن يجعل المؤمن بينه وبين ارتكاب السيئات وممارستها حائلا قويا، وحاجزا حصينا، وأن يتخذ للوقاية منها جميع التدابير.

ويمضي الحديث في هذا الربع من كتاب الله، في وصف ما أعده الله من العقاب والعذاب لمن دعاهم الرسول إلى الإيمان، فأصروا على الكفر والضلال، ووصف ما ينالهم يوم القيامة من مقت الله وخزيه البالغ، علاوة على المقت الذي يشعرون به آنذاك من أنفسهم نحو أنفسهم، من أعماق الأعماق، وذلك قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون * قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾، لكن لا سبيل لهم إلى الخروج ولا رجاء، وقوله تعالى: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾، وقوله تعالى: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾.

ولابد من وقفة خاصة عندما حكاه كتاب الله على لسان الكافرين الذين كانوا يكذبون بالبعث والدار الآخرة، ثم لما استقروا في دار الجحيم، ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾، فما معنى الموت مرتين، وما معنى الحياة مرتين، وما هو ترتيب الموتتين والحياتين؟.

والجواب المأثور في هذا الصدد عن عبد لله ابن مسعود." (١)

"[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٠]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

الإعراب:

(الواو) استئنافية (يوم) مفعول به ثان منصوب (إذ) ظرف في محل نصب بدل من يوم (لدى) ظرف مبني في محل نصب متعلق بمحذوف خبر المبتدأ القلوب (كاظمين) حال من القلوب «١» ، (ما) نافية مهملة (للظالمين) متعلق بخبر مقدم للمبتدأ (حميم) وهو مجرور لفظا مرفوع محلا (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (شفيع) معطوف على حميم لفظا، وفاعل (يعلم) ضمير مستتر يعود على الله (ما) موصول في محل نصب معطوف على خائنة.

جملة: «أنذرهم..» لا محل لها استئنافية.

وجملة: «القلوب لدى الحناجر ... » في محل جر مضاف إليه.

وجملة: «ما للظالمين من حميم ... » في محل نصب حال من يوم الآزفة والرابط مقدر أي فيه «٢» .

وجملة: «يطاع ... » في محل جر- أو رفع- نعت لشفيع.

وجملة: «يعلم ... » لا محل لها تعليلية.

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٣٧٨/٥

وجملة: «تخفي الصدور..» لا محل لها صلة الموصول (ما) .

(٢٠) (الواو) استئنافية (بالحق) متعلق ب (يقضي) ، (الواو) عاطفة (من دونه) متعلق بحال من العائد المحذوف أي يدعونهم من دونه (لا) نافية

---

(١) جمع بالياء والنون معاملة أصحاب القلوب.

(٢) أو لا محل لها استئناف بياني.." [١]

"(بشيء) متعلق ب (يقضون) ، (هو) ضمير فصل «١» .

وجملة: «الله يقضي ... » لا محل لها استئنافية.

وجملة: «يقضي بالحق ... » في محل رفع خبر المبتدأ (الله) .

وجملة: «الذين يدعون ... » لا محل لها معطوفة على جملة الله يقضي ...

وجملة: «الذين يدعون ... » لا محل لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: «لا يقضون..» في محل رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة: «إن الله.. السميع» لا محل لها تعليلية.

الصرف:

(١٨) الآزفة: مؤنث الآزف، اسم فاعل من (أزف) باب فرح أي قرب، وزنه فاعلة، والآزفة في الآية نعت لمنعوت محذوف أي القيامة الآزفة.

(٢٠) يقضون: فيه إعلال بالحذف أصله يقضيون بضم الياء نقلت حركتها إلى الضاد ثم حذفت لالتقاء الساكنين.

البلاغة

١- الكناية: في قوله تعالى «إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين» .

الكلام كناية عن شدة الخوف أو فرط التألم.

٢- الاستعارة: في قوله تعالى «يعلم **خائنة الأعين»** .

أي النظرة الخائنة، كالنظرة إلى غير المحرم واستراق النظر إليه وغير ذلك، وجعل النظرة خائنة إسناد مجازي، أو استعارة مصرحة أو مكنية وتخييلية بجعل النظر بمنزلة شيء يسرق من المنظور إليه.

---

(١) أو ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ خبره السميع، والجملة الاسمية هو السميع خبر إن.." [٢]

---

(١) الجدول في إعراب القرآن محمود صافي ٢٣٣/٢٤

(٢) الجدول في إعراب القرآن محمود صافي ٢٣٤/٢٤

"«ثم نضطرهم الى عذاب» ٢٤- لقمان- ٩١/ ١١ «ميثاقا غليظا» ٨- الأحزاب- ١٣٣/ ١١ «سلقوكم بألسنة» ١٩- الأحزاب- ١٤٥/ ١١ «يصلي عليكم» ٤٣- الأحزاب- ١٧١/ ١١ «ثم أورثنا الكتاب» ٣٢- فاطر- ٢٧٧/ ١١ «ما ترك على ظهرها» ٤٥- فاطر- ٢٨٩/ ١١ «في أعناقهم أغلالا» ٨- يس- ٢٩٣/ ١١ «وجعلنا من بين أيديهم سدا» ٩- يس- ٢٩٤/ ١١ «فإذا هم خامدون» ٢٩- يس- ٦/ ١٢ «يا حسرة على العباد» ٣٠- يس- ٧/ ١٢ «نسلخ منه النهار» ٣٧- يس- ١٣/ ١٢ «من بعثنا من مرقدنا» ٥٢- يس- ٢١/ ١٢ «طلعها» ٦٥- الصافات- ٦٣/ ١٢ «فإذا نزل بساحتهم» ١٧٧- الصافات- ٩٧/ ١٢ «وفرعون ذو الأوتاد» ١٢- ص- ١٠٩/ ١٢ «وأنزل لكم» ٦- الزمر- ١٥٤/ ١٢ «أفأنت تنقذ» ١٩- الزمر- ١٦٦/ ١٢ «عوج» ٢٨- الزمر- ١٧٦/ ١٢ «اعملوا على مكانتكم» ٣٩- الزمر- ١٨٨/ ١٢ «وأشرقت الأرض بنور ربها» ٦٩- الزمر- ٢١١/ ١٢ «يعلم خائنة الأعين» ١٩- غافر- ٢٣٤/ ١٢ «قلوبنا في أكنة» ٥ فصلت- ٢٨٧/ ١٢ «فاستحبوا العمى» ١٧- فصلت- ٢٩٧/ ١٢ «فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت» ٣٩- فصلت- ٣١٥/ ١٢ «ينادون من مكان بعيد» ٤٤- فصلت- ٣٢٠/ ١٢ «دعاء عريض» ٥١- فصلت: ١٢/ ١٣ «من كان يريد حرث الآخرة» ٢٠- الشورى- ٣٤/ ١٣ «وإنه في أم الكتاب» ٤- الشورى- ٦٤/ ١٣ «أفنضرب عنكم الذكر» ٥- الزخرف- ٦٤/ ١٣ «الجنة أورثتموها» ٧٢- الزخرف- ١٠٧/ ١٣ «فما بكت عليهم السماء» ٢٩- الدخان- ١٢٨/ ١٣ «ثم صبوا فوق رأسه» ٤٨- الدخان- ١٣٥/ ١٣ «مقام أمين» ٥١- الدخان- ١٣٧/ ١٣ «هذا كتابنا ينطق عليكم» ٢٩- الجاثية- ١٦٣/ ١٣." (١)

"جملة: «ما أصابكم ... » لا محل لها استئنافية.

وجملة: «أصابكم ... » لا محل لها صلة الموصول (ما) .

وجملة: « (هو) بإذن الله» في محل رفع خبر المبتدأ (ما) .

وجملة: «يعلم..» لا محل لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة: «التقى الجمعان» في محل جر مضاف إليه.

الفوائد

١- «فبإذن الله» توحي هذه الفاء أنها رابطة للجواب، ويعترض على ذلك بقول القائل: لا جواب إلا للشرط، ولا شرط في هذه الآية، لكننا نرد هذا الاعتراض بأن قوله تعالى: «وما أصابكم يوم التقى الجمعان» بأن «ما» وإن كانت أدنى إلى الموصولية، فإنها مشربة روح الشرط ومشابهة له، ولذلك كان من المستساغ مجيئ الفاء في جوابها وبذلك يتقرر أن الفاء رابطة للجواب.

٢- قوله تعالى: «يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم» دليل قاطع على أن الحديث نوعان، حديث اللسان، وحديث القلب وأن المنافق دائما وأبدا يبدي ما لا يخفي ويقول القول في لسانه وهو يعلم زور هذا القول وبهتانه وأنه مغاير كل المغايرة لما يضمر في قلبه، ولو آمن لعلم أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن محمود صافي ٦٤/٣١

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٦٧]
وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون (١٦٧)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (ليعلم) مثل المتقدم في الآية السابقة.

والمصدر المؤول مجرور باللام ومتعلق بما تعلق به المصدر المؤول السابق لأنه معطوف عليه.." (١)

"الثاني: أنه متصل بقوله: «وأنذرهم» لما أمر بإنذاره يوم الآزفة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب، وأن الظالم لا يجد من يحميه، ولا شفيع له، ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا. وعلى هذا فهذه الجملة لا محل لها لأنها في قوة التعليل للأمر بالإنذار.

الثالث: أنها متصلة بقوله ﴿سريع الحساب﴾ [غافر: ١٧] .

الرابع: أنها متصلة بقوله: ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ [غافر: ١٦] . وعلى هذين الوجهين فيحتمل أن تكون جارية مجرى العلة، وأن تكون في محل نصب على الحال.

وخائنة الأعين فيه وجهان، أحدهما: أنه مصدر كالعافية، أي: يعلم خيانة الأعين. / والثاني: أنها صفة على بابها، وهو من باب إضافة الصفة للموصوف، والأصل: الأعين الخائنة، كقوله:

٣٩٢٢ -. . . . . وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

وقد رده الزمخشري وقال: «لا يحسن أن يراد: الخائنة من الأعين؛ لأن قوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾ لا يساعد عليه» يعني أنه لا يناسب أن يقابل المعنى إلا بالمعنى. وفيه نظر؛ إذ لقائل أن يقول: لا نسلم أن «ما» في ﴿وما." (٢)

"قوله: ﴿كاشفة﴾ : يجوز أن يكون وصفا، وأن يكون مصدرا، فإن كانت وصفا احتمل أن يكون التأنيث/ لأجل أنه صفة لمؤنث محذوف وقيل: تقديره: نفس كاشفة، أو حال كاشفة، واحتمل أن تكون التاء للمبالغة كعلامة ونسابة، أي ليس لها إنسان كاشفة، أي: كثير الكشف، وإن كان مصدرا فهو كالعافية والعاقبة **وخائنة الأعين**، ومعنى الكشف هنا: إما من كشف الشيء، أي: عرف حقيقته كقوله: ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ ، وإما من كشف الضر، أي: أزاله، أي: ليس لها من يزيلها وينجيها غير الله تعالى، وقد تقدم الكلام على مادة «أزف» في سورة غافر.." (٣)

"أي: / لا يمضي وقوعها كقولك: فلان إذا حل لم يكذب. والثاني: أن كاذبة مصدر بمعنى التكذيب نحو: **خائنة الأعين**. قال الزمخشري:» من قولك حمل فلان على قرنه فما كذب، أي: فما جبن ولا تثبط. وحقيقته فما كذب نفسه فيما حدثته به من إطاقته له وإقدامه عليه وأنشد لزهير:

---

(١) الجدول في إعراب القرآن محمود صافي ٣٦٥/٤

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ٤٦٩/٩

(٣) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ١١٥/١٠

٤٢٠٠ - ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ... ما الليث كذب عن أقرانه صدقا

أي: إذا وقعت لم يكن لها رجعة ولا ارتداد «، انتهى. وهو كلام حسن جدا.

ثم لك في هذه الجملة وجهان، أحدهما: أنها لا محل لها من الإعراب: إما لأنها ابتدائية ولا سيما على رأي الزمخشري، حيث جعل الظرف متعلقا بها وإما لأنها اعتراضية بين الشرط وجوابه المحذوف. والثاني: أن محلها النصب على الحال، قاله ابن عطية، ولم يبين صاحب الحال ماذا؟ وهو واضح إذا لم يكن هنا إلا الواقعة، وقد صرح أبو الفضل بذلك.

وقرأ العامة برفع» خافضة رافعة «على خبر ابتداء مضمر، أي: هي خافضة قوما إلى النار ورافعة آخرين إلى الجنة، فالمفعول محذوف لفهم المعنى، أو يكون المعنى: أنها ذات خفض ورفع كقوله: ﴿يحيي." (١)

"أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ قال: الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها وإذا غفلوا لحظ إليها وإذا نظروا غض بصره عنها وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى عورتها

وأخرج أبو نعيم في الحلية وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال: نظرت اليها لتريد الخيانة أم لا ﴿وما تخفي الصدور﴾ قال: إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا ألا أخبركم ﴿والله يقضي بالحق﴾ قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة رضي الله عنه ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال: يعلم همزه وإضمامه بعينيه فيما لا يحب الله تعالى

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال: نظر العين إلى ما نهي عنه

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الجوزاء رضي الله عنه ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال: كان الرجل يدخل على القوم في البيت وفي البيت امرأة فيرفع رأسه فيلحظ إليها ثم ينكس

وأخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد رضي الله عنه قال: لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: أقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فاختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة جاء به." (٢)

"فقال: يا رسول الله بايع عبد الله

فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى يبايعه ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك قال: أنه لا ينبغي لنبي أن يكون له **خائنة الأعين**

وأخرج الخطيب في تاريخه والحكيم الترمذي عن أم معبد رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون السمين الحلبي ١٠/١٩٢

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور السيوطي ٧/٢٨٢

اللهم طهر قلبي من النفاق وعملي من الرياء ولساني من الكذب وعيني من الخيانة فإنك تعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿والله يقضي بالحق﴾ قال: قادر على أن يقضي بالحق ﴿والذين يدعون من دونه﴾ لا يقدرون على أن يقضوا بالحق

من آية ٢١ - ٢٢." (١)

"عن ابن عباس في قوله: ﴿ذي الطول﴾ قال: ذي السعة والغنى١.

[٢٣٧٨] ومن طريق عكرمة قال: ذي المن٢.

[٢٣٧٩] ومن طريق قتادة قال: ذي النعماء٣.

قوله تعال: ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ الآية: ١٩

[٢٣٨٠] وعند ابن أبي حاتم من طريق ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال: هو الرجل ينظر إلى المرأة الحسناء تمر به أو يدخل بيتا هي فيه، فإذا فطن له غض بصره، وقد علم الله تعالى أنه يود لو اطلع على فرجها وإن قدر عليها لو زنى بها٤.

---

١ فتح الباري ٨/٥٥٥.

أخرجه ابن جرير ٢٤/٤١ حدثني علي، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن علي، به مثله. وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/٢٧١ ونسبه ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات.

٢ فتح الباري ٨/٥٥٥.

علقه عنه ابن كثير ٧/١١٨. وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/٢٧٢ ونسبه إلى عبد بن حميد وابن المنذر فقط.

٣ فتح الباري ٨/٥٥٥.

أخرجه ابن جرير ٢٤/٤١ حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة - بلفظ "ذي النعم". وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/٢٧١ ونسبه إلى عبد بن حميد فقط.

٤ فتح الباري ١١/٩.

ذكره ابن كثير في تفسيره ٧/١٢٧ تعليقا عن ابن عباس، ونسبه إلى ابن أبي حاتم. وذكره السيوطي في الدر المنثور ٧/٢٨٢ ونسبه إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقد أخرج سعيد بن منصور في سننه كتاب التفسير، ل١٧٠/أحدثنا جرير بن عبد الحميد، عن منصور، عن ابن عباس،

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور السيوطي ٧/٢٨٣

نحوه. ولفظه "قال في قوله: ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيرى أنه يغض بصره عنها، فإذا غفلوا لحظ إليها، وإذا نظروا غض بصره عنها، وقد اطلع الله عز وجل من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها".." (١)

"[٢٣٨١] ومن طريق مجاهد وقتادة نحوه١.

قوله تعالى: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ الآية: ٣٤

[٢٣٨٢] ونقل عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات﴾ قال: هو رسول الجن٢.

قوله تعالى: ﴿أدعوكم إلى النجاة﴾ الآية: ٤١

[٢٣٨٣] وصل الفريابي من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿إلى النجاة﴾ قال: إلى الإيمان٣.

قوله تعالى: ﴿ليس له دعوة في الدنيا﴾ الآية: ٤٣

[٢٣٨٤] وصل الفريابي أيضا عن مجاهد ﴿ليس له دعوة﴾ يعني الأوثان٤.

---

١ فتح الباري ٩/١١.

ذكر السيوطي في الدر المنثور ٢٨٢/٧ عن مجاهد ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال: نظر العين إلى ما نهي عنه. وقد عزاه لعبد بن حميد وابن المنذر.

والأثر أخرجه ابن جرير ٥٤/٢٣ من طرق عن ابن نجيح، عنه، به.

وأما عن قتادة فقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ٢٨٢/٧ عنه ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال: يعلم همزه وإضمامه بعينه فيما لا يحب الله تعالى. وقد عزاه لعبد بن حميد وأبي الشيخ في العظمة.

والأثر أخرجه ابن جرير ٥٤/٢٣ من طريق يزيد، قال: ثنا سعيد، عنه، به.

٢ فتح الباري ٣٤٥/٦. لم أقف على من ذكره غير ابن حجر.

٣ فتح الباري ٥٥٥/٨.

أخرجه الفريابي كما في تغليق التعليق ٢٩٩/٤ ثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عنه، مثله.

٤ فتح الباري ٥٥٥/٨. أخرجه الفريابي كما في تغليق التعليق ٢٩٩/٤ ثنا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عنه، مثله.." (٢)

"فورا، فلو اختارته واحدة لم يحرم عليه طلاقها أو كرهته توقفت الفرقة على الطلاق، وليس قولها: اخترت نفسي بطلاق كما مرت الإشارة إليه، وله تزوجها بعد الفراق.

النوع الثاني: المحرمات: وهي أشياء كثيرة منها الزكاة والصدقة وتعلم الخط والشعر ومد العين إلى متاع الدنيا. **وخائنة الأعين** وهي: الإيماء بما يظهر خلافه دون الخديعة في الحرب، وإمساك من كرهت نكاحه. ومنها نكاح كتابية لا للتسري بها كما مر، ولا يحرم عليه أكل الثوم ونحوه ولا الأكل متكئا.

---

(١) الروايات التفسيرية في فتح الباري عبد المجيد الشيخ عبد الباري ١٠٢١/٢

(٢) الروايات التفسيرية في فتح الباري عبد المجيد الشيخ عبد الباري ١٠٢٢/٢

النوع الثالث: التخفيفات والمباحات: وهي كثيرة جدا منها: تزويج من شاء من النساء لمن شاء ولو لنفسه بغير إذن من المرأة ووليها متوليا للطرفين، وزوجه الله تعالى، وأبيح له الوصال ونصفي المغنم. ويحكم ويشهد لولده ولو لنفسه، وأبيح له نكاح تسع، وقد تزوج صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ومات عن تسع، قال الأئمة: وكثرة الزوجات في حقه صلى الله عليه وسلم للتوسعة في تبليغ الأحكام عنه الواقعة سرا مما لا يطلع عليه الرجال، ونقل محاسنه الباطنة فإنه صلى الله عليه وسلم تكمل له الظاهر والباطن، وحرم عليه الزيادة عليهن، ثم نسخ وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

وينعقد نكاحه محرما وبلفظ الهبة إيجابا لا قبولا، بل يجب لفظ النكاح أو التزويج لظاهر قوله تعالى: ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ ولا مهر للواهبة له وإن دخل بها، وتجب إجابته على امرأة رغب فيها، ويجب على زوجها طلاقها لينكحها.

النوع الرابع: الفضائل: وهي كثيرة لا تدخل تحت الحصر منها: تحريم منكوحاته على غيره سواء كن موطوآت أم لا، مطلقات باختيارهن أم لا، وتحريم سراريه وهن إماؤه الموطوآت بخلاف غير الموطوآت، وتقدم أن نساءه أمهات المؤمنين لا المؤمنات بخلافه صلى الله عليه وسلم فإنه أبو الرجال والنساء، وتقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ (الأحزاب: ٤٠)

وإن ثوابهن وعقابهن مضاعف.

ومنها أنه يحرم سؤالهن إلا من وراء حجاب، وأفضلهن خديجة ثم عائشة، وأفضل نساء العالمين مريم بنت عمران إذ قيل بنبوتها، ثم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خديجة، ثم عائشة، ثم آسية امرأة فرعون، وأما خبر الطبراني: خير نساء العالمين مريم بنت عمران، ثم خديجة بنت خويلد، ثم فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ثم آسية امرأة فرعون فأجيب عنه: بأن خديجة إنما فضلت فاطمة باعتبار الأمومة لا باعتبار السيادة، وتقدم أنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين.

ومنها: أنه أول النبيين خلقا وأفضل الخلق على الإطلاق، وخص بتقديم نبوته فكان نبيا وآدم منجدل في طينته، وبتقديم أخذ الميثاق عليه، وبأنه أول من قال: بلى وقت ﴿ألست بربكم﴾ وبخلق آدم وجميع المخلوقات من أجله، وبكتابة اسمه الشريف على العرش والسماوات والجنات وسائر ما في الملكوت، وبشق صدره الشريف، وبجعل خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه، وبحراسة السماء من استراق السمع والرمي بالشهب، وبإحياء أبويه حتى آمنا به، وبأنه أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، وأول من يقرع باب الجنة، وأول شافع وأول مشفع، وأكرم بالشفاعات الخمس يوم القيامة:

أولها: العظمى في الفصل بين أهل الموقف حين يفزعون إليه بعد الأنبياء.

الثانية: في إدخال خلق الجنة بغير حساب جعلنا الله وأحبابنا منهم.

الثالثة: في ناس استحقوا." (١)

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٣/٢٦٠

"ومنها يوم التلاق لما مر ومنها يوم التغابن لغبن أكثر من فيه وخسرانه، وقيل: المراد بيوم الآزفة مشارفتهم دخول النار فإن عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف، وقال أبو مسلم: هو يوم حضور الأجل فإن يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب.

ولما ذكر تعالى اليوم هول أمره بما يحصل فيه من المشاق بقوله تعالى: ﴿إذ القلوب﴾ أي: من كل من حضره ترتفع ﴿لدى﴾ أي: عند ﴿الحناجر﴾ أي: حناجر المجموعين فيه وهو جمع حنجور وهو الحلقوم يعني أنها زالت عن أماكنها صاعدة من كثرة الرعب حتى كادت تخرج.

ثم أسند إليها ما يسند للعقلاء فقال تعالى: ﴿كاظمين﴾ أي: ممتلئين خوفا ورعبا وحزنا مكروبين فقد استدت مجاري أنفاسهم وأخذ بجميع إحساسهم.

ولما كان من المعهود أن الصداقات تنفع في مثل ذلك والشفاعات قال تعالى مستأنفا: ﴿ما للظالمين﴾ أي: العريقين في الظلم ﴿من حميم﴾ أي: قريب صادق في مودتهم مهتم بأمورهم مزيل لكروبهم ﴿ولا شفيع يطاع﴾ فيشفع لهم.

تنبيه: احتج المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة عن المذنبين، فقالوا: نفي حصول شفيع لهم يطاع يوجب أن لا يحصل لهم هذا الشفيع وأجيبوا بوجوه؛ أولها: أنه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لا يدل على نفي الشفيع كقولك ما عندي كتاب يباع، لا يقتضي نفي الكتاب فهذا ينفي أن لهم شفيعا يطيعه الله تعالى ما من شفيع إلا من بعد إذنه، ثانيها: أن المراد بالظالمين في هذه الآية ههنا الكفار لأنها وردت في زجر الكفار قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان: ١٣) ، ثالثها: أن لفظ الظالمين إما أن يفيد الاستغراق أو لا، فإن كان المراد: جميعهم فيدخل فيه الكفار، وعندنا أنه ليس لهذا الجمع شفيعا لأن بعضه كفار وليس لهم شفيع، فحينئذ لا يكون لهذا الجمع شفيع، وإن لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع.

ولما أمر الله تعالى بإنذار يوم الآزفة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا يشفع له، ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا فقال تعالى:

﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ أي: خيانتها التي هي أخفى ما يقع من أفعال الظاهر، جعل الخيانة مبالغة في الوصف وهو الإشارة بالعين، قال أبو حيان: من كسر عين وغمز ونظر يفهم المراد.

ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر أتبعه أخفى أفعال الباطن فقال تعالى: ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي: القلوب فعلم من ذلك أن الله تعالى عالم بجميع أفعالهم لأن الأفعال على قسمين أفعال الجوارح وأفعال القلوب، فأما أفعال الجوارح فأخفاها خيانة الأعين والله تعالى عالم بها فكيف الحال في سائر الأعمال، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله عز وجل: ﴿وما تخفي الصدور﴾ (غافر: ١٩)

وقوله تعالى:

﴿والله﴾ أي: المتصف بجميع صفات الكمال ﴿يقضي بالحق﴾ أي: الثابت الذي لا ينتفي يوجب عظيم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية

القصوى. ولما عول الكفار في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة فقال تعالى: ﴿والذين يدعون﴾ أي: يعبدون ﴿من دونه﴾ وهم الأصنام ﴿لا يقضون﴾ لهم ﴿بشيء﴾ من الأشياء أصلا فكيف يكونون." (١)

"شركاء لله تعالى، وقرأ نافع وهشام تدعون بتاء الخطاب للمشركين والباقون بياء الغيبة إخبارا عنهم بذلك.

ولما أخبر تعالى أنه لا فعل لشركائهم وأن الأمر له وحده قال تعالى مؤكدا لأجل أن أفعالهم تقتضي إنكار ذلك ﴿إن الله﴾ أي: المنفرد بصفات الكمال ﴿هو﴾ أي: وحده ﴿السميع﴾ أي: لجميع أقوالهم ﴿البصير﴾ أي: بجميع أفعالهم، ففي ذلك تقرير لعلمه تعالى **بخائنة الأعين** وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه، فثبت أن الأمر له وحده فما تنفعهم شفاعة الشافعين ولا تقبل فيهم من أحد شفاعة بعد الشفاعة العامة التي هي خاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهي المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، فإن كان أحد يحجم عنها حتى يصل الأمر إليه صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها أنا لها، ثم يذهب إلى المكان الذي أذن له فيه فيشفع فيشفعه الله تعالى، فيفصل سبحانه وتعالى بين الخلائق ليذهب كل أحد إلى داره جنته أو ناره.

ولما أوعدهم سبحانه بصادق الأخبار عن قوم نوح ومن تبعهم من الكفار وختمه بالإنذار بما يقع في دار القرار للظالمين الأشرار أتبعه الوعظ والتخويف بالمشاهدة ممن تتبع الديار، والاعتبار بما كان لهم فيها من عجائب الآثار فقال عز من قائل: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ أي: في أي أرض ساروا فيها ﴿فينظروا﴾ أي: نظر اعتبار كما هو شأن أهل البصائر ﴿كيف كان عاقبة﴾ أي: آخر أمر ﴿الذين كانوا﴾ أي: سكانا للأرض عريقين في عمارتها ﴿من قبلهم﴾ أي: قبل زمانهم من الكفار كعاد وثمود ﴿كانوا هم﴾ أي: المتقدمون لما لهم من القوة الظاهرة والباطنة ﴿أشد منهم﴾ أي: من هؤلاء ﴿قوة﴾ أي: ذوات ومعاني وإنما جيء بالفصل وحقه أنه يقع بين معرفتين لمضارعة أفعل من المعرفة في امتناع دخول اللام عليه، وقرأ ابن عامر منكم بكاف والباقون بهاء الغيبة ﴿و﴾ أشد ﴿آثارا في الأرض﴾ لأن آثارهم لم يندرس بعضها إلى هذا الزمان وقد مضى عليه ألوف من السنين، وأما المتأخرون فتنطمس آثارهم في أقل من قرن ومع قوتهم ﴿فأخذهم الله﴾ أي: الذي له صفات الكمال أخذ غلبة وقهر وسطوة ﴿بذنوبهم﴾ أي: بسببها ﴿وما كان لهم﴾ من شركائهم الذين ضلوا بهم هؤلاء ومن غيرهم ﴿من الله﴾ أي: المتصف بجميع صفات الكمال ﴿من واق﴾ أي: يقيهم عذابه والمعنى: أن العاقل من اعتبر بغيره وأن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء، ولما كذبوا رسلهم أهلكهم الله تعالى عاجلا، وقرأ ابن كثير في الوقف بالياء بعد القاف والباقون بغير ياء واتفقوا على التنوين في الوصل. ثم ذكر تعالى سبب أخذهم بقوله تعالى:

﴿ذلك﴾ أي: الأخذ العظيم ﴿بأنهم﴾ أي: الذين كانوا من قبل ﴿كانت تأتيهم رسلهم بالبينات﴾ أي: الآيات الدالة على صدقهم دلالة هي من وضوح الأمر بحيث لا يسع منصفا إنكارها، وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بضمها.

ولما كان مطلق الكفر كافيا في العذاب عبر بالماضي فقال تعالى: ﴿فكفروا﴾ أي: سببوا عن إتيان الرسل عليهم السلام إليهم الكفر بهم ﴿فأخذهم الله﴾ أي: الملك الأعظم أخذ غضب ﴿إنه قوي﴾ أي: متمكن مما يريد غاية التمكن ﴿شديد

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٤٧٦/٣

العقاب﴾ لا يؤبه بعقاب دون عقابه.

ولما سلى تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذكر الكفار الذين." [1]

"هل بلغت عبادي؟ وأنا قائل له: رب قد بلغتهم، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب، ثم إنكم مدعوون ومفدمة أفواهكم بالفدام....

(المسند ٥/٤) ، وأخرجه عبد الرزاق في (مصنفه ١٣٠/١١) ، والطبراني في (الكبير ٤٠٧/١٩) ، وابن عبد البر في (الإستيعاب ٣٢٣/١) – هامش الإصابة – من طرق عن بهز به وصححه ابن عبد البر.

وأصله في (سنن النسائي ٥/٤-٥) ، وحسنه الألباني في (صحيح النسائي ٥١١/٢ و٥٤٢) .

انظر حديث البخاري عن عبد الله بن عمر الآتي عند الآية (٦) من سورة التحريم.

قوله تعالى (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين)

قال الشيخ الشنقيطي: قوله تعالى (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يقص على عباده يوم القيامة ما كانوا يعملونه في الدنيا، وأخبرهم بأنه جل وعلا لم يكن غائبا عما فعلوه أيام فعلهم له في دار الدنيا، بل هو الرقيب الشهيد على جميع الخلق، المحيط علمه بكل ما فعلوه من صغير وكبير، وجليل وحقير، وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) وقوله (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم) وقوله (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرأن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب) .

انظر حديث البخاري عن عدي بن حاتم المقدم عند الآية (١٣١) من سورة آل عمران.

قال ابن كثير: (وما كنا غائبين) يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحقير، لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم **بخائنة الأعين** وما تخفي الصدور، (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) .." [2]

"يقول: يحشر الله العباد أو قال الناس عراة غرلا بهما قال: قلنا: ما بهما، قال ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى اقصه منه حتى اللطمة قال قلنا كيف ذا وإنما نأتي الله غرلا بهما؟ قال: بالحسنات والسيئات قال: وتلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم) .

صحيح الإسناد ولم يخرجاه. (المستدرك ٤٣٧/٢-٤٣٨ – ك التفسير، وصححه الذهبي) ، وأخرجه البخاري معلقا بصيغة

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٤٧٧/٣

(٢) الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور حكمت بشير ياسين ٣٠٠/٢

الجزم مختصرا وحسن إسناده الحافظ ابن حجر (الفتح ١/١٧٣-١٧٤) ، ووافقه الألباني في (السلسلة الصحيحة ١/٣٠٢)
.
وانظر سورة الزلزلة آية (٦-٨) .
قال ابن كثير: وقوله (إن الله سريع الحساب) ، أي: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفسا واحدة، كما قال: (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقال: (وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر) .
قوله تعالى (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع)
انظر سورة النجم آية (٥٧) لبيان يوم الآزفة أي: يوم القيامة.
أخرج الطبري بسنده الحسن عن السدي (إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) قال: شخصت أفئدتهم عن أمكنتهم، فنشبت في حلوقهم، فلم تخرج من أجوافهم فيموتوا ولم ترجع إلى أمكنتها فتستقر.
أخرج الطبري بسنده الحسن عن السدي (ما للظالمين من حميم ولا شفيع) قال: من يعنيه أمرهم، ولا شفيع لهم.
قوله تعالى (يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور)
أخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد (يعلم **خائنة الأعين**) قال: نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه.." [١]

"وعكوس أسمائه من عالم أمره بمقتضى حبه الذاتي على من يشاء من عباده اى على استعدادات مظاهره المستظلين تحت ظلال أسمائه وصفاته الممدودة المنبسطة عليهم وبعد القائه ومده إياهم قد كلفهم بما كلفهم من الأوامر والنواهي المصححة للعبودية اللازمة للالوهية والربوبية وانما كلفهم بما كلفهم لينذر يوم التلاق اى ليخوفهم ويحذرهم عن خجالة زمان الوصول والرجوع الى ربهم في النشأة الاخرى والطامة الكبرى التي ترد فيها الأمانات الى أهلها على وجهها إذ هو
يوم هم بارزون خارجون عن أجداث اجسادهم منخلعون عن خلعة تعيناتهم راجعون الى الله جميعا بأرواحهم محشورون عنده معروضون عليه بحيث لا يخفى على الله المحيط بهم منهم شيء لا من أعيانهم وذواتهم ولا من أعمالهم وأحوالهم ونياتهم وبعد ما قد برزوا لله ورجعوا نحوه صائرين اليه فانين فيه قيل حينئذ من قبل الحق بعد فناء الكل فيه إظهارا لكمال قدرته واستقلاله في حوله وقوته وسطوة سلطنته وبسطته حسب وحدته لمن الملك اى ملك الوجود والتحقق والثبوت فأجيب ايضا من قبله بعد ما تحقق ان اليوم لا موجود فيه سواه ولا شيء غيره حتى يجيب لله الواحد الأحد من كل الوجوه القهار المعدم المحياء لنقوش السوى والأغيار وعكوس عموم الاظلال والأمثال عن دفتر الوجود ومشهد الشهود وبعد ما قد استقر واستوى سبحانه على الملك المطلق بالأصالة والاستحقاق وعلى عروش عموم ما قد كان ويكون في أزل الآزال وابد الآباد أشار الى سرائر ما ظهر منه من الأوامر والنواهي في النشأة الاولى فقال
اليوم اى يوم الجزاء والنشأة الاخرى تجزى كل نفس بما كسبت اى طبق ما كسبت واقترفت في النشأة الاولى التي هي نشأة التكليف والاختبار بلا ازدياد عليه ولا تنقيص عنه إذ لا ظلم اليوم اى يوم الجزاء لأنه انما وضع لتظهر فيه العدالة الإلهية

---
(١) الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور حكمت بشير ياسين ٤/٢٥٦

والقسط الحقيقي بل تجزى فيه كل من النفوس حسب ما صدر عنها خيرا وشرا نفعا وضرا إن الله المطلع على عموم ما ظهر وبطن من احوال عباده سريع الحساب عليهم بلا فترة وتلبس إذ لا يشغله شأن عن شأن ولا يطرأ عليه سهو ونسيان

وبالجملة أنذرهم وحذرهم يا أكمل الرسل يعنى عموم المكلفين يوم الآزفة اى القرب والمشارفة على العذاب الأبدي حين احضروا على شفير جهنم للطرح فيها إذ القلوب اى قلوب أولئك المحضرين ترتفع وتعلو حينئذ لدى الحناجر يعنى تلتصق يومئذ قلوبهم بحلاقيمهم من شدة هولهم واضطرابهم وقد كانوا حينئذ كاظمين مملوين من الكآبة والحزن المفرط وانواع الغموم والخذلان وبالجملة ما للظالمين المفسدين المسرفين حينئذ من حميم قريب قرين يدركهم ويتولى أمرهم ويسعى في استخلاصهم ولا شفيع لهم يطاع اى يسمع شفاعته لأجلهم ويقبل منه مع انه سبحانه

يعلم منهم بعلمه الحضوري **خائنة الأعين** اى خيانتهم التي يتغامزون بعيونهم نحو محارم الله بلا خيانة صدرت عنهم ظاهرا فكيف بما أتوا بها جهرا وعلانية وبالجملة يعلم سبحانه منهم عموم ما تخفي الصدور اى صدورهم من ميل الشهوات المحرمة بلا مباشرة الآلات

وبالجملة الله المطلع بظواهرهم وضمائرهم يقضي ويحكم بهم ويجازى عليهم بمقتضى علمه وخبرته من أعمالهم وأحوالهم بالحق على الوجه الأعدل الاقسط بلا حيف وميل إظهارا لكمال عدالته والذين يدعون من دونه سبحانه من الأصنام والأوثان لا يقضون ولا يحكمون لا لهم ولا عليهم يعنى آلهتهم بشيء من نفع وضر وخير وشر إذ هي جمادات هلكى لا شعور لها إن الله القادر المقتدر." (١)

"وعن الثاني: بأن لفظ «الظالمين» صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم، أقصى ما في الباب أن هذه الآية وردت لذم الكافر، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعن الثالث أن قوله: ﴿ما للظالمين من حميم﴾ يفيد أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم ولا شفيع يطاع.

وأجيبوا عن الأول بأن القوم كانوا يقولون في الأصنام: إنها شفعاؤهم عند الله، وكانوا يقولون: إنها تشفع لهم عند الله من غير حاجة إلى إذن فلهذا السبب رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ [البقرة: ٢٥٥] فهذا يدل على أن القوم اعتقدوا أنه يجب على الله تعالى إجابة تلك الأصنام في الشفاعة وهذا نوع طاعة فالله تعالى نفى تلك الطاعة بقوله: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ . وعن الثاني بأن قالوا: الأصل في حرف التعريف أن ينصرف إلى المعهود السابق فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق انصرف إليه، وقد حصل في هذه الآية معهود سابق وهم الكفار الذين يجادلون في آيات الله فوجب أن ينصرف إليهم. وعن الثالث بأن قالوا قوله: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ يحتمل عموم السلب، ويحتمل سلب العموم، أما الأول: فعلى تقدير أن يكون المعنى أن كل واحد من الظالمين محكوم عليه بأنه ليس له حميم، ولا شفيع. وأما الثاني: فعلى تقدير أن يكون مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع، ولا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع، ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا سوآء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾

---

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية النخجواني ٢/٢٥٩

[البقرة: ٦] وقوله: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ [يونس: ٩٦] فإن حملناه على أن كل واحد منهم محكوم عليه بأنه لايؤمن لزم وقوع الخلف في كلام الله تعالى؛ لأن كثيرا ممن كفر قد آمن بعد ذلك، أما لو حملناه على أن مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أو لم يؤمن صدق وتخلص عن الخلف، فلا جرم حلمنا هذه الآية على سلب العموم لا على عموم السلب وحينئذ يسقط استدلال المعتزلة بهذه الآية.

قوله «يعلم» فيه أربعة أوجه:

أظهرها: أنه خبر آخر عن «هو» في قوله ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ [غافر: ١٣] ، قال الزمخشري: فإن قلت: بم اتصل قوله ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قلت: هو خبر من أخبار «." (١)

"هو» في قوله ﴿هو الذي يريكم آياته﴾ [غافر: ١٣] مثل «يلقي الروحط» ولكن «يلقي الروح» قد علل بقوله «لينذر» ثم استطرد لذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله «ولا شفيع يطاع» فبعد لذلك عن أخواته.

الثاني: أنه متصل بقوله «وأنذرهم» لما أمر بإنذاره يوم الآزمة وما يعرض فيه من شدة الغم والكرب وأن الظالم لا يجد من يحميه ولا شفيع له، ذكر اطلاعه على جميع ما يصدر من الخلق سرا وجهرا إذ المعنى أنه تعالى عالم لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات والأرض، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب شديدا جدا وعلى هذا فهذه الجملة لا محل لها لأنها في قوة التعليل للأمر بالإنذار.

الثالث: أنها متصلة بقوله: «سريع الحساب» .

الرابع: أنها متصلة بقوله: ﴿لا يخفى على الله﴾ [غافر: ١٦] وعلى هذين الوجهين فيحتمل أن تكون جارية مجرى العلة، وأن تكون في محل نصب على الحال.

و **«خائنة الأعين»** فيه وجهان:

أحدهما: أنها مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة (والعافية) أي يعلم خيانة الأعين أي استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب.

والثاني: أنها صفة على بابها وهو من باب إضافة الصفة للموصوف والأصل الأعين الخائنة كقوله:

٤٣٣٠ - ... ... وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

وقد رده الزمخشري وقال: لا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين لأن قوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾ لا يساعد عليه يعنهي أنه لا يناسب أن يقابل المعنى إلا بالمعنى.." (٢)

"وفيه نظر؛ أذ لقائل أن يقول لا نسلم أن «ما» في قوله ﴿وما تخفي الصدور﴾ مصدرية حتى يلزم ما ذكره، بل يجوز أن يكون بمعنى الذي وهو عبارة عن نفس ذلك الشيء المخفي فيكون قد قابل الاسم غير المصدر بمثله، والمراد بقوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي تضمر القلوب.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٢/١٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣/١٧

واعلم أن الأفعال قسمان: أفعال الجوارح، وأفعال القلوب، وأما أفعال الجوارح فأخفاها **خائنة الأعين** والله بهات فكيف الحال في سائر الأعمال، وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله ﴿وما تخفي الصدور﴾ فدل هذا على كونه عالما بجميع أفعالهم.

قوله ﴿والله يقضي بالحق﴾ وهذا أيضا يوجب عظم الخوف لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال وثبت أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى.

قوله: «والذين يدعون» ، قرأ نافع وهشام تدعون بالخطاب للمشركين والباقون بالغيبة، إخبارا عنهم بذلك.

واعلم أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام فبين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة، فقال: ﴿الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ ثم قال: ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام، ولا يسمع ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله.." (١)

"كاظمين كابتين غيظهم لا يستطيعون التفريج عن أنفسهم.

من حميم من محب مشفق.

ولا شفيع يشفع لهم.

يطاع يستجاب له.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٩ الى ٢٣]

يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣)

١٩- يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور:

خائنة الأعين استراق النظر إلى ما لا يحل.

٢٠- والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير:

يقضي بالحق يحكم بالعدل.

والذين يدعون من دونه من يجعلونه شركاء الله.

لا يقضون بشيء لعجزهم.

٢١- أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٤/١٧

:

فأخذهم الله فأهلكهم واستأصلهم.

بذنوبهم بما أسلفوا من ذنوب.

من واق من حافظ يحفظهم ويحميهم من عذابه.

٢٢- ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب:

بالبينات بالآيات الدالة على قدرة الله تعالى.

فكفروا فجحدوا بها.

فأخذهم الله فأهلكهم.

٢٣- ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين:

بآياتنا بمعجزاتنا.." (١)

"الفرائد: هو مختص بالفصاحة دون البلاغة، لأنه الإتيان بلفظة تتنزل منزلة الفريدة من العقد، وهى الجوهرة التى لا نظير لها تدل على عظم فصاحة هذا الكلام وقوة عارضته وجزالة منطقة وأصالة عربيته، بحيث لو أسقطت من الكلام عزت على الفصحاء، ومنه لفظ، حصحص فى قوله: الآن حصحص الحق، والرفث فى قوله: أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ولفظة فزع فى قوله: حتى إذا فزع عن قلوبهم **وخائنة الأعين** فى قوله: يعلم **خائنة الأعين** ونجيا فى قوله: فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا وبساحتهم فى قوله: فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين.

القسم: هو أن يريد المتكلم الحلف على شيء فيحلف بما يكون فيه فخر له، أو تعظيم لشأنه أو تنويه لقدره أو ذم لغيره، أو جاريا مجرى الغزل الرقيق، أو خارجا مخرج الموعظة والزهد كقوله: فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون أقسم سبحانه وتعالى بقسم فوجب الفخر لتضمنه التمدح بأعظم قدرة وأجل عظيمة لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون أقسم سبحانه وتعالى بحياة نبيه صلى الله عليه وسلم تعظيما لشأنه وتنويها بقدره.

اللف والنشر: هو أن يذكر شيئان أو أشياء، إما تفصيلا بالنص على كل واحد، أو إجمالا بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ثم يذكر أشياء على عدد ذلك، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم، ويفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به.

فالإجمالى كقوله تعالى: وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى أى وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا اليهود، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا النصارى، وإنما سوغ الإجمال فى اللف ثبوت العناد بين اليهود والنصارى، فلا يمكن أن يقول أحد الفريقين بدخول الفريق الآخر الجنة، فوثق بالعقل فى أنه يرد كل قول إلى فريقه لأمن اللبس، وقائل ذلك يهود المدينة ونصارى نجران.." (٢)

---

(١) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ١٠١/١١

(٢) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ٢٦٩/٢

"رقم مسلسل/ الآية/ رقم الآية/ مكان النزول/ السورة/ رقم السورة ٦١١٠/ يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس/ ١/ مدنية/ الجمعة/ ٦٢ ٦١١١/ يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك/ ١/ مدنية/ التغابن/ ٦٤ ٦١١٢/ يسبحون الليل والنهار لا يفترون/ ٢٠/ مكية/ الأنبياء/ ٢١ ٦١١٣/ يستبشرون بنعمة من الله وفضل/ ١٧١/ مدنية/ آل عمران/ ٣ ٦١١٤/ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله

/ ١٠٨/ مدنية/ النساء/ ٤ ٦١١٥/ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها/ ١٨/ مكية/ الشورى/ ٤٢ ٦١١٦/ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين/ ٥٤/ مكية/ العنكبوت/ ٢٩ ٦١١٧/ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة/ ١٧٦/ مدنية/ النساء/ ٤ ٦١١٨/ يسقون من رحيق مختوم/ ٢٥/ مكية/ المطففين/ ٨٣ ٦١١٩/ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا/ ٨/ مكية/ الجاثية/ ٤٥ ٦١٢٠/ يشهده المقربون/ ٢١/ مكية/ المطففين/ ٨٣ ٦١٢١/ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم/ ٧١/ مدنية/ الأحزاب/ ٣٣ ٦١٢٢/ يصلونها يوم الدين/ ١٥/ مكية/ الانفطار/ ٨٢ ٦١٢٣/ يصهر به ما في بطونهم والجلود/ ٢٠/ مدنية/ الحج/ ٢٢ ٦١٢٤/ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا/ ٦٩/ مدنية/ الفرقان/ ٢٥ ٦١٢٥/ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب/ ٧١/ مكية/ الزخرف/ ٤٣ ٦١٢٦/ يطاف عليهم بكأس من معين/ ٤٥/ مكية/ الصافات/ ٣٧ ٦١٢٧/ يطوف عليهم ولدان مخلدون/ ١٧/ مكية/ الواقعة/ ٥٦ ٦١٢٨/ يطوفون بينها وبين حميم آن/ ٤٤/ مدنية/ الرحمن/ ٥٥ ٦١٢٩/ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم/ ٩٤/ مدنية/ التوبة/ ٩ ٦١٣٠/ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا/ ١٢٠/ مدنية/ النساء/ ٤ ٦١٣١/ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون/ ٢١/ مكية/ العنكبوت/ ٢٩ ٦١٣٢/ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام/ ٤١/ مدنية/ الرحمن/ ٥٥ ٦١٣٣/ يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون/ ٨٣/ مكية/ النحل/ ١٦ ٦١٣٤/ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين/ ١٧/ مدنية/ النور/ ٢٤ ٦١٣٥/ يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور/ ١٩/ مكية/ غافر/ ٤٠ ٦١٣٦/ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور/ ٧٦/ مدنية/ الحج/ ٢٢ ٦١٣٧/ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما/ ١١٠/ مكية/ طه/ ٢٠." (١)

"تحر ١٠ فخانتاهما فلم يغنينا عنهما أخنه يختانون تختانون سف ٥٢ ليعلم أني لم أخنه نسا ١٠٦ يختانون أنفسهم بق ١٨٧ كنتم تختانون أنفسكم خيانة خيانتك الخائنين نف ٥٩ وإما تخافن من قوم خيانة إن الله لا يحب الخائنين.

– ٧١ وإن يريدوا خيانتك نسا ١٠٤ ولا تكن للخائنين سف ٥٢ لا يهدى كيد الخائنين خائنة خوان خوانا ما ١٤ تطلع على خائنة مم ١٩ يعلم **خائنة الأعين** حج ٣٨ لا يجب كل خوان كفور نسا ١٠٦ لا يحب من كان خوانا خوى خاوية بق ٢٥٩ وهى خاوية على عروشها (كه ٤٣ حج ٤٥) قة ٧ كأنهم أعجاز نخل خاوية نم ٥٢ فتلك بيوتهم خاوية خيب خاب خائبين ابر ١٥ وخاب كل جبار عنيد طه ٦١ وقد خاب من افترى– ١١١ وقد خاب من حمل ظلما شم ١٠ وقد خاب من دساها عمر ١٢٧ فينقلبوا خائبين خير تخيرون يتخيرون اختار ن ٣٨ إن لكم فيه لما تخيرون قع ٢٠ وفاكهة مما يتخيرون عف ١٥٤ واختار موسى قومه اخترنك اخترناهم يختار طه ١٣ وأنا اخترتك فاستمع دخ ٣٢ ولقد اخترناهم على

---

(١) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ٣/٤١٨

علم قص ٦٨ يخلق ما يشاء ويختار خير «مرفوعا» عمر ٥٤ والله خير الماكرين (نف ٣٠) – ١٥٠ وهو خير الناصرين ما ١١٧ وأنت خير الرازقين نعم ٥٧ وهو خير الفاصلين عف ٨٦ وهو خير الحاكمين (يو ١٠٩ سف ٨٠) – ٨٨ وأنت خير الفاتحين– ١٥٤ وأنت خير الغافرين سف ٥٩ وأنا خير المنزلين ان ٨٩ وأنت خير الوارثين حج ٥٨ وإن الله لهو خير الرازقين مو ٧٣ وهو خير الرازقين (سب ٣٩) – ٢٩ وأنت خير المنزلين مو ١١٠ و ١١٩ وأنت خير الراحمين جع ١١ والله خير الرازقين بن ٧ أولئك هم خير البرية بق ٥٤ ذلكم خير لكم عند بارئكم بق ٦١ بالذى هو خير– ١٠٣ لمثوبة من عند الله خير– ١٨٤ فهو خير له وان تصوموا خير لكم– ٢١٦ تكرهوا شيئا وهو خير– ٢٢٠ قل إصلاح لهم خير– ٢٢١ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولعبد مؤمن خير من مشرك– ٢٦٣ ومغفرة خير من صدقة– ٢٧١ وتؤتوها الفقراء فهو خير– ٢٨٠ وأن تصدقوا خير لكم عمر ١٥٧ ورحمة خير مما يجمعون– ١٧٨ أنما نملى لهم خير– ١٩٨ وما عند الله خير للأبرار نسا ٢٥ وأن تصبروا خير لكم– ٥٨ ذلك خير وأحسن (سر ٣٥) – ٧٦ والآخرة خير لمن اتقى– ١٢٧ والصلح خير نعم ٣٢ ولدار الآخرة خير عف ١١ قال انا خير منه (ص ٧٦) – ٢٥ ولباس التقوى ذلك خير– ٨٤ ذلكم خير لكم إن كنتم (بة ٤٢ عك ١٦ صف ١١ جع ٩)." (١)

"ان ١١٠ يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون حج ٧٠ يعلم ما فى السماء ور ٦٣ قد يعلم الله الذين يتسللون– ٦٤ قد يعلم ما أنتم عليه فر ٦ أنزله الذى يعلم السر شع ٢٢٧ وسيعلم الذين ظلموا نم ٢٥ ويعلم ما تخفون– ٦٥ لا يعلم من فى السموات– ٧٤ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم قص ٦٩ وربك يعلم ما تكن عك ٤٢ يعلم ما يدعون من دونه– ٤٥ يعلم ما تصنعون لق ٣٤ ويعلم ما فى الأرحام حب ١٨ قد يعلم الله المعوقين– ٥١ يعلم ما فى قلوبكم سب ٢ يعلم ما يلج فى الأرض (حد ٤) يس ١٦ ربنا يعلم إنا إليكم مم ١٩ يعلم **خائنة الأعين** حس ٢٢ ظننتم أن الله لا يعلم محمد ١٩ والله يعلم متقلبكم– ٢٦ والله يعلم إسرارهم– ٣٠ والله يعلم أعمالكم رات ١٨ يعلم غيب السموات منا ١ يعلم إنك لرسوله ملك ١٤ ألا يعلم من خلق مل ٢٠ يعلم أنك تقوم مد ٣١ وما يعلم جنود ربك إلا هو مل ٧ إنه يعلم الجهر وما يخفى ما ٩ أفلا يعلم إذا بعثر «منصوبا» عمر ١٤٠ وليعلم الله الذين آمنوا– ١٤٢ ويعلم الصابرين– ١٦٦ وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا ما ٩٧ ليعلم الله من يخافه سف ٥٢ ليعلم أنى لم أخنه بالغيب نح ٣٩ وليعلم الذين كفروا– ٧٠ لكى لا يعلم بعد علم حج ٥ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا– ٥٣ وليعلم الذين أوتوا شو ٣٥ ويعلم الذين يجادلون حد ٢٥ وليعلم الله من ينصره– ٢٩ لئلا يعلم أهل الكتاب جن ٢٨ ليعلم أن قد أبلغوا «مجزوما» عمر ١٤٢ ولما يعلم الله الذين جاهدوا (بة ١٧) نف ٧٠ إن يعلم الله فى قلوبكم قص ٧٨ أو لم يعلم أن الله قد أهلك عق ٥ علم الانسان ما لم يعلم– ١٤ ألم يعلم بأن الله يرى يعلمن تعلم عك ٣ فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين– ١١ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين نسا ١١٢ ما لم تكن تعلم ما ١١٩ تعلم ما فى نفسى هد ٧٩ وإنك لتعلم ما تريد ابر ٣٨ إنك تعلم ما تخفى مر ٦٥ هل تعلم له سميا سج ١٧ فلا تعلم نفس ما أخفى بة ٤٤ وتعلم الكاذبين قص ١٣ ولتعلم أن وعد الله حق بق ١٠٦ و ١٠٧ ألم تعلم أن الله (ما ٤٣ حج ٧٠) أعلم بق ٣٠ قال إنى أعلم ما لا تعلمون– ٣٣ إنى أعلم غيب

---

(١) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ١٥٢/٧

السموات- وأعلم ما تبدون- ٢٥٩ قال أعلم أن الله ما ١١٩ ولا أعلم ما فى نفسك نعم ٥٠ ولا أعلم الغيب (هد ٣١) عف ٦١ وأعلم من الله (سف ٨٦ و ٩٦) - ١٨٧ ولو كنت أعلم الغيب يعلمون بق ١٣ ولكن لا يعلمون- ٢٦ فيعلمون أنه الحق- ٧٥ عقلوه وهم يعلمون- ٧٧ أو لا يعلمون أن الله- ٧٨ أميون لا يعلمون- ١٠١ كأنهم لا يعلمون- ١٠٢ و ١٠٣ لو كانوا يعلمون (نح ٤١ عك ٤١ و ٦٤ زم ٢٦ ن ٣٣) - ١١٣ و ١١٨ قال الذين لا يعلمون- ١٤٤ ليعلمون أنه الحق." (١)

"عين عين عينا العين شية ١٢ فيها عين جارية كه ٨٦ تغرب فى عين حمئة قص ٩ قرة عين لى ولك شية ٥ تسقى من عين آنية بق ٦٠ اثنتا عشرة عينا (عف ١٥٩) مر ٢٥ واشربى وقرى عينا سب ١٢ وأسلنا له عين القطر هر ٦ عينا يشرب بها عباد الله- ١٨ عينا فيها تسمى سلسبيلا طف ٢٨ عينا يشرب بها المقربون تكا ٧ لترونها عين اليقين عمر ١٣ مثلهم رأى العين ما ٤٨ والعين بالعين عينان عينين حما ٥٠ فيهما عينان تجريان- ٦٦ فيهما عينان نضاختان بل ٨ ألم نجعل له عينين عيون عيونا العيون جر ٤٠ فى جنات عيون (شع ١٤٧ دخ ٥٢ يا ١٥) شع ٥٨ من جنات وعيون (دخ ٢٥) شع ١٣٤ وجنات وعيون سلا ٤١ فى ظلال وعيون قمر ١٢ وفجرنا الأرض عيونا يس ٣٤ وفجرنا فيها من العيون أعين الأعين عف ٧٨ ولهم أعين لا يبصرون بها- ١٩٤ أم لهم أعين يبصرون بها ان ٦١ على أعين الناس فر ٧٤ وذرياتنا قرة أعين سج ١٧ ما أخفى لهم من قرة أعين عف ١١٥ سحروا أعين الناس رف ٧١ وتلذ الأعين مم ١٩ يعلم **خائنة الأعين** عينها عينى طه ٤٠ كى تقر عينها (قص ١٣) - ٣٩ ولتصنع على عينى عيناه عيناك عينيك سف ٨٤ وابيضت عيناه من الحزن كه ٢٨ ولا تعد عيناك عنهم جر ٨٨ لا تمدن عينيك إلى ما (طه ١٣١) أعينكم أعينهم هد ٣١ للذين تزدرى أعينكم نف ٤٥ فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم بة ٩٣ وأعينهم تفيض كه ١٠٢ كانت أعينهم فى غطاء حب ١٩ تدور أعينهم يس ٦٦ لطمسنا على أعينهم ما ٨٦ ترى أعينهم تفيض قمر ٣٧ فطمسنا أعينهم أعينهن أعيننا حب ٥١ أدنى أن تقر أعينهن هد ٣٧ واصنع الفلك بأعيننا (مو ٢٧) طو ٤٨ فإنك بأعيننا قمر ١٤ تجرى بأعيننا عين معين صا ٤٨ قاصرات الطرف عين قع ٢٢ وحور عين دخ ٥٤ وزوجناهم بحور عين (طو ٢٠) مو ٥١ ذات قرار ومعين نسا ٤٥ بكأس من معين قع ١٨ وكأس من معين ملك ٣٠ فمن يأتيكم بماء معين عي عيينا يعى ق ١٥ أفعيينا بالخلق الأول حق ٣٣ ولم يعى بخلقهن." (٢)

"(خول) : قوله تعالى: وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم أي ما أعطيناكم، والتخويل فى الأصل إعطاء الخول، وقيل إعطاء ما يصير له خولا، وقيل إعطاء ما يحتاج أن يتعهده، من قولهم فلان خال مال وخايل مال أي حسن القيام به. والخال ثوب يعلق فيخيل للوحوش، والخال فى الجسد شامة فيه.

(خون) : الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة تقال اعتبارا بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتبارا بالدين، ثم يتداخلان، فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد فى السر. ونقيض الخيانة: الأمانة، يقال خنت فلانا وخنت أمانة فلان وعلى ذلك قوله:

---

(١) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ٣١٨/٧

(٢) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ٣٣٤/٧

لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وقوله تعالى:

ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما وقوله: ولا تزال تطلع على خائنة منهم أي على جماعة خائنة منهم. وقيل على رجل خائن، يقال رجل خائن وخائنة نحو راوية وداهية وقيل خائنة موضوعة موضع المصدر نحو قم قائما وقوله: يعلم **خائنة الأعين** على ما تقدم وقال تعالى: وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم وقوله: علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم والاختيان مراودة الخيانة، ولم يقل تخونون أنفسكم لأنه لم تكن منهم الخيانة بل كان منهم الاختيان، فإن الاختيان تحرك شهوة الإنسان لتحرى الخيانة وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى: إن النفس لأمارة بالسوء.

(خوى) :. صل الخواء الخلاء، يقال خوى بطنه من الطعام يخوى خوى، وخوى الجوز خوى تشبيها به، وخوت الدار، تخوى خواء، وخوى النجم وأخوى إذا لم يكن منه عند سقوطه مطر، تشبيها بذلك، وأخوى أبلغ من خوى، كما أن أسقى أبلغ من سقى. والتخوية: ترك ما بين الشيئين خاليا.." (١)

"فلا هي تخرج ولا تعود في أمكنتها.

و ﴿لدى﴾، بمعنى: عند.

﴿كاظمين﴾: مفتاظين لا شيء يزيل غيظهم.

﴿ما للظالمين من حميم﴾، أي: من قريب (ولا صديق) يحتج عنهم فيزيل عظيم ما نزل بهم.

﴿ولا شفيع﴾ يشفع لهم عند ربهم D فيما يشفع فيه.

قال الحسن: استكثروا من الأصدقاء المؤمنين، فإذا الرجل منهم يشفع في صديقه وقريبه، فإذا رأى الكافر ذلك قال: ما لنا من شافعين ولا صديق حميم.

ثم قال تعالى: ﴿يعلم **خآئنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾، أي: يعلم الله جل ذكره خائنة أعين عباده وما أخفته صدورهم، لا يخفى عليه شيء من أمورهم حتى يتحدث به في نفسه ويضمره في قلبه.

ومعنى " **خائنة الأعين** " هو أن الله تعالى يعلم ما أراد بنظره إذا نظر وما ينوي بذلك في قلبه.." (٢)

"قال ابن عباس: ﴿يعلم **خآئنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾: يعلم إذا نظرت إلى المرأة أتريد بذلك الخيانة أم لا. " وما تخفي الصدور "، أي: إذا قدرت عليها أتزني أم لا.

وقوله: ﴿والله يقضي بالحق﴾، أي: يقدر أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة.

وروى ابن وهب عن رجاله عن ابن عباس أنه قال: هو الرجل تمر به المرأة فيرى القوم أنه يغض بصره، فإذا أغفلوا نظر إليها: ويريهم (أنه يغض) بصره ويود لو أنه يطلع على عورتها ويقدر عليها.

وعن ابن عباس أنه قال في " **خائنة الأعين** ": إنه الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر أصحابه إليه غض بصره، (وقد علم الله

---

(١) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ١٨٣/٨

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٦٤١٦/١٠

D منه أنه يود لو نظر إلى عورتها، فإذا رأى منهم غفلة تدسس النظر، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره).

قال مجاهد: **خائنة الأعين**: نظر العين إلى ما نهى الله D عنه.." (١)

"وقال قتادة: يعلم همزه بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله جل ذكره ولا يرضى به.

قال الفراء: " **خائنة الأعين** ": النظرة الثانية و ﴿وما تخفي الصدور﴾ النظرة الأولى " ﴿والله يقضي بالحق﴾، أي: يجازي من غض بصره عن محارمه حذر الموقف بين يديه، ومن ردد النظر وعزم قلبه على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها.

قال الزجاج: " **خائنة الأعين** " نظر ونيته الخيانة.

ثم قال: ﴿والذين يدعون من دونه﴾، أي: والأوثان التي يدعو هؤلاء (المشركون) من قومك من دون الله.

﴿لا يقضون بشيء﴾، أي لا تقدر على شيء ولا تعلم شيئا، فاعبدوا الله الذي هو ﴿السميع﴾ لما تنطق به ألسنتكم ﴿البصير﴾ بما تعملون من الأفعال، المحيط بكل ذلك.

قوله تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ - إلى قوله - ﴿إلا سبيل الرشاد﴾،." (٢)

"﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ خيانة الأعين وهي مسارقتها النظر إلى ما لا يحل." (٣)

"﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى غير المحرم واستراق النظر إليه أو خيانة الأعين على أنها مصدر كالعافية ﴿وما تخفى الصدور﴾ من الضمائر والأسرار والجملة خبر آخر مثل يلقي الروح للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء." (٤)

"﴿والله يقضى بالحق﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضي بشيء إلا وهو حق وعدل ﴿والذين يدعون﴾ يعبدونهم ﴿من دونه﴾ تعالى ﴿لا يقضون بشيء﴾ تهكم بهم لأن الجماد لا يقال في حقه يقضي اولا يقضي وقرىء تدعون على الخطاب التفاتا أو على إضمار قل ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ تقرير لعلمه تعالى **بخائنة الأعين** وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه." (٥)

"أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال: هي مثل التي في البقرة كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم، ثم أخرجهم فأحياهم، ثم يميتهم، ثم يحييهم بعد الموت «١» .

١٨٤٢٥ - عن ابن عباس رضي الله، عنهما في قوله: أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال: كنتم أمواتا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة، ثم أحياكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة فهما ميتتان وحياتان. فهو كقوله: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون «٢» .

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٦٤١٧/١٠

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٦٤١٨/١٠

(٣) الوجيز للواحدي الواحدي ص/٩٤٣

(٤) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٧٢/٧

(٥) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٧٢/٧

١٨٤٢٦ - حدثنا الربيع، حدثنا الخصيب بن ناصح، حدثنا صالح يعني المري، عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله، عنه-، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه» «٣» .

قوله تعالى: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار

١٨٤٢٧ - حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه حدثنا أبو نضرة، عن ابن عباس قال: ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس، أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله، إلى سماء الدنيا ويقول: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار «٤» .

قوله تعالى: يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور

١٨٤٢٨ - عن ابن عباس رضي الله، عنهما في قوله: يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور قال: الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره، عنها وإذا غفلوا لحظ إليها وإذا نظروا غض بصره، عنها، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أنه ينظر إلى عورتها «٥» .

١٨٤٢٩ - عن ابن عباس رضي الله، عنهما في قوله: يعلم **خائنة الأعين**

---

(١) الدر ٧/ ٢٧٢- ٢٧٤.

(٢) الدر ٧/ ٢٧٢- ٢٧٤.

(٣) ابن كثير ٧/ ١٢٤- ١٢٥.

(٤) ابن كثير ٧/ ١٢٤- ١٢٥.

(٥) الدر ٧/ ٢٨٢. [.....]."[١]

"وعلى هذا عقد البخاري- رحمه الله- في الجامع الصحيح أبوابا في ظلم دون ظلم (١)، وكفر دون كفر.

تطبيق:

لما كان المسلمون أهل الإيمان الصادق والشكر والأمانة، دافع الله عنهم، وقد شهد التاريخ بذلك من الله لهم فلما خانوا وكفروا تركهم ومكن منهم.

ولكنه برحمته وعدله لم ينس لهم أصل إسلامهم، فأبقى لهم أصل وجودهم الذاتي، وهم لحم على وضم (٢) بين الأمم، لا

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم - محقق الرازي، ابن أبي حاتم ١٠/٣٢٦٥

يستطيعون دفعا عن أنفسهم.

وأبقى لهم أصل وجودهم الروحي بكتابه المتلو بين ظهرانيهم، رغم إعراضهم عن تدبره وهجرهم لما فيه- عساهم يرجعون.

تنبيه وتحذير:

كل عمل لا يحل فهو خيانة، وإن كان بأدنى إشارة، وقد نبه الله على هذا بقوله ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾، [غافر: ١٩].

وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل والإشارة بطرف العين فيما يحرم.

وأعظم الخيانة بعد الكفر خيانة العامة، لأن الذنب يعظم بعظم أثره وانتشار ضرره. ولهذا جاء ما جاء من الوعيد الشديد فيمن ولي أمرا من أمور المسلمين فغشهم ولم ينصح لهم.

فحق على المسلم أن يحذر من الخيانة دقيقها وجليلها، وخصوصا ما اتصل بالناس منها، ويتنبه من أقل كلمة وأدنى إشارة توقعه في خطرها.

سؤال وجوابه:

فإن قيل: قد نجد من عباد الله المؤمنين من يصيبه البلاء والشدة، فيعذب وقد يقتل: "وكأين من نبي قتل" (٣).

وقد أصاب المؤمنين يوم أحد ويوم حنين ما أصابهم؟

فالجواب:

إن دفع الله يكون بأسباب وأنواع، وعلى وجوه تختلف بحسب الحكمة، ولا تخلو كلها من دفاع، فإن ما يصيب المؤمنين من البلاء في أفرادهم وجماعتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد،

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الإيمان، باب ٢٣ - ظلم دون ظلم) وأورد فيه حديثا عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ قال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أينا لم يظلم نفسه؛ فأنزل الله: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.

(٢) الوضم: كل ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير أو نحو ذلك يوقى به من الأرض (المعجم الوسيط: [ص: ١٠٤]).

(٣) كذا جاء في الأصل المطبوع "قتل". والصواب "قاتل" كما في الآية الكريمة: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم﴾ [آل عمران: ١٤٦].

(*) قال معد الكتاب للشاملة: ما ذكره الإمام ابن باديس هي رواية ورش عن نافع، أما ما ذكره المعلق فرواية حفص عن عاصم." (١)

"والأحسن أن تكون إشارة إلى ما يقتضيه سياق الكلام وذلك أنهم لما قالوا: فهل إلى خروج من سبيل، كأنهم قيل لهم: لا سبيل إلى الخروج، فالإشارة بقوله ذلكم إلى عدم خروجهم من النار

يريكم آياته يعني: العلامات الدالة عليه من مخلوقاته ومعجزات رسله وينزل لكم من السماء رزقا يعني المطر.

رفيع الدرجات يحتمل أن يكون المعنى مرتفع الدرجات، فيكون بمعنى العالي أو رافع درجات عباده في الجنة وفي الدنيا يلقي الروح يعني الوحي من أمره يحتمل أن يريد الأمر الذي هو واحد الأمور، أو الأمر بالخبر، فعلى الأول تكون من للتبعيض أو لابتداء الغاية، وعلى الثاني تكون لابتداء الغاية أو بمعنى الباء يوم التلاق «١» يعني يوم القيامة، وسمي بذلك لأن الخلائق يلتقون فيه، وقيل: لأنه يلتقي فيه أهل السموات والأرض وقيل: لأنه يلتقي الخلق مع ربهم، والفاعل في ينذر ضمير يعود على من يشاء أو على الروح أو على الله لمن الملك اليوم هذا من كلام الله تعالى تقريرا للخلق يوم القيامة فيجيبونه ويقولون: لله الواحد القهار وقيل: بل هو الذي يجيب نفسه لأن الخلق يسكتون هيبة له، وقيل: إن القائل لمن الملك اليوم ملك يوم الآزفة يعني القيامة ومعناه القريبة إذ القلوب لدى الحناجر معناه أن القلوب قد صعدت من الصدور، لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر، فيحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجاز عبر به عن شدة الخوف.

والحناجر جمع حنجرة وهي الحلق كاظمين أي محزونين حزنا شديدا كقوله: فهو كظيم [يوسف: ٨٤] وقيل: معناه يكظمون حزنهم أي يطمعون أن يخفوه، والحال تغلبهم، وانتصابه على الحال من أصحاب القلوب، لأن معناه قلوب الناس، أو من المفعول في أنذرهم أو من القلوب. وجمعها جمع المذكر لما وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ما للظالمين من حميم أي صديق مشفق ولا شفيع يطاع يحتمل أن يكون نفى الشفاعة وطاعة الشفيع أو نفى طاعة خاصة. كقولك: ما جاءني رجل صالح فنفيت الصلاح، وإن كان قد جاءك رجل غير صالح، والأول أحسن لأن الكفار ليس لهم من يشفع فيهم يعلم **خائنة الأعين** أي استراق النظر، والخائنة مصدر بمعنى الخيانة، أو وصف للنظرة وهذا الكلام

---

(١) . قرأ ابن كثير وورش: لينذر يوم التلاقي ويوم التنادي (٣٢) بإثبات الياء في الوصل وأثبتهما ابن كثير في الوقف أيضا. وحذفهما الباقون وصلا ووقفا. [.....]."(٢)

"والتثبيت أي فأعلموا نفوسكم هذا ثم انظروا في الأرجح لكم، ترك الربا أو الحرب، وقرأ جميع القراء «لا تظلمون» بفتح التاء و «لا تظلمون» بضمها وقد مضى تفسيره.

وروى المفضل عن عاصم: لا «تظلمون» بضم التاء في الأولى وفتحها في الثانية. قال أبو علي:

وتترجح قراءة الجماعة فإنها تناسب قوله فإن تبتم في إسناد الفعلين إلى الفاعل فيجيء «تظلمون» بفتح التاء أشكل بما

---

(١) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ابن باديس، عبد الحميد ص/٣٥٢

(٢) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٢٢٩

قبله.

قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٨٠ الى ٢٨١]

وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون (٢٨٠) واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون (٢٨١)

حكم الله تعالى لأرباب الربا برؤوس الأموال عند الواجدين للمال، ثم حكم في ذي العسرة بالنظرة إلى حالة اليسر. قال المهدوي: وقال بعض العلماء هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية من بيع من أعسر بدين، وحكى مكي: أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر به في صدر الإسلام.

قال القاضي أبو محمد: فإن ثبت فعل النبي صلى الله عليه وسلم فهو نسخ، وإلا فليس بنسخ، و «العسرة» ضيق الحال من جهة عدم المال ومنه جيش العسرة، والنظرة التأخير، والميسرة مصدر بمعنى اليسر، وارتفع ذو عسرة ب كان التامة التي هي بمعنى وجد وحدث. هذا قول سيبويه وأبي علي وغيرهما، ومن هنا يظهر أن الأصل الغنى ووفور الذمة، وأن العدم طارئ حادث يلزم أن يثبت. وقال بعض الكوفيين، حكاه الطبري: بل هي كان الناقصة والخبر محذوف، تقديره وإن كان من غرمائكم ذو عسرة وارتفع قوله: فنظرة على خبر ابتداء مقدر، تقديره فالواجب نظرة، أو فالحكم نظرة.

قال الطبري: وفي مصحف أبي بن كعب: وإن كان ذو عسرة على معنى وإن كان المطلوب، وقرأ الأعمش «وإن كان معسرا فنظرة» .

قال أبو عمرو الداني عن أحمد بن موسى: وكذلك في مصحف أبي بن كعب، قال مكي والنقاش وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا، وعلى من قرأ وإن كان ذو عسرة بالواو فهي عامة في جميع من عليه دين.

قال القاضي أبو محمد: وهذا غير لازم، وحكى المهدوي أن في مصحف عثمان، «فإن كان» بالفاء ذو عسرة بالواو، وقراءة الجماعة نظرة بكسر الظاء، وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن: «فنظرة» بسكون الظاء، وكذلك قرأ الضحاك، وهي على تسكين الظاء من نظرة، وهي لغة تميمية، وهم الذين يقولون: كرم زيد بمعنى كرم، ويقولون: كبد في كبد، وكتف في كتف، وقرأ عطاء بن أبي رباح «فناظرة» على وزن فاعلة، وقال الزجاج: هي من أسماء المصادر، كقوله تعالى: ليس لوقعتها كاذبة [الواقعة: ٢] وكقوله تعالى: تظن أن يفعل بها فاقرة [القيامة: ٢٥] ، **وكخائنة الأعين** وغيره، وقرأ نافع." (١)

"امتحنهم بمحن كما امتحن أيوب، ولم يذكر إسماعيل لأنه ممن لم يمتحن، وهذا ضعيف كله وقرأ الجمهور: «أولي الأيدي» .

وقرأ الحسن والثقفي والأعمش وابن مسعود: «أولي الأيد» ، بحذف الياء، فأما أولو فهو جمع ذو، وأما القراءة الأولى ف «الأيدي» فيها عبارة عن القوة في طاعة الله، قاله ابن عباس ومجاهد، وقالت فرقة بل هي عبارة عن القوة في طاعة الله،

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٣٧٦/١

قاله ابن عباس ومجاهد، وقالت فرقة بل هي عبارة عن إحسانهم في الدين وتقديمهم عند الله تعالى أعمال صدق، فهي كالأيادي. وقالت فرقة: بل معناه: أولي الأيد والنعم التي أسداها الله إليهم من النبوءة والمكانة. وقال قوم المعنى: أيدي الجوارح، والمراد الأيدي المتصرفة في الخير والأبصار الثاقبة فيه، لا كالتي هي منهملة في جل الناس، وأما من قرأ «الأيد» دون ياء فيحتمل أن يكون معناها معنى القراءة بالياء وحذفت تخفيفا، ومن حيث كانت الألف واللام تعاقب التنوين وجب أن تحذف معها كما تحذف مع التنوين. وقالت فرقة: معنى «الأيدي» ، القوة، والمراد طاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: والأبصار عبارة عن البصائر، أي يبصرون الحقائق وينظرون بنور الله تعالى، وبنحو هذا فسر الجميع.

وقرأ نافع وحده: «إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار» على إضافة «خالصة» إلى ذكرى، وهي قراءة أبي جعفر والأعرج وشيبة. وقرأ الباقون والناس: «بخالصة ذكر الدار» على تنوين «خالصة» ، وقرأ الأعمش: «بخالصتهم ذكر الدار» ، وهي قراءة طلحة.

وقوله: بخالصة يحتمل أن يكون خالصة اسم فاعل كأنه عبر بها عن مزية أو رتبة، فأما من أضافها إلى «ذكرى» ، ف ذكرى مخفوض بالإضافة، ومن نون «خالصة» ، ف ذكرى بدل من «خالصة» ، ويحتمل قوله: بخالصة أن يكون «خالصة» مصدرا كالعاقبة **وخائنة الأعين** وغير ذلك، ف ذكرى على هذا ما أن يكون في موضع نصب بالمصدر على تقدير: إنا أخلصناهم بأن أخلصنا لهم ذكرى الدار، ويكون «خالصة» مصدرا من أخلص على حذف الزوائد، وإما أن يكون ذكرى في موضع رفع بالمصدر على تقدير إنا أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار، وتكون «خالصة» من خلص.

والدار في كل وجه في موضع نصب ب ذكرى، وذكرى مصدر، وتحتمل الآية أن يريد ب الدار دار الآخرة على معنى أخلصناهم، بأن خلص لهم التذكير بالدار الآخرة ودعاء الناس إليها وحضهم عليها، وهذا قول قتادة، وعلى معنى خلص لهم ذكرهم للدار الآخرة وخوفهم لها والعمل بحسب قول مجاهد. وقال ابن زيد: المعنى إنا وهبناهم أفضل ما في الدار الآخرة وأخلصناهم به وأعطيناهم إياه، ويحتمل أن يريد ب الدار دار الدنيا على معنى ذكر الثناء والتعظيم من الناس والحمد الباقي الذي هو الخلد المجازي، فتجيء الآية في معنى قوله: لسان صدق [مريم: ٥٠، الشعراء: ٨٤] وفي معنى قوله: وتركنا عليه في الآخرين [الصافات: ٧٨، ١٠٨، ١١٩، ١٢٩] . والمصطفين أصله:

المصطفيين، تحركت الياء وما قبلها مفتوح فانقلبت ألفا، ثم اجتمع سكون الألف وسكون الياء التي هي علامة الجمع، فحذفت الألف. والأخيار جمع خير، وخير: مخفف من خير كميت وميت.." (١)

"قوله عز وجل:

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢١]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥٠٩/٤

يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١)

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالإنذار للعالم والتحذير من يوم القيامة وأهواله، وهو الذي أراد ب يوم الآزفة، قاله مجاهد وقتادة وابن زيد: ومعنى الآزفة: القريبة، من أزف الشيء إذا قرب، والآزفة في الآية صفة لمحذوف قد علم واستقر في النفوس هوله، فعبر عنه بالقرب تخويفا، والتقدير:

يوم الساعة الآزفة أو الطامة الآزفة ونحو هذا فكما لو قال: وأنذرهم الساعة لعلم هولها بما استقر في النفوس من أمرها، فكذلك علم هنا إذا جاء بصفتها التي تقتضي حلولها واقترابها.

وقوله: إذ القلوب لدى الحناجر معناه: عند الحناجر، أي قد صعدت من شدة الهول والجزع، وهذا أمر يحتمل أن يكون حقيقة يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم وتبقى حياتهم، بخلاف الدنيا التي لا تبقى فيها لأحد مع تنقل قلبه حياة، ويحتمل أن يكون تجوزا عبر عما يجده الإنسان من الجزع وصعود نفسه وتضايق حنجرته بصعود القلب، وهذا كما تقول العرب: كادت نفسي أن تخرج، وهذا المعنى يجده المفرط الجزع كالذي يقرب للقتل ونحو.

وقوله: كاظمين حال مما أبدل منه قوله: إذ القلوب لدى الحناجر أو مما تنضاف إليه القلوب، لأن المراد إذ قلوب الناس لدى حناجرهم، وهذا كقوله تعالى: تشخص فيه الأبصار مهطعين إلى الداع [القمر: ٨] أراد تشخص فيه أبصارهم، والكاظم: الذي يرد غيظه وجزعه في صدره، فمعنى الآية أنهم يطمعون برد ما يجدونه في الحناجر والحال تغالبهم. ثم أخبرهم تعالى أن الظالمين ظلم الكفر في تلك الحال ليس لهم حميم، أي قريب يحتم لهم ويتعصب، ولا لهم شفيع يطاع فيهم، وإن هم بعضهم بالشفاعة لبعض فهي شفاعة لا تقبل، وقد روي أن بعض الكفرة يقولون لإبليس يوم القيامة: اشفع لنا، فيقوم ليشفع، فتبدو منه أنتن ريح يؤذي بها أهل المحشر، ثم ينحصر ويكع ويخزى. و: يطاع في موضع الصفة ل شفيع، لأن التقدير: ولا شفيع يطاع، وموضع يطاع يحتمل أن يكون خفضا حملا على اللفظ، ويحتمل أن يكون رفعا عطفا على الموضع قبل دخول من.

قال القاضي أبو محمد: وهذه الآية كلها عندي اعتراض في الكلام بليغ.

وقوله: يعلم خائنة الأعين متصل بقوله: سريع الحساب [غافر: ١٧] لأن سرعة حسابه تعالى." (١)

"للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى روية وفكرة ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون. وقالت فرقة:

يعلم متصل بقوله: لا يخفى على الله منهم شيء [غافر: ١٦] ، وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين ويضعفه بعد الآية وكثرة الحائل. والخائنة: مصدر كالخيانة، ويحتمل في الآية أن يكون خائنة اسم فاعل، كما تقول: ناظرة الأعين إذا خانت في نظرها. وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات، فمن ذلك كسر الجفون والغمز بالعين أو النظرة التي تفهم معنى، أو يريد بها صاحبها معنى، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءه عبد الله بن أبي سرح ليسلم بعد ردته بشفاعة عثمان، فتلكأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بايعه، ثم قال عليه السلام لأصحابه: «هلا قام إليه رجل

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥٥٢/٤

حين تلكأت عليه فضرب عنقه؟» ، فقالوا يا رسول الله: ألا أومأت إلينا؟ فقال عليه السلام: «ما ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين»** . وفي بعض الكتب المنزلة من قول الله عز وجل: أنا مرصاد الهمم، أنا العالم بمجال الفكر وكسر الجفون.

وقال مجاهد: **خائنة الأعين**: مسارقة النظر إلى ما لا يجوز. ثم قوى تعالى هذه الأخبار بأنه يعلم ما تخفي الصدور مما لم يظهر على عين ولا غيرها، ومثل المفسرون في هذه الآية بنظر رجل إلى امرأة هي حرمة لغيره، فقالوا **خائنة الأعين**: هي النظرة الثانية. وما تخفي الصدور: أي عند النظرة الأولى التي لا يمكن المرء دفعها، وهذا المثال جزء من **خائنة الأعين**.

ثم قدح في جهة الأصنام، فأعلم أنه لا رب غيره يقضي بالحق، أي يجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثل، وينصف المظلوم من الظالم إلى غير ذلك من أقضية الحق والعدل، والأصنام لا تقضي بشيء ولا تنفذ أمرا. و: يدعون معناه: يعبدون.

وقرأ جمهور القراء: «يدعون» بالياء على ذكر الغائب. وقرأ نافع بخلاف عنه. وأبو جعفر وشيبة:

«تدعون» بالتاء على معنى قل لهم يا محمد: والذين تدعون أنتم.

ثم ذكر تعالى لنفسه صفتين بين عرو الأوثان عنهما وهي في جهة الله تعالى عبارة عن الإدراك على إطلاقه، ثم أحال كفار قريش وهم أصحاب الضمير في يسيروا على الاعتبار بالأمم القديمة التي كذبت أنبياءها فأهلكها الله تعالى.

وقوله: فينظروا يحتمل أن يجعل في موضع نصب جواب الاستفهام، ويحتمل أن يكون مجزوما عطفا على يسيروا. و: كيف في قوله: كيف كان عاقبة خبر كان مقدم، وفي كيف ضمير، وهذا مع أن تكون كان الناقصة. وأما إن جعلت تامة بمعنى حدث ووقع، ف كيف ظرف ملغى لا ضمير فيه.

وقرأ ابن عامر وحده: «أشد منكم» بالكاف، وكذلك هي في مصاحف الشام، وذلك على الخروج من غيبة إلى الخطاب.

وقرأ الباقون: «أشد منهم» وكذلك هي في سائر المصاحف، وذلك أوفق لتناسب ذكر الغيب.

والآثار في ذلك: هي المباني والمآثر والصيت الدنياوي، وذنوبهم كانت تكذيب الأنبياء. والواقي: الساتر المانع، مأخوذ من الوقاية.." (١)

"وأزف معناه: قرب جدا، قال كعب بن زهير: [البسيط]

بان الشباب وأمسى الشيب قد أزفا ... ولا أرى لشباب ذاهب خلفا

وقوله: كاشفة يحتمل أن يكون صفة لمؤنث، التقدير: حالة كاشفة، أو منة كاشفة. قال الرماني أو جماعة، ويحتمل أن يكون مصدرا كالعاقبة **وخائنة الأعين** [غافر: ١٩] . ويحتمل أن يكون بمعنى كاشف، والهاء للمبالغة، كما قال: فهل ترى لهم من باقية [الحاقة: ٨] وأما معنى كاشفة فقال الطبري والزجاج: هو من كشف السر، أي ليس من دون الله من يكشف وقتها ويعلمه. وقال الزهراوي عن منذر بن سعيد: هو من كشف الضر ودفعه، أي ليس من يكشف خطبها وهولها.

وقرأ طلحة: ليس لها مما تدعون من دون الله كاشفة وهي على الظالمين سوءات الغاشية، وهذا الحديث هو القرآن.

وقوله: أفمن توقيف وتوبيخ. وفي حرف أبي وابن مسعود: «تعجبون» «تضحكون» بغير واو العطف، وفي قوله عز وجل: ولا تبكون حض على البكاء عند سماع القرآن. وروى سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥٥٣/٤

هذا القرآن أنزل يخوف، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا» ذكره الثعلبي، والسامد: اللاعب اللاهي، وبهذا فسر ابن عباس وغيره من المفسرين. وقال الشاعر [هذيلة بنت بكر] : [مجزوء الكامل]

قيل قم فانظر إليهم ... ثم دع عنك السمود

وسمد بلغة حمير غنى، وهو معنى كله قريب من بعض، وأسند الطبري عن أبي خالد الوالي قال:

خرج علينا علي ونحن قيام ننتظر الصلاة فقال: ما لي أراكم سامدين.

قال القاضي أبو محمد: يشبه أنه رآهم في أحاديث ونحوه مما يظن أنه غفلة ما. وقد قال إبراهيم كانوا يكرهون أن ينتظروا خروج الإمام قياما، وفي الحديث: «إذا أقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تروني» .

ثم أمر تعالى بالسجود وعبادة الله تحذيرا وتخويفا، وهاهنا سجدة في قول كثير من أهل العلم، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وردت بها أحاديث صحاح، وليس يراها مالك رحمه الله، وقال زيد بن وثاب إنه قرأ بها عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسجد.." (١)

"بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الواقعة

وهي مكية بإجماع ممن يعتد بقوله من المفسرين. وقيل إن فيها آيات مدنية، أو مما نزل في السفر، وهذا كله غير ثابت. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من داوم على سورة الواقعة لم يفتقر أبدا» . ودعا عثمان بن مسعود إلى عطائه، فأبى أن يأخذ. فقيل له: خذ للعليا، فقال: إنهم يقرؤون سورة الواقعة، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من قرأها لم يفتقر أبدا» .

قال القاضي أبو محمد: فيها ذكر القيامة، وحظوظ النفس في الآخرة، وفهم ذلك غنى لا فقر معه، ومن فهمه شغل بالاستعداد.

قوله عز وجل:

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ١ الى ١٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا وقعت الواقعة (١) ليس لوقعتها كاذبة (٢) خافضة رافعة (٣) إذا رجت الأرض رجا (٤)

وبست الجبال بسا (٥) فكانت هباء منبثا (٦) وكنتم أزواجا ثلاثة (٧) فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة (٨) وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة (٩)

والسابقون السابقون (١٠) أولئك المقربون (١١) في جنات النعيم (١٢)

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥/٢١٠

الواقعة: اسم من أسماء القيامة ك الصاعقة [البقرة: ٥٥، النساء: ١٥٣] والآزفة [غافر: ١٨، النجم: ٥٧] والطامة [النازعات: ٣٤] قاله ابن عباس، وهذه كلها أسماء تقتضي تعظيمها وتشنيع أمرها. وقال الضحاك: الواقعة: الصيحة وهي النفخة في الصور. وقال بعض المفسرين: الواقعة: صخرة بيت المقدس، تقع عند القيامة، فهذه كلها معان لأجل القيامة.

و: كاذبة يحتمل أن يكون مصدرا كالعاقبة والعافية **وخائنة الأعين**. فالمعنى ليس لها تكذيب ولا رد مثنوية، وهذا قول قتادة والحسن ويحتمل أن يكون صفة لمقدر، كأنه قال: ليس لوقعتها حال كاذبة، ويحتمل الكلام على هذا معنيين: أحدهما كاذبة، أي مكذوب فيما أخبر به عنها فسماها كاذبة بهذا، كما تقول هذه قصة كاذبة أي مكذوب فيها، والثاني حالة كاذبة أي لا يمضي وقوعها، كما تقول: فلان إذا حمل لم يكذب.

وقوله: خافضة رافعة رفع على خبر ابتداء، أي هي خافضة رافعة.." (١)

"وقيل: ﴿وقهم السيئات﴾ أنه سمى عقاب السيئات سيئات.

وقيل: ﴿لمقت الله﴾ [١٠] لكم أكبر من مقت بعضكم لبعض.

وقال الحسن: " ﴿حقت كلمت ربك﴾ [٦] على مشركي العرب، كما حقت على من قبلهم".

وقيل: ﴿الذين يحملون العرش﴾ [٧] والذين حوله؛ لأن فيهم من قد تعبد بحمله، ومنهم من تعبد بأن يحف به.

مسألة:

إن سأل عن قوله سبحانه: ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾ فقال:

ما القول الذي يؤذن بتمني الكافر للخروج عن حاله بكل جهده؟ وما الإماتة الأولى؟ وما الثانية؟ وما وجه اتصال ﴿فاعترفنا بذنوبنا﴾ [١١] بما قبله؟ وما العلي؟ وكيف جازت صفة القديم بـ (علي) ، ولم تجز بـ (رفيع) ؟ وما معنى ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ [١٥] ؟ وما معنى ﴿يوم التلاق﴾ [١٥] ؟ وما معنى ﴿بارزون﴾ ؟ ولم جاز ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ [١٦] مع أنه لا يخفى منهم ولا من غيرهم شيء؟ ولم قيل: ﴿لمن الملك اليوم﴾ مع أنه يملك الأنبياء والمرسلين في الآخرة الملك." (٢)

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٢٣٨/٥

(٢) تفسير ابن فورك ابن فُورَك ٣٤٤/٢

"وفي حديث عمر [رضي الله عنه] (١) أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال له: "خمس لا يعلمهن إلا الله "، ثم قرأ: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية [لقمان: ٣٤] .

وقوله: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ أي: يحيط علمه الكريم (٢) بجميع الموجودات، بريها وبحريها (٣) لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وما أحسن ما قال الصرصري:

فلا يخفى عليه الذر إما ... تراءى للنواظر أو توارى ...

وقوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩] .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، عن حسان النمري، عن ابن عباس في قوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط (٤) منها.

وقوله: ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ قال محمد بن إسحاق، عن يحيي بن النضر، عن أبيه، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن ما لو أنهم ظهروا -يعني لكم -لم تروا معهم نورا، على كل زاوية من زوايا الأرض (٥) خاتم من خواتيم الله، عز وجل، على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله، عز وجل، إليه في كل يوم ملكا من عنده: أن احتفظ بما عندك.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري: حدثنا مالك بن سعير، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث قال: ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا عليها (٦) ملك موكل يأتي الله بعلمها: رطوبتها إذا رطبت، ويبسها إذا يبست.

وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني، عن مالك بن سعير، به (٧)

ثم قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي حذيفة، حدثنا سفيان، عن عمرو بن قيس، عن رجل عن

---

(١) زيادة من أ.

(٢) في م، أ: "العظيم".

(٣) في د: "بحرها وبرها".

(٤) في أ: "ما سقط".

(٥) في م، أ: "من زواياها".

(٦) في أ: "إلا وعليها".

(٧) تفسير الطبري (٤٠٤/١١) .." [1]

"والرجل يسأل عن أهله (١) والمرأة تسأل عن بيت زوجها، والعبد يسأل عن مال سيده". قال الليث: وحدثني ابن طاوس، مثله، ثم قرأ: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ (٢) .

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة (٣)

وقال ابن عباس: ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة، فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿وما كنا غائبين﴾ يعني: أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا، من قليل وكثير، وجليل وحقير؛ لأنه تعالى شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء، بل هو العالم **بخائنة الأعين** وما تخفي الصدور، ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ [الأنعام: ٥٩] .

﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (٩) ﴾

يقول [تبارك و] (٤) تعالى: ﴿والوزن﴾ أي: للأعمال (٥) يوم القيامة ﴿الحق﴾ أي: لا يظلم تعالى أحدا، كما قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾ [النساء: ٤٠] وقال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه فأمه هاوية * وما أدراك ما هيه * نار حامية﴾ [القارعة: ٦-١١] وقال تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣] .

فصل:

والذي يوضع في الميزان يوم القيامة (٦) قيل: الأعمال وإن كانت أعراضا، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما.

قال البغوي: يروى هذا عن ابن عباس (٧) كما جاء في الصحيح من أن "البقرة" و "آل عمران" يأتيان (٨) يوم القيامة كأنهما غمامتان -أو: غيايتان -أو فرقان من طير صواف. من ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذي

---

(١) في أ: "أهل بيته".

(٢) وفي إسناده عبد الرحمن بن محمد المحاربي، قال ابن معين: يروى المناكير عن المجهولين، ولكن روي من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر وفي الصحيحين.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٦٥/٣

(٣) صحيح البخاري برقم (٥١٨٨) وصحيح مسلم برقم (١٨٢٩) .

(٤) زيادة من أ.

(٥) في ك: "الأعمال".

(٦) في ك: "يوم القيامة في الميزان".

(٧) معالم التنزيل للبغوي (٣/٢١٥) .

(٨) في أ: "تأتيان".." (١)

"كفر بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك.

وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك أنه (١) تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهرا، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ ﴿يهلك من هلك﴾ أي: يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه، ﴿ويحيى من حي﴾ أي: يؤمن من آمن ﴿عن بينة﴾ أي: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس﴾ [الأنعام: ١٢٢] ،وقالت عائشة في قصة الإفك: في هلك من هلك أي: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك.

وقوله: ﴿وإن الله لسميع﴾ أي: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عليم﴾ أي: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور (٤٣) وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور (٤٤) ﴾

قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه (٢) قليلا فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك، فكان تثبيتا لهم.

وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد. وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها.

وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يوسف بن موسى المدبر، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج، عن الحسن في قوله: ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلا﴾ قال: بعينك.

وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه (٣)

وقوله: ﴿ولوأراكهم كثيرا لفشلتم﴾ أي: لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم، ﴿ولكن الله سلم﴾ أي: من ذلك: بأن أراكهم قليلا ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بما تجنه الضمائر، وتنطوي عليه الأحشاء، فيعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

وقوله: ﴿وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا﴾ وهذا أيضا من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا في رأي العين، فيجرؤهم عليهم، ويطمعهم فيهم.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣/٣٨٩

(١) في أ: "أن الله".

(٢) في جميع النسخ: "أراهم الله في منامه" والمثبت من الطبري.

(٣) في أ: "له".." (١)

"احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك" (١) .

﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي: أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم، كما قيل: "من حفظ بصره، أورثه الله نورا في بصيرته". ويروى: "في قلبه".

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عتاب، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة [أول مرة] (٢) ثم يغض بصره، إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها" (٣) .

وروي هذا مرفوعا عن ابن عمر، وحذيفة، وعائشة، رضي الله عنهم (٤) ولكن في إسنادها ضعف، إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه.

وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر،، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة مرفوعا: "لتغضن أبصاركم، ولتحفظن فروجكم، ولتقيمن وجوهكم -أو: لتكسفن وجوهكم" (٥) .

وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التستري قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرئ، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هريم بن سفيان، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم، من تركه مخافتي، أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه" (٦) .

وقوله: ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ ، كما قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩] .

وفي الصحيح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة. فزنى العينين: النظر. وزنى اللسان: النطق. وزنى الأذنين: الاستماع. وزنى اليدين: البطش. وزنى الرجلين: الخطي. والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه".

---

(١) المسند (٥/ ٣، ٤) وسنن أبي داود برقم (٤٠١٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٢٠) من حديث معاوية بن حيدة، رضي الله عنه.

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) المسند (٥/٢٦٤) . وفي إسناده عبيد الله بن زحر، قال ابن حبان: "يروي الموضوعات عن الأثبات وإذا روى عن علي بن يزيد أتى بالطامات، وإذا اجتمع في إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم أبو عبد الرحمن، لم يكن ذلك

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤/٦٩

الخبر إلا مما عملته أيديهم".

(٤) أما حديث حذيفة، فرواه الحاكم في المستدرك (٣١٤/٤) من طريق إسحاق القرشي، عن هشيم، عن عبد الرحمن، عن إسحاق، عن محارب، عن صلة بن زفر، عن حذيفة، رضي الله عنه، وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي. قلت: إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطي ضعفوه. وأما حديث ابن عمر، فرواه أبو نعيم في الحلية (١٠١/٦) من طريق أبي اليمان، عن أبي المهدي، عن أبي الزاهرية، عن كثير بن مرة، عن ابن عمر، رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف جدا.

(٥) المعجم الكبير (٢٤٦/٨) وعبيد الله بن زحر وعلي بن يزيد والقاسم ضعفاء.

(٦) المعجم الكبير (٢١٤/١٠) وقال الهيثمي في المجمع (٦٣/٨) : "وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف".." [1]

"مع قومها. قال: فاطمأن أبو بكر، رضي الله عنهما (١) وسكن (٢) .

وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾ ، ثم قال: ﴿إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما﴾ أي: مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله (٣) يعلمه؛ فإنه لا تخفى (٤) عليه خافية، ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩] .

---

(١) في ت، ف: "عنه".

(٢) تفسير الطبري (٢٩/٢٢) .

(٣) في ف: "فإنه".

(٤) في ت، ف: "لا يخفى".." [2]

"وقد يقال: إن يوم القيامة (١) هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر. كما قاله آخرون.

وقوله: ﴿يوم هم بارزون﴾ أي: ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم. ولهذا قال: ﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾ أي: الجميع في علمه على السواء.

وقوله: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ قد تقدم في حديث ابن عمر: أنه تعالى (٢) يطوي السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ .

وفي حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلا ﴿لله الواحد القهار﴾ أي: الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه (٣) .

وقد قال (٤) ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق، حدثنا عبيد بن عبيدة، حدثنا معتمر، عن أبيه، حدثنا أبو

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٣/٦

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٥٦/٦

نضرة، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] (٥) قال: ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس، أتتكم الساعة. فيسمعها الأحياء والأموات، قال: وينزل الله [عز وجل] (٦) إلى سماء الدنيا ويقول: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ .

وقوله: ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿لا ظلم اليوم﴾ كما ثبت في صحيح مسلم (٧) ، عن أبي ذر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -فيما يحكي عن ربه عز وجل-أنه قال: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا -إلى أن قال-: يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم (٨) ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" (٩) .

وقوله: ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي: يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفسا واحدة، كما قال: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ [لقمان: ٢٨] ، وقال [تعالى] (١٠) : ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ [القمر: ٥٠] .

﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾

---

(١) في ت، س: "التلاق".

(٢) في ت: "أن الله".

(٣) انظر حديث الصور بتمامه عند تفسير الآية: ٧٣ من سورة الأنعام.

(٤) في ت: "وروى ابن أبي حاتم".

(٥) زيادة من أ.

(٦) زيادة من ت، أ.

(٧) في ت: "البخاري" وهو خطأ.

(٨) في ت، س: "لكم".

(٩) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) .

(١٠) زيادة من س.." (١)

"يوم الآزفة هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى: ﴿أزفت الآزفة. ليس لها من دون الله كاشفة﴾ [النجم:٥٧، ٥٨] وقال ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ [القمر: ١] ، وقال ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ [الأنبياء:١] وقال ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ [النحل:١] وقال ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون﴾ [الملك:٢٧] .

وقوله: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ [أي ساكتين] (١) ، قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٣٦/٧

تخرج ولا تعود إلى أماكنها. وكذا قال عكرمة، والسدي، وغير واحد.

ومعنى ﴿كاظمين﴾ أي: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾ [النبأ:٣٨] .

وقال ابن جريج (٢) : ﴿كاظمين﴾ أي: باكين.

وقوله: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

وقوله: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حق الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

قال ابن عباس في قوله: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسناء، أو تمر به وبهم المرأة الحسناء، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غض، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض [بصره عنها] (٣) وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم.

وقال الضحاك: ﴿خائنة الأعين﴾ هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم ير؛ أو: لم أر، وقد رأى.

وقال ابن عباس: يعلم [الله] (٤) تعالى من العين في نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟.

وقال السدي: ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي: من الوسوسة.

---

(١) زيادة من ت.

(٢) في ت: "جرير".

(٣) زيادة من س، أ.

(٤) زيادة من س.." (١)

"نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير.

وفي حديث عمر: أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي، فسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم فيما قاله له: «خمس لا يعلمهن إلا الله» ثم قرأ إن الله عنده علم الساعة الآية.

وقوله ويعلم ما في البر والبحر أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات، بريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما أحسن ما قال الصرصري: [الوافر]

فلا يخفى عليه الذر إما ... تراءى للنواظر أو توارى

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٧/١٣٧

وقوله وما تسقط من ورقة إلا يعلمها أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن الربيع، حدثنا أبو الأحوص، عن سعيد بن مسروق، حدثنا حسان النمري، عن ابن عباس، في قوله وما تسقط من ورقة إلا يعلمها قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها، يكتب ما يسقط منها، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين قال ابن أبي حاتم: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهري، حدثنا مالك بن سعير، حدثنا الأعمش، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبد الله بن الحارث، قال: ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة، إلا وعليها ملك موكل، يأتي الله بعلمها، رطوبتها إذا رطبت، ويبوستها إذا يبست، وكذا رواه ابن جرير «١» عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني، عن مالك بن سعير به. ثم قال ابن أبي حاتم: ذكر عن أبي حذيفة، حدثنا سفيان عن عمرو بن قيس، عن رجل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: خلق الله النون وهي الدواة، وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا، حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل بر أو فجور، وقرأ هذه الآية وما تسقط من ورقة إلا يعلمها إلى آخر الآية.

قال محمد بن إسحاق: عن يحيى بن النضر، عن أبيه، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، يقول: إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن، ما لو أنهم ظهروا، يعني لكم، لم تروا معهم نورا على كل زاوية من زوايا الأرض خاتم من خواتيم الله عز وجل، على كل خاتم ملك من الملائكة، يبعث الله عز وجل إليه في كل يوم ملكا من عنده أن احتفظ بما عندك.

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٢١١.." (١)

"وقال ابن عباس في قوله فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون وما كنا غائبين يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عن شيء بل هو العالم **بخائنة الأعين** وما تخفي الصدور وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين [الأنعام: ٥٩] .

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ٨ الى ٩]

والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (٩)

يقول تعالى: والوزن أي للأعمال يوم القيامة الحق أي لا يظلم تعالى أحدا كقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين [الأنبياء: ٤٧] وقال تعالى: إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما [النساء: ٤٠] وقال تعالى: فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٣/٢٣٧

راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية [القارعة: ٦- ١١] وقال تعالى: فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون [المؤمنون: ١٠٢- ١٠٣] .

[فصل] والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعراضا إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما، قال البغوي: يروى نحو هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف «١» . ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون فيقول: من أنت؟ فيقول أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك «٢» . وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر «فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح» «٣» ، وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق.

وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله فيقول يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى إنك لا تظلم. فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فطاشت السجلات وثقلت

---

(١) أخرجه مسلم في المسافرين حديث ٢٥٢، وأحمد في المسند ٥/ ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٧.

(٢) أخرجه ابن ماجة في الأدب باب ٥٢، وأحمد في المسند ٥/ ٣٤٨، ٣٥٢.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٨٧.." (١)

"على أعدائكم الكفرة المعاندين.

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]

إذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور (٤٣)
وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور (٤٤)

قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلا، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك، فكان تثبيتا لهم، وكذا قال ابن إسحاق وغير واحد، وحكى ابن جرير عن بعضهم، أنه رآهم بعينه التي ينام بها، وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج عن الحسن في قوله: إذ يريكهم الله في منامك قليلا قال بعينك، وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه.

وقوله: ولو أراكهم كثيرا لفشلتم أي لجبنتم عنهم، واختلفتم فيما بينكم، ولكن الله سلم أي من ذلك، بأن أراكهم قليلا إنه

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٣/٣٥٠

عليم بذات الصدور أي بما تكنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور [غافر: ١٩] وقوله: وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا وهذا أيضا من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا في رأي العين، فيجزؤهم عليهم ويطمعهم فيهم، قال أبو إسحاق السبيعي: عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين؟ قال: لا بل هم مائة، حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه، فقال: كنا ألفا، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

وقوله: ويقللكم في أعينهم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن الزبير بن الحارث عن عكرمة وإذ يريكموهم إذ التقيتم الآية، قال: حضض بعضهم على بعض، إسناد صحيح، وقال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه في قوله تعالى: ليقضي الله أمرا كان مفعولا أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار [آل عمران: ١٣] وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلا منهما حق وصدق، ولله الحمد والمنة.." (١)

"بصره أورثه الله نورا في بصيرته، ويروى في قلبه.

وروى الإمام أحمد «١» : حدثنا عتاب، حدثنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة (أول مرة) ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها» وروي هذا مرفوعا عن ابن عمر وحذيفة وعائشة رضي الله عنهم، ولكن في إسنادها ضعف إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه. وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعا «لتغضن أبصاركم، ولتحفظن فروجكم، ولتقيمن وجوهكم، أو لتكسفن وجوهكم»
.

وقال الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التستري قال: قرأنا على محمد بن حفص بن عمر بن الضرير المقرئ، حدثنا يحيى بن أبي بكير، حدثنا هريم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم من تركها مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه» . وقوله تعالى: إن الله خبير بما يصنعون كما قال تعالى: يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور [النور: ٣٠] .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى،

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٦١/٤

والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» «٢» رواه البخاري تعليقا، ومسلم مسندا من وجه آخر بنحو ما تقدم، وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى الأمرد، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيرا جدا.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو سعيد المدني، حدثنا عمر بن سهل المازني، حدثني عمر بن محمد بن صهبان عن صفوان بن سليم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله، وعينا سهرت في سبيل الله، وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل» «٣» .

---

(١) المسند ٥/ ٢٦٤.

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان باب ١٢، والقدر باب ٩، ومسلم في القدر حديث ٢٠، ٢١، وأبو داود في النكاح باب ٤٣، وأحمد في المسند ٢/ ٢٧٦، ٣٤٣، ٣٧٩، ٤٣١، ٥٤٦.

(٣) انظر الدر المنثور ٥/ ٧٤.." (١)

"عن ذلك وزجركم عنه.

ثم قال تعالى: وإذا سألتموهن متاعا فسئلوهن من وراء حجاب أي وكما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن، فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان عن مسعر عن موسى بن أبي كثير عن مجاهد عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم حيسا في قعب، فمر عمر فدعاه فأكل، فأصابت إصبعه إصبعي، فقال حسن أو أوه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين، فنزل الحجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب.

وقوله تعالى: وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا مهران عن سفيان عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى:

وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعده، قال رجل لسفيان: أهي عائشة؟ قال: قد ذكروا ذلك.

وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك، ولهذا اجتمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم، واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته: هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين مأخذهما هل دخلت هذه في عموم

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٦/ ٤٠

قوله من بعده أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره والحالة هذه نزاعا، والله أعلم.
وقال ابن جرير «١» : حدثني محمد بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود عن عامر أن نبي الله صلى الله عليه وسلم مات وقد ملك قيلة ابنة الأشعث- يعني ابن قيس- فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك، فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله إنها ليست من نسائه، إنها لم يخيرها رسول الله ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها:
قال: فاطمأن أبو بكر رضي الله عنه وسكن، وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: إن ذلكم كان عند الله عظيما ثم قوله تعالى: إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه، فإنه لا تخفى عليه خافية يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور [غافر: ١٩] .

---

(١) تفسير الطبري ١٠/ ٣٢٧.." [1]

"وقوله جل جلاله: يوم هم بارزون أي ظاهرون بادون كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم ولهذا قال: يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء أي الجميع في علمه على السواء. وقوله تبارك وتعالى: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار قد تقدم في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه تعالى يطوي السموات والأرض بيده ثم يقول أنا الملك أنا الجبار أنا المتكبر، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ وفي حديث الصور أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه قائلا لله الواحد القهار أي الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن غالب الدقاق حدثنا عبيد بن عبيدة حدثنا معتمر عن أبيه حدثنا أبو نضرة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ينادي مناد بين يدي الساعة يا أيها الناس أتتكم الساعة فيسمعها الأحياء والأموات قال وينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا ويقول: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار.
وقوله جلت عظمته: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر بل يجزي بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة ولهذا قال تبارك وتعالى: لا ظلم اليوم كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا- إلى أن قال- يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» «١» وقوله عز وجل: إن الله سريع الحساب أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا واحدة كما قال جل وعلا:
ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة [لقمان: ٢٨] وقال جل جلاله: وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر [القمر: ٥٠] .

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٤٠٣/٦

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٠]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال تعالى: أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة [النجم: ٥٧- ٥٨] وقال عز وجل: اقتربت الساعة وانشق القمر [القمر: ١] وقال جل وعلا: اقترب للناس حسابهم [الأنبياء: ١] وقال:

---

(١) أخرجه مسلم في البر حديث ٥٥، وأحمد في المسند ٥/ ١٦٠.." (١)

"أتى أمر الله فلا تستعجلوه [النحل: ١] وقال جل جلاله: فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون [الملك: ٢٧] الآية. وقوله تبارك وتعالى: إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين قال قتادة وقفت القلوب في الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، وكذا قال عكرمة والسدي وغير واحد، ومعنى كاظمين أي ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا [النبأ: ٣٨] وقال ابن جريج كاظمين أي باكين. وقوله سبحانه وتعالى: ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

وقوله تعالى: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها. رواه ابن أبي حاتم، وقال الضحاك خائنة الأعين هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير. أو لم أر وقد رأى. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعلم الله تعالى من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: وما تخفي الصدور يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزني بها أم لا؟ وقال السدي وما تخفي الصدور أي من الوسوسة.

وقوله عز وجل: والله يقضي بالحق أي يحكم بالعدل، قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: والله يقضي بالحق قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة إن الله هو السميع البصير وهذا الذي فسر به ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية كقوله تبارك وتعالى: ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى [النجم:

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ١٢٣/٧

٣١] وقوله جل وعلا: والذين يدعون من دونه أي من الأصنام والأوثان والأنداد لا يقضون بشيء أي لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء إن الله هو السميع البصير أي سميع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل في جميع ذلك.." (١)

"أدركه، وعلم دينه، فلم يتبعه كافرا به، فقال: (إن الدين عند الله الإسلام)

فكان هذا بالقرآن.

* * *

قال الله – عز وجل –: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد (٣٠)

الأم: الوصية التي صدوت من الشافعي رضي الله عنه:

قال الربيع بن سليمان: هذا كتاب كتبه محمد بن إدريس بن العباس

الشافعي في شعبان سنة ثلاث ومائتين، وأشهد الله عالم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وكفى به جل ثناؤه شهيدا، ثم من سمعه أنه شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله لم يزل يدين بذلك، وبه يدين حتى يتوفاه الله ويبعثه عليه إن شاء الله، وأنه يوصي نفسه، وجماعة من سمع وصيته، بإحلال ما أحل الله – عز وجل – في كتابه، ثم على لسان نبيه – صلى الله عليه وسلم –، وتحريم ما حرم الله في

الكتاب، ثم في السنة، وألا يجاوز من ذلك إلى غيره، وأن مجاوزته ترك رضا الله، وترك ما خالف الكتاب والسنة، وهما من المحدثات، والمحافظة على أداء فرائض الله في القول، والعمل، والكف عن محارمه خوفا لله، وكثرة ذكر الوقوف بين يديه: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) الآية.

وأن تنزل الدنيا حيث أنزلها الله." (٢)

"١ – حكما فيما بينهم وبينه، – وحكما فيما بينهم في دنياهم، فحكم

على عباده فيما بينهم وبينه – أن أثابهم وعاقبهم على ما أسروا، كما فعل بهم فيما أعلنوا، وأعلمهم إقامة للحجة عليهم، وبينها لهم أنه علم سرائرهم وعلم علانيتهم، فقال: (يعلم السر وأخفى) الآية، وقال: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) . الآية.

وخلقه لا يعلمون إلا ما شاء – عز وجل –، وحجب

علم السرائر عن عباده.

٢ – وبعث فيهم رسلا، فقاموا باحكامه على خلقه، وأبان لرسله وخلقه –

أن – أحكام خلقه في الدنيا على ما أظهروا.

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ١٢٤/٧

(٢) تفسير الإمام الشافعي الشافعي ٤٦٦/١

* * *

قال الله عز وجل: (وأقم الصلاة لذكري (١٤)

الأم: باب (الساعات التي تكره فيها الصلاة) :

قال الشافعي رحمه الله: فإن الله - عز وجل يقول: (وأقم الصلاة لذكري)

وأمره - صلى الله عليه وسلم - "أن لا يمنع أحد طاف بالبيت، وصلى أي ساعة شاء. ."

الحديث - بمعناه -، وصلى المسلمون على جنائزهم بعد الصبح والعصر.." [١]

"سورة غافر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله عز وجل: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)

الأم: كتاب (إبطال الاستحسان) :

قال الشافعي رحمه الله: فأعلم عباده، مع ما أقام عليهم من الحجة، بان

ليس كمثله أحد في شيء، أن علمه بالسر والعلانية واحد، فقال عز وعلا: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) الآية.

مع آيات أخر من الكتاب.

الأم: باب (إبطال الاستحسان) :

قال الشافعي رحمه الله: إن الله - عز وجل حكم على عباده حكمين.

حكما فيما بينهم وبينه: أن أثابهم وعاقبهم على ما أسروا، كما فعل بهم فيما أعلنوا، وأعلمهم إقامة الحجة للحجة عليهم،

وبينها لهم أنه علم سرائرهم، وعلم علانيتهم فقال: (يعلم السر وأخفى) .

وقال: (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) الآية.

و خلق - خلقه لا يعلمون إلا ما شاء - عز وجل - وحجب

علم السرائر عن عباده.." [٢]

"اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا

---

(١) تفسير الإمام الشافعي الشافعي ١٠٦٤/٣

(٢) تفسير الإمام الشافعي الشافعي ١٢٣٥/٣

يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

* * *

(إن الذين كفروا ينادون): في القيامة ويقال لهم (لمقت الله): إياكم، (أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) أي: لمقت الله تعالى أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فأعرضوا أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا العذاب في القيامة، فإنهم أبغضوا أنفسهم ومقتوها غاية المقت عند غمرات النيران لسبب ما اكتسبوا من الآثام، الموجبة للعذاب المخلد، ثم من يجوز الفصل في الظرف لسعته بأجنبي وهو الخبر بين المصدر ومعموله يجوز أن يكون إذ تدعون ظرفا للمقت." (١)

"لأنه لا يشغله حساب أحد عن حساب آخر، (وأنذرهم يوم الآزفة): القيامة الآزفة القريبة (إذ القلوب لدى الحناجر): من الخوف زالت عن مقارها فلا هي تعود ولا تخرج فيموتوا أو يستريحوا (كاظمين): ممتلئين كربا، أو ساكتين والكظوم السكوت وتعريف القلوب والحناجر عوض أي: قلوبهم لدى حناجرهم، فـ "كاظمين " حال من المضاف إليه في حناجرهم، والعامل ما في الظرف من معنى الفعل أو من الضمير في " لدى " الراجع إلى القلوب (ما للظالمين): الكافرين (من حميم): محب مشفق (ولا شفيع يطاع): فيشفع ويكون للشفاعة فائدة، (يعلم **خائنة الأعين**) أى: خيانتها كلحظة المرأة الحسناء إذا غفل الناس وغمزها، أو الخائنة صفة للنظرة (وما تخفي الصدور) أي ما تخفيه، وجملة يعلم **خائنة الأعين** مستأنفة كالتعليل لقوله

تعالى: " وأنذرهم " (والله يقضي بالحق) لا يظلم مثقال ذرة (والذين." (٢)

"عرضت عليهم سيئاتهم، وعاينوا العذاب، فيقال لهم: لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون، يعني لمقت الله إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم اليوم أنفسكم عند حلول العذاب بكم.

قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة والضحاك:

كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم فأحياهم الله في الدنيا، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما موتتان وحياتان، وهذا كقوله تعالى: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم [البقرة: ٢٨] ، وقال السدي: أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في قبورهم للسؤال، ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا في الآخرة. فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل، أي من خروج من النار إلى الدنيا فنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك، نظيره: هل إلى مرد من سبيل [الشورى: ٤٤] .

قال الله تعالى: ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم، فيه متروك استغني عنه لدلالة الظاهر عليه، مجازه: فأجيبوا أن لا سبيل إلى ذلك، وهذا العذاب والخلود في النار بأنكم إذا دعي الله وحده كفرتم، أي إذا قيل لا إله إلا الله أنكرتم، وقلتم: أجعل

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٧/٤

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ١٠/٤

الآلهة إلها واحدا [ص: ٥] ، وإن يشرك به، غيره تؤمنوا، تصدقوا ذلك الشرك، فالحكم لله العلي الكبير. الذي لا أعلى منه ولا أكبر.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ١٩]

هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩)

هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا، يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق، وما يتذكر، وما يتعظ بهذه الآيات، إلا من ينيب، يرجع إلى الله تعالى في جميع أموره.

فادعوا الله مخلصين له الدين، الطاعة والعبادة. ولو كره الكافرون.

رفيع الدرجات، رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة، ذو العرش، خالقه ومالكه، يلقي الروح، ينزل الوحي، سماه روحا لأنه تحيا به القلوب كما تحيا به الأبدان بالأرواح، من أمره، قال ابن عباس: من قضائه. وقيل: من قوله. وقال مقاتل: بأمره. على من يشاء من عباده لينذر، أي لينذر النبي بالوحي، يوم التلاق، وقرأ يعقوب بالتاء أي لتنذر أنت يا محمد يوم التلاق، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض. قال قتادة ومقاتل: يلتقي فيه الخلق والخالق. قال ابن زيد: يتلاقى العباد. وقال ميمون بن مهران: يلتقي الظالم والمظلوم والخصوم. وقيل: يلتقي العابدون والمعبودون.

وقيل: يلتقي فيه المرء مع عمله.

يوم هم بارزون، خارجون من قبورهم ظاهرون لا يسترهم شيء، لا يخفى على الله منهم، من أعمالهم وأحوالهم، شيء، ويقول الله تعالى في ذلك اليوم بعد فناء الخلق، لمن الملك اليوم، فلا أحد يجيبه فيجيب بنفسه فيقول، لله الواحد القهار، الذي قهر الخلق بالموت.

اليوم تجزى كل نفس بما كسبت، يجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته،." (١)

"لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب.

وأنذرهم يوم الآزفة، يعني يوم القيامة سميت بذلك لأنها قريبة إذ كل ما هو آت قريب، نظيره قوله عز وجل: أزفت الآزفة (٥٧) [النجم: ٥٧] ، أي قربت القيامة. إذ القلوب لدى الحناجر، وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر، فهي لا تعود إلى أماكنها وهي لا تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا. كاظمين، مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا،

---

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث البغوي ، أبو محمد ١٠٨/٤

والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به. ما للظالمين من حميم، قريب ينفعهم، ولا شفيع يطاع، فيشفع فيهم.

يعلم **خائنة الأعين**، أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما يحل. قال مجاهد: [هو] [١] نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. وما تخفي الصدور.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢٠ الى ٢٦]

والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤)

فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥)

وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦)

والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه، يعني الأوثان، لا يقضون بشيء، لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر على شيء.

قرأ نافع [٢] تدعون، بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء. إن الله هو السميع البصير.

أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة، قرأ ابن عامر منكم بالكاف، وكذلك هو في مصاحفهم، وآثارا في الأرض، فلم ينفعهم ذلك. فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، يدفع عنهم العذاب.

ذلك أي ذلك العذاب الذي نزل بهم، بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب قال عز وجل: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا، يعني فرعون وقومه، اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه.

قال قتادة: هذا غير القتل الأول لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان، فلما بعث موسى عليه السلام أعاد القتل عليهم، فمعناه أعيدوا عليهم القتل. واستحيوا نساءهم، ليصدوهم بذلك عن متابعة موسى ومظاهرته، وما كيد الكافرين، وما مكر فرعون وقومه واحتيالهم،

---

(١) زيادة عن المخطوط.

(٢) زيد في المطبوع «وابن عامر» .." [١]

---

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث البغوي ، أبو محمد ١٠٩/٤

"﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ﴾
﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ يجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ .
﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ يعني: يوم القيامة، سميت بذلك لأنها قريبة إذ كل ما هو آت قريب، نظيره قوله عز وجل: "أزفت الآزفة" (النجم-٥٧) أي: قربت القيامة ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر، فلا هي تعود إلى أماكنها، ولا هي تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا، ﴿كاظمين﴾ مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به. ﴿ما للظالمين من حميم﴾ قريب ينفعهم، ﴿ولا شفيع يطاع﴾ فيشفع فيهم.
﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ أي: خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل. قال مجاهد: وهو نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه.
﴿وما تخفي الصدور﴾ .
﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه﴾ [يعني الأوثان] (١) ﴿لا يقضون بشيء﴾ لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر على شيء، قرأ نافع [وابن عامر] (٢) : "تدعون" بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء. ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ .
﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة﴾ قرأ ابن عامر: "منكم" بالكاف، وكذلك هو في مصاحفهم، ﴿وآثارا في الأرض﴾ فلم ينفعهم ذلك ﴿فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق﴾ يدفع عنهم العذاب.

---

(١) زيادة من "ب".
(٢) ساقط من "ب".." (١)

"يشاء من عباده

يختاره للنبوة، وفيه دليل على أنها عطائية. لينذر غاية الإلقاء والمستكن فيه لله، أو لمن أو للروح واللام مع القرب تؤيد الثاني. يوم التلاق يوم القيامة، فإن فيه تتلاقى الأرواح والأجساد وأهل السماء والأرض أو المعبودون والعباد أو الأعمال والعمال.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٦ الى ١٧]
يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١٤٤/٧

يوم هم بارزون خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يسترهم شيء أو ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشي الأبدان، أو أعمالهم وسرائرهم. لا يخفى على الله منهم شيء من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم، وهو تقرير لقوله هم بارزون وإزاحة لنحو ما يتوهم في الدنيا. لمن الملك اليوم لله الواحد القهار حكاية لما يسأل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به، أو لما دل عليه ظاهر الحال فيه من زوال الأسباب وارتفاع الوسائط، وأما حقيقة الحال فناطقة بذلك دائما.

اليوم تجزى كل نفس بما كسبت كأنه نتيجة لما سبق، وتحقيقه أن النفوس تكتسب بالعقائد والأعمال هيئات توجب لذتها وألمها لكنها لا تشعر بها في الدنيا لعوائق تشغلها، فإذا قامت قيامتها زالت العوائق وأدركت لذتها وألمها. لا ظلم اليوم بنقص الثواب وزيادة العقاب. إن الله سريع الحساب إذ لا يشغله شأن عن شأن فيصل إليهم ما يستحقونه سريعا.

[سورة غافر (٤٠) : آية ١٨]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨)

وأنذرهم يوم الآزفة أي القيامة سميت بها لأزوفها أي قربها، أو الخطة الآزفة وهي مشارفتهم النار وقيل الموت. إذ القلوب لدى الحناجر فإنها ترتفع عن أماكنها فتلصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحوا ولا تخرج فيستريحوا. كاظمين على الغم حال من أصحاب القلوب على المعنى لأنه على الإضافة، أو منها أو من ضميرها في لدى وجمعه كذلك لأن الكظم من أفعال العقلاء كقوله: فظلت أعناقهم لها خاضعين. أو من مفعول أنذرهم على أنه حال مقدرة. ما للظالمين من حميم قريب مشفق. ولا شفيع يطاع ولا شفيع مشفع، والضمائر إن كانت للكفار وهو الظاهر كان وضع الظالمين موضع ضميرهم للدلالة على اختصاص ذلك بهم وأنه لظلمهم.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

يعلم **خائنة الأعين** النظرة الخائنة كالنظرة الثانية إلى غير المحرم واستراق النظر إليه، أو خيانة الأعين. وما تخفي الصدور من الضمائر والجملة خبر خامس للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء والله يقضي بالحق لأنه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضي بشيء إلا وهو حقه والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء تهكم بهم لأن الجماد لا يقال فيه إنه يقضي أو لا يقضي. وقرأ نافع وهشام بالتاء على الالتفات أو إضمار قل: إن الله هو السميع البصير تقرير لعلمه ب **خائنة الأعين** وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريض بحال ما يدعون من دونه.." (١)

"وقوله سبحانه-: إذ القلوب لدى الحناجر معناه: عند الحناجر، أي/ قد صعدت من شدة الهول والجزع، والكاظم الذي يرد غيظه وجزعه في صدره، فمعنى الآية:

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٥/٥٤

أنهم يطمعون في رد ما يجدونه في الحناجر، والحال تغالبهم، ويطاع في موضع الصفة ل شفيع لأن التقدير: ولا شفيع مطاع، قال أبو حيان «١» يطاع في موضع صفة ل شفيع، فيحتمل أن يكون في موضع خفض على اللفظ، أو في موضع رفع على الموضع، ثم يحتمل النفي أن يكون منسحبا على الوصف فقط، فيكون ثم شفيع، ولكنه لا يطاع، ويحتمل أن ينسحب على الموصوف وصفته، أي: لا شفيع فيطاع، انتهى. وهذا الاحتمال الأخير هو الصواب، قال ع «٢» : وهذه الآية كلها عندي اعتراض في الكلام بليغ.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

وقوله: يعلم **خائنة الأعين** متصل بقوله: سريع الحساب [غافر: ١٧] وقالت فرقة: يعلم متصل بقوله: لا يخفى على الله منهم شيء [غافر: ١٦] وهذا قول حسن يقويه تناسب المعنيين، ويضعفه بعد الآية من الآية وكثرة الحائل، والخائنة: مصدر كالخيانة، ويحتمل أن تكون خائنة اسم فاعل، أي: يعلم الأعين إذا خانت في نظرها، قال أبو حيان «٣» : والظاهر أن: **خائنة الأعين** من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي:

الأعين الخائنة، كقوله: [البسيط]

.... وإن سقيت كرام الناس فاسقينا «٤»

أي: الناس الكرام، وجوزوا أن يكون خائنة مصدرا، ك «العافية» أي: يعلم خيانة الأعين، انتهى، وهذه الآية عبارة عن علم الله- تعالى- بجميع الخفيات، فمن ذلك كسر

---

(١) ينظر: «البحر المحيط» (٧/ ٤٣٨) . [.....]

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٥٢) .

(٣) ينظر: «البحر المحيط» (٧/ ٤٣٩) .

(٤) عجز بيت لبشامة بن حزن النهشلي وصدره:

إنا محيوك يا سلمى فحينا ... .

ينظر: «خزانة الأدب» (٨/ ٣٠٢) ، و «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي ص: (١٠٠) ، و «المقاصد النحوية» (٣/ ٣٧٠) ، و «البحر» (٧/ ٤٥٧) ، و «الدر المصون» (٦/ ١٣٦) ، والشاهد في قوله: «كرام الناس» حيث أضاف الصفة إلى الموصوف.." (١)

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ١٠٩/٥

"الجفون والغمز بالعين، أو النظرة التي تفهم معنى ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم [لأصحابه في شأن رجل ارتد ثم جاء ليسلم: «هلا قام إليه رجل منكم حين تلكأت عنه، فضرب عنقه؟ فقالوا:
يا رسول الله، ألا أو مأت إلينا؟ فقال صلى الله عليه وسلم] «١» : ما ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين»** «٢» ، وفي بعض الكتب المنزلة من قول الله عز وجل/: أنا مرصاد الهمم أنا العالم بمجال الفكر وكسر الجفون، وقال مجاهد: «**خائنة الأعين»** : مسارقة النظر إلى ما لا يجوز «٣» ، ثم قوى تعالى هذا الإخبار بقوله: وما تخفي الصدور مما لم يظهر على عين ولا غيرها، وأسند أبو بكر بن الخطيب عن مولى أم معبد الخزاعية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو: «اللهم طهر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة فإنك تعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور» «٤» ، انتهى. قال القشيري في: «التحبير» ومن علم اطلاع الحق- تعالى عليه- يكون مراقبا لربه وعلامته أن يكون محاسبا لنفسه، ومن لم تصح محاسبته، لم تصح مراقبته، وسئل بعضهم عما يستعين به العبد على حفظ البصر، فقال: يستعين عليه بعلمه أن نظر الله إليه سابق على نظره إلى ما ينظر إليه، انتهى.
وقوله سبحانه: والله يقضي بالحق أي: يجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثلها، وينصف المظلوم من الظالم إلى غير ذلك من أقضية الحق والعدل، والأصنام لا تقضي بشيء، ولا تنفذ أمرا، ويدعون معناه: يعبدون.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢١ الى ٢٥]

أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥)

---

(١) سقط في: د.
(٢) أخرجه النسائي (٧/ ١٠٥) كتاب «تحريم الدم» باب: الحكم في المرتد برقم: (٤٠٦٧) ، والحاكم (٢/ ٥٤) ، والدارقطني (٣/ ٥٩) ، والبيهقي (٨/ ٢٠٢) من حديث سعد بن أبي وقاص.
(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١١/ ٥٠) برقم: (٣٠٣١٧) ، وذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٩٥) ، وابن عطية في «تفسيره» (٤/ ٥٥٣) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٦٥٣) ، وعزاه السيوطي لعبد بن حميد، وابن المنذر.
(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٢٦٨) ، وذكره الهندي في «كنز العمال» (٢/ ١٨٤) (٣٦٦٠) ، والسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٤٩) ، وعزاه إلى الحكيم الترمذي.." [1]

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٥/١١٠

"وحده في الدنيا كفرتم به وأنكرتم أن لا تكون الإلهية له خالصة، وقلتم أجعل الآلهة إلها واحدا وإن يشرك به غيره. تؤمنوا تصدقوا ذلك المشرك. وسمعت بعض العلماء يقول: وإن يشرك به بعد الرد إلى الدنيا لو كان تؤمنوا تصدقوا المشرك ذكره بلفظ الاستفهام. نظيره قوله تعالى: ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه «١» فالحكم لله العلي الكبير.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ٢٨]

هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦) وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب (٢٧)

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨)

هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا بإدرار الغيث وما يتذكر إلا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين العبادة والطاعة ولو كره الكافرون رفيع أي هو رفيع الدرجات يعني رافع طبقات الثواب للأنبياء والمؤمنين في الجنة.

قال ابن عباس: رافع السماوات وهو فوق كل شيء وليس فوقه شيء.

---

(١) سورة الأنعام: ٢٨.." (١)

"أي: قرب، ونظيرها هذه الآية قوله تعالى: أزفت الآزفة «١» أي قربت القيامة.

إذ القلوب لدى الحناجر من الخوف قد زالت وشخصت من صدورهم، فتعلقت بحلوقهم فلا هي تعود إلى أماكنها ولا هي

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٢٦٩/٨

تخرج من أفواههم فيموتوا فليسوا سواء «٢» نظيره قوله: وأفئدتهم هواء «٣» ... كاظمين مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا، والكاظم الممسك للشيء على ما فيه، ومنه كظم قربته إذا شد رأسها، فهم قد أطبقوا أفواههم على ما في قلوبهم من شدة الخوف، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حين يضيق به.

يقول العرب للبئر الضيقة وللسقاية المملوءة: ماء كظامة وكاظمة، ومنه الحديث: كيف بكم [إذا] بعجت مكة كظائم.

قال الشاعر:

يخرجن من كاظمة الح صن الخرب ... يحملن عباس بن عبد المطلب «٤»

ونصب كاظمين على الحال والقطع.

ما للظالمين من حميم قريب وصديق، ومنه قيل للأقرباء والخاصة حامة ولا شفيع يطاع فيشفع فيهم يعلم **خائنة الأعين**.

وقال المؤرخ: فيه تقديم وتأخير مجازه أي الأعين الخائنة قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالسا مع القوم، فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها.

وقال مجاهد: هي نظر الأعين إلى ما نهى الله تعالى عنه.

قتادة: هي همزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى ولا يرضاه.

وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه يعني الأوثان لا يقضون بشيء لأنها لا تعلم شيء ولا تقدر على شي.

وقرأ أهل المدينة وأيوب: تدعون بالتاء، ومثله روى هشام عن أهل الشام والباقون: بالياء.

إن الله هو السميع البصير أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة.

---

(١) سورة النجم: ٥٧.

(٢) تفسير الطبري: ٢٤/ ٦٧ بتفاوت.

(٣) سورة إبراهيم: ٤٣.

(٤) لسان العرب: ١٥/ ٣٩٥، وفيه: (صبحن) بدل (يخرجن) .." [1]

"﴿يعلم﴾ أي الله ﴿**خائنة الأعين**﴾ بمسارقتها النظر إلى محرم ﴿وما تخفي الصدور﴾ القلوب ٢ -." [2]

"[سورة غافر (٤٠): الآيات ١١ الى ١٢]

قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٨/٢٧١

(٢) تفسير الجلالين المحلي، جلال الدين ص/٦٢٠

وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢)

قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا أمواتا في أصلاب آبائهم فأحياهم الله تعالى في الدنيا ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها ثم أحياهم للبعث يوم القيامة فهذه موتتان وحياتان وقيل أميتوا في الدنيا ثم أحيوا في القبر للسؤال ثم أميتوا في قبورهم ثم أحيوا للبعث في الآخرة وذلك أنهم عدوا أوقات البلاء والمحنة وهي أربعة الموتة الأولى ثم الحياة في القبر ثم الموتة الثانية فيه ثم الحياة للبعث فأما الحياة الأولى التي هي من الدنيا فلم يعدوها لأنها ليست من أقسام البلاء وقيل ذكر حياتين وهي حياة الدنيا وحياة القيامة وموتتين وهي الموتة الأولى في الدنيا ثم الموتة الثانية في القبر بعد حياة السؤال ولم يعدوا حياة السؤال لقصر مدتها فاعترفنا بذنوبنا يعني إنكارهم البعث بعد الموت فلما شاهدوا البعث اعترفوا بذنوبهم ثم سألوا الرجعة بقولهم فهل إلى خروج يعني من النار من سبيل والمعنى فهلا إلى رجوع إلى الدنيا من سبيل لنصلح أعمالنا ونعمل بطاعتك وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط من الخروج وإنما قالوا ذلك تعللا وتحيرا والمعنى فلا خروج ولا سبيل إليه ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله تعالى: ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم معناه فأجيبوا أن لا سبيل إلى الخروج وهذا العذاب والخلود في النار بأنكم إذا دعى الله وحده كفرتم يعني إذا قيل لا إله إلا الله أنكرتم ذلك وإن يشرك به أي غيره تؤمنوا أي تصدقوا ذلك الشرك فالحكم لله العلي أي الذي لا أعلى منه الكبير أي الذي لا أكبر منه.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ١٣ الى ١٩]

هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)

قوله عز وجل: هو الذي يريكم آياته أي عجائب مصنوعاته التي تدل على كمال قدرته وينزل لكم من السماء رزقا يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق وما يتذكر أي يتعظ بهذه الآيات إلا من ينيب أي يرجع إلى الله تعالى في جميع أموره فادعوا الله مخلصين له الدين أي الطاعة والعبادة ولو كره الكافرون.

قوله تعالى: رفيع الدرجات أي رافع درجات الأنبياء والأولياء والعلماء في الجنة وقيل معناه المرتفع أي إنه سبحانه وتعالى هو المرتفع بعظمته في صفات جلاله وكماله ووحدانيته المستغني عن كل ما سواه وكل الخلق فقراء إليه ذو العرش أي خالقه ومالكه، والفائدة في تخصيص العرش بالذكر لأنه أعظم الأجسام والمقصود بيان كمال التنبيه على كمال القدرة فكل ما كان أعظم كانت دلالته على كمال القدرة أقوى يلقي الروح يعني ينزل الوحي سماه روحا لأن به تحيا الأرواح كما تحيا الأبدان بالأرواح من أمره قال ابن عباس:

من قضائه وقيل بأمره وقيل من قوله على من يشاء من عباده يعني الأنبياء لينذر يوم التلاق يعني لينذر النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي يوم التلاق وهو يوم القيامة لأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، وقيل يلتقي الخلق والخالق." (١)

"وقيل يلتقي العابدون والمعبودون وقيل يلتقي المرء مع عمله وقيل يلتقي الظالم والمظلوم يوم هم بارزون أي خارجون من قبورهم ظاهرون لا يسترهم شيء لا يخفى على الله منهم شيء أي من أعمالهم وأحوالهم، فإن قلت إن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في سائر الأيام فما وجه تخصيص ذلك اليوم، قلت كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله تعالى لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم وهم في ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه في الدنيا لمن الملك اليوم أي يقول الله عز وجل في ذلك اليوم بعد فناء الخلق لمن الملك فلا أحد يجيبه فيجيب نفسه تعالى فيقول لله الواحد القهار أي الذي قهر الخلق بالموت وقيل إذا حضر الأولون والآخرون في يوم القيامة نادى مناد لمن الملك فيجيبه جميع الخلائق في يوم القيامة لله الواحد القهار فالمؤمنون يقولونه تلذذا حيث كانوا يقولونه في الدنيا ونالوا به المنزلة الرفيعة في العقبى والكفار يقولونه على سبيل الذل والصغار والندامة حيث لم يقولوه في الدنيا اليوم تجزى كل نفس بما كسبت يعني يجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته لا ظلم اليوم أي إن الخلق آمنون في ذلك اليوم من الظلم لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد إن الله سريع الحساب أي إنه تعالى لا يشغله حساب عن حساب بل يحاسب الخلق كلهم في وقت واحد.

قوله تعالى: وأنذرهم يوم الآزفة يعني يوم القيامة سميت آزفة لقرب وقتها وكل ما هو آت فهو قريب إذ القلوب لدى الحناجر وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر فلا هي تعود إلى أماكنها ولا هي تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا كاظمين أي مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا حتى يضيق القلب عنه ما للظالمين من حميم أي من قريب ينفعهم ولا شفيع أي يشفع لهم يطاع أي فيهم يعلم **خائنة الأعين** أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل وقيل هو نظر الأعين لما نهى الله عنه وما تخفي الصدور أي يعلم مضمرات القلوب.

[سورة غافر (٤٠): الآيات ٢٠ الى ٢٦]

والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤)

فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥)

وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦)

والله يقضي بالحق أي يحكم بالعدل والذين يدعون من دونه يعني الأصنام لا يقضون بشيء لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/٧٠

على شيء إن الله هو السميع أي لأقوال الخلق البصير بأفعالهم أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض أي المعنى أن العاقل من اعتبر بغيره فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء فلم تنفعهم قوتهم فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق أي يدفع عنهم العذاب ذلك أي ذلك العذاب الذي نزل بهم بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب قوله عز وجل: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا يعني." (١)

"شانه»

ولهذا خلق السموات والأرض في ستة أيام ليتعلم منه الرفق والثبات فهذه هي الخصومة الواقعة بين الصنفين، وقلبك وصدرك هو القلعة. ثم إن لهذا الصدر الذي هو القلعة خندقا وهو الزهد في الدنيا وعدم الرغبة فيها وله سور وهو الرغبة الآخرة ومحبة الله تعالى فإن كان الخندق عظيما والسور قويا عجز عسكر الشيطان عن تخريبه فرجعوا وراءهم وتركوا القلعة كما كانت وإن كان خندق الزهد غير عميق وسور حب الآخرة غير قوي قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فيدخلها ويبيت فيها جنوده من الهوى والعجب والكبر والبخل وسوء الظن بالله تعالى والنميمة والغيبة فينحصر الملك في القصر ويضيق الأمر عليه فإذا جاء مدد التوفيق وأخرج هذا العسكر من القلعة انفسح الأمر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان ودخلت أنوار هداية رب العالمين وذلك هو المراد بقوله: رب اشرح لي صدري. المثال الثاني: اعلم أن معدن النور هو القلب واشتغال الإنسان بالزوجة والولد والرغبة في مصاحبة الناس والخوف من الأعداء هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب إلى فضاء الصدر فإذا قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم في الدارين صغروا في عينه ولا شك في أنهم من حيث هم عدم محض على ما قال تعالى: كل شيء هالك إلا وجهه [القصص: ٨٨] فلا يزال العبد يتأمل فيما سوى الله تعالى إلى أن يشاهد أنهم عدم محض فعند ذلك يزول/ الحجاب بين قلبه وبين أنوار جلال الله تعالى وإذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور فذلك هو انشراح الصدر.

الفصل السادس: في الصدر اعلم أنه يجيء والمراد منه القلب: أفمن شرح الله صدره للإسلام [الزمر: ٢٢] ، رب اشرح لي صدري، وحصل ما في الصدور [العاديات: ١٠] ، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور [غافر: ١٩] وقد يجيء والمراد الفضاء الذي فيه الصدر: فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور [الحج: ٤٦] واختلف الناس في أن محل العقل هل هو القلب أو الدماغ وجمهور المتكلمين على أنه القلب، وقد شرحنا هذه المسألة في سورة الشعراء في تفسير قوله: نزل به الروح الأمين على قلبك [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقال بعضهم المواد أربعة: الصدر والقلب والفؤاد واللب فالصدر مقر الإسلام: أفمن شرح الله صدره للإسلام [الزمر: ٢٢] والقلب مقر الإيمان: ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم [الحجرات: ٧] والفؤاد مقر المعرفة: ما كذب الفؤاد ما رأى [النجم: ١١] ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا [الإسراء: ٣٦] واللب مقر التوحيد:

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٧١/٤

إنما يتذكر أولوا الألباب [الرعد: ١٩] واعلم أن القلب أول ما بعث إلى هذا العالم بعث خاليا عن النقوش كاللوح الساذج وهو في عالم البدن كاللوح المحفوظ، ثم إنه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة كل ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات وذلك يكون كالسطر الواحد إلى آخر قيام القيامة لهذا العالم الأصغر وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة، ثم إن العقل يركب سفينة التوفيق ويلقيها في بحار أمواج المعقولات وعوالم الروحانيات فيحصل من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الإدبار أخرى، فربما وصلت سفينة النظر إلى جانب مشرق الجلال فتسطع عليه أنوار الإلهية ويتخلص العقل عن ظلمات الضلالات، وربما توغلت السفينة في جنوب الجهالات فتنكسر وتغرق فحيثما تكون السفينة في ملتطم أمواج العزة يحتاج حافظ السفينة إلى التماس الأنوار والهدايات فيقول هناك: رب اشرح لي صدري واعلم." (١)

"اعلم أن الله تعالى لما ختم ما اقتصه من خبر الأنبياء ذكر بعد ذلك ما يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم وهو من وجهين:

الأول: قوله: وإنه لتنزيل رب العالمين وذلك لأنه لفصاحته معجز فيكون ذلك من رب العالمين، أو لأنه إخبار عن القصص الماضية من غير تعليم البتة، فلا يكون ذلك إلا بوحي من الله تعالى، وقوله بعده: وإنه لفي زبر الأولين كأنه مؤكد لهذا الاحتمال، وذلك لأنه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ما هي موجودة في زبر الأولين من غير تفاوت أصلا مع أنه لم يشتغل بالتعلم والاستعداد، دل ذلك على أنه ليس إلا من عند الله تعالى، فهذا هو المقصود من الآية.

فأما قوله تعالى: وإنه لتنزيل رب العالمين فالمراد بالتنزيل المنزل، ثم قد كان يجوز في القرآن وهذه القصص أن يكون تنزيلا من الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم بلا واسطة فقال: نزل به الروح الأمين والباء في قوله:

نزل به الروح ونزل به الروح على القراءتين للتعدية، ومعنى نزل به الروح جعل الله الروح نازلا به على قلبك أي [حفظكه و] «١» فهمك إياه وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله تعالى: سنقرئك/ فلا تنسى [الأعلى: ٦] والروح الأمين جبريل عليه السلام وسماه روحا من حيث خلق من الروح، وقيل لأنه نجاة الخلق في باب الدين فهو كالروح الذي تثبت معه الحياة، وقيل لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح وسماه أمينا لأنه مؤتمن على ما يؤديه إلى الأنبياء عليهم السلام، وإلى غيرهم.

وأما قوله: على قلبك ففيه قولان: الأول: أنه إنما قال: على قلبك وإن كان إنما أنزله عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن في قلبه لا يجوز عليه التغيير فيوثق بالإنذار الواقع منه الذي بين الله تعالى أنه هو المقصود ولذلك قال: لتكون من المنذرين الثاني: أن القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختبار، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول، أما القرآن فآيات إحداها قوله تعالى في سورة البقرة [٩٧] : فإنه نزله على قلبك وقال هاهنا: نزل به الروح الأمين على قلبك وقال: إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب [ق: ٣٧] ، وثانيها: أنه ذكر أن استحقاق الجزاء ليس إلا على ما في القلب من المساعي فقال: لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤١/٢٢

كسبت قلوبكم [البقرة: ٢٢٥] وقال: لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم [الحج: ٣٧] والتقوى في القلب لأنه تعالى قال: أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى [الحجرات: ٣] وقال تعالى: وحصل ما في الصدور [العاديات: ١٠] . وثالثها: قوله حكاية عن أهل النار: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير [الملك: ١٠] ومعلوم أن العقل في القلب والسمع منفذ إليه، وقال: إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا [الإسراء: ٣٦] ومعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما إلا ما يؤديانه إلى القلب، فكان السؤال عنهما في الحقيقة سؤالا عن القلب وقال تعالى:
يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور [غافر:
١٩] ، ولم تخف «٢» الأعين إلا بما تضمر القلوب عند التحديق بها ورابعها: قوله: وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون [السجدة: ٩] فخص هذه الثلاثة بإلزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها، وقد قلنا لا طائل في السمع والأبصار إلا بما يؤديان إلى القلب ليكون القلب هو القاضي فيه والمتحكم

---

(١) زيادة من الكشاف ٣/ ١٢٨ ط. دار الفكر.

(٢) مقتضى الكلام أن يقول ولم تخن الأعين لأن القلوب هي التي تخفي.." [1]

"يجوز أن يكون مشروعا للجزاء لقوله تعالى: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر [البقرة: ١٨٥] ولقوله تعالى: وما جعل عليكم في الدين من حرج [الحج: ٧٨]
ولقوله صلى الله عليه وسلم: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»
عدلنا عن هذه العمومات فيما إذا كانت المضار أجزية، وفيما ورد نص في الإذن فيه كذبح الحيوانات، فوجب أن يبقى على أصل الحرمة فيما عداه، فثبت بما ذكرنا أن الأصل في المضار والآلام التحريم، فإن وجدنا نصا خاصا يدل على الشرعية قضينا به تقديما للخاص على العام، وإلا فهو باق على أصل التحريم، وهذا أصل كلي منتفع به في الشريعة والله أعلم.
الصفة السادسة: من صفات ذلك اليوم قوله لا ظلم اليوم والمقصود أنه لما قال: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت أردفه بما يدل على أنه لا يقع في ذلك اليوم نوع من أنواع الظلم، قال المحققون وقوع الظلم في الجزاء يقع على أربعة أقسام أحدها: أن يستحق الرجل ثوابا فيمنع منه وثانيها: أن يعطي بعض بعض حقه ولكنه لا يوصل إليه حقه بالتمام وثالثها: أن يعذب من لا يستحق العذاب ورابعها: أن يكون الرجل مستحقا للعذاب فيعذب ويزاد على قدر حقه فقوله تعالى: لا ظلم اليوم يفيد نفي هذه الأقسام الأربعة، قال القاضي هذه الآية قوية في إبطال قول المجبرة لأن على قولهم لا ظلم غالبا وشاهدا إلا من الله، ولأنه تعالى إذا خلق فيه الكفر ثم عذبه عليه فهذا هو عين الظلم والجواب عنه معلوم.
ثم قال تعالى: إن الله سريع الحساب وذكر هذا الكلام في هذا الموضع لائق جدا، لأنه تعالى لما بين أنه لا ظلم بين أنه سريع الحساب. وذلك يدل على أنه يصل إليهم ما يستحقونه في الحال والله أعلم.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٤/٥٣٠

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٢]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)

اعلم أن المقصود من هذه الآية وصف يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة المهيبة، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير يوم الآزفة وجوها الأول: أن يوم الآزفة هو يوم القيامة، والآزفة فاعلة من أزف الأمر إذا دنا وحضر لقوله في صفة يوم القيامة أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال شاعر:

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد

والمقصود منه التنبيه على أن يوم القيامة قريب ونظيره قوله تعالى: اقتربت الساعة [القمر: ١] قال الزجاج إنما قيل لها آزفة لأنها قريبة وإن استبعد الناس مداها، وما هو كائن فهو قريب.." [(١)]

"حمله على سلب العموم لا على عموم السلب، وحينئذ استدلال المعتزلة بهذه الآية فهذا غاية الكلام في هذا الباب.

المسألة الرابعة: في بيان نظم الآية، فنقول إنه تعالى ذكر في هذه الآية جميع الأسباب الموجبة للخوف فأولها: أنه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة، أي يوم القرب من عذابه لمن ابتلي بالذنب العظيم، لأنه إذا قرب زمان عقوبته كان في أقصى غايات الخوف، حتى قيل إن تلك الغموم والهموم أعظم في الإيحاش من عين تلك العقوبة والثاني: قوله إذ القلوب لدى الحناجر والمعنى أنه بلغ ذلك الخوف إلى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع إلى الحنجرة والتصق بها وصار مانعا من دخول النفس والثالث: قوله كاظمين والمعنى أنه لا يمكنهم أن ينطقوا وأن يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف، وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب والرابع: قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع فبين أنه ليس لهم قريب ينفعهم، ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته والخامس: قوله يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور والمعنى أنه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، والحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدا جدا، قال صاحب «الكشاف» : الخائنة صفة النظرة أو مصدر بمعنى الخائنة، كالعافية المعافاة، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب، والمراد بقوله وما تخفي الصدور مضمرات القلوب، والحاصل أن الأفعال قسمان: أفعال الجوارح وأفعال القلوب، أما أفعال الجوارح، فأخفاها **خائنة الأعين** والله أعلم بها، فكيف الحال في سائر الأعمال. وأما أفعال القلوب، فهي معلومة لله تعالى لقوله وما تخفي الصدور فدل هذا على كونه تعالى عالما بجميع أفعالهم السادس: قوله تعالى: والله يقضي بالحق وهذا أيضا يوجب عظم الخوف، لأن الحاكم إذا كان عالما بجميع الأحوال، وثبت منه أنه لا يقضي إلا بالحق في كل ما دق وجل، كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى السابع: أن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧/٥٠٢

هذه الأصنام، وقد بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها البتة، فقال: والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء الثامن: قوله إن الله هو السميع البصير أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام، ولا يسمع منهم ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله، فهذه الأحوال الثمانية إذا اجتمعت في حق المذنب الذي عظم ذنبه كان بالغا في التخويف إلى الحد الذي لا تعقل الزيادة عليه، ثم إنه تعالى لما بالغ في تخويف الكفار بعذاب الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال: أولم/ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم والمعنى أن العاقل من اعتبر بغيره، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار، وأقوى آثارا في الأرض منهم، والمراد حصونهم وقصورهم وعساكرهم، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله بضروب الهلاك معجلا حتى إن هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار، فحذرهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول، وبين بقوله وما كان لهم من الله من واق أنه لما نزل العذاب بهم عند أخذه تعالى لهم لم يجدوا من يعينهم ويخلصهم، ثم بين أن ذلك نزل بهم لأجل أنهم كفروا وكذبوا الرسل، فحذر قوم الرسول من مثله، وختم الكلام ب إنه قوي شديد العقاب مبالغة في التحذير والتخويف، والله أعلم.

وقرأ ابن عامر وحده كانوا هم أشد منكم بالكاف، والباقون بالهاء أما وجه قراءة ابن عامر فهو انصراف." (١)

"ممتنع الوقوع، فلا حاجة أيضا إلى الدعاء وثانيها: أن حدوث الحوادث في هذا العالم لا بد من انتهائها بالآخرة إلى المؤثر القديم الواجب لذاته، وإلا لزم إما التسلسل، وإما الدور وإما وقوع الحادث من غير مؤثر وكل ذلك محال وإذا ثبت وجوب انتهائها بالآخرة إلى المؤثر القديم، فكل ما اقتضى ذلك المؤثر القديم وجوده اقتضاء قديما أزليا كان واجب الوقوع، وكل ما لم يقتض المؤثر القديم وجوده اقتضاء قديما أزليا كان ممتنع الوقوع، ولما ثبتت هذه الأمور في الأزل لم يكن للدعاء البتة أثر، وربما عبروا عن هذا الكلام بأن قالوا: الأقدار سابقة والأقضية متقدمة والدعاء لا يزيد فيها وتركه لا ينقص شيئا منها، فأي فائدة في الدعاء،

وقال عليه الصلاة والسلام قدر الله المقادير قبل أن يخلق الخلق بكذا وكذا عاما

وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «جف القلم بما هو كائن»

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أربع قد فرغ منها: العمر والرزق والخلق والخلق»

وثالثها: أنه سبحانه علام الغيوب: يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور [غافر: ١٩] فأي حاجة بالداعي إلى الدعاء؟ ولهذا السبب قالوا إن جبريل عليه/ السلام بلغ بسبب هذا الكلام إلى أعلى درجات الإخلاص والعبودية ولولا أن ترك الدعاء أفضل لما كان كذلك ورابعها: أن المطلوب بالدعاء إن كان من مصالح العبد فالجواد المطلق لا يهمله وإن لم يكن من مصالحه لم يجز طلبه وخامسها: ثبت بشواهد العقل والأحاديث الصحيحة أن أجل مقامات الصديقين وأعلاها الرضا بقضاء الله تعالى والدعاء ينافي ذلك لأنه اشتغال بالالتماس وترجيح لمراد النفس على مراد الله تعالى وطلبه لحصة البشر وسادسها: أن الدعاء يشبه الأمر والنهي وذلك من العبد في حق المولى الكريم الرحيم سوء أدب وسابعها:

روي أنه عليه الصلاة والسلام قال رواية عن الله سبحانه وتعالى: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٧/٥٠٥

السائلين»

قالوا فثبت بهذه الوجوه أن الأولى ترك الدعاء.

وقال الجمهور الأعظم من العقلاء: إن الدعاء أهم مقامات العبودية، ويدل عليه وجوه من النقل والعقل، أما الدلائل النقلية فكثيرة الأول: أن الله تعالى ذكر السؤال والجواب في كتابه في عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية، أما الأصولية فقوله: ويسئلونك عن الروح [الإسراء: ٨٥] ويسئلونك عن الجبال [طه: ١٠٥] ويسئلونك عن الساعة [النازعات: ٤٢] وأما الفروعية فمنها في البقرة على التوالي يسئلونك ماذا ينفقون [البقرة: ٢١٩] يسئلونك عن الشهر الحرام [البقرة: ٢١٧] يسئلونك عن الخمر والميسر [البقرة: ٢١٩] يسئلونك عن اليتامى [البقرة: ٢٢٠] ويسئلونك عن المحيض [البقرة: ٢٢٢] وقال أيضا: يسئلونك عن الأنفال [الأنفال: ١] ويسئلونك عن ذي القرنين [الكهف: ٨٣] ويستنبئونك أحق هو [يونس: ٥٣] يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة [النساء: ١٧٦] .

إذا عرفت هذا: فنقول هذه الأسئلة جاءت أجوبتها على ثلاثة أنواع فالأغلب فيها أنه تعالى لما حكى السؤال قال لمحمد: قل وفي صورة واحدة جاء الجواب بقوله: فقل مع فاء التعقيب، والسبب فيه أن قوله تعالى: يسئلونك عن الجبال سؤال عن قدمها وحدوثها وهذه مسألة أصولية فلا جرم قال الله تعالى: فقل ينسفها ربي نسفا [طه: ١٠٥] كأنه قال يا محمد أجب عن هذا السؤال في الحال ولا تؤخر الجواب فإن الشك فيه كفر ثم تقدير الجواب أن النسف ممكن في كل جزء من أجزاء الجبل فيكون ممكنا في الكل وجواز عدمه يدل على امتناع قدمه، أما سائر المسائل فهي فروعية فلا جرم لم يذكر فيها فاء التعقيب، أما الصورة الثالثة وهي." (١)

"حكم، فيعتمد عليه الناس بعده، وإنما قال: ﴿على الذين يبدلونه﴾ ولم يقل عليه، ليبين أن إثمه للتبديل لا لغيره، ونبه بقوله: ﴿إن الله سميع عليم﴾ أن ذلك وإن خفي على الناس، فلن يخفى عليه تعالى، فإنه يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

قوله - عز وجل -:

﴿فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾

الآية (١٨٢) سورة البقرة.

جنف وخيف يتقاربان، لكن جنف استعمل للميل إلى الخير، وخيف في اليد إلى الجور، وخاف يقاربه، إلا أن أكثر ما يقال في الحاكم وخيفه أن يوصي لإنسان والمراد لغيره، كما قال طاوس: الخيف: التولج نحو أن يوصي الرجل لابن الابن ليوصل المال إلى أبيه أو لزوج ابنته ليوصله إليها، أو يخص في حيث يجب العموم، أو يعم حيث يجب الخصوص، وقوله: ﴿بينهم﴾ أي بين القوم الذين لهم مدخل في ذلك من الورثة والموصى لهم، وجاز إضمارهم لدلالة الكلام على ذكرهم.

إن قيل: كيف قال: ﴿جنفا أو إثما﴾ والجنف هو الإثم؟ قيل: قد قال الربيع: الجنف في الخطأ، والإ ثم في العمد، وقيل:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥/٢٦٣

الإثم: ما يكبر معصيته، والجنف ما دون ذلك، وخوفه هو أن يبدو له أمارة تقتضي حصول ذلك، ولا فرق بين أن يخاف منه ذلك، قبل موت الموصى فيرشده، أو بعد موته فيصلحه، وليس الإصلاح بمقصور على إيقاع الصلح دون استعمال الصلاح، بل يتناولهما، وإنما قال: ﴿فلا إثم عليه﴾ لأنه لما خوف في الآية الأولى من تغيير الوصية بين أن النهي عن تغييره فيما لا." (١)

"وقوله: (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم).

وقوله: (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره)

وقوله: (موتوا بغيظكم) دعاء عليهم وإيجاب ذلك لهم، وإن لم يكن إيجابا عليهم، وقوله: (عليم بذات الصدور) كقوله (يعلم السر وأخفى).

وقوله: (يعلم ما في أنفسكم فاحذروه)

وقوله: (يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور) ونحو ذلك.

قوله تعالى: (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط (١٢٠)." (٢)

"كقوله: (أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه).

وقوله تعالى: (يعلم السر وأخفى) وقوله: (يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور).

وهذه الآية كالشرح لما أجمله في الأولى، حيث قال: (قل هو من عند أنفسكم).

قوله تعالى: (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين (١٦٨)

هذه الآية من تمام صفة المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه.

قالوا: إن قتلى أحد لو أطاعونا في التأخر عن القتال ولزموا

بيوتهم ما قتلوا، وإعراب (الذين): إما نصب على البدل من

(الذين نافقوا)، أو رفع على خبر الابتداء المضمر، أو بدل من

الضمير في (يكتمون).

إن قيل: لم أخر ذكر القعود عن القول." (٣)

"إليها، حين علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها، فوليتها ظهري وقلت: يا زينب، أبشرى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك، ففرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني الراغب الأصفهاني ٣٨٤/١

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني الراغب الأصفهاني ٨٢٩/٢

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني الراغب الأصفهاني ٩٧٧/٣

«١» زوجناكها فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بها، وما أو لم على امرأة من نسائه ما أو لم عليها: ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار. فإن قلت: ما أراد بقوله واتق الله؟ قلت: أراد: واتق الله فلا تطلقها، وقصد نهى تنزيه لا تحريم، لأن الأولى أن لا يطلق. وقيل: أراد: واتق الله فلا تذمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج. فإن قلت: ما الذي أخفى في نفسه؟ قلت: تعلق قلبه بها.

وقيل: مودة مفارقة زيد إياها. وقيل: علمه بأن زيدا سيطلقها وسينكحها، لأن الله قد أعلمه بذلك. وعن عائشة رضى الله عنها: لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا مما أوحى إليه لكتم هذه الآية «٢» . فإن قلت: فماذا أراد الله منه أن يقوله حين قال له زيد: أريد مفارقتها، وكان من الهجنة أن يقول له: افعل، فإنى أريد نكاحها؟ قلت: كأن الذي أراد منه عز وجل أن يصمت عند ذلك، أو يقول له: أنت أعلم بشأنك، حتى لا يخالف سره في ذلك علانيته، لأن الله يريد من الأنبياء تساوى الظاهر والباطن، والتصلب في الأمور، والتجاوب في الأحوال، والاستمرار على طريقة مستتبة، كما جاء في حديث إرادة رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل عبد الله بن أبى سرح واعتراض عثمان بشفاعته له: أن عمر قال له: لقد كان عيني إلى عينك، هل تشير إلى فأقتله، فقال: إن الأنبياء لا تومض، «٣» ظاهرهم وباطنهم واحد «٤» . فإن قلت:

---

(١) . ذكره الثعلبي بغير سند. وأخرج الطبري معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله، وفي الصحيحين عن أنس قصة زينب وزيد مختصرة. وليس فيه مما في أوله.

(٢) . متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٣) . قوله «لا تومض» في الصحاح: أو مضت المرأة، إذا سارقت النظر. (ع)

(٤) . لم أجده، وفي الدلائل للبيهقي من رواية الحسن بن بشر عن الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال «أمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس يوم فتح مكة إلا أربعة من الناس- فذكر الحديث قال «ونذر رجل من الأنصار أن يقتل عبد الله بن سعد إذا رآه فأتى به عثمان فشفع له، فجعل الأنصارى يتردد ويكره أن يقدم عليه. فبايعه النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال للأنصارى: قد انتظرتك. قال: يا رسول الله أفلا أرمضت إلى؟ قال: إنه ليس للنبي أن يومض» وأخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة مرسلا. وروى عبد الرزاق من طريق مقسم مولى ابن عباس قال «لما كانت المدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش- فذكر الحديث بطوله وفيه «وأمن الناس إلا أربعة. وفيه فجاء عثمان بابن أبى سرح. فقال: بايعه يا رسول الله فأعرض عنه ثم جاء فبايعه فقال لقد أعرضت عنه ليقتله بعضكم فقال رجل من الأنصار هلا أومضت إلينا يا رسول الله؟ قال:

إن النبي لا يومض» وهذا مرسل أيضا وأخرجه أبو داود وغيره من حديث سعد بن أبى وقاص نحو الأول، لكن في آخره «ثم أقبل على أصحابه فقال: أفما كان فيكم رجل رشيد، يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عنه فيقتله؟

قالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هلا أومأت إلينا بعينك؟ قال: لا ينبغي لنبي أن يكون له **خائنة الأعين**." [١]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٣/٥٤١

"[سورة غافر (٤٠) : آية ١٩]

يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)

الخائنة: صفة للنظرة. أو مصدر بمعنى الخيانة، كالعافية بمعنى المعافاة، والمراد: استراق النظر إلى ما لا يحل، كما يفعل أهل الريب، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين، لأن قوله وما تخفي الصدور لا يساعد عليه «١» . فإن قلت: بم اتصل قوله يعلم خائنة الأعين؟

قلت: هو خبر من أخبار هو في قوله هو الذي يريكم مثل يلقي الروح ولكن يلقي الروح قد علل بقوله لينذر يوم التلاق ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله ولا شفيع يطاع فبعد لذلك عن أخواته.

[سورة غافر (٤٠) : آية ٢٠]

والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

والله يقضي بالحق يعني: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضى إلا بالحق والعدل.

لاستغنائه عن الظلم. وآلهتكم لا يقضون بشيء، وهذا تهكم بهم، لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه: يقضى، أو لا يقضى إن الله هو السميع البصير تقرير لقوله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون، وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون الله، وأنها لا تسمع ولا تبصر. وقرئ: يدعون، بالتاء والياء.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)

هم في كانوا هم أشد منهم فصل. فإن قلت: من حق الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين، فما باله واقعا بين معرفة وغير معرفة؟ وهو أشد منهم. قلت: قد ضارع المعرفة في أنه لا تدخله الألف واللام، فأجرى مجراها. وقرئ: منكم، وهي في مصاحف أهل الشأم وآثارا

---

(١) . قال محمود: «الخائنة إما صفة للنظرة وإما مصدر كالعافية» قال: «ولا يحسن أن يراد الخائنة من الأعين» لأنه لا يساعد عليه قوله تعالى وما تخفي الصدور قال أحمد: إنما لم يساعد عليه لأن خائنة الأعين على هذا التقدير معناه الأعين الخائنة، وإنما يقابل الأعين الصدور، لا ما تخفيه الصدور، بخلاف التأويل الأول، فان المراد به نظرات الأعين فيطابق خفيات الصدور. [.....]."[(١)]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ١٥٩/٤

"﴿١٨٦﴾ ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ .

هذا جواب سؤال، سأل النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ لأنه تعالى، الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضا من داعيه، بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به، الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي: يحصل لهم الرشد الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره، سبب لحصول العلم كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾ .." [(١)]

"﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور * والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾ .

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها، ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروع والكرب إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم. ﴿كاظمين﴾ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا وكاظمين على ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي: قريب ولا صاحب، ﴿ولا شفيع يطاع﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها.

﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جليسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿وما تخفي الصدور﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿والله يقضي بالحق﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علما وكتابة وحفظا بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئا كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.

﴿والذين يدعون من دونه﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لا يقضون بشيء﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٨٧

واستطاعتهم لفعله. ﴿إن الله هو السميع﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿البصير﴾ (١) بما كان وما يكون، وما نبصر وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقتضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترغيب والترهيب.

---

(١) في النسختين (العليم) وهو خطأ فالوارد في الآية: (البصير) .." [(١)]

"﴿لا تأخذه سنة﴾ أي: نعاس ﴿ولا نوم﴾ ؛ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض فكلهم عبيد لله مماليك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا﴾ فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي له صفات الملك والتصرف، والسلطان، والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا ﴿يشفع عنده﴾ أحد ﴿إلا بإذنه﴾ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له مماليك، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم. ﴿قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض﴾ والله لا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى، ولا يرتضي إلا توحيده، واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعة نصيب.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق، من الأمور المستقبلة، التي لا نهاية لها ﴿وما خلفهم﴾ من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله ومعلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ منها وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدا مضمحل في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم الخلق به، وهم الرسل والملائكة: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه، وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات، التي جعلها الله في المخلوقات.

ومع ذلك ف ﴿لا يئوده﴾ أي: يثقله حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة حكمته في أحكامه.

﴿وهو العلي﴾ بذاته، على جميع مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له الموجودات، وخضعت له الصعاب، وذلت له الرقاب.

﴿العظيم﴾ الجامع، لجميع صفات العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبرا متفهما، أن

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٧٣٥

يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان، وأن يكون محفوظا بذلك من شرور الشيطان.

﴿٢٥٦﴾ ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطرة له، لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، ورده ولم يقبله، فإنه لعناده.

فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله، ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال ليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين.

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض مع البر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي.

فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة فقوله ضعيف، لفظا ومعنى، كما هو واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة، كما نبهنا عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك له، وكفر بالطاغوت- وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره-، فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح، حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته.

ويؤخذ القسم الثاني من مفهوم الآية، أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وآمن بالطاغوت، فإنه هالك هلاكا أبديا، ومعذب عذابا سرمديا.

وقوله: ﴿والله سميع﴾ أي: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، وسميع لدعاء الداعين، وخضوع المتضرعين.

﴿عليم﴾ بما أكنته الصدور، وما خفي من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب ما يعلمه، من نياته وعمله.

﴿٢٥٧﴾ ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ هذه الآية مترتبة على الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس، وهذه هي الثمرة.

فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله، وصدقوا إيمانهم، بالقيام بواجبات الإيمان، وترك كل ما ينافيه، أنه وليهم، يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، وييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى.

وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولاهم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكلهم إلى رعاية من تولاهم، ممن ليس عنده نفع ولا ضر، فأضلوهم وأشقوهم، وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح وحرموهم السعادة، وصارت النار مثواهم، خالدين فيها مخلدين.

اللهم تولنا فيمن توليت.

﴿٢٥٨﴾ ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين، ما به تتبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد.." (١)

"يعني: يقال لهم ذلك الخلود بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم يعني: إذا قيل لكم لا إله إلا الله جحدتم، وأقمتم على الكفر، وإن يشرك به تؤمنوا يعني: إذا دعيتم إلى الشرك، وعبادة الأوثان، تصدقوا فالحكم لله العلي الكبير يعني: القضاء فيكم لله العلي الكبير أي:

الرفيع فوق خلقه، القاهر لخلقه، الكبير بالقدرة، والمنزلة.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٣ الى ١٩]

هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩)

ثم قال الله تعالى: هو الذي يريكم آياته يعني: عجائبه، ودلائله، من خلق السموات والأرض، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، وذلك أنه لما ذكر ما يصيبهم يوم القيامة، عظم نفسه تعالى.

ثم ذكر لأهل مكة من الدلائل ليؤمنوا به، فقال: هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا يعني: المطر. ويقال: الملائكة لتدبير الرزق. وما يتذكر إلا من ينيب يعني: ما يتعظ بالقرآن، إلا من يقبل إليه بالطاعة. ويقال: وما يتذكر في هذا الصنيع، فيوحد الرب إلا من يرجع إليه، فادعوا الله مخلصين له الدين يعني: اعبدوه بالإخلاص، ولو كره الكافرون يعني: وإن شق ذلك على المشركين، الكافرين. رفيع الدرجات يعني: رافع، وخالق السموات. أي: مطبقا بعضها فوق بعض. ويقال: هو رافع الدرجات في الدنيا بالمنازل، وفي الآخرة الجنة ذو الدرجات، ذو العرش يعني: رافع العرش. ويقال:

خالق العرش، هو رب العرش يلقي الروح من أمره يعني: ينزل جبريل بالوحي على من يشاء من عباده وهو النبي صلى الله عليه وسلم، لينذر يوم التلاق يعني: ليخوف بالقرآن. وقرأ الحسن:

لتنذر بالتاء على معنى المخاطبة. يعني: لتنذر يا محمد. وقراءة العامة بالياء يعني: لينذر الله. ويقال: لينذر من أنزل عليه الوحي يوم التلاق قرأ ابن كثير: يوم التلاقي بالياء.." (٢)

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٩٥٤

(٢) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ٣/٢٠٠

"وهي إحدى الروايتين عن نافع، والباقون بغير ياء. فمن قرأ بالياء فهو الأصل. ومن قرأ بغير ياء، فلأن الكسر يدل عليه. وقال في رواية الكلبي: يوم التلاق يوم يلتقي أهل السموات، وأهل الأرض. ويقال: يوم يلتقي الخصم، والمخصوم، يوم هم بارزون أي: ظاهرين، خارجين من قبورهم، لا يخفى على الله منهم شيء يعني: من أعمال أهل السموات، وأهل الأرض.

لمن الملك اليوم قال بعضهم: هذا بين النفختين. يقول الرب تبارك وتعالى: لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيقول لنفسه: لله الواحد القهار. قال بعضهم: إن ذلك لأهل الجمع يوم القيامة. يقول: لمن الملك اليوم فأقر الخلائق كلهم، وقالوا: لله الواحد القهار.

يقول الله تعالى: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت يعني: ما عملت في الدنيا من خير أو شر، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وقد ذكرناه، وأنذرهم يوم الآزفة يعني:

خوفهم بيوم القيامة. فسمي الأزفة لقربه. ويقال: أزف شخوص فلان يعني: قرب كما قال أزفت الآزفة.

ثم قال: إذ القلوب لدى الحناجر من الخوف، لا تخرج، ولا تعود إلى مكانها، كاظمين أي: مغمومين يتردد خوفهم في أجوافهم ما للظالمين يعني: المشركين من حميم أي قريب، ولا شفيع يطاع أي: له الشفاعة فيهم. يعلم **خائنة الأعين** هذا موصول بقوله: لا يخفى على الله منهم شيء وهو يعلم **خائنة الأعين**. وقال أهل اللغة:

الخائنة والخيانة واحدة، كقوله: ولا تزال تطلع على خائنة [المائدة: ١٣] . وقال مجاهد:

خائنة الأعين يعني: نظر العين إلى ما نهى الله عنه. وقال مقاتل: الغمزة فيما لا يحل له، والنظرة إلى المعصية. ويقال: النظرة بعد النظرة. وقال قتادة: يعلم **خائنة الأعين** يعني:

يعلم غمزه بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى، وما تخفي الصدور.

[سورة غافر (٤٠) : آية ٢٠]

والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

والله يقضي بالحق أي: يحكم بالحق. ويقال: يأمر بما يجب به الثواب، وينهى عما يجب به العقاب. والذين يدعون من دونه يعني: يعبدون من الآلهة. قرأ نافع، وابن عامر:

تدعون بالتاء على معنى المخاطبة. والباقون، بالياء على معنى الخبر عنهم.

لا يقضون بشيء يعني: ليس لهم قدرة، ولا يحكمون بشيء، إن الله هو السميع البصير يعني: السميع لمقالة الكفار البصير بأعمالهم.." (١)

"﴿كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو﴾ الحناجر [كاظمين]) قال قتادة: ترتفع القلوب من الصدور

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ٢٠١/٣

إلى الحلوق، وتلتصق بها من الخوف والفزع، فلا هي ترجع من أماكنها، ولا هي تخرج.

وقوله: ﴿كاظمين﴾ الكاظم هو الممسك على قلبه بما فيه. وقيل: مغمومين مكروبين. ويقال: باكين. ومن هذا كظم الغيظ إذا أمسكه (وصبر) عليه.

وقوله: ﴿وما للظالمين من حميم ولا شفيع﴾ الحميم: القريب. والشفيع: الذي يدعو فيجاب. وعن الحسن البصري أنه قال: استكثروا من أصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة عند الله تعالى.

وقوله: ﴿يطاع﴾ أي: يجاب.." (١)

"وقوله: ﴿يعلم **خائنة الأعين**. أي: خيانة الأعين وخيانة الأعين مسارعة النظر إلى ما لا يحل.

قال ابن عباس: هو الرجل يكون بين الرجال، فتمر بهم امرأة فينظر إليها، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره. قال السدى: **خائنة الأعين** هو الرص بالعين.

وقوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾ هو شهوة القلب. وقيل: هو أنه لو قدر عليها هل يزني أو لا؟

وعن السدى قال: هو وسوسة القلب. وعن بعضهم قال (خيانة العين) أن يقول: رأيت ولم ير، وخيانة القلب هو أن يقول: علمت ولم يعلم.." (٢)

"إن الحق سبحانه يكشف فعل الماكرين من أهل الكتاب الذين أرادوا إعلان الإيمان أول النهار كلون من «هدى النفس» لكنه من صميم الضلال والإضلال وذريعة له، ولم يكن هدى من الله؛ لأن هدى الله إنما يوصل الإنسان إلى الغاية التي يريدها الله، وهؤلاء البعض من أهل الكتاب أرادوا بالخديعة أن يجعلوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أتباع يؤمنون بالإسلام؛ لقد تواصي هؤلاء القوم من أهل الكتاب بأن يكتموا اتفاقهم على تمثيل الادعاء بالإيمان وجه النهار والكفر به في آخره، وألا يعلنوا ذلك إلا لأهل ديانتهم حتى لا يفقد المكر هدفه، وهو بلبلة المسلمين.

لقد أخذهم الخوف؛ لأن الناس إن أخذوا بدين محمد صلى الله عليه وسلم لأوتوا مثلما أوتي أهل الكتاب من معرفة بالمنهج، بل إن المنهج الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج الخاتم، وأهل المكر من أهل الكتاب إنما أرادوا أن يحرموا الناس من الإيمان، أو أنهم خافوا أن يدخل المسلمون معهم في المحاجة في أمر الإيمان، وكان كل ذلك من قلة الفطنة التي تصل إلى حد الغباء.

لماذا؟ لأنهم توهموا أن الله لا يعرف باطن ما كتموا وظاهر ما فعلوا، إنهم تناسوا أن الحق يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، وتطابق ذلك مع سابق فعلهم عندما خرجوا من مصر، وذهبوا إلى التيه أثناء عبور الصحراء، وادعوا أن الله قال لموسى عليه السلام: «علموا بيوتكم أيها الإسرائيليون، لأني سأنزل وأبطش بالبلاد كلها» . وكأنهم لو لم يضعوا العلامات على البيوت فلن يعرفها الله، إنه كلام خائب للغاية بل هو منتهى الخيبة والضلال، ويبلغ الحق رسوله الكريم: ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشآء والله واسع عليم﴾ .

---

(١) تفسير السمعاني السمعاني، أبو المظفر ١٣/٥

(٢) تفسير السمعاني السمعاني، أبو المظفر ١٣/٥

وما دام الفضل بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أن تأخذوا أناسا كما تودون، وبعد ذلك تريدون أن تخدعوهم؛ لأن الفضل حين يؤتيه الله لمن آمن به فلن ينزعه إلا الله.

فالحيلة لن تنزع فضل الإيمان بالله مادام قد أعطاه الله، والله واسع بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكل الخلق، ولن ينقص ذلك من فضله شيئا، والحق سبحانه عليم بمن يستحق هذا الفضل لأن قلبه مشغول بربه.." (١)

"والحق سبحانه وتعالى يؤرخ للإيمان تأريخا صادقا أمينا، فالقرآن لم يتحامل على أهل الكتاب لأنهم عاندوا رسول الله وواجهوا دعوته وصنعوا معه كل ما يمكن أن يحبط الدعوة ويقضي عليها.

إن القرآن يقول: في شأن بعض منهم منصفا لهم: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ وهذا اسمه – كما قلنا – صيانة الاحتمال. فساعة يقول الحق: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ ، ساعة ينزل هذا الكلام، فيسمعه بعض من أهل الكتاب الذين انشغلوا في أعماقهم بتصديق الرسول، ويعرضون قضية الإيمان على نفوسهم، فإذا ما كانوا كذلك ماذا يكون موقفهم وهم الذين يفكرون في أمر الإيمان بما جاء به محمد؟ إنهم عندئذ يقولون لأنفسهم: هذه مسألة في أعماقنا، فمن الذي أطلع محمدا عليها؟ إن ذلك دليل على أن محمدا لا ينطق عن الهوى، وأن الله يعلمه بما في نفوسنا مما لم يبرز إلى حيز الوجود، وما دام الحق يخبره بما لم يخرج إلى حيز الوجود فلابد أنه صادق. فإن كانت الآية قد قيلت بعد أن آمنوا فلن يكون لها هذا الوقع.

إذن فلابد أن هذا القول تبشير بأن كثيرا من أهل الكتاب يفكرون في تصديق الرسول الله في البلاغ من الله، وهم بصدد أن يؤمنوا. فقول الله ذلك يجعل العملية الإيمانية في نفوسهم مصدقة، لأنهم يقولون: إن الرسول الذي يقول ذلك هو مبلغ عن إله يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور.

ويقول الحق من بعد ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا ... ﴾ .." (٢)

"أن لهم إلها؟ لو كان لهم إله لبصرهم بما في نفوسنا. ونجد هذا الفضح لهم عندما يقول الحق: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ [المجادلة: ٨] .

وعدم تعذيب الحق له وقت كفرهم له فائدة ورحمة سديركونها فيما بعد. فمن هؤلاء من سيكون سيفا للإسلام بعد أن كان سيفا على الإسلام؛ فقد ادخرهم الله ليكون بعض منهم سيفا للإسلام، فها هو ذا ابن الوليد يهتدي، وها هو ذا عمرو بن العاص، وها هو ذا عكرمة بن أبي جهل، هؤلاء سيكونون سيوفا للإسلام، ولا يظنن منهم أحد أنه ستر مكنون نفسه عن الله: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ [المجادلة: ٨] .

هذا القول قد أدى أمرين:

الأمر الأول: وضح أن هناك ربا مطلعا على **خائنة الأعين** وخفايا الصدور. والأمر الثاني: أوضح أن الله لم يعذبهم لأن منهم من سيمس الإيمان قلوبهم وسيكونون سيوفا للإسلام وسيخرج من ذريتهم قادة يحملون الدعوة لله. ولذلك نجد النبي صلى

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ١٥٤١/٣

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ١٩٧٠/٤

الله عليه وسلم وقد جاء جبريل وقال له: «إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد: إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك ليأمرني بأمرك مما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا» .

وقد حدث ذلك. إن أسلوب معاملة المنافقين يحدده الله في هذه الآية بما يلي: هم قوم الكفر يسكن القلب منهم ومظهرهم يدعي الإسلام ويتمنون أن يكون." (١)

"والآكلات أكلا والهاضمات هضما» .

وطبعا كان هذا الكلام لونا من هراء فارغ؛ لأن الحق إنما أنزل كلامه موزونا جاذبا لمعان لها قيمتها في الخبر، ولذلك نزل القول الحق: ﴿أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء﴾ ، «وقد جاء واحد هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي وكان أخا لسيدنا عثمان من الرضاعة وكان كاتبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد في حضرة النبي. فنزلت الآية: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] .

وانبهر بالأطوار التي خلق فيها الحق الإنسان فقال: ﴿تبارك الله أحسن الخالقين﴾ . فقال له رسول الله: اكتبها فقد نزلت. واغتر الرجل وقال: إن كان محمد صادقا لقد أوحى إلي كما أوحي إليه؛ وإن كاذبا لقد قلت كما قال: فأهدر رسول الله دمه. وقال لصحابته: من رآه فليقتله. وفي عام الفتح جاء به عثمان رضي الله عنه، وقال: يا رسول الله، اعف عن عبد الله، فسكت رسول الله. قال عثمان رضي الله عنه: اعف عنه. فسكت رسول الله. وكررها ثالثا: اعف عنه يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم.

وكان لسيدنا عثمان منزلة خاصة عند رسول الله، وأشار الرسول لسيدنا عثمان بن عفان، فأخذ الرجل وانصرف، فلما انصرف قال الرسول لصحابته: ألم أقل لكم من رآه فليقتله؟ قال سيدنا عباد بن بشر: يا رسول الله لقد جعلت إليك بصري - أي وجهت عيني لك - لتشير علي بقتله، فقال رسول الله لعباد بن بشر:» ما ينبغي لرسول أن تكون له **خائنة الأعين** «وأسلم ابن أبي سرح وحسن إسلامه» .." (٢)

"وساعة ترى «هو» هذه فاعرف أنها ترد وتجيب على ما يمكن أن يقال، فهناك من يقول: أنا سوف أرى تصرفات فلان، ولأنك من البشر فمهما علمت عنه فأنت محدود الإدارك؛ لأنك سترى تصرفات فقط، ولن ترى انفعالات قلبه وتقلبات عقله، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم؛ لأن الميزان كله عنده، إنه يدرك الظاهر والباطن، وهو سبحانه يقول هنا: «أعلم» وهناك «عليم» ، و «العليم» هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به، لا الخافي منه، أما الذي يرى الظاهر والخفي فهو أعلم.

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٢٥٣٢/٤

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ٣٧٩٦/٦

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم في مسائل كثيرة يعامل الناس بعلانيتهم، ويترك سرائرهم إلى الله. «وعندما قتل مسلم رجلا أعلن الإسلام، سأله صلى الله عليه وسلم لماذا؟ ، قال: لأنه أعلن الإسلام نفاقا. فقال صلى الله عليه وسلم : أشققت عن قلبه؟ ﴾»

وسبحانه وتعالى «أعلم» ؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ويقول الحق:

﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين." (١)

"وهذه قمة الصدق في البلاغ عن الله، وكان اجتهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم محصورا في الأمور التي لم يصدر فيها حكم من الله، وكان في ذلك أسوة حسنة لنا لنتجرأ ونجتهد.

«وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن فقال: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: أجتهد رأيي لا آلو. قال: وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

والحق سبحانه وتعالى خير الحاكمين؛ لأنه الشاهد الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية، ولا هوى له، وهو الذي يصدر الحكم بمطلق عدله وبفضله، وهو القادر على إنفاذ ما يحكم به، ولا توجد قوة تجير عليه، ولا يوجد حاكم بقادر." (٢)

"وانصرف، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته:» أما كان فيكم من يجهز عليه؟ «فقالوا: يا رسول الله لو أومأت لنا برأسك؟ يعني: أشرت إلينا بهذا، انظر هنا إلى منطق النبوة، قال صلى الله عليه وسلم :» لا ينبغي أن يكون لنبي خائنة الأعين «يعني: هذا تصرف لا يليق بالأنبياء، فلو فعلتموها من أنفسكم كان لا بأس.

ثم بعد ذلك تحل بركة عثمان على ابن أبي السرح فيؤمن ويحسن إسلامه، ثم يولي مصر، ويقود الفتوحات في إفريقيا، ويتغلب على الضجة التي أثاروها في بلاد النوبة، وكأن الله تعالى كان يدخره لهذا الأمر الهام.

وبعد هذه العجائب التي رأيناها في مراحل خلق الإنسان وخروجه إلى الحياة والإقرار لله تعالى بأنه أحسن الخالقين، يذكرنا سبحانه بأن هذه الحياة لن تدوم، فيقول تبارك وتعالى: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ .." (٣)

"رسول الله حتى أنه استحي من عثمان فأمن عبد الله، فلما أمنه أخذه عثمان وانصرف من مجلس رسول الله.

فقال رسول الله لصحابته: «ألم يكن فيكم رجل رشيد يقوم إليه فيقتله؟» يعني: قبل أن يكلمه عثمان فيكون قد سبق السيف العذل كما يقولون، فقام عبد الله بن بشر وقال: يا رسول الله، لقد كانت عيني في عينك، أنتظر إشارة منك لأقتله،

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ٣٨٩٧/٧

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ٦٢٧٢/١٠

(٣) تفسير الشعراوي الشعراوي ٩٩٨٣/١٦

لكنك لم تفعل، فقال سيدنا رسول الله – انظر إلى العظمة «ما كان لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**» .

أذكر أنه كان لنا أستاذ، هو سيدنا الشيخ موسى شريف رحمه الله ورضي الله عنه، وكان رجلا له مدد من الله، وقد فسر لنا هذه الآية، وكنا نذاكر دروسنا قبل أن نحضر درسه، وكان يصطفيني من بين إخواني الموجودين أمثال الشيخ حسن جاد، والدكتور خفاجة وأبي العينين وغيرهم، ليسألني عن مذاكرتنا وما وقف أمامنا من قضايا، فناداني وكان قد علم من أبي اسم أمي، فناداني بها فتقدمت إليه، فضربني على قفاي ضربة انحلت معها القضية التي كانت تقف أمامنا، تماما كما تضرب الذي يعاني من (الزغطة) ضربة على ظهره فتذهب.

ولما حدثنا الشيخ عن قصة سيدنا عثمان هذه جاء في اليوم التالي وقال: يا أولاد، رأينا الليلة سيدنا عثمان بحيائه، فقلت له:." (١)

"وقوله: (لا ظلم اليوم) يقول: لا بخس على أحد فيما استوجبه من أجر عمله في الدنيا، فينقص منه إن كان محسنا، ولا حمل على مسيء إثم ذنب لم يعمله فيعاقب عليه (إن الله سريع الحساب) يقول: إن الله ذو سرعة في محاسبة عباده يومئذ على أعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ ذكر أن ذلك اليوم لا ينتصف حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، وقد فرغ من حسابهم، والقضاء بينهم.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه: وأنذر يا محمد مشركي قومك يوم الآزفة، يعنى يوم القيامة، أن يوافوا الله فيه بأعمالهم الخبيثة، فيستحقوا من الله عقابه الأليم.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

* ذكر من قال ذلك:

حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعا عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قول الله: (يوم الآزفة) قال: يوم القيامة.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (وأنذرهم يوم الآزفة) يوم القيامة.

حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدي (وأنذرهم." (٢)

"وقوله: (ما للظالمين من حميم ولا شفيع) يقول جل ثناؤه: ما للكافرين بالله يومئذ من حميم يحم (١) لهم، فيدفع عنهم عظيم ما نزل بهم من عذاب الله، ولا شفيع يشفع لهم عند ربهم فيطاع فيما شفع، ويجاب فيما سأل.

وبنحو الذي قلنا فى ذلك قال أهل التأويل.

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ١٢٠٤٥/١٩

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر الطبري، أبو جعفر ٣٦٧/٢١

* ذكر من قال ذلك:

حدثنا محمد، قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط، عن السدي (ما للظالمين من حميم ولا شفيع) قال: من يعنيه أمرهم، ولا شفيع لهم. وقوله: (يطاع) صلة للشفيع. ومعنى الكلام: ما للظالمين من حميم ولا شفيع إذا شفع أطيع فيما شفع، فأجيب وقبلت شفاعته له.

وقوله: (يعلم **خائنة الأعين**) يقول جل ذكره مخبرا عن صفة نفسه: يعلم ربكم ما خانت أعين عباده، وما أخفته صدورهم، يعني: وما أضمرته قلوبهم؛ يقول: لا يخفى عليه شيء من أمورهم حتى ما يحدث به نفسه، ويضمره قلبه إذا نظر ماذا يريد بنظره، وما ينوي ذلك بقلبه (والله يقضي بالحق) يقول: والله تعالى ذكره يقضي في الذي خانته الأعين بنظرها، وأخفته الصدور عند نظر العيون بالحق، فيجزي الذين أغمضوا أبصارهم، وصرفوها عن محارمه حذار الموقف بين يديه، ومسألته عنه بالحسنى، والذين رددوا النظر، وعزمت قلوبهم على مواقعة الفواحش إذا قدرت، جزاءها.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

* ذكر من قال ذلك:

حدثني عبد الله بن أحمد المروزي، قال: ثنا علي بن حسين بن واقد قال: ثني أبي، قال: ثنا الأعمش، قال: ثنا سعيد بن جبير، عن ابن عباس

---

(١) في اللسان: حمنى: الأمر وأحمني: أهمني. وقال الأزهري: أحمني هذا الأمر واحتممت له، كأنه اهتمام بحميم قريب.."
(١)

"(يعلم **خائنة الأعين**) إذا نظرت إليها تريد الخيانة أم لا (وما تخفي الصدور) إذا قدرت عليها أتزني بها أم لا؟ قال: ثم سكت، ثم قال: ألا أخبركم بالتي تليها؟ قلت نعم، قال: (والله يقضي بالحق) قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة (إن الله هو السميع البصير) قال الحسن: فقلت للأعمش: حدثني الكلبي، إلا أنه قال: إن الله قادر على أن يجزي بالسيئة السيئة، وبالحسنة عشرا. وقال الأعمش: إن الذي عند الكلبي عندي، ما خرج مني إلا بحقير.

حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء جميعا، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد (يعلم **خائنة الأعين**) قال: نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: (**خائنة الأعين**) : أي يعلم همزه بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله ولا يرضاه.

وقوله: (والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء) يقول: والأوثان والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون بالله من قومك من دونه لا يقضون بشيء، لأنها لا تعلم شيئا، ولا تقدر على شيء، يقول جل ثناؤه لهم: فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فيجزي محسنكم بالإحسان، والمسيء بالإساءة، لا ما لا يقدر على شيء ولا يعلم

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر الطبري، أبو جعفر ٢١/٣٦٩

شيئا، فيعرف المحسن من المسيء، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء.

وقوله: (إن الله هو السميع البصير) يقول: إن الله هو السميع لما تنطق به ألسنتكم أيها الناس، البصير بما تفعلون من الأفعال، محيط بكل ذلك محصيه عليكم، ليجازي جميعكم جزاءه يوم الجزاء.

واختلفت القراء في قراءة قوله: (والذين يدعون من دونه) فقرأ ذلك عامة قراء المدينة:"والذين تدعون من دونه" بالتاء على وجه الخطاب. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة بالياء على وجه الخبر.." (١)

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾ [غافر: ١٩] يقول تعالى ذكره لنبيه: وأنذر يا محمد مشركي قومك يوم الآزفة، يعني يوم القيامة، أن يوافوا الله فيه بأعمالهم الخبيثة، فيستحقوا من الله عقابه الأليم وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل." (٢)

"ﷺوقوله: ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ [غافر: ١٩] يقول جل ذكره مخبرا عن صفة نفسه: يعلم ربكم ما خانت أعين عباده، وما أخفته صدورهم، يعني: وما أضمرته قلوبهم؛ يقول: لا يخفى عليه شيء من أمورهم حتى ما يحدث به نفسه، ويضمره قلبه إذا نظر ماذا يريد بنظره، وما ينوي ذلك بقلبه ﴿والله يقضي بالحق﴾ [غافر: ٢٠] يقول: والله تعالى ذكره يقضي في الذي خانته الأعين بنظرها، وأخفته الصدور عند نظر العيون بالحق، فيجزي الذين أغمضوا أبصارهم، وصرفوها عن محارمه حذار الموقف بين يديه، ومسألته عنه بالحسنى، والذين رددوا النظر، وعزمت قلوبهم على مواقعة الفواحش إذا قدرت، جزاءها وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل." (٣)

"حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء، جميعا عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، ﴿ﷺيعلم **خائنة الأعين**﴾ [غافر: ١٩] قال: «نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه»." (٤)

"حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿**خائنة الأعين**﴾ [غافر: ١٩] «ﷺأي يعلم همزه بعينه، وإغماضه فيما لا يحب الله ولا يرضاه»." (٥)

"الباقي؟ قال: باقي التاريخ، قل: في اليوم الفلاني. أنت الآن ذكرت المكان، وذكرت العمل، فاذكر التاريخ قل: في اليوم الفلاني، من الشهر الفلاني، من السنة الفلانية. فانتبه الرجل فقال: هل أنت تعلم ربك بنيتك؟ الله أعلم بنيتك ﴿يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور﴾ وعند الصيام مثلا إذا تسحر الإنسان وأراد أن يصوم فإنه لا يقول: اللهم إني نويت الصيام من الليل؟ لأن هذا من البدع، بقي أن يقال في الحج هل تقول: اللهم إني نويت العمرة، أو نويت الحج، أو نية

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر الطبري، أبو جعفر ٣٧٠/٢١

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٠٠/٢٠

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٠٣/٢٠

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٠٤/٢٠

(٥) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٣٠٤/٢٠

القران أو التمتع؟ لا تقل هذا، حتى عندما تغتسل وتلبس الإحرام، لا تقل: اللهم إني نويت العمرة أو نويت الحج، تكفي التلبية لأنك سوف تقول: لبيك عمرة، إن كنت في عمرة، أو لبيك حجا، إن كنت في حج، أو لبيك عمرة وحجا، إن كنت قارنا، فلا حاجة إلى التلفظ بالنية فكل العبادات لا ينطق فيها بالنية، ولهذا قال عز وجل: ﴿هو أعلم بمن اتقى﴾ .

﴿أفرأيت الذي تولى﴾ الخطاب في قوله: ﴿أفرأيت﴾ للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ويجوز أن يراد به كل من يتوجه إليه الخطاب، فيكون المعنى على الأول: أفرأيت يا محمد، وعلى القول الثاني: أفرأيت أنت أيها المخاطب أي أخبرني وكلما جاءت (أرأيت) في القرآن فهي بمعنى أخبرني ﴿الذي تولى﴾ ، أي: عن طاعة الله – عز وجل – وعن الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعن إقامة شعائر الإسلام، ﴿وأعطى قليلا وأكدى﴾ يعني أحيانا يعطي، وإذا أعطى قليلا، وأحيانا." (١)

"١٩ – ﴿**خائنة الأعين**﴾ الرمز بالعين، أو النظرة [١٦٨ / أ] / بعد النظرة أو مسارقة النظر " ع " أو النظر إلى ما نهي عنه، أو قوله رأيت وما رأى، أو ما رأيت وقد رأى سماها خائنة لخفائها كالخيانة، أو لأن استراق نظر المحظور خيانة. ﴿وما تخفى الصدور﴾ الوسوسة، أو ما تضمره إذا قدرت عليها تزني بها أم لا." (٢)

"١٦ – ﴿بارزون﴾ من قبورهم ﴿لا يخفى على الله﴾ من أعمالهم شيء أو أبرزهم جميعا لأنه لا يخفى عليه شيء من خلقه ﴿لمن الملك اليوم﴾ يقوله الله – تعالى – بين النفختين إذا لم يبق سواه فيجيب نفسه فيقول ﴿لله الواحد القهار﴾ لأنه بقي وحده وقهر خلقه، أو يقوله الله في القيامة والخلائق سكوت فيجيب نفسه، أو تجيبه الخلائق كلهم مؤمنهم وكافرهم فيقولون: لله الواحد القهار. قاله ابن جريج.

﴿وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾." (٣)

"لأعمالهم، مطلع عليها، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور. ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر، جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج. فإن الحوادث مبدؤها من النظر. كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر. ثم تكون نظرة، ثم تكون خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة. ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه:

اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات. فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة. ويلازم الرباط على ثغورها. فمنها يدخل عليه العدو، فيجوس خلال الديار ويتبروا ما علوا تبيرا.

الثاني– روي عن الإمام أحمد أنه قال: لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنى.

واحتج

بحديث عبد الله «١» بن مسعود أنه قال: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال:

---

(١) تفسير العثيمين: الحجرات – الحديد ابن عثيمين ص/٢٣٩

(٢) تفسير العز بن عبد السلام ابن عبد السلام ١١٢/٣

(٣) تفسير العز بن عبد السلام ابن عبد السلام ١١٢/٣

أن تجعل لله ندا وهو خلقك قال قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قال قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك

. والنبي صلى الله عليه وسلم ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل. فإنه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعه وما هو أعظم كل نوع، فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله ندا.

وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه. وأعظم أنواع الزنى أن يزني بحليلة جاره. فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق. فالزنى بالمرأة التي لها زوج، أعظم إثما وعقوبة من الزنى بالتي لا زوج لها إذا فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه، وتعليق نسب عليه، لم يكن منه، وغير ذلك من أنواع أذاه. فهو أعظم إثما وجرما من الزنى بغير ذات الزوج فإذا كان زوجها جارا له، انضاف إلى ذلك سوء الجوار، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى. وذلك من أعظم البوائق.

وقد ثبت عن النبي «٢» صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه.

ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته

. فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار. فإن كان الجار أخا له، أو قريبا من أقاربه، انضم إلى ذلك قطيعة الرحم، فيتضاعف الإثم. فإن كان الجار غائبا في طاعة الله، كالصلاة وطلب العلم والجهاد، تضاعف الإثم. فإن اتفق أن تكون المرأة رحما منه، انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها.

---

(١) أخرجه البخاري في: تفسير القرآن، ٢- سورة البقرة، ٣- باب قوله تعالى: فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون، حديث ١٩٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في: الأدب، ٣٩- باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث قم ٢٣٢٦، عن أبي شريح. [.....]."[١]

"عليه وسلم الدنيوية: ولا يجوز عليه صلى الله عليه وسلم أن يأمر أحدا بشيء أو ينهى أحدا عن شيء، وهو يبطن خلافه

وقد قال عليه السلام «١» : «ما كان لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**، فكيف أن تكون له خائنة قلب؟» .

فإن قلت: فما معنى قوله في قصة زيد وإذ تقول للذي أنعم الله عليه الآية. فاعلم أكرمك الله ولا تسترب في تنزيه النبي عليه السلام عن هذا الظاهر، وأن يأمر زيدا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها، ذكر عن جماعة من المفسرين. وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن حسين. أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه. فلما شكاها إليه زيد،

قال له النبي صلى الله عليه وسلم: أمسك عليك زوجك واتق الله

، وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها.

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٢٨٢/٧

وروى نحوه عمر بن قائد عن الزهري قال: نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش. فذلك الذي أخفى في نفسه، ويصحح هذا قول المفسرين في قوله بعد هذا وكان أمر الله مفعولا أي لا بد لك أن تتزوجها. ويوضح هذا أن الله تعالى لم يبد من أمره معها غير زواجه لها. فدل أنه الذي أخفاه عليه السلام، مما كان أعلمه به تعالى، وقوله تعالى في القصة ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له دل على أنه لم يكن عليه حرج في الأمر. ولو كان على ما قيل من وقوعها في قلبه، ومحبة طلاق زيد لها،. لكان فيه أعظم الحرج.

وكيف يقال: رآها فأعجبته وهي بنت عمته. ولم يزل يراها منذ ولدت. ولا كان النساء يحتجبن منه عليه السلام، وهو زوجها لزيد، وإنما جعل الله طلاق زيد لها وتزويج النبي صلى الله عليه وسلم إياها، لإزالة حرمة التبني وإبطال سببه. كما قال ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، وقال: لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم قال ابن فورك: وليس معنى الخشية هنا الخوف. وإنما معناه الاستحياء. أي يستحي منهم أن يقولوا تزوج زوجة ابنه. وأن خشيته عليه السلام من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء، كما كان. فعتبه الله تعالى على هذا، أو نزهه عن الالتفات إليهم فيما أحله له. كما عتبة على مراعاة رضا أزواجه في سورة التحريم بقوله: لم تحرم ما أحل الله لك [التحريم: ١] ، الآية. كذلك قوله هاهنا. انتهى ملخصا.

الثالث- قال الإمام ابن حزم في (الفصل) يرد على من استدل بمثل هذه الآية

---

(١) أخرجه أبو داود في: الحدود، ١- باب الحكم فيمن ارتد، حديث ٤٣٥٩.." (١)

"القول في تأويل قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٦ الى ١٧]

يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧)

يوم هم بارزون أي من قبورهم. أو ظاهرون لا يسترهم شيء من جبل أو بناء لا يخفى على الله منهم شيء أي من أعمالهم وأعيانهم وأحوالهم. وقوله لمن الملك اليوم ينادي به الحق سبحانه، عند فناء الكل. أو وقت التلاقي والبروز.

فيجيب هو وحده لله الواحد أي المتفرد بالملك القهار أي الذي قهر بالغلبة كل ما سواه اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب أي بإيصال ما يستحق كل منهم إليه، من تبعات سيئاته وثمرات حسناته.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠) : آية ١٨]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨)

وأنذرهم يوم الآزفة أي الواقعة القريبة إذ القلوب لدى الحناجر أي من أهواله ترتفع القلوب عن مقارها. فتصير لدى الحلوق كاظمين أي ممتلئين غما، بما أفرطوا من الظلم ما للظالمين من حميم أي قريب يهتم لشأنهم، فيخفف عنهم غمومهم ولا

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٨٢/٨

شفيع يطاع أي من يشفع في تخفيفها عنهم. إذ لا تقبل شفاعة فيهم.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٩ الى ٢٥]

يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣)

إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥)." (١)

"يعلم **خائنة الأعين** أي نظراتها الخائنة. وهي الممتدة إلى ما لا يحل وما تخفي الصدور أي تكنه من الضمائر والأسرار والله يقضي بالحق أي بالعدل والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء أي لأنهم لا يقدرون على شيء إن الله هو السميع البصير أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض يعني حصونهم وقصورهم وعددهم فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق أي بآيات نبوته من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم أي: قالوا أعيدوا عليهم القتل، كالذي كان أولا. واستبقوا نسائهم للخدمة وما كيد الكافرين إلا في ضلال أي: وما مكرهم في دفع ما أراد الله من ظهور دينه، إلا في ضياع. إذ هو كالغثاء الذي يقذفه تيار الحق.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠) : آية ٢٦]

وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦)

وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه، إني أخاف أن يبدل دينكم أي ما أنتم عليه من عبادة الأصنام أو أن يظهر في الأرض الفساد أي فساد مملكتي. إذ يتفق الكل على متابعته وإجراء أحكامه.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠) : آية ٢٧]

وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب (٢٧)

وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب أي التجأت إليه وتوكلت عليه، فهو ناصر دينه ومعز أهله.

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٨/٣٠٥

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة غافر (٤٠) : آية ٢٨]

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨)." (١)

"﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ قال مجاهد: يعني: نظر العين إلى ما نهى عنه.

قال محمد: الخائنة والخيانة واحد.." (٢)

"أحدها: أن تجعل لنا الصفا ذهبا. والثاني: ما ذكره الله في آخر: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا﴾ إلى قوله: ﴿كتابا نقرؤه﴾ فأمر الله نبيه حين أقسموا له أن يقول لهم ﴿قل إنما الأيات عند الله﴾. والثالث: أنه لما نزل قوله تعالى في الشعراء: ﴿إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ قال المشركون: أنزلها علينا حتى نؤمن بها إن كنت من الصادقين ، فقال المؤمنون: يا رسول الله أنزلها عليهم ليؤمنوا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، قاله الكلبي: وليس يجب على الله إجابتهم إلى اقتراحهم لا سيما إذا علم أنهم لا يؤمنون بها ، واختلف في وجوبها عليه إذا علم إيمانهم بها على قولين وقد أخبر أنهم لا يؤمنون بقوله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾. ثم قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وهذا من الله عقوبة لهم ، وفيها ثلاثة أقاويل: أحدها: أنها عقوبة من الله في الآخرة يقلبها في النار. والثاني: في الدنيا بالحيرة حتى يزعج النفس ويغمها. والثالث: معناه أننا نحيط بذات الصدور **وخائنة الأعين** منهم. وفي قوله: ﴿أول مرة﴾ تأويلان: أحدهما: أول مرة جاءتهم الآيات. والثاني: أن الأول أحوالهم في الدنيا كلها ، ثم أكد الله تعالى حال عنتهم.." (٣)

"﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير﴾ قوله عز وجل: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ فيه قولان: أحدهما: يوم حضور المنية ، قاله قطرب. الثاني: يوم القيامة وسميت الآزفة لدنوها ، وكل آزف دان ، ومنه قوله تعالى ﴿أزفت الآزفة﴾ [النجم: ٥٧] أي دنت القيامة. ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ فيه قولان: أحدهما: أن القلوب هي النفوس بلغت الحناجر عند حضور المنية ، وهذا قول من تأول يوم الآزفة بحضور المنية ، قاله قتادة. ووقفت في الحناجر من الخوف فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها. ﴿كاظمين﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها: مغمومون قاله الكلبي. الثاني: باكون ، قاله ابن جريج. الثالث: ممسكون بحناجرهم ، ماخوذ من كظم القربة وهو شد رأسها. الرابع: ساكتون ، قاله قطرب ، وأنشد قول الشماخ:

(فظلت كأن الطير فوق رؤوسها ... صيام تنائي الشمس وهي كظوم)

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣٠٦/٨

(٢) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين ابن أبي زَمَنِين ١٣٠/٤

(٣) تفسير الماوردي = النكت والعيون الماوردي ١٥٦/٢

﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ في الحميم قولان: أحدهما: انه القريب ، قاله الحسن. الثاني: الشفيق ، قاله مجاهد ، ومعنى الكلام: ما لهم من حميم ينفع ولا شفيع يطاع أي يجاب إلى الشفاعة ، وسميت الإجابة طاعة لموافقتها إرادة المجاب. قوله عز وجل: ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ فيه خمسة أوجه:." (١)

"أحدها: أنه الرمز بالعين ، قاله السدي. الثاني: هي النظرة بعد النظرة ، قاله سفيان. الثالث: مسارقة النظر ، قاله ابن عباس. الرابع: النظر إلى ما نهى عنه ، قاله مجاهد. الخامس: هو قول الإنسان ما رأيت وقد رأى ، أو رأيت وما رأى ، قاله الضحاك. وفي تسميتها **خائنة الأعين** وجهان: أحدهما: لأنها أخفى الإشارات فصارت بالاستخفاء كالخيانة. الثاني: لأنها باستراق النظر إلى المحظور خيانة. ﴿وما تخفي الصدور﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: الوسوسة ، قاله السدي. الثاني: ما تضمره [عندما ترى امرأة] إذا أنت قدرت عليها أتزني بها أم لا ، قاله ابن عباس. الثالث: ما يسره الإنسان من أمانة أو خيانة ، وعبر عن القلوب بالصدور لأنها مواضع القلوب.." (٢)

"أن يتكلموا بما لا ينبغى أن يقال ثم يأتوهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالأيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم.

وفى كثرة الاعتذار والحلف للمؤمنين فى كل ما يعلمون أنهم متهمون به من قول أو فعل ليرضوهم فلا يخبروا الرسول صلى الله عليه وسلم- دليل على أنهم شعروا بظهور نفاقهم وافتضاح أمرهم.

(والله ورسوله أحق أن يرضوه) أي والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين، فإن المؤمنين قد يصدقونهم فيما يحلفون عليه إذا لم يكن كذبهم فيه ظاهرا معلوما باليقين، ولكن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ويعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور، فيوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من أمور الغيب ما فيه المصلحة للمؤمنين.

وفى التعبير بيرضوه دون يرضوهما إشعار بأن إرضاء رسوله هو عين إرضائه تعالى، لأنه إرضاء له فى اتباع ما أرسله به.

(إن كانوا مؤمنين) أي إن كانوا مؤمنين كما يدعون ويحلفون- فليرضوا الله ورسوله وإلا كانوا كاذبين.

وفى الآية عبرة للمنافقين فى زماننا وفى كل زمان، إذ يحلفون حين الحاجة إلى تأكيد أخبارهم فيما يحاولون به إرضاء الناس، وبخاصة الملوك والوزراء الذين يتقربون إليهم فيما لا يرضى ربهم، بل فيما يسخطه بأخس الوسائل وأقذر السبل.

ثم وبخهم على ما أقدموا عليه مع علمهم بوخامة عاقبته بقوله:

(ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها) أي ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الأمر الحق الذي لا شك فيه أن من يحادد الله ورسوله بتعدي حدوده أو يلمز الرسول فى أعماله كقسمة الصدقات، أو فى أخلاقه وشمائله كقولهم هو أذن- فجزاؤه جهنم يصلاها يوم القيامة خالدا فيها أبدا لا مخلص له منها.." (٣)

"حينئذ أظهر، وجاء في الأثر «النظر سهم مسموم من سهام إبليس» وقال الشاعر:

والمرء مادام ذاعين يقلبها ... فى أعين العين موقوف على الخطر

---

(١) تفسير الماوردي = النكت والعيون الماوردي ١٤٩/٥

(٢) تفسير الماوردي = النكت والعيون الماوردي ١٥٠/٥

(٣) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ١٥٠/١٠

يسر مقلته ما ساء مهجته ... لا مرحبا بانتفاع جاء بالضرر

ولما ذكر ما ينبغى من الآداب حين دخول بيت الرسول أكده بما يحملهم على ملاطفته وحسن معاملته بقوله:

(وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) أي وما كان ينبغى لكم أن تفعلوا فى حياته صلى الله عليه وسلم فعلا يتأذى به ويكرهه كاللبث والاستئناس للحديث الذي كنتم تفعلونه، فإن الرسول يسعى لخيركم ومنفعتكم في دنياكم وآخرتكم، فعليكم أن تقابلوا بالحسنى كفاء جليل أعماله.

ولما كان صلى الله عليه وسلم قد قصر عليهن قصرهن الله عليه بقوله:

(ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) أي ولا تنكحوا أزواجه أبدا من بعد مفارقتهن بموت أو طلاق، زيادة في شرفه، وإظهارا لعظمته وجلاله، ولأنهن أمهات المؤمنين، والمرء لا يتزوج أمه.

ثم بين السبب فيما تقدم بقوله:

(إن ذلكم كان عند الله عظيما) أي إن ذلك الإيذاء وزواج نسائه من بعده أمر عظيم، وخطب جلل، لا يقدر قدره غير الله تعالى.

ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد على هذا العمل- إلى ما فيه من تعظيم شأن الرسول وإيجاب حرمته حيا وميتا.

ثم بالغ في الوعيد وزاد في التهديد بقوله:

(إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما) أي إن ما تكنه ضمائركم، وتنطوى عليه سرائركم، فالله يعلمه، إذ لا تخفى عليه خافية «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصي البادية والخافية.

والكلام وإن كان عاما بظاهره فالمقصود ما يتعلق بزوجاته عليه الصلاة والسلام.." (١)

"ما استوجبه من أجر عمله في الدنيا فينقص منه إن كان محسنا، ولا يحمل على مسيء إثم ذنب لم يعمله.

روى مسلم عن أبي ذر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا- إلى أن قال- يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله تبارك وتعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» .

ثم بين سبحانه أنه يصل إلى الخلق في ذلك اليوم ما يستحقون بلا إبطاء فقال:

(إن الله سريع الحساب) أي إن الله سريع حسابه لعباده على أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فيحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفسا نفسا واحدة، لإحاطة علمه بكل شيء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة.

أخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال: «يجمع الله الخلق كلهم يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط، فأول ما يتكلم أن ينادى مناد لمن الملك اليوم- إلى قوله الحساب» .

ونحو الآية قوله: «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة» وقال:

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٣١/٢٢

«وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر» .

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ٢٠]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)." [١]

"تفسير المفردات

يوم الآزفة: يوم القيامة وسميت بذلك لقربها يقال أزف السفر: أي قرب، قال:

أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد

والحناجر: واحدها حنجرة أو حنجور كحلقوم لفظا ومعنى، وهى لحمة بين الرأس والعنق، كاظمين: أي ممسكين أنفسهم على قلوبهم لئلا تخرج، والحميم: القريب، **خائنة الأعين**: يراد بها النظر إلى ما لا يحل، ما تخفى الصدور: أي ما تكتمه الضمائر.

المعنى الجملي

بعد أن ذكر فيما سلف أن الأنبياء ينذرون الناس بيوم التلاقي- أعقب ذلك بذكر أوصاف هائلة تصطك منها المسامع، وتشيب من هولها الولدان لهذا اليوم المهيب.

الإيضاح

(وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) أي وأنذر أيها الرسول مشركى قومك يوم القيامة، ليقلعوا عن قبيح أعمالهم، وذميم معتقداتهم التي يستحقون عليها شديد العذاب، ذلك اليوم الذي يعظم فيه الخوف حتى ليخيل أن القلوب قد شخصت من الصدور، وتعلقت بالحلوق، فيرومون ردها إلى مواضعها من صدورهم، فلا هى ترجع ولا هى تخرج من أبدانهم فيموتوا.

ثم بين أنه لا ينفع الكافرين في ذلك اليوم أحد فقال:

(ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله قريب ينفعهم، ولا شفيع تقبل شفاعته لهم، بل تقطعت بهم الأسباب من كل خير.." [٢]

"ثم وصف سبحانه شمول علمه بكل شيء وإن كان في غاية الخفاء فقال:

(يعلم **خائنة الأعين**) أي يعلم ربكم ما خانت أعين عباده وما نظرت به إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب، قال ابن عباس في الآية: هى الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها، وإذا غضوا نظر إليها، وإذا نظروا

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٢٤/٥٥

(٢) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٢٤/٥٦

غض بصره عنها.
وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها، أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر.
(وما تخفي الصدور) أي لا يخفى عليه شيء من أمورهم حتى ما يحدثون به أنفسهم وتضمره قلوبهم.
(والله يقضي بالحق) أي والله يحكم بالعدل في الذي خانته الأعين بنظرها، وأخفته الصدور من النوايا، فيجزى الذين أغمضوا أبصارهم وصرفوها عن محارمه حذار الموقف بين يديه بالحسنى، ويجزى الذين رددوا النظر، وعزمت قلوبهم على مواقعة الفواحش جزاءهم الذي أوعدهم به في دار الدنيا.
(والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء) أي والأوثان والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون من قومك- لا يقضون بشيء لأنهم لا يعلمون شيئا ولا يقدرون على شيء، فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء، ولا يخفى عليه شيء.
وغير خاف ما في هذا من التهكم بآلهتهم.
(إن الله هو السميع البصير) أي إنه تعالى هو السميع لما تنطق به الألسنة، البصير بما تفعلون من الأفعال، وهو محيط بكل ذلك ومحصيه عليكم، فيجازيكم عليه جميعا يوم الجزاء.
ولا يخفى ما في هذا من الوعيد لهم على ما يقولون ويفعلون، والتعريض بحال ما يدعون من دون الله.." (١)
"(وإن تبدوا ما في أنفسكم) إلى آخر الآية، إذ كتمان الشهادة داخل في عموم ما في النفس فالله يحاسب عليه، فإن شاء عفا عمن أجرم، وإن شاء عاقبه وهو القدير دون سواه على ذلك.

الإيضاح
(لله ما في السماوات وما في الأرض) أي كل ما فيها خلقا وملكا وتصرفا له لا شركة لغيره في شيء منهما فلا يعبد فيهما سواه، ولا يعصى فيما يأمر وينهى، وله أن يلزم من شاء بما شاء من التكاليف.
(وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) أي وإن تظهروا ما في قلوبكم من السوء والعزم عليه بالقول أو بالفعل، أو تكتموه عن الناس ولا تظهروه يجازكم الله به يوم القيامة، لأن الإبداء والإخفاء عنده سيان لأنه «يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور» فالمعول عليه في مرضاته تزكية النفوس وتطهير السرائر لا لوك اللسان، وحركات الأبدان.
والمراد بقوله (ما في أنفسكم) الأشياء التي لها قرار في أنفسكم، وعنها تصدر أعمالكم كالحقد والحسد ونحوهما- ذاك أن الخواطر والهواجس قد تأتي بغير إرادة الإنسان ولا يكون لها أثر في نفسه ولا ينتج منها فعل يكون مترتبا عليها، لكنه إذا استرسل معها حسبت عليه عملا يجازى به، لأنه مشى معها قدما باختياره، وقد كان يستطيع مطاردتها وجهادها، فالمظلوم يذكر ظالمه فيشتغل فكره في دفع ظلمه والهرب من أذاه، وربما استرسل مع خواطره إلى أن تجره إلى تدبير الحيل للإيقاع به، ومقابلة ظلمه بما هو شر منه، فيكون مؤاخذا عليه أبداه أو أخفاه.
وصفة الحسد تبعث في نفس الحاسد خواطر الانتقام من المحسود والسعي في إزالة نعمته، وهذه الخواطر مما يحاسب الحاسد

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٥٧/٢٤

عليها أبداها أو أخفاها- وهكذا يقال في كل أعمال القلب التي أمرنا الشارع بجهادها ومقاومتها، مما هو أثر لأخلاق وملكات وعزائم قوية تنشأ عنها أعمال هى آثار لها، إذا انتفت الموانع وتركت المجاهدة.." (١)

"وبعد أن ذكر سبحانه تصرفه فى الخلق دقيقه وجليله كما يشاء كما هو شأن الربوبية الكاملة، ذكر أنه هو السميع العليم أي المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفيا عن غيره، فهو يسمع دبيب النملة فى الليلة الظلماء، والمحيط علمه بكل شىء «يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور» .

والخلاصة- إنه تعالى لا تدق عن سمعه دعوة داع، أو تعزب عن علمه حاجة محتاج، حتى يخبره بها الأولياء، أو يقنعه بها الشفعاء.

وبعد هذا القول الذي أمر رسوله للتذكير بأنه المالك لكل شيء، والمدبر لكل شيء إذ هو سميع لكل شيء ولا يعزب عن علمه شيء- أمره هنا بقول آخر لازم لما سبق، وهو وجوب ولايته تعالى وحده والتوجه إليه دون سواه فى كل ما هو فوق كسب البشر، والاعتماد على توفيقه فيما هو من كسبهم فقال:

(قل أغير الله أتخذ وليا؟) أي قل لهم: لا أطلب من غيره نفعا ولا ضرا، لا فعلا ولا منعا، فيما هو فوق كسبه وتصرفه الذي منحه الله لأبناء جنسه، أما تناصر المخلوقين وتولى بعضهم بعضا فيما هو من كسبهم العادي، فلا يدخل فى عموم الإنكار الذي يفهم من الآية، فقد أثنى الله على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض.

وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طرأ عليهم الشرك من أهل الكتاب يتخذون معبوداتهم وأنبياءهم وصلحاءهم أولياء من دون الله، يتوجهون إليهم بالدعاء ويستغيثون بهم ويستشفعون بهم عند الله فى قضاء حاجاتهم من نصر على عدو وشفاء من مرض وسعة فى رزق إلى نحو أولئك.

وهذا بلا شك عبادة وشرك بالله لاعتقادهم أن حصول المطلوب من غير أسبابه العادية قد كان بمجموع إرادة هؤلاء الأولياء وإرادة الله.

ويلزم هذا أن إرادة الله ما تعلقت بفعل ذلك المطلب إلا تبعا لإرادة الولي الشافع أو المتخذ وليا وشفيعا.." (٢)

"مثله، وسمى الرجل

المسلم عامر بن قيس من الأنصار. وهذا ليس بحصر، بل المراد أن الآية نزلت في هذا وأمثاله، فإن من عادة المنافقين والكاذبين من عصاة المؤمنين وغيرهم أن يكثروا الحلف ليصدقوا؛ لأنهم لعلمهم بكذبهم يظنون أو يعلمون أنهم متهمون في أقوالهم وأعمالهم، فيحلفون لإزالة التهمة، وهذا معلوم في كل زمان، وقد تقدم في الآية (٤٢) من هذا السياق حلفهم أنهم لو استطاعوا الخروج في غزوة تبوك لخرجوا، والتصريح بعلم الله بكذبهم في حلفهم هذا - وفي الآية (٥٦) منه ويحلفون بالله إنهم لمنكم إلخ. وسيأتي في آية (٧٤) منه مثل هذا الحلف على قول من الكفر قالوه إنهم ما قالوه، وفي آيات ٥٩ و٩٦ و١٠٧ منه نحو من ذلك.

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٣/٨٠

(٢) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٧/٨٨

فقوله تعالى: يحلفون بالله لكم ليرضوكم خطاب للمؤمنين في بعض شئون هؤلاء المنافقين معهم في غزوة تبوك، أخبرهم بأنهم شعروا بما لم يكونوا يشعرون من ظهور نفاقهم، فكثر اعتذارهم وحلفهم للمؤمنين في كل ما يعلمون أنهم متهمون به من قول وعلم؛ ليرضوهم فيطمئنوا لهم، فتنتفي داعية إخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما ينكرون منهم، وقد رد الله تعالى عليهم بقوله: والله ورسوله أحق أن يرضوه أي: والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين؛ فإن المؤمنين قد يصدقونهم فيما يحلفون عليه إذا لم يكن كذبهم فيه ظاهرا معلوما باليقين، ولكن الله لا يخفى عليه شيء، فهو يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، وهو يوحي إلى رسوله من أمور الغيب ما فيه المصلحة.

وكان الظاهر أن يقال: " يرضوهما " ونكتة العدول عنه إلى: (يرضوه) الإعلام بأن إرضاء رسوله من حيث إنه رسوله عين إرضائه تعالى؛ لأنه إرضاء له في اتباع ما أرسله به، وهذا من بلاغة القرآن في الإيجاز، ولو قال: (يرضوهما) لما أفاد هذا المعنى؛ إذ يجوز في نفس العبارة أن يكون إرضاء كل منهما في غير ما يكون به إرضاء الآخر، وهو خلاف المراد هنا، وكذلك لو قيل: " والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه " لا يفيد هذا المعنى أيضا، وفيه ما فيه من الركاكة والتطويل،

وقد خرجه علماء النحو على قواعدهم فقال بعضهم كأبي السعود: إن الضمير المفرد هنا يعود إلى ما فهم مما قبله الذي يفسر باسم الإشارة أو " ما ذكر " كقول رؤبة:

فيها خطوط من سواد وبلق ... كأنه في الجلد توليع البهق

يعني كأن ذلك أو كأن ما ذكر، وهو تخريج ضعيف لا يظهر في المثنى. وقال بعضهم: إن الضمير عائد إلى اسم الجلالة، ويقدر مثله للرسول، وقال بعضهم: إنه للرسول وحده؛ لأن." (١)

"ثعلبة بن حاطب " ودعا للسلمي بالبركة، وأنزل الله: ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن الثلاث الآيات. قال: فسمع بعض من أقارب ثعلبة، فأتى ثعلبة فقال ويحك يا ثعلبة أنزل الله فيك كذا وكذا. قال: فقدم ثعلبة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله هذه صدقة مالي، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن الله تعالى قد منعني أن أقبل منك " قال: فجعل يبكي ويحثي التراب على رأسه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " هذا عملك بنفسك

أمرتك فلم تطعني " فلم يقبل منه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى مضى. ثم أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر اقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلتي من الأنصار، فقال أبو بكر: لم يقبلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقبلها؟ فلم يقبلها أبو بكر. ثم ولي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأتاه فقال: يا أبا حفص يا أمير المؤمنين اقبل مني صدقتي، وتوسل إليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال عمر: لم يقبلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا أبو بكر أقبلها أنا؟ فأبى أن يقبلها. ثم ولي عثمان فهلك في خلافة عثمان وفيه نزلت: الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات (٧٩) قال: وذلك في الصدقة اهـ.

وفي الحديث إشكالات تتعلق بسبب نزول الآيات، وظاهر سياق القرآن أنه كان في سفر غزوة تبوك، وظاهره أنها نزلت

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤٥١/١٠

عقب فرضية الزكاة، والمشهور أنها فرضت في السنة الثانية، وفيه خلاف تقدم في تفسير قسمة الصدقات – وبعدم قبول توبة ثعلبة وظاهر الحديث ولاسيما بكائه أنها توبة صادقة، وكان العمل جاريا على معاملة المنافقين بظواهرهم، وظاهر الآيات أنه يموت على نفاقه، ولا يتوب عن بخله وإعراضه، وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخليفتيه عاملاه بذلك لا بظاهر الشريعة، وهذا لا نظير له في الإسلام.

ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون، ويقولون ما لا يفعلون، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ولمز الرسول، أن الله يعلم سرهم الكامن في أعماق قلوبهم، ونجواهم التي يخصون بها من يثقون بمشاركته إياهم في نفاقهم: وأن الله علام الغيوب كلها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء (٣: ٥) ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (٤٠: ١٩) فهم يكذبون على الله فيما يعاهدونه به وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه. الاستفهام في قوله تعالى: ألم يعلموا للتوبيخ والإنذار، أو للتنبيه القاطع لطريق الاعتذار فإن المنافقين كانوا يؤمنون بوجود الله وعلمه إيمانا إجماليا تقليديا.

وإنما كانوا يرتابون في الرسالة والوحي والبعث، ولكن ما ذكر من عملهم وأيمانهم الكاذبة باسمه هو عمل من." (١)

"فأخبرهم الله – تعالى – بأنه لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يؤاخذها إلا على ما كلفها، فهم مكلفون بتزكية أنفسهم ومجاهدتها بقدر الاستطاعة والطاقة وطلب العفو عما لا طاقة لهم به، كما سيأتي تفصيله، ولا يبعد أن يكون بعضهم قد خاف أن تدخل الوسوسة والشبهة قبل التمكن من دفعها في عموم الآية، فكان ما بعدها مبينا لغلطهم في ذلك، وأما تسمية بعضهم ذلك نسخا فقد أجاب عنه بعض المفسرين: بأنه عبر بالنسخ عن البيان والإيضاح تجوزا. وذلك أن تقول: إن المراد به النسخ اللغوي وهو الإزالة والتحويل لا الاصطلاحي ؛ أي إن الآية الثانية كانت مزيلة لما أخافهم من الأولى أو محولة له إلى وجه آخر، ويحتمل أن يكون الصحابي لم ينطق بلفظ النسخ، وإنما فهمه الراوي من القصة فذكره، وكثيرا ما يروون الأحاديث المرفوعة بالمعنى على أنه ليس من النص المرفوع، ورأي الصحابي ليس بحجة عند الجماهير، لا سيما إذا خالف ظاهره الكتاب، وإنني لا أعتقد صحة سند حديث ولا قول عالم صحابي يخالف ظاهر القرآن، وإن وثقوا رجاله فرب راو يوثق للاغترار بظاهر حاله، وهو سيئ الباطن ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها كما تنتقد من جهة سندها لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض. وقد قالوا: إن من علامة الحديث الموضوع مخالفته لظاهر القرآن أو القواعد المقررة في الشريعة أو للبرهان العقلي أو للحس والعيان وسائر اليقينيات.

أما إبداء ما في النفس فهو إظهاره بالقول أو بالفعل، وأما إخفاؤه فهو ضده والإبداء والإخفاء سيان عند الله – تعالى –؛ لأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [٤٠: ١٩] فالمدار في مرضاته على تزكية النفس وطهارة السريرة لا على لوك اللسان وحركات الأبدان، وأما المحاسبة فهي على ظاهرها وإن فسرها بعض بالعلم، وبعض بالجزاء الذي هو غبها ولازمها، ذلك أن للنفوس في اعتقاداتها وملكاتها وعزائمها وإراداتها موازين يعرف بها يوم الدين رجحان الحق والخير أو الباطل والشر هي أدق مما وضع البشر من موازين الأعيان وموازين الأعراض كالحر والبرد ونضع

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤٨٤/١٠

الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين [٢١: ٤٧] وسيأتي قول الأستاذ الإمام في الحساب والجزاء.

فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء أي فهو بما له من الملك المطلق يغفر لمن يشاء أن يغفر له ويعذب من شاء عذابه. وقرأ غير ابن عامر وعاصم ويعقوب بجزم: (يغفر ويعذب) . بالعطف على يحاسبكم وإنما يشاء ما فيه الرحمة والعدل والحكمة، والأصل في العدل أن يكون الجزاء السيئ على قدر الإساءة وتأثيرها في تدسية نفوس المسيئين، والجزاء الحسن على قدر الإحسان وتأثيره في أرواح المحسنين، ولكنه – تعالى – برحمته وفضله يضاعف جزاء الحسنة عشرة أضعاف ويزيد من يشاء ولا يضاعف السيئة، والآيات المفصلة في هذا." (١)

"كون فعل السوء لم يكن إلا عن جهالة ؛ إذ مثلهم في إيمانهم، وتقواهم لا يعتمد الذنب مع الروية، وكون التوبة قريبة من زمن الذنب لم تدع له مجالا يرسخ به في النفس، ويجوز أن تجعل معنى السببية مفرعا عن ذلك الأصل المقرر في صدر الآية، وهو كون قبول توبة هؤلاء مما أوجبه الله – تعالى – على نفسه بمقتضى رحمته، وعلمه، وحكمته، أي فأولئك يتوب عليهم قطعا ؛ لأن قبول توبتهم مقرر حتما، وموعود به وعدا مقضيا.

وقال الأستاذ الإمام: أشار إليهم بعد حصر التوبة المقبولة لهم لتأكيد ذلك الحصر، ولاستحضارهم في الذهن عند الحكم حتى لا يخطر في بال القارئ والسامع إشراك غيرهم معهم فيه، وضمن التوبة معنى العطف، أي يعطف عليهم بقبول توبتهم ويعود برحمته عليهم.

وكان الله عليما حكيما فمن علمه بشئون عباده، ومصالحهم، وحكمته فيما شرعه لهم أنه جعل التوبة بشرطيها مقبولة حتما ؛ لأنه يعلم أنهم لضعفهم لا يسلمون من عمل السوء، فلو لم يكن للعاصي توبة لفسد الناس، وهلكوا ؛ لأن من يعمل السوء بجهالة من ثورة شهوة، أو سورة غضب يسترسل حينئذ في المعاصي، والسيئات، ويتعمد اتباع الهوى، وخطوات الشيطان لعلمه أنه هالك على كل حال فلا فائدة له من مجاهدة نفسه وتزكيتها، أما وقد شرع الله – تعالى – بحكمته قبول التوبة، فقد فتح لهم باب الفضيلة، وهداهم إلى محو السيئة بالحسنة، ولو كان كل ذنب يغفر، وكل سيئة يعفى عنها لما آثر الناس الخير على الشر إلا حيث تكون شهواتهم ومهب أهوائهم، ثم إنه – تعالى – يعلم التوبة النصوح، والتوبة الخادعة الكذوب ؛ لأنه يعلم **خائنة الأعين**، وما تخفي الصدور، ومن حكمته أنه لا يقبل إلا التوبة النصوح دون حركة اللسان بالاستغفار، والإتيان ببعض المكفرات من الصدقات، أو الأذكار، مع الإصرار على الذنوب والأوزار، فالمقيم على الذنب لا تطهر نفسه من دنسه بعمل طاعة أخرى، وإن أحسن فيها، وأخلص، فكيف من يكون عمله لها صوريا تقليديا لا يمس سواد قلبه قط، ولا يدل على عنايته بأمر الدين، ولا خشيته لله رب العالمين، كألفاظ الاستغفار والتسبيح! ولذلك جمع في الآية السابقة بين التوبة، وإصلاح العمل، وذكرنا بعض الآيات التي في معناها. وإن أردت الزيادة في هذا المعنى فراجع تفسير ما تقدم من الآيات كقوله – تعالى -: فاغفر لنا ذنوبنا – إلى قوله – والمستغفرين بالأسحار [٣: ١٦، ١٧] وقوله: والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم [٣: ١٣٥] وقد أشار الأستاذ الإمام هنا إلى نكتة ذكر

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١١٧/٣

صفة العلم، وصفة الحكمة هنا بقريب مما ذكرناه، وذكر غرور الجاهلين من الخلف الطالح بالأذكار القولية، واعتمادهم عليها، وظنهم أنها تنجيهم في." (١)

"في عهد نزول هذه السورة. وإن ضعف الإرادة ليصد صاحبه في كل زمان ومكان عن الواجبات وسائر الأعمال التي لا بد فيها من احتمال مشقة بدنية أو نفسية، وإن كانت من أعمال الإيمان ومصالح الأمة والأوطان، ولو بحثت عن خسران الأفراد المتعلمين الذين يعرفون الحقوق والواجبات لكرامة أنفسهم، وخسران الجماعات والأمم التي تولي زعامتها أمثال هؤلاء الأفراد لاستقلالها وصلاح أمرها لرأيت سبب هذا وذاك وهن العزيمة وذبذبة الإرادة، فالفوز والفلاح في الدين والدنيا لا يتم إلا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافزة إلى العمل بالعلم، فمن خسر إحدى الفضيلتين يصدق عليه أنه خسر نفسه سواء كان فردا، أو أمة، فما بال من خسرهما كلتيهما والعياذ بالله تعالى وقد لمح الزمخشري إلى خسران النفس في الآخرة فأورد على الآية إشكالا في غير محله. وأجاب عنه على طريقة المتكلمين جوابا في غير محله. قال (فإن قلت) : كيف جعل عدم إيمانهم مسببا عن خسرانهم والأمر على العكس؟ (قلت) : معناه الذين خسروا أنفسهم في علم الله لاختيارهم الكفر فهم لا يؤمنون.

(وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم) الظاهر المختار أن هذا عطف على ما قبله، أي لله ما في السماوات وما في الأرض، وله ما سكن في الليل والنهار، واستظهر أبو حيان أنه استئناف إخبار غير مندرج تحت السؤال والجواب. وسكن من سكنى أو من السكون ضد الحركة، وفيه اكتفاء بما ذكر عما يقابله، أي له ما سكن وما تحرك، على حد قوله: (سرابيل تقيكم الحر) (١٦: ٨١) أي والبرد. ويجوز الجمع بين المعنيين على مذهب من يجوز ذلك في المشترك بما يحتمله المقام، والحكمة في ذكر هذا الملك

الخاص على دخوله في عموم ما في السماوات والأرض التذكير بتصرفه تعالى بهذه الخفايا، فإن السكنى والسكون من دواعي خفاء الساكن، فإذا كان في الليل كان أشد خفاء؛ ولذلك قدم ذكر الليل لأن ما يسكن فيه هو المقصود بالذات، وعطف النهار عليه تكميل، ولما ذكرنا تعالى بأنه المالك لما ذكر، المتصرف فيه بقدرته بما يشاء كما هو شأن الربوبية الكاملة ذكرنا بأنه هو السميع العليم، أي المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفيا عن غيره، فهو يسمع دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات ويصمه كبيرها ويذهب عنه ما بعد منها، كما قال أمير المؤمنين علي المرتضى كرم الله وجهه: وهو المحيط علمه بكل شيء (يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور) (٤٠: ١٩) وإذا كان كذلك فلا يمكن أن تدق عن سمعه دعوة داع أو تعزب عن علمه حاجة محتاج، حتى يخبره بها الأولياء، أو يقنعه بها الشفعاء (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) (٢: ٢٥٥) .

بعد كتابة ما تقدم راجعت التفسير الكبير فإذا فيه من نكت البلاغة في الآية ما نقله." (٢)

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٦٦/٤

(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٢٧٥/٧

"بأحوالهم وأفعالهم وكيف يجيلون أبصارهم يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون." [1]

"يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩)

﴿يعلم **خآئنة الأعين**﴾ مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة والمراد استراق النظر إلى ما يحل ﴿وما تخفى الصدور﴾ وما تسره من أمانة وخيانة وقيل هو أن ينظر إلى أجنبية بشهوة مسارقة ثم يتفكر بقلبه في جمالها ولا يعلم بنظرته وفكرته من بحضرته والله يعلم ذلك كله ويعلم **خائنة الأعين** خبر من أخبار هو في قوله هو الذي يريكم اياته مثل يلقى الروح ولكن يلقي الروح قد علل بقوله لينذر يوم التلاق ثم استطرد ذكر أحوال يوم التلاق إلى قوله ولا شفيع يطاع فبعد لذلك عن أخواته." [2]

"والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)

﴿والله يقضى بالحق﴾ أي والذي هذه صفاته لا يحكم إلا بالعدل ﴿والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ وآلهتهم لا يقضون بشيء وهذا تهكم بهم لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي تدعون نافع ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ تقرير لقوله يعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور ووعيد لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دونه وأنها لا تسمع ولا تبصر." [3]

"(سورة المؤمن

وهي مكية إلا آية قوله إن الذين يجادلون حروفها أربعة آلاف وتسعمائة وسبعون كلمها الف ومائتان غير كلمة آياتها خمس وثمانون) .

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١ الى ٢٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير (٣) ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد (٤)

كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار (٦) الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك

---

(١) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٢/٥٠٠

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣/٢٠٥

(٣) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣/٢٠٥

أنت العزيز الحكيم (٨) وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٩)
إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون (١٠) قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤)
رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩)
والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢)." [١]

"أمارات الموت يعظم خوفه، فلو جعلنا كون القلوب لدى الحناجر كناية عن شدة الخوف جاز، ولو حملناه على ظاهره فلا بأس. وقوله كاظمين أي مكروبين. والكاظم الساكت حال امتلائه غما وغيظا قال عز من قائل والكاظمين الغيظ [آل عمران: ١٣٤] وانتصابه على أنه حال عن أصحاب القلوب كأنه قيل: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها، أو عن القلوب. وجمع جمع السلامة بناء على أن الكظم من أفعال العقلاء كقوله فظلت أعناقهم لها خاضعين [الشعراء: ٤] أو عن ضمير المفعول في وأنذرهم أي وأنذرهم مقدرين أو مشارفين الكظم فيكون حالا مقدره. وفي قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع بحث بين الأشاعرة والمعتزلة حيث حمله الأولون على أهل الشرك، والآخرون على معنى أعم حتى يشمل أصحاب الكبائر. وقد مر مرارا ولا سيما في قوله وما للظالمين من أنصار [آل عمران: ١٩٢] ومعنى قوله يطاع يجاب أي لا شفاعة ولا إجابة كقوله:
ولا ترى الضب بها ينجحر وذلك أنه لا يشفع أحد في ذلك اليوم إلا بإذن الله، فإن أذن له أجيب وإلا فلا يوجد شيء من الأمرين. والفائدة في ذكر هذه الصفة أن يعلم أن الغرض من الشفيع منتف في حقهم وإن فرض شفيع على ما يزعم أهل الشرك من أن الأصنام يشفعون لهم. وقوله يعلم **خائنة الأعين** خبر آخر لقوله هو الذي يريكم آياته إلا أنه فصل بالتعليل وهو قوله لينذر وذكر وصف القيامة استطرادا، قال جار الله: هي صفة للنظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية، والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب. قال:
ولا يحسن أن تكون الخائنة صفة للأعين مضافة إليها نحو «جرد قطيفة» أي يعلم العين الخائنة لأن قوله وما تخفي الصدور لا يساعد عليه. قلت: يعني أن عطف العرض على الجوهر والمعنى على العين غير مناسب. وقيل: هي قول الإنسان رأيت

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٦/١٩

ولم ير وما رأيت ورأى. ومضمرات الصدور أي القلوب فيها لأنها فيها. قيل: هي ما يستره الإنسان من أمانة وخيانة. وقيل: الوسوسة. وقال ابن عباس: ما تخفي الصدور بعد النظر إليها أيزني بها أم لا. أقول: والحاصل أنه تعالى أراد أن يصف نفسه بكمال العلم فإن المجازاة تتوقف على ذلك. ففي قوله يعلم **خائنة الأعين** إشارة إلى أنه عالم بجميع أفعال الجوارح، وفي قوله وما تخفي الصدور دلالة على أنه عالم بجميع أفعال القلوب. وإذا علمت هذه الصفة وقد عرفت من الأصناف السابقة كمال قدرته واستغنائه لم يبق شك فى حقية قضائه فلذلك قال والله يقضي بالحق ثم وبخهم على عبادة من لا قضاء له ولا سمع ولا بصر." (١)

"نهي الإسلام عن اللمز والغمز

قال الله تعالى: (ولا تلمزوا أنفسكم) ، اللمز -كما يقولون- التعريض بالكلمات، والغمز بالعين، وفي الحديث: (انتظرت لعل أحدكم قام يضرب عنقه، قالوا: هلا غمزت لنا؟ قال: ما كان لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**) الأنبياء صرحاء في مقالاتهم لا يأتون بالغمز ولا باللمز.

ومجيء النهي: (ولا تلمزوا) ؛ لأن من سخر من إنسان في نفسه لمزه بلسانه عند غيره، فهذا مترتب على ذاك، وهذا من الإعجاز القرآني والسبك في الأسلوب، وترتيب الأحداث بعضها على بعض.

وهل الإنسان يلمز نفسه؟ يقول العلماء: نعم، وهذا بوجهين: الوجه الأول: كما في قوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء:٢٩] ، لا أحد يقتل نفسه إلا المنتحر والعياذ بالله.

حينما تلمز أخاك المسلم فكأنما لمزت نفسك؛ فأنت وهو شيء واحد، والأمة الإسلامية كلها كالجسد الواحد، (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد) ، أو كالبنيان المرصوص بعضه يربط بعضا، فلما كان الإسلام يعتبر الأمة كيانا واحدا؛ فمن لمز فردا من الأفراد فقد حمل نفسه في عموم الوحدة الإنسانية باللمز الذي طرأ على غيره، وهذا غاية الترابط والتراحم والتآلف.

الوجه الثاني: لا تلمز إنسانا ولو كان بشيء واقع فيه، ولا يرضاه، فسيلمزك بمقابل هذا سواء كان فيك أم لا، صدقا أو كذبا؛ انتقاما لنفسه وانتصارا لشخصه؛ فتكون أنت قد لمزت نفسك بلمزك أخاك، كما قال الله: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ [الأنعام:١٠٨] هذا سدا للذريعة، وجاء في الحديث: (لا يسب الرجل أباه ولا أمه، قيل: أو يسب أحد أباه أو أمه؟ قال: نعم، يسب أبا الرجل فيسب الرجل أباه، ويسب أمه فيسب أمه) ، فيكون هو المتسبب في سب أبيه وأمه.

وعلى كلا المعنيين -وكلاهما جليل- على الإنسان أن يتحفظ من ذلك.." (٢)

"نا عبد الرزاق

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٢٩/٦

(٢) تفسير سورة الحجرات عطية سالم ٨/٧

٢٦٦٩ - عن معمر ، عن قتادة ، في قوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ [غافر: ١٩] قال: «ﷺيعلم همزه بعينه ، وإغماضه عما لا يحب الله»." (١)

"أخبرنا عبد الرحمن، قال: نا إبراهيم، قال: نا آدم، قال: نا ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، في قوله: ﴿خائنة الأعين﴾ [غافر: ١٩] قال: «ﷺيعني نظر الأعين إلى ما نهى عنه»." (٢)

"[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١ الى ٨٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير (٣) ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد (٤)

كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار (٦) الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٨) وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٩)

إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون (١٠) قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤)

رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (١٩)

والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤)

فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥)

---

(١) تفسير عبد الرزاق عبد الرزاق الصنعاني ١٤٣/٣

(٢) تفسير مجاهد مجاهد بن جبر ص/٥٨٣

وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦) وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب (٢٧) وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨) يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد (٢٩)

وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب (٣٠) مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد (٣١) ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد (٣٢) يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد (٣٣) ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (٣٤)

الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار (٣٥) وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب (٣٦) أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب (٣٧) وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار (٣٩)

من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار (٤١) تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (٤٢) لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد (٤٤)

فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب (٤٥) النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (٤٦) وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (٤٧) قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد (٤٨) وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (٤٩)

قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (٥٠) إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (٥١) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (٥٢) ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤)

فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار (٥٥) إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٥٧) وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون (٥٨) إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون (٥٩)

وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) الله الذي جعل لكم الليل

لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣) الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين (٦٤)
هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥) قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين (٦٦) هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون (٦٧) هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (٦٨) ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤)
ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦) فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون (٧٧) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون (٧٨) الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون (٧٩)
ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون (٨٠) ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون (٨١) أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤)
فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥)." (١)

"يوم هم بارزون من قبورهم على ظهر الأرض مثل الأديم الممدود لا يخفى على الله منهم شيء يقول لا يستتر عن الله- عز وجل- منهم أحد، فيقول الرب تبارك- وتعالى- لمن الملك اليوم يعنى يوم القيامة حين قبض على السموات والأرض في يده اليمنى فلا يجيبه أحد، فيقول لنفسه لله الواحد لا شريك له القهار- ١٦- لخلقه حين أحياهم اليوم في الآخرة تجزى كل نفس بر وفاجر بما كسبت من خير أو شر لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب- ١٧- يفرغ الله- تعالى- من حسابهم في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا، قوله- تعالى-: وأنذرهم يعني النبي- صلى الله عليه وسلم- أنذر أهل مكة يوم الآزفة يعني اقتراب الساعة إذ القلوب لدى الحناجر وذلك أن الكفار إذا عاينوا النار في الآخرة شخصت أبصارهم إليها فلا يطرفون وأخذتهم رعدة شديدة من الخوف فشهقوا شهقة فزالت قلوبهم من أماكنها فنشبت في حلوقهم فلا تخرج من أفواههم ولا ترجع إلى أماكنها أبدا، فذلك قوله تعالى: «إذ القلوب لدى» يعنى عند «الحناجر» كاظمين يعني مكروبين ما

(١) تفسير مقاتل بن سليمان مقاتل ٦٩٣/٣

للظالمين يعني المشركين من حميم يعني قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع- ١٨- فيهم يعلم **خائنة الأعين** يعني الغمزة فيما لا يحل بعينه والنظرة فى المعصية وما تخفي الصدور- ١٩- يعني وما تسر القلوب من الشر والله يقضي بالحق يعني يحكم بالعدل والذين يدعون من دونه من الآلهة لا يقضون يعني لا يحكمون بشيء يعني والذين يعبدون من دونه لا يقضون بشيء، يعني آلهة كفار مكة إن الله هو السميع البصير- ٢٠- ثم خوفهم بمثل عذاب." (١)

"بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار (٦) الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين

تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم (٨) وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٩) إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون (١٠) قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا." (٢)

"عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩) والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠) ﴾ .

عن السدي: ﴿إلا من ينيب﴾ ، قال: من يقبل إلى طاعة الله.

وقوله تعالى: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾ ، قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿من الله ذي المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان مقاتل ٣/٧٠٩

(٢) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٣/٦٧٤

خمسين ألف سنة﴾ . وعن قتادة قوله: ﴿يلقي الروح من أمره﴾ ، قال: الوحي، ﴿من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾ ، قال: يوم تلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق.
وقال ابن زيد في قوله: ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ ، قال: يوم القيامة، وقرأ: ﴿أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة﴾ .
﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ ، قال قتادة: قد وقعت القلوب في الحناجر من المخالفة، فلا هي تخرج ولا تعود إلى أمكنتها.
وعن السدي: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾ ، قال: شخصت أفئدتهم عن أمكنتها، فنشبت في حلوقهم فلم تخرج من أجوافهم فيموتوا، ولم ترجع إلى أمكنتها فتستقر. ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع﴾ ، قال: من يعنيه أمرهم ولا شفيع لهم.." (١)

"وقال ابن كثير: وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ أي: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير. وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ ، إذا نظرت
إليها – يريد الخيانة – أم لا، ﴿وما تخفي الصدور﴾ ، إذا قدرت عليها – أتزني بها – أم لا.
وقوله تعالى: ﴿والله يقضي بالحق﴾ أي: بالعدل، ﴿والذين يدعون من دونه﴾ ، من الأصنام، والأوثان، والأنداد، ﴿لا يقضون بشيء﴾ ، أي: لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء، ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ .
قوله عز وجل: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ﴾ .
عن قتادة: ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ ، يقيهم ولا ينفعهم.

* * *." (٢)

"يوم الآزفة: يوم القيامة، ومعنى الآزفة: القريبة. الحناجر: جمع حنجرة، الحلقوم. كاظمين: ممسكين، محزونين. حميم: صديق. **خائنة الأعين**: الأعين التي تزوغ وتنظر بخبث. وما تخفي الصدور: ما تكتمه الضمائر. من واق: من حافظ.
أنذر أيها الرسول مشركي قومك عذاب يوم القيامة وهوله، حين تصير القلوب عند الحناجر من شدة الخوف. يومئذ ليس لهم صديق ينفعهم، ولا شفيع تقبل شفاعته لهم، والله تعالى لا يخفى عليه شيء، يعلم النظرة الخائنة، والسر المستور الذي تخفيه الصدور. وهو تعالى يقضي بالعدل والحق، فلا يظلم احدا ولا ينسى شيئا، والآلهة المزعومة لا يستطيعون عمل شيء، ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ .
ألم يسافر المشركون في الأرض، فيروا كيف كان مآل الأمم الماضية!! كانوا أشد منهم قوة وتركوا آثارا عظيمة في الأرض،

---
(١) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٣/٦٧٩
(٢) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٣/٦٨٠

فاستأصلهم الله بذنوبهم.

﴿وما كان لهم من الله من واق﴾

لم يكن لهم من ينصرهم ويحفظهم من عذاب الله.

وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من آية، ولكن بأسلوب مختلف.

ولقد نزل بهم ذلك العذاب لأنهم كذبوا رسلهم وجحدوا آيات الله ﴿فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب﴾

قراءات:

قرأ نافع وهشام: والذين تدعون: بالتاء. والباقون: يدعون: بالياء.." (١)

"ومماليكه، لا يخرج أحد منهم عن هذا الوصف اللازم؛ فهو المالك لجميع الممالك، وهو الذي اتصف بصفات الملك الكامل، والتصرف التام النافذ، والسلطان والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له، مماليك لا يقدمون على الشفاعة لأحد حتى يأذن لهم: ﴿قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض﴾ [الزمر: ٤٤]

ولا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله، ولا يرضى إلا عمن قام بتوحيده واتباع رسله، فمن لم يتصف بهذا فليس له في الشفاعة نصيب، وأسعد الناس بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم من قال: «لا إله إلا الله خالصا من قلبه» .

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه يعلم ما بين أيدي الخلائق من الأمور المستقبلة التي لا نهاية لها ﴿وما خلفهم﴾ [البقرة: ٢٥٥] من الأمور الماضية التي لا حد لها، وأنه لا تخفى عليه خافية، يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ [الأنعام: ٥٩] وأن الخلق لا يحيط أحد منهم بشيء من علم الله، ولا معلوماته إلا بما شاء منهما، وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية، وهو جزء يسير جدا بالنسبة إلى علم الباري، تضمحل العلوم كلها في علم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم المخلوقات، وهم الرسل والملائكة: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ [البقرة: ٣٢]

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن كرسيه وسع السماوات والأرض، وأنه قد حفظهما بما فيهما من العوالم بالأسباب والنظامات التي جعلها." (٢)

"فتلتصق بحلوقهم فلا تعود فيستروحوا ويتنفسوا ولا تخرج فيستريحوا بالموت وقيل يلتفخ السحر خوفا اى الرئة فيرتفع القلب الى الحنجرة كاظمين حال من اصحاب القلوب على المعنى إذ الأصل إذ قلوبهم لدى حناجرهم بناء على أن التعريف اللامى بدل من التعريف الإضافي يقال كظم غيظه اى رد غضبه وحبسه فى نفسه بالصبر وعدم اظهار الأثر والمعنى كاظمين على الغم والكربة ساكتين حال امتلائهم بهما يعنى لا يمكنهم ان ينطقوا ويصرحوا بما عندهم من الحزن والخوف من شدة

---

(١) تيسير التفسير للقطان إبراهيم القطان ٣/١٨٤

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن عبد الرحمن السعدي ١٨/١

الكربة وغلبة الغم عليهم فقوله إذا لقلوب لدى الحناجر تقرير للخوف الشديد وقوله كاظمين تقرير للعجز عن الكلام فان الملهوف إذا قدر على الكلام وبث الشكوى حصل له نوع خفة وسكون وإذا لم يقدر عظم اضطرابه واشتد حاله ما للظالمين اى الكافرين من حميم اى قريب مشفق يعنى هيچ خويشى مشفق ويار مهربان عذاب ايشان را دفع كند ولا شفيع يطاع وشفيع مشفع على معنى نفى الشفاعة والطاعة معا وعلى ان يطاع مجاز عن يجاب وتقبل شفاعته لأن المطيع فى الحقيقة يكون أسفل حالا من المطاع وليس فى الوجود من هو أعلى حالا من الله تعالى حتى يكون مطاعا له تعالى وفى الآية بيان أن لا شفاعة فى حق الكفار لأنها وردت فى ذمهم وانما قبل للظالمين موضع للكافرين وان كان أعم منهم ومن غيرهم من العصاة بحسب الظاهر تسجيلا لهم بالظلم ودلالة على اختصاص انتفاء كل واحد من الحميم والشفيع المشفع بهم فثبت أن لعصاة المسلمين حميما وشفيعا ومشفعا وهو النبي عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين والأولياء المقربين والملائكة أجمعين يعلم ميداند خداى تعالى **خائنة الأعين** اى النظرة الخائنة للاعين واسناد الخيانة الى النظرة مجاز لأن الخائن هو الناظر او يعلم **خائنة الأعين** على انها مصدر كالعافية كقوله تعالى ولا تزال تطلع على خائنة منهم والخيانة مخالفة الحق بنقض العهد فى السر ونقيضها الامانة والمراد هنا استراق النظر الى غير المحرم كفعل اهل الريب والنظرة الثانية اليه وفى الخبر يا ابن آدم لك النظرة الاولى معفوة لوقوعها مفاجأة دون الثانية لكونها مقارنة للقصد وهى من قبيل زنى النظر (وفى المثنوى)

كر زناى چشم حظى مى برى ... نى كباب از پهلوى خود ميخورى

وذلك لأن النظر سهم مسموم من سهام إبليس وللنظرة تزرع فى القلب شهوة وكفى بها فتنة (قال الكاشفى) چشم نظر بانچه حرامست يا غمز كردن بمعايب مردم اى الرمز بالعين على وجه العيب

دو چشم از پى صنع بارى نكوست ... ز عيب برادر فرو كير ودوست

يا كذب در رؤيت وعدم رؤيت يعنى يدعى الرؤية كاذبا او ينكرها وفى التأويلات النجمية خائنة أعين المحبين استحسانهم شيأ غير المحبوب والنظر الى غير المحبوب وفى معناها قيل

فعينى إذا استحسنت غيركم ... أمرت الدموع بتأديبها

حكى أن بعضهم مر بدكان وفيه نطاق معلق فتعلق به نظره فاستحسنه ثم لما تباعد عن الدكان." (١)

"فقد النطاق من محله فاتبعه صاحب الدكان ففتش عنه فوجده على وسطه وكان ذلك عقوبة من الله عليه لاستحسانه ذلك النطاق حتى انهم بسرقته وعوقب عليه قال ابو عثمان خيانة العين هو ان لا يغضها عن المحارم ويرسلها الى الهوى والشهوات وقال ابو بكر الوارق يعلم من يمد عينيه الى الشيء معتبرا ومن يمد عينيه لارادة الشهوة وقال ابو جعفر النيسابورى زنى العارف نظره بالشهوة امام قشيرى فرمود كه خيانت چشمهاى محبان آنست كه در أوقات مناجات خواب را پيرامن آن كذارند چنانكه در زبور آمده كه دروغ كويد هر كه دعوى محبت من كند و چون شب در آيد چشم او بخواب رود (ع) ومن نام عينا نام عنه وصالنا

خواب را با ديده عاشق چه كار ... چشم او چون شمع باشد اشكبار

---

(١) روح البيان إسماعيل حقي ١٧٠/٨

چشمهاى عاشقانرا خواب نيست ... يك نفس ان چشمها بى آب نيست

وما تخفي الصدور من الضمائر والاسرار مطلقا خيرا كانت او شرا ثبت بهذا ان افعال القلوب معلومة لله تعالى وكذا افعال الجوارح تكون لأن أخفاها وهى **خائنة الأعين** إذا كانت معلومة لله تعالى وكذا افعال الجوارح تكون لأن أخفاها وهى **خائنة الأعين** إذا كانت معلومة لله تعالى فعلمه تعالى سائر افعال الجوارح يكون اولى والحاكم إذا بلغ فى العلم الى هذا الحد وجب ان يكون خوف المجرم منه أشد وأقوى فقوله تعالى يعلم إلخ فى قوة التعليل للامر بالإنذار وفى التأويلات النجمية وما تخفى الصدور من متمنيات النفوس ومستحسنات القلوب ومرغوبات الأرواح فالحق به خبير ويكون السالك موقوفا بها حتى يخرج من تعلقها وقال بعضهم خيانته فى الصدور أن لا يصير فى مقام القبض ليجرى عليه احكام الحقيقة ثم ينكشف له عالم البسط فقد وصف الله خيانة العيون وخفايا الصدور وقال لا يخفى عليه شيء من ذلك وذلك ان العين باب من أبواب القلب فاذا رأت شيأ يكون حظ القلب منه يعلم ذلك نفسه فيطلب الحظ منه ومن القلب الى العين باب يجرى عليها حركة هواجس النفس تحتها على النظر الى شيء فيه لها نصيب فاذا تحققت ذلك علمت ان خيانة الأعين متعلقة بما تخفى الصدور وإذا كان العارف عارفا بنفسه وراضها برياضات طويلة وطهرها بمجاهدات كثيرة وزمها بزمام الخوف وآداب الشريعة صارت صافية من حظوظها ولكن بقيت فى سرها جبلتها على الشهوات ففى كل لحظة يجرى فى سرها طلب حظوظها ولكنها سترتها عن العقل وأخفتها عن الروح من خوفها فاذا وجدت الفرصة خرجت الى رؤية العين فتنظر الى مرادها فتسرق حظها من النظر الى المحارم وذلك النظر خفى وتلك الشهوة خفية وصفهما الله سبحانه فى هذه الآية واستعاذ منهما النبي عليه السلام حيث قال أعوذ بك من شهوة خفية ثم ان الروح العاشق إذا احتجب عن مشاهدة جمال الأزل ينقبض ويطلب حظه ولا يقدر ان ينظر الى الحق فيطلب ذلك من الصورة الانسانية التي فيها آثار الروحانية فينظر من منظره الى منظر العقل ومن منظر العقل الى منظر القلب ومن منظر القلب الى منظر النفس ومن منظر النفس الى منظر الصورة وينظر من العين الى جمال المستحسنات لينكشف له ما استتر." (١)

"عنه من شواهد الحق فتذهب النفس معه وتسرق بحثه حظها من النظر بالشهوة فذلك النظر منها غير مرضى فى الشرع والطريقة والحقيقة وكذا نظر الروح الى الحق بالوسائط خيانة فيلزم عليه أن يصبر على الانقباض الى أن يتجلى له جمال الحق بغير واسطة (قال الشيخ سعدى)

چرا طفل يك روزه هوشش نبرد ... كه در صنع ديدن چه بالغ چه خرد

محقق همى بيند اندر ابل ... كه در خوبرويان چين و چكل

ومن الله التوفيق لنظر التحقيق والله يقضي يحكم بالحق اى بالصدق والعدل فى حق كل محسن ومسيء لانه المالك الحاكم على الإطلاق فلا يقضى بشيء الا وهو حق وعدل يستحقه المكلف ويليق به ففيه تشديد لخوف المكلف والذين يدعون اى يعبدونهم من دونه تعالى وهم الأصنام وبالفارسية وآنان هم را كه مى پرستند مشركان بدون خدا لا يقضون بشيء حكمى نمى كنند ايشان بچيزى زيرا كه يا جماداند ايشانرا قدرت بدان نيست ويا حيوانند مخلوق ومملوك اند ومخلوق را

(١) روح البيان إسماعيل حقي ١٧١/٨

قوت حكم وفرمان نيست وفى الإرشاد هذا تهكم بهم لأن جمادا لا يقال فى حقه يقضى ولا يقضى إن الله هو السميع البصير تقرير لعلمه تعالى **بخائنة الأعين** وقضائه بالحق فان من يسمع ما يقولون ويبصر ما يفعلون إذا قضى قضى بالحق ووعيد لهم على ما يفعلون ويقولون وتعريض بحال ما يدعون من دونه فانهم عريانون عن التلبس بهاتين الصفتين فكيف يكونون معبودين وفى الآية اشارة الى ان الله تعالى يقضى للاجانب بالبعاد وبالوصال لاهل الوداد ويخرج السالكين من تعلقات اوصافهم على ما قضى به وقدر فى الأزل وان كان بواسطة ايمانهم وأعمالهم الصالحة ان الله قد سمع سؤال الحوائج فى الأزل وهم بعد فى العدم وكذا سمع انين نفوس المذنبين وحنين قلوب المحبين وابصر بحاجاتهم ثم انه لما بالغ فى تخويف الكفار بأحوال الآخرة اردفه بالتخويف بأحوال الدنيا فقال أولم يسيروا في الأرض آيا سفر نميكنند مشركان مكه در زمين شام ويمن براى تجارت فينظروا يجوز ان يكن منصوبا بالعطف على يسيروا وان يكون منصوبا على أنه جواب الاستفهام كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم اى مآل حال من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم كعاد وثمود وأضرابهم وكانت ديارهم ممر تجار قريش كانوا هم أشد منهم قوة قدرة وتمكنا من التصرفات وانما جيء بضمير الفصل مع أن حقه التوسط بين معرفتين كقوله أولئك هم المفلحون لمضاهاة افعل من للمعرفة فى امتناع دخول اللام عليه وآثارا في الأرض مثل القلاع الحصينة والمدن المتينة فأخذهم الله بذنوبهم عاقبهم واهلكهم بسبب كفرهم وتكذيبهم وما كان لهم من الله من عذاب الله من واق يقيهم ويحفظهم ذلك اى ما ذكر من الاخذ بأنهم اى بسبب انهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات اى بالمعجزات او بالاحكام الظاهرة فكفروا بها وكذبوا رسلهم فأخذهم الله أخذا عاجلا إنه قوي متمكن مما يريد غاية التمكن شديد العقاب لاهل الشرك لا يعتبر عقاب دون عقابه فهؤلاء قد شاهدوا مصارعهم وآثار هلاكهم فبأى وجه أمنوا أن يصيبهم مثل." (١)

"من الانفعال ما قام مقام توبتهم وإذ على بابها يعنى الظرفية والمضي بمعنى انكم تركتم ذلك فيما مضى وتجاوز الله عنكم بفضله فتدار كوه بما تؤمرون به بعد هذا وقيل بمعنى إذا للمستقيل كما في قوله إذا لا غلال في أعناقهم او بمعنى ان الشرطية وهو قريب مما قبله الا ان ان يستعمل فيما يحتمل وقوعه واللاوقوعه فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة مسبب عن قوله فاذ لم تفعلوا اى فاذ فرطتم فيما أمرتم به من تقديم الصدقات فتدار كوه بالمواظبة على اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المفروضة وأطيعوا الله ورسوله في سائر الأوامر فان القيام بها كالجابر لما وقع في ذلك من التفريط وهو تعميم بعد التخصيص لتتميم النفع والله خبير بما تعملون عالم بالذي تعملون من الأعمال الظاهرة والباطنة لا يخفى عليه خافية فيجازيكم عليه فاعملوا ما أمركم به ابتغاء لمرضاته لالرياء وسمعة وتضرعوا اليه خوفا من عقوباته خصوصا بالجماعة يوم الجمعة ومن الادعية النبوية اللهم طهر قلبى من النفاق وعملى من الرياء ولسانى من الكذب وعينى من الخيانة انك تعلم **خائنة الأعين** وما تخفى الصدور وفي تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر من بين العبادات المرادة بالأمر بالاطاعة العامة اشارة الى علو شأنهما وانافة قدرهما فان الصلاة رئيس الأعمال البدنية جامعة لجميع انواع العبادات من القيام والركوع والسجود والقعود ومن التعوذ والبسملة والقراءة والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والصلاة على النبي عليه السلام ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة ومن ذلك سميت صلاة وهى الدعاء لغة فهى عبادة من عبد الله تالى بها فهو محفوظ بعبادة العابدين من اهل السموات

---

(١) روح البيان إسماعيل حقي ١٧٢/٨

والأرضين ومن تركها فهو محروم منها فطوبى لأهل الصلاة وويل لتاركها وان الزكاة هى أم الأعمال المالية بها يطهر القلب من دنس البخل والمال من خبث الحرمة فعلى هذا هى بمعنى الطهارة وبها ينمو المال في الدنيا بنفسه لانه بمحق الله الربا ويربى الصدقات وفي الآخرة بأجره لانه تعالى يضاعف لمن يشاء وفي الحديث (من تصدق بقدر تمرة من كسب حلال ولا يقبل الله الا الطيب فان الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل) فعلى هذا هى من الزكاء بمعنى النماء اى الزيادة وفي البستان

بدنيا توانى كه عقبى خرى ... بخر جان من ور نه حسرت خورى

زر ونعمت آيد كسى را بكار ... كه ديوار عقبى كند زر نكار

ألم تر تعجيب من حال المنافقين الذين يتخذون اليهود اولياء ويناصحونهم وينقلون إليهم اسرار المؤمنين والخطاب للرسول عليه السلام او لكل من يسمع ويعقل وتعدية الرؤية بالى لكونها بمعنى النظر اى ألم تنظر يعنى آيا نمى نكرى إلى الذين تولوا من التولي بمعنى الموالاة لا بمعنى الاعراض اى والوا يعنى دوست كرفتند قوما غضب الله عليهم وهم اليهود كما انبأ عنه قوله تعالى من لعنه الله وغضب عليه والغضب حركة للنفس مبدأها ارادة الانتقام وهو بالنسبة اليه تعالى نقيض الرضى او ارادة الانتقام او تحقيق الوعيد او الأخذ الأليم والبطش الشديد او هتك الاسرار والتعذيب بالنار او تغيير النعمة ما هم اى الذين تولوا منكم فى الحقيقة ولا منهم اى من القوم المغضوب عليهم لانهم منافقون." (١)

"شائعا في التفسير. قالوا: وإنما عوتب في هذه القصة على شيئين: أحدهما: أنه أخبر بأنها ستكون زوجة له، فقال لزيد: «أمسك عليك زوجك» وكتم ما أخبره الله تعالى به من أمرها حياء من زيد ان يقول له: إن زوجتك ستكون امرأتي وهذا يخرج على ما ذكرنا عن علي بن الحسين، وقد نصره الثعلبي، والواحدي. والثاني: أنه لما رأى اتصال الخصومة بين زيد وزينب، ظن أنهما لا يتفقان وأنه سيفارقها، وأضمر أنه إن طلقها تزوجتها صلة لرحمها، وإشفاقا عليها، لأنها كانت بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، فعاتبه الله تعالى على إضمار ذلك وإخفائه حين قال لزيد: «أمسك عليك زوجك» ، وأراد منه أن يكون ظاهره وباطنه عند الناس سواء.

(١١٤٥) كما قيل له في قصة رجل أراد قتله: هلا أومأت إلينا بقتله؟ فقال: «ما ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين»** ، ذكر هذا القول القاضي أبو يعلى رحمة الله عليه.

قوله تعالى: فلما قضى زيد منها وطرا قال الزجاج: الوطر كل حاجة لك فيها همة، فاذا بلغها البالغ، قيل: قد قضى وطره. وقال غيره: قضاء الوطر في اللغة: بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء، ثم صار عبارة عن الطلاق، لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة. والمعنى: لما قضى زيد حاجته من نكاحها زوجناكها، وإنما ذكر قضاء الوطر ها هنا ليبين أن امرأة المتبني تحل وإن وطئها، وهو قوله تعالى: لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا والمعنى: زوجناك زينب- وهي امرأة زيد الذي تبنيته- لكيلا يظن أن امرأة المتبنى لا يحل نكاحها.

(١١٤٦) وروى مسلم في أفراده من حديث أنس بن مالك قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) روح البيان إسماعيل حقي ٩/٤٠٧

لزيد: «اذهب فاذكرها علي» ، قال زيد: فانطلقت، فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها، فوليتها ظهري، ونكصت على عقبي، وقلت: يا زينب، أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر «١» ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن.

وذكر أهل العلم أن من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أجيز له التزويج بغير مهر ليخلص قصد

جيد. أخرجه أبو داود ٢٦٨٣ و ٤٣٥٩ والنسائي ٧/ ١٠٥- ١٠٦ والطحاوي في «شرح معاني الآثار» ٣/ ٣٣٠- ٣٣١ وابن أبي شيبة ١٤/ ٤٩١- ٤٩٢ وأبو يعلى ٧٥٧ والبزار ١٨٢١ والدارقطني ٣/ ٥٩، والحاكم ٣/ ٤٥ والبيهقي ٧/ ٤٠ وفي «دلائل النبوة» ٥/ ٥٩ وابن الأثير في «أسد الغابة» ٤/ ٧٠- ٧١ من طرق عن أحمد بن المفضل به، جميعهم من حديث سعد بن أبي وقاص. وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وهو حديث حسن. وقال الهيثمي في «المجمع» ٦/ ١٦٨- ١٦٩: ورواه أبو داود وغيره باختصار، ورواه أبو يعلى والبزار ورجالهما ثقات! وفي الباب عن أنس: أخرجه البيهقي في «الدلائل» ٥/ ٦٠- ٦١، وفيه الحكم بن عبد الملك وهو ضعيف. وذكره الهيثمي في «المجمع» ٦/ ١٦٧- ١٦٨ ونسبه إلى الطبراني في «الأوسط» وأعله بالحكم بن عبد الملك. وعن سعيد بن المسيب مرسلا، أخرجه ابن سعد ٢/ ١٤١ من طريق حماد بن سلمة، عن علي بن زيد عنه.

صحيح. أخرجه مسلم ١٤٢٨ والنسائي في «التفسير» ٤٣٠ والنسائي ٦/ ٧٩ وأحمد ٣/ ١٩٥ وأبو يعلى ٣٣٣٢ وابن سعد ٨/ ٨٢ من حديث أنس. وانظر «تفسير الشوكاني» ٢٠٠٣ بتخريجنا.

---

(١) أوامر ربي: أستشيره وأستخيره.." (١)

"عباس: والثاني: يلتقي فيه الأولون والآخرون، روي عن ابن عباس أيضا. والثالث: يلتقي فيه الخلق والخالق، قاله قتادة ومقاتل. والرابع: يلتقي المظلوم والظالم، قاله ميمون بن مهران. والخامس: يلتقي المرء بعمله، حكاه الثعلبي.

قوله تعالى: يوم هم بارزون أي: ظاهرون من قبورهم لا يخفى على الله منهم شيء. فإن قيل:

فهل يخفى عليه منهم اليوم شيء؟. فالجواب: أن لا، غير أن معنى الكلام التهديد بالجزاء وللمفسرين فيه ثلاثة أقوال: أحدها: لا يخفى عليه مما عملوا شيء، قاله ابن عباس. والثاني: لا يستترون منه بجبل ولا مدر، قاله قتادة. والثالث: أن المعنى: أبرزهم جميعا، لأنه لا يخفى عليه منهم شيء، حكاه الماوردي.

قوله تعالى: لمن الملك اليوم اتفقوا على أن هذا يقوله الله عز وجل بعد فناء الخلائق.

واختلفوا في وقت قوله عز وجل له على قولين: أحدهما: أنه يقوله عند فناء الخلائق إذا لم يبق مجيب.

فيرد هو على نفسه فيقول: لله الواحد القهار، قاله الأكثرون. والثاني: أنه يقوله يوم القيامة. وفيمن يجيبه حينئذ قولان:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٣/٤٦٨

أحدهما: أنه يجيب نفسه وقد سكت الخلائق لقوله تعالى قاله عطاء. والثاني: أن الخلائق كلهم يجيبونه فيقولون: «لله الواحد القهار» ، قاله ابن جريج.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٨ الى ١٩]

وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩)

قوله تعالى: وأنذرهم يوم الآزفة فيه قولان: أحدهما: أنه يوم القيامة، قاله الجمهور. قال ابن قتيبة: وسميت القيامة بذلك لقربها، يقال: أزف شخوص فلان، أي: قرب. والثاني: أنه يوم حضور المنية، قاله قطرب. قوله تعالى: إذ القلوب لدى الحناجر وذلك أنها ترتقي إلى الحناجر فلا تخرج ولا تعود، هذا على القول الأول، وعلى الثاني: القلوب هي النفوس تبلغ الحناجر عند حضور المنية قال الزجاج: وكاظمين منصوب على الحال، والحال محمولة على المعنى لأن القلوب لا يقال لها: كاظمين، وإنما الكاظمون أصحاب القلوب فالمعنى: إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم. قال المفسرون: «كاظمين» أي: مغمومين ممتلئين خوفا وحزنا، والكاظم: الممسك للشيء على ما فيه، وقد أشرنا إلى هذا عند قوله تعالى: والكاظمين الغيظ «١» . ما للظالمين يعني الكافرين من حميم أي: قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته. يعلم **خائنة الأعين** قال ابن قتيبة: الخائنة والخيانة واحد. وللمفسرين فيها أربعة أقوال: أحدها: أنه الرجل يكون في القوم فتمر به المرأة فيريهم أنه يغض بصره، فإذا رأى منهم غفلة لحظ إليها، فإن خاف أن يفطنوا له غض بصره، قاله ابن عباس. والثاني: أنه نظر العين إلى ما نهي عنه، قاله مجاهد. والثالث: الغمز بالعين، قاله الضحاك والسدي. قال قتادة: هو الغمز بالعين فيما لا يحبه الله ولا يرضاه. والرابع: النظرة بعد النظرة، قاله ابن السائب. قوله تعالى: وما تخفي الصدور فيه ثلاثة أقوال: أحدها: ما تضمره من الفعل أن لو قدرت على ما نظرت إليه، قاله ابن عباس. والثاني: الوسوسة، قاله السدي. والثالث: ما

---

(١) آل عمران: ١٣٤.." [1]

"طرف الحديث الجزء/ الصفحة ما أردت بما أرى ٢/ ٢٩٧ ما الذي أثنى الله به عليكم؟ ٢/ ٣٠٠ ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا ٢/ ٢٩٤ ما أنا بالذي يسأل ربه هذا ٣/ ٥٢ ما أوحي إلي في هذا شيء ٤/ ٢٤٢ ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا ٤/ ١٤٤ ما بهذا بعثت وقد أبلغتكم ما أرسلت به ٣/ ٥٢ ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ١/ ٣٢٦ ما ترى يا ابن الخطاب ٢/ ٢٢٤ ما توضأ عبد فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة، إلا غفر له ١/ ٥٢٣ ما خلأت، ولكن حبسها حابس الفيل ٤/ ١٢٦ ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة ١/ ٢٣٠ ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا ١/ ١٧٩ ما ظنك باثنين الله ثالثهما

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٣٣/٤

٢/ ٢٦١ ما علي لو فعلت والله يعلم إني لكاره ٣/ ٤٢ ما عند رسول الله ما يطعمك هذه الليلة ٤/ ٢٥٩ ما عندنا اليوم شيء ٣/ ٢١ الماعون: الإبرة والماء والنار والفأس ٤/ ٤٩٦ ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية ٢/ ٥٢٧ ما لي أراك محزونا؟ ١/ ٤٣٠ ما لي أراكم سكوتا؟ ٤/ ٢٠٩ ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار ٢/ ١٢١ ما من أحد يلقى الله تعالى إلا وقد هم بخطيئة ٢/ ٤٣٠ ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاع أقرع ١/ ٣٥٣ ما من مسلم إلا وله في السماء بابان ٤/ ٩١ ما من مسلم دعا الله تعالى بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم ١/ ١٤٦ طرف الحديث الجزء/ الصفحة ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر ١/ ٥٣٤ ما هزم قوم إذا بلغوا اثني عشر ألفا من قلة ٢/ ١٩٥ ما يغني عنه قميصي من عذاب الله تعالى ٢/ ٢٨٦ ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين ٣/ ٤٦٨ متعنا بنفسك يا أبا بكر ٤/ ٢٥١ متعها ولو بقلنسوتك ١/ ٢١٢ مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين ١/ ٤٨٩ مرا بثعلبة وبفلان ٢/ ٢٨٢ مرجت عهودهم وأماناتهم ٣/ ٣٢٤ مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ٤/ ٣٩٩ مررت بقبر أمي فصليت ركعتين ٢/ ٣٠٣ مستقرها تحت العرش ٣/ ٥٢٤ معاذ الله، ما بذلك بعثني ١/ ٢٩٨ المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء ٢/ ١١٤ المغضوب عليهم: اليهود ١/ ٢١ مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ٢/ ٣٧ المقسطون في الدنيا على منابر من لؤلؤ ١/ ٣٦٩ ملعون من أتى النساء في أدبارهن ١/ ١٩٣ ملك من الملائكة موكل بالسحاب ١/ ٣٩ من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ (إذا الشمس كورت) ٤/ ٤٠٥ من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أحبني ١/ ٤٣٦ من أعطاكه؟ ١/ ٥٦١ من أغلق بابه فهو آمن ٣/ ٤٤٤ من توضأ وضوئي، ثم صلى الظهر غفر له ما كان بينها وبين صلاة الصبح ٢/ ٤٠٧ من حفظ خواتيم سورة الكهف كانت له نورا ٣/ ٦٣ من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ٣/ ٦٣ من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ٣/ ٦٣ من رغب عن سنتي فليس مني ١/ ٥٧٧ من زوجك؟ ٣/ ١٩٧ من سره أن يقوم له الرجال صفونا ٣/ ٥٧١." (١)

"معنى الصديقية وكيفية الاتصاف بها

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين﴾ [النساء:٦٩] ، الصديق أصله من كثرة الصدق في الحديث، ومن كثرة التصديق كذلك، لكن يحمل التصديق على معنى شرعي وهو: تصديق الله فيما أخبر به، وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم فيما بلغ عن ربه تبارك وتعالى، فالصديقية مأخوذة من كثرة التصديق، ومأخوذة من كثرة الصدق كذلك، فـ أبو بكر رضي الله عنه أطلق عليه أنه صديق؛ لكثرة تصديقه بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الخبر الذي ظاهره لا يقبله العقل، لكن مع ذلك كله كان أبو بكر يصدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، أما مأخذه من الصدق في الحديث فلما ورد في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) ، فالصديقية تنال بالإكثار من تصديق الله ورسوله، وبالإكثار من الصدق في الحديث، حتى لو كانت لك إلى الكذب ضرورة وتركته كي تقترب من مرتبة الصديقين فهذا فعل حسن، حتى في أمور المزاح، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يمزح ويقول له الصحابة:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٤/٥٢٩

(إنك تداعبنا يا رسول الله! قال: نعم ولكني لا أقول إلا حقا -أو لا أقول إلا صدقا-) فكان ينادي أنسا فيقول له: (ياذا الأذنين!) ، وحقا ف أنس له أذنان، فيكاد أنس يرتاب من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يا ذا الأذنين) ! لكنه حقيقة فليس فيه كذب من رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لما أتته العجوز تقول: (يا رسول الله! سل الله أن يدخلني الجنة، فقال: إنه لن يدخل الجنة عجوز! فولت مدبرة حزينة، فدعاها النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها: إن الله يقول: ﴿إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكارا * عربا أترابا * لأصحاب اليمين﴾ [الواقعة:٣٥-٣٨]) ، أو كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، فالرجل ينال مرتبة الصديقية بالإكثار من الصدق في حديثه، وتحري الصدق في الحديث، وعدم الإكثار من التورية، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام خير من يقتدى بهم في هذا الباب، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**) ، حتى خائنة العين والإشارة بها يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له **خائنة الأعين**) .." (١)

"تفسير قوله تعالى: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم.)

باسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد: فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فقال: (اصرف بصرك) وقد ورد في الباب حديث علي وفي إسناده كلام: (يا علي! لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة) وهو حديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام في معرض بيان غض البصر: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة) ، ومن الجهل والقبح والعار أن ترى رجالا ونساء عراة، أو رجالا يسبحون في البحر عراة كما ولدتهم أمهاتهم، وفي الأنهار والترع كالبهائم والعياذ بالله.

قال الله سبحانه: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ [النور:٣٠] قد يقول قائل: إن حفظ الفرج آكد من غض البصر؛ لأن عدم حفظ الفرج كبيرة، أما إطلاق البصر ليس من الكبائر عند كثير من العلماء، لأن ابن عباس فسر اللمم بحديث أبي هريرة: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة: فالعين تزني وزناها النظر) فقال: ما رأيت أشبه باللمم المذكور في قوله تعالى: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾ [النجم:٣٢] مما قال أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ...) الحديث، فلماذا قدم الأمر بغض البصر على الأمر بحفظ الفرج، مع أن حفظ الفرج أهم من غض البصر؟! صحيح أن حفظ الفرج أهم من غض البصر، لكن النظر هو الوسيلة إلى المحرم.

فالفرج لا يتحرك إلا بعد نظر، وكما قال الشاعر: ومعظم النار من مستصغر الشرر فالأمر بغض البصر أمر بسد الذريعة إلى الوصول إلى المحرم، فالزنا جعل له حمى حتى لا يقع شخص فيه، فلا تدخل بيت شخص إلا إذا استأذنت، ولا تنظر إلا إلى الذي أبيح لك، وقد قدمنا أن من الحمى الذي وضع للزنا: مصافحة المرأة الأجنبية، فإنها لا يجوز، والخلوة بالمرأة

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ١٣/٧

الأجنبية لا تجوز، سفر المرأة بدون محرم لا يجوز، والغناء الذي يثير الكامن ويهيج على الفاحشة لا يجوز، فللزنا حمى فليبتعد عنه الشخص، ومنه غض البصر.

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ [النور:٣٠] فيه أن ذكر الرجل يطلق عليه الفرج خلافا لمن كره ذلك من العلماء، فمن أهل العلم من كره أن يقال عن عورة الرجل فرج، وقال: الفرج هو ما انفرج، أي: ما فتح، كما قال تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾ [ق:٦] فقال: إن الفرج مختص بالمرأة، لكن هذه الآية ترد عليه، لأن الله جل ذكره قال: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ [النور:٣٠] .

والمقصود أن يحفظوها عن الزنا، وعن اللواط، وعن الاستمناء، وعن نظر الأجانب إليها، وعن نظر من لا يحل له النظر إليها، وبالجملة عن كل ما حرمه الله سبحانه وتعالى عليهم، قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما تقدم: (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل) .

وقد ورد في الباب حديث محمول على الاستحباب، ألا وهو حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: (يا رسول الله! إن الله لا يستحي من الحق -وذكر الحديث وفيه:- عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟) يعني: ما هو الشيء الذي يرى، وما الشيء الذي يترك؟ قال: (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك، قال: الرجل يغتسل عاريا يا رسول الله؟! قال: الله أحق أن يستحيا منه من الناس) فمن العلماء من قال: وإن كنت وحدك استحب لك أن تستتر ولا تباشر السماء بفرجك، ولا تكن مكشوفا، وحمل هذا على الاستحباب لا على الإيجاب؛ لأن نبي الله موسى اغتسل عريانا، ولأن نبي الله أيوب اغتسل عريانا، وهذا حيث لا يراهما الناس، لكن الكلام على الاستحباب في شريعتنا، والله تعالى أعلم.

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون﴾ [النور:٣٠] ، هذا التعقيب بقوله: ((إن الله خبير بما يصنعون)) [النور:٣٠] لأن للأعين خائنة لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، فقد تكون ماشيا مع شخص في طريق ولعينه خائنة وأنت لا تشعر بها، ولا تستطيع أن تضبطه بحال، يسارق النظر وأنت لا تشعر، كما قال سبحانه: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩] فختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ [النور:٣٠] فمهما أخطأت على الناس فإن الله يعلم حالك ويطلع عليك.." [(١)]

"ثبوت صفة السمع والبصر لله، وتعزيز مبدأ المراقبة له سبحانه

قال تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ [المجادلة:١] ، الآية أثبتت كغيرها ما هو من بدهيات الإسلام: صفة السمع لله سبحانه وتعالى، ﴿إن الله سميع بصير﴾ [المجادلة:١] ، ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ [المجادلة:١] ، فهذه الآية مع غيرها من الآيات تعزز مبدأ مراقبة الله عز وجل، وعليك أن تعبد الله على هذا النحو، تعبده عبادة المحسنين، إن لم تكن تراه فإنه يراك، قال تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم﴾ [الشعراء:٢١٨-٢٢٠] ، وقال سبحانه: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ [النور:٦٤] ، وقال جل شأنه: ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ [هود:٥] أي: وهم متغطون بثيابهم.

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ٢/٣٥

﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ [هود:٥] .
وهذا المعنى قد لقنه لقمان لولده: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾ [لقمان:١٦] ، وأيضا: ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ [يونس:٦١] ، والآيات في باب الحث على مراقبة الله سبحانه وتعالى لا تكاد تنتهي، قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾ [غافر:١٩] ، ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ [الملك:١٣] ، آيات لا تحصى ولا تنتهي، تفيد أنك مراقب بدقة وأي دقة، مراقب مراقبة دقيقة من كل صوب ومن كل اتجاه، وكل الحركات منك محسوبة عليك، بل ما بداخلك مطلع عليه ربك سبحانه وتعالى، قال جل جلاله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [ق:١٦] ، فأنت يا ابن آدم ضعيف كما قال ربك سبحانه، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم، وأنت عجول، ومع هذا كله فأنت مراقب مراقبة صارمة ودقيقة في غاية الدقة.
قال الله سبحانه: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾ [المجادلة:١] ، والمحاورة: هي إرجاع الكلام إلى الطرف الآخر، هو يتكلم وأنت تحاوره، أي: ترد الكلام عليه، كما قال الشاعر في وصف فرسه: لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي قال الله سبحانه وتعالى: ﴿والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ [المجادلة:١] ، (وقد تلا النبي صلى الله عليه وسلم آية ختامها يشابه هذا الختام: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا﴾ [النساء:٥٨] ولما تلاها النبي عليه الصلاة والسلام وضع إبهامه على أذنه وسبابته على عينه) ، فاستنبط بعض العلماء من هذا الحديث: إثبات السمع والبصر لله سبحانه وتعالى، ﴿إن الله سميع بصير﴾ [المجادلة:١] .." (١)

"حكم لبس النظارة الشمسية بدون حاجة

Q نرجو إلقاء الضوء على حكم لبس النظارة الشمسية بدون داع، هل فيه تشبه أو تغيير للخلق؟
A ليست تشبها وليست تغييرا للخلق، لكن إذا كنت تلبسها حتى تتابع بها النساء ولا يراك أحد فربك يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إذا كنت تلبسها لحاجة شر فهي شر، لكن الأصل أنها جائزة لا شيء فيها أبدا ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ [الأعراف:٣٢] .." (٢)

"تفسير قوله تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة)
قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾ [الزلزلة:٧] أي: فمن يعمل في دنياه مثقال ذرة من الخير يراها، وما هو ضابط الذرة؟ من العلماء من قال: إن الذرة هي النملة الصغيرة الحمراء، ومنه قول الحسن البصري في بعض مقالاته في شأن الأبرار: البر هو الذي لا يؤذي الذر.

---
(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ٣/٥٤
(٢) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ٢١/٨٧

فالشاهد: أن من العلماء من ضبط الذرة بأنها النملة الصغيرة الحمراء.

فإن قال قائل: إن العلم الحديث وضح أن الذرة تنقسم إلى الكترون وبروتون، وكل هذا لا يرى بالعين المجردة، فلماذا فسرت الذرة بهذا التفسير الذي هو النملة؟ فالإجابة أن الله خاطب الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصغر شيء في أعينهم وهو النملة الصغيرة الحمراء.

والقول الثاني: إنها ذرة الغبار التي تكون في شعاع الشمس في الغرفة التي يدخلها ثقب، على ما قاله بعض العلماء، وكان هذا أصغر شيء يتخيله العرب، لكن أصغر منه أثبت أيضا في كتاب الله: ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك﴾ [يونس:٦١] فأثبت الذي هو أصغر من الذرة، فيندرج تحته ما اكتشف مؤخرا ﴿ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ [يونس:٦١] .

فقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة﴾ [الزلزلة:٧] حتى الذرة، ولذلك فقد روي عن أم المؤمنين عائشة أنها كانت إذا أتاها سائل لا تبخل عليه بالصدقة، ولو بتمرة، وتقول: سبحان الله! كم في التمرة من ذرات، والله يقول: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾ [الزلزلة:٧] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة جارتها ولو فرس شاة) أي: لا تحقرن جارة الهدية أن تهديها إلى جارتها أو تقبلها من جارتها ولو كانت الهدية هذه حافر شاة أو رجل شاة، وإذا أهديت أيتها المسلمة أو إذا رغبت في الإهداء وليس عندك شيء فلا تستقلي الهدية أن تهديها، وإن كانت قليلة فبادري بإخراجها ولا تحتقريها، فكم فيها من ذرات.

والوجه الثاني: إذا أهدت لك أيتها المسلمة أختك شيئا فاقبليه، فالهدية في أصلها دليل على المحبة، ومن ثم حس بعض العلماء حديث: (تهادوا تحابوا) ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها.

فالشاهد: أنه على العبد ألا يستقل أعمال البر ولا يستصغر أعمال الشر كذلك، فقد ترى العمل في عينيك يسيرا ولكنه عند الله كبير، قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث لما مر بالقبرين (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير -أي: في أنظاركم- بلى إنه كبير) أي: عند الله سبحانه وتعالى.

فقد تتكلم بكل بساطة في عرض مسلم وتظن أنك ما فعلت شيئا وأنت قد أكلت لحما ميتا، ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾ [الحجرات:١٢] ، وقد تقدم عن أنس بن مالك كما في البخاري (إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، إنا كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات) أي: من المهلكات.

فالله يقول: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ [الزلزلة:٧-٨] هذا النص عام تندرج تحته كل أفعال البر وكل أفعال الشر، وقد استدل به الرسول صلى الله عليه وسلم لما ذكر حديثا في فضل الخيل، فسأله سائل: يا رسول الله! والحمر -أي: والحمير يا رسول الله ما القول فيها إذا احتبستها في سبيل الله- (فقال: ما أنزل علي فيها إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ [الزلزلة:٧-٨]) .

فأفادت الآية أن كل شيء يفعله العبد مثبت، حتى **خائنة الأعين** مثبتة، اللفظ الذي يتلفظه العبد مثبت، حركة اليد مثبتة، قال تعالى: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر * وكل صغير وكبير مستطر﴾ [القمر:٥٢-٥٣] ، وقال: ﴿ما يلفظ من قول إلا

لديه رقيب عتيد﴾ [ق:١٨] ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا﴾ [الكهف:٤٩] ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا﴾ [آل عمران:٣٠] ، فالأمر كما قال سبحانه: ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ [المجادلة:٦] .

قال تعالى: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ [الزلزلة:٨] ، لقد صحح بعض العلماء حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لـ عائشة: (يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإنهن إذا اجتمعن على رجل يهلكنه -وفي رواية-: كقوم نزلوا ببطن واد، فجمع هذا عودا، وجمع هذا عودا، حتى جمعوا حطبا كثيرا فأنضجوا لحمهم) أو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم، وكما قال الشاعر: لا تحقرن من الذنوب صغيرها إن الصغير غدا يعود كبيرا إن الصغير وإن تضاءل قدره عند الإله مسطر تسطيرا فجدير بكل عبد أن يحدث توبة لكل ذنب.

والله الموفق.." (١)

"كانوا من أصل أو أصول شتى ﴿فاحشة﴾ الفاحشة هي الشيء الذي تناهى قبحه والمراد بها هنا الطواف حول البيت عراة وكل أمر قبيح يسمى فاحشة، والفحشاء ما اشتد قبحه من الذنوب كالفاحشة.

التفسير: ﴿المص﴾ تقدم في أول سورة البقرة الكلام عن الحروف المقطعة وأن الحكمة في ذكرها بيان «إعجاز القرآن» بالإشارة إلى أنه مركب من أمثال هذه الحروف ومع ذلك فقد عجز بلغاؤهم وفصحاؤهم وعباقرتهم عن الإتيان بمثله وروي عن ابن عباس معناه: أنا الله أعلم وأفصل، وقال أبو العالية: الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد والصاد مفتاح اسمه صادق ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي هذا كتاب أنزله الله إليك يا محمد وهو القرآن ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي لا يضق صدرك من تبليغه خوفا من تكذيب قومك ﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ أي لتنذر بالقرآن من يخاف الرحمن، ولتذكر وتعظ به المؤمنين لأنهم المنتفعون به ﴿اتبعوا مآ أنزل إليكم من ربكم﴾ أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان المنزل إليكم من ربكم ﴿ولا تتبعوا من دونه أوليآء﴾ أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله كالأوثان والرهبان والكهان تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرعون لكم ﴿قليلا ما تذكرون﴾ أي تتذكرون تذكرا قليلا قال الخازن: أي ما تتعظون إلا قليلا ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ أي وكثير من القرى أهلكناها والمراد بالقرية أهلها ﴿فجآءها بأسنا بياتا﴾ أي جاءها عذابنا ليلا ﴿أو هم قآئلون﴾ أي جاءهم العذاب في وقت القيلولة وهي النوم في وسط النهار قال أبو حيان: وخص مجيء البأس بهذين الوقتين لأنهما وقتان للسكون والدعة والاستراحة فمجيء العذاب فيهما أشق وأفظع لأنه يكون على غفلة من المهلكين ﴿فما كان دعواهم إذ جآءهم بأسنآ﴾ أي ما كان دعاؤهم واستغاثتهم حين شاهدوا العذاب ورأوا أماراته ﴿إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي إلا اعترافهم بظلمهم تحسرا وندامة، وهيهات أن ينفع الندم ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ أي لنسألن الأمم قاطبة هل بلغكم الرسل وماذا أجبتم؟ والمقصود من هذا السؤال التقريع والتوبيخ للكفار ﴿ولنسألن المرسلين﴾ أي لنسألن الرسل أيضا هل بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة؟ قال في البحر: وسؤال الأمم

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي مصطفى العدوي ١٠/١٠٠

تقرير وتوبيخ يعقب الكفار والعصاة نكالا وعذابا، وسؤال الرسل تأنيس يعقب الأنبياء كرامة وثوابا ﴿فلنقصن عليهم بعلم﴾ أي فلنخبرنهم بما فعلوا عن علم منا قال ابن عباس: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿وما كنا غآئبين﴾ أي ما كنا غائبين عنهم حتى يخفى علينا شيء من أحوالهم قال ابن كثير: يخبر تعالى عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير: وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء بل هو العالم **بخائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ أي والوزن للأعمال يوم القيامة كائن بالعدل ولا يظلم ربك أحدا ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ أي فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان وكثرة الحسنات ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي الناجون غدا من العذاب الفائزون." (١)

"ومع هذا المنهج الصحيح لفهم الأسماء والصفات، فلا بد أن ينضم إليه العناية بآثارها القلبية، والتعبد لله عز وجل ودعائه بها، حتى يتم الإيمان بالأسماء والصفات كما آمن با سلف الأمة الذين جمعوا بين الفهم والعمل، ونظروا إلى كل اسم من أسماء الله عز وجل بأن فيه حقا من العبودية لله عز وجل على العباد يتعبدون لله سبحانه وتعالى به.

وهذه الآثار التي يورثها الإيمان بأسماء الله وصفاته يبينها ابن القيم، فيقول: "والأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية، والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين، فكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، عني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضرر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق، والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطنا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرا، وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه، وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وأن يعلم السر وأخفى، ويعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه، فيثمر له ذلك الحياء باطنا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره، وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة، والباطنة بحسب معرفته وعلمه، وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعا من العبودية الظاهرة هي من موجباتها، وكذلك علم بكماله وجماله، وصفاته العلى يوجب خاصة بمنزلة أنواع العبودية فرجعت العبودية، كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات"١.

---

١ مفتاح دار السعادة لابن القيم "٢/ ١٠٥".." (٢)

"الغريب: ابن زيد، بيوت التجار فيها أمتعة الناس.

العجيب: ابن الحنفية: بيوت مكة.

قوله: (فيها) صفة للبيوت، (متاع) رفع بما تضمن من معنى الفعل.

---

(١) صفوة التفاسير محمد علي الصابوني ٤٠٥/١

(٢) طريق الهداية مبادىء ومقدمات علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة محمد يسري ص/٢٦٥

ويجوز أن يرتفع بالابتداء "فيها" خبره، والجملة صفة للبيوت.

الغريب: (فيها) متصل بالبيوت، (متاع) خبر مبتدأ محذوف، أي ذلك متاع لكم.

قوله: (يغضوا من أبصارهم) .

"من" اللتبعيض، وهو ترك النظر إلى ما لا يحل، وقيل: في بعض الأوقات والغض: أن يداني بين جفنيه من غير ملاقاة.

الغريب: أي إذا دخلتم بيوت غيركم فغضوا من أبصاركم، فإن الله (يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور) .

قوله: (يغضضن من أبصارهن) .

ليس لهن أن ينظرن إلى الرجال. كما ليس للرجال أن ينظروا إليهن.

قوله: (أو إخواهن أو بني إخواهن) ، لم يذكر في الآية العم والخال لمكان أبنائهم.

قوله: (أو التابعين غير أولي الإربة) ، قيل: الصبي.

الشعبي: العنين. ابن جير: الابله. وقيل: الشيخ الهرم وقيل: المجبوب. وقيل: الخصي.

الغريب: عكرمة: المخنث الذي لا يقوم زبه.." [١]

"قوله: (يلقي الروح)

أي يرسل جبريل، وقيل: ينزل القرآن.

وقيل: الوحي، وقيل: الرحمة.

الغريب: الروح، روح العبد.

وقوله: (من أمره) حال للروح.

قوله: (يوم التلاق (١٥) مفعول به.

(يوم هم بارزون) .

بدل، و "هم بارزون" جملة في محل جر بالإضافة، والضمير في "لينذر" يعود إلى الله سبحانه، وقيل: إلى "من يشاء"

الغريب: يعود إلى الروح.

قوله: (لمن الملك اليوم)

---

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل الكرماني، برهان الدين ٢/٧٩٥

ذهب جماعة من المفسرين إلى: أن الله

يقول ذلك حين لا يبقى من يجيبه، فيجيب الله نفسه، فيقول: (لله الواحد القهار) ، وزيف هذا القول جماعة منهم، فقالوا: إذا لم يكن من يجيب

فلا وجه للسؤال ولا للجواب إذا لم يكن من يسمع، بل يقول الله ذلك

للخلائق فيجيب الجميع لله الواحد القهار، يقول المؤمن تلذذا، ويقول

الكافر صغارا وذلة وندامة.

الغريب: ابن بحر، خرج الكلام مخرج السؤال والجواب، والمعنى

معنى الإخبار، أي يري عباده أنه ملكهم.

وقوله: (كاظمين) .

حال من الضمير في "أنذر".

الغريب: حال عن القلوب محمول على أصحابها.

قوله: (**خائنة الأعين**) .

مصدر كالكاذبة والخاطئة، ونسبة الخيانة إلى العين توسع، وهي

النظر إلى المحرمات.." (١)

"عمهم الله بعذاب من عنده.

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٢٦ الى ٢٨]

واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون (٢٦) يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون (٢٧) واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم (٢٨)

الخطاب بقوله: واذكروا إذ أنتم قليل للمهاجرين، أي: اذكروا وقت قلتكم، ومستضعفون خبر ثان للمبتدأ، والأرض: هي أرض مكة، والخطف: الأخذ بسرعة، والمراد بالناس: مشركو قريش وقيل: فارس والروم فآواكم يقال: آوى إليه بالمد وبالقصر بمعنى: انضم إليه. فالمعنى: ضمكم الله إلى المدينة أو إلى الأنصار وأيدكم بنصره أي: قواكم بالنصر في مواطن الحرب التي منها يوم بدر، أو قواكم بالملائكة يوم بدر ورزقكم من الطيبات التي من جملتها الغنائم لعلكم تشكرون أي: إرادة أن تشكروا هذه النعم التي أنعم بها عليكم، والخون أصله كما في الكشاف: النقص، كما أن الوفاء التمام، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان وقيل معناه: الغدر وإخفاء الشيء، ومنه قوله تعالى: يعلم **خائنة الأعين** «١» نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم، أو يخونوا رسوله بترك شيء مما أمنهم عليه،

---

(١) غرائب التفسير وعجائب التأويل الكرماني، برهان الدين ١٠٢٨/٢

أو بترك شيء مما سنه لهم، أو يخونوا شيئا من الأمانات التي اؤتمنوا عليها، وسميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق، مأخوذة من الأمن، وجملة وأنتم تعلمون في محل نصب على الحال، أي: وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة فتفعلون الخيانة عن عمد، أو وأنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل، ثم قال: واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة
لأنهم سبب الوقوع في كثير من الذنوب، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده، وإن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا، كما في الآية الأخرى وأن الله عنده أجر عظيم
فآثروا حقه على أموالكم وأولادكم، ليحصل لكم ما عنده من الأجر المذكور.
وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة في قوله: واذكروا إذ أنتم قليل قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلا، وأشقاه عيشا، وأجوعه بطونا، وأعراه جلودا، وأبينه ضلالة، من عاش عاش شقيا، ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، لا والله ما نعلم قبيلا من حاضري الأرض يومئذ كان أشر منزلا منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله عز وجل. وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله يتخطفكم الناس قال: في الجاهلية بمكة فآواكم إلى الإسلام. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب في قوله: يتخطفكم الناس قال: الناس إذ ذاك فارس والروم.

---

(١) . غافر: ١٩.." (١)

"تلقون عدوكم فليكن شعاركم حم لا ينصرون» . وأخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ذي الطول قال: ذي السعة والغنى. وأخرج الطبراني في الأوسط، وابن مردويه عن ابن عمر في قوله: غافر الذنب الآية قال: غافر الذنب لمن يقول لا إله إلا الله قابل التوب ممن يقول لا إله إلا الله شديد العقاب لمن لا يقول لا إله إلا الله ذي الطول ذي الغنى لا إله إلا هو كانت كفار قريش لا يوحدونه فوحد نفسه إليه المصير مصير من يقول لا إله إلا الله فيدخله الجنة، ومصير من لا يقول لا إله إلا الله فيدخله النار. وأخرج عبد بن حميد عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن جدالا في القرآن كفر» . وأخرج عبد بن حميد، وأبو داود عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مراء في القرآن كفر» .

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ١٠ الى ٢٠]
إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون (١٠) قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل (١١) ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير (١٢) هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٣٤٤/٢

مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (١٤)
رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب (١٧) وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع (١٨) يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩)
والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير (٢٠)
لما ذكر سبحانه حال أصحاب النار، وأنها حقت عليهم كلمة العذاب، وأنهم أصحاب النار ذكر أحوالهم بعد دخول النار فقال: إن الذين كفروا ينادون. قال الواحدي قال المفسرون: إنهم لما رأوا أعمالهم، ونظروا في كتابهم، وأدخلوا النار، ومقتوا أنفسهم بسوء صنيعهم ناداهم حين عاينوا عذاب الله مناد لمقت الله إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم. قال الأخفش: هذه اللام في لمقت هي لام الابتداء أوقعت بعد ينادون، لأن معناه يقال لهم، والنداء قول. قال الكلبي: يقول كل إنسان لنفسه من أهل النار: مقتك يا نفس، فتقول الملائكة لهم وهم في النار: لمقت الله إياكم في الدنيا أشد من مقتكم أنفسكم اليوم. وقال الحسن: يعطون كتابهم، فإذا نظروا إلى سيئاتهم مقتوا أنفسهم، فينادون:
لمقت الله إياكم في الدنيا إذ تدعون إلى الإيمان أكبر من مقتكم أنفسكم إذ عاينتم النار، والظرف في إذ تدعون منصوب بمقدر محذوف دل عليه المذكور، أي: مقتكم وقت دعائكم، وقيل: بمحذوف هو." (١)
"فلا يجيبه أحد فيجيب تعالى نفسه، فيقول: لله الواحد القهار قال الحسن: هو السائل تعالى، وهو المجيب حين لا أحد يجيبه فيجيب نفسه، وقيل: إنه سبحانه يأمر مناديا ينادي بذلك، فيقول أهل المحشر مؤمنهم وكافرهم: لله الواحد القهار وقيل: إنه يجيب المنادي بهذا الجواب أهل الجنة دون أهل النار، وقيل:
هو حكاية لما ينطق به لسان الحال في ذلك اليوم لانقطاع دعاوى المبطلين، كما في قوله تعالى: وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله «١» وقوله:
اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب من تمام الجواب على القول بأن المجيب هو الله سبحانه، وأما على القول بأن المجيب هم العباد كلهم أو بعضهم فهو مستأنف لبيان ما يقوله الله سبحانه بعد جوابهم، أي: اليوم تجزى كل نفس بما كسبت من خير وشر لا ظلم اليوم على أحد منهم بنقص من ثوابه أو بزيادة في عقابه إن الله سريع الحساب أي: سريع حساب لأنه سبحانه لا يحتاج إلى تفكر في ذلك كما يحتاجه غيره لإحاطة علمه بكل شيء فلا يعزب عنه مثقال ذرة. ثم أمر الله سبحانه رسوله بإنذار عباده فقال: وأنذرهم يوم الآزفة أي: يوم القيامة سميت بذلك لقربها، يقال أزف فلان: أي قرب، يأزف أزفا، ومنه قول النابغة:
أزف الترحل غير أن ركابنا ... لما تزل بركابنا وكأن قد

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٤/٥٥٤

ومنه قوله تعالى: أزفت الآزفة «٢» أي: قربت الساعة، وقيل: إن يوم الآزفة هو يوم حضور الموت، والأول أولى. قال الزجاج: وقيل: لها آزفة لأنها قريبة، وإن استبعد الناس أمرها، وما هو كائن فهو قريب إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين وذلك أنها تزول عن مواضعها من الخوف حتى تصير إلى الحنجرة كقوله: وبلغت القلوب الحناجر «٣» كاظمين مغمومين، مكروبين، ممتلئين غما. قال الزجاج:

المعنى إذ قلوب الناس لدى الحناجر في حال كظمهم. قال قتادة: وقعت قلوبهم في الحناجر من المخافة، فهي لا تخرج ولا تعود في أمكنتها. وقيل: هو إخبار عن نهاية الجزع، وإنما قال كاظمين باعتبار أهل القلوب، لأن المعنى: إذ قلوب الناس لدى حناجرهم، فيكون حالا منهم. وقيل: حالا من القلوب، وجمع الحال منها جمع العقلاء لأنه أسند إليها ما يسند إلى العقلاء، فجمعت جمعه. ثم بين سبحانه أنه لا ينفع الكافرين في ذلك اليوم أحد فقال: ما للظالمين من حميم أي: قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع في شفاعته لهم، ومحل يطاع الجر على أنه صفة لشفيع. ثم وصف سبحانه شمول علمه لكل شيء وإن كان في غاية الخفاء فقال: يعلم **خائنة الأعين** وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، والجملة خبر آخر لقوله: هو الذي يريكم قال المؤرج: فيه تقديم وتأخير، أي: يعلم الأعين الخائنة. وقال قتادة: **خائنة الأعين:**

الهمز بالعين فيما لا يحب الله. وقال الضحاك: هو قول الإنسان ما رأيت، وقد رأى، ورأيت وما رأى.

وقال سفيان: هي النظرة بعد النظرة. والأول أولى، وبه قال مجاهد وما تخفي الصدور من الضمائر وتسره من معاصي الله والله يقضي بالحق فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير وشر والذين يدعون من دونه

---

(١) . الانفطار: ١٧- ١٩.

(٢) . النجم: ٥٧.

(٣) . الأحزاب: ١٠.." (١)

"أي: تعبدونهم من دون الله لا يقضون بشيء لأنهم لا يعلمون شيئا، ولا يقدرون على شيء: قرأ الجمهور «يدعون» بالتحتية يعني: الظالمين، واختار هذه القراءة أبو عبيد، وأبو حاتم، وقرأ نافع، وشيبة، وهشام بالفوقية على الخطاب لهم إن الله هو السميع البصير فلا يخفى عليه من المسموعات والمبصرات خافية.

وقد أخرج الفريابي، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله: أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين قال: هي مثل التي في البقرة كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم «١» كانوا أمواتا في صلب آبائهم ثم أخرجهم فأحياهم ثم أماتهم ثم يحييهم بعد الموت.

وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: كنتم ترابا قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة، فما موتتان وحياتان كقوله: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم الآية.

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٥٥٧/٤

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: يوم التلاق قال: يوم القيامة يلتقي فيه آدم وآخر ولده.

وأخرج عنه أيضا قال: يوم التلاق يوم الآزفة، ونحو هذا من أسماء يوم القيامة يلتقي فيه آدم وآخر ولده.

وأخرج عنه أيضا قال: يوم التلاق يوم الآزفة، ونحو هذا من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وأبو نعيم في الحلية عنه أيضا قال: ينادي مناد بين يدي الساعة: يا أيها الناس أتتكم الساعة، فيسمعها الأحياء والأموات، وينزل الله إلى السماء الدنيا فيقول: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار. وأخرج ابن أبي الدنيا في البعث، والديلمي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله. وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود قال: «يجمع الله الخلق يوم القيامة بصعيد واحد بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط، فأول ما يتكلم أن ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب فأول ما يبدأ به من الخصومات الدماء» . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور قال: الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها، وإذا غفلوا لحظ إليها، وإذا نظروا غض بصره عنها، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها.

وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب عنه في الآية قال: إذا نظر إليها يريد الخيانة أو لا وما تخفي الصدور قال: إذا قدر عليها أيزني بها أم لا؟ ألا أخبركم بالتي تليها والله يقضي بالحق قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة.

وأخرج أبو داود، والنسائي، وابن مردويه عن سعد قال: «لما كان يوم فتح مكة أمن النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد ابن أبي سرح، فاختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة جاء به، فقال:

يا رسول الله بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى بيعته، ثم بايعه، ثم أقبل على أصحابه

---

(١) . البقرة: ٢٨.." (١)

"فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أومأت إلينا بعينك؟ فقال: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له **خائنة الأعين»** .

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٢١ الى ٢٩]

أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب (٢٢) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣) إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤) فلما

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٤/٥٥٨

جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد (٢٦) وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب (٢٧) وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨) يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد (٢٩)

لما خوفهم سبحانه بأحوال الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال: أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم أرشدهم سبحانه إلى الاعتبار بغيرهم، فإن الذين مضوا من الكفار كانوا هم أشد منهم قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار وأقوى وآثارا في الأرض بما عمروا فيها من الحصون والقصور وبما لهم من العدد والعدة، فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله، وقوله:

فينظروا إما مجزوم بالعطف على يسيروا، أو منصوب بجواب الاستفهام، وقوله: كانوا هم أشد منهم قوة بيان للتفاوت بين حال هؤلاء وأولئك، وقوله: وآثارا عطف على قوة. قرأ الجمهور «أشد منهم» وقرأ ابن عامر «أشد منكم» على الالتفات فأخذهم الله بذنوبهم أي: بسبب ذنوبهم وما كان لهم من الله من واق أي من دافع يدفع عنهم العذاب، وقد مر تفسير هذه الآية في مواضع، والإشارة بقوله: ذلك إلى ما تقدم من الأخذ بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات أي: بالحجج الواضحة فكفروا بما جاءوهم به فأخذهم الله إنه قوي يفعل كل ما يريده لا يعجزه شيء شديد العقاب لمن عصاه ولم يرجع إليه، ثم ذكر سبحانه قصة موسى وفرعون ليعتبروا فقال: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا هي التسع الآيات التي قد تقدم ذكرها في غير موضع وسلطان مبين أي: حجة بينة واضحة، وهي التوراة إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا إنه ساحر كذاب أي: فيما جاء به، وخصهم بالذكر لأنهم رؤساء المكذبين بموسى، ففرعون الملك، وهامان الوزير، وقارون صاحب الأموال." (١)

"قيامه الكل مؤجلة، وقيامة المحبين معجلة فلهم في كل نفس قيامة من العقاب والعذاب والثواب، والبعاد والاقتراب، وما لم يكن لهم في حساب «١» ، وتشهد عليهم الأعضاء فالدمع يشهد، وخفقان القلب ينطق، والنحول يخبر، واللون يفصح ... والعبد يستر ولكن البلاء يظهر:

يا من تغير صورتى لما بدا ... لجميع ما ظنوا بنا تصديقا «٢»

وأنشدوا:

لى في محبته شهود أربع ... وشهود كل قضية اثنان

ذوبان جسمى وارتعاد مفاصلى ... وخفوق قلبى واعتقال لسانى

وقلوبهم- إذا أزف الرحيل بلغت الحناجر، وعيونهم شرقت بدموعها إذا نودى بالرحيل وشدت الرواحل.

قوله جل ذكره:

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٥٥٩/٤

[سورة غافر (٤٠) : آية ١٩]

يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩)

فخائنة أعين المحبين استحسانهم شيئا، ولهذا قالوا:

يا قرة العين: سل عيني هل اكتحلت ... بمنظر حسن مذ غبت عن بصري؟

ولذلك قالوا:

فعيني إذا استحسنت غيركم ... أمرت السهاد بتعذيبها

---

(١) أي وما لم يخطر لهم ببال.

(٢) معنى الشاهد الشعرى فيما نظن: يا أيها الذي تتغير صورتى عند تجليه علي، فينكشف أمرى رغم محاولتى ستر حالى، وبذا تصدق ظنون العاذلين واللائمين. [.....]."[1]

"﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين﴾، وقوله: ﴿فجآءها بأسنا بياتا أو هم قآئلون﴾ أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بياتا﴾ أي ليلا ﴿أو هم قآئلون﴾ من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو، كما قال: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نآئمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون﴾، وقال: ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم

فما هم بمعجزين﴾،

وقوله: ﴿فما كان دعواهم إذ جآءهم بأسنآ إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا، كقوله تعالى: ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة - إلى قوله - خامدين﴾، قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم»، وقوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ الآية، كقوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذآ أجبتم المرسلين﴾، وقوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذآ أجبتم؟ قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين﴾ قال: عما بلغوا.

وعن ابن عمر قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده»، ثم قرأ: ﴿فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين﴾ (رواه ابن مردويه، وهو مخرج في الصحيحين بدون زيادة قوله ثم قرأ الآية)، وقال ابن عباس في قوله:

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٣٠٢/٣

﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غآئبين﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿وما كنا غآئبين﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء بل هو العالم **بخائنة الأعين** وما تخفي الصدور ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.." (١)

"[١٣] ﴿هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا﴾ [غافر: ١٣] يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق، ﴿وما يتذكر﴾ [غافر: ١٣] وما يتعظ بهذه الآيات ﴿إلا من ينيب﴾ [غافر: ١٣] يرجع إلى الله تعالى في جميع أموره.

[١٤] ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ [غافر: ١٤] الطاعة والعبادة. ﴿ولو كره الكافرون﴾ [غافر: ١٤]

[١٥] ﴿رفيع الدرجات﴾ [غافر: ١٥] رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة ﴿ذو العرش يلقي الروح﴾ [غافر: ١٥] ينزل الوحي، سماه روحا لأنه تحيا به القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح، ﴿من أمره﴾ [غافر: ١٥] قال ابن عباس: من قضائه. وقيل: من قوله. وقال مقاتل: بأمره. ﴿على من يشاء من عباده لينذر﴾ [غافر: ١٥] أي لينذر النبي بالوحي، ﴿يوم التلاق﴾ [غافر: ١٥] وقرأ يعقوب بالتاء أي لتنذر أنت يا محمد يوم التلاق، يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض. وقال قتادة: ومقاتل: يلتقي فيه الخلق والخالق. قال ابن زيد: يتلاقى العباد. وقال ميمون بن مهران: يلتقي الظالم والمظلوم والخصوم. وقيل: يلتقي العابدون والمعبودون. وقيل: يلتقي فيه المرء مع عمله.

[١٦] ﴿يوم هم بارزون﴾ [غافر: ١٦] خارجون من قبورهم ظاهرون لا يسترهم شيء، ﴿لا يخفى على الله منهم﴾ [غافر: ١٦] من أعمالهم وأحوالهم، ﴿شيء﴾ [غافر: ١٦] ويقول الله تعالى في ذلك اليوم بعد فناء الخلق، ﴿لمن الملك اليوم﴾ [غافر: ١٦] فلا أحد يجيبه فيجيب بنفسه فيقول، ﴿لله الواحد القهار﴾ [غافر: ١٦] الذي قهر الخلق بالموت.

[قوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم] اليوم إن الله سريع الحساب. . .

[١٧] ﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾ [غافر: ١٧] يجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ﴿لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ [غافر: ١٧]

[١٨] ﴿وأنذرهم يوم الآزفة﴾ [غافر: ١٨] يعني يوم القيامة سميت بذلك لأنها قريبة إذ كل ما هو آت قريب، نظيره قوله عز وجل: ﴿أزفت الآزفة﴾ [النجم: ٥٧] أي قربت القيامة. ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ [غافر: ١٨] وذلك أنها تزول عن أماكنها من الخوف حتى تصير إلى الحناجر، فهي لا تعود إلى أماكنها وهي لا تخرج من أفواههم فيموتوا ويستريحوا، ﴿كاظمين﴾ [غافر: ١٨] مكروبين ممتلئين خوفا وحزنا، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن في القلب حتى يضيق به. ﴿ما للظالمين من حميم﴾ [غافر: ١٨] قريب ينفعهم، ﴿ولا شفيع يطاع﴾ [غافر: ١٨] فيشفع فيهم.

[١٩] ﴿يعلم **خائنة الأعين**﴾ [غافر: ١٩] أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل. قال مجاهد: نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه. ﴿وما تخفي الصدور﴾ [غافر: ١٩]

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني ٦/٢

[٢٠] ﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه﴾ [غافر: ٢٠] يعني الأوثان، ﴿لا يقضون بشيء﴾ [غافر: ٢٠] لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر على شيء ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ [غافر: ٢٠]

[٢١] ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض﴾ [غافر: ٢١]." (١)

"بدليل قراءة لينذر يوم التلاق على البناء للمفعول، ورفع «يوم» وسمي يوم القيامة بيوم التلاق، لأن الأرواح متلاقية للأجساد، ولأن الخلائق يتلاقون فيه، فيقف بعضهم على حال بعض، ولأنه يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، ولأن كل أحد يصل إلى جزاء عمله ويلتقي فيه العابدون والمعبودون ويلتقي فيه الظالم والمظلوم، يوم هم بارزون أي خارجون عن بواطن القبور، وظاهرون لا يسترهم شيء من جبل وغيره، وليس عليهم ثياب، وتظهر أعمالهم وتنكشف أسرارهم، لا يخفى على الله منهم شيء فيعلم ما فعله كل واحد منهم فيجازي كلا منهم بحسبه إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشر، وينادي مناد: لمن الملك اليوم فيجيبه أهل المحشر: لله الواحد القهار (١٦) ، أي الذي قهر الخلق بالموت، فالمؤمنون يقولونه تلذذا بهذا الكلام حيث نالوا المنزلة الرفيعة، والكفار يقولونه على وجه التحسر والندامة على ما فاتهم في الدنيا، اليوم تجزى كل نفس برة أو فاجرة، بما كسبت من خير أو شر لا ظلم اليوم بنقص ثواب، أو زيادة عذاب، أي يقال لهم: إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده اليوم تجزى إلخ. إن الله سريع الحساب (١٧) ، إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر، ف «إذ» بدل من يوم الآزفة، أي وأنذرهم يوم القرب من العذاب، ومشارفتهم دخول النار، فعند ذلك ترتفع قلوبهم من أماكنها، فتلتصق بحلوقهم من شدة الخوف، كاظمين أي مغمومين يتردد الغيظ في أجوافهم، فلا يمكنهم أن ينطقوا ويبينوا خوفهم، ما للظالمين من حميم أي قريب مشفق، ولا شفيع يطاع (١٨) أي ولا شفيع مقبول شفاعته، يعلم **خائنة الأعين** أي استراق النظر إلى ما لا يحل، وما تخفي الصدور (١٩) أي مضمرات القلوب، والله يقضي بالحق إذا علم المذنب أن الله لا يحكم إلا بالحق في كل ما دق وجل، كان خوف المذنب من الله في الغاية القصوى. والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء أي والذين يعبدونهم من دون الله تعالى من الأوثان، لا يصنعون شيئا من الشفاعة يوم القيامة، ولا يأمرون بخير في الدنيا، فإن الكفار إنما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الأصنام، فلذلك بين الله تعالى أنه لا فائدة فيها ألبتة بهذه الآية.

وقرأ نافع وهشام «تدعون» بتاء الخطاب إن الله هو السميع البصير (٢٠) أي يسمع من الكفار ثناءهم على الأصنام، ويبصر سجودهم لهم ولا يسمع منهم ثناءهم على الله، ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله.

أولم يسيروا في الأرض أي أغفلوا ولم يسافروا في الأرض فيعتبروا بمن قبلهم فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم كانوا هم أي الذين مضوا من الكفار أشد منهم أي من هؤلاء الحاضرين من الكفار قوة، أي قدرة على التصرفات.." (٢)

---

(١) مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل عبد الله الزيد ٨٢٦/٦

(٢) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد نووي الجاوي ٣٤٥/٢

"فيلتصق بالحنجرة فلا يرجع إلى مكانه ولا يخرج فيستراح من كرب غمه.

(ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع).

(يطاع) من صفة شفيع، أي ولا من شفيع مطاع.

* * *

(يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور (١٩)

إذا نظر الناظر نظرة خيانة علمها الله، فإذا نظر أول نظرة غير متعمد
خيانة فذلك غير إثم، فإن عاد ونيته الخيانة في النظر علم الله ذلك، والله
- عز وجل - عالم الغيب والشهادة، ولكنه ذكر العلم ههنا ليعلم أن المجازاة لا محالة واقعة.

* * *

وقوله - جل وعز -: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٢٣)

أي بعلاماتنا التي تدل على صحة نبوته، من العصا وإخراج يده بيضاء
من غير سوء وأشباه ذلك.

(وسلطان مبين) أي حجة ظاهرة.

* * *

(إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب (٢٤)

هذه الأسماء. في موضع خفض إلا أنها فتحت لأنها لا تنصرف لأنها
معرفة وهي أعجمية.

(فقالوا ساحر كذاب).

المعنى فقالوا هو ساحر كذاب، جعلوا أمر الآيات التي يعجز عنها
المخلوقون سحرا.

* * *

(فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال (٢٥)."
(١)

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج الزجاج ٤/ ٣٧٠

"مطلقا لا لكونه من قائل معين: ﴿ثم قيل لهم﴾ أي بعد أن طال عذابهم، وبلغ منهم كل مبلغ، ولم يجدوا ناصرا يخلصهم ولا شافعا يخصصهم: ﴿أين﴾ والتعبير عنهم بأداة ما لا يعقل في أحكم مواضعه في قوله: ﴿ما كنتم﴾ أي دائما ﴿تشركون *﴾ أي بدعائكم لهم في مهماتكم دعاء عبادة مع تجديده في كل وقت؛ ثم بين سفولهم بقوله لافتا القول عن مظهر العظمة إلى أعظم منه فقال: ﴿من دون الله﴾ أي المحيط بجميع العز وكل العظمة، لتطلبوا منهم تخليصكم مما أنتم فيه أو تخفيفه: ﴿قالوا﴾ أي مسترسلين مع الفطرة وهي الفطرة الأولى على الصدق: ﴿ضلوا عنا﴾ فلا نراهم كما ضللنا نحن في الدنيا عما ينفعنا.

ولما رأوا أن صدقهم قد أوجب اعترافهم بالشرك، دعتهم رداءة المكر ورذالة الطباع إلى الكذب، فاسترسلوا معها فبادروا أن أظهروا الغلط فقالوا ملبسين على من يعلم **خائنة الأعين** وما تخفي الصدور ظانين أن ذلك ينفعهم كما كان ينفعهم عند المؤمنين في دار الدنيا: ﴿بل لم نكن ندعو﴾ أي لم يكن ذلك في طباعنا. ولما كان مرادهم نفي دعائهم أصلا ورأسا في لحظة فما فوقها، لا النفي المقيد بالاستغراق، فإنه لا ينفي ما دونه، أثبتوا الجار فقالوا: ﴿من قبل﴾ أي قبل هذه." (١)

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١١٦/١٧